بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اسم المؤلف :

السيد عمار الحكيم

عنوان الكتاب:

الأخوة الإيمانية

الطبعة:

الثانية - ٢٠٢٤

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9922-9207-9-5

التوزيع:

دار إنكي للنشر والتوزيع

التدقيق اللغوي

د. زهير الأرناؤوطي

الأشراف الفني

نور فائز الأعرجي

طباعة

DBOUK
info@dboukart.com

الناشـــر

مـؤسسـة إنـكـي
للدراسات والبحوث

- العراق / بغداد / الجادرية / جسر ذي الطابقين

- العراق / بغداد / شارع المتنبي / مقابل مقهى الشابندر / قرب مصرف الرشيد

info@enke.iq https//enke.iq inky.publishing@gmail.com 009647702682518

الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّة

السَّيِّد عمَّار الحكيم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين، وبعد

فهذا واحد من أهم الكتب التي رسخ السيد عمار الحكيم فيها أسس ومفاهيم موضوع الأخوّة الإيمانية، وهي مبادئ سامية تحمل جذوة أخلاقية تتكفل بالتراحم والتواصل بين الإخوة. وهذا مبدأ مهم ينبغي أن يحظى بالبحث اللائق به.

وقد قُسّم البحث على ستة محاور:

الأول: تعريف الأخوّة الإيمانية.

الثاني: أقسام الأخوّة الإيمانية وأهميتها.

الثالث: حقوق الأخوّة الإيمانية.

الرابع: جذور الأخوّة الإيمانية.

الخامس: آثار الأخوّة الإيمانية ومعطياتها.

السادس: طرق تحقيق الأخوّة الإيمانية.

تطرق السيد عمار الحكيم أولًا إلى بحث معنى الإيمان، حتى يُعرف المؤمن، وكيف يمكن أن نبني علاقة مع المؤمن ونحقق الأخوّة الإيمانية؟، ثم بيّن أنّ الإيمان يختلف عن الإسلام؛ فالإسلام هو حالة ظاهرية لا تتطلب من الإنسان أكثر من النطق بالشهادتين، أما الإيمان فهو حالة الانتقال من الادّعاء واللفظ إلى التصديق والتطبيق، ومن الظاهر إلى الباطن، حيث القلب وما ينطوي عليه من إيمان جازم وعقيدة راسخة بما يتلفظ به ويجري على لسانه.

ثم تطرق إلى اقتران الإيمان بالعمل الصالح، إذ لمّا كان الإيمان اعتقادًا قلبيًا، فيجب دائمًا أن يقترن بالعمل الصالح، لأنّ من يعتقد بالإسلام، فمن الطبيعي أن يعبّر عن هذا الاعتقاد بسلوكه وعمله، فالعمل الصالح هو ثمرة ونتاج وأثر من آثار الإيمان، وهو في الوقت نفسه دليل وكاشف وآية وأمارة عن الإيمان، فالعمل الصالح يكشف عن الإيمان، والإيمان يوصل إلى العمل الصالح ويثمر العمل الصالح، فالإيمان والعمل الصالح مقترنان دائمًا ولا ينفصل أحدهما عن الآخر.

ثم استعرض البحث أقسام العلاقة الإيمانية، وتطرق إلى عدد من النصوص الواردة في القرآن الكريم، وعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعن أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، التي تؤكد أهمية هذه الأخوّة وأبعادها وموقعها في مجمل الرؤية الإسلامية، والنظرية الاجتماعية في الإسلام.

ثم انتقل إلى المحور الثالث في هذا البحث القيّم والمهم، الذي تم التركيز عليه بشكل واسع في الآيات والروايات الواردة عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيته الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو الحديث عن حقوق هذه الأخوّة، فكل مؤمن عليه التزام تجاه أخيه المؤمن، وله حق في قبال إخوانه المؤمنين، فالعملية عملية حقوق متبادلة في هذه العلاقة الإيمانية.

وذكر أنّ مراعاة حقوق الأخوّة الإيمانية تحظى بأهمية كبيرة، ولها موقع مميز في مسار الإنسان التكاملي نحو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي إطار الحديث عن الحقوق، استعرض السيد عمار الحكيم ثلاثين حقًا بين المؤمن وأخيه المؤمن، رواها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وبعد استعراض هذه الحقوق الثلاثين وشرحها ومراجعة النصوص الواردة فيها، أكمل السيد عمار الحكيم بحثه المهم باستعراض جذور الأخوّة الإيمانية في المحور الرابع من هذا البحث، حيث ذكر الدوافع الدنيوية والأخروية التي تدفع المؤمن إلى أن يبني علاقة إيمانية مع أخيه المؤمن، وجذور هذه الأخوّة.

وفي المحور الخامس تناول آثار الأخوّة الإيمانية ومعطياتها، مبينًا من خلال النصوص الدينية الشريفة، أن الأخوّة الإيمانية لها آثار عظيمة في الدنيا والآخرة، وهذه الآثار تشمل من يبادر في بناء هذه العلاقة ومن يستجيب لها والمجتمع الذي تسوده العلاقات الإيمانية، ليختم بحثه بالمحور السادس الذي تناول فيه طرق تحقيق الأخوّة الإيمانية، موضحًا أن تحقيق هذه العلاقة وأداء حقوق المؤمنين أمر في غاية الصعوبة،

ولكن هذا لا يمنع من أن يسعى الإنسان إلى أن يبني هذه العلاقة الإيمانية بشكل أوسع، وأن يفي بحقوق إخوانه، مبينًا أن الوسائل والطرق لبناء هذه العلاقة وتعميقها وترسيخها على صنفين؛ هما الوسائل العلمية، والوسائل العملية، واستعرض كلًا منهما بالشرح والتفصيل.

مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث

تمهيد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ماذا تعني الأخلاق؟ وماذا تعني المفاهيم الأخلاقية؟ وماذا نعني بعلم الأخلاق؟.

الإنسان لديه خصال طيبة وخصال سيئة، خصال حميدة وخصال ذميمة، ولكن ما الذي يجعل هذه الخصال حميدة وتلك الخصال ذميمة؟، أي لماذا تكون المحبة والصدق والوفاء والإيثار والتعاون خصالًا حميدة؟ ولماذا تكون الغِيبة والنميمة والكذب خصالًا سيئة؟.. والجواب هو أن الأولى مقربة نحو الله تعالى، في حين تكون الثانية مبعدة عن الله سبحانه وتعالى، وكلما التزمنا وتمسكنا بالخصال الحميدة، كنا أقرب إلى طريق الطاعة، وكلما ابتعدنا عن هذه الخصال وذهبنا باتجاه الخصال الذميمة، كنا أبعد عن الله سبحانه وتعالى.

ووظيفة علم الأخلاق هي تصنيف هذه الخصال؛ أيّ خصلة منها حميدة؟، وأي خصلة منها ذميمة؟، وماذا ينبغي أن نفعل لتكون أخلاقنا حميدة؟، وماذا ينبغي أن نترك لئلا تكون أخلاقنا ذميمة؟. أي يبيّن لنا ما يجب أن نلتزم به وما يجب أن ننتهي عنه ونحذر منه.

وبما أن للإنسان بُعدين؛ بُعد فردي ذاتي، أي كشخص فرد بغض النظر عن المجتمع، وبُعد اجتماعي، الشخص عندما يكون ضمن المجموع، فهذه الخصال الحميدة والذميمة، بعضها للبعد الفردي للإنسان، أي تختص هذه الأخلاق بالإنسان، سواء كان بين مجموعة من الناس أو كان يعيش وحيدًا في صحراء أو في زنزانة انفرادية، فعليه أن يلتزم بأخلاق معينة، وينتهي عن أخرى.

وهناك خصال حميدة أو ذميمة للإنسان في بُعده الاجتماعي، وليس الإنسان كفرد، فالناس عندما يتواصلون بعضهم مع بعض ويشكّلون مجتمعًا ويصيرون جماعة، وقد يكونون في مؤسسة، وقد يكونون في فوج عسكري، وقد يكونون في مدرسة، فما التصرفات التي ينبغي أن يأتوا بها كجماعة؟ وما التصرفات التي ينبغي أن يتركوها كجماعة؟.

وهذه الجوانب التي ترتبط بالعلاقات الإنسانية وبحقوق الآخرين تجاهنا وحقوقنا تجاه الآخرين، نسميها الأخلاق الاجتماعية، فعندنا أخلاق فردية، ترتبط بالخصال الحميدة أو الذميمة للفرد، وعندنا أخلاق اجتماعية ترتبط بالخصال الحميدة أو الذميمة للجماعة، ولا شكَّ في أنّ الحديث عن العلاقات - ونحن جميعًا نتعايش بعضنا مع بعض- هي من هذا النوع.

إنّ الذي يجعل الإنسان يندفع باتجاه الآخر هو أنّه مدنيّ بالطبع، أي إنّ الله سبحانه وتعالى جعل في فطرته أنّه يستوحش من الوحدة والغربة، ولذلك نرى أنهم إذا أرادوا أن يعذبوا أحدًا، يضعونه في غرفة وحده أو في زنزانة انفرادية في السجن، ليعاني مزيدًا من التعذيب بسبب العزلة عن الآخرين، فيستوحش لذلك وربما يُجن، ولكن مهما كانت الظروف، عندما يكون مع آخرين سوف يتعايش معهم ويأنس بهم؛ لأنّ الإنسان بطبعه تواق للتعامل مع الآخرين.

ولما كان الإنسان مدنيًا بالطبع، ولما كان تواقًا إلى أن يتعامل وينفتح على الآخرين ويتعايش معهم، فينبغي أن تتحول هذه النزعة الفطرية عند الإنسان، إلى سبب وإلى طريق يدفعه ويوجهه نحو الله سبحانه وتعالى.

وهنا يبرز السؤال التالي: كيف نجعل هذه العلاقات الاجتماعية علاقات متجهة نحو الله جلّ وعلا؟. وهذا سؤال كبير؛ كيف تصيرعلاقاتنا الاجتماعية علاقات إلهية؟، فالإنسان عندما يبحث عن أُناس لكي يتعامل معهم، فإنّه يبحث عن نمط من الناس يشاركونه ويشاطرونه نفس العقيدة التي يؤمن بها.

فالإنسان ينجذب عادة لمن يشاركه قناعاته الخاصة ويؤمن بنفس ما يؤمن به، ونراه ينفر ويبتعد عن المحيط الذي لا يحترم عقيدته، فيستوحش من الناس الذين هم حوله، ولكنه يأنس بالناس الذين يعرفهم ويعرفونه، وتتطابق عقيدتهم وأفكارهم مع عقيدته وأفكاره، ويشعر بالتجاوب معهم والراحة في الانفتاح عليهم، ولذلك نلاحظ أن الإنسان المؤمن في ديار الغربة، وهو يعيش في أجواء بعيدة كل البعد عن عقيدته وعاداته، يشعر

بالحنين إلى الوطن، ويسعى للعيش مع جاليات تقترب من عقيدته وتقاليده، وإن توفرت له كل أسباب الراحة المادية.

وفي البُعد الاجتماعي تكون العقيدة هي الجامع والرابط الذي يربط الناس بعضهم مع البعض الآخر، وهذا ميل معنوي وروحي، فنرى المؤمن عندما يجتمع مع المؤمنين يتكلم بكلمة يستفيدون منها، وهم يتكلمون بكلمة أو يقدمون نصيحة يستفيد هو منها؛ لأنّ أحاديثهم غالبًا ما تكون في أمور تتعلق بالدين، وبقضايا فيها معرفة وعلم، وتعمّق وتجذّر علاقة الإنسان بربه، وترسّخ وتؤصّل المفاهيم العقيدية والفكرية الصحيحة التي يؤمن بها، وهذه العلاقة بين المؤمنين علاقة خير، وعلاقة فائدة، وكما أنّ هذه المفاهيم مفاهيم مقدسة، فالعلاقة المبنية عليها هي أيضًا علاقة مقدسة؛ لأنّها تأخذ قداستها من قداسة الرابط .

وينبغي للإنسان أن يصادق المتدين الصالح الذي ينهاه عن الحرام، فيحذره من الغيبة والكذب والنظرة المحرمة والكلام المحرم، ويشجعه على الحلال وينصحه بإتيان الأعمال الصالحة. وبما أنّ الرباط الذي جعلنا متقاربين بعضنا إلى بعض هو رباط مقدس، فهذه العلاقة تصبح علاقة مقدسة أيضًا وعلاقة كريمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونعبّر عنها بالعلاقة الإيمانية والأخوّة الإيمانية.

لقد وصفها القرآن الكريم بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، ووصفها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بهذه الصفة أيضًا في قوله: «**المؤمن أخو المؤمن**»[2]. فهي أُخوّة إيمانية وعلاقة إيمانية مقدسة لقداسة الرابط الذي يربط بينهما، وهذه هي الحالة الطبيعية عند الإنسان، اللهم إلا إذا سيطرت على الإنسان حالة النزوات والشهوات والميول تجاه الدنيا ولذاتها المحرمة والعياذ بالله، فعندها تصبح الحالة عكسية، ويبدأ بانتقاد من يدله على طريق الهدى والرشاد، ويرى أن الوقت الآن ليس مناسبًا لهذه المواعظ والحديث أن هذا حلال وذاك حرام؛ يريد أن ينطلق مع شهواته، يلهو ويعمل ما تشتهي نفسه، فينطلق ليبحث عمن هو على شاكلته، فالطيور على أشكالها تقع، صاحب النزوات يبحث عن رفيق من صنفه، وليس المهم عند هؤلاء أن يبحث عمن يوافقه في العقيدة، بل المهم عنده أن يجد من يشاركه في نفس ميوله وشهواته، سواء كان من نفس عقيدته أو من

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠

(٢) الكافي ٢: ١٦٦، ح٢ ،ح٣ ،ح٤.

عقيدة مختلفة، فالرباط هنا ليس رباط عقيدة وفكر، وإنما هو رباط شهوات ونزوات، فالإنسان الهارب من عقيدته ومبدئه وبيئته وفضائه، ويريد أن ينساق وراء شهواته من غير أن ينكشف بين المؤمنين، يبحث عن شخص من صنفه، فلا يلومه ولا يعاتبه ولا يفضحه، هؤلاء يستر أحدهم على الآخر، ويأنس بعضهم ببعض؛ لأنّ اللذة المحرمة والنزوات المحرمة هي التي جمعتهم، وليست العقيدة.

وليست العقيدة الدينية وحدها هي الرابط بين جماعة ما، بل هناك أحيانًا عقيدة سياسية تربط بين أفراد الأحزاب والتيارات والكيانات، فيقولون مثلًا نحن من التيار الفلاني، وهو الذي يربط بعضنا بالبعض الآخر، إذ تجمعنا رؤية واحدة لشؤون البلاد والعباد، ولدينا نظرة واحدة للقضايا السياسية، ويسمون أنفسهم أو يُعرفون بين الناس بالحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية أو التيار الفلاني، وأحيانًا يلبسون لونًا واحدًا، ويكون عَلَمَهم واحدًا وشعارهم واحدًا، وتكون أفكارهم واحدة وتجمعهم العقيدة السياسية، كما أنّ العقيدة الدينية تجمع الناس على قيم ومبادئ معينة.

والحديث عن الأخوّة الإيمانية وعن العلاقة الإيمانية حديث مهم للغاية، وأعتقد جازمًا بأنّنا إذا عملنا بهذه المفاهيم ، فإنّ وضعنا كجماعة سوف يقفز إلى الأمام قفزة كبيرة، وسنقدم أُنموذجًا طيبًا إذا استطعنا أن نعمّمه في المجتمع، وسوف يتقدم مجتمعنا أيضًا خطوة مهمة إلى الأمام.

إنّ إصلاح كثير من مشاكلنا التي نواجهها اليوم ونعاني منها يرتبط بالعلاقة الصحيحة بين المؤمنين، ونحن كلنا في دائرة المؤمنين، وهذه العلاقة الإيمانية مهمة جدًا.

يُروى عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**تواصلوا وتبارّوا وتراحموا، وكونوا إخوة بررة، كما أمركم الله عز وجل**»(١).

نواجه في مجتمعاتنا الإسلامية مشاكل اجتماعية كبيرة، في التقاطع الاجتماعي وعدم الانسجام اللازم بين أفراد العائلة الواحدة، وبين العائلات المتجاورة، وفي محيط العمل والدراسة، وفي جميع أماكن اللقاء والتواجد المستمر والدائم الذي يحتاج إلى أخلاق التعايش الإنساني. ولهذا قد يمر الإنسان في كثير من الأحيان في ظروف قاسية يحتاج فيها إلى مساعدة المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، لكي يستطيع أن يواصل حياته بهدوء وسلام.

---

(١) الكافي ٢: ١٧٥، ح١.

والأخوّة الإيمانية هي التي تتكفل بالتراحم والتواصل بين الإخوة، ليكونوا بررة يبرّ بعضهم بعضًا، وهذا مبدأ مهم ينبغي أن يحظى بالبحث اللائق به.

يتضمن البحث ست نقاط :

أولًا: تعريف الأخوّة الإيمانية.

ثانيًا: أقسام الأخوّة الإيمانية وأهميتها.

ما هي أقسام الأخوّة الإيمانية؟. ولماذا تعد أهم من الأخوّة النّسَبية؟، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فالقرآن الكريم يقرر أنّ أقرب الناس إلى إبراهيم ليس هو ابنه النّسَبي، بل هم الذين اتّبعوه وساروا على نهجه وطريقه، وكان الرباط بينهم هو رباط العقيدة وليس رباط الدم، رباط الدم ليس رباطًا اختياريًا، ولكن رباط العقيدة رباط اختياري، فأقرب الناس لإبراهيم هم الذين اتبعوه و النبي والذين آمنوا معه.

ثالثًا: حقوق الأخوّة الإيمانية.

رابعًا: جذور الأخوّة الإيمانية.

خامسًا: آثار الأخوّة الإيمانية ومعطياتها.

سادسًا: طرق تحقيق الأخوّة الإيمانية، أي كيف نكون إخوة بررة للآخرين؟، وكيف نعقد الأخوّة الإيمانية؟.

فهذه ست نقاط أساسية وستة محاور، سنحاول الحديث بها في هذا الكتاب.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨

المحور الأول

تعريف الأخوّة الإيمانية

ماذا يعني الإيمان؟ وماذا يعني المؤمن؟ وما الفرق بين الإيمان والإسلام؟، إذ نقول: هذا مسلم، وهذا مؤمن، فما الفرق بينهما؟. قالوا: إن الفرق هو أن الإسلام يعني إظهار الانتماء إليه بالنطق بالشهادتين، بأن يقول: (**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله**)، وكل من ينطق بهاتين الشهادتين، فيشهد لله بالوحدانية، ويشهد للرسول بالرسالة، صار مسلمًا وترتبت له كل الحقوق التي قررها الإسلام للمسلم، وكذا كل من شهد له سلوكه بممارسة شعائر الإسلام كأداء الصلاة فهو مسلم، كمن كان من أتباع ديانة أخرى ولكنه حضر مع المسلمين ودخل المسجد وصلّى صلاتهم، وكان سلوكه الظاهري يدل على إسلامه، فهو مسلم وإن لم يسمعه أحد ينطق بالشهادتين؛ لأنّ الصلاة تتضمن في أجزائها النطق بالشهادتين.

أما الإيمان فهو ليس مجرد نطق للشهادتين باللسان أو أداء للصلوات، بل هو انتقال لهذا المعتقد من اللفظ إلى قناعة راسخة وإلى إذعان قلبي، أي ينبض القلب بالشهادة لله بالوحدانية وللرسول بالرسالة. ويسمى المسلم حينما يكون له تصديق قلبي وإذعان روحي بالمؤمن.

ومن مستلزمات الإيمان بالرسول، التصديق بكل ما جاء به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ومنها الإيمان والتصديق بولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فلا يكون المسلم مؤمنًا حقًا ما لم يكن قلبه ينبض بالولاء لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي: كتاب الله وعترتي**»[1]، وقال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أيضًا: «**لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: يا رسول الله وما الصلاة البتراء؟ فقال: الصلاة الخالية من الآل**»[2]. ومع ذلك نرى إصرار البعض على ترك الصلاة على الآل حتى عند قراءة هذا الحديث على المنابر أو شاشات التلفاز. وهذا يعني عدم الإيمان الحقيقي بما جاء به رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعدم وجود عقيدة قلبية وإذعان قلبي.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3].

(١) بحار الأنوار ٢: ١٠٠، ٣٢٦، ٢٨٥، مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٤، ١٧.
(٢) بحار الأنوار ٥: ٢٠٩، الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٤٤.
(٣) سورة الحجرات، الآية :١٤

الأعراب ليس جمع عربي، بل جمع أعرابي، وجمع العربي هو العرب، والأعراب الناس البعيدون عن الثقافة الدينية؛ لأنّ من كان بعيدًا عن الثقافة الدينية يكون أشد كفرًا ونفاقًا، كما قال الله ﷻ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾[١]. ولكننا نرى البعض يقول: أنتم العرب أشد كفرًا ونفاقًا، فهو يتوهم بأنّ الأعراب هم العرب، مع أنّه من الثابت والمعروف عند علماء اللغة أنّ الأعراب هم الناس الذين لا يملكون أي ثقافة دينية، وليس عندهم التزام بالدين، وليس لديهم فهم عن الدين، وليس المقصود بالأعرابي كل شخص يعيش في الصحراء، إذ من الممكن أن يعيش في الصحراء أُناس وهم من المؤمنين أو من أوتادهم، كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. ومما يؤكد هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[٣]، مع أنّ أهل المدينة ـ أي سكان يثرب ـ كانوا من العرب، ومع ذلك لم يسمّهم القرآن الكريم أعرابًا.

إذن فالأعراب ليس وصفًا لمنطقة جغرافية معينة، بل الأعراب وصف لمرتبة ثقافية، وعلى هذا فهو يشمل كل من كان ذا مستوى ثقافي متدنٍ ولا يعرف شيئًا عن الثقافة والحياة المدنية، فيشمل العرب وغيرهم، ممن كان على نفس المستوى الثقافي كما أشار إليه أهل اللغة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، نعم نطقتم بالشهادتين وأصبحتم بها مسلمين، وترتبت لكم كافة الحقوق التي شرعها الإسلام للمسلم، ولكن ما زالت مقاييسكم ونظرتكم للأمور جاهلية، إذ لا تستطيعون الرقي إلى المستوى الذي يؤهلكم إلى الفهم الصحيح والواقعي للحقائق التي جاء بها الإسلام، فمثلًا هذا أبو سفيان بعد فتح مكة واستسلامه مع من كان يقودهم من جيش الضلال والشرك، كان يقول للعباس بن عبد المطلب وهما ينظران إلى جيش الإسلام الفاتح: «**لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، فقال له العباس: ويحك إنّها النبوة**»[٤]. فهو لم يستطع أن يرتقي بفهمه

---

(١) سورة التوبة، الآية : ٩٧

(٢) سورة التوبة، الآية : ٩٩

(٣) سورة التوبة، الآية : ١٠١

(٤) بحار الأنوار ٢١ : ١٤،و مجمع الزوائد ٦ : ١٦٤، والمعجم الصغير للطبراني ٢: ٧٥.

السقيم إلى إدراك حقيقة النبوة، بالرغم من طول مدة الصراع مع رسول الله ﷺ، التي استغرقت أكثر من عشرين عامًا، وكان ينظر إلى هذا الصراع على أنّه صراع من أجل السلطة والملك.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فأنتم أسلمتم ولكن لم يصل الإيمان إلى قلوبكم؛ لأنّ الإيمان هو تصديق بالقلب، وما زالت الشهادة التي نطقتم بها شهادة ادّعائية. وكذلك ما ندّعيه نحن أنّنا من أتباع أهل البيت عليهم السلام، فلا يكفي مجرد الكلام بأنّنا موالون لهم، بل يجب أن تكون قلوبنا معتقدة بذلك.

ولكن كيف يتسنى لنا أن نعرف ما في قلوب الآخرين، لنميّز بين المؤمن وغيره وربما كان الإنسان نفسه لا يستطيع أن يعرف بشكل دقيق ما موجود في سويداء قلبه من حقيقة الإيمان؟ فهل هناك طرق يمكن من خلالها معرفة ما في القلب؟.

عن سماعة قال: «**قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان، أهما مختلفان؟ فقال عليه السلام: إن الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان. فقلت: صفهما لي؟ فقال عليه السلام: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله ﷺ، به حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس. والإيمان: الهدى، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام، وما ظهر من العمل به، والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة، إن الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر، والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن، وإن اجتمعا في القول والصفة**»[1].

تتطرق هذه الرواية الشريفة إلى بيان الفرق بين الإسلام والإيمان، فتبيّن أولًا الحقوق القانونية للنطق بالشهادتين، التي منها: أن بها تُحقن الدماء، أي لا يستطيع أحد أن يعرّض حياة الناطق بها للخطر، كأن يُتهم بالارتداد، فيحفظ نفسه من القتل. ومنها: أنّه يصير مسلمًا، وعلى اعتناق الإسلام جرت المناكح، فإنّ غير المسلم لا يستطيع الزواج من المسلمة وبالعكس. ومنها: حصوله على الميراث، فإنّ ميراث المسلم لا يصل إلى غير المسلم. ومنها: أنّه على ظاهر الإسلام جمعت الناس، وعلى ظاهر الإسلام عموم الناس، وهو تعبير دقيق جدًا من الإمام الصادق عليه السلام: «**وعلى ظاهره جماعة الناس**»، أي أنّ الإسلام له ظاهر وله باطن، وظاهر الإسلام هو أنّ كل من قال (**أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله**) صار مسلمًا ظاهرًا، وحصل على

---

(١) الكافي ٢: ٢٥، ح١.

كافة الحقوق القانونية للمسلم، ولكن باطن الإسلام وحقيقة الإسلام وحالة الإيمان لا تكون إلا بإذعان القلب، ومن لم يذعن قلبه فهو ليس بمسلم حقيقي، بل هو مسلم ظاهري يجري عليه حكم المسلمين من حقن الدماء والزواج والميراث وأحكام الإسلام الأخرى، ولكن المسلم الحقيقي يجب أن ينظر هل استقرت عقيدة الإسلام في قلبه، أو كان إسلامه مجرد لقلقة لسان؟.

وأما الإيمان فهو الهدى، أي أنّ القلب ينفتح ويتنور ويرى الطريق إلى الله تعالى والسلوك إليه، ويؤمن بهذه المفاهيم وهذه العقيدة، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام وعقيدة الإسلام التي نطق بها بلسانه، وحينئذٍ تثبت في قلبه ويؤمن بها ويعتقد بها، وما ظهر من العمل بها.

أما كيف يُعرف أنّ هذا مؤمن وذاك غير مؤمن؟، وكيف يُعرف ما في قلبه؟، فإن ذلك من خلال ما ظهر من العمل، فإنّ الإنسان إذا كان مقتنعًا بفكرة ما، فإنّ الدنيا بأجمعها لو وقفت ضده سيقف ويتكلم بها ولا يخاف من الآخرين؛ لأنّه معتقد بها، فيقول هذه فكرة صحيحة ويدافع عنها، وحينئذ سيخافه الآخرون؛ لأنّه أحب عقيدته، ولا يستطيع أن يقف في وجهه من يخلو قلبه من عقيدة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]، كيف تغلّبوا وهم قليل على فئة أكثر منهم عددًا؟.. غلبوهم لأنّ عندهم عقيدة، فهم يقاتلون حتى الموت معتقدين بأنّهم على الحق، وأنّ من يقابلهم على الباطل، بينما الطرف الآخر ليس له عقيدة، أو إنّ عقيدته ضعيفة، ولذلك ينبغي على المؤمن أن يظهر الإيمان في سلوكه وفي مواقفه وفي أعماله.

«**والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة**»، أي أنّ الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر وزيادة، وهو ما ترسخ في القلب. بينما لا يشارك الإسلامُ الإيمانَ في الباطن، وحكم الإسلام لا يتطلب أكثر من الظاهر، ولكن الإسلام الحقيقي يشارك الإيمان في الباطن وإن اجتمعا في القول وفي الصفة، وعلى كل واحد منهما يقال مسلم، ولكل منهما يقال إنّه يصلي، ولكن لصلاة المؤمن منزلة غير منزلة صلاة المسلم، وشتان بين الصلاتين، بين صلاة من باله مشغول بالدنيا وهو يصلي، وصلاة من توجّه بكل وجوده نحو الله سبحانه وتعالى، كصلاة علي بن

(١) سورة البقرة:، الآية: ٢٤٩

أبي طالب عليه السلام حينما أُخرج السهم من قدمه وهو في الصلاة من غير أن يشعر بذلك[1].

وعلى كل حال، فإنّنا لا نستطيع أن نكون مثل علي بن أبي طالب عليه السلام لكن الإيمان مراتب، وينبغي أن نحرص على الرقي في هذه المراتب خطوة فخطوة، لكي نستطيع التقدم إلى الأمام.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة التي يرويها الشيخ الكليني في الكافي عن حمران بن أعين، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**سمعته يقول: الإيمان ما استقر في القلب، وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره. والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلها، وبه حُقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج**»[2].

لقد تضمنت هذه الرواية الشريفة فقرات عدة في بيان ماهية الإيمان والإسلام، فبدأت أولًا في ذكر حقيقة الإيمان:

«**الإيمان ما استقر في القلب**»، أي أن الإيمان لا يكون إلا حينما تتحول الادّعاءات إلى إذعان قلبي يستقر في القلب.

«**وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ**»، فالإيمان إذا استقر في القلب، ونبض بالطاعة لله عزّ وجلّ، فحينئذ يتوجه الإنسان نحو الله سبحانه وتعالى. (وأفضى به) أي دفعه نحو الله جلّ وعلا.

«**وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره**»، أي أنّ من يقول إنّ القلب هكذا، فلا بُـدَّ من أن يأتي بالتصديق والدليل والبرهان، والدليل هو الطاعة لله تعالى والتسليم لأمره، فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا، ولا يمكن أن يكون قلبه نابضًا بحب الله تعالى، وهو لا يطيعه، فمن يؤمن بالله عزّ وجلّ ويحبه، لا يكون في عمله معصية له وابتعاد عن طاعته؛ لأنّ الطاعة لله سبحانه وتعالى والتسليم لأمره يعدان أثرًا ونتيجة للإيمان، من كان مؤمنًا فلا بُـدَّ من أن يظهر هذا الإيمان في سلوكه وفي طاعته لله سبحانه وتعالى.

إذن فالعمل الصالح والطاعة لله تعالى يصدّقان دعوى الإيمان، وما أكثر من يدّعي أنّه مؤمن وقلبه ينبض بحب الله سبحانه وتعالى وأنّ عنده إيمانًا وعقيدة قلبية، ولكنه لا يطيع الله سبحانه وتعالى في ما أمر به، ولا ينتهي عمّا نهى عنه، فيفعل الحرام ويترك الواجب، ولا ترى عليه سمات

---

(١) شرح إحقاق الحق ٨: ٦٠٢.

(٢) الكافي ٢: ٢٦، ح٥.

الطاعة، إذ الطاعة كاشف ودليل وأثر من آثار الإيمان، فمن كان مؤمنًا ينبغي أن يكون أثر الإيمان في سلوكه وطاعته لله ﷻ والتسليم لأمره.

والرواية طويلة، ولكن نأخذ مقطعًا من أواخرها، قال الإمام الباقر لهذا السائل: «**وسأضرب لك مثلًا تعقل به فضل الإيمان على الإسلام**»، أي أُريد أن آتي لك بمثال لتبسيط الموضوع، لكي تستطيع أن تفهم الفرق بين الإيمان والإسلام، وهذا المثال هو: «**أرأيت لو بصرت رجلًا في المسجد ـ ويعني به المسجد الحرام ـ أكنت تشهد أنك رأيته في الكعبة؟ قلت: لا يجوز ذلك. قال عليه السلام: فلو بصرت رجلًا في الكعبة أكنت شاهدًا أنّه قد دخل المسجد الحرام؟ قلت: نعم. قال: وكيف ذلك؟ قلت: إنّه لا يصل إلى دخول الكعبة حتى يدخل المسجد. فقال عليه السلام: قد أصبت وأحسنت. ثم قال: كذلك الإيمان والإسلام**».

أي إذا رأينا شخصًا مسلمًا يدّعي أنّه يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، فلا نستطيع أن نقول إنّ هذا مؤمن، ولكن إذا رأينا شخصًا مؤمنًا من خلال الطاعة والالتزام والسلوك، اكتشفنا أنّه مسلم قطعًا، إذ لا يمكن أن يكون مؤمنًا وهو ليس بمسلم، لأنّ الإسلام بوابة الإيمان، فإذن كل مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مسلم مؤمنًا.

وهذا ما يؤكد أنّ الإيمان والعمل الصالح مقترنان دائمًا، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم في كثير من آياته حينما قرن بينهما، كقوله كثيرًا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فالإيمان مقترن دائمًا بالعمل الصالح؛ لأنّه لا يمكن أن يكون الإيمان موجودًا وهو لا يعطي ثماره، فهو شجرة مثمرة، فالنخلة لا تكون مثمرة إلا إذا رأينا الرطب أو التمر فيها، وهكذا الإيمان لا يكون إيمانًا حقيقيًا إلا إذا كان فيه آثار وثمار، وثمرته هي العمل الصالح.

من هذا يتبين أنّ هناك علاقة بين الإيمان والعمل الصالح، فثمرة الإيمان هي العمل الصالح، والعمل الصالح يكشف عن وجود الإيمان، ننتقل من الإيمان إلى العمل الصالح، وننتقل من العمل الصالح إلى الإيمان، فالعمل الصالح من ناحية هو ثمرة ونتاج وأثر، ومن ناحية أخرى هو طريق وكاشف عن الإيمان، وهذه هي العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح.

لاحظوا هذه الرواية في الكافي أيضًا، عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من أروع ما وصف به الإسلام الحقيقي، فإذا سألك شخص ما الإسلام؟ ولماذا أنت مسلم؟ وما

الدليل على أنّك مسلم؟ فهذه الرواية التي لخّص فيها أمير المؤمنين عليه السلام حقيقة الإسلام هي خير جواب عن هذه التساؤلات، وإذا استطعنا أن نحفظ مفاهيمها فحينها نكون قد لخّصنا الإسلام برؤية متكاملة جامعة مانعة.

سأل ابن الكواء أمير المؤمنين عليه السلام عن صفة الإسلام، فقال عليه السلام: «**أما بعد، فإنّ الله سبحانه وتعالى شرع الإسلام، وسهّل شرائعه لمن ورده، وأعزّ أركانه لمن حاربه، وجعله عزًّا لمن تولاه، وسلمًا لمن دخله، وهدى لمن أئتم به، وزينة لمن تجلّله، وعذرًا لمن انتحله، وعروة لمن اعتصم به، وحبلًا لمن استمسك به، وبرهانًا لمن تكلم به، ونورًا لمن استضاء به، وعونًا لمن استغاث به، وشاهدًا لمن خاصم به، وفلجًا لمن حاجّ به، وعلمًا لمن وعاه، وحديثًا لمن رواه، وحكمًا لمن قضى، وحلمًا لمن جرّب، ولباسًا لمن تدبر، وفهمًا لمن تفطن، ويقينًا لمن عقل، وبصيرة لمن عزم، وآية لمن توسم، وعبرة لمن اتعظ، ونجاة لمن صدّق، وتؤدة لمن أصلح، وزلفى لمن اقترب، وثقة لمن توكل، ورخاء لمن فوّض، وسبقة لمن أحسن، وخيرًا لمن سارع، وجنة لمن صبر، ولباسًا لمن اتقى، وظهيرًا لمن رشد، وكهفًا لمن آمن، وأمنة لمن أسلم، ورجاء لمن صدق، وغنى لمن قنع، فذلك الحق، سبيله الهدى ومأثرته المجد وصفته الحسنى، فهو أبلج المنهاج مشرق المنار، ذاكي المصباح، رفيع الغاية، يسير المضمار، جامع الحلبة، سريع السبقة، أليم النقمة، كامل العدّة، كريم الفرسان، فالإيمان منهاجه، والصالحات مناره، والفقه مصابيحه، والدنيا مضماره، والموت غايته، والقيامة حلبته، والجنة سبقته، والنار نقمته، والتقوى عدّته، والمحسنون فرسانه، فبالإيمان يستدل على الصالحات، وبالصالحات يعمّر الفقه، وبالفقه يرهب الموت، وبالموت تُختم الدنيا، وبالدنيا تجوز القيامة، وبالقيامة تُزلف الجنة، والجنة حسرة أهل النار، والنار موعظة المتقين، والتقوى سنخ الإيمان**»[1].

في هذه الرواية الشريفة يسأل ابن الكواء- وهو من رجالات الخوارج - أمير المؤمنين عليه السلام عن صفة الإسلام والإيمان والكفر والنفاق. ونرى فيها كيف يتعامل أمير المؤمنين عليه السلام مع عدوه، هل يقول له اذهب عن وجهي من أنت حتى تسألني؟، أو هل يعطيه جوابًا ينم عن عدم الاكتراث والاهتمام؟ كلا، فعلي بن أبي طالب عليه السلام حجة الله في الأرض، وينبغي أن يعطيه الجواب الأكمل الذي يكون حجة بالغة عليه يوم القيامة، فأعطاه عصارة الإسلام، وهو الحل والوصفة التي يستطيع بها النجاة؛ لأنّ عليًا عليه السلام ليس لديه عداوات

(١) الكافي ٢: ٤٩، ح١.

أو ثأر شخصيّ، وليس عنده تشفٍّ أو حقد، بل هو ناصح غاية النصيحة حتى لعدوه، لعله يأخذ بها ويصير مسلمًا حقيقيًا ويرجع إلى طريق الهداية.

وفي هذا درس عظيم لنا، نتعلم منه كيف يجب علينا أن نتعامل حتى مع عدونا، فنرشده إلى الطريق لعله يهتدي، وما أكبر أن يهدي الله تعالى عدوك على يديك، وترشده إلى الطريق الصحيح، فلا ضير أن تعلّم خصمك كيف ينجو من عذاب الآخرة، بل هذه هي مهمة الأنبياء التي بُعثوا من أجلها.

ومن هذا الموقف لسيّد الموحدين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ نتعلّم أيضًا أن نعلّم منافسينا كيف ينجحون، ولا نخشى أن يحصلوا في المستقبل على الأصوات، لأنّنا ليس لدينا مشكلة مع الناجحين؛ لأنّ في هذا نجاحًا لمشروعنا أيضًا، وهو بناء البلد، فليس المهم أن يُبنى بأيدينا أو بأيدي منافسينا، وليس المهم أن ننجح نحن، بل المهم أن ينجح المشروع، وليس المهم أن يصير فلان محافظًا أو وزيرًا، بل المهم أن يُبنى البلد، فإن تمّ ذلك على أيدينا فالحمد لله، وإن تمّ على أيدي غيرنا وكنّا نحن من علّمه ونحن من ساعده ودعمه، فهذا أيضًا نوع من النصر لنا في أن ينجح مشروعنا ولو على يد غيرنا، فلا تقلقوا من الناجح، ولا تخشوا ممن يعمل بشكل صحيح، علينا أن نصفّق للعمل الصالح والعمل الناجح، ونشكر أصحابه ولو كانوا من الآخرين. كن أنت كبيرًا وقويًا، هذا هو منهج علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يجيب ابن الكواء بواحد من أشمل وأوضح الأجوبة في حقيقة الإسلام.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أما بعد**»، **وعندما يقول** «**أما بعد**»، فمعنى ذلك أنّ هذه خطبة يخطبها، أي أنّ ابن الكواء سأله في المسجد أمام جمع من الحاضرين، وعلى مرأى ومسمع من الناس، فالحديث وإن كان جوابًا عن سؤال ابن الكواء، كان خطابًا لعامة المسلمين.

«**فإنّ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **شرّع الإسلام**»، فالله تعالى أرسل لنا رسالة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

«**وسهّل شرائعه لمن ورده**»، يعني أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل الإسلام دينًا يسيرًا ليس فيه تكاليف معقدة وشاقة لمن يدخل فيه؛ لأنّه أراد أن يخفف عن عباده.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣

«**وأعزّ أركانه لمن حاربه**»، أركان الإسلام عزيزة قوية منيعة، أقوى من أن ينالها الأعداء مهما حاولوا أن يُدخلوا فيه الوهن والضعف، فكان الإسلام خلال هذه القرون المتمادية كالكتلة الكونكريتية، لا تنهار أمام الأعداء، فكم من المفكرين والعلماء جاؤوا وأرادوا أن يجدوا ثغرة ليهدموا الإسلام، فلم يستطيعوا وباءت جهودهم بالفشل الذريع، وقد تحداهم القرآن الكريم بأن يأتوا ولو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة، بل إنّ كل من حاول أن يأتي ولو بآية واحدة، أذلّه الله ﷻ إذلالًا كبيرًا، إذ أتى بكلمات أصبحت موردًا للفكاهة والتندر.

وهكذا جعل الله ﷻ أركان الإسلام عزيزة، فاعتزوا بدينكم واعقلوه، واعلموا أنّ أعداء الإسلام لا يستطيعون أن ينالوا من الإسلام شيئًا.

«**وجعله عزًّا لمن تولاه**»، أي أنّ الذي يتولى الإسلام وينتمي إليه يصبح عزيزًا بعزة الإسلام؛ لأنّه حصن حصين لمن دخل فيه، والمنتمي إليه يكون كالجبل الأشم، فارفعوا رؤوسكم عاليًا وافتخروا بانتمائكم إلى الإسلام؛ لأنّكم أعزاء بعزة الإسلام.

«**وسلمًا لمن دخله**»، الإسلام دين السلام والمحبة، والذي يدخل الإسلام يكون في أمان وسلام من أن يناله الأعداء بسوء؛ لأنّ الإسلام يوفر له الحماية اللازمة.

«**وهدى لمن ائتمّ به**»، الائتمام يعني التبعية، فمثلًا نسمّي من يُقتدى به في صلاة الجماعة إمام الجماعة، أي عندما يركع يركع المأمومون وراءه، وعندما يرفع رأسه من الركوع يرفع المأمومون رؤوسهم أيضًا، وهكذا في جميع أفعال الصلاة، فالائتمام يعني التبعية، فالذي يطيع ويلتزم بتعاليم الإسلام يحصل على الهداية، ويصل إلى الله ﷻ.

«**وزينة لمن تجلّله**»، أي أن الذي يرتدي ثقافة الإسلام ويطبقها في وجوده، تكون زينة يتزيّن بها، فيقال انظروا إلى هذا المسلم في صدقه ووفائه وإيثاره وعلاقته مع الآخرين.. وهكذا في جميع تعاليم الإسلام الأخرى، فهي زينة يتزيّن بها الإنسان.

«**وعذرًا لمن انتحله يوم القيامة**»، فإنّ المسلم حين يُسأل يوم القيامة: لماذا فعلت هذا؟، يقول: الله أمرني بذلك، فمن أخذ برسالة الإسلام كفاه ذلك عذرًا عند المساءلة.

«**وعروة لمن اعتصم به**»، تمسكوا بالإسلام؛ لأنّه الملاذ الذي ينجينا يوم لا نجاة إلا به.

«**وحبلًا لمن استمسك به**»، وهو الحبل الذي من تعلّق به نجا، فالإسلام هو المنجي والمنقذ للإنسان.

«**وبرهانًا لمن تكلم به**»، فمن يفهم الإسلام بشكل صحيح، ستكون الحجة القوية دائمًا بيده؛ لأنّ البرهان والدليل عنده يستدل به ويحاجج الآخرين بهذا الإسلام.

«**ونورًا لمن استضاء به**»: الإسلام نور يهدينا ويدلنا على الطريق، فهو الجواب لكل سؤال، وهو الحل لكل معضلة.

«**وعونًا لمن استغاث به**»: أي حين يتعرض الإنسان إلى مشكلة وملمة، يستطيع أن يستغيث بالإسلام وسيجد الحل لمشاكله.

«**وشاهدًا لمن خاصم به**»: أي إذا دخل الإنسان في خصومة مع الآخرين، المفاهيم الإسلامية هي التي تجعله ينتصر في هذه المعركة الفكرية.

«**وفلجًا لمن حاجّ به**»: أي هو المخرج لمن يحاجج به، فمن كان يستند إلى الدليل الإسلامي وإلى رؤية الإسلام وفهم الإسلام في الأمور، يتغلب على من يحاججه.

«**وعلمًا لمن وعاه**»: يعني أنّ الإنسان إذا وعى الإسلام وفهمه وتعرّف عليه، فهو علم يمكن أن يلوذ به.

«**وحديثًا لمن روى**»: يعني أنّ الإسلام هو أحسن الحديث لمن يريد أن يتحدث، وهل هناك أفضل من مفاهيم الإسلام يُتكلم بها.

إن أحاديث مجالسنا اليوم في الأعم الأغلب أحاديث غير نافعة، ونستغرق في تفاصيل لا تسمن ولا تغني من جوع، والبعض يعبّر عن هذه الساعات الثمينة التي يقضيها من عمره بقتل الوقت، فلماذا لا نفكر في إنقاذ أنفسنا وأعمارنا من هذه الأحاديث الفارغة، والاستفادة بشكل مثمر ومنتج في تنمية طاقاتنا وقابليتنا وتسليح أنفسنا بأنواع العلوم والفنون؟، إنّ هذا العمر فرصة ينبغي استثمارها بالشكل الصحيح، والفرص تمر مر السحاب. وما أجمل أن تكون أحاديثنا أحاديث الموعظة والنصيحة، فالحديث المفيد هو الحديث الذي يريده الإسلام في كل الأمور النافعة.

«**ويقينًا لمن عقل**»: أي من يعقل ويتدبر الإسلام يصل إلى حالة اليقين والقطع والجزم، ويصبح عنده وضوح كامل عن الماضي والحاضر والمستقبل، وكان الإمام الحسين عليه السلام يصف أصحابه بأنّهم أهل البصائر، وصاحب البصيرة تكون عنده رؤية واضحة، فلا تغره الأموال ولا المناصب ولا الجاه، ولا شيء يثنيه عن بلوغ هدفه مهما كانت التحديات.

«**وحكمًا لمن قضى**»: الإسلام هو الحكم في الخصومات والمنازعات، ففي الموارد التي نحتاج فيها إلى القضاء يجب أن نرجع إلى الإسلام ونأخذ الحكم منه.

«**وحلمًا لمن جرّب**»: فمن جرّب الإسلام ازداد صبرًا وحلمًا تجاه الأمور المختلفة،

ومن لم يكن لديه علم وفهم عميق للأمور لا يستطيع أن يصبر.

«**ولباسًا لمن تدبر**»: الإسلام هو اللباس الساتر والواقي لمن تدبره وعقله، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(١)، فهو جلباب لمن ينظر إليه نظرة عميقة، ولكن البعض منّا ينظر إلى الإسلام نظرة خاطفة ونظرة قشرية وسطحية، فلا يأخذ من الإسلام إلا رسمه وشكله، ويقتصر على بعض المظاهر العامة، من المهم جدًا أن نعرف لماذا هذا واجب وذاك حرام؟، ولماذا هذا مستحب وذاك مكروه؟، معرفة الأسباب وراء الأحكام هي من التدبر فيه.

«**وفهمًا لمن تفطّن**»: الإسلام يعطي فهمًا ولكن لمن يتفطن، والفطنة هي الذكاء، فالذي ينظر نظرة متفطنة وذكية لمفاهيم الإسلام، يرزقه الله تعالى الفهم.

«**وبصيرة لمن عزم**»: الفهم الإسلامي الصحيح يمنح من لديه العزيمة البصيرة.

«**وآية لمن توسم**»: إذا توسّم الإنسان في الإسلام وأخذ منه الرؤية العميقة والصحيحة، سيكون له الآية والدليل لكل شيء في هذه الحياة.

«**وعبرة لمن اتعظ**»:أي أنّ فهم الإسلام هو أفضل عبرة وموعظة لمن يتعظ.

«**ونجاة لمن صدّق**»: التصديق بالشيء بمعنى الأخذ به والعمل به، أي من عمل به نجا.

«**وتؤدة لمن أصلح**»: التؤدة هي الرزانة والتأني، ومن يصلح أمره على أساس الإسلام، يحصل على حالة الرزانة والتأني والدراية والموقف الحصين والحكيم.

«**وزلفى لمن اقترب**»: الإسلام هو القربى لمن اتخذه قرينًا له، وعندها سيشعر صاحبه بالقرب من الله سبحانه وتعالى.

«**وثقة لمن توكل**»: فمن توكل على الله تعالى انطلاقًا من فهم إسلامي صحيح، سيحصل على حالة الشعور بالثقة والاطمئنان، وهو شعور بالعزة وقوة القلب، فلا يستحي معها أنّه مسلم، وإن كان الجميع ممن يحيطون به من لون آخر وعقيدة أُخرى.

«**ورخاء لمن فوّض**»: من يسلم فقد فوّض أمره إلى الله ـ والإسلام هو التسليم ـ وسيحصل عند ذلك على حالة من الاستقرار والرخاء والراحة النفسية، أي ما دام الإسلام قد أمرك بكذا، فاغمض عينيك وامشِ وراءه واتّبع سبيله ولا تنحرف عن طاعته، وستشعر بالراحة والطمأنينة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦

«**وخيرًا لمن سارع**»: فالإسلام خير لمن يبادر بتنفيذ أوامره، ولا يتلكأ ويتباطأ في الاستجابة له، فإذا أذّن المؤذن لا يتكاسل عن أداء الصلاة بأي عذر كان، وهكذا في جميع الأمور التي يطلبها منه الإسلام أو ينهاه عنها. فالمسارعة إلى الخيرات هي التي تهب الخير والبركة لصاحبها.

«**وسبقًا لمن أحسن**»: من يُحسن العمل ويُحسن الالتزام يسبق الآخرين ويتقدم عليهم، وقد حذّر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته قبيل استشهاده من أن يسبقنا الآخرون من غير المسلمين إلى العمل بما جاء به القرآن الكريم حين قال: «**الله الله في القرآن أن يسبقكم بالعمل به غيركم**»[(١)]، وهذا الذي حصل بالفعل، فقد سبقنا الغرب اليوم إلى العمل بتعاليمه السامية في الإتقان والالتزام بالمواعيد والصدق وعدم الغش في صناعاتهم، وصرنا نفضّل منتجاتهم على منتجات بلاد المسلمين بسبب جودتها، فهذا النظام الدقيق الذي سار عليه الغرب في تنظيم حياته الاقتصادية قد جاء به الإسلام، وأمرنا به على لسان أوليائه، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى وصاياه: «**أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم**»[(٢)]، ولكننا تركنا ذلك وراء ظهورنا وانشغلنا بالسير وراء الظَلَمَة والتصفيق لهم التماسًا لبقايا موائدهم وحطام دنياهم.

إننا اليوم في العراق صرنا نبحث عن شركات غربية لتنفيذ مشاريعنا العمرانية وإن كانت أعلى كلفة، لما تتميز به من الإتقان والجودة، أليس الإتقان مفهومًا إسلاميًا، ألم يرد في النصوص الشرعية عن المعصومين عليهم السلام قولهم: «**إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[(٣)]، فلماذا تركنا الإتقان في أداء أعمالنا وصرنا نكتفي بإنجازها كيفما كان؟. وهناك كلمة تُنسب إلى السيد جمال الدين الأفغاني أو إلى تلميذه الشيخ محمد عبده عند زيارته لباريس مطلع القرن العشرين يقول فيها: رأيت في بلاد المسلمين مسلمين بلا إسلام، ورأيت في بلاد الغرب إسلاما بلا مسلمين. إنّ كل نقطة قوة تسجل اليوم للغرب هي من مفاهيم الإسلام التي أخذوها منّا وتقدموا علينا بها.

«**وجُنة لمن صبر**»: والإسلام بعد ذلك جُنة لمن صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية.

(١) الكافي ٧: ٥١، من لا يحضره الفقيه ٤: ١٩٠.
(٢) نهج البلاغة ٣: ٧٦ الرقم ٤٧.
(٣) مجمع الزوائد ٤: ٩٨.

«**ولباسًا لمن اتقى**»: الإسلام هو اللباس الذي يستر من تدّين به عن التعرض للمعاصي والآثام.

«**وظهيرًا لمن رشد**»: حالة الرشد وحالة العقلنة إذا فهمناها وطبقناها بشكل جيد، سيكون الإسلام ظهيرًا لنا، أي هو من يساعدنا على بلوغ هذه الدرجة.

«**وكهفًا لمن آمن**»: يلوذ الإنسان بالكهوف عندما يتعرض للخطر ليحمي نفسه، وكذلك الإسلام كهف للمؤمن، ليحمي نفسه من خطر الذنوب والمعاصي. ولكن ليس الإسلام الذي هو مجرد كلمات ينطق بها الإنسان، لتتحقق له كل تلك المزايا، بل المقصود به الإيمان القلبي.

«**وأمنة لمن أسلم، ورجاء لمن صدّق**»: إذا صدق الإنسان في التعاطي مع الإسلام، فهو رجاء لمن يرجو النجاة.

«**وغنى لمن قنع**»: إذا توفرت عند الإنسان حالة القناعة، توفرت لديه بشكل تلقائي حالة الغنى، وهذه حالة مهمة وغريبة ملفتة للنظر، فهناك مثلاً ملياردير عندما يُسأل عن الأوضاع في هذه الأيام، تراه يتظلم ويشتكي من الركود والكساد وقلة الأرباح، ولو وُجّه هذا السؤال لآخر فقير يعيش الكفاف، تجده يحمد الله تعالى ويشكره؛ لأنّ عنده قناعة فيشعر بالغنى، وذاك عنده جشع فلم تغنه المليارات.

فالشعور بالغنى لا يتحقق إلا لمن يؤمن بالإسلام حقيقة، لا مجرد ادّعاء أو انتماء، وهذا هو الإسلام، وهذا هو الحق، وهذه هي صفاته وسماته وملامحه، وإذا ما استطعنا أن نوجده في أنفسنا، فسيكون حصنًا لنا ورجاء لكل ما نتمناه. وحينئذ لن يكون فقدان أي شيء خسارة لنا ما دمنا متمسكين بالإسلام، وستكون دنيانا مرتبة، وآخرتنا مضمونة.

إنّ مرتبة الشعور بالغنى تولّد شعورًا بالعزة والقوة والمنعة، وسيشعر الإنسان في ظلها بالراحة النفسية؛ لأنّ كل ما يريده في هذه الدنيا سيحصل عليه.

«**سبيله الهدى**»: **أي طريقه الهداية.**

«**ومأثره المجد**»: إنّ مآثره هي المكرمة، فالإنسان عندما يعمل بهذه الطريقة ويلتزم بالإسلام سيصل إلى المجد، فما زلنا إلى اليوم نذكر بكل اعتزاز الشيخ المفيد والشيخ الكليني، ولا أُريد أن ذكر أسماء الأئمة لئلا يقول قائل هؤلاء أئمة معصومون، ونقول الشيخ الكليني والشيخ المفيد والعلّامة الحلي لأنّهم أفراد مثلنا غير معصومين، ولكن خلدهم التأريخ لأنّهم تمسكوا بالإسلام الحقيقي وكانوا مؤمنين حقًا.

«**وصنعته الحسنى**»: إذا ما تمسك الإنسان بالإسلام، فإنّ جميع ما سيصدر عنه من أفعال ستكون دائمًا على مستوى عال من الإحسان، فيكون فعله الخير وجميع ما يأتي به من قول أو فعل طيبا، حتى يقال عنه: إنّه لا يؤذي نملة فكيف يؤذي بشرًا؟، كما نسمع هذا في وصف بعض الناس، يكون كله خيرًا، صمته ونطقه، قيامه وقعوده، سكونه وحركته.

«**فهو أبلج المنهاج**»: يعني أنّ الإسلام واضح الطريق، بل هو أوضح الطرق إلى الله ﷻ وإلى العمل الرسالي الإسلامي.

«**مشرق المنار، ذاكي المصباح، رفيع الغاية، يسير المضمار، يسير الملاذ، جامع الحلبة**»: الحلبة هي المكان الذي يجمعون فيه الخيل استعدادًا للسباق.

«**سريع السبقة**»: يعني أن فرص الفوز وإحراز التقدم أمامه مفتوحة. إذن ليس المشي في طريق الإسلام بالطريقة التي يرغب فيها من يريد المشي، بل يجب أن يتقيّد بالطريق والمنهج الذي حدده الإسلام. وهنيئًا لمن سار في طريق الإسلام وعقد العزم على المضي فيه إلى آخر المطاف.

«**أليم النقمة**»: شديد العذاب لمن تخلف عن السير فيه، فليس أمام الإنسان خيار آخر للنجاة، فإما أن يركب في هذه السفينة التي من ركبها نجا، أو يختار عدم الركوب ويبقى في الساحل، وسيأتيه الموج من كل مكان فيغرق؛ لأنّ من تخلف عن هذه السفينة غرق وهوى.

«**كامل العدة، كريم الفرسان**»: أي من يلتزم بتعاليم الإسلام فهو أكرم ذوي الفروسية والرجولة والمروءة.

«**فالإيمان منهاجه**»: أي أنّ منهاج الإسلام هو الإيمان، وهو الإذعان القلبي، فهذا هو الإسلام الحقيقي.

«**والصالحات مناره**»: أي أنّ العمل الصالح هو المعلم العالي الذي يميزه؛ لأنّ المنارة هي التي يعرف بها المسجد من بعيد.

«**والفقه مصابيحه**»: أي أنّ الأحكام الشرعية هي عيون ومصابيح من يلتزم بالإسلام، فتفتح له الطريق وتبين له أن هذا حرام وهذا حلال.

«**والدنيا مضماره**»: أي أنّ الدنيا هي مساحة حركته، فإذا ما مات الإنسان انقطع عمله، وليس هنالك فرصة أخرى أمامه.

«**والموت غايته**»: **أي أنّ نهاية المطاف هي الموت.**

«**والقيامة حلبته**»: والقيامة هي المكان الذي تظهر فيه نتائج المسابقة.

«**والجنة سبقته**»: **نهاية الخط للمتسابقين هي الجنة.**

«**والنار نقمته**»: وأما من لم يدخل حلبة السباق مع المتسابقين إلى الجنة، فستكون النار مأواه.

«**والتقوى عدته، والمحسنون فرسانه**»: المحسنون هم الذين يأخذون بتعاليم الإسلام، وهم فرسان هذه المسابقة الذين ستكون لهم الغلبة.

«**فبالإيمان يستدل على الصالحات**»: أي أنّ الصالحات هي أثر الإيمان، ومن خلال الإيمان نعرف أو نستدل على وجود الصالحات.

«**وبالصالحات يُعمَّر الفقه**»: أي بالعمل الصالح يُعمَّر الفقه؛ لأنّ الفقه هو واجب وحرام ومستحب ومكروه ومباح، فمن عمل صالحًا فقد أحيا الفقه. سُئل أحد المراجع كيف ندخل الجنة؟ فرفع رسالة عملية وقال لهم: في هذه الواجب والحرام والمستحب والمكروه، فاعملوا بالواجبات واتركوا المحرمات، وستدخلون الجنة ولا تحتاجون إلى شيء آخر.

«**وبالفقه يُرهب الموت**»: هناك أناس يخيفهم الموت، وهناك أناس يخيفون الموت، كما قالها الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء: «**أبالموت تخوفني**»[1]، وكما قالها ولده علي بن الحسين عليهما السلام في الطريق إلى كربلاء عندما قال والده الحسين عليه السلام: «**رأيت هاتفًا يقول: أنتم تسرعون والمنايا تسرع بكم إلى الجنة. فقال له ابنه علي بن الحسين: إذن لا نبالي**»[2]، هؤلاء هم أهل الحق لا يخافون الموت، بل هم يُرهبون الموت.

«**وبالموت تختم الدنيا، وبالدنيا تجوز القيامة**»: أي أنّ الطريق إلى القيامة يكون عبر الدنيا، ولذا ينبغي أن نعمل فيها بشكل صحيح، ليكون مصيرنا في يوم القيامة إلى الجنة لا إلى النار.

«**وبالقيامة تُزلف الجنة، والجنة حسرة أهل النار**»: إنّ أحد موارد العذاب الإلهي في جهنم، أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر بأن يُفتح باب لأهل جهنم ينظرون من خلاله إلى أهل الجنة وهم يتنعمون بألوان النعم، لكي يعرفوا ما عليه أهل الجنة من النعيم الذي لم تره عين ولم تسمع به أذن، فيزداد أهل جهنم حسرة على فوات تلك النعم عليهم، وكذلك لينظر أهل

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٨.
(٢) مثير الأحزان: ٣٢.

الجنة من خلال هذا الباب فيروا ما عليه أهل جهنم من صنوف العذاب الذي لا يُطاق، فيحمدوا الله تعالى أنّهم لم يكونوا من أهلها.

«**والنار موعظة المتقين**»: **فالمتقي يتعظ من النار**.

«**والتقوى سنخ الإيمان**»: أي أنّ أصل الإيمان هو التقوى، وقد ورد في غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**يُستدل على الإيمان بالتسليم ولزوم الطاعة**»[1]؛ لأنّ كلًا منهما يشير إلى الآخر، فالإيمان يرشد إلى العمل الصالح، والعمل الصالح ينبئ عن الإيمان لأنّه ثمرته ونتاجه.

وهذا ما جاء في كلام آخر لأمير المؤمنين عليه السلام: «**الإيمان والعمل أخوان توأمان ورفيقان لا يفترقان، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه**»[2]، فالأخوان التوأمان يشبه أحدهما الآخر حتى يصعب التمييز بينهما، فكذلك الإيمان والعمل الصالح لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه، فصاحب الإيمان لا يُقبل منه ما لم يقترن بالعمل الصالح، وكذلك صاحب العمل الصالح لا يُقبل منه ما لم يقترن بالإيمان، فإذا كنا نتحدث عن أُخوّة إيمانية، وأوضحنا معنى الإيمان، فهذا الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، ومن هنا سنعرف كيف ننتقل من الإيمان إلى الأخوّة الإيمانية.

والتوأمان يكونان دائمًا متلاصقين في المنشأ أيضًا، أي في اليوم نفسه الذي تنبثق فيه نطفة الأول تنبثق فيه نطفة الثاني، وكذلك في الولادة وإن تأخر الثاني عن الأول بضع ثوان أو دقائق، وبالإضافة إلى كونهما توأمين فهما رفيقان، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه. ولا يخدعن الشيطان بعضكم كما خدع آخرين، أو تسول لك نفسك أنك ما زلت شابًا في مقتبل العمر وأمامك فسحة كبيرة من السنين، فيقال لك بادر إلى الموبقات واللذات وافعل ما تشتهيه نفسك، ثم تُب إلى الله في آخر عمرك، المهم أن يكون القلب نظيفًا ويكفي أن لديك إيمانًا، على الشاب أن يتأمل في مثل هذا الكلام التافه ويزنه بعقله؛ أولًا: من يضمن أن العمر سيستمر بالشاب إلى أن يكون شيخًا، ونحن نرى من حولنا كم من الناس يتوفون وهم في سن الشباب؟. وثانيًا: ما الضمان على أن الإنسان يوفّق للتوبة عندما يتقدّم به العمر؟، من شبّ على شيء شاب عليه كما يقولون. وثالثًا: كيف يمكن أن يبقى القلب نظيفًا بعد أن يغرق صاحبه في الحرا؟م، إذ كل ذنب يرتكبه الإنسان يترك في

---

(١) غرر الحكم: ح ١٣٦٠.
(٢) غرر الحكم: ١٥١.

قلبه نقطة سوداء تتسع كلما تكررت الذنوب، حتى لا تبقى فيه نقطة بيضاء، ويصدّق ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وكذلك لا ينفع العمل الصالح بلا إيمان يستند إليه؛ أي يفعله قربة إلى الله تعالى واستجابة لما أمر، وإلا كان هباءً منثورًا لا قيمة له ولا يباركه الله تعالى ولا يتقبله منه، كمن يعمل رياء وسمعة من أجل أغراض دنيوية. فلا يمكن أن يتحقق عمل صالح بلا إيمان، مثلما أنّ وجود العمل الصالح لله هو دليل على وجود الإيمان في قلب الإنسان، ومعنى اقتران الإيمان والعمل الصالح هو أنّه ما إن ينبض قلب الإنسان بالإيمان، حتى يظهر على جوارحه العمل الصالح.

لاحظوا هذه الرواية اللطيفة التي يرويها العلامة الأميني في موسوعته «**الغدير**»، عن أبي ذر الغفاري أنّه سمع بظهور نبي في مكة، فأرسل أخاه ليستطلع له خبره، من هو؟ وما سماته؟ وإلى ماذا يدعو؟ فذهب أخوه إلى مكة، وبعد أيام رجع إليه وأخبر أبا ذر بما رأى وسمع، ولكن أبا ذر لم يقتنع فقرر الذهاب بنفسه إلى مكة ولقاء هذا النبي، وهكذا يبحث صاحب الفطرة السليمة عن الحق أينما كان، ولم يقل أبو ذر ـ كما يقول أكثر الناس ـ لأنتظر إلى أن تصل دعوة هذا النبي لنا ويعرض حجته علينا ثم نرى رأينا.

تقول الرواية: عندما وصل أبو ذر إلى مكة متخفيًا حذرًا من المشركين من أن يمنعوه من الوصول إلى النبي، ذهب إلى المسجد الحرام ونام فيه، فجاءه علي عليه السلام وقال له: يا أخا العرب لماذا أنت نائم في المسجد؟ فقال له: إني غريب، وقد جئت من مكان بعيد وليس عندي مكان. فقال له علي عليه السلام: إن بيتي بيتك، وأخذه معه، ولم يسأله من أنت؟ ولماذا جئت إلى مكة؟ وهل لديك حاجة؟.

وفي صباح اليوم الثاني استأذن من علي عليه السلام وخرج يبحث عن خبر هذا النبي الجديد، ولكنه لم يظفر بشيء، وعند حلول الليل ذهب إلى المسجد أيضًا لينام فيه، فجاءه علي بن أبي طالب عليه السلام أيضًا وأخذه معه إلى البيت، ولم يجر أي حديث بينهما، وفي الصباح استأذن أبو ذر وخرج يبحث عن خبر النبي، وعند حلول الليل رجع إلى المسجد لينام فيه، فجاءه علي بن أبي طالب عليه السلام واصطحبه معه إلى المنزل، ولم يتحدثا بشيء إلى الصباح، وقد انتهت مدة ثلاثة أيام حيث لا يُسأل الضيف فيها عن حاجته، فسأله علي عليه السلام عن حاجته في مكة وسر قدومه إليها، وكان أبو ذر قد

(١) المطففين: ١٤.

اطمأن إلى علي عليه السلام وتوسم فيه سمات الصالحين، فقال له: أُريد أن أسرك بسر على أن تعاهدني ألاّ تبيحه لأحد. فطمأنه علي عليه السلام. فقال أبو ذر: بلغني أنّ شخصًا يدّعي النبوة في مكة، وجئت لرؤيته ومعرفة صدق دعواه. فقال له علي عليه السلام: وصلت إلى مقصودك، سأدلك عليه وآخذك له، ولكني سأسير أمامك وأنت سر خلفي إلى أن نصل داره، فإن أشرت لك بالإشارة الفلانية فاعلم أنّ البيت مراقب ولا يمكنك الدخول، وإلا فادخل الدار إن أنا دخلته.

وسار أبو ذر يقتفي أثر علي عليه السلام حتى وصلا إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلاه، والتقى أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وآله، وسأله عما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى، وعن حجته ودليله على صدق دعواه، وعرض رسول الله صلى الله عليه وآله عليه الإسلام والكتاب الذي أُنزل عليه، فآمن أبو ذر عندما عرف صدق النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّ الإسلام دين الفطرة، وأبو ذر فطرته طاهرة نقية، فاكتشف بسرعة صدق الرسالة.

تقول الرواية: إنّ أبا ذر الغفاري لما سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله أسلم من ساعته. ولكن هناك من الناس من لا يسارع إلى الإيمان بما يسمع وإن اقتنع عقله واطمأن قلبه، يبقى مترددًا ويراوح في مكانه ويطلب المهلة بعد الأخرى، ويقول أخيرًا إنّه بالرغم من قناعته، ولكن قلبه لا يطاوعه على الإيمان حتى يرى الناس يدخلون فيه أفواجًا.

وهذا أمر ملاحظ في كل شأن من شؤون الحياة، وليس في أمر العقيدة فقط ، فهناك أناس مترددون، وهناك أناس عندهم إقدام وجرأة على اتّباع الحق إذا عرفوه، وكان أبو ذر من هذا النوع، فأسلم من ساعته؛ لأنّ فطرته سليمة فتفاعل فورًا مع الرسالة.

ثم قال: يا نبي الله بماذا تأمرني إن صرت مسلمًا؟ فجنّد نفسه منذ اللحظة التي أسلم فيها، ولم يقل: ماذا تعطيني يا رسول الله؟ وماذا تضمن لي في المستقبل وقد دخلت في الإسلام ولم يؤمن بك إلا أفراد قليلون؟ فثقافة أبي ذر هي الثقافة الصحيحة التي ينبغي أن تسود بيننا، ثقافة الجندية، لا ثقافة التربص للانقضاض على المغانم والاستحواذ على الفرص.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري. فرسول الله صلى الله عليه وآله ما زال في الدعوة السرية، وأبو ذر رجل لا يسكت عن الصدع بالحق وإن كلّفه ذلك حياته، ومن الصعب عليه أن يراعي ظروف الكتمان والسرية، لذا أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالرجوع إلى قومه، لما في ذلك من مصلحة للرسالة، من ناحية نشره للإسلام بين قومه قبيلة غفار، ومن ناحية أخرى حفاظًا على سرية الرسالة في مكة.

فقال أبو ذر: والذي نفسي بيده، لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد الحرام، بأنّي صرت مسلمًا واعتقدت بالإسلام.

لقد سبّب اعتناق الإسلام تحولًا هائلًا في شخصية أبي ذر، فهو قبل أن يسلم كان يتخفى ثلاثة أيام لا يستطيع أن يسأل علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي الجديد، ولكنه عندما آمن بالإسلام الحقيقي الذي ليس فيه فوائد مادية في ذلك الوقت، بل فيه الملاحقة والتشريد والقتل، صار فدائيًا ولم يقبل بالأدوار الهامشية والبسيطة، ولم يقبل أن يرجع إلى قومه ويجلس في داره ويترك رسول الله صلى الله عليه وآله وحده، بل أراد أن يوصل صوت الحق إلى مسامع الناس.

فحذّره رسول الله صلى الله عليه وآله من أنّه سيتعرض للأذى إن فعل ذلك، ولكنّه أصرّ على فعل ذلك والجهر بإسلامه على أعين الملأ. انظروا إلى الإيمان كيف يؤثر في السلوك والعمل، وكيف أنّ الإيمان والعمل الصالح توأمان.

ودخل أبو ذر المسجد الحرام ونادى بأعلى صوته: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله). فجنّ جنون المشركين، إذ كيف يجرؤ شخص غريب أن يدخل في عقر دارهم في المسجد الحرام، الذي كان في ذلك الوقت مقرًا لحكومتهم السياسية، ودار الندوة التي يجتمع فيها كبار زعماء مكة، ومقرًا لدينهم، حيث نصبوا في وسطه أصنامهم، ثم يصرخ بصوت عال في وضح النهار بالشهادتين؟، هذا يعني بطلان دينهم وآلهتهم، فقال المشركون: صبأ الرجل. أي تحول من دين الشرك إلى دين الإسلام.

وقام إليه شباب من قريش فضربوه حتى صرع، فأتاه العباس بن عبد المطلب فأكب عليه وقال: قتلتم الرجل يا معشر قريش. وكانت قريش تمتهن التجارة، فدخل لهم العباس من هذا المدخل لينقذ أبا ذر وقال لهم: أنتم تجار وطريقكم على غفار قبيلة هذا الرجل، سيقطعون عليكم الطريق ويمنعونكم من التجارة مع بلاد الشام. فرأوا أنّ كلام العباس صحيح لذا أمسكوا عنه وتركوه، وعندما أفاق أبو ذر ذهب إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بدمائه، وطلب منه رسول الله صلى الله عليه وآله أن يغادر إلى قومه، ولكنه قال إنّه يريد الرجوع إلى المسجد ليفعل كما فعل في المرة الأولى.

ثم عاد في اليوم الثاني فصنع مثل ذلك، إذ وقف في منتصف المسجد وصرخ بأعلى صوته بالشهادتين، فضربوه حتى صرع، وأكبّ عليه العباس بن عبد المطلب وقال لهم مثل ما قال في أول مرة، فأمسكوا عنه، ونهض أبو ذر وقد أفرغ وسعه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعرّض حياته للخطر مرتين، ورجع إلى قومه وهو مرتاح الضمير وقد تحدى

قريشًا في عقر دارها، وقال كلمة الحق بكل جرأة وشجاعة، وظلت مكة تتناقل هذا الموقف الشجاع في نصرة الإسلام، وانكسر حاجز الخوف الذي حرص المشركون على أن يجعلوه في قلوب الناس، ليحول بينهم وبين التفكير بالدخول للدين الجديد. ووصل أبو ذر إلى غفار ودعا قومه إلى الإسلام، واستجاب له طائفة منهم، وبقي ومن آمن معه في انتظار دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله للقدوم إليه[١].

هذا هو أبو ذر، الرجل العظيم الذي كانت قصة إسلامه شاهدًا على اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وكيف أنّ الإيمان يدفع الإنسان نحو العمل الصالح. فليس باختيار الإنسان أن يكون مؤمنًا ثم لا يعمل العمل الصالح، المؤمن يسعى في قضاء حوائج الناس، وهم يقصدونه لحل مشاكلهم؛ لأنّه من وجوه الخير، فحياته مسخرة لخدمة الناس، ونحن نعرف أن هذا مؤمن لأنّ العمل الصالح علامة الإيمان، وإذا ما تأكدنا أنّه مؤمن فسنرى كيف يبادر في العمل الصالح، وكذلك إذا رأينا العمل الصالح تأكدنا أنّه مؤمن؛ لأنّ الإيمان والعمل الصالح توأمان متلازمان لا يفترقان.

اسمعوا هذه الرواية في الكافي عن مسعدة بن صدقة قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: وسُئل عن إيمان من يلزمنا حقه وأخوته كيف هو؟ وبما يثبت وبما يبطل، فقال: إنّ الإيمان قد يتخذ على وجهين، أما أحدهما فهو الذي يظهر لك من صاحبك، فإذا ظهر لك منه مثل الذي تقول به أنت حقّت ولايته وأخوّته، إلا أن يجيء منه نقض للذي وصف من نفسه وأظهره لك، فإن جاء منه ما تستدل به على نقض الذي أظهر لك، خرج عندك مما وصف لك وأظهر، وكان لما أظهر لك ناقضًا، إلا أن يدّعي أنّه إنما عمل ذلك تقية، ومع ذلك ينظر فيه، فإن كان ليس مما يمكن أن تكون التقية في مثله لم يقبل منه ذلك؛ لأنّ للتقية مواضع، من أزالها عن مواضعها لم تستقم له. وتفسير ما يتقى، مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنّه جائز**»[٢].

تتناول هذه الرواية الشريفة الحديث عن تحديد إيمان من يلزم مراعاة حقوق الأخوّة فيه، وبماذا يثبت هذا الإيمان، وبماذا يبطل. أي ما الإيمان الذي يجب أن يوجد في الأخوّة الإيمانية؟ وقد حدّد الإمام الصادق عليه السلام في جوابه أنّ الإيمان قد يتخذ على وجهين:

(١) الغدير ٨: ٣١٠.
(٢) الكافي ٢: ١٦٨، ح١.

الأول: الإيمان الذي يظهره صاحبه للآخرين ونراه منه، كالتزامه بأداء الفرائض اليومية في المسجد جماعة، وصيام شهر رمضان، وأداء مناسك الحج والعمرة والزيارة، وأداء الزكوات والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفشاء السلام، وما إلى ذلك من الواجبات والمستحبات التي أمر بها الإسلام، والامتناع عن ارتكاب المحرمات والمكروهات التي نهى عنها الإسلام؛ كالكذب والغيبة والنميمة وأكل المال الحرام والغش والرشوة.

الثاني: ما يظهر منه خلال الصحبة من عقيدة أو سلوك، فإن كان مخالفًا لما يظهر ومناقضًا لما أمر به الدين الحنيف، ولم يكن تقية، فهو خارج عن حقوق الأخوّة الإيمانية. وليس التقية مجرد عذر يُعتذر به، بل للتقية حدود معروفة، وليس كل من ارتكب مخالفة وقال إنّما أتيت بها تقية يُقبل منه.

فمن كان الإيمان ظاهرًا في عقيدته وسلوكه، يسمى مؤمنًا ما لم يثبت خلاف ذلك، وإن لم نكن نعرف باطنه وحقيقته، ووجبت له حقوق الأخوّة الإيمانية، وهذا هو النوع الأول الذي يُعرف به المؤمن.

وأما النوع الثاني فهو أن نتأكد من إيمانه بدليل واضح من خلال المعايشة، فنرى مدى صدق التزامه بحدود الإيمان وموافقة ظاهره لباطنه. ولكن إذا ما رأينا أنّ ظاهره الصلاح نبني على الظاهر ونأخذ بالظاهر، ونتعامل معه تعامل المؤمن، اللهم إلا أن يجيء منه نقض للذي وصف من نفسه وأظهره لنا، كما لو رأيناه يستمع إلى الأغاني في خلواته، وأمثال هذا السلوك الذي لا ينسجم مع ادّعائه، فهنا تتوقف الأخوّة الإيمانية، ولا يجوز لنا الأخذ بالظاهر بعد الذي رأيناه منه؛ لأنّه قد ظهر منه فعل يدل على خلاف ما يظهره للناس، ويخرج من وصف الإيمان الذي يظهره، لأننا رأينا منه ما ينافي الإيمان، وهو بالنسبة لمن رآه ليس بأخ مؤمن، وتنقطع الأخوّة الإيمانية، ولكن الآخرين الذين لم يروه، يحملونه على الظاهر وهو لهم أخ إيماني، وتجب مراعاة الأخوّة الإيمانية معه.

وهناك استثناء تبيّنه الرواية الكريمة، وهو أنّ الشخص الذي كان ظاهره إيمانيًا، لو جاء وادّعى أنّه إنّما صدرت عنه تلك المخالفة في القول أو العمل تقية، فلا يُقبل منه فورًا هذا الادّعاء، وإنّما ينظر في صحة هذه الدعوى، هل هي مستوفية لشروط التقية وحدودها فتُقبل منه، أو غير مستوفية فلا تُقبل منه؟؛ إذ للتقية شروط وحدود معروفة في الإسلام. ويحصل الإنسان على ثواب الأخوّة الإيمانية عندما يتواصل مع شخص ظاهره الإيمان،

ولم ينكشف له خلاف ذلك، ما لم يصدر منه تقية، حفاظًا على نفسه أو أنفس إخوانه المؤمنين. ولا يصدق فورًا، بل ينظر فيه، فإن كان ليس ممن يمكن أن تكون التقية في مثله، كما لو لم يكن هناك خوف من الضرر، أو كان هناك ضرر يسير لا يستدعي التقية، فإنّ الضرورات تقدّر بقدرها، وتمارس التقية بمقدار ما يرفع الضرر، فمثلًا يجوز للمؤمن أن يتكلم بخلاف الحقيقة بالمقدار الذي يدفع عنه الضرر، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1]، كما لو قيل له: إما أن تسب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أو نقتلك، فهنا يجوز السب؛ لأنّ الله تعالى يعلم أنّ هذا السب ليس من القلب، بل هو من اللسان فقط ، وأما من يسب أحد المعصومين عند كل مشكلة أو عند وجود أي مخالف له من غير أن يتعرض إلى تهديد واقعي للقتل ويزعم أنّ ذلك تقية، فهو هراء وزعم باطل يكشف عن كفر قائله أو فسقه على أقل تقدير، وهذا ليس محلًا للتقية، فإنّ للتقية موارد خاصة لا يجوز تخطيها.

إن بعض الناس قد تسوّل له نفسه أو يوسوس له الشيطان بارتكاب الحرام بذريعة التقية، كأن يكذب بحجة أنّها تورية، بينما للتورية مواردها المحددة في الفقه الإسلامي، ولقد نزلت الآية السابقة في عمار بن ياسر عندما عُرض عليه النطق بكلمة الكفر، وقد قُتل والده ووالدته أمامه عندما امتنعا من النطق بها، ونطق بها عمار فأُفرج عنه، وجاء إلى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ باكيًا مما كان منه، ظنًا منه أن ذلك غير جائز، فنزلت الآية الكريمة، أما أن تتحول حياتنا كلها وفي ظل الظروف الاعتيادية إلى تقية وتورية وخلاف للواقع، فهذه ليست من موارد التقية.

وأما موارد التقية التي يبيّنها الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي مثل أن يكون هناك قوم سوء، ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، ويقتلون من خالفهم على ذلك، فيضطر الإنسان إلى موافقتهم في الظاهر حفاظًا على حياته، كما يفعل بعض النواصب في قتل من لا يكتف يديه عند الصلاة في مناطقهم، أما أنّ يتظاهر الإنسان بالصلاة كما يصلون لمجرد مراعاة مشاعر الآخرين، من غير أن يتعرض لخطر ما، أو لمجرد الوحدة الإسلامية، فلا يجوز ذلك.

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦

والتقية جائزة في موارد الضرر بشرط ألاّ تؤدي إلى فساد في الدين، كأن يكون المؤمن بين قوم سوء إذا عمل بالحق ضربوه وآذوه واعتدوا على ماله وعرضه وحياته، فكل شيء يعمله المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين هو جائز. أما لو أدّت التقية إلى الفساد في الدين فهي غير جائزة، فلا يجوز ترك الصلاة أو الصيام أو أي من الفرائض الأخرى بذريعة التقية، وفي هذه الحالة يجب على المؤمن الهجرة إلى مكان آخر يستطيع فيه أداء فرائضه والحفاظ على دينه؛ لأنّ التقية إنّما شُرّعت للحفاظ على النفس والحفاظ على الدين، وأما إذا كانت سببًا في تضييع الدين فلا تجوز، يجب إظهار الحق، هذه الحدود مهمة جدًا، والتساهل فيها يوقع الإنسان في الكثير من المطبات.

وبهذا يتبيّن لنا جميعًا أنّ الإيمان الحقيقي هو الإيمان المقرون بالعمل، وهو الذي يمكن أن يؤخذ بظاهره في الأخوّة الإيمانية، فنؤاخي الناس الذين ظاهرهم التدين والالتزام، إلا أن يظهر خلاف ذلك، والخلاف إذا كان مبررًا بتقية أو ضرورة معينة فلا يخل حينئذ بالأخوّة الإيمانية، ولكن إذا لم يكن كذلك فهو مخل بها، وإذا اختلت الأخوّة الإيمانية بيني وبين زيد من الناس فلا يسري هذا إلى الآخرين الذين لا يعلمون، وعليهم الاستمرار في التعامل معه وفقًا لظاهره إلى أن يثبت لهم العكس، فشخص واحد يمكن أن يكون أخًا إيمانيًا لزيد ويؤجر على هذه الأخوّة، ولا يكون أخًا إيمانيًا لي ولا أؤجر على أُخوّته، بل يحرم أو يكره حسب طبيعة العلاقة وتأثيراتها في وجود الإنسان.

وأما الأخوّة الدينية الثابتة للمسلم والأخوّة الإنسانية الثابتة لغير المسلم، بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»[1]، فهذا بحث آخر لا علاقة له ببحث حقوق الأخوّة الإيمانية، فحقوق الأخوّة الإيمانية هي غير الحقوق العامة بين البشر بعضهم تجاه البعض الآخر.

وبهذا يتضح تعريف الأخوّة الإيمانية، ومن تجب مؤاخاته؟، وما حدودها وإطارها؟.

(١) نهج البلاغة ٣: ٨٤ الرقم ٥٣.

المحور الثاني

أقسام الأخوّة الإيمانية وأهميتها

يمكن أن نقسّم الأخوّة الإيمانية إلى عدة أقسام:

القسم الأول: بالنظر إلى ما يتحقق من الأخوّة الإيمانية من ثمار ونتائج، فيمكن أن نقسمها إلى قسمين: حق ولطف. والحق يعني كل ما ذكر من حقوق بين الأخوين الإيمانيين ويجب الوفاء بها، واللطف أمر زائد على الحق، أي إعطاء المؤمن أكثر من حقه المقرّر له في الشريعة، وهو من الثمار العالية للأُخوّة الإيمانية، فالبعض هممهم عالية لا يقفون عند الحد المفروض، بل يتعدونه إلى الأكثر ما دام في وسعهم ذلك.

القسم الثاني: بملاحظة شكل العلاقة،

الشكل الأول: أن تكون العلاقة مع شخص المؤمن وروحه علاقة مباشرة، وتتحقق هذه العلاقة باللقاء والمصاحبة والمجالسة والتزاور.

الشكل الثاني: هناك نمط آخر من الأخوّة في شكل العلاقة وهي علاقة السلوك، وتتجسد هذه العلاقة بالدعاء للمؤمنين مثلًا، فمن الممكن ألاّ نعرف أسماء أولئك المؤمنين الذين ندعو لهم، ولكننا يمكن أن ننصرهم بكلمة أو موقف وندفع عنهم ضررًا معينًا من غير أن يعلموا. وفي المجتمع الإيماني يؤخذ بالظاهر أيضًا، فكلهم مؤمنون وكلهم إخوة لنا ما لم يتبيّن الخلاف، ومراعاة حقوقهم كمجموع واجب أيضًا، كالدفاع عن امرأة محجبة تتعرض للاعتداء بسبب ارتداء الحجاب مع أننا لا نعرفها، فهذا سلوك فيه تعبير عن الأخوّة الإيمانية. فالتعبير عن الأخوّة أحيانًا يكون بالتواصل المباشر، ويكون أحيانًا بالسلوك والموقف والنصرة ودفع الضرر ودفع الخطر عن الأخ المؤمن أو الأخت المؤمنة.

الشكل الثالث من أشكال العلاقة: الاجتناب عن السلوك الخاطئ مع المؤمنين، بألاّ نعتدي عليهم ولا نسيء إليهم ولا نغضبهم ولا نقطع العلاقة معهم، فإنّ قطع العلاقة مع المؤمنين من الأمور الخاطئة والسلبية وخلاف حقوق الأخوّة الإيمانية، فلا يجوز الزهد بالأخوّة الإيمانية لأتفه الأسباب، نعيش اليوم في حياتنا ظاهرة غير صحيحة وهي الزهد بالأخوّة الإيمانية، بل حتى النسَبية لأتفه الأسباب، وأكثر هذه المشاكل القائمة بيننا اليوم قائمة على أساس الظنون والشكوك، ولو كان هناك مصارحة ومكاشفة مباشرة وبلا وسائط لانتهت أكثرها بمكالمة تلفونية، ولا

حاجة إلى أن نجعل وسطاء بيننا، فربما أدى ذلك إلى تفاقم المشاكل وازديادها. فالشكل الثالث هو ترك السلوك الخاطئ في نقض هذه العلاقة لأسباب تافهة، وفي تجريح الأخ المؤمن أو في إغضابه أو في الإساءة إليه أو في الشماتة به أو في الثأر لأنفسنا لأسباب غير واقعية.

القسم الثالث: دور العلاقة الإيمانية، هل هي باطنية قلبية أو ظاهرية؟.

هذه العلاقة تارة تكون علاقة قلبية، كأن يحب المؤمنين، سواء كان يعرفهم أو لا يعرفهم. وأحيانًا تقتصر هذه المحبة على من تكون له علاقة مباشرة معه فقط، أي أنّ فلانًا المؤمن الذي أعرفه وأتواصل معه وأصادقه تكون لي أُخوّة مباشرة معه.

ومن مصاديق هذه العلاقة الدعاء بقضاء حوائج المؤمنين، والدعاء بحل مشاكلهم، سواء كنّا نعرفهم أو لا نعرفهم، وكذا الانتصار لمؤمنين لا نعرفهم، كأن نرى شخصًا يتكلّم ضدّ شخص آخر من المؤمنين، فندافع عنه ونقول له إنّ كلامك بشأن هذا المؤمن بهذه الطريقة غير صحيح، فهو يصوم ويصلّي ولا يجوز أن تسيء إليه وتغتابه، هذه نصرة لمؤمن لا نعرفه، وتعتبر مثل هذه العلاقة علاقة باطنية وليست علاقة ظاهرية، وهي علاقة قلبية بين المؤمن وأخيه المؤمن.

المعرفة والمحبة

لا تأتي المحبة بلا معرفة، ولذلك ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «**من زارني عارفًا بحقي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر**»[1]، أي كلما كانت معرفة حق الإمام أكثر ازدادت المحبة له، والمحبة عن معرفة تكون محبة واقعية وتدفع إلى العمل، فالإنسان عندما يحب شخصًا يقلده، نضرب لذلك مثلًا، والأمثال تُضرب ولا تقاس، وهو ما نشاهده اليوم من تقليد بعض الشباب الذين يحبون مطربًا معروفًا أو نجمًا رياضيًا، فحين يعمل هذا تسريحة معينة لشعره كشعر القنفذ، نرى هؤلاء الشباب المعجبين يسرحون شعورهم كالقنفذ!، وهكذا في اختيار أنواع من الملابس غير اللائقة للجنسين بسبب موضات المشاهير التي تخرج في كل يوم بجديد، بل تعدّى الأمر عند البعض إلى أكثر من ذلك، فيأخذ بتقليد

(١) بحار الأنوار ٩٩: ٣٨، ح٣٣.

أصوات هؤلاء الذين يصفهم بالنجوم وطريقة كلامهم، فمثلًا إذا كان أحدهم (يرتل) بلسانه نرى هؤلاء المقلّدين (يرتلون) بألسنتهم مع أنّ ألسنتهم صحيحة لا عيب فيها.

يقال كان هناك أُستاذ أعجمي يعلّم القرآن لأطفال عرب، فكان يقرأ: «**غير المغزوب عليهم ولا الزالين**»، فيردد الأطفال وراءه نفس ما يقول، فكان يطلب منهم التلفظ الصحيح كما هو موجود في القرآن: «**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**»[1]، ولكنهم لا يفقهون ما يقول.

ولهذا السبب تلجأ شركات الإعلانات في سبيل تسويق بضاعتها إلى استخدام هؤلاء النجوم في دعايات الترويج لبضائعها، ليسارع الناس إلى شرائها لمجرد أنّ الممثل الفلاني أو الممثلة الفلانية قد ظهروا على الشاشات وهم يستعملون تلك البضاعة.

فإذا كان مثل هذه التعلقات المادية الخاطفة يستتبع التشبه، فكيف سيكون أثر العلاقات الإيمانية العميقة، كحبنا لأهل البيت عليهم السلام؟، ألا ينبغي أن تجلب تشبهًا بسلوكهم في طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته؟، وإذا كانت تلك العلاقات تؤثر في شراء البضاعة، وهذه العلاقات لا تؤثر في الطاعة، فإنّ هذا يعني وجود خلل في العلاقة بأهل البيت عليهم السلام، وأنّنا نسير وفقًا لأهوائنا، وأنّه ليس في قلوبنا حب لهم عليهم السلام، بل نحن نحب أنفسنا، وأنّنا نقوم بممارسة بعض الشعائر لئلا يقال إنّنا بعيدون عن الدين، ولئلا نصاب بتأنيب الضمير، فندّعي أننا محبون لأهل البيت عليهم السلام ونكتفي بالمشاركة في مواكب العزاء، كمن يقضي أيام سنته بعيدًا عن الصلاة والصيام، ولا يدع منكرًا إلا فعله، فإذا جاء شهر محرم لبس السواد وشارك في مواكب العزاء، ظنًا منه أنّ ذلك ينفعه، وهو يتجاهل أو يتغافل أن هذه الأعمال إذا لم تمنعه عن فعل الحرام وشرب الحرام والنظر إلى الحرام، فهي مجرد حركات يمارسها كما يمارس الرياضيون أمثال هذه الحركات، فنحن نسميها ركوعا وسجودا وهم يسمونها تمارين سويدية، بعض هذه الحركات تشبه أحيانًا بعض حركات العبادات ولكنها رياضة، و الفرق شاسع بين من يأتي بتلك الحركات طاعة لله عزّ وجلّ وامتثالًا لأمره، ومن يأتي بهذه الحركات من أجل تنشيط جسمه وتنمية عضلاته.

ولذلك لا ينبغي أن نستند إلى ادّعاء حب أهل البيت عليهم السلام، ونتخلى عن طاعة الله سبحانه وتعالى في إتيان ما فرض علينا، وكما قال الإمام الباقر عليه السلام: «**وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا**

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٥

بالورع»[١]، والورع درجة أعلى من التقوى، فهو يعني الابتعاد حتى عن القضايا المشتبه بها، هل هي حلال أو حرام، كمن شكَّ في أنّ هذا النوع من الموسيقى هل هو حلال فيجوز الاستماع له، أو حرام فلا يجوز؟، فالورع هنا هو الاجتناب عن الاستماع إلى ما كان مشكوك الحكم، الورع يعني أن يقف الإنسان عند الشبهة، وأما التقوى فهي الوقوف عند الحرام، وهنا يبيّن الإمام الباقر عليه السلام أنّ ولايتهم لا يحصل عليها الإنسان إلا بالورع عن محارم الله، فمن كان صاحب ورع فهو مستحق لنيل ولاية أهل البيت عليهم السلام، وتتجسد بالعمل الصالح والتشبه بهم في عبادتهم وتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

«**وأنّ أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره**»، فتقول الناس إن هذا إنسان طيب ونزيه، ولكنه يعمل بغير العدل، وقد قال الله سبحانه وتعالى في وصف هذه الفئة من الناس: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢]، أي أكثر الناس خسارة في يوم القيامة، هي تلك الفئة من الناس، التي تعتقد جازمة أنّها من أهل الجنة، وأنّ ما تأتي به من أعمال هو عمل صالح مرضي عند الله عزّ وجلّ، وهي في الواقع في حالة من الضلال والانحراف الكبير الذي سيقودها إلى جهنم لا محالة. وهكذا فإن أسوأ إنسان هو من تصفه الناس بأنّه مؤمن، وهو في الواقع فاسق والعياذ بالله، ويصفه الناس بأنه رجل طيب صالح نزيه رشيد، وواقعه لا يكون كذلك.

وقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حدّثني جبرئيل عليه السلام أنّ الله عزّ وجلّ أهبط إلى الأرض ملكًا، فأقبل ذلك الملك يمشي حتى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرته في الله سبحانه وتعالى. قال له الملك: ما جاء بك إلا ذاك؟ فقال: ما جاء بي إلا ذاك. فقال الملك: إني رسول الله إليك وهو يقرئك السلام ويقول: وجبت لك الجنة. وقال الملك: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: أيما مسلم زار مسلمًا فليس إياه زار، إياي زار وثوابه عليّ الجنة**»[٣].

من أجواء الرواية نعرف أنّ الجنة لم تجب لهذا المسلم لأنه صلّى عشرين سنة مثلاً، بل لأنّه قصد زيارة مؤمن وطرق بابه حتى يسلّم عليه لله تعالى وليس لغاية أخرى، وبهذا

---

(١) الكافي ٢: ٧٦، ح١.
(٢) الكهف:١٠٣ - ١٠٤.
(٣) الكافي ٢: ١٧٦، ح٢.

العمل ضمن الجنة لنفسه، فانظروا إلى أبعاد الأخوّة الإيمانية وأهميتها.

ثم تضيف الرواية الشريفة أنّ أي مسلم يقصد زيارة مسلم قربة إلى الله تعالى، فهذه في الحقيقة زيارة لله ﷻ. افترض أنك تملك ستة ملايين دينار، وقد رشح اسمك بالقرعة لزيارة بيت الله، ألا تريد أن تزور الله نفسه وليس بيته؟ من غير حاجة إلى ستة ملايين ولا تأشيرة دخول ولا قرعة، ولا تذل نفسك لهيئة الحج والعمرة، فاقصد أخاك المسلم الحقيقي وليس المسلم الظاهري. اقصد زيارة المؤمن قربة لله تعالى وليس لشيء آخر.

أنتم حالكم اليوم أحسن مني، لأنّكم تعيشون حياة طبيعية، وقد كان حالي قبل أن أُبتلى بالمسؤولية كحال بقية الناس، فاستطيع زيارة من أريد زيارته، وكذلك استقبال من يجيء لزيارتي من غير كلفة، كانت العلاقات طبيعية ليس فيها أشياء أُخرى.

عندما كنت طفلًا سمعت من الوالد قوله: كنت جالسًا مع والدي الإمام السيد (محسن الحكيم) في السيارة في النجف، في الطريق إلى مكتبه، فوقفت السيارة في الطريق لسبب ما، والتفت الإمام الحكيم ورأى حمّالًا يحمل كيسًا على كتفه ويمشي، فتحسر وقال: ليتني كنت مثل هذا الحمال في وقته وحياته. ولم أفهم حينها مغزى كلمات الإمام الحكيم، والآن صرت أعرف لماذا قال ذلك، لأنّ ذاك الحمّال كانت لديه حياة طبيعية كحياة سائر البشر، فيدخل ويخرج ويأتي ويذهب كحال الناس الآخرين، ولكن الإمام الحكيم لا يستطيع أن يعيش مثل الآخرين، لأنّ موقعه ووضعه ونظرة الناس إليه تحول دون ذلك. وخادمكم اليوم يتحسر على أن يذهب لزيارة أخ مؤمن ويجلس معه نصف ساعة، فيزور من غير أن تتوجه إليه الأنظار وتؤخذ له الصور، وتفقد الزيارة ذاك الطعم الطبيعي، اللهم إلاّ أن يذهب متخفيًا للزيارة ويبحث له عن زاوية لا يراه فيها أحد.

ولذلك فزيارة المؤمن لأخيه المؤمن لله تعالى وليس لأي دافع آخر، بل مجرد علاقة خالصة، هي زيارة لله ﷻ، وسوف يكون ثوابه على الله الجنة.

عن أبي غرة قال: «**سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعًا ولا استبدالًا، وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت وطابت لك الجنة، فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن، حتى يأتي منزله. فقال له يسير: جعلت فداك، وإن كان المكان بعيدًا؟ قال: نعم يا يسير وإن كان المكان مسيرة سنة، فإنّ الله جواد والملائكة كثيرة يشيعونه حتى يرجع إلى منزله**»[1].

(١) الكافي ٢: ١٧٧، ح٧.

تتحدث هذه الرواية الشريفة عن أهمية التزاور بين المؤمنين، وعظيم ثواب من يفعل ذلك بنية خالصة لله ﷻ. وقد تضمنت فقرات عديدة تسلّط الأضواء على مفهوم الأخوّة الإيمانية في الإسلام نتطرق إليها كما يلي:

«**من زار أخاه في الله**»: تبيّن هذه الفقرة أهمية الدوافع الإلهية في الأخوّة الإيمانية، وقد أكّد الإسلام في كثير من آياته على انحصار الثواب الأخروي لأي عمل من الأعمال التي يأتي بها الإنسان على أن يكون خالصًا لوجهه تعالى، من غير أن تشوبه شائبة رياء أو شرك، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1]، فقيمة أي عمل يأتي به الإنسان تستند إلى النية التي تدفعه إلى هذا العمل، وإن كان مظهر ذلك الفعل واحدًا في الخارج مهما كانت النيات والدوافع، ولكن تختلف آثارها الخارجية باختلاف الدوافع، فمثلًا أنّ الله ﷻ لا يجعل النمو والبركة في أي عمل ما لم يكن خالصًا لوجهه الكريم، كما جاء في المقولة المعروفة: «**ما كان لله ينمو**». وهنا في موضوع الأخوّة الإيمانية يتجسد هذا المفهوم الإسلامي في جميع مفرداتها، ومنها التزاور بين المؤمنين، وهذا التزاور وإن كان يأتي به المؤمن لأخيه المؤمن، ولكنه مع ذلك يفقد قيمته الأخروية ما لم يكن من أجل الله وفي سبيل الله وليس لأسباب أُخرى ، كأن يزوره لأنّ له حاجة عنده، أو يزوره لأنّه قادر على أن يساعده في أمر من أمور الدنيا، أو يزوره لأنّ عنده مصلحة معه. والزيارة التي يترتب عليها الثواب المذكور في الرواية الكريمة، هي الزيارة في الله، ومن أجل أنّ هذا العمل مرضي لله ﷻ.

«**في مرض أو صحة**»: لا تحتاج زيارة الأخ المؤمن إلى سبب، وإن صار متعارفًا في مجتمعاتنا اليوم ألاّ تكون الزيارة إلا لسبب؛ كالقدوم من الحج أو المرض وما شابه ذلك من مناسبات الأفراح والأتراح، والصحيح أنّ زيارة الأخ المؤمن مطلوبة في كل الأحوال ولا تحتاج إلى سبب أو إلى ظرف خاص.

«**لا يأتيه خداعًا**»: أي يزوره لا من أجل أن يخدعه أو ينكل به أو يوحي له أمرًا غير واقعي، فنحن في الحقيقة نستخدم في علاقاتنا ألفاظًا فيها خداع، ويمكن أن نكون غير قاصدين الخداع، وإنّما صارت عادة لدينا، فمثلًا إذا رأينا شخصًا نعرفه في الشارع نقول له بعد إلقاء التحية: مشتاقون، ونحن في الحقيقة لسنا مشتاقين، فقد تمر أشهر ولا نكلف أنفسنا عناء رفع سماعة التلفون والاتصال به، بل قد تمر السنون ولا نفعل ذلك، وهكذا

(١) سورة الزمر، الآية : ٣

نحن نستخدم مفردات معينة في علاقاتنا فيها شهادة بأُخوّة ومحبة وصدق نية وإخلاص واشتياق ومشاعر وهي ليست واقعية. والإسلام يريد علاقات صادقة.

«**ولا استبدالًا**»: ولم تكن هذه الزيارة للأخ المؤمن ردًّا على زيارته لي، لأنّها حينئذ لا تكون لله، وإنّما ذلك ما يقتضيه العرف الاجتماعي لا أكثر، وإنّ أكثر الزيارات اليوم هي من هذا القبيل، وهي وإن كانت حسنة في نفسها، ولكن لا يترتب عليها الأثر المذكور في الرواية وهو الجنة.

وهناك قسم من الناس يطلب عوضًا من نوع آخر لزيارته، وهو حل مشكلة له أو إسقاط دين له في ذمته، وغير ذلك من الأغراض التي لا تحصى كثرة، وهكذا وضع البعض للزيارة تسعيرة معينة.

«**وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه**»: في هذا المقطع من الرواية المباركة يبيّن الإمام الصادق عليه السلام النتيجة المترتبة على زيارة الأخ المؤمن الخالصة لوجه الله الكريم، وهي أن يشيعه سبعون ألفًا من الملائكة وهم ينادونه من ورائه وإن كان لا يسمع نداءهم لما اقتضته الحكمة الربانية من إخفاء صورهم وأصواتهم علينا، وإن كانوا قريبين منّا. ثم إنّ نزول هذه الأفواج العظيمة من الملائكة من السماء لترافق مؤمنًا يقوم بزيارة أخيه المؤمن قربة لله تعالى وطلبًا لرضاه ورجاء لثوابه، يكشف عن عظمة هذه الأعمال التي نحسبها صغيرة ولا نولي لها الاهتمام المطلوب.

«**أن طبت وطابت لك الجنة**»: أي أنّ من يبادر إلى زيارة أخيه المؤمن بنية خالصة لوجه الله تعالى، فهو إنسان طيب بشهادة الملائكة، وهو يعني أنّه نجح في مرحلة التمييز بين الخبيث والطيب التي تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(١)، وإذا كان المؤمن طيبًا زفّت له الملائكة البشرى بدخول الجنة، كما أخبرنا بذلك الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

والطيبة من سمات الإنسان صاحب الخلق الكريم، ويستحيل على صاحب الخلق اللئيم أن يكون طيبًا، ومن كان كذلك في نظر أهل السماء فلا بُدَّ من أن يكون كذلك في نظر أهل الأرض، لأنّ رائحة أقواله وأفعاله الزكية تنشر عطرها في كل زمان ومكان،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩

(٢) سورة النحل، الآية: ٣١

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾[2]، أي أنّ الكلمات الطيبة تصدر من الناس الطيبين، وما كان طيبًا من القول والعمل يصعد إلى الله سبحانه وتعالى ليستقر عنده، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[3]. ومن كان قوله وفعله طيبين طابت له الجنة، فهنيئًا لكم الجنة يا من تتزاورون في الله.

«**فأنتم زوار الله**»: أنتم في الحقيقة زوار الله تعالى، أنتم لم تذهبوا لزيارة المؤمن الفلاني، بل أنتم ذاهبون لزيارة الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ الذي يزور أخًا في الله ومن أجل الله بدون دوافع أخرى، فكأنه زار الله سبحانه وتعالى.

«**وأنتم وفد الرحمن**»: بل أنتم الوفد الذاهب للوفادة على الله سبحانه وتعالى.

«**حتى يأتي منزله**»: وهؤلاء الملائكة البالغ عددهم سبعين ألفًا يمشون خلف هذا المؤمن، وهم يهتفون في مسيرة سلمية: طبت وطابت لك الجنة، فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن، من حين خروجه من منزله إلى أن يصل إلى بيت ذلك المؤمن الذي يقصد زيارته، ثم ينتظرونه إلى أن يخرج ويرجع إلى منزله ثم ينصرفون.

«**فقال له يسير**»: أي قال الراوي للحديث ـ الذي كان اسمه يسير ـ للإمام الصادق عليه السلام.

«**جعلت فداك، وإن كان المكان بعيدًا؟**»: أي ولو كان المكان الذي يقصده الزائر لأخيه المؤمن بعيدًا؟، كأن يزور أخا له مؤمنا في البصرة مثلًا وهو في بغداد، فهل سيبقى هذا العدد الغفير من الملائكة معه ذهابًا ومجيئًا؟.

«**قال** عليه السلام: **نعم يا يسير، وإن كان المكان مسيرة سنة**»: أي ولو كان المكان المقصود يستغرق سنة ذهابًا وسنة مجيئًا، وهي أطول مسافة يستغرقها السفر إلى أقصى الأرض آنذاك.

«**فإنّ الله جواد**»: والمقصود من هذا الكلام هو رفع الاستغراب الذي وقع فيه راوي الحديث، فهذا فضل من الله تعالى، والله جواد، فلا ينبغي أن يستغرب من هذا العدد من الملائكة الذين يرسلهم مع كل مؤمن يزور أخاه قربة لله، فإنّ عدد الملائكة كبير جدًا، وهي تملأ سبع سماوات لا يستطيع البشر إدراك مقدار سعتها، وقد توصل العلم الحديث

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤

(٢) سورة النور، الآية: ٢٦

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠

إلى أنّ المسافة بين بعض الكواكب في السماء الدنيا والأرض تبلغ مئات الملايين من السنين الضوئية. كما أنّ جود رب العالمين وكرمه لا حدود لهما.

«**يشيعونه حتى يرجع إلى منزله**»: إنّ تسخير سبعين ألف ملك ذهابًا وإيابًا لكي يزور هذا الأخ المؤمن أخاه ويسلّم عليه ويعزّز علاقته الإيمانية معه، يكشف عن أنّ هذا التواصل بين المؤمنين يحظى بأهمية عظمى نحن عنها غافلون.

وفي رواية أخرى عن أبي حمزة، عن الإمام الباقر عليه السلام في مضمون الرواية السابقة نفسه، وتتفاوت معها في بعض الألفاظ، قال: «**إنّ العبد المسلم إذا خرج من بيته زائرًا أخاه لله لا لغيره، التماس وجه الله، ورغبة في ما عنده، وكّل الله عزّ وجلّ به سبعين ألف ملك ينادونه من خلفه إلى أن يرجع إلى منزله: ألا طبت وطابت لك الجنة**»[1].

تتضمن هذه الرواية الشريفة المروية عن الإمام الباقر عليه السلام فقرات عديدة، مشابهة لما ورد في الرواية السابقة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام، مما يعني أنّها قد صدرت في وقت أسبق وتداولتها أوساط المؤمنين رواية وعملًا، أي أنّ الرواية السابقة جاءت مؤكدة لما ذكرته هذه الرواية، وقد تزامن صدور هاتين الروايتين في المرحلة الانتقالية للحكم من السلطة الأموية إلى السلطة العباسية، حيث حصل بعض الانفراج الأمني الذي مكّن الشيعة من التحرك على مختلف الأصعدة ومنها الصعيد الاجتماعي، بسبب ضعف الحكم الأموي في سنواته الأخيرة، وضعف الحكم العباسي وانشغاله بتثبيت سلطانه في أوائل حكمه. ونشير إلى مضامين هذه الرواية إشارة سريعة.

«**إنّ العبد المسلم إذا خرج من بيته زائرًا أخاه لله لا لغيره**»: تتضمن هذه الفقرة التأكيد على الدوافع الإلهية والنية الخالصة لله عزّ وجلّ في هذه العلاقة.

«**التماس وجه الله**»: **يطلب بذلك رضا الله سبحانه وتعالى**.

«**رغبة في ما عنده**»: راغبًا في ما عند الله تعالى من الثواب الجزيل، وهو أيضًا نوع من أنواع العمل الخالص لوجهه الكريم، فالعمل رغبة في ثواب الله أو خوفًا من عقابه، لا يختلف عما لو كان العمل لله تعالى من غير أن يكون دافعه هو الرغبة في الثواب أو خوفًا من العقاب، وبما أنّ زيارة الإخوان المؤمنين هي من الأعمال المستحبة التي لا عقاب على تركها، لذلك اقتصرت الرواية الشريفة على ذكر الثواب فقط.

(١) الكافي ٢: ١٧٧، ح٩.

وكذلك لا يخلّ في خلوص نية القصد في زيارة الأخ المسلم لأخيه المسلم، لو كان الزائر يستفيد من هذه الزيارة منافع معنوية، كالاستماع إلى موعظة أو نصيحة أو تعلم علم ونحو ذلك، لأنّ فيه تعزيزًا للعلاقة والأخوّة الإيمانية، وكذلك لا يخلّ فيها من ذهب لزيارة أخيه المسلم لبحث قضية من قضايا المسلمين والتفكير في إيجاد حلول لمشاكلهم؛ لأنّه ليس في هذه الزيارة رغبة في مصالح ضيقة وانتهازيات، وإنما كانت لمصلحة عامة ولمعالجة همّ عام من هموم المسلمين، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**»[1].

إذن فالدوافع الإلهية لا تتنافى مع طلب الإنسان للثواب الإلهي، أو أن يكون طالبًا لعلم ومعرفة للحصول على كمال، فهذه أيضًا لله سبحانه وتعالى، وكذلك إذا كانت الزيارة لقضاء حاجة مؤمن أو علاج مشكلته، لأنّ هذا مما يرضي الله سبحانه وتعالى، وهذه الزيارة هي أيضًا لله سبحانه وتعالى.

«**وكّل الله عزّ وجلّ به سبعين ألف ملك ينادونه من خلفه إلى أن يرجع إلى منزله ألا طبت وطابت لك الجنة**»: مرّ نفس المضمون في الرواية السابقة، ولكن في الأولى زيادة: «**فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن**».

وفي رواية أخرى يرويها السكوني عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: لقاء الإخوان مغنم جسيم وإن قلّوا**»[2].

في هذه الرواية الكريمة ينقل الإمام الصادق عليه السلام حكمة من حكم أمير المؤمنين عليه السلام في فضل زيارة الإخوان. ونودّ أن نشير هنا إلى الغاية التي يسعى من أجلها أئمة أهل البيت عليهم السلام، في نقل أحاديث وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وهم يستطيعون أن ينشئوا كلامًا مثله أو قريبا منه، لأنّهم نور واحد وعلمهم من منبع واحد، وقد خطر بالبال أنّهم يفعلون ذلك لتعميق الصلة بين المسلمين ورسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، باعتبارهما الممثلين الحقيقيين للإسلام، ويجب على المسلمين أخذ معالم الدين الحنيف منهما، ولتبيّن أيضًا أنّ الإمام الصادق عليه السلام الناقل لأحاديثهما هو الامتداد الرسالي لهما، الذي يجب تلقي المعارف الإلهية عنه والأخذ منه.

وقد تضمنت هذه الحكمة الإشارة إلى فقرة واحدة نتناولها بالشرح والبيان.

«**لقاء الإخوان مغنم جسيم**»: يعني أنّ لقاء الإخوان مكسب عظيم، وفي هذه الرواية

---

(١) الكافي ٢: ١٦٣؛ ح١..

(٢) الكافي ٢: ١٧٩، ح١٦.

الكريمة جاء التعبير باللقاء بدلاً من الزيارة كما ورد في الروايتين السابقتين، واللقاء أعم من الزيارة؛ لأنّه قد يكون في أماكن عامة مثلاً، وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن لقاء الإخوان بأنّه غنيمة عظيمة، وهو تعبير يحتاج إلى تأمل كبير لما ينطوي عليه من معانٍ جليلة.

«**وإن قلّوا**»: أي وإن كان عدد هؤلاء الإخوان قليلاً، فإنّ لقاءهم يعدّ مكسبًا عظيمًا، لذا لا ينبغي الزهد في لقاء الإخوان؛ لأنّ هذه العلاقة هي علاقة نوعية، وأصل هذا التوجه أن يضع المؤمن يده بيد أخيه المؤمن ويبني معه علاقة، فالمهم أن ينفتح المؤمنون بعضهم على البعض الآخر، فإنّ هذا التوجه يجعل سبعين ألف ملك يمشون وراءه ويشيّعونه ذهابًا وإيّابًا، ويجلب له رضا الله سبحانه وتعالى، ويضمن له الجنة.

وليس المهم أن يكون هؤلاء المؤمنون واحدًا أو ألفًا، بل المهم هو نوعية العلاقة لا كميتها، وإن كان مما لا ينكر أنّه إذا كان العدد أكبر كان أحسن، ولكن إذا لم يوجد العدد الكبير فليس معنى ذلك أن نترك العلاقة، فإنّ العلاقة لا يكفي فيها أن تقتصر على الحب القلبي، بل لا بُـدَّ من أن تتجسد بوجود خارجي عن طريق التواصل والاطلاع على أحوال الأخ المؤمن وشؤونه عن قرب، فلعله في مأزق أو عوز مادي ويستحي أن يفاتح إخوانه بالموضوع ليساعدوه.

فضل المصافحة

انظروا إلى هذه الرواية الطريفة عن أبي عبيدة قال: «**كنت زميل أبي جعفر عليه السلام، وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو، فإذا استوينا سلّم وساءل مساءلة رجل لا عهد له بصاحبه وصافح، قال: وكان إذا نزل نزل قبلي، فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلّم وساءل مساءلة من لا عهد له بصاحبه. فقلت: يا ابن رسول الله، إنك لتفعل شيئًا ما يفعله أحد من قبلنا، وإن فعل مرة فكثير. فقال عليه السلام: أما علمت ما في المصافحة؟ إنّ المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه، فلا تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر، والله ينظر إليهما حتى يفترقا**»[1].

(١) الكافي ٢: ١٧٩، ح١.

تتحدث هذه الرواية الشريفة عن أهمية المصافحة بين المؤمنين وأثرها في محو الذنوب، وجلب النظر الإلهي إليهم. وغاية الإمام الباقر عليه السلام من هذا الدرس العملي مع أحد شيعته، تعليم المسلمين الأدب الإسلامي الرفيع في تعزيز العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين، وتتألف من فقرات عديدة، وهي واضحة المعنى ولكننا نمر عليها مرورًا سريعًا.

«**كنت زميل أبي جعفر** عليه السلام»: يعني كان أبو عبيدة ـ وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام ـ مرافقًا ومصاحبًا له في سفر، أو كانا خارجين معًا في مهمة.

«**وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو**»: انظروا هنا إلى أدب الإمام عليه السلام، وكيف كان ينتظر صاحبه في ركوب دابته أولًا احترامًا له، وكأنّ العرف آنذاك كان يقضي بركوب ذوي الوجاهة قبل غيرهم، مما يحمل في طياته شعورًا عند الآخرين بقلّة المرتبة الاجتماعية، فأراد الإمام عليه السلام أن يكسر هذا العرف الجاهلي، ويثبت قواعد الخلق الإسلامي الرفيع في التواضع وتقديم الآخرين أمام نفسه، وإشعارهم بعلو منزلتهم والمبالغة في احترامهم وتكريمهم.

«**فإذا استوينا سلّم وساءل مساءلة رجل لا عهد له بصاحبه وصافح**»: فبعد خروجهما معًا من بيت الإمام عليه السلام وركوب كل منهما دابته، يسلّم الإمام على أبي عبيدة سلامًا حارًا، وكأنّه لم يلتقه منذ مدة طويلة، ثم يقترب منه ويصافحه. وقد أثار هذا التصرف غير المتعارف استغراب أبي عبيدة، ولكنه فضّل السكوت وانتظار ما ستؤول إليه مصاحبته للإمام عليه السلام، لأنّ التريث هو أول درس يتعلّمه المؤمن من درس لقاء نبي الله موسى للخضر عليهما السلام، وهذا يكشف عن مدى الحكمة التي يتمتع بها أبو عبيدة.

«**قال: وكان إذا نزل نزل قبلي**»: وكأنّ العرف آنذاك كان يقضي بنزول ذي الوجاهة أخيرًا بعد أن ينزل الآخرون، أي على عكس العرف في الصعود، فكان الإمام عليه السلام يعامل صاحبه على عكس ما هو متعارف في زمنه، لنفس ما تقدّم آنفًا.

«**فإذا استويت أنا وهو على الأرض، سلّم وساءل مساءلة من لا عهد له بصاحبه**»: أي يسلّم الإمام بعد نزوله من الدابة على أبي عبيدة سلامًا حارًا، وكأنّه قد جاء من سفر بعد غياب طويل، مع أنّهما كانا معًا في أثناء الطريق لم يفترقا لحظة واحدة، لكنه يتقدّم نحوه ويصافحه.

«**فقلت: يا ابن رسول الله إنك لتفعل شيئًا ما يفعله أحد من قبلنا، وإن فعل مرة فكثير**»:

وهنا نفد صبر أبي عبيدة وسأل الإمام عن تصرّفه على غير ما هو متعارف بين الناس، في الاقتصار على التحية والمصافحة عند اللقاء الأول.

«**فقال** عليه السلام: **أما علمت ما في المصافحة؟**»: وهو جواب استنكاري لأبي عبيدة في استغرابه من فعل الإمام في تكرار المصافحة، مع أنّ من كان في منزلته يعرف ما في المصافحة بين المؤمنين من أجر وثواب عظيم.

«**إنّ المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه فلا تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر**»: ثم يبيّن الإمام عليه السلام أثر المصافحة بين المؤمنين في غفران الذنوب، وأنّها تتساقط عن المؤمنين أثناء المصافحة كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف. ومنه نستطيع أن ندرك السر في تصرف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند مصافحة أحد المسلمين، إذ كان لا ينزع يده من يد من يصافحه حتى ينزعها ذلك المسلم؛ لأنّ المصافحة كلما استغرقت وقتًا أكثر، كان تساقط الذنوب من الطرف الآخر أكثر.

«**والله ينظر إليهما**»: والمقصود بنظر الله تعالى إلى المتصافحين، هو شمول العناية الإلهية لهما حتى يفترقا.

وفي رواية أخرى يرويها أبو خالد القماط عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنّ المؤمنين إذا التقيا وتصافحا أدخل الله يده بين أيديهما، فصافح أشدهما حبًا لصاحبه**»[1].

تتناول هذه الرواية أيضًا موضوع المصافحة بين المؤمنين وأثرها في حياتهما، وهي تبيّن حقيقة غيبية لأثر المصافحة في المتصافحين، والمقصود من يد الله تعالى هنا هي بركته، ومعنى الرواية الشريفة أنّ المؤمنين عندما يتصافحان يدخل الله سبحانه وتعالى البركة والرحمة واللطف بينهما، ثم يصافح أشدهما حبًا لصاحبه، أي أنّ هذه البركة تذهب للأشد حبًا لصاحبه.

فلا يكفي أن يحب المؤمن أخاه المؤمن، ولا يكفي أن يعبّر عن هذه المحبة بالمصافحة، بعد أن كان نظر الله تعالى إلى مستوى العلاقة الأشد عمقًا، فالذي يحب أكثر هو الذي يحظى بالرحمة والبركة الأكثر، والرعاية الإلهية الأعظم.

إذن فالمطلوب حسن الظاهر والباطن، ففي الباطن يختار الله تعالى أشدهما حبًا، والأشد حبًا هو من كان حبه من سويداء القلب فيكون حبه حقيقيًا، والحب الحقيقي هو الحب لله عزّ وجلّ، لا من أجل مصلحة دنيوية. وقد يبتسم شخص للجميع ويحييهم

(١) الكافي ٢: ١٧٩، ح٢.

ويصافحهم، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن يكون نابعًا من حب الآخرين، بل قد يكون لعادة حسنة تعودها أو لمصلحة شخصية اقتضتها، والعلاقة التي تحظى بالاهتمام الإلهي هي تلك العلاقة النابعة من الحب لله عَزَّوَجَلَّ لا مطلق الحب، فربما كان الطرف الآخر محبوبًا لدماثة أخلاقه أو لقرابته أو وسامته وما إلى ذلك.

وروى أبو عبيدة الحذاء قال: «**زاملت أبا جعفر في شق محمل من المدينة إلى مكة، فنزل في بعض الطريق، فلما قضى حاجته وعاد قال: هاك يدك يا أبا عبيدة، فناولته يدي فغمزها حتى وجدت الأذى في أصابعي، ثم قال: يا أبا عبيدة ما من مسلم لقي أخاه المسلم فصافحه وشبك أصابعه في أصابعه إلا تناثرت عنهما ذنوبهما كما يتناثر الورق من الشجر في اليوم الشاتي**»[(١)].

تتطرق هذه الرواية الكريمة أيضًا إلى أهمية المصافحة بين المسلمين، وأثرها في محو الذنوب، وكيف أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يلتمس أدنى عذر ـ وهو الافتراق بضع دقائق ـ في سبيل تطبيق هذه الشعيرة الإسلامية، ويكرس في مجتمع المسلمين هذا الخلق العظيم، لما له من أثر جسيم في مستقبل المسلم، وهو غفران الذنوب التي ارتكبها طيلة حياته، وذهابه إلى لقاء بارئه عَزَّوَجَلَّ نظيفًا من أدران المعاصي.

وغمز اليد بقوة عند المصافحة هو إشارة إلى شدّة الحب وعمق الشوق الذي يضمره الإنسان لصاحبه، وليس المقصود منه كما يرمي إليه البعض في هذه الأيام هو إيذاء الآخر، أو بيان مقدار قوته وشدة عضلاته، بل إنّ شدّة الغمز دليل على شدّة المحبة، ولذا ينبغي أن يحرص عليها المسلم، ليكون صاحب النصيب الأوفر في الحصول على الأجر والثواب الأخروي.

ثم بيّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبي عبيدة أثر المصافحة في محو الذنوب، وكيف أنّها تتساقط عن المتصافحين كما يتساقط الورق من الشجر في يوم من أيام الشتاء من شدة البرودة، حيث تتيبس هذه الأوراق وتتناثر، وكما أنّ الشجر يصير أملس لا ورق فيه، فكذلك المسلم بعد المصافحة يكون خاليا من الذنوب.

وفي رواية يرويها أيمن بن محرز عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**ما صافح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رجلًا قط فنزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه**»[(٢)].

---

(١) الكافي ٢: ١٨٠، ح٥.

(٢) الكافي ٢: ١٨٢، ح١٥.

تتحدث هذه الرواية المباركة عن خُلق رفيع من أخلاق رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في المصافحة، وهو أنّه لم يكن ينزع يده من يد من يصافحه، حتى يكون ذلك الشخص هو الذي ينزع يده من يد رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، على عكس العرف الشائع الآن في بعض الأوساط من المبادرة إلى نزع يده، بمجرد التماس مع يد من يصافحه.

إنّ السبق إلى إلقاء التحية يعني السبق في إقامة العلاقة، والاستمرار في المصافحة يعني الإصرار على استمرار هذه العلاقة، وفيها إشعار بالاحترام والاهتمام. فطول المصافحة أمر مهم جدًا لما فيه من حفاوة العلاقة.

وفي رواية أخرى يرويها ابن القداح عن أبي عبدالله عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «**لقي النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حذيفة، فمدّ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يده فكفّ حذيفة يده، فقال النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: يا حذيفة بسطت يدي إليك فكففت يدك عني؟ فقال حذيفة: يا رسول الله بيدك الرغبة، ولكني كنت جنبًا فلم أحب أن تمس يدي يدك، فقال النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: أما تعلم أنّ المسلمين إذا التقيا فتصافحا تحاتت ذنوبهما كما يتحات ورق الشجر**»(1).

كان حذيفة ـ وهو من أصحاب النبي الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ـ يمشي، فرآه النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فسلّم عليه ومدّ يده إليه ليصافحه، ولكن حذيفة لم يمدّ يده ليصافح النبي، وهذه المبادرة تعكس الخُلق الرفيع لرسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الذي شهد به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(2)، خلافًا لما هو متعارف اليوم من أنّ الأقل شأنًا هو الذي يبادر إلى إلقاء التحية ومدّ اليد للمصافحة، ثم إنّ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بالإضافة إلى ذلك هو الذي بادر إلى سؤال حذيفة عن سبب كف يده، حرصًا منه على تربية أصحابه على الأخلاق الحميدة، في حين كان ينبغي لحذيفة أن يبادر إلى بيان السبب قبل أن يُسأل، وأجاب حذيفة بأنه كان مجنبًا، ولذلك لم يمدّ يده ليصافح يد رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ لأنّه لم يحب أن يمس يد رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وهو غير طاهر، وإلا فمن لا يرغب في التبرك بمصافحة يده الكريمة؟. فبيّن له رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الأثر العظيم للمصافحة بين المسلمين في محو الذنوب وإن لم يكونا على طهارة.

---

(1) الكافي ٢: ١٨٣، ح١٩.
(2) سورة القلم، الآية: ٤.

فضل المعانقة

وردت في فضل المعانقة نصوص كثيرة ، نذكر بعضًا منها.

روى إسحاق بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**إنّ المؤمنين إذا اعتنقا معانقة غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضًا من أغراض الدنيا قيل لهما: مغفورًا لكما فاستأنفا، فإذا أقبلا على المساءلة في يوم القيامة، قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما فإنّ لهما سرًا وقد ستر الله عليهما. قال إسحاق: فقلت: جعلت فداك فلا يكتب عليهما لفظهما وقد قال الله عزّ وجلّ:** ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]؟ **قال: فتنفس أبو عبد الله عليه السلام الصعداء ثم بكى حتى اخضلت دموعه لحيته وقال: يا إسحاق إنّ الله سبحانه وتعالى إنما أمر الملائكة أن تعتزل عن المؤمنين إذا التقيا إجلالًا لهما، وإن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما فإنّه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى**»[2].

تتحدّث هذه الرواية الكريمة عن أهمية المعانقة ـ وهي أن يضع كل واحد منهما عنقه على كتف الآخر ـ في تمتين أواصر الأخوّة الإيمانية بين المؤمنين، وما لها من أثر عظيم في محو الذنوب، وهي تتألف من فقرات عديدة نحاول أن نستوحي منها بعض الأفكار والمفاهيم التي تساعدنا على انتشال أنفسنا إلى مراقٍ أعلى من الكمال.

«**إنّ المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة**»: إذا التقى المؤمنان ولم يكتفيا بإلقاء التحية والمصافحة، بل تعديا إلى مستوى أعلى فتعانقا، فإنّ جزاءهما أن يغمرهما الله تعالى برحمته الواسعة، فالحب في الله والتعبير عن هذه المحبة وهذه الأخوّة بالمعانقة أمر يستنزل الرحمة الإلهية.

«**فإذا التزما**»: أي إذا أمسك كل واحد منهما صاحبه أثناء المعانقة.

«**لا يريدان بذلك إلا وجه الله، ولا يريدان غرضًا من أغراض الدنيا**»: أي إذا كان أساس هذه المعانقة وهذا الالتزام قربة لله سبحانه وتعالى، وليس لغرض دنيوي مهما كان ذلك الغرض.

«**قيل لهما: مغفورًا لكما فاستأنفا**»: أي قال لهما الله تعالى أو قالت لهما الملائكة نيابة

---

(١) سورة ق، الآية : ١٨

(٢) الكافي ٢: ١٨٤، ح٢.

عن الله تعالى: إنّ الله تعالى قد غفر لكما ذنوبكما فاستأنفا العمل من جديد، وافتحا صفحة جديدة خالية من كل ذنب اقترفتماه، فالاستئناف يعني أن يبدأ الإنسان عمله من جديد بعد أن غفر الله تعالى له كل الذنوب التي ارتكبها في حياته، وهذه صفحة بيضاء كيوم ولدته أمه، فليستأنف العمل، ومن اليوم سيكتب في هذا السجل ما يأتي به من أعمال، فليملأه بالحسنات والعمل الصالح ويتجنب ارتكاب الذنوب ليبقى نظيفًا، فيعطى كتابه في يمينه ليحاسب حسابًا يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا.

«**فإذا أقبلا على المساءلة في يوم القيامة**»: أي عندما تقوم القيامة وينشر الناس للحساب ليُسألوا عما فعلوا في الحياة الدنيا.

«**قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما فإنّ لهما سرًا وقد ستر الله عليهما**»: أي تقول ملائكة الحساب بعضها لبعض: افسحوا الطريق لهؤلاء، فإنّه غير مسموح لكم أن تحاسبوهم؛ لأنّ لهم سرًا مع الله سبحانه وتعالى. وهو ـ من باب المثال ـ يشبه من يصل في المطار إلى مكان تدقيق الجوازات ليسمح له بدخول البلد، فيقول موظفو الجوازات بعضهم للبعض الآخر: افسحوا له الطريق ليعبر، ولا يُسمح لكم بمعرفة شيء عن هويته، جوازه مشفّر لا يُسمح لكم بالاطلاع على ما فيه؛ لأنه رجل مهم، وصاحب سر وعنده تصريح خاص في العبور.

إذن، من يعمّق علاقته الإيمانية بإخوته، فإنّ الملائكة في يوم القيامة عندما تفتح سجله للمساءلة لا ترى أي معلومة عنه، وجميعها مستورة عنهم، ويقال لهم: هذا ليس من عملكم، لا تتدخلوا في هذه القضية، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أخفى أعمالهم، ولا يحق حتى للملائكة أن تطّلع على أعمالهم وتحاسبهم.

«**قال إسحاق: فقلت: جعلت فداك فلا يكتب عليهما لفظهما وقد قال الله عزّ وجلّ**: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾»[1]: أي قد أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنّ كل كلمة ينطق بها الإنسان في الدنيا، وكل فعل يأتي به، يُسجّلان في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكيف تقول إنّ سجلهما خالٍ ولم يدوّن فيه شيء؟.

«**قال: فتنفس أبو عبد الله عليه السلام الصعداء**»: أي صعد نفسه حسرة وألمًا.

«**ثم بكى حتى اخضلت دموعه لحيته**»: أي تبللت لحيته بدموع عينيه.

«**وقال: يا إسحاق، إنّ الله سبحانه وتعالى إنما أمر الملائكة أن تعتزل عن المؤمنين إذا التقيا إجلالًا**

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨

لهما»: فيأمر الله تعالى الملائكة بأن تبتعد جانبًا وتفسح الطريق أمام المؤمنين ولا تتدخل في شأنهما، وتسمح لهما بالجواز إلى الجنة من غير حساب؛ كل ذلك يفعل بهما إجلالًا وإكرامًا وتعظيمًا لهما، لئلا تطّلع الملائكة على شيء من ذنوبهما فتنظر إليهما نظرة استصغار.

«**وإن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما**»: أي لم يسمح الله عَزَّ وَجَلَّ للملائكة في الدنيا أن تقترب وتسجل ما يقوله هذان المؤمنان، وحجب عنهم سماع ما يقولان.

«**فإنّه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى**»: ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما قالوا؛ فإنّه يعلم السر الذي يخفيه الإنسان في قلبه ولم ينطق به، فكيف يعزب عن علمه ما تلفّظ به الإنسان؟، ولكن كرامة لهذه الأخوّة الإيمانية، وكرامة لالتزام أحدهما للآخر، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حجب ذلك عن ملائكته ولم يسمح لهم بأن يعلموا ما يدور بين هذين المؤمنين.

وفي هذا السياق مجموعة أخرى من الروايات ذات مداليل مهمة جدًا.

العلاقة الروحية بين المؤمنين

روى جابر الجعفي قال: «**تقبضت بين يدي أبي جعفر** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فقلت: جعلت فداك، ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر ينزل بي، حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي، فقال: نعم يا جابر، إنّ الله** عَزَّ وَجَلَّ **خلق المؤمنين من طينة الجنان، وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، فإذا أصاب روحًا من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزنٌ حزنت هذه لأنّها منها**»(١).

تفسّر هذه الرواية المباركة حالة نفسية يمر بها المؤمن أحيانًا ولا يجد لها تفسيرًا، وذلك حين يشعر بالانقباض من غير علة ويضيق صدره من غير سبب، وقد مرّت هذه الحالة بجابر الجعفي، أحد حواريي الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو جالس بين يديه، فسأله عن تفسير هذه الحالة النفسية التي تنتابه بين الفينة والأخرى، من غير أن يعرف لها سببًا،

(١) الكافي ٢: ١٦٦، ح٢.

وهي من الشدّة بحيث يعرف منه ذلك أهله وأصدقاؤه، فالإنسان تمر عليه حالات من هذا النوع لسبب يعتريه ويعرفه كفقدان مال أو ولد، ولكن أن يضيق صدره فجأة من غير أن يعرف لذلك سببًا ثم يزول بعد مدة، فهذا أمر يدعو إلى الاستغراب والتساؤل. وتفسير هذه الظاهرة من كنوز علوم آل محمد التي لا يتسنى لغيرهم معرفتها، ولولاهم لبقي تفسيرها سرًا لا يهتدي إليه أحد من الناس مهما بلغ من العلم؛ لأنّها ترتبط بعوالم أخرى لا يمكن أن يطّلع عليها الآخرون.

وتفسير هذه الحالة على لسان الإمام الباقر عليه السلام، هو أنّ الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين جميعًا من طينة الجنة، ونفخ فيهم من روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، وإن لم يكن من أبيه وأمه المباشرين، ولكن جينات المؤمنين تأتي من منبت صالح واحد وتتفرق عبر الأصلاب، ولذلك تكون في المؤمن أمارات الصلاح منذ الطفولة. فإذا أصاب روحًا من تلك الأرواح التي هي حية ترزق في نفس الزمان الذي يعيش فيه في بلد من البلدان حزنٌ، حزنت لها الأرواح الأخرى؛ لأنّها منها.

فمثلًا إذا أصاب أحد المؤمنين في بنغلادش أو ميانمار أذى، وأنا لا أعرفه ولا أدري أين تقع بنغلادش أو ميانمار، ينقبض قلبي فجأة، من غير أن أعرف ذلك المؤمن، لا اسمه ولا مكانه ولا أدري ما حلّ به، لأنّنا من طينة واحدة. وطبعًا لا يسري هذا الانقباض في كل الحالات، وإلا لو كان أي مؤمن في أي مكان يتعرض إلى أذى فتنقبض له صدور المؤمنين الآخرين، لكان المؤمن يعيش في حالة انقباض مستمر، إذ لا شك في أنّه في كل لحظة على مدار الساعة هناك مؤمنون يتعرضون إلى مظالم في أماكن متفرقة من العالم، إذن لا بُـدَّ من وجود حالات معينة أو ظروف خاصة تسري فيها هذه الحالة إلى قلوب المؤمنين الآخرين.

ولذلك نجد أحيانًا أثر مثل هذه العلاقة الروحية العميقة بين الأم وولدها، فإذا تعرض لحادث وهو في مكان آخر ينقبض قلبها، والعلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن أوثق من علاقة الأم بولدها، فتظهر مثل هذه الآثار.

وروى علي بن عقبة عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه، ولا يظلمه، ولا يغشّه، ولا يعده عدة فيخلفه**»(1).

(1) الكافي ٢: ١٦٦، ح٣.

تتحدّث هذه الرواية الشريفة عن حدود وضوابط العلاقة الإيمانية التي يجب أن ترتقي إلى مستوى الأخوّة، باعتبارها أرسخ علاقة عرفها الإنسان مع أفراد نوعه. وهي تتضمن مجموعة من الحقائق والحقوق نبيّنها في ما يلي.

«**المؤمن أخو المؤمن**»: تبدأ الرواية ببيان الأساس الذي تبنى عليه العلاقة بين المؤمنين، وهو أنّ هذه العلاقة هي علاقة الأخوّة، وليست علاقة صداقة أو جوار أو رفقة أو قرابة من الدرجة الثانية.

«**عينه**»: يرى الإنسان بعينه الأشياء كما هي، وأما كيف يصفها للآخرين فهذا بحث آخر، ولكن هو يراها بلا رتوش، والمؤمن هو عين أخيه المؤمن، فيجب عليه أن يرى الأشياء له كما هي، وينقلها له كما هي بلا زيادة أو نقصان، وربما يخشى البعض أنّه لو نقل الواقع كما هو لأخيه المؤمن فسوف لا يقبل، فيقال له: حسنًا لو كان هذا الأخ موجودًا هنا ورأى بعينه هذا الأمر فهل سيرفض؟ طبعًا لا، فعين المؤمن هي كذلك لأخيه المؤمن، وهو يرى لأخيه كما يرى لنفسه حتى يصح أن يكون عينه، وإلا لم يكن عينه.

«**ودليله**»: والمؤمن ليس فقط عينًا للمؤمن، بل هو دليل له يرشده وينصحه، ويبيّن له الخطأ من الصواب، ولكن ليس أمام الآخرين لئلا يخجله، بل يتكلم معه على انفراد ويقول له بلطف ومحبة، إنّ القول أو العمل الفلاني الذي صدر منك لم يكن جيدًا، وهذا السلوك سوف يُحسب عليك، ويتجنب الشدّة والخشونة والعناد والخصومة في النصيحة، ويحرص على الهداية والإرشاد إلى الطريق الصحيح.

«**لا يخونه**»: فالمؤمن لا يخون أخاه المؤمن عند إرشاده ونصيحته، فمثلًا إذا تصدى لإلقاء خطبة ولم يكن موفقًا فيها لا يقول له: لقد كانت خطبة لطيفة، وتضمنت كلامًا جميلًا، وكان أداؤك رائعًا، في حين كان جميع من سمعوه يضحكون، بل يقول له بكل صدق: إنك لم تحضّر لهذه الخطبة بشكل صحيح، ولم يكن أداؤك جيدًا، فلا يغرّر به ولا يضيّعه بالمجاملات. ينبغي أن يقول له: هذا صح وهذا خطأ، يجب أن يكون الأمر بهذا النحو وليس بذاك النحو، كل ذلك بمحبة ولطف وعلى انفراد وليس أمام الآخرين، وبالتلميح لا بالتصريح إن استطاع أن يتوصل إلى مطلوبه، وإلا نبيّن له بشكل صريح وواضح ولكن بطريقة لا تزعجه.

وعلينا استخدام المفردات والكلمات التي ليس فيها خدش لمشاعره؛ لأنّ الإنسان تأخذه العزة بنفسه وبكبريائه، فإذا تكلّمنا معه كلمة بطريقة خشنة، فإنّه لن يقبلها منا حتى لو كانت حقًا، ولهذا ينبغي أن نتكلّم معه بطريقه يتقبلها منا.

«**ولا يظلمه ولا يغشه**»: فلا ظلم ولا غش بين المؤمنين، وهو عندما يبيّن له الحقيقة كما هي- لأنّه عينه ودليله - لم يظلمه ولم يغشه، فيجب قول الواقع كما هو، وليس في ذلك شيء، فالكمال لله ﷻ، وكلنا خطاؤون.

وينبغي على المؤمن أن يتقبل النصيحة من أخيه المؤمن ولا تأخذه العزة بالإثم، وعليه أن يقتدي بقول الإمام الصادق عليه السلام: «**أحب إخواني من أهدى إليّ عيوبي**»[(١)]، فالمعصوم يسمّي الإخبار بالعيوب هدية؛ لأنّ المؤمن عندما يعلم بعيوبه يبادر إلى إصلاحها فيتكامل، وبذلك يتجنب تكرارها لأنّه كان يظنها عملًا صحيحًا ولم يلتفت إلى خطئها. وهو امتثال للأمر الإلهي بالتواصي بالحق: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[(٢)]، والتواصي بالحق أمر مهم جدًا.

وفي رواية أخرى يرويها أبو بصير قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئًا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة، وإنّ روح المؤمن لأشد اتصالًا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها**»[(٣)].

تتحدّث هذه الرواية المباركة عن الترابط العضوي المتين بين المؤمنين، وتشبّهه بأعضاء الجسد الواحد، وكيف أنّه لو تعرض عضو منه إلى المرض أصاب الألم سائر الجسد، وتعرض للسهر والحمى، فيسلب النوم من عينيه، فكذلك المؤمن إذا تعرض لمحنة أو مشكلة، أصابت مجتمع المؤمنين جميعًا حالة الاستنفار لاستنقاذ ذلك المؤمن من محنته، وهذا هو التفسير الحقيقي للأخوّة الإيمانية. أما أن يبقى المؤمن يعاني وحده ما يصيبه من آلام وأذى، فذلك بعيد عن معنى الأخوّة، ولا يكون المؤمن حينئذ أخا للمؤمن ولا يكون معه كالجسد الواحد، فالذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون هو حالة التواصل والترابط والتعاون والتآزر والتكاتف بعضهم للبعض الآخر، لكي يستطيعوا أن

---

(١) الكافي ٢: ٦٣٩، ح٥.
(٢) سورة العصر، الآيات: ١ - ٣
(٣) الكافي ٢: ١٦٦، ح٤.

يقفوا أمام المشكلات والمصاعب والتحديات، لا أن يكون بعضهم منعمًا لا يسأل عن باقي إخوانه المؤمنين، ما دام قد أمّن لنفسه وسائل الحياة المرفهة، أو يعيش مع من كان مثله مرفهًا ويترك باقي المؤمنين يقاسون آلام الفقر والمرض والإذلال وألوان المصائب والمصاعب، بل قد يصل الأمر إلى أكثر من ذلك؛ عندما يقف حائلًا أمام جهود مؤمنين آخرين لإنقاذ إخوانهم مما هم فيه من العوز والحرمان والاستضعاف.

ويخبرنا الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية أنّ أرواح المؤمنين من روح واحدة وأنّ روح المؤمن لأشد اتصالًا بروح الله سبحانه وتعالى من اتصال شعاع الشمس بالشمس، ونحن نعلم طبيعة العلاقة بين الشمس وشعاعها، بحيث هي غير قابلة للانفكاك وهما متلازمان لايفترقان، وأنّه ما دامت الشمس موجودة فشعاعها موجود لا محالة، فكذلك روح المؤمن هي على اتصال مستمر ودائم بروح الله تعالى لا تنفك عنها، وهي أقوى وأشدّ من علاقة شعاع الشمس بها.

وفي رواية أخرى عن حفص بن البختري قال: «**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام ودخل عليه رجل، فقال لي: تحبه؟ فقلت: نعم. فقال لي: ولم لا تحبه وهو أخوك، وشريكك في دينك، وعونك على عدوك، ورزقه على غيرك**»[1].

تتحدّث هذه الرواية الشريفة عن حقيقة أخرى من حقائق الأخوّة الإيمانية، وهي حب المؤمن للمؤمن وإن لم يعرفه، وهي ظاهرة تلفت الانتباه، إذ إنّ الإنسان لا تتولد عنده مشاعر الحب والكراهية للآخرين إلا بعد الاختلاط بهم ومعرفة أفكارهم وسلوكهم. وتفسير هذه الظاهرة هو ما أشارت إليه الروايات السابقة، في أنّ أرواح المؤمنين مخلوقة من طينة واحدة، ولذلك يألف بعضها بعضًا ويحب بعضها بعضًا.

ثم يبيّن الإمام الصادق عليه السلام الأسباب التي تدعو إلى حب المؤمن لأخيه المؤمن بالإضافة إلى ما مرّ ذكره، وهي أربعة أسباب:

السبب الأول: الأخوّة، ومن الطبيعي أن يحب الأخ أخاه لا لسبب سوى الأخوّة.

السبب الثاني: الشراكة في الدين، وهي الشراكة في الإيمان، وبما أنّ هذه الشراكة ليست شراكة دنيوية، فهي لا تستدعي الخصومات والنزاعات كما هو الحال في الشراكات الدنيوية، كما أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا

---

(١) الكافي ٢: ١٦٦، ح٦.

مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1]، فالشراكة في الدين هي شراكة خطيرة ومهمة.

السبب الثالث: الإعانة على العدو، فعندما يتعرض المؤمن إلى اعتداء بسبب دينه، نرى أنّ باقي المؤمنين يهبون لنصرته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[2].

السبب الرابع: عدم تحمل نفقته؛ لأنّ من كان شريكًا وعونًا يحتاج إلى حقه في الشراكة والإعانة، إلا المؤمن فإنّ رزقه على غيره وهو الله سبحانه وتعالى. فالمؤمن كله عون وإسناد، وكله قرب وشراكة، من غير أن يتحمل الآخرون تبعاته، ولذلك وصف رسول الله صلى الله عليه وآله المؤمن بأنّه «**قليل المؤونه كثير المعونة**»[3]، ولهذه الاسباب مجتمعة يقول الإمام الصادق عليه السلام لحفص البختري: «**ولم لا تحبه وهو أخوك، وشريكك في دينك، وعونك على عدوك، ورزقه على غيرك**».

وفي رواية أخرى عن أبي حمزة يرويها عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**سمعته يقول: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه؛ لأنّ الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان، وأجرى في صورهم من ريح الجنة، فلذلك هم أخوة لأب وأم**»[4].

تتناول هذه الرواية الكريمة بيان حقيقة العلاقة بين المؤمنين، وأنّها بمنزلة الأخوّة النسبية، باعتبارها أقوى الروابط الإنسانية بين البشر، وذلك لأنّهم خُلقوا من طينة واحدة، وهي طينة الجنة، وهذا يعني أنّ أصلهم واحد وإن انتقلوا في أصلاب شتى، ولذلك ينبغي أن تكون العلاقة بينهم كالعلاقة بين الأخوين النسبيين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾[5]، يعني أنّ الأخوّة الإيمانية أولى من الابن النسبي لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وأنّ الأخوّة الإيمانية مقدّمة على الأخوّة النسبية.

وعن جميل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**سمعته يقول: المؤمنون خدم بعضهم لبعض. قلت: وكيف يكونون خدمًا بعضهم لبعض؟ قال: يفيد بعضهم بعضًا**»[6].

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤

(٢) سورة الشورى، الآية : ٣٩.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٣١١، ح٤.

(٤) الكافي ٢: ١٦٦، ح٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية : ٦٨.

(٦) الكافي ٢: ١٦٧، ح٩.

يتناول الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث المبارك بُعدًا آخر من أبعاد الأخوّة الإيمانية، وهو خدمة المؤمن للمؤمن، ولكن ما معنى هذه الخدمة؟ هل معناها أنّ المؤمن يذهب إلى بيت أخيه المؤمن ليقوم له ببعض الأعمال المنزلية؟ ولذلك تساءل الراوي عن كيفية هذه الخدمة، فأجابه الإمام عليه السلام بأنّ معناها أن ينفع بعضهم البعض الآخر، أي أنّ كل واحد من المؤمنين يقدّم لإخوانه المؤمنين ويساعدهم في ما هو من اختصاصه، فمثلًا من كان نجارًا يستطيع أن ينجز لإخوانه ما يحتاجون إليه بإتقان أكبر وأجر أقل، ومن كان بقالًا يبيع لهم بضاعة جيدة بسعر أقل.. وهكذا، وهذا يسمّى خدمة متبادلة، فمنظومة المؤمنين منظومة تخادم في ما بينهم، ولا يوجد في قاموسهم: لا دخل لي في ما تريد، اذهب وابحث عن شخص آخر غيري، لا فرق بينك وبين الآخرين، لا استطيع أن أقدّم لك خدمة، لا وقت عندي لما تطلبه منّي..وهكذا، بل على المؤمن أن يبذل قصارى جهده لخدمة إخوانه المؤمنين.

وفي رواية يرويها محمد الطيار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**لم تتواخوا على هذا الأمر وإنما تعارفتم عليه**»[1].

يبيّن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الحديث الشريف عمق الأخوّة الإيمانية، وأنّها لم تكن وليدة الحياة الدنيا، بل هي تمتد إلى عوالم أسبق؛ عندما خلقهم الله سبحانه وتعالى من طينة واحدة، فثبتت لهم الأخوّة في ذلك العالم، ولكنهم تعارفوا هنا، كمن ضاع له أخ في الطفولة وبعد عشرين عامًا عثر عليه، وأثبت له أخوته بواسطة الأدلة القطعية التي لا تقبل الشك، فهذا كان أخًا منذ الولادة، ولكنه تعرف على أخيه بعد عشرين عامًا. فكذلك الأمر في الأخوّة الإيمانية، فالمؤمن أخو المؤمن من عالم الطينة، ولكنه تعارف على أخوته في هذه الحياة الدنيا.

فالأخوّة الإيمانية كالأخوّة النسبية؛ لأنّ الطينة واحدة، فهم يولدون وهم إخوة مؤمنون، ولكن تعرّف بعضهم على البعض الآخر في هذه الدنيا، ولم يصبحوا إخوة بعد تعارفهم على أمر الولاية.

وهناك رواية أخرى يرويها الشيخ الكليني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**التواصل بين الإخوان في الحضر: التزاور، وفي السفر: التكاتب**»[2].

---

(١) الكافي ٢: ١٦٨، ح١.
(٢) الكافي ٢: ٦٧٠، ح١.

يتحدّث الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الشريفة عن كيفية التواصل بين المؤمنين في الحضر والسفر، فعندما يكونون في مدينة واحدة تكون هذه العلاقة عن طريق التزاور، بأن يزور بعضهم البعض الآخر، أما إذا كانوا في السفر فإنّ هذه العلاقة تكون عن طريق المراسلة، وفي الوقت الحاضر وبعد التطور الهائل في التكنولوجيا يمكن أن يحصل هذا الترابط عن طريق المكالمات الهاتفية والفيس بوك والإيميل، ويجب على المؤمن ألاّ ينقطع عن أخيه المؤمن، ويحاول التشبث بأي وسيلة للاستمرار في الاتصال به. فالتواصل مع الأخ المؤمن في كل الأحوال مسألة مهمة وضرورية.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام، والبادي بالسلام أولى بالله ورسوله**»[1].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة حكمًا شرعيًا، مفاده أنّ الجواب على الرسالة أمر واجب كوجوب ردّ السلام، فقد أوجب الله تعالى ردّ السلام بقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2].

وقلنا إنّ التواصل المتبادل أمر يقوّي عزيمة المؤمنين بعضهم مع البعض الآخر، لئلا تتحول العلاقة المتبادلة إلى علاقة من طرف واحد، فالتواصل بين المؤمنين ينبغي أن يكون متبادلًا، وواجب على كل مؤمن أن يتواصل مع أخيه المؤمن الذي يبادره بالتواصل، والفضل في ذلك لمن بدأ هذا التواصل. فالمؤمن عليه أن يتواصل مع المؤمن في كل الظروف وفي كل الأحوال.

وفي هذا السياق نجد الرواية الشريفة التالية تؤكد أهمية التواصل والعلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن، حتى لو كان ذلك الأخ يواجهه بصدود وبرود؛ لأنّ العلاقة ليست معه لأنّه فلان، بل لأنّ هذه العلاقة يريدها الله تعالى ودوافعها إلهية. فإذا تعامل مؤمن مع أخيه المؤمن بجفاء وبرودة فعلى الثاني أن يتعامل معه بحفاوة وحرارة؛ لأنّ هذه العلاقة علاقة لله سبحانه وتعالى، يبتغى من ورائها الأجر بقطع النظر عن ردود الأفعال وطريقة تعامل الآخر.

فقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**احمل نفسك مع أخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمسألة، وعند جموده على البذل،**

(١) الكافي ٢: ٦٧٠، ح٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٦.

وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على الاعتذار، حتى كأنك عبد له وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو تفعله بغير أهله»[1].

يتناول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث الشريف بُعدًا آخر من أبعاد العلاقة الإيمانية، وهو الحرص على المحافظة على هذه العلاقة وعدم التفريط بها، وإن أظهر الطرف الآخر عدم اكتراثه واهتمامه بها. ويتضمن هذا الحديث فقرات عديدة نتطرق إليها في ما يلي:

«**احمل نفسك مع أخيك عند صرمه على الصلة**»: صرمه يعني قطعه، أي ينبغي الحرص على العلاقة مع الأخ المؤمن وإن قطعها معه، وعدم مقابلته بالمثل، والاستمرار في صلته، ولا يجوز أن يكون قطعه للصلة مبررًا لقطع الصلة معه، بل يجب عليه أن يحمل نفسه مع أخيه عند قطعه للعلاقة على المواصلة.

«**وعند صدوده على اللطف والمسألة**»: الصدود يعني الإعراض، أي قد يكون المؤمن معرضًا عن أخيه المؤمن لسبب ما، كأن يكون مهمومًا ومغمومًا، أو قد سمع شيئًا غير صحيح عنه، أو لعل هناك من يرغب في الإيقاع بينهما، أو لعل ذلك من وساوس الشيطان الذي يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين. لذا يجب التعامل مع المؤمن عند صدوده بلطف، وألاّ يكون جواب الإعراض إعراضا مثله، فتتوتر العلاقة أكثر وأكثر.

«**وعند جموده على البذل**»: الجمود يعني البخل، أي يجب التعامل مع المؤمن على أساس البذل، وإن أظهر البخل والإمساك، فلعل هذا طبعه، أو لعله يمر بظروف صعبة، أو لعل عنده أولويات في الإنفاق على من كان واجب النفقة عليه. فهنا يجب التعامل معه على أساس الجود والسخاء، ولا ينبغي التعامل معه بالمثل، كيف وقد أمر الإسلام بالكرم مع المؤمن والكافر؟.

«**وعند تباعده على الدنو**»: أي كلما حاول الابتعاد أكثر، ينبغي الاقتراب منه أكثر؛ لأنّه عندما يرى نمطًا معاكسًا في التعامل والتواصل معه سوف يتغير ويستجيب للحفاظ على العلاقة الإيمانية، لا سيَّما عندما يتيقن أن ما يفعله معه لا يفعله لمصلحة دنيوية يرجوها منه، بل هو تكليف ديني يحاول الالتزام به، رجاء للثواب الأخروي عند الله سبحانه وتعالى.

«**وعند شدته على اللين**»: أي إذا كان أخوك المؤمن منفعلًا، فتعامل معك بشدة وخشونة، فيجب عليك أن تقابله باللين والرفق، فمثلًا إذا رفع صوته عليك فلا ترفع

---

(1) نهج البلاغة ٣: ٥٣، الرقم ٣١.

صوتك عليه، عامله بلين وشفقة ومحبة، وكن سببًا في إزاحة غضبه وتهدئة خاطره، فلعل أمرًا قد أثقل صدره ولم يجد من يعينه على إزاحته، ولا تُجبه بالمثل، وكن له معلّمًا وقدوة للخلق الأفضل والأحسن.

«**وعند جرمه على الاعتذار**»: أي إذا أساء لك واعتدى عليك ثم اعتذر إليك فاقبل عذره، ولا ترد الاعتداء عليه أو توسع ردّة الفعل لتأخذ بُعدًا عشائريًا أو قانونيًا، فإنّه قد يكون ما صدر منه في لحظة غفلة، ثم ندم واعتذر، هذا يكفي،افتح معه صفحة جديدة، لا ينبغي الوقوف طويلًا في مثل هذه الأمور التي يفرح بها العدو، ويحاول أن ينفخ فيها ليؤجج فيها الشحناء والبغضاء. يجب على المؤمن أن يتعامل مع أخيه المؤمن في كل الحالات على أساس المحبة والأخوّة والتسامح.

«**حتى كأنك عبد له**»: أي ينبغي أن تتعامل مع أخيك المؤمن وكأنه هو المولى وأنت العبد، فكما يجب على العبد أن يتحمل جميع ما يصدر من سيّده، كذلك يجب على المؤمن أن يتحمل من أخيه المؤمن جميع ما يصدر منه، وكما أنّ العبد لا يرتّب أثرًا على ما يأتي به سيّده، كذلك يجب على المؤمن ألاّ يرتّب أثرًا على ما يأتي به أخوه المؤمن.

«**وكأنه ذو نعمة عليك**»: أي أنزله منزلة صاحب النعمة عليك، فالأب، مثلًا، صاحب نعمة على ولده، فيأمر وينهى ويرفع صوته ويضرب، ويجب على الابن تحمّله، وكذلك الأخ المؤمن مع أخيه المؤمن، يتعامل معه كتعامله مع صاحب النعمة عليه، وتعامل العبد مع المولى .

«**وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه**»: ثم يحذّر أمير المؤمنين عليه السلام من تعامل المؤمن مع غير المؤمن على هذا الأساس؛ لأنّه يعني عبودية المؤمن للفاسق والمنافق والكافر، وعليه أن يحرز أولًا بشكل يقيني أنّ الطرف المقابل إنسان مؤمن، ثم يتعامل معه على أساس ما ورد في الفقرات السابقة، وإلا فهي الذلة التي نهى الإسلام المؤمن عنها، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**»[1]، بل دعاه إلى أن يكون عزيزًا في تصرفاته مع غير المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. فقد وضع الإسلام موازين خاصة للتعامل مع المؤمن، ووضع موازين أخرى للتعامل مع غير المؤمن، لهذا يجب التمييز بينهما وعدم خلط بعضها مع البعض

(١) الكافي ٥: ٦٣، ح٤.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

الآخر. فإنّ معاملة المتكبر مثلاً بالتواضع يدعوه إلى التكبر أكثر، وفي ذلك مساس بكرامة المؤمن، فتجب معاملة المتكبر بالمثل وهو التكبر عليه؛ لأنّ خواءه سينهار بسرعة ويذل عندما يفعل ذلك به. وكذلك مقابلة الإساءة بالإحسان مع غير المؤمنين وخفض الجناح لهم سوف يغريهم أكثر بالإساءة وتجاوز الحدود. فمراعاة هذه القواعد خاصة بالعلاقة الإيمانية فقط، لا في مطلق العلاقات مع الآخرين.

«**أو تفعله بغير أهله**»: فالذي ليس أهلاً لمثل هذا الخلق لن يحملك على الصحة، ولا يقول إن هذا طاهر ونبيل، بل سيقول إن هذا جبان وضعيف، ولقد أرغمت أنفه وأوقفته عند حده وعرّفته قدره وقيمته. إذن فالتواضع مع أمثال هؤلاء سوف يرجع بنتائج سلبية على المؤمن ويجعله في موقع الذليل، والله ﷻ لا يرضى بالذل للمؤمن.

وعن سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام قال: «**اعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم فتتحول نقمًا، واعلموا أنّ المعروف مُكسبٌ حمدًا، ومُعقبٌ أجرًا، فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسنًا جميلاً يسرّ الناظرين**»(١).

يتناول الإمام الحسين عليه السلام في هذا الحديث المبارك، مفهومًا إسلاميًا في التكافل الاجتماعي، في سبيل بناء المجتمع الصالح، ويوضح هذا المفهوم أنّ حوائج الناس إلى المؤمنين هي من نعم الله ﷻ عليهم، لما للسعي في قضائها من الثواب الجزيل، ولهذا ينبغي اغتنام هذه الفرصة، وألّا يصيبنا الملل من توارد هذه الحاجات، وأن نبقى بنفس الحماسة نتابع مشاكل الناس ونحل قضاياهم، فإنّه لو أصابنا الملل والعياذ بالله أو استكثرنا على الناس أن نحل مشاكلهم، فإنّ الله ﷻ سيحولها إلى غيرنا، وما أيسر هذا الأمر على الله ﷻ، حذارِ أن يغوينا الشيطان اللعين بأنّنا متفضلون على الله عند السعي في قضاء حوائج الناس، بل الله تعالى هو المتفضل علينا بأن جعل حوائج الناس إلينا.

على كل من جعل الله تعالى على يده قضاء حوائج الناس أن يعلم أنّ هذا لطف من الله تعالى خصّه به دون غيره، وعليه ألّا يتضجر أو يتقاعس أمام كثرة هذه الحاجات؛ لأنّها باب من أبواب الجنة، فاعملوا بنيات صادقة في خدمة المجتمع قربة لله تعالى، يرفع الله من أقداركم في الدنيا والآخرة، فإنّ الدنيا إلى زوال ولا يبقى فيها إلا الذكر الحسن أو السيئ، فاحرصوا على أن تورثوا أهليكم الذكر الحسن والسمعة الطيبة، كما تحرصون على أن تورثوهم الأموال والعقارات.

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٣١، ح٤.

إنّ عاقبة الملل من قضاء حوائج الناس، فضلًا عن التقاعس عنها، سيؤدي إلى نتيجة وخيمة، وهي سلب هذه النعمة العظيمة، فيستبدل الله ﷻ بنا غيرنا ثم لا يكونون أمثالنا، وحينها ستنعكس الصورة ونصير نحن ممن يقف على أبواب الآخرين نستجدي قضاء حوائجنا.

إنّ الاستبدال هو من أخطر أنواع العقاب الإلهي، وأخذ هذه النعمة منا وإعطاؤها لغيرنا نوع من أنوع العقاب، لاحظوا قوله تعالى في خطابه للمؤمنين وليس لسائر الناس العاديين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

إنّ البعض يرى نفسه من خلال المرآة المكبرة وكأنّه فارس الميدان وبطل التغيير، فينسب لنفسه كل فضيلة ويلصق بالآخرين كل رذيلة، فتراه يتبجح بأنّه هو الذي حقق إنجازًا معينًا، والكل يعلم من هو الذي قام بهذا الإنجاز، ومن لا يستحي أن يكذب في أوضح الأمور وأجلاها، لا يستحي أن يدّعي أي شيء وأن يرتكب أي فعل مشين. وتراه يتبجح أيضًا بأنّه صاحب قوافل الشهداء ويتفاخرعلى الآخرين بذلك، وهو لم يقدّم شهيدًا واحدًا ولم يشترك في عمل جهادي واحد، ويتاجر بدماء المؤمنين الذي قُتلوا ظلمًا وعدوانًا ولم يعلّمهم كيف يقاومون أو يهاجرون، وهرب بنفسه وترك أتباعه ينتظرون سكين الجزار.

إنّ صاحب التأريخ الجهادي يجب عليه أن يتواضع أمام الآخرين، ويشكر الله ﷻ أن وفّقه لمقارعة الظلم والجهاد في سبيل إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، ولا يبقى يبحث عن المناصب والامتيازات، وعليه أن يكف عن التبجح وينتقل إلى العمل المخلص لله تعالى بصمت ومن أي موقع يتاح له، وأن يفكر جديًا بمصالح الناس وخدمتهم، ويترك الخصام والنزاع والاستعانة بهذا وذاك من أزلام النظام البائد، ويتجنب التنازل عن حقوق الشعب من غير وجه حق لمن لا يستحقها في سبيل البقاء بالسلطة، ولو كان ذلك على حساب الدين والوطن.

ويجب علينا ألاّ نطلب التكريم من الآخرين على ما قمنا به أو نقوم به، فإنّ ذلك أمر معيب جدًا لمن يعمل للدنيا، فكيف بمن يزعم أنّه يعمل للآخرة، وكيف نسمح بأن يتسلل

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

الرياء إلى أعمالنا، بل الأسوأ من كل ذلك هو مصادرة تضحيات الآخرين وجعلها عنوانًا للاستحواذ على المكاسب والمناصب، وتمكين أعوان الطاغية من أزلام النظام السابق منها، في حين ما زال المضحون الحقيقيون محرومين من أبسط حقوقهم، وما زال الكثير منهم لا يمتلك وثيقة سفر تتيح له زيارة أهله ووطنه، والكثير منهم ما زالوا يجاهدون من أجل لقمة العيش في داخل البلد وخارجه، كأبناء الانتفاضة الشعبانية المجيدة الذين تحطمت آمالهم على صخرة جشع المتسلطين وطمعهم اللامتناهي، وأبناء الحشد الشعبي الذين لقّنوا الأعداء دروسًا في الصمود والإيثار، سيسجلها التأريخ بأحرف من نور.

يجب علينا أن نتخلص من ثقافة التبجح والتفاخر، وأن تسود بدلها ثقافة التواضع وإعطاء كل ذي حق حقه وعدم بخس الناس أشياءهم، وخدمة الشعب ولا سيّما الفقراء والمحرومين، وعدم التعالي على الناس والتخلص من مظاهر الأبّهة التافهة. وعلى القائمين بالأمر التفكير الواقعي بخدمة الناس وحل مشاكلهم وقضاء حوائجهم.

إذا لم نقدّر هذه النعمة فستذهب عنّا ويستبدل الله تعالى بنا غيرنا، قال تعالى إشارة إلى هذه الحقيقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١)، ومن أهم ما يتصف به هذا البديل المرتقب هو الحب المتبادل بينه وبين الله سبحانه وتعالى، والتواضع والذلة أمام المؤمنين، والعزة والكرامة والشموخ وقوة الشخصية والصلابة والثبات أمام الكافرين، ولا يخلطون بين هذا وذاك، فليس عندنا في الإسلام من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، بل عندنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(٢)، أي يجب إيقاف المعتدي عند حده، حتى يعرف أنّ المؤمن ليس ضعيفًا، بل هو قوي يدافع عن نفسه أمام غير المؤمنين، وهو يجاهد في سبيل الله ولا يخاف لومة لائم، فلا خضوع ولا خنوع أمام غير المؤمنين، بل عزة وكرامة وثبات وصلابة.

وكل ذلك هو فضل من الله تعالى، فيجعلنا أداة للنصر وأداة لقضاء حوائج الناس، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)،

(١) سورة المائدة، الآية : ٥٤
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[1]، فالله تعالى غير محتاج لنا، نحن الفقراء إليه ولو كنّا ملوك الدنيا، ولا يظن من تسلّم منصبًا ما أنّه صار شيئًا وأنّه استغنى عن الله، عليه أن ينظر إلى حجم مسؤوليته بالنسبة إلى العراق، ثم ينظر إلى حجمها بالنسبة إلى قارة آسيا، ثم ينظر إلى حجمها بالنسبة إلى الكرة الأرضية، وحينئذ نحتاج إلى عشر دقائق لنبحث في الخريطة عن المكان الذي هو مسؤول فيه، ولا يحسب نفسه شيئًا إذا صار لبضع أيام مسؤولا لدائرة أو عضو مجلس بلدي أو مدير ناحية أو قائممقامًا أو محافظًا أو عضو برلمان أو وزيرًا، بل هو ليس شيئًا مذكورًا أمام السلطان العظيم الأزلي لله تعالى، المهيمن على الكون اللامتناهي، فلا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، ولا تحسب أنك قد خرجت عن سلطان الله سبحانه وتعالى، كما حسب من قبلك، واتق الله واعلم أنّها أيام معدودة ثم تقف للحساب، وأمامك كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، هذا إذا سلمت من عار الدنيا وثاراتها.

إنّ كل واحد منّا مهما عظم منصبه، لا يشغل حيزًا من الكرة الأرضية سوى عدة أمتار، وما الكرة الأرضية سوى نقطة لا تُرى في هذا الكون، ثم بعد ذلك كله نحسب أنفسنا أغنياء عن الله سبحانه وتعالى، فنفعل ما تمليه أهواؤنا ونترك كتاب الله وراء ظهورنا.

نحن الفقراء إلى الله والله هو الغني، وإذا تولينا وتركنا ما يريد الله منّا فسوف يستبدل بنا غيرنا، ويسلب منّا ما استكبرنا به على المستضعفين من أهل ملتنا. وهذا الاستبدال عام يشمل الفرد والجماعة والشعب، ولا يظن البعض كما ظن بنو إسرائيل أنّهم شعب الله المختار، وأنّ الله لا يستبدل بهم غيرهم مهما أتوا من الظلم والمنكرات، ومهما طغوا وتجبروا، كل من لا يفي بواجباته فإنّ يد القدرة الإلهية ستسلب منه ملكه في لحظة واحدة، أين الظلمة؟ وأين الطواغيت؟ وأين الفراعنة الذين كانوا بالأمس يعيثون في الأرض فسادًا؟. لقد كانت إمكاناتهم أكثر من إمكاناتنا، ولقد وعظهم الله تعالى فما اتعظوا، فأصبحوا بين هارب يتخفى في أصقاع الأرض البعيدة، أو رهين السجون المعتمة أو مقتول شر قتلة.

ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**كان علي بن الحسين عليه السلام لا يسافر إلا مع رفقة لا يعرفونه، وكان يشترط على من يسافر معهم أن يكون من خدام الرفقة في ما**

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨

يحتاجون إليه أثناء السفر، فسافر مرة مع قوم، فرآه رجل فعرفه، فقال لهم: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا، من هو؟ قال: هذا علي بن الحسين عليهما السلام. فوثبوا إليه فقبّلوا يديه ورجليه، وقالوا: يا ابن رسول الله أردت أن تصلينا نار جهنم، لو بدرت إليك منا يد أو لسان، أما كنا قد هلكنا آخر الدهر، فما الذي حملك على هذا؟ فقال عليه السلام: إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني فأعطوني برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا استحق، فصار كتمان أمري أحبّ إليّ»[1].

كان الإمام السجاد عليه السلام عندما يريد السفر إلى الحج يختار رفقاء له في الطريق لا يعرفونه، وهو وإن كان معروفًا باسمه في أوساط المسلمين، ولكن أغلب الناس لا يعرفونه بشكله، إذ لم تكن الصور متعارفة آنذاك، وكان الناس يعتمدون على الوصف غالبًا كما نقلتها كتب السير والتراجم بعد ذلك، وأكثر من رآه هم أهل المدينة كونه ساكنًا فيها، ولهذا كان من المتيسر له عليه السلام أن يلتحق بقافلة من قوافل الحجيج القادمة من أماكن أخرى في طريق مكة من غير أن يعرفوه. وكذلك فإن الإمام السجاد عليه السلام ـ كجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ لم يكن متميزًا في ثيابه وحركاته عن باقي الناس، حتى انّ الغريب الذي كان يدخل المسجد يسأل المسلمين: من منكم رسول الله، فيقولون له: هذا رسول الله[2]. ومعنى ذلك أنّ الذي يراه لا يعرفه؛ لأنّه لم يكن يتصدر المجالس عند جلوسه، وكان حال رسول الله صلى الله عليه وآله كحال بقية الناس في حياته اليومية، فكان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وكذلك الأئمة عليهم السلام من بعده.

وكان الإمام السجاد عليه السلام يشترط على من يسافر معهم أن يكون من خدام الرفقة في ما يحتاجون إليه أثناء السفر، فقد كان لقوافل الحجيج ـ كما نراه اليوم ـ من يقوم بتهيئة الطعام وتوزيعه بين أفراد الحملة وتنظيف الأواني وغيرها من الأعمال التي يحتاج إليها المسافرون في أثناء سفرهم، ولا شكَّ في أنّ الإمام عليه السلام يؤسس لعمل كبير ستتوارثه الأجيال بعد ذلك، وهو خدمة الوافدين للحج والزيارة، لما في ذلك من الثواب الكثير، ولما فيه من التواضع لله عزّ وجلّ.

فسافر عليه السلام مرة مع قوم، وهذا يُنبئ أنّ ديدنه في كل عام هو السفر متخفيًا مع من لا يعرفونه، فرآه رجل فعرفه، فأخبر من كان في القافلة أنّ هذا الرجل الغريب معهم ويقوم بخدمتهم هو الإمام علي بن الحسين عليه السلام. فوثبوا إليه وأخذوا يقبّلون يديه ورجليه،

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤٣٠، ح٢.
(٢) انظر: بحار الأنوار ٧٣: ٣٥٥، و٤١: ٢٣٠ ح١.

وهذا يكشف عن عظيم المنزلة التي كان يحظى بها الإمام عليه السلام في قلوب المسلمين، وعاتبوه على عدم تعريفه لهم بنفسه، فربما يصدر منهم قول أو فعل معه في أثناء الرفقة أو تقديم الخدمة لهم، ينالون به العقاب الشديد من الله تعالى، الرقيب على أقوالنا وأفعالنا؛ لأنّ الناس عادة لا يعتنون كثيرًا في تعاملهم مع من يخدمهم، فلا يتحرزون في أقوالهم وأفعالهم معه، وهذه مع الأسف الثقافة العامة في موقع خدمة الناس.

فأجابهم عليه السلام بأنّه كان قد سافر مرة مع قوم يعرفونه، فأعطوه برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا يستحق، أي أنّهم قاموا بخدمته بنحو رأى الإمام لشدة تواضعه أنه لا يستحقه منهم، إلا أنّهم فعلوا ذلك لانتسابه لرسول الله صلى الله عليه وآله، باعتباره حفيد ابنته الزهراء عليها السلام، وكان متعارفًا بينهم أن يخاطب بابن رسول الله، وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله بشهادة القرآن الكريم، في قوله تعالى على لسان نبيه الكريم في قصة المباهلة مع نصارى نجران: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاء كُمْ﴾[1]، ولذلك كان المسلمون يبادرون إلى خدمته قربة لله تعالى.

والحق أنّ كل ما يقدّم من خدمة للإمام عليه السلام هو قليل من حقه، ولكن تواضع الإمام عليه السلام يدفعه للقول: «**أعطوني برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا استحق**». فهو عليه السلام لا يريد أن يستغل اسم رسول الله صلى الله عليه وآله لكي تخدمه الناس، وهو بذلك يعطينا درسًا مهمًا صار موضع ابتلاء للكثيرين، وهو استغلال العنوان والموقع من أجل تحقيق قدر أكبر من المصلحة الشخصية.

وقد أراد الإمام السجاد عليه السلام كتمان أمره على من يصحبهم في طريق مكة حذرًا من مسارعة المسلمين إلى خدمته، فيكون مصداقًا لاستغلال اسم رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أجل تعريفه بالثقافة الإسلامية الصحيحة، وهي أن يكون هو من يخدم السائرين في طريق زيارة بيت الله سبحانه وتعالى؛ لأنّهم لو عرفوه لما سمحوا له بخدمتهم.

وورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**عجبت لرجل يأتيه أخوه المسلم في حاجة فيمتنع عن قضائها، ولا يرى نفسه للخير أهلًا، فهب أنّه لا ثواب يرجى ولا عقاب يتقى، أفتزهدون في مكارم الأخلاق**»[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٧، ح١٤.

يكشف هذا الحديث المبارك عن أهمية قضاء حوائجِ الإخوان، وهنا يتعجب أمير المؤمنين عليه السلام من رجل يأتيه أخوه المؤمن في حاجة، آملاً أن يقضيها له، باعتبار الأخوّة الإيمانية التي بينهما، ولكنه يمتنع عن قضائها بالرغم من أنّه يستطيع ذلك، ومثار دهشة أمير المؤمنين عليه السلام أمور ثلاثة هي:

الأول: أنّ من يمتنع عن قضاء حاجة أخيه، لا يرى نفسه من أهل الخير والمعروف، وفي ذلك من القبح والشناعة ما لا يخفى.

الثاني: أنّ المؤمن ينبغي عليه أن يعمل لتحصيل الثواب والنجاة من العقاب، ومعلوم أن في قضاء حاجة الأخ المؤمن الثواب الجزيل.

الثالث: لو فرضنا أنّه لا يوجد ثواب ولا عقاب، فإنّ على الإنسان أن يسعى في طلب مكارم الأخلاق، ومما لا ريب فيه أن قضاء حوائج الإخوان من مكارم الأخلاق، ومما تتجسد فيه إنسانية الإنسان، وتتحرك له المشاعر النبيلة، فإذا لم يكن الدين محركًا لعمل الخير، فلتكن المشاعر الإنسانية النبيلة هي المحرك، ومن كان صاحب مشاعر إنسانية نبيلة، فلا بُـدَّ من أن يهديه الله سبحانه وتعالى إلى معرفته.

المحور الثالث

حقوق الأخوّة الإيمانية

إنّ للعلاقة الإيمانية حقوقًا، وعلى جميع المؤمنين الذين يرتبطون بعلاقة إيمانية، حقوق تجاه بعضهم، هذه الحقوق المتبادلة بين الإخوان تحظى بأهمية كبيرة، بل تعتبر عبادة من العبادات؛ لأن خلفية هذه الأخوّة ودوافعها إلهية، فلما كانت كذلك تصبح هذه العلاقة مبتنية على أساس الإيمان، و على أساس البعد الرسالي، فيصبح أداء هذا الحق عبادة من العبادات.

أهمية حق المؤمن

في رواية عن مالك بن أعين قال: «**أقبل إليّ أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا مالك، أنتم والله شيعتنا حقًّا، يا مالك، لا ترى أنّك أفرطت في القول في فضلنا، إنّه ليس يقدر أحد على صفة الله وكنه قدرته وعظمته، ولله المثل الأعلى، فكذلك لا يقدر أحد على صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وفضلنا وما أعطانا الله وما أوجب من حقوقنا، وكما لا يقدر أحد أن يصف فضلنا وما أوجب الله من حقوقنا، فكذلك لا يقدر أحد أن يصف حق المؤمن ويقوم به مما أوجب الله على أخيه المؤمن**»[(١)].

لقد كانت أسرة آل أعين، التي منها زرارة بن أعين، من أجلاء أصحاب الأئمة عليهم السلام، وفي هذه الرواية يُقسم الإمام الصادق عليه السلام لمالك بن أعين أنه وأسرته من الشيعة الحقيقيين، وهل هناك تكريم أعظم من هذا التكريم لمثل هذه الأسرة الكريمة؟. وقد بيّن الإمام عليه السلام في هذه الرواية الكريمة، أنّ هذا المديح لآل زرارة نابع من فرط اهتمامهم بنقل ورواية وتدوين مناقب أهل البيت عليهم السلام، ومع أنّهم قد أكثروا رواية فضائلهم عليهم السلام، ولكن مع ذلك لا يقدرون على معرفة درجات فضلهم وما أعطاهم الله وما أوجب لهم من الحقوق، كما أنّهم لا يقدرون على معرفة صفة الله وكنه قدرته وعظمته، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى؛ لأنّهم عليهم السلام قد خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور عظمته ووهب لهم تلك المناقب،

(١) بحار الأنوار ٤٧: ١٤٤، ح٩٩.

فلا يستطيع أحد أن يعرف درجة ومنزلة وعمق ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى وما أوجب لهم من الحقوق، وكما لا يقدر أحد أن يصف فضل محمد وآله عليهم السلام وما أوجب الله من حقوقهم، فكذلك لا يقدر أحد على أن يصف حق المؤمن ويقوم به مما أوجب الله على أخيه المؤمن، وهذا يكشف عن عمق وكنه حق رسول الله صلى الله عليه وآله وحق أهل البيت عليهم السلام، وكذلك يكشف عن عمق حق المؤمن على أخيه المؤمن وعظيم قيمته وقدره.

حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**والله إنّ المؤمن لأعظم حقًا من الكعبة**»(١)، أي أنّ حق المؤمن أعظم عند الله سبحانه وتعالى من بيت الله الحرام، والكل يعلم المنزلة العظيمة للكعبة المشرفة وقدسيتها عند المسلمين.

وفي رواية أخرى: «**أروي عن العالم ـ أي الإمام الرضا عليه السلام ـ أنّه وقف حيال الكعبة ثم قال: «ما أعظم حقك يا كعبة، ووالله إنّ حق المؤمن لأعظم من حقك**»(٢).

وفي هذه الرواية المباركة بيان لأهمية حق المؤمن في فهمنا الإسلامي ورؤيتنا الإسلامية، وذلك من خلال تشبيهها بمنزلة الكعبة وعظمتها في نفوس المسلمين، فكم هي عظيمة منزلة الكعبة وحقها، ولكن حق المؤمن أعظم منها، ولولا كلام الإمام الرضا عليه السلام هذا، لما زلنا نعتقد بأنّ حق الكعبة أعظم من حق المؤمن، إذ الكعبة هي التي يجب على المسلم التوجه إليها في صلاته خمس مرات في اليوم، وهي التي يجب أن يشد إليها الرحال لأداء مناسك الحج والعمرة ولو في العمر مرة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ لله سبحانه وتعالى حرمات: حرمة كتاب الله، وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، وحرمة بيت المقدس، وحرمة المؤمن**»(٣)، وهنا أربع حرمات عند الله سبحانه وتعالى، قرن فيها الإمام عليه السلام حرمة المؤمن مع حرمة القرآن والرسول وبيت المقدس، التي هي مقدسات يعرفها جميع المسلمين، ولكنهم يجهلون أنّ للمؤمن حرمة مثلها. فحفظ حق المؤمن هو أداء لهذه الحرمة ووفاء بها.

---

(١) بحار الأنوار ٦٥: ٦٤، ح١١٥.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٧، ح٢٠.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٢.

وفي رواية أنّ أبا جعفر الباقر عليه السلام استقبل الكعبة وقال: «**الحمد لله الذي كرّمك وشرّفك وعظّمك وجعلك مثابة للناس وأمنًا، والله لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك**»(١).

يقسم الإمام الباقر عليه السلام أنّ حرمة المؤمن أعظم حرمة من الكعبة، التي هي أعظم بقعة مقدسة عند المسلمين، ولا يختلف اثنان في شرفها وحرمتها، و مع ذلك، فإنّ الإنسان المؤمن أكثر قداسة منها، ولذلك فإنّ الاعتداء على المؤمن أعظم من الاعتداء على الكعبة.

أداء حق المؤمن

لاحظوا هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**والله ما عُبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن**»(٢)، أي أنّ أفضل العبادات هو الوفاء بالتزامات الأخوّة الإيمانية.

وقال عليه السلام أيضًا: «**دعاء المؤمن للمؤمن يدفع عنه البلاء، ويدر عليه الرزق**»(٣)، أي أنّ دعاء المؤمن لأخيه المؤمن له أثران، الأول: أنّه يدفع عنه أنواع البلاء كالمرض والفقر والشدائد، والثاني: أنّه يكون سببًا في استدرار الرزق وزيادته، فمن أراد أن يرزقه الله، فليحسّن علاقته مع إخوانه المؤمنين.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**ألا فلا تتكلوا على الولاية وحدها، وأدوا ما بعدها من فرائض الله، وقضاء حقوق الإخوان، واستعمال التقية**»(٤).

يحذّر رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث الشريف من الاتكال على الولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وحدها في دخول الجنة، بل بالإضافة إلى ذلك لا بُـدَّ من ثلاثة أمور أخرى وهي:

أولًا: أداء الفرائض، وهو ما أوجب الله سبحانه وتعالى على العباد الإتيان به، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك المحرمات التي نهى الله تعالى عن ارتكابها.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٣.
(٢) الكافي ٢: ١٧٠، ح٤.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٢، ح٢.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٩، ح٢٣.

ثانيًا: قضاء حقوق الإخوان، وهو أداء الحقوق التي فرضها الله تعالى للمؤمن على المؤمن.

ثالثًا: استعمال التقية، ولأهمية التقية قال المعصوم عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي»[1]، لما فيها من حفظ الأرواح والممتلكات والأعراض. والتقية هي إيهام الأعداء حتى لا يتعرفوا على هوية صاحبها العقائدية، وللتقية فوائد وأبعاد أمنية واجتماعية ونفسية وإيمانية، وقد فهمت التقية خطأ على أنّها مراوغة ولعب، بل هي عدم كشف الحقائق التي تؤدي إلى الإضرار بحياة الإنسان أو ممتلكاته أو عرضه أو ماله.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في ما أوصى به رفاعة بن شداد قاضي الأهواز في رسالة إليه يقول فيها: «**دارِ المؤمن ما استطعت، فإنّ ظهره حمى الله، ونفسه كريمة على الله، وله يكون ثواب الله، وظالمه خصم الله فلا تكن خصمه**»[2].

يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من واليه على الأهواز أن يهتم برعاية شؤون المؤمنين اهتمامًا شديدًا، ويبيّن له سر هذا الاهتمام بأربعة أمور: أولها أنّهم في حماية الله، وثانيها أنّ نفوسهم عزيزة على الله، وثالثها أنّ ثواب الله تعالى مدّخر لهم وحدهم، ورابعها أنّ ظالميهم خصوم الله، ومن كان الله خصمه فلا بُـدَّ من أن يُغلب.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يكلّف المؤمن أخاه الطلب إليه إذا علم حاجته**»[3].

يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث المبارك بُعدًا مهمًا من أبعاد الأخوة الإيمانية، وهو أنّه إذا اتضحت لديك حاجة أخيك المؤمن، فلا تنتظره حتى يأتي إليك ويطلب حاجته، بل عليك المبادرة والمسارعة إلى قضائها قبل أن يطلب إليك ذلك؛ لأنّ في الطلب مشقة وعناء وصعوبة على المؤمن، لما فيه من عبء إراقة ماء الوجه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطبًا المؤمنين: «**توازروا وتعاطفوا وتباذلوا، ولا تكونوا بمنزلة المنافق الذي يصف ما لا يفعل**»[4].

يوصي رسول الله صلى الله عليه وآله المؤمنين بالتواصل بينهم، وتمتين الروابط الاجتماعية في المجتمع الإيماني عن طريق التآزر والتعاون، وأن تصدّق أفعالهم أقوالهم، بعكس

(١) بحار الأنوار ٢: ٧٤، ح٤١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٠، ح٢٨.
(٣) بحار الأنوار ١٠: ٩٣، ح١.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٤، ح١٣.

المنافقين الذين تكذّب أعمالهم أقوالهم؛ لأنّ المنافق يظهر شيئًا ويبطن شيئًا آخر، فيزعم أنّه ملتزم بالأخوّة الإيمانية ويقول: أنتم جميعًا إخوتي وأنا بخدمتكم، ولكن عمله شيء آخر على نقيض قوله.

وكثيرًا ما نكون في مجاملاتنا اليومية كذلك، وإن كان عن غير قصد، فترى أحدنا يقول للآخر: تفضلوا ونحن غير جادين فيها، إذ لا نحدد لهذه الدعوة زمانًا ولا مكانًا معينًا.

حقوق المؤمن على المؤمن

بعد أن عرفنا أهمية أداء حقوق المؤمن، يأتي السؤال التالي: ما هي حقوق المؤمن على المؤمن؟ والجواب أنّها ثلاثون حقًا، رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد روى القاسم بن محمد بن جعفر العلوي، عن أبيه، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للمسلم على أخيه ثلاثون حقًا، لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويبر إنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليه ولا يعاديه، وينصره ظالمًا ومظلومًا، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه**»[(١)].

يعدّد رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك لأمير المؤمنين عليه السلام حقوق المؤمن على أخيه المؤمن، التي تبلغ ثلاثين حقًا. ويبيّن أنّ ذمة المؤمن تجاه أخيه المؤمن لا تبرأ إلا أن يؤدي هذه الحقوق الثلاثين، أو أن يصفح له عنها. فإذا لم يسقطها لا يخرج المؤمن من هذه الحقوق إلا بوفائها والالتزام بها. وهذه الحقوق هي:

أولًا: «**يغفر زلته**»: إذا أخطأ أخوه المؤمن معه في قول أو فعل يغفر له هذا الخطأ، ولا يرتّب عليه أثرًا.

ثانيًا: «ويرحم عبرته»: العبرة هي الدمعة، أي عندما يراه مكسورًا يرحم دمعته ويتعاطف معه.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٦، ح ٣٦.

ثالثًا: «ويستر عورته»: يخفي عيبه إذا اطّلع عليه ولا يظهره للآخرين.

رابعًا: «**ويقيل عثرته**»: يتجاوز عن إساءاته حتى لو كانت متعمدة ومقصودة.

خامسًا: «**ويقبل معذرته**»: إذا أخطأ في شيء وطلب المعذرة يقبل عذره وإن لم يكن واقعيًا، ولا يتشدد في هذا الموضوع. فقد ورد في وصف رسول الله ﷺ أنّه «**أُذُن**»، أي يصدّق ما يقولون له ويعتذرون به عندما يؤذونه، لأنّه كان متسامحًا، وإذا أخطؤوا مرة أخرى واعتذروا قَبِل منهم، فكانوا يعدّونها عيبا في شخصية رسول الله ﷺ، ولكن الله تعالى عدّها صفة كمال فقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، وإلاّ فإنّ رسول الله ﷺ كان يعرفهم جيدًا، ولكنه يقبل منهم ما يُظهرون، ويمنحهم الفرصة تلو الأخرى لعلّهم يهتدون.

سادسًا: «**ويردّ غيبته**»: إذا انتُقص من أخيه المؤمن في غيبته وعدم حضوره، يدافع عنه وينفي عنه ما يُتهم به ويُنتقص منه، ولا يقول: ما دام غائبًا ولا يعلم ما يقال فيه، فلماذا أدخل مع الآخرين في خصومة من أجله؟

سابعًا: «**ويديم نصيحته**»: أي يكون ناصحًا له في جميع الأوقات والأحوال، ولا يترك نصيحته وإن رفضها ولم يعمل بها المرة تلو الأخرى، ولا يقول لا فائدة من نصيحته لأنّه لا يقبلها، بل عليه أن يعمل بوظيفته ولا يترك نصحه في كل موقع وعلى كل حال.

ثامنًا: ««**ويحفظ خلته**»: يحرص على الاستمرار في صداقته، لا أن يغضب منه لأتفه الأسباب ويقطع علاقته به.

تاسعًا: «**ويرعى ذمته**»: إذا وعده بشيء أو عاهده على شيء يلتزم به ويرعاه.

عاشرًا: «**ويعود مرضته**»: يزوره عند مرضه، ولا يترك زيارته وإن فقد ذاكرته من شدة مرضه، بحيث لا يعرف من يعوده، أو بقي وحيدًا ولا يوجد عنده من يعتب على من ترك زيارته، والإنسان في حالة مرضه يحتاج إلى من يعوده ويلتقيه ويطيب خاطره.

أحد عشر: «**ويشهد ميته**»: أي إذا مات أحد أفراد عائلته فعلى المؤمن أن يحضر تشييعه ومجلس عزائه ويشعره بالاهتمام، فإنّ الذي يفقد عزيزًا له يكون متألمًا

(١) سورة التوبة، الآية ٦١.

ويحتاج إلى مواساته في مصيبته، ويشعره بأنّه متكافل ومتضامن معه، ولا يتركه وحده في الشدائد.

اثنا عشر: «**ويجيب دعوته**»: إذا دعاه إلى مأدبة أو حضور مناسبة، فليقبل ولا يرفض.

ثلاثة عشر: «**ويقبل هديته**»: إذا أهدى له شيئًا يقبله منه، ولا يقل له إن مثل هذه الهدية البسيطة لا تليق بي، إذ ليس المقصود من الهدية أن تغني المهدى إليه، بل هي رسالة معنوية بأنّي قد ذكرتك، فقد روي أنّ طيرًا أهدى لنبي الله سليمان على نبينا وآله وعليه السلام جرادة فتقبلها منه وشكره عليها[1].

أربعة عشر: «**ويكافئ صلته**»: أي يردّ عليه هديته بالذي يتمكن منه، من غير أن يسبب لنفسه إحراجًا ويتحمل ما لا يطيق؛ لأنّ المؤمن قليل المؤونة، وإن كان الطرف المقابل ميسور الحال وهديته ثمينة.

خمسة عشر: «**ويشكر نعمته**»: يجب على المؤمن شكر أخيه المؤمن حينما يقوم بتكريمه وينعم عليه بشيء، فالشكر خصلة لطيفة ينبغي أن يتحلى بها المؤمن مهما كانت النعمة قليلة، لما في الشكر من إشعار بالتقدير والامتنان.

ستة عشر: «**ويحسن نصرته**»: ينصره إذا ظُلم على أحسن وجه وأكمله، ولا يكتفي بنصرته شكليًا أو يتركه في منتصف الطريق.

سبعة عشر: «**ويحفظ حليلته**»: ويحفظ زوجته وعياله عندما يسافر مثلًا أو يُسجن، فمثلًا إذا كان أخوه المؤمن لا يدع زوجته تذهب للتسوق بنفسها، فيجب على المؤمن أن يقوم بهذا الدور عند غياب أخيه المؤمن، إذا لم يكن لديها من أرحامها من يفعل ذلك، أو يرسل زوجته لتفقد أحوالها.

ثمانية عشر: «**ويقضي حاجته**»: أي يقوم بما يحتاج إليه، ويقضي له حوائجه.

تسعة عشر: «**ويشفع مسألته**»: أي يتوسط له في إنجاح طلبته، فمثلًا إذا كلّفه بخطوبة وكان أهل البنت لا يعرفونه، فلا يقل لا أتدخل في مثل هذه المسائل حذرًا من الوقوع في المشاكل في المستقبل باعتباري كنت وسيطًا في الزواج، ولولا تدخلي لما زوجوه.

عشرون: «**ويسمت عطسته**»: يقول له عندما يعطس: يرحمكم الله، لما في ذلك من إشعاره بالاهتمام. ونلاحظ هذه الظاهرة كردّ فعل طبيعي عند الأم عندما يشهق

---

(١) انظر: الكافي ٦: ٢٢٦، ح٤.

ابنها، فتقول له: (اسم الله)، تعبيرًا عن الاهتمام الفطري الحقيقي، وكذلك ينبغي أن نفعل مع الأخ المؤمن حينما يعطس.

واحد وعشرون: «ويرشد ضالته»: أي عندما تضيع حاجة له ونحن نعرف مكانها، فيجب مساعدته في العثور عليها.

اثنان وعشرون: «ويردّ سلامه»: امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1]، فأولاً ردّ السلام واجب، وثانيًا يستحب ردّ التحية بأحسن منها، أي من قال لنا: (السلام عليكم)، نرد عليه: (عليكم السلام ورحمة الله)، ومن قال: (السلام عليكم ورحمة الله)، نرد عليه: (عليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، وفي الرواية: أن شخصًا سلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: (السلام عليك ورحمة الله وبركاته)، فقال له: (وعليك، إنك لم تدع لنا ، فرددناها عليك)[2].

فالقاعدة إذن هي الردّ بالأفضل، فمن سلّم علينا نردّ له السلام مع المصافحة، ومن سلّم وصافح نردّ السلام عليه مع المصافحة مع المعانقة، ومن ذكرنا مرة نذكره مرتين، ومن أرسل لنا رسالة نرسل له رسالتين، وهكذا نجعل لنا دائمًا اليد الطولى في إلقاء التحية وردّ السلام، وحينها سنرى كم ستتعمق العلاقات. إن هذه الأمور البسيطة كالابتسامة والكلمة الطيبة وإشعار الآخر بالاهتمام والوقوف معه في قضيته، لها تأثير عميق في توثيق العلاقة الاجتماعية الإيمانية بين المؤمنين.

ثلاثة وعشرون: «ويطيب كلامه»: أي ينبغي أن يتكلّم المؤمن مع أخيه المؤمن بلطف وهدوء، من غير أن يرفع عليه صوته أو يتكلّم معه بانفعال.

أربعة وعشرون: «ويبر إنعامه»: أي ينبغي أن يذكر المؤمن أخاه المؤمن في مجلسه أمام الآخرين بما قام به من برّ وإنعام وفضل، بما يكشف عن نبل شخصيته وعميق نخوته، فإنّ الكلام سيصل إليه وعندها سيندفع أكثر لأعمال الخير ومكارم الأخلاق، وهذا من شأنه أن يعمّق العلاقة بين المؤمنين، وأن تكون العلاقة حقيقية لا علاقة صورية خالية من كل مضمون.

---

(١) سورة النساء، الآية : ٨٦.

(٢) الدر المنثور ٢: ١٨٨.

خمسة وعشرون: «ويصدّق أقسامه»: أي على المؤمن أن يقبل قسم أخيه المؤمن إذا أقسم على أمر ما ولا يكذّبه، فمثلاً إذا نُقل له كلام فيه إساءة عن فلان فعاتبه على ذلك، وأقسم هذا المؤمن أنّه لم يقل هذا الكلام، فينبغي تصديقه وينتهي الأمر عند هذا الحدّ، ولا يذهب للتحقيق والتأكد من صحة صدور ذلك الكلام عنه.

ستة وعشرون: «ويوالي وليه ولا يعاديه»: من المتعارف أن الإنسان يحب من يسدي معروفًا لمن يحبه، وإن لم يكن هو مستفيدًا، وبين المؤمنين ينتقل هذا الحب إلى درجة النصرة لمن ينصر أخاه المؤمن، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة، أما أصدقاؤك فصديقك وصديق صديقك وعدو عدوك، وأما أعداؤك فعدوك وصديق عدوك وعدو صديقك**»[1]. ونسمع بعض الناس يقول لآخر: أحبك حبين: حبًا لأنك تستحق ذلك، وحبًا لأنك تحب فلانا وتهتم بفلان، أو مثلًا لديك صديق مؤمن تزوج من أختك فتقول لأختك: أحبك حبين: حبا لأنك أختي، وحبا لأنك زوجة صالحة لفلان، فهو يستحق أن تكوني زوجة بارة به. وليس المطلوب عدم معاداة المؤمن فقط، بل يجب أيضًا عدم معاداة أوليائه؛ لأنّ المؤمن لا يصادق ولا يوالي إلا من كان على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، كما يقولون، فلا يتوقع من مؤمن أن يؤاخي منافقًا أو فاسقًا، ومن هنا ينبغي موالاة الأشخاص الذين يواليهم الأخ المؤمن وإن كنّا لا نعرفهم، وبذلك تقوى اللحمة الإيمانية وتتوثق العلاقة بين المؤمنين.

سبعة وعشرون: «وينصره ظالمًا ومظلومًا»: وهنا قد يحصل التباس في فهم هذا النص، لأنّه كان من مقولات الجاهلية وقيمها القبلية التي تقوم على أساس نصرة أبناء القبيلة بعضهم للبعض الآخر، بغض النظر عن كونهم ظالمين أو مظلومين، وهو ما يتنافى ويتقاطع مع ما جاء به الإسلام من نصرة المظلوم والوقوف إلى جانبه ضد ظالميه. ولكن ما يهوّن الخطب أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال مرة هذه المقولة، فقيل له: قد عرفنا كيف ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال صلى الله عليه وآله: (أما نصرته ظالمًا فيردّه عن ظلمه، وأما نصرته مظلومًا فيعينه على أخذ حقه)[2]. فنصرته ظالمًا تعني أن ننصحه ونبيّن خطأ الأسلوب الذي يتبعه، والمتوقع منه

(١) نهج البلاغة ٤: ٧١، الحكمة ٢٩٥.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٦، ح٣٦.

حينئذ باعتباره مؤمنًا ولا يتعمد المعصية ولا يتعمد الخطأ، أن يقبل النصيحة ويتراجع عن خطئه.

ثمانية وعشرون: «ولا يسلمه»: أي لا يخونه، ولا يغدر به.

تسعة وعشرون: «ولا يخذله»: أي لا يتركه، ولا يقصر في نصرته ومد يد العون والمساعدة له.

ثلاثون: «**ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه**»: أي يجعل أخاه المؤمن على قدم المساواة مع نفسه في كل ما يحب ويكره، ويتعامل معه كما يتعامل مع نفسه.

هذه ثلاثون حقًا من حقوق المؤمن، لو التزم بها كل واحد منّا تجاه أخيه المؤمن، لكنّا نعيش في مدينة فاضلة دونها ما تصوره أفلاطون في مدينته الفاضلة؛ لأنّ معها ستتحول الحياة إلى جنة في الأرض، فهو بين مجموعة عينهم عليه حينما يتحرك، ويسألون عنه ويتفقدونه، وحينما يسافر يرعون عائلته، وينصحونه إذا أخطأ، ويساعدونه إذا احتاج من غير أن يسأل حاجته منهم، وينصرونه إذا اُعتدي عليه،فماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ أليست هذه الحياة السعيدة والطيبة؟ ولا تتصوروا أن المليونيرية والمليارديرية يعيشون سعداء، لأنّ بيوتهم فارهة وحاجاتهم متوفرة، فالكآبة تعشش في بيوتهم، لأنّه لا يوجد مخلصون لهم، وكل من له علاقة بهم يبحث عن مصلحته، ويخشى منه الخيانة والغدر، وفي بعض الحالات نراهم يلجؤون للانتحار، تخلصًا مما هم فيه من الشقاء النفسي والفراغ الروحي والخواء الاجتماعي.

وكم من مليونير يتحسر على حياة سعيدة بين زوج وزوجة من الفقراء، الذين لا يكادون يحصلون على لقمة عيشهم، ولكنهم سعداء بحب الله وطاعته، ومنسجمون مع بعضهم.

صحيح أن المال يوفر فرصًا للحياة، ولكن المال ليس كل شيء، فهناك من يملك المال ولا يملك المشاعر والعواطف تجاه الآخرين، ولا يتوقع الإنسان الحب ممن لا يكن لهم الحب، فهو في زنزانة انفرادية كبيرة، ولكن من كانت لديه علاقات اجتماعية وثيقة، يستطيع أن يعيش بمال قليل، ولكن لا يستطيع أن يعيش بدون عواطف ومشاعر وعلاقات.

إنّ حياة المؤمنين وإن كان فيها اقتصاد ودخل محدود، هي أسعد من حياة غيرهم ممن يملكون المال ويفقدون العلاقات الاجتماعية الصادقة،وهذا إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام كانت مفاتيح خزينة بيت المال بين يديه، ولكنه كان يقنع بالقليل ولا يرتضي لنفسه إلا أن يعيش كما يعيش أفقر المسلمين، فالمؤمن هو هذه العلاقات الاجتماعية التي يحيا بها.

سنبدأ باستعراض هذه الحقوق وشرحها ومراجعة النصوص الواردة فيها.

الحق الأول
(غفران زلة المؤمن)

الحق الأول في ما تلوناه هو أنّ على المؤمن أن يغفر زلة أخيه المؤمن ويصفح ويتجاوز عنها، والزلة حالة الزلق، من زل يزل أي زلق، والزلق حالة غير مقصودة، حين ينزلق الإنسان من دون اختيار منه فجأة دون سابق تصميم.

فالزلة هي عبارة عن الخطأ غير المقصود، وهو خطأ صغير وليس خطأ كبيرًا، وهو الخطأ الذي لم يحسب له الإنسان حسابًا، كما لو أراد أن يقول شيئًا فخرجت من لسانه كلمة لها مدلول آخر، أو انفعل في لحظة غضب وتصرف بطريقة غير لائقة، ولكن بعد أن زال عنه غضبه ندم على ما كان منه واعتذر، ولذلك فالإنسان الكيّس والعاقل لا تصدر منه كلمات وتصريحات وأحكام في لحظات الانفعال ما دام غاضبًا، وحتى لو كان قد اتخذ قرارًا معينًا يتريث به إلى أن يهدأ، ثم يراجعه بعد ذلك، لأنّ الإنسان في حالات الاستقرار النفسي يمكن أن يعيد النظر في الكثير من قراراته الانفعالية في ظروف الانفعال، لأنّه قرار سيندم عليه، وما أكثر الكلمات التي يطلقها الإنسان ثم يندم عليها بعد دقائق، وحينئذ سيكون علاجها صعبًا، كالماء الذي ينسكب في الأرض ثم يراد جمعه مرة أخرى. فالأفضل للإنسان ألاّ ينطق بمثل هذه الكلمات، ولذلك تحث ثقافتنا الدينية الإنسان على التزام الصمت في لحظات الانفعال والغضب، وأن يكظم غيظه ويصبر حتى يهدأ، ثم يرى هل هذه الكلمة أو الخطوة في محلها أو لا؟، فإن كان هذا محلها اتخذ القرار الصحيح والخطوة الموفقة، فيتكلم بهذه الكلمة أو يخطو هذه الخطوة.

وقد وضعت هذه الرواية مسألة الصفح عن الزلات والأخطاء غير المقصودة معيارًا للأخوّة الإيمانية، وهناك روايات أخرى في هذا المعنى، كما في هذه الرواية المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**إنّ أخاك حقًا من غفر زلتك**»[1]، أي أن الأخ الحقيقي وليس من يدّعي الأخوّة هو من تجاوز عن خطئك، فهنا يضع أمير المؤمنين عليه السلام معيارًا لمعرفة

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٥٤.

أخيك الإيماني، وهو عندما تخطئ بحقه خطأ غير مقصود كيف سيتعامل معك؟، فإن تعامل بسعة صدر وصفح عنك فهو بالفعل أخ إيماني، وإلا فليس هو لك بأخ.

بل ورد في بعض الروايات أنّ الإنسان عليه أن يلتمس العذر لأخيه المؤمن، مثلًا يُقال لك: أسمعت فلانًا ماذا قال لك؟ فتقول: إنّه لم يقصد ذلك، أو يُقال لك: أرأيت أن فلانًا لم يقم لك عندما دخلت المسجد؟ فتقول: لعله لم يكن منتبهًا وإلا فليس من عادته ذلك فهو يحترمني، أو يُقال لك: أرأيت كيف سلّمت عليه فلم يرد عليك السلام؟ فتقول: لعله لم يكن ملتفتًا وكان باله في مكان آخر، أو يُقال لك: أرأيت كيف تعامل معك ببرود؟ فتقول: إنّه مهموم، فليكن الله في عونه، فهو يعاني في هذه الأيام من ضغط عليه، ولذلك فهو متعب وأعصابه مشدودة، وهكذا تلتمس العذر لأخيك المؤمن وتسوّغ له أفعاله وتحملها على محامل أخرى.

بل ينبغي أن يُلتمس العذر للأخ المؤمن حتى إذا كان فعله لا يتحمل التبرير ولا يمكن حمله على أي محمل، كما لو سلّمت عليه وجهًا لوجه وسمع الكلام ولم يرد السلام، فهنا لا يتحمل فعله أن أقول إنّه لم يكن ملتفتًا، أوأنّه بقي جالسًا متعمدًا بينما قام الآخرون، ففي مثل هذه الحالة أقول إنّه لا بُدَّ من وجود شيء لا أعلم به، ووجود سبب لا أعرفه.

لاحظوا هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**التمسوا لإخوانكم العذر في زلاتهم وهفوات تقصيراتهم، فإن لم تجدوا العذر لهم في ذلك فاعتقدوا أن ذلك منكم لقصوركم عن معرفة وجوه العذر**»[1] ، والهفوة هي الخطأ غير المتعمد والخطأ الصغير، فإن لم تجد في قاموسك عذرًا لهذا الخطأ فاعتقد بأن ذلك لقصور منك في معرفة وجوه العذر. وقوله عليه السلام «**فاعتقدوا**» أي لتكن عقيدتك في قرارة نفسك وبينك وبين الله تعالى، هي وجود سبب ولكنك لا تعرفه؛ لأنّ من تتعامل معه هو إنسان مؤمن ويعلم أنّك مؤمن أيضًا، ولا يمكن أن يصدر عنه قول أو فعل يؤذيك بلا سبب، أما لو كان الطرف الآخر غير مؤمن، فلا يحتاج إلى أن تعتقد بعدم صدور فعل أو قول ما ليؤذيك به؛ لأنّ هذا أمر متوقع من غير المؤمن، اللهم إلا إذا كان الطرف المقابل غير مؤمن ويتظاهر بأنّه من المؤمنين، فهذا بحث آخر خارج عن مورد الرواية.

---

(١) مستدرك الوسائل ٩: ٥٧، ح٦.

فإذن، أقول لنفسي لقد ردّ عليّ السلام أو وقف لي وأكرمني مائة مرة، وعدم ردّه السلام أو وقوفه لي في هذه المرة يكشف عن وجود سبب أجهله، وينبغي أن يصل هذا إلى درجة الاعتقاد، وألاّ تحمل في نفسك عليه أي ضغينة، لا أن يكون الأمر مجرد تبرير، وتبقى تحمل في قلبك ضغينة عليه، بل عليك أن تعتقد، وهذا التعبير عن الإمام الصادق عليه السلام: «**فاعتقدوا**»، وهو فعل أمر، أي ليصدّق قلبك أن ذلك منك لا من عنده، وأنّ المشكلة بك وليست به.

ومن المهم أيضًا تناسي هذه الزلات والأخطاء؛ لأنّ الإنسان إذا بقي يتذكر أخطاء إخوانه ويجمعها، ويأكل بنفسه ويحرق دمه فإنّه سيخاطر بانفراط العلاقة الإيمانية، وهذا أمر طبيعي، فإنّ الإنسان لحم ودم ومشاعر، وعندما يبقى يتذكر أخطاء إخوانه بحقه، فإنّه يجعل نفسه في أجواء تضعف فيها العلاقة الإيمانية بينه وبينهم، ولنضع نصب أعيننا أننا لسنا معصومين، وقد خلقنا الله سبحانه وتعالى خطائين، وصدور الأخطاء منّا أمر متوقع، ويجب أن نتعامل معه كأمر واقعي، فإنّ الحياة الاجتماعية عادة هكذا، وينبغي أن نكيّف أنفسنا مع هذا الواقع.

وإذا كان القرار أن نحصي أخطاء الآخرين فسنبقى وحيدين؛ لأنّنا سنرى أن الكثيرين قد أخطؤوا معنا، لأنّه من النادر أن تجد شخصًا يراعي الآخرين في جميع الأوقات والأحوال، فإنّ كثرة المشاكل التي تمر بالإنسان تذهله عن كثير من الأمور، فلا يصح أن نبحث عن أسباب لقطع علاقتنا مع الآخرين، بل يجب علينا التماس الأعذار لهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، فربما يقف معك شخص من هؤلاء الذين تزهد بهم موقفًا لا يقف معك فيه القريب.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**من لم يحتمل زلل الصديق مات وحيدًا**»(١)، أي الذي لا يستطيع أن يتحمل أخطاء أصدقائه وإخوانه ويبقى يتذكر أخطاءهم بحقه، وإن مرت عليه السنين، فإنّه سيبقى بلا أخ أو صديق وسيموت وحيدًا، فالجميع سيتفرقون من حوله ويبقى وحده يصارع الحياة، والذي لا يريد أن يبقى وحيدًا ويريد الاحتفاظ بعلاقته مع الآخرين، يجب عليه أن يتحمل أخطاءهم، وأما الذي يريد أن يعيش مع الآخرين بشرط ألا يخطئوا معه، فليسأل نفسه هل هو لا يخطئ بحق الآخرين؟. بل الإنسان قد يخطئ أحيانًا بحق نفسه وبحق أقرب الناس إليه كأبيه وأمه وزوجته وأخته

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٥.

وابنه، فلماذا يتوقع من الآخرين ما لا يتوقعه من نفسه؟ هذه معادلة غير صحيحة، أنا أُخطئ بحق الآخرين، والآخرون أيضًا قد يُخطئون بحقي، فالأساس هو الصفح وغفران الزلل والتجاوز عن الأخطاء.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**لا يقصر المؤمن عن احتمال ولا يجزع لرزية**»[1]، أي ينبغي ألاّ يضعف المؤمن في البحث عن احتمالات وتبريرات لأخطاء إخوانه وزلاتهم، فإنّ المؤمن حقًا هو من تكون عنده قدرة على أن يستوعب أخطاء إخوانه ويتحملها ويتجاوزها ويكبر عليها وينساها، ولا يبقى يتذكرها أصلًا، فحين قال أرجو المعذرة أو أوضح لي الأمر، فقد انتهى الموضوع، وإن لم يعتذر ولم يوضح لي فيجب أن أقول: من المؤكد أنّه لم يقصد الإساءة، ولنسعَ لتذكر إيجابيات الآخرين، ونحن إذا كنّا نعمل الخيرات ونهدي ثوابها للأموات رحمة بهم، ونتذكر إيجابياتهم فقط ولا نتذكر سلبياتهم، فلماذا لا نتعامل مع الأحياء بنفس الثقافة التي نتعامل بها مع الأموات؟. ومن الجدير بالمؤمن ألاّ يقصر في حق أخيه المؤمن، ولا يقصر عن استيعاب وتقبل وتحمل أخطائه.

وكذلك على المؤمن ـ بحسب هذه الرواية الشريفة ـ ألاّ يجزع لرزية تصيبه، والرزية هي البلية، كما لو دخل سارق إلى البيت وسرق أثاثه، فليحمد الله تعالى أنّ أولاده سالمون لم يخطفهم المجرمون كما يخطفون أولاد الناس،والمال يذهب ويأتي عوضه، وإذا أصابه المرض يجب ألاّ يجزع ويقول: إلهي لماذا أصاب أنا وأولادي بالمرض؟، وعليه أن يتذكر أنواع الأمراض الصعبة والخبيثة التي لا علاج لها، ويسأله بدلًا من ذلك الشفاء والعافية.

وعلى كل فرد منّا أن يحدّث نفسه دائمًا بمن ابتلاهم الله بأشد مما ابتلاه، فإنّي لو فقدت أخًا، فإنّ فلانًا من جيراني أو أصدقائي فقد أربعة، فأقول الحمد لله الذي حفظ لي بقيه إخواني. إن الصبر على الرزية وعدم الجزع أمر مهم يجب أن يتحلى به المؤمن.

إذن فهناك ذنوب يخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنّه أخفاها عن ملائكته، كما مر في بعض الروايات السابقة، ولكن الله سبحانه وتعالى رقيب عتيد يسمع ويرى ويعرف ويسجل، ولكن لا يسمح حتى لملائكته الموكلين بذلك المؤمن بالاطلاع على بعض الذنوب، أما ما مداليل ذلك؟ وماذا نستفيد من إخفاء الله سبحانه وتعالى لبعض الذنوب عن عباده وعن ملائكته؟ فهذا معناه وجود

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٤١.

إرادة إلهية ألاّ يقف الإنسان عند الخطأ، وألاّ يبقى يتذكر أخطاء الآخرين، وأنّ الله ﷻ يحب للإنسان أن ينسى أخطاء الآخرين.

وإذا كنا نحب أن يصفح الله عنا ويتناسى أخطاءنا، فعلينا أن نتناسى أخطاء الآخرين، لا أن نقف عند كل شاردة وواردة وكل صغيرة وكبيرة ونحصيها على الآخرين، ثم نرفع أيدينا بالدعاء ونقول اللهم أنت الغفور الرحيم اغفر لي، مع أننا لم نغفر ما هو بحجمنا ومقدارنا، حتى تضاعفت أخطاؤنا أمام الله ﷻ وأصبحنا لا نستطيع إحصاءها عددًا.

وقد جاء في دعاء كميل قول أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته: «**وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم، وبفضلك سترته**».

«**وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم**»: أي من وراء الملائكة.

«**والشاهد لما خفي عنهم**»: أي الذنوب التي أخفيتها عن ملائكتك، وكنت أنت الشاهد عليها.

«**وبفضلك سترته**»: أي أنت يا إلهي تفضلت عليّ وسترت ذنوبي عن ملائكتك فخفيت عنهم، ولكنك الشاهد وتعرف كل شيء، وهذا يدل على أن الله ﷻ ستّار العيوب، فهو يرغب ويحب أن تستر العيوب والأخطاء، وعلينا حينما نرفع أيدينا بالدعاء ونقول: يا ستار العيوب استر عيوبي، فلنسأل أنفسنا هل سترنا عيوب الآخرين وأخطاءهم، حتى نطلب من الله تعالى أن يستر عيوبنا ويعفو ويصفح عن أخطائنا؟ إذا سترنا عيوب الآخرين ورفعنا أيدينا بالدعاء، فحينئذ يكون دعاؤنا مستجابًا، وأما إذا كنّا واقفين لهم بالمرصاد، ثم نريد من الله ﷻ أن يستر عيوبنا فهذا أمر صعب المنال، إذا لم يحدث العكس؛ فيفضحنا الله تعالى كما فضحنا الآخرون.

إنّها ثقافة تسجيل النقاط التي سادت أوساطنا في هذه الأيام، ولو سألت أحدهم ما الطعام الذي تناوله في فطوره الماضي؟ لقال نسيت، ولكنه لا ينسى قولا أو فعلا صدر من المؤمن الفلاني قبل عشرين سنة، فلماذا يتذكر تلك رغم تطاول الزمان عليها وينسى هذه التي كانت في الأمس؟.. الجواب، لأنّ ذاكرته تركز على أخطاء الآخرين فتبقى في باله، فالإنسان يحفظ في ذاكرته المعلومات التي يهتم بها، وأما المعلومات التي لا يهتم بها فلا تُحفظ في ذاكرته، وتبقى في دوائر أبعد في الذاكرة، وسرعان ما تُنسى وتتلاشى.

وعلينا إذا تذكرنا أخطاء إخواننا أن ننتبه إلى أنّنا نركز على هذا الموضوع، لتكون لدينا ثقافة تسجيل النقاط، أي دعني أسجل القضية الفلانية لتنفعني في يوم ما إذا جرت بيننا

خصومة فأُظهرها له، وبعضهم يدونها في دفتر ملاحظاته أو يومياته لئلا ينساها، ويقرؤها بين الفينة والأخرى لئلا ينساها، فدفاتر مذكراتنا هي سجلات لتدوين أخطاء الآخرين، حتى إذا ما سُئل يومًا ما رأيك بفلان؟ أسرع إلى ذاكرته ودفتره فعدد لك أخطاءه من ألفها إلى يائها. ولكننا في نفس الوقت ننسى الأحكام الشرعية المهمة كشكوك الصلاة والمفطرات.

هذه هي ثقافة تسجيل النقاط والثغرات والعثرات والزلات على الأخ المؤمن، وهي ثقافة خطيرة، فبعضهم يبني علاقات مع المؤمنين لاستدراجهم واكتشاف نقاط ضعفهم وزلاتهم، وهو أمر عجيب، ألاّ تُبنى العلاقة الأخوية على أساس الإيمان وقداسة هذه العلاقة، وإنما هي لاكتشاف نقاط الضعف والزلات، فهذا من شأنه أن يخاطر بالإيمان، كما ورد ذلك في عدد من النصوص، ويكون الإيمان حينئذ في مهب الريح، وعندها يتحول مثل هذا الإنسان إلى إنسان سلبي ظلامي، قد أمسك قلمه بيده ليسجل نقاطا على الآخرين، ليقول في يوم: عندي ملفات عن كل شخص، وكل من يتنفس سأنشر ملفه.

لقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان، أن يؤاخي الرجل الرجل على دينه، فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعيّره بها يومًا ما**»[1].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضًا أنّه قال: «**أبعد ما يكون العبد من الله، أن يكون الرجل يؤاخي الرجل وهو يحفظ عليه زلاته ليعيّره بها يومًا ما**»[2]، فأبعد ما يكون الإنسان عن الله سبحانه وتعالى ليس عندما يرتكب الذنوب والمعاصي الشخصية، وإن كان ذلك يبعده عن الله تعالى قطعًا، ولكن عندما يؤاخي مؤمنًا ليسجل عليه أخطاءه، لأنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ يضيع، وإذا ضاع الإيمان فسيكون الإنسان أبعد ما يكون عن الله سبحانه وتعالى، وبقدر ما يبتعد الإنسان عن الله تعالى يقترب من الكفر العملي، إذ الكفر نوعان: كفر بالله في مقابل الإسلام، وهو كفر في العقيدة، وكفر في السلوك، والإنسان البعيد عن الله سبحانه وتعالى كافر عمليًا، وإن كان يعتقد بالله.

ومعنى الكفر العملي أنّ الإنسان يعمل أمورًا تخالف معتقده، فمثلًا، تسأل إنسانًا عاصيًا لله سبحانه وتعالى: هل تعتقد بوجود الله؟ فيقول: نعم؟ فتسأله ثانية: هل تعتقد بأنّه سيحاسب الناس في يوم القيامة، فيدخل المطيع جنته والعاصي ناره؟ فيقول: نعم، فتقول له حينئذ:

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢٧٦، ح٤.
(٢) الكافي ٢: ٣٥٥، ح٧.

فلماذا تعصيه وترتكب ما حرّم عليك؟ فإنّ معنى العصيان أنّك لا تعتقد بربوبيته، في الأقل في العمل الشكلي، وهذا يسمى الكفر العملي.

وكذلك، عندما يستقصي الإنسان أخطاء الآخرين وزلاتهم، يخرج من الإيمان ويفقده، وإذا فقد الإيمان ابتعد عن الله سبحانه وتعالى، وإذا ابتعد عنه كان أقرب للكفر العملي.

لاحظوا هذه الرواية في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين، فيحصي عليه زلاته ليعيّره بها يومًا ما**»[1].

وقد تكرر التعبير نفسه والصياغة نفسها ثلاث مرات في ثلاثة مواطن، اثنتان منها عن الإمام الصادق عليه السلام وواحدة عن الإمام الباقر عليه السلام. في إحداها: «**أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان**»، **وفي أخرى**: «**أبعد ما يكون العبد من الله**»، **وفي ثالثة**: «**أقرب ما يكون العبد من الكفر**»، وكلها تشير إلى الوقوع في الكفر العملي، نستجير بالله من ذلك.

فانظروا إلى نتيجة التركيز على زلات الآخرين واستذكار أخطائهم وحفظها عليهم، للتلويح بها وتهديدهم عند الحاجة، كيف يعصف بالإنسان ويبعده عن الله سبحانه وتعالى ويوقعه في الكفر العملي.

إنّ حب الإنسان لنفسه يجعله غير قادر على أن يلتقط أخطاء نفسه ويركز عليها، وتأخذه العزة بالإثم ولا يعترف بخطئه، فيدافع عن أقواله وأفعاله وطريقته، حتى لو قيل له: لقد أسأت إلى أخيك المؤمن، لقال: يستأهل، أو كان حقه ذلك. فالإنسان الذي يحب ذاته لا يتنازل ولا تكون له القدرة على استبيان أخطائه وزلاته، ولكنه يبقي عينه مفتوحة على الآخرين ليتقصى زلاتهم، وينزه نفسه وينكر أخطاءه.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**من عمي عن زلته استعظم زلة غيره**»[2]، فالذي لا يرى أخطاءه تكبر في عينه أخطاء الآخرين، وعلى عكس ذلك، من كان يرى أخطاء نفسه تتصاغر في عينه أخطاء الآخرين.

وورد عنه عليه السلام أيضًا قوله: «**من أبصر زلته صغرت عنده زلة غيره**»[3]، ولا يستطيع أن يرى أخطاء نفسه إلا الشجاع، ومن تعب على تزكية نفسه، ولكن الإنسان بطبيعته مكابر، وليس من السهل عليه أن يعترف بأخطائه، ولو نبّه عليها أخذته العزة بالاثم والعزة

(١) الكافي ٢: ٣٥٥، ح٦.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٧.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٨.

بالخطأ، فلا يقنع ولا يقبل لنفسه أن يقول إني أخطأت. ولذلك ورد في الأدعية المأثورة التأكيد على سحق الأنا والترويج لثقافة الاعتراف بالخطأ، كما ورد ذلك في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «**إلهي أنا الذي أخطأت، أنا الذي أسأت، أنا الذي أجرمت...**»، وهو يعلمنا كيف نسحق الأنا في وجودنا؛ لأنّ حب الذات وحب النفس والأنانية رأس كل خطيئة وبداية كل انحراف. فهنيئًا لمن ينشغل بإصلاح عيوبه عن الانشغال باحصاء عيوب الآخرين، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**»[1].

فهنا معادلة، وهي أن من يصاب بالأنانية ولا يرى أخطاءه، ستكبر في عينه أخطاء الآخرين، وكل من كان شجاعًا ومتواضعًا ورأى أخطاءه، فسوف تتصاغر في عينه أخطاء الآخرين. إذن كل من يرى عيوب الآخرين كبيرة، فليعلم أنّه مصاب بعمى البصر، وكل من يرى أخطاءه كبيرة وأخطاء الآخرين صغيرة، فليحمد الله وليعلم أنّه صحيح البصر.

فغفران الزلل يعني الصفح والتجاوز والتناسي واختلاق الأعذار للأخ المؤمن، وإذا لم يجد عذرا يختلقه فليتهم نفسه، وليقل إن هناك سببًا ولكني لا أعرفه، إذ الأساس هو حمل الأخ المؤمن على الصحة، وأنّه لا يتعمد الخطأ، وعمله صحيح إن شاء الله.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٩٦، الرقم ١٧٦.

الحق الثاني
(رحمة عبرة المؤمن)

لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الحق من حقوق المؤمن بقوله: «**ويرحم عبرته**»، أي على المؤمن أن يتعاطف ويتفاعل ويهتم ويواسي ويراعي أخاه المؤمن، حينما نرى أخانا المؤمن في كربة وفي غم وفي محنة وفي ألم، فهل ينبغي أن يكون موقفنا منه موقف اللامبالاة أو موقف الشعور بالمسؤولية والشعور بضرورة التقرب منه وإزالة كربه بالتراحم والتواصل والتوادد والمحبة؟.

إنّ الغم حالة نفسية، ومعالجته أيضًا معالجة نفسية، فلعلنا لا نستطيع أن نسع الناس بأموالنا حتى نحل مشاكلهم المالية، ولعلنا لا نستطيع أن نسع الأخ المؤمن بحل مشكلة إدارية لعدم وجود علاقة مع الجهة المسؤولة، ولكننا نستطيع أن نستوعب الأخ المؤمن بالمداراة وبالكلمة الطيبة، فهي تخفف حجم المحنة التي يعيشها.

والإنسان لحم ودم ومشاعر وعواطف، وتلعب الحالة المعنوية دورًا كبيرًا في إزالة كربته، فعندما يرى إخوته مجتمعين حوله في خدمته والاهتمام بشأنه، فإنّ ذلك يخفف كثيرًا من الكربات والمحن التي يمر بها؛ إذ العبرة بمعنى الدمعة، وهي هنا كناية عن أسباب الدمعة من الآلام والمحن والهموم التي قد تصيب الإنسان نتيجة ظروف الحياة، فيخفف عنه كثيرًا حين يُرحم ويُراعى ويُلتفت إليه، في مقابل حالة اللامبالاة، وعدم الشعور بالمسؤولية وعدم الاكتراث وعدم الاهتمام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، فأول سمات رسول الله ﷺ والذين معه، هي أنّهم أشداء على الكفار رحماء

---

(١) سورة الفتح، الآية : ٢٩.

بينهم، ولا مفارقة ولا تناقض بين الرحمة من جهة والشدة من جهة أخرى، لأنّ العواطف يوجهها بالعقل، فيقف من الكافر المعادي موقف الشدة؛ لأنّه عندما يكون لينًا أمام الخصم، فإنّه سيتجرأ أكثر على الخصومة، بينما سيقول من آمن مع رسول الله ﷺ : إذا كنّا على علاقة جيدة مع العدو والصديق، فلماذا نتعب أنفسنا ونتحمل مرارة الحق؟ وستبرد الناس عن الحق إذا كان الجميع سواسية، وسوف لا يندفع للحق إلا قلة من الناس، ولذا لا بُـدَّ من أن نكون أشداء على الكفار ونتعامل معهم بحزم، فلا مجاملة مع العدو الكافر.

ربما يتبادر إلى ذهن البعض، كيف نتعامل مع منافسينا في العمل السياسي باللين وروح المجاملة؟، فنقول: إنّ هذا بحث آخر، فهؤلاء كلهم يؤمنون بالعملية السياسية، وهم جميعًا ضمن إطار واحد وضمن البيت الوطني، وإنْ اختلفوا في بعض برامجهم وخططهم وأسمائهم وتفاصيلهم، فالشراكة الوطنية والمجاملة بين أبناء الوطن الواحد وأبناء المشروع الواحد، أمر لا علاقة له بموضوع بحثنا، ولا يدخل في دائرة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

إن الرحمة تعني الشفقة والمداراة وحسن الظن والتعامل الطيب والكلمات الرقيقة والابتسامة وإشعارالآخر بالاهتمام، فربما يشعر الإنسان بالمهانة عندما يتكلم إلى شخص، وهو يتلهى عنه بسماع الأخبار مثلًا، فالإقبال على المتحدّث هو أبسط حالات الرعاية والاهتمام. إنّ لقلب الإنسان مظهر اللين ومظهر الشدة؛ مظهر اللين والرأفة والشفقة لأولياء الله، ومظهر الغضب لأعداء الله.

وثاني سمات رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه، أنّهم كانوا يقضون أوقاتهم بالركوع والسجود والعبادة لله عز وجل، يبتغون من وراء ذلك الفضل من الله تعالى والرضوان، فهدفهم هو الحصول على رضا الله تعالى وعلى فضله ولطفه.

وثالث سماتهم أنّ سيماهم ظاهرة في وجوههم من كثرة ما يسجدون لله عز وجل، والمقصود من قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾، أي سيماء الصالحين بادية على وجوههم، والنظر إليها يذكّر بالله سبحانه وتعالى ويحدث حالة من الشعور بالمعنوية، فيجب علينا عندما نقف أمام المرآة لنرى مظهرنا وملبسنا، أن نرى أيضًا أنفسنا هل تخشع لذكر الله تعالى أو لا تخشع؟ وهل سيماؤنا في وجوهنا من أثر السجود أو لا؟. وبالطبع فإنّ هذه السيماء من آثار السجود الواقعي المعنوي لله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، فمن المؤكد أنّ سجود الجبل والشمس والقمر ليس كالسجود المتعارف، وليس بمعنى سجودنا نحن، بل يعني الخضوع لإرادة الله سبحانه وتعالى.

وقد يحلو للبعض في هذه الأيام أن يقف عند الظاهر ويتجاوز الباطن، فيتظاهر بمظاهر الإيمان وإن كان واقعه ليس كذلك، من أجل مصلحة شخصية، فيُطيل لحيته ويضع الخواتم في أصابعه ويمسك مسبحة بيده، وإذا ما دخلنا اليوم في وزارة محسوبة لتيار إسلامي، فسنرى أمثال هؤلاء من العاملين فيها، لكي يقول ظاهر حالهم للوزير إني من لونك، فإذا تبدل الوزير وكان علمانيًا، فسنرى في اليوم الثاني أن هؤلاء قد حلقوا اللحى وخلعوا الخواتم من أصابعهم ووضعوا من أيديهم المسابح، وارتدوا ملابس من نوع آخر تتناسب مع ذوق التيار الذي ينتمي إليه الوزير الجديد. هؤلاء كالحرباء، وهو حيوان يتكيف مع المحيط الذي يعيش فيه، فعندما يدخل بين الشجر الأخضر يتبدل لونه إلى أخضر، وإذا عاش في مكان أصفر يتبدل لونه إلى الأصفر، وهي من عجائب الدنيا.

أما الإنسان الذي لا يحب أن يكون متلونًا كالحرباء، فعنده لونه الخاص وهويته الخاصة التي يعتز بها، وعندما يكون بين المؤمنين فهذه هويته، وعندما يكون في مكان آخر، نراه محافظًا على هويته ومحافظًا على هندامه ومحافظًا على طريقته.

والفقرة الأخيرة من الآية الشريفة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، تتناول الثواب الذي ينتظر من ذكرت الآية الكريمة سماتهم في صدرها.

وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام التأكيد الكبير على مسألة التراحم، وهو مفردة مهمة في ثقافة أهل البيت عليهم السلام، فمثلاً روى الشيخ الكليني في الكافي عن شعيب العقرقوفي قال: «**سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول لأصحابه: اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين متواصلين متراحمين، تراحموا في ما بينكم، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه**»[2].

وروى في موضع آخر عن أبي عبد الله عليه السلام أيضًا قال: «**يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون على التعاطف، والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم، على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله**»[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٩.
(٢) الكافي ٢: ١٧٥، ح١.
(٣) الكافي ٢: ١٧٥، ح٤.

يذكر الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية أن التعاطف والتراحم حق للمسلم على أخيه المسلم، وينص على أن هذا حق من حقوق الأخوّة في الدين. وقد تضمنت عدة فقرات لبيان هذا الحق.

«**يحق على المسلمين**»: أي هو حق تضامني لكل مسلم على المسلم الآخر، وهو لا يخص فئة منهم، ولا مسلما دون مسلم.

«**الاجتهاد في التواصل**»: أي أن يبذلوا الجهد في تحقيق التواصل بينهم، لا أن يقول: سأزوركم إذا وجدت فرصة، وتمر خمس سنوات ولم تأتِ الفرصة. والله تعالى يعلم كم يحتاج من السنوات حتى يردّ الزيارة.

«**والتعاون على التعاطف**»: أي تعاونوا على المحبة والرحمة والشفقة.

«**والمواساة لأهل الحاجة**»: أي سدّ حاجة الفقراء بما فضل من مال، بل مشاركتهم بأموالكم ولو باقتطاع شيء من نفقتكم، ومساعدتهم في انتشالهم من الفقر.

«**وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل**: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾»: في إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، أي كونوا متراحمين بينكم.

«**مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم**»: أي أن المؤمن يصيبه القلق على أخيه المؤمن إذا غابت عنه أخباره، ولم يجد وسيلة للتعرف عليها ولا أحدًا يعرفه فيسأله عنه.

«**على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله**»: أي أن معشر الأنصار ـ وهم أهل يثرب الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وآووه ونصروه ـ هكذا كانوا مع من جاءهم من المهاجرين من مؤمني مكة الذين كانوا فقراء، وليس عندهم من ينزلون عليه في إقامتهم في يثرب، فتكفلهم الأنصار على خير وجه بالرغم من أنّهم كانوا فقراء أيضًا، ففتحوا أبوابهم للمهاجرين واستقبلوهم في دورهم، وكان المهاجرون يخجلون من طول إقامتهم عند إخوانهم الأنصار، فكانوا يغيبون وجوههم فيغتم الأنصار لذلك، فيبحثون عنهم ويأتون بهم إلى بيوتهم ثانية.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩

أهمية التراحم

إنّ التراحم شرط لحصول الرحمة الإلهية، ومن أراد أن يرحمه الله ﷻ ويشفق عليه، فعليه أن يرفق بأخيه المؤمن ويشفق عليه، لأنّ من يرحم يُرحم، ومن أراد الرحمة من الله ﷻ فعليه أن يرحم إخوانه المؤمنين.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم. قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم؟ فقال** ﷺ: **ليس الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الذي يرحم المسلمين**»[1].

وقد احتوى هذا الحديث الشريف على فقرات عديدة تسلط الأضواء على أهمية التراحم بين المؤمنين، وتفسر المقصود من هذا التراحم.

«**والذي نفسي بيده**»: يستعمل المتكلم القسم الغليظ عندما يكون هناك أمر مهم يريد الحديث عنه.

«**لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم**»: أي لا يرحم الله تعالى إلا من يرحم الآخرين، أما من كان لا يبالي بالآخرين ممن يحتاجون إلى الرحمة، فلا يتوقع نزول الرحمة الإلهية عليه؛ لأنّها خاصة بمن كان رحيمًا فقط.

«**قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم**»: أي كلنا عنده رحمة لنفسه وعياله، فيداريهم ويعطف عليهم، فكل إنسان رحيم بحق نفسه ورحيم بحق عياله.

«**فقال** ﷺ: **ليس الذي يرحم نفسه وأهله خاصة**»: أي ليس المقصود رحمة الإنسان لنفسه وعياله فقط. فلا يكفي أن يرحم الإنسان نفسه وعياله؛ لأنّ هذا أمر فطري عند الكائنات الحية.

«**ولكن الذي يرحم المسلمين**»: أي المقصود هو رحمة المسلمين جميعًا، فيسعف من كان مريضًا منهم، ويساعد من كان فقيرًا، ويقضي حاجة من كان محتاجًا، ويشبع من كان جائعًا، ويعلّم من كان جاهلًا، ويرشد من كان ضالًا.. وهكذا.

وقال ﷺ: «**قال تعالى:إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي**»[2]، ولعل هذا حديث قدسي، أي من أراد أن يحظى برحمة الله تعالى، فعليه أن يرحم من في الأرض.

---

(١) مستدرك الوسائل ٩: ٥٤، ح٣.

(٢) مستدرك الوسائل ٩: ٥٤، ح٣.

وفي رواية أخرى عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**»[1].

هذه الرواية من روايات السلسلة الذهبية، وهي الرواية التي يرويها إمام عن إمام عن رسول الله صلى الله عليه وآله. ومعنى هذه الرواية الشريفة أن من لم يبادر إلى رحمة الناس، فلا يفكر بوصول رحمة الله إليه. ومن مصاديق الرحمة أن يسعى كل منّا لبراءة الذمة مع إخوانه الآخرين الذين تعكر صفو علاقته معهم لسبب من الأسباب، ولا يقولن أحد إنّ المقابل هو المقصر وعليه أن يعتذر ويطلب براءة الذمة منّي، بل تجاوزوا كل ذلك وإن كنتم محقين، وسارعوا إلى التراحم بينكم، واقبلوا على الله تعالى بنيات صافية، لتقفوا بين يديه وتقولوا: يا إلهنا إنّا ضغطنا على ذاتنا وسحقنا على أنانيتنا وعفونا عن إخواننا المؤمنين الذين ظلمونا، فاعفُ عنّا بكرمك.

علينا أن نصفّر حساباتنا ونبيّض ملفاتنا، لكي يبيّض الله تعالى ملفاتنا من الآثام والذنوب التي ارتكبناها طوال حياتنا، وليرحم بعضنا بعضًا لكي يرحمنا الله تعالى، وعلينا أن نسمو ونتعالى ونكبر على هذه التفاصيل الصغيرة التي تحدث غالبا بين الإخوان، وعندما يرانا الله سبحانه وتعالى قد رحمنا الآخرين بالفعل وصفحنا عنهم، فإنّه حينئذ سيرحمنا.

وفي رواية أخرى عن نوف البكالي، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**يا نوف ارحم تُرحم**»[2]، يوصي أمير المؤمنين عليه السلام أحد أصحابه بوصايا، منها أنّه إذا كان يريد أن يرحمه الله تعالى فليبدأ هو أولًا برحمة الناس والشفقة عليهم، فإن فعل ذلك وهو أمر يسير لا كلفة فيه، إذ بمقدور كل أحد أن يمارس الرحمة والشفقة مع الآخرين ويخلع عنه لباس النقمة والشدة، هطلت عليه سحائب الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة، وأغرقه الله تعالى بفيض كرمه اللامتناهي، وكل هذا جزاء عمل بسيط لا يستغرق من الإنسان وقتًا ولا جهدًا.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»[3]، أي الذي يرحم الآخرين ويشفق عليهم، فإنّ الله سبحانه وتعالى باسمه الرحمن يتولى رحمته.

(١) مستدرك الوسائل ٩: ٥٥، ح٤.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٩٦، ح٢٦.
(٣) مستدرك الوسائل ٩: ٥٦، ح٨.

«**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»: كم هي لطيفة هذه الرواية، أي أرحم كل من يعيش على وجه الأرض، وإن كان حيوانًا، لكي يقابلك الله تعالى بالمثل فيرحمك. وهذه قاعدة عامة يتعامل بها الله ﷻ مع الإنسان بغض النظر عن إيمانه.

عندما تتكون عند الإنسان هذه الروحية والأخلاقية في التعامل مع من حوله من البشر، وما حوله من الحيوان والنبات، وتترسخ عنده ملكة الرحمة، بحيث تتحول بعض مظاهر الرحمة عند البعض إلى مثار دهشة واستغراب، كمن يفت الخبز للنمل لكي يوفر عليها عناء البحث عن قوتها، فلا شكَّ في أن مثل هذا الشخص سيكون تحت النظر الدائم للرحمة الإلهية.

إنّ الاهتمام بالطبيعة وما فيها ينطلق من هذه الرحمة العامة التي يحث عليها الإسلام، ولذا ينبغي على الإنسان عندما يرى هرة عطشى أو شجرة عطشى مثلًا ـ وإن لم يكن للشجرة لسان تتكلم به، ولكنه يعرف ذلك عندما يراها يابسة مع أن الماء قريب منها ـ فليغتنم هذه الفرصة ويبادر إلى سقيها، لأنّها كائن حي يحتاج إلى الماء والغذاء. ولكن هناك من يعيش حالة العداوة مع الطبيعة، فعندما يرى غصنًا يكسره، وعندما يرى شجرة يقلعها، كل ذلك لأنّه لم يتلق التربية الصحيحة في التعامل مع الطبيعة، كيف وهو يرى من حوله مظاهر اللامبالاة بالإنسان فضلًا عن الحيوان والنبات؟، ولهذا علينا أن نحيي هذه السنة الدينية في الدعوة إلى الاهتمام بالطبيعة من حولنا، ولو بدأ كل واحد منّا برعاية شجرة واحدة أو نخلة واحدة لزاد عددها (٣٤) مليون شجرة، بقدر عدد نفوسنا في العراق الآن، وهو أمر ليس صعبًا، فهناك مساحة فارغة دائمًا في البيت أو في الشارع، أو المساحات الخالية، ازرع شجرة واهتم برعايتها لتتحول بلادنا إلى بلد مليء بالثمار والمناظر الزاهية الجميلة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله عز وجل رحيم يحب كل رحيم**»[1]، أي أن الله ﷻ يحب من البشر من يتشبه بصفاته، ويكون في واقعه العملي مظهرًا لأسمائه، فمن كان رحيمًا رحمه الله ﷻ، ومن كان كريمًا أكرمه، ومن كان متسامحًا سامحه وهكذا، فأي صفة في الله تعالى هي صفة كمال، وحينما تكون هذه الصفات الكمالية في شخصياتنا وفي وجودنا، نكون قريبين من الله ﷻ ومن أوليائه.

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢١٦، ح٦.

الحق الثالث

(ستر العيوب)

أما الحق الثالث فهو قول رسول الله ﷺ: «**يستر عورته**»: أي يجب على المؤمن ستر عورة أخيه المؤمن، وهو حق من حقوق الإخوان.

والعورة تعني الشيء الذي يخجل منه الإنسان، وهي تشمل كل عمل أو خطوة أو سلوك يخجل أن يبينه الإنسان أو أن يطّلع عليه الآخرون، إما لأنّه نقص أو خطأ أو ذنب أو عمل قبيح، أو قد لا يكون نقصًا أو عملًا قبيحًا، ولكن يقبح اطّلاع الآخرين عليه، فليس عيبًا أن يقضي الإنسان حاجته بشكل طبيعي، لأنّها حاجة طبيعية فطرية عند الإنسان وضرورة حياتية، ولكن لا يرغب في أن يطّلع الآخرون عليه وهو في تلك الحالة، وقد سُمّي مكان قضاء الحاجة ببيت الخلاء، لأنّه مكان يخلو فيه الإنسان ولا يرغب في أن يراه أحد فيه. أما سابقًا في حياة البداوة، فكان الناس يذهبون الى أماكن منخفضة بعيدة عن مضارب الخيام لقضاء الحاجة، وقد تسمّى بالخلوة ونظير ذلك، بل إن الغائط لغةً يُطلق على المكان المنخفض الذي يتوارى فيه الإنسان لقضاء حاجته، فأخذ الحال اسم المحل.

هناك إذن أمور قبيحة بحد ذاتها لا يرغب الإنسان باطّلاع الآخرين عليها، وهناك أمور ليست قبيحة في نفسها، ولكن يقبح اطّلاع الآخرين عليها، وكلاهما يسمى عورة في الاستعمال العام في الروايات.

لذلك فإنّ كشف عورة المؤمن وكشف ما هو مستور في حياته لأي سبب من الأسباب، يمثل تجاوزًا على حق المؤمن، والمطلوب شرعًا في العلاقة الإيمانية، هو ستر المؤمن وحفظ شأنه ومكانته وأسراره، فحق المؤمن على المؤمن أن يستر عورته ولا يُطلع الآخرين عن خباياه، ولا سيّما في الأخوّة الإيمانية التي تتيح اطلاع كلٍّ من الأخوين على سلوك صاحبه؛ لأنّ التقارب يوجد انفتاحًا، أي ذهاب الحشمة بينهما، وهذا يفضي إلى الاطّلاع على العيوب والنقائص، وسبحان من لا نقص فيه، وسبحان من لا يُخطئ.

وقد جاء في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام، قوله: «**واستر العورة ما استطعت، يستر الله منك ما تحب ستره**»[1]، أي إذا كنت تريد أن يستر الله تعالى أسرارك وعوراتك، فاستر عورات الناس وعيوبهم وما يرغبون في إخفائه عن بعضهم جهد إمكانك، هذا هو المدخل لكي يستر الله عورتك.

ليس هناك إنسان كامل منزه عن النقائص والعيوب غير المعصوم عليه السلام، وكلنا فيه نقص ويقع في الخطأ والاشتباه، وإذا كان كل منا يترصد الآخر ويكشف أسراره وعوراته، فإنّ الله سبحانه وتعالى يقيّض من يكشف أسراره أيضًا، فعلى من يريد أن يخفي عوراته أن يسهم في إخفاء عورات الآخرين، وفي ذلك أجر عظيم بحسب ما تشير إليه الروايات، ومنها ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**من ستر عورة مؤمن ستر الله عزّ وجلّ عورته يوم القيامة، ومن هتك ستر مؤمن هتك الله ستره يوم القيامة**»[2]، أي كما تتعامل مع الآخرين يتعامل الله معك، فإن حفظت أسرار الآخرين وسترت عوراتهم، فإنّ الله عزّ وجلّ يسترعورتك يوم تقوم الناس لرب العالمين في عرصات يوم القيامة، وإن كشفت عورات الآخرين كشف الله عورتك في ذلك اليوم أمام الناس جميعًا وفضحك على رؤوس الأشهاد. هذه قاعدة من قواعد التعامل الاجتماعي، فلنبدأ من أنفسنا ونتعامل بصدق على كتمان أسرار الآخرين وعيوبهم. ولكن البعض بمجرد أن يطّلع على عيب أو خطأ عند أخيه المؤمن، يبقى مضطربًا ولا يرتاح إلا أن يبوح به أمام الآخرين.

وبما أنّ العورة هي شيء يرغب الإنسان بستره وعدم إظهاره، فكل ما جاء في ضرورة كتمان الأسرار يأتي أيضًا في كتمان عورة المؤمن.

منها ما رواه عبد الله بن سنان قال: «**قلت له «للإمام الصادق»: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: نعم. قلت: تعني سفليه؟ قال** عليه السلام: **ليس حيث تذهب، وإنما هي إذاعة سره**»[3].

يقرر هذا الحديث المبارك حرمة كشف المؤمن لعورة أخيه المؤمن، سواء كانت أخطاء أو نقائص، ولكي يرفع السائل ـ وهو من كبار أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ـ أي التباس أو سوء فهم لمقصوده عند نقل جواب الإمام إلى الشيعة، باعتبار أن العورة

(1) مستدرك الوسائل ١٣: ١٤٦، ح٢.
(2) مستدرك الوسائل ٩: ١٠٩، ح٢.
(3) الكافي ٢: ٣٥٨، ح٢.

مشترك لفظي لها أكثر من معنى، والمعنى الشائع لها هو الأعضاء التناسلية، سأل سؤالاً آخر وهو: هل المقصود من حرمة كشف المؤمن لعورة أخيه المؤمن هو ما كان أسفل بدنه؟ وهنا ينفي الإمام عليه السلام نفيًا قاطعًا أن يكون مراده ذلك، ويوضح أنّ مقصوده هو حرمة كشف سر المؤمن وإذاعته. وكانت الأحاديث السابقة قد بينت أن عورة المؤمن هي أخطاؤه ونقائصه وعيوبه، وقد أضاف هذا الحديث بُعدًا جديدًا لكشف العورة، وهو كشف السر وإذاعته، وعادة ما يكون هذا السر أمرًا يتعلق بكشف هوية المؤمن العقائدية في ذلك العصر.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضًا: «**عورة المؤمن على المؤمن حرام. قال: ما هو أن ينكشف فترى منه شيئًا، إنما هو أن تروي عليه أو تعيبه**»(1)، وتؤكد هذه الرواية ما ورد في الرواية السابقة؛ أن المقصود بالعورة ليس ما يستره الإنسان بملابسه، فإذا انكشفت ثيابه يتبين ما لا يرغب في أن يُرى منه، ولكنها تضيف معنى جديدًا لحرمة كشف عورة المؤمن هو حرمة الرواية عليه. ومعنى تروي عليه، أي تنقل عنه أمرًا لا يرغب بنقله عنه أو تعيبه، فإنّ ما يسوء المؤمن تارة يكون لغرض الإساءة إليه، وتارة لا يكون للإساءة إليه، لأنّ النقل قد يكون أحيانًا من باب التظلم، كأن تقول: أتدري ماذا حلّ بفلان؟ حدث له كذا وكذا، وتنقل عنه أمرًا يشينه، مع أنّك الآن لست في مقام الإساءة له، بل في مقام التظلم له والمواساة والانزعاج. وقد ساعدت الوسائل الحديثة كالفيس بوك والإنترنت والفضائيات على نقل أمور شخصية مشينة بشكل واسع جدًا، مع أن فيها ما هو حق وباطل، وما هو صحيح وغير صحيح، وفيها تهويل لبعض الأمور الصغيرة. ولا دور للنية هنا في نتائج كشف عورة المؤمن بهذا الأسلوب، ولا تشفع النية الحسنة أيضًا في تحمل أوزار هذا الفعل المشين.

كما أنّ هناك فروقًا في كشف العورة، فتارة يكون الاطلاع على العورة لا عن قصد، كما لو كنت ماشيًا وفجأة ترى شخصًا تعرفه في حالة مخلة، أو تسمع صوته وهو يتحدث بالهاتف بكلمات غير لائقة من غير أن يكون قصدك مراقبته والتنصت على كلامه.

فالعورة التي يطلع عليها الإنسان من دون قصد لا قبح فيها وليست حرامًا، لأنّها خارجة عن اختياره، أما العورة التي يحصل عليها بقصد ونتيجة المراقبة والمتابعة، فهي أمر قبيح وحرام؛ لأنّه تعمد الاطلاع عليها. ولكن سواء اطلعت عليها بقصد أو بغير

---

(1) الكافي ٢: ٣٥٨، ح٣.

قصد، لا يجوز لك أن تنقلها للآخرين وتفشي سره، لأنك تعيب عليه وتشمت به وتكسره في المجتمع.

وعلى كل حال، فمن اطّلع على عورة مؤمن بأي طريق كان، فصمم على نشرها وإخبار الآخرين بها شماتة به أو انتقامًا منه لعداوة بينهما، فهو أمر محرم ينال صاحبه العقوبة بسببه، أما لو كان غرضه التظلم وليس الشماتة به أو الانتقام منه أو الإساءة إليه، فهو أمر محرم أيضًا، لأنّ قصد الإساءة وعدمه لا يغيران من الواقع شيئًا.

في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام قال: «**ولا تخن من ائتمنك وإن خانك، ولا تذع سره وإن أذاع سرك**»[1].

هذه الوصية هي من عجائب الوصايا، إذ يوصي فيها أمير المؤمنين عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام، ومن بعده جميع المسلمين، ألّا يخون من أودعه أمانة ويرد عليه أمانته متى أرادها، وإن خانه هذا الشخص يومًا من الأيام، ويتجنب معاملته بالمثل، فقد يتصور البعض أنّ الخيانة في هذا المورد جائزة، وهي تتضمن نوعًا من العدالة في التعامل مع الخائن، ولكن الإسلام يبيّن موقفه من هذه الحالة على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، ويقول بعدم جوازها، وينبغي الالتزام بالمعايير الإسلامية حتى في مثل هذه الحالات.

والفقرة الأخرى من هذه الوصية المباركة هي الاجتناب عن إذاعة سر من استودعك سره أو اطّلعت عليه، وإن كان هذا الشخص قد أذاع سرك، وهو تطبيق من تطبيقات الفقرة الأولى وتأكيد لنفس المعنى الذي ورد فيها. وهذا هو الخُلق الكريم الذي يحث عليه الإسلام، وإن كان هذا مخالفًا لما عليه عادة الناس في مثل هذه الحالة، إذ يعمدون إلى المقابلة بالمثل وكشف أسرار هؤلاء الأشخاص انتقامًا منهم، وقد يبقى البعض يلوح بكشف هذا السر لابتزاز الطرف المقابل.

فهنا يحث الدين الحنيف على ما يليق بالمؤمن من التمسك بالأخلاق الفاضلة، مهما كانت الأحوال واختلفت الظروف، لأنّ هذا شأن المؤمن وكماله وما يليق به، وبذلك تكون قد أحسنت إلى من أساء إليك، وكنت أفضل منه وسبقته في ساحة السباق إلى الخيرات والعمل الصالح التي بشّر بها الإسلام.

---

(١) تحف العقول: ٨١.

الفرق بين العورة والسر

الفرق بين العورة والسر أن العورة ـ كما قلنا ـ إما نقص، أو أمر لا يرغب الإنسان باطلاع الآخرين عليه، أو في روايته مثلبة ونقص، إما لأنه نقص وخطأ ومعصية وذنب.. الخ، أو هو أمر عادي ولكن يحصل النقص بإذاعته كما في قضاء الحاجة وما شابه ذلك من أمور وشؤون. أما السر فهو الأمر الذي يُكتم، إما لأنّه سلبي وسيئ، أو لأنّه حسن وإيجابي، كما في الإنسان الذي يتصدق ولا يريد أن يطّلع عليه أحد؛ لأنّه يريدها خالصة لوجه الله ﷻ، فمثل هذا الأمر يكتمه المؤمن ولا يرغب في أن يذاع مع أنّه كمال، ولكنه يخفيه حتى لا يصاب بالرياء مثلاً، وكما في صلاة الليل والتهجد والعبادة، فهي أعمال حسنة ومع ذلك يحبذ إخفاؤها عن الآخرين حذرًا من الرياء؛ لأنّها أعمال شخصية بحتة. أما الأعمال التي فيها بُعد اجتماعي فيحبذ الإجهار بها أمام الآخرين، لكي تشاع الثقافة الصحيحة كما في تشييع جنازة أحد أموات المؤمنين، فيستحب للإنسان أن يُظهر نفسه لذوي الميت، لكي يشعروا أنّهم ليسوا وحيدين، وأنّ المؤمنين حولهم يواسونهم، فيمنحهم ذلك قوة قلب مما يؤدي إلى التخفيف من آلامهم ومحنتهم.

على كل حال، فالسر يُكتم تارة لأمر سلبي وغير جيد لما فيه من نقص، ويُكتم تارة لأمر إيجابي وجيد لما فيه من منقبة وكرامة وكمال، لا يرغب الإنسان في أن يطلع الآخرون عليها، وقد كان بعض أئمتنا (سلام الله عليهم) يحملون الطعام على ظهورهم في آناء الليل حيث لا تراهم العيون، ويذهبون إلى بيوت الفقراء ويضعون الطعام ويطرقون الباب وينسحبون، بل روي أن بعضهم كان أحد أقاربه من الفقراء وكان يصله في كل ليلة، ثم يأتي إلى الإمام ويعتب عليه ويخبره أن الناس الغرباء يأتون بالطعام إليه ليلًا، وأنا ابن عمك ولا تعطيني شيئًا، وعندما استشهد الإمام انقطع المدد فعرف هذا الشخص أن من كان يأتيه بالطعام وصرر المال ليلًا هو الإمام، فندم على ما كان منه من عتب على الإمام عليه السلام ،هذه أخلاق أئمتنا الأطهار و، التي كانت المصداق الأتم لكل منقبة وفضيلة.

الفرق بين غفران الزلة وستر العورة

أما الفرق بين الحق الثاني، وهو غفران الزلة، والحق الثالث وهو ستر العورة، فإنّ غفران الزلة يختص فقط بالمؤمن الذي أخطأ مؤمن آخر في حقه، فيجب عليه أن يصفح عنه، أما ستر العورة فمثاله أن أستر مؤمنا خرج عن طوره، لسبب من الأسباب فغضب،

وتحدث بحديث سيئ وأساء لفلان من الناس، وقد سمعت الإساءة ولم أكن طرفًا فيها فسترتها، ولم أذهب وأنقل ما تفوه به للآخر وأكشف عورته، سواء كان هذا الآخر من كانت الإساءة موجهة إليه أو شخصًا آخر، وطلب غفران الزلة لا يكون إلا ممن وقع الخطأ في حقه.

عاقبة كشف عيب المسلم

هناك رواية أخرى تتحدث عن طبيعة الآثار والنتائج المترتبة على كشف عورات المؤمنين، فقد روى إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان في قلبه، لا تذموا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في بيته**»[1].

يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله في الفقرة الأولى من هذا الحديث الشريف المسلمين، ويميّز بينهم وبين المؤمنين، وقد مر الحديث عن هذا الفرق بين المسلم والمؤمن في حقيقة الإيمان، في الموضوع الأول من تعريف الأخوّة الإيمانية.

ويطلب رسول الله صلى الله عليه وآله في الفقرة الثانية ممن أسلموا بألسنتهم ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، ألاّ يذموا المسلمين، أي جميع المسلمين بمن فيهم المؤمنون، فالمسلم هو كل من نطق الشهادتين سواء آمن بقلبه أو لم يؤمن.

وربما يخطر في بال البعض السؤال التالي: لماذا يخص رسول الله صلى الله عليه وآله من أسلم بلسانه بهذا الخطاب دون المؤمنين؟ والجواب: أن المؤمن لا يذم؛ لأنّ إيمانه يردعه عن ارتكاب مثل هذا العمل الشنيع.

وتتناول الفقرة الثالثة من هذا الحديث المبارك عقوبة تتبع عيوب المسلمين، وأنّ من تتبع عيوبهم ومثالبهم، تتبع الله عيوبه ومثالبه، ومن بحث عن أخطاء الآخرين، فإنّ الله سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية، يتقصى عيوبه بنفسه ويفضحه على رؤوس الأشهاد ولو كان في عقر داره. ولا يظن من يرتكب الذنب في داره أو في أي مكان آمن من أن يطّلع عليه أحد، أنّه عندما يفضح الآخرين ويفشي أسرارهم، فإنّ أحدًا لا يستطيع أن يفعل به ذلك، لأنّهم لم يطّلعوا على أخطائه، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى يقيض من يكشف عورته ولو كان

---

(١) الكافي ٢: ٣٥٤، ح٢.

في بيته، ولو ارتكبها سرًا، فإنّه مهما كانت الأمور التي يتكتم عليها الإنسان، فلا بُـدَّ من أن تأتي أوقات خارج اختياره ويتكلم بها بزلة لسان، لذلك من أراد ألاّ يفتضح ولا يكشف له سر، فعليه ألاّ يفضح الآخرين ولا يكشف عوراتهم.

عاقبة كشف عيب المؤمن

إن كشف عورة المؤمن أبعد من ذلك وأخطر بكثير، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، أن من يكشف عورات الناس يخرج عن ولاية الله سبحانه وتعالى. فقد روى المفضل بن عمر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان**»[1].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الشريفة، عقوبة فضح عورة المؤمن وهتك ستره عن عمد وإصرار، لا عن غفلة وسذاجة، ويريد كسره وهدم مروءته أمام الناس ليسقط من أعينهم؛ فمن فعل ذلك أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان أيضًا، ويتبرأ منه ولا يرضى أن يكون وليًا له، لأنّ من كان هذا عمله فلا يحتاج الشيطان إلى أن يتولى أمره، لأنّه قد وصل إلى خط النهاية الذي يسعى الشيطان لإيصال أوليائه إليه.

وهناك رواية أخرى فيها إشارة إلى هذا الأمر، وإلى الوزر الكبير على من يفشي عورة أخيه المؤمن، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من اطّلع من مؤمن على ذنب أو سيئة، فأفشى ذلك عليه ولم يكتمها، ولم يستغفر الله له، كان عند الله كعاملها وكان مغفورًا لعاملها**»[2].

يبيّن هذا الحديث الشريف عقوبة من يفشي عيب المؤمن، وأنّه يتحمل من الوزر مقدار ما كان يجب أن يتحمله فاعل ذلك الوزر، ولكنه يضيف أمرين جديدين:

الأول: أن على المؤمن عندما يطّلع على معصية ارتكبها أخوه المؤمن، فضلًا عن الستر عليه، أن يبادر إلى الاستغفار له من تلك المعصية.

والثاني: أن العقوبة الأخروية تسقط عن المؤمن الذي ارتكبها، ويتحملها من أفشاها للآخرين ولم يتستر عليها ويكتمها، لأنّ المؤمن الذي ارتكب هذه المعصية يكفيه

(١) الكافي ٢: ٣٥٨، ح١.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢١٦، ح١٦.

اشتهار أمره في الدنيا، والله ﷻ أعدل من أن يعاقبه مرتين، مرة في الدنيا، ومرة في الآخرة، ويكتفي بعقابه في الدنيا ولا يعاقبه في الآخرة.

ورد في رواية أخرى في مناهي النبي ﷺ قوله: «**ألا ومن سمع فاحشة فأفشاها، فهو كالذي أتاها**»[1].

يبيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث الكريم، بُعدًا آخر من أبعاد التحذير من كشف عورة المسلم والمؤمن، وهو أن من أشاع فاحشة سمعها فإنّه يتحمل من الوزر كوزر من أتى بها، ولو كان ذلك بالواسطة، كأن يكون سمع أن فلانًا أتى الفاحشة الفلانية من شخص سمعها أيضًا من شخص آخر وهكذا، ولا يقتصر تحمل الوزر على من اطّلع على تلك الفاحشة فنقلها، وهكذا ربما تحمل المئات وزر فاحشة أتى بها شخص واحد؛ لأنّهم روّجوا ونقلوا تلك الفاحشة. والفاحشة هي الكلمة النابية التي ينطق بها شخص أمام شخص آخر. وإذا كان لنقل الكلمة النابية هذا القدر من العقوبة، فمما لا شكَّ فيه أنّ إفشاء الفعل القبيح عليه من الوزر ما لا يقل عن الكلمة.

وجاء في رواية أخرى: «**قال رسول الله ﷺ: كان بالمدينة أقوام لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس في المدينة، فأسكت الله عن عيوبهم الناس، فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس. وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم، فتكلموا في عيوب الناس، فأظهر الله لهم عيوبًا لم يزالوا يُعرفون بها إلى أن ماتوا**»[2].

يذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف صنفين من الناس كانوا يعيشون في المدينة، تفاوت مصيرهما في الدنيا والآخرة، بسبب موقفهما من كشف عيوب الآخرين.

الصنف الأول: وهم ممن سكتوا عن إذاعة عيوب الناس، وكانوا هم أنفسهم من أصحاب العيوب أيضًا، ولكن بسبب موقفهم الصحيح من سكوتهم عن عيوب الآخرين، فقد أسكت الله ﷻ الناس عن كشف عيوبهم، فماتوا ولا عيوب لهم، أي أنّهم فارقوا الحياة وكأنّهم لا عيوب لهم. وهذا الإطلاق يستبطن معنى غفران الله تعالى ذنوبهم التي ارتكبوها، بالإضافة إلى سترها عليهم في الدنيا.

الصنف الثاني: وهم ممن أذاعوا عيوب الناس، ولم يكونوا ممن ارتكبوا المعاصي غير هذه المعصية، وهي كشف عورات الآخرين، فأظهر الله ﷻ لهم عيوبًا يُعرفون بها

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢١٣، ح٣.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢١٣، ح٤.

إلى أن ماتوا، مع أنّهم لم يرتكبوا تلك الذنوب، فكان هذا جزاءهم في الدنيا، وكان الخزي يلاحقهم طيلة أعمارهم، وكان الناس يعرفونهم بالذنب المنسوب إليهم فيقولون فلان الزاني ـ والعياذ بالله ـ مثلاً، مع أنّه لم يرتكب الزنا، بالإضافة إلى ما سينالهم من العقوبة الأخروية التي تقدمت الإشارة إليها في الروايات السابقة.

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك**»(١).

تتحدث هذه الرواية الشريفة عن موضوع أوسع من موضوع كشف عورة المؤمن، وهو التحذير من إظهار الشماتة بالمؤمن الذي يتعرض لابتلاء ما، والذي يمكن أن يكون كشف عيبه المستور لونًا من ألوان الشماتة، وتتضمن بيان عقوبة الشماتة بالمؤمن، وهي أن ينقلب الموضوع؛ فيدخل الله سبحانه وتعالى هذا المؤمن المبتلى في رحمته، وينقل الابتلاء نفسه إلى من شمت به. ولهذا ينبغي الحذر الشديد من إظهار الشماتة بالمؤمن، لأنّ نتيجته هو ارتداد الابتلاء على الشامت، وسيكون محلاً لشماتة أعدائه.

وجوب تصديق المؤمن

وفي رواية أخرى عن أبي الحسن موسى بن جعفر الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**قلت له: جعلت فداك، الرجل من إخواني يبلغني عنه شيء أكرهه له، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال لي: يا محمد، كذّب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً غير ما قاله القسامة، فصدّقه وكذّبهم**»(٢).

تتناول هذه الرواية الكريمة وجوب تصديق المؤمن في ما يُشاع عنه، وإن أقسم خمسون شخصًا بأنّهم رأوه يرتكب المعصية ، كغيبة شخص أو الكلام عنه بكلام قبيح، وأنكر ذلك، فيجب تصديقه وتكذيب الخمسين. وهذا الحكم لا علاقة له بثبوت الجرائم التي يرتكبها الإنسان ولو كان مؤمنًا كالقتل، فهي تثبت بطرقها الشرعية المعروفة.

وعلاقة هذه الرواية بموضوع حرمة كشف عورة المؤمن، هي أنّه يجب تصديق المؤمن، حتى لو شهد عدد كبير من الناس وأقسموا على ارتكابه المعصية، وأنكرها هو.

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢١٣، ح٥.
(٢) الكافي ٨: ١٤٧، ح١٢٥.

وهذه الرواية الشريفة تبيّن كيفية التعامل مع ما يُشاع عن المؤمنين، ومحاولات النيل من سمعتهم وكرامتهم.

ويبيّن الإمام الكاظم عليه السلام ما هو أبعد من ذلك، وهو أنّه لو رأى المؤمن بعينه أخاه المؤمن أو سمعه بأذنه وهو يرتكب المعصية الفلانية ، ثم سأله عنها فأنكرها، فيجب تصديقه وتكذيب ما رآه بعينه أو سمعه بأذنه، منهج أهل البيت عليهم السلام يوصي بالحرص الشديد على حفظ سمعة المؤمن وعدم المساس بكرامته، وحرمة إذاعة شيء عنه يوجب التقليل من قيمته وهدم مروءته وإسقاطه من أعين الناس، فيكون من يفعل ذلك من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[1]، فالذي يحب أن يرى عورة لأخيه المؤمن ليتحدث بها ويفضحه أمام الآخرين، له عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

إذن، فالأساس هو حمل الأخ المؤمن على الصحة، وتصديقه في ما يقول في حق نفسه، وإن رأت عينك وسمعت أذنك خلاف ذلك، فيجب القبول منه ما دام ينكر ذلك، فإن كان كاذبًا فرب العالمين هو من يتولى حسابه، المهم أن يعمل كل بتكليفه لينجو بنفسه.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن عيّر مؤمنًا بشيء لم يمت حتى يركبه**»[2].

يتضمن هذا الحديث الشريف فقرتين مهمتين من فقرات العلاقات الإيمانية.

الأولى: في كشف عورة المؤمن، وهي أن أي سيئة تنقلها عن أخيك المؤمن، فكأنك أنت من فعلها. فيجب حفظ سمعة الأخ المؤمن حتى لو كنّا نعرف أنّه ارتكب عملًا قبيحًا، ومن أخبر به كان حاله عند الله في تحمل الوزر كفاعل ذلك القبيح.

والثانية: في تعيير المؤمن، وهي أن من عيّر مؤمنًا بشيء، لم يمت حتى يبتليه الله عزّ وجلّ بارتكاب نفس ذلك الفعل، لأنّ الله سبحانه وتعالى ستّار يحب الساترين. فمن عرف عن أخيه شيئًا سيئًا يجب عليه أن يستغفر له ويستره، اللهم إلا إذا كان ذلك الفعل منكرًا، فيجب نصيحته وهدايته سرًا لعله لا يعلم أنّه منكر، فإن نصحه علانية أمام الآخرين فقد عيّره. ولهذا ينبغي استعمال الحكمة في تعليم الناس وإخبارهم بأخطائهم، لئلا تأخذ الإنسان العزة بالإثم

(١) سورة النور، الآية : ١٩.
(٢) الكافي ٢: ٣٥٦، ح٢.

فلا يقبل ذلك، وقد روي: أن الحسن والحسين عليهما السلام عندما كانا صبيين رأيا شيخًا كبيرًا يتوضأ خطأ، فأتياه فقالا: نحن صبيان ونريد أن نتوضأ أمامك لتصحح لنا وضوءنا، فتوضأ الحسن عليه السلام وأحسن الوضوء، ثم توضأ الحسين عليه السلام وأحسن الوضوء، فقال الشيخ: كلاكما يحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن الوضوء[1]. فالتفت وتنبه إلى أخطائه في الوضوء من غير أن يخدشا كرامته. لذا من أراد أن ينصح أخاه المؤمن فينبغي أن يستعمل معه أسلوبًا حكيمًا وطريقة غير مباشرة؛ كأن يقول له مثلًا: سمعت من أحد العلماء أن القضية الفلانية حرام فاستغربت، فذهبت وراجعت الكتاب الفلاني فوجدت هذه الرواية في الموضوع، فأحببت أن أشاركك هذه الرواية والاطلاع على هذه المعلومة.

والحمل على الصحة مفردة أساسية في العلاقات الإيمانية، وهي تعني حمل عمل المؤمن على الصحة وإن كان ظاهره خلاف ذلك، وكمثال لتوضيح هذه الفكرة، قال لي أحد الإخوة: كنت مسافرًا إلى إحدى الدول الأجنبية، وعندما أردت ركوب الطائرة متوجهًا نحو العراق، رأيت صديقًا لي في بداية الصف الطويل يريد الركوب في نفس الطائرة أيضًا، ولكنه كان بعيدًا فلم يرني، ولم أره عند جلوسنا في الطائرة، ثم نزلنا «ترانزيت» في أحد المطارات لنركب في الطائرة الثانية بعد ساعتين، وبعد برهة من جلوسي قمت للتجوال في الأسواق الحرة الموجودة في المطار، فوصلت إلى جناح يبيعون فيه كتبًا ومجلات، وفجأة رأيت هذا الصديق في المكتبة نفسها وهو يحمل مجلة إباحية، فصار في نفسي شيء لأنّي أعرف أنّه شخص متدين، فبقيت في حيرة من أمري، ثم رأيته رفع مجلة إباحية ثانية ووضعها، ثم رفع ثالثة ووضعها وهكذا، فتأثرت كثيرًا وغادرت المكان ورجعت وجلست في قاعة الانتظار، وبعد ذلك بفترة جاء فرآني وسلّم عليّ وجلس إلى جانبي وأخذ يحدّثني قائلًا: يا سيدنا أنا ممتعض جدًا، لقد كنت قبل قليل في سوق لبيع الكتب، فرأيت مجلات إباحية عديدة، فرفعت الأولى لأرى تأريخ صدورها، ثم رفعت الثانية والثالثة وهكذا إلى العاشرة، فرأيت أنها جميعها صادرة في شهر واحد، فكم هناك من جهد مبذول لإفساد الناس، والإساءة لأخلاقهم، وفي بلادنا لا توجد عشر مجلات إسلامية تصدر في شهر واحد.

---

(١) بحار الأنوار ٤٣: ٣١٩.

يقول هذا السياسي: فخجلت من نفسي كثيرًا وقلت: الله أكبر، إنّه لم يرفع المجلات لكي ينظرإلى الصور كما توهمت، بل كان محترق القلب على الإسلام وعلى أخلاق الناس، وأراد أن ينظر في الصفحة الأخيرة ليرى تاريخ الإصدار، وهو لم يرني وإنما تكلّم بالموضوع من تلقاء نفسه، ولأن الله تعالى يعلم ما خطر في نفسي تجاهه، جاء به وأجلسه إلى جانبي وحدّثني بما كان، ليرتفع الانطباع السيئ الذي تكوّن في نفسي عنه، بعد أن أعلم أنّه رفع المجلات لا لينظر إليها بل ليرى تاريخ صدورها. فمهما كان العمل في ظاهره يبدو غير مبرر، فإن هناك تبريرًا له، لذلك حينما يقول عليه السلام: «**فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولًا غير ما قاله القسامة فصدّقه وكذّبهم**»؛ لأنّ القسامة حتى لو كانوا صادقين، فهم يأخذون اللقطة الخارجية، ولكن الإنسان على نفسه بصيرة، وهو أعرف بنيته، وأعلم بما يريد ولماذا كان ينظر.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا رأيتم العبد متفقدًا لذنوب الناس، ناسيًا لذنوبه، فاعلموا أنّه قد مكر به**»[1].

يتحدّث الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة عن نوع من أنواع المكر الإلهي بالإنسان؛ عندما يخرج عن طريق الطاعة ويسلك في طريق المعصية، وهو أن ينسى الإنسان ذنوبه ويفتح عينه على ذنوب الآخرين وأخطائهم، فيتحمل أوزار ذنوبهم بالإضافة إلى أوزار ذنوبه، فيكون يوم القيامة من أخسر الخاسرين. والله تعالى يقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2]، ومكر الله سبحانه وتعالى بمثل هذا الإنسان أنّه أشغله عن الالتفات إلى نفسه والنظر في أخطائه وذنوبه، بالالتفات إلى أخطاء الناس وذنوبهم وتتبع عثراتهم وإحصاء أفعالهم وأنفاسهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أسرع الخير ثوابًا البر، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيبًا أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يعيّر الناس بما لا يستطيع تركه**»[3].

يتناول رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك، بيان قانونين من السنن الإلهية، الأول: أن أسرع الأعمال ثوابًا هو البر، أي أن جزاء الإحسان إلى الآخرين في الحياة

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ٢٩٢، ح٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٣) مستدرك الوسائل ٩: ١١٢، ح٤.

الدنيا سريع جدًا، وما هي إلا لحظات أو سويعات حتى يرى المحسن آثار إحسانه في نفسه. والثاني: أن أسرع الأعمال عقابًا هي البغي، أي أن جزاء الظلم ونتائجه على الظالم سريعة جدًا، وما هي إلا برهة قليلة حتى ينزل بساحته العقاب الإلهي.

ثم يتناول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بيان مصداق من مصاديق البغي، وهو تتبع عيوب الآخرين وكشف عوراتهم، ويقول إن من أعظم العيوب التي يُبتلى بها الإنسان، بحيث لا يُطلب عيب بعدها فيه، ثلاثة أمور:

الأول: أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، فأكبر عيب في الإنسان أن يرى عيوب الناس ولا يرى عيبه. وهكذا هو حال الإنسان،أحيانًا نرى طبيب أسنان قد أفنى عمره يعالج أسنان الناس ولا يعالج أسنانه، أو نرى طبيبًا يلقي محاضرات في التلفاز عن أضرار التدخين ويدخن سيجارة في الفاصل الإعلاني، أو ما تكتبه شركات التدخين التي تربح المليارات على الغلاف: التدخين يضر بصحتك ننصحك بالامتناع عنه، إذن لماذا تبيعونه إذا كان يضر بصحتي؟، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، هذه هي مشكلة الإنسان.

و**الثاني**: أن يعيّر الناس بما لا يستطيع تركه، أي يلوم الناس على أمور لا يستطيع هو تركها، وكأنّها حلال له وحرام على غيره، وكان الأجدر به أن يبدأ بنفسه فينتهي عنها.

و**الثالث**: أن يؤذي جليسه بما لا يعنيه، أي عندما يجلس مع شخص فهو يؤذيه ويُسمعه أمورًا لا تخصه، ويفعل البعض ذلك لمرض في نفسه، وإلا لماذا يتدخل الإنسان في قضايا لا تعنيه، ويُشعر الآخرين بالمهانة والمذلة والإيذاء؟

من عاب مؤمنًا هتك الله ستره

وفي رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال: «**إنّ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على عبده المؤمن أربعين جُنة، فمتى أذنب ذنبًا كبيرًا رفع عنه جُنة، فإذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنن ويبقى مهتك الستر، فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة، وفي الأرض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنبا إلا ذكروه، ويقول الملائكة الموكلون به: يا ربنا قد بقي**

(١) سورة الصف، الآيتان :٢-٣.

عبدك مهتك الستر وقد أمرتنا بحفظه؟ فيقول ﷻ: ملائكتي، لو أردت بهذا العبد خيرًا ما فضحته، فارفعوا أجنحتكم عنه، فوعزتي لا يؤول بعدها إلى خير أبدًا»[1].

يتناول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة الكشف عن سر من أسرار الغيب التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل أربعين حجابًا على عبده المؤمن وقاية وحصانة له من الذنوب، يدفع عنه بها البلاء. والجُنة هي الدرع التي يلبسها المقاتل في ساحة الحرب لتقيه من ضرب السلاح. فإذا اقترف المؤمن ذنبًا كبيرًا كالكذب تمزق حجاب من هذه الحجب، ثم إذا اقترف كبيرة أخرى كعقوق الوالدين تمزق الحجاب الثاني، وهكذا كلما ارتكب كبيرة من الكبائر تمزق حجاب إلى الأربعين. و هناك ذنب إذا اقترفه المؤمن تمزقت جميع الحجب؛ وهو إذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه، أما إذا عابه بشيء لم يعلم صدوره منه، وإنما يظن به ظنًا كما لو أخبره شخص بذلك ولم يرَ بعينه أو يسمع بأذنه، فهذا ذنب أعظم. فإذا انكشفت تلك الجنن بقي الإنسان مكشوفًا بلا حصانة ولا مناعة.

إنّ من أخطر الأمراض على الإنسان هو مرض الإيدز الذي يسلب المناعة منه، وتنعدم مقاومته لكل فايروس يهاجم بدنه، فيأخذ كل مرض ولو كان بسيطًا منه مأخذه، إلى أن ينتهي به إلى الموت. فكذلك هنا إذا عاب المؤمن أخاه المؤمن فقد حصانته ومناعته، فيصير مكشوفًا ومعرضًا لخطر الإصابة بسهام الشيطان اللعين، ويبقى مهتك الستر، أي لا ستر عليه، ويكون مفضوحًا لا يستطيع أن يُخفي شيئًا من أخطائه وذنوبه، وحينها سيفتضح أمره في السماء على ألسنة الملائكة، ويتحدثون بما ارتكبه من الذنوب، وكذا يُفتضح أمره في الأرض على ألسنة الناس، فينتشر خبره في الآفاق، ويُعرف بينهم بذنوبه، فلا يرتكب ذنبًا إلا ذكروه، ولا يستطيع أن يُخفي واحدًا منها مهما حاول ذلك. وحينئذ يقلق عليه الملائكة الموكلون به ويقولون لله سبحانه وتعالى: يا ربنا قد بقي عبدك مهتك الستر وقد أمرتنا بحفظه، فماذا نفعل؟ فيجيبهم الله ﷻ: «**ملائكتي، لو أردت بهذا العبد خيرًا ما فضحته**»، وهنا الطامة الكبرى؛ إذ يفقد هذا الإنسان كل أمل له في الرجوع والإنابة والتوبة.

ثم يأتي الخطاب الإلهي إلى الملائكة الموكلين به: «**ارفعوا أجنحتكم عنه، فوعزتي لا يؤول بعدها إلى خير أبدًا**». وعندها يغلق ملف هذا الإنسان بعد هذا القسم الإلهي، ويطوى على أسوأ عاقبة إلى أن يلقى الله تعالى في عرصات يوم القيامة فيوفيه حسابه، بسبب ذنب يحسبه هينًا وهو عند الله عظيم.

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٣٦١، ح٨٧.

السيطرة على كشف العيوب

ثم تتعرض الروايات بشكل واسع ومطّرد إلى كيفية السيطرة على هذا الموضوع، كيف نستر عورة الأخ المؤمن؟ كيف نتخلص من مرض نشر الأخبار وإذاعة الأخبار والحديث عن سوءات ومناقص ومثالب الآخرين؟، هنا تشير الروايات العديدة في هذا الموضوع إلى أن الطريق الذي يمنع من تتبع عورات المؤمنين وعثراتهم وزلاتهم وأخطائهم إنما هو انشغال الإنسان بثغراته وعيوبه، الإنسان المؤمن كلما انشغل بعيوبه قلت في نظره عيوب الآخرين و قلّ اهتمامه بهذا الموضوع والحديث عنه.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره**»[١]، أي: هنيئا لمن شغله إصلاح عيوبه عن تتبع عيوب غيره من الناس

وورد في المعنى نفسه عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ قوله: «**مشغول بعيوب نفسه فارغ عن عيوب غيره**»[٢]، هذه هي المعادلة؛ كلما انشغل الإنسان بعيوبه، تفرغ عن عيوب الآخرين، وكلما ركّز على عيوب الآخرين، انشغل بعيوبهم عن عيوب نفسه وغفل عنها. فالمهم أن يركز الإنسان ويهتم بعيوبه ومثالبه، وهذا من شأنه أن يمنعه من تتبع عثرات الآخرين وعيوبهم.

جاء عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ أنّه قال: «**من أبصر عيب نفسه لم يعب أحدًا**»[٣]، فالذي يلتفت إلى عيوبه لا يعيب أحدا، والمشكلة أننا في كثير من الأحيان نغفل كليًا عن عيوبنا، لأنّ العيب أمر سيئ ومنقصة، ولا نريد أن نرى المنقصة في أنفسنا، نغطي عليها ولا نفكر بها، بل نتضايق ممن يحدثنا عن منقصة في أنفسنا، كأن يقول لنا: إن حديثك لم يكن مناسبًا، أو إن ملبسك لم يكن لائقًا، أو إن سلوكك لم يكن صحيحًا... وهكذا، وأي شيء فيه منقصة لا يعجبنا أن نسمعه، بل إذا أردنا أن نراجع أنفسنا ونصل إلى منقصة ما، نحاول أن نلتف عليها، حتى ونحن نفكر وحدنا نحاول تبريرها، ونحاول أن نقول إن هذه ليست منقصة؛ لأنّ الإنسان يحب الكمال، ولا كمال مع النقص، وحينما يوجد فيه نقص يحاول أن يبرره ويتجاوزه ويلتف عليه، لكي لا يسجل على نفسه مثلبه تتنافى مع حبه للكمال.

والأمر المهم أن تكون لدينا بصيرة، وليس علمًا وإدراكًا فقط ، فالبصيرة حالة أكبر

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢٠٥ ح٣١
(٢) مستدرك الوسائل ١١: ١٧٥، ح١١.
(٣) مستدرك الوسائل ١١: ٣١٦، ح٩.

وأكثر وأعمق من صرف الصورة الذهنية ومن التصورات. لماذا يقول رسول الله صَلَّىٰاللّٰهُعَلَيْهِوَآلِهِ وهو يشير إلى الشمس: «**على مثل هذا فاشهد وإلا فدع**»(١)؟. إذا أردت أن تشهد على شيء، فيجب أن يكون لديك وضوح كالشمس التي تراها الآن بعينك، والإبصار هو أعلى مراتب الوضوح واليقين، فمعنى «**من أبصر عيب نفسه**»: أي عندما يكون على بصيرة بعيوبه فلن يعيب أحدًا، ولا يركز بعدها على عيوب الآخرين.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ قوله: «**لا تتبعن عيوب الناس، فإنّ لك من عيوبك إن عقلت ما يشغلك أن تعيب أحدًا**»(٢)، أي لا تبقَ عينك وأذنك تتابعان عيوب الناس، ولو كنت تعرف عيوبك لشغلتك عن عيوب الآخرين، ولكن مشكلتنا أننا لا نعقل ولا نبصر عيوبنا بشكل صحيح.

في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ أنّه قال: «**من علم ما فيه ستر على أخيه**»(٣)، أي من عرف عيوبه ستر على عيوب أخيه عندما يطّلع عليها، لأنّ أخطاء الآخرين تتصاغر في عينه، فالإنسان عندما يدرك حجم أخطائه وعمقها، سوف يستر على أخيه عورته حتى لا تنكشف أمام الآخرين.

وفي رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «**سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: إن رسول الله صَلَّىٰاللّٰهُعَلَيْهِوَآلِهِ مر بنا ذات يوم ونحن في نادينا وهو على ناقته، وذلك حين رجع من حجة الوداع، فوقف علينا، فسلّم فرددنا عَلَيْهِالسَّلَامُ، ثم قال: ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس، حتى كأنّ الموت في هذه الدنيا على غيرهم كُتب، وكأنّ الحق في هذه الدنيا على غيرهم وجب، وحتى كأن لم يسمعوا ويروا من خبر الأموات قبلهم، سبيلهم سبيل قوم سفرعمّا قليل إليهم راجعون، بيوتهم أجداثهم، ويأكلون تراثهم، فيظنون أنّهم مخلدون بعدهم، هيهات هيهات أما يتعظ آخرهم بأولهم؟، لقد جهلوا ونسوا كل واعظ في كتاب الله، وأمنوا شر كل عاقبة سوء، ولم يخافوا نزول فادحة، وبوائق حادثة، طوبى لمن شغله خوف الله عَزَّوَجَلَّ عن خوف الناس، طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه، طوبى لمن تواضع لله عز ذكره وزهد في ما أحلّ الله له من غير رغبة عن سيرتي، ورفض زهرة الدنيا من غير تحول عن سنتي، واتّبع الأخيار من**

---

(١) وسائل الشيعة ٢٧: ٣٤٢، ح٣.
(٢) مستدرك الوسائل ١١: ٣١٦.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٣.

عترتي من بعدي، وجانب أهل الخيلاء والتفاخر والرغبة في الدنيا، المبتدعين خلاف سنتي، العاملين بغير سيرتي. طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالاً من غير معصية، فأنفقه في غير معصية، وعاد به على أهل المسكنة، طوبى لمن حسن مع الناس خلقه، وبذل لهم معونته، وعدل عنهم شره، طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل، وأمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل»[1].

يتناول هذا الحديث الذي يرويه الإمام الباقر عليه السلام الموعظة البليغة التي وعظ بها رسول الله صلى الله عليه وآله ثلة من أصحابه، عندما رآهم جالسين في نادٍ لهم، وهو المكان الذي يرتاده جماعة من الناس يجلسون فيه ويتبادلون أطراف الحديث. وفي هذا الحديث المبارك محطات للتأمل.

الأولى: أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى جماعة من أصحابه جالسين يتحدثون عند رجوعه من حجة الوداع فوقف وسلّم عليهم، وكان المفروض والمتوقع أن يبادر هؤلاء الأصحاب باستقبال رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّه راجع من سفر الحج الذي يستغرق آنذاك شهرًا في الأقل، وحتى لو فرضنا أن هؤلاء الأصحاب كانوا معه في حجة الوداع وقد وصلوا قبله بأيام، فكان ينبغي عليهم أن ينهضوا لاستقباله وإلقاء التحية عليه وتهنئته بالعودة سالمًا، كما يُفعل عادة مع المسافرين عند رجوعهم من السفر العادي، فكيف والسفر كان سفر الحج؟ حيث يتضاعف فيه الاهتمام بالقادم منه. ومن الطبيعي تصور أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن وحده، بل كان معه جماعة من المهاجرين أو في الأقل عدد من بني هاشم، مما يستلزم اهتماما أكبر باعتبارهم غرباء عن هذا المكان ولا عشيرة لهم تستقبلهم، وهذا البرود يعكس حالة خطيرة عاشها أهل المدينة بعد فتح مكة، ويحمل في طياته تصورات خاطئة عن استبدال المدينة بمكة باعتبارها منطلق حركة النبوة، والتعامل مع أهلها على أساس الرحمة والرأفة والتسامح، بعد تلك السنوات العجاف من الحرب الضروس بين الطرفين.

الثانية: أن رسول الله صلى الله عليه وآله رغم التعب من هذا السفر الطويل، وهو في هذه السن المتقدمة لم يضيّع مثل هذه الفرصة لموعظتهم وليس لتقريعهم، وكان بإمكانه أن ينتظر حتى حلول وقت الفريضة، حيث يجتمع عدد أكبر ثم يعظهم بهذه الموعظة المؤثرة. ولكن هذه الحالة لها ملابساتها الخاصة التي ينبغي استثمارها في البناء.

(١) الكافي ٨: ١٦٨، ح١٩٠.

كما أن هذا لا يمنع من أن يخطب رسول الله ﷺ في المسلمين حين اجتماعهم للصلاة بعد أداء الفريضة، وهو يستدعي كلامًا آخر غير هذه الموعظة.

الثالثة: مما لا ريب فيه أن هذه الندوات التي يجلس فيها الناس للسمر تعكس الاهتمام بأمر الدنيا والانشغال بها عن أمر الآخرة، ولو كان الذي يدور فيها غير ذلك، فليس من الحكمة أن يتفوه رسول الله ﷺ بمثل هذه الكلمات، كيف وهو سيد الحكماء ؟ولهذا تقتضي الحكمة أن يتكلم رسول الله ﷺ بمثل هذه الموعظة في مثل هذا المكان.

الرابعة: أن من الأمور المهمة التي كشفت عنها هذه الموعظة، هي غلبة حب الدنيا على أكثر المسلمين، وهو يستلزم أن تتبدل مواقفهم لصالح من يظنون أن دنياهم ستكون عنده، أو أن يميلوا مع أهل الدنيا، وأنّه لم يعد للآخرة في حساباتهم أمر يُذكر، وهو ظاهر من قوله ﷺ: «**ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس**»، ومن هذا التعبير نستشف مدى الأدب الرفيع الذي يتمتع به، وكيف لا يكون كذلك وهو القائل: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[(١)]، وشهد به الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)]، فهو لم يقل لهم: ما لي أرى حب الدنيا قد غلب عليكم، بل قال غلب على كثير من الناس، وكأنّهم غير معنيين بالكلام وأنّه موجّه إلى غيرهم.

الخامسة: أن هذا التحذير الشديد من حب الدنيا والركون إليها، بعد مرورعقد كامل من التربية والتزكية المستمرة التي كان يتولاها رسول الله ﷺ بنفسه، يبيّن وعورة طريق صلاح النفس الإنسانية، وأنّ تأثير الموعظة التي هي السلاح الأقوى في التربية، يبقى ضعيفًا ما لم تكن هناك نفوس مستعدة للتزكية وترغب فيها وتبحث عنها، فالموعظة كالمطر والنفوس كالتربة؛ بعضها خصب فينبت، وبعضها لا ينفع فيه المطر شيئًا.

السادسة: أن ذكر الموت هو العلاج الأنجح لحب الدنيا، وهو بحاجة إلى التذكير المستمر به؛ باعتباره النقطة الحتمية التي ستنتهي فيها مسيرة الإنسان في الدنيا، بينما هو غافل عنها غفلة شديدة، والإنسان الذاكر لهذا المصير المحتوم الذي

---

(١) بحار الأنوار ١٦: ٢١٠.

(٢) سورة القلم، الآية : ٤.

ينتظره بلا أدنى شك، سيتغير تعامله مع كثير من الأحداث والأشخاص. إنّ حب الدنيا يؤدي بالمسلم إلى نسيان كل موعظة في كتاب الله ﷻ، والأمن من شر كل عاقبة سوء تنتظرهم في عرصات يوم القيامة، أما في الدنيا فلا يخافون نزول البلاء بهم وما يحصل لهم من مكروه، ودائمًا ما تراهم يتفاجؤون بما يحل بساحتهم، مع أنّه النتيجة الطبيعية لأعمالهم الناجمة عن الإفراط في حب الدنيا والركون إليها.

السابعة: بيان الطريقة الصحيحة في كيفية التعامل مع الدنيا، وهو اتباع سنّة رسول الله ﷺ في ذلك، فقد زهد في الدنيا من غير أن يتركها، لأنّ معنى الزهد هو الانتفاع باللذائذ المحللة منها، من غير أن تكون شغله الشاغل وهمّه الدائم.

الثامنة: ذكر رسول الله ﷺ عشر وصايا لا بُدَّ لمن أراد النجاة من التمسك بها جميعًا، وهي الفقرات التي بدأت بكلمة طوبى، وهي كالتالي:

- «**طوبى لمن شغله خوف الله ﷻ عن خوف الناس**».
- «**طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه**»، وهي موضع الشاهد.
- «**طوبى لمن تواضع لله عزَّ ذكره**».
- «**طوبى لمن زهد في ما أحلّ الله له، من غير رغبة عن سيرة رسول الله ﷺ، ورفض زهرة الدنيا من غير تحول عن سنّته**».
- «**طوبى لمن اتّبع الأخيار من عترة رسول الله ﷺ من بعده**».
- «**طوبى لمن جانب أهل الخيلاء والتفاخر والرغبة في الدنيا، المبتدعين خلاف سنة رسول الله ﷺ، والعاملين بغير سيرته**».
- «**طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالًا من غير معصية، فأنفقه في غير معصية، وعاد به على أهل المسكنة**».
- «**طوبى لمن حسّن مع الناس خلقه، وبذل لهم معونته، وعدل عنهم شره**».
- «**طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل**».
- «**طوبى لمن أمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل**».

الحق الرابع
(إقالة عثرة المؤمن)

الحق الرابع من حقوق المؤمن على المؤمن في الرواية التي يرويها أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله هي قوله: «**يقيل عثرته**»، أي الصفح والتجاوز عن عثرات المؤمنين.

وقد كان الكلام في الحق الثالث عن غفران زلة المؤمن، والفرق بينهما أن الزلة هي الخطأ الصغير غير المقصود، كما لو خرجت منه كلمة نابية في حالة غضب، أو صدر منه موقف غير موفق في حالة حرجة، أما العثرة فهي الخطأ الكبير المخطط له مع سبق الإصرار والترصد، كمن يريد التنكيل بأخيه المؤمن بعد حدوث مشكلة معه، فيستدرجه ويفتح معه حديثًا في قضايا أخرى إلى أن يأخذ راحته، فيورطه بكلمة أو بقضية أو باعتراف خطير أمام إخوانه المؤمنين.

فالعثرة خطأ كبير مقصود لا يُغتفر، ولكن مع ذلك، فإنّ حق المؤمن على المؤمن أن يقيل عثرته ويصفح عنه. أما إذا لم يكن مؤمنًا فلا مبرر ولا سند لغفران عثرته؛ لأنّ هذا حق خاص للمؤمن، لا يشاركه فيه غيره ولو كان مسلمًا، فإنّ الحقوق التي نتحدث عنها بعضها خاص بالمؤمن على المؤمن، وبعضها خاص بالمسلم على المسلم فيشاركه فيه المؤمن، وبعضها حق للإنسان على الإنسان فتكون حقًا للمؤمن بالأولوية؛ لأنّه إذا كان يجب التعامل مع المسلم أو الإنسان بهذا النحو، فكيف إذا كان مؤمنًا؟ فمن الطبيعي أن يكون كل ما هو حق للمسلم وحق للإنسان، حقًا للمؤمن أيضًا، ولكن ليس كل ما هو حق للمؤمن يكون حقًا لغيره.

إذا مكر غير المؤمن بمؤمن أو أوقع به أو أساء إليه متعمدًا أو تكبّر عليه، فالتعامل معه يكون بالمثل؛ كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1]، فالموقف الصحيح هو الوقوف بوجه هؤلاء لئلا يظنوا أن المؤمن

(١) سورة البقرة، الآية : ١٩٤.

ضعيف وغير قادر على الرد، فيتمادوا أكثر وأكثر في الإيذاء، ولا توجد لدينا ثقافة من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر.

وقد روى الشيخ الكليني عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قوله: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه، لا تتبعوا عثرات المسلمين، فإنّه من تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثرته، ومن تتبع الله عثرته يفضحه**»[1].

أي أيها المسلمون شكليًا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، لا تفتشوا عن عورات المسلمين، فإنكم إن فعلتم ذلك تولى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنفسه تتبع عثراتكم. وقد مر بيان الفرق بين الإسلام والإيمان، وقلنا إن الإسلام الحقيقي هو الإيمان، والإسلام الظاهري هو النطق بالشهادتين الذي تترتب عليه مجموعة من الحقوق والواجبات، ومنها حرمة تتبع عثرات المسلمين، أما المسلم الواقعي فهو لا يقدم على هذا الفعل أصلاً، فإن فعل ذلك وتتبع عثراتهم ترتبت على فعله هذا نتائج وخيمة، وهي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يسلط عليه أحدًا لفضحه، بل يباشر بنفسه تتبع عثراته، وحينئذ يفضحه فضيحة لا ستر لها، ولا يستطيع إخفاء شيء منها.

وترون أحيانًا في التحقيقات الجنائية، إغلاق ملفات بعض المشتبه بارتكابهم جريمة قتل لعدم كفاية الأدلة، أو لعدم وجود أي دليل، فلا يصلون إلى نتيجة، ويُترك الملف في الإرشيف وتنتهي القصة ويُطلق سراح الجاني، ثم بعد عشرين سنة مثلاً، وبعد أن نسي الناس القضية حتى أولياء الدم أنفسهم، فجأة تظهر الأدلة على القاتل ويُحكم عليه بالإعدام. وليس صعبًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يفضح الجاني ويكشف المستور، إذا ما تعلقت الإرادة الالهية بذلك.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**لا تطلبوا عثرات المؤمنين، فإنّ من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته**»[2]، وتشتمل هذه الرواية على إضافة على ما سبقها، هي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفضحه ولو كان في عقر داره وبعيدًا عن الأنظار.

على كل حال، هذا الحديث عن الفضيحة في الدنيا قبل الفضيحة في الآخرة، فتتبع عثرات المؤمنين وكشفها يؤديان إلى مثل هذه الآثار السيئة.

---

(١) الكافي ٢: ٣٥٥، ح٤.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٥، ح٥.

لاحظوا في هذه الرواية التي يرويها الشيخ الطوسي أعلى الله مقامه في كتاب الاستبصار ـ وهو من الكتب الأربعة المعتبرة عند الإمامية الاثني عشرية ـ عن ابن أبي يعفور قال: «**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بم تُعرف عدالة الرجل بين المسلمين؟ قال: فقال عليه السلام: أن تعرفوه بالستر والعفاف، والكف عن البطن والفرج واليد واللسان، ويعرف باجتناب الكبائر التي أوعد الله عليها النار، من شرب الخمر والزنا والربا وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وغير ذلك، والدال على ذلك كله والساتر لجميع عيوبه حتى يحرم على المسلمين تفتيش ما وراء ذلك من عثراته وغيبته، ويجب عليهم توليه، وإظهار عدالته في الناس، المتعاهد للصلوات الخمس، وحافظ مواقيتهن بإحضار جماعة المسلمين، وأن لا يتخلف عن جماعتهم ومصلاهم إلا من علّة، وذلك أن الصلاة ستر وكفارة للذنوب، ولولا ذلك لم يكن لأحد أن يشهد على أحد بالصلاح؛ لأنّ من لم يصلِّ فلا صلاح له بين المسلمين؛ لأنّ الحكم جرى فيه من الله ومن رسوله صلى الله عليه وآله بالحرق في جوف بيته، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا صلاة لمن لم يصلِّ في المسجد مع المسلمين إلا من علّة، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا غيبة إلا لمن صلى في جوف بيته ورغب عن جماعتنا، ومن رغب عن جماعة المسلمين وجبت غيبته وسقطت بينهم عدالته ووجب هجرانه. وإذا رفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذّره، فإن حضر جماعة المسلمين وإلا أُحرق عليه بيته. ومن لزم جماعتهم حُرمت عليهم غيبته وثبتت عدالته بينهم**»(١).

يتناول هذا الحديث الشريف المروي عن الإمام الصادق عليه السلام شروط العدالة والصفات التي يجب أن تتوافر في الإنسان حتى يكون عادلًا وتقبل شهادته للمسلمين وعليهم، فيشهد أن الشخص الفلاني لم يسرق فيُبرّأ من تهمة السرقة، أو يشهد بأنّه رأى الشخص الفلاني يسرق فتثبت التهمة ويُقام عليه الحد. ولكي تقبل الشهادة من قبل الحاكم لشخص أو عليه يجب أن يكون الشاهد عادلًا.

وهذه الشروط والصفات التي يجب وجودها في الشاهد هي كالتالي:

أن **يُعرف بالستر والعفاف،** أي غير مفضوح بين الناس بارتكاب معصية.

أن **يُعرف بالكف عن البطن والفرج واليد واللسان،** ومعنى عفة البطن هي أن صاحبها يشتري ما يأكله بالمال الحلال، ولا يأكل المال الحرام. ومعنى عفة الفرج ألاّ يقيم علاقات جنسية غير مشروعة. ومعنى عفة اللسان ألاّ ينطق بما حرم الله، كالكذب والغيبة

(١) الاستبصار ٣: ١٢، ح١.

والنميمة والبهتان. ومعنى عفة اليد ألاّ يمد يده إلى إيذاء أحد من غير وجه حق، كالدفاع عن النفس والمال والعرض.

أن يُعرف باجتناب الكبائر، أي يبتعد عن الذنوب الكبيرة التي أوعد الله عليها النار، كشرب الخمر والزنا والربا وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف وغير ذلك. فإن وجدت في الشاهد جميع هذه الشروط مجتمعة فهو العادل الذي تُقبل شهادته. ويحرم على المسلمين تفتيش ما وراء ذلك عن الشاهد وتتبع عثراته، ويكتفى منه بصلاح الظاهر.

أن يُعرف بتعاهده للصلوات الخمس، أي يواظب على أداء الصلوات الخمس، وهي صلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، والمطلوب هو أداء الفرائض فقط دون النوافل، فالعدالة لا علاقة لها بالالتزام بأداء النوافل والصلوات المستحبة.

أن يُعرف بالمحافظة على مواقيت الصلوات، أي الحفاظ على أداء الفرائض في أول وقتها، فلا يكفي أداء الصلوات الخمس ولو قضاء، وهو إشارة إلى الاهتمام بالصلاة والحرص على أدائها في أفضل أوقاتها، بحيث يكون الطابع العام هو ذلك، وإن أدى بعض هذه الصلوات في آخر وقتها أحيانًا لظرف طارئ.

أن يُعرف بحضور صلاة الجماعة في المساجد، وألاّ يتخلف عن جماعتهم ومصلاهم إلا من علة، ولا يكفي أن يؤدي الصلاة في أوقاتها، بل لا بُـدَّ من المواظبة على أدائها مع جماعة المسلمين، أما الانقطاع عن صلاة الجماعة من غير سبب مشروع، فهو أمر يقدح بعدالة المسلم.

فالأساس هو الالتزام بالصلاة، والصلاة جماعة في مصلّى المؤمنين ومساجدهم وألاّ يتخلف إلا عن علة؛ لأنّ الصلاة ستر أولًا، أي أنّها توفر الستر للملتزم بها؛ لأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وثانيًا هي كفارة للذنوب، أي أن الصلاة تمحو آثار الذنوب، ويمثلها رسول الله ﷺ بالنهر الذي يغتسل منه الإنسان خمس مرات في اليوم، فهي استحمام يخرج بعده المصلّي نظيفًا زكي الرائحة، فأداء الصلوات الخمس كمن يستحم خمس مرات في اليوم، وكما ينظف هذا الحمام الإنسان، فكذلك الصلاة تنظف روح الإنسان من الذنوب والمعاصي، وهي كفارة للذنوب.

فإذا عرف المسلمون منه الصفات المذكورة أعلاه، وجبت على المسلمين أمور هي:

وجوب توليه، أي الأخذ بظاهر الصلاح وظاهر الالتزام وظاهر العفة وظاهر اجتناب الكبائر. ومعنى توليه أي محبته ووضع أيديهم بيده والاعتماد على هذا الظاهر.

إظهار عدالته في الناس، أي يجب إعلان عدالته للناس لأنّ ظاهره الصلاح، من غير حاجة إلى التجسس عليه وتتبع عثراته ومعرفة أسرار حياته الشخصية.

ولولا تحديد الشريعة الإسلامية العدالة بالشروط السابقة، لم يكن لأحد أن يشهد على أحد بالصلاح، لأنّ عدم الأخذ بظاهر الصلاح يعني وجوب معرفة كل شيء عن الشاهد حتى يحكم بعدالته وقبول شهادته، وهذا يستلزم التفتيش عن تفاصيل حياته الشخصية والاطلاع على دقائق أسراره الخفية، وهو متعسر إن لم يكن متعذرًا لعموم الناس. وحتى لو استطعنا أن نطلع على ذلك، فلن نجد شخصًا عادلًا تُقبل شهادته، لأنّنا بشر خطاؤون يصدر منا بين الحين والآخر ما يخدش العدالة ما لم نلحقه بالاستغفار والتوبة. ولكن إذا ظهر من أحد الأشخاص ما هو خلاف العدالة، من باب الاتفاق والمصادفة، بعد توفر الشروط المذكورة سابقًا، فهذا بحث آخر.

ثم يعود الإمام الصادق عليه السلام لإتمام حديثه عن الصلاة، فيبيّن أن من لم يصلّ فلا صلاح له بين المسلمين؛ لأنّ الحكم جرى فيه من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وآله بالحرق في جوف بيته. وليس المقصود من قوله: «**لم يصلّ**» عدم أداء الصلاة، بل المقصود هو عدم حضور صلاة الجماعة في مساجد المسلمين. وفهم الفقهاء ذلك على أنّه تهديد محض لمن ترك حضور المساجد لأداء الصلاة جماعة، فلم ينقل التأريخ أو السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أو أمير المؤمنين عليه السلام أنّهما أحرقا من ترك عمدًا حضور الصلاة جماعة من غير علّة، لأنّه يكتفى من المسلم أن يبيّن علة ولو ظاهرية، لترك حضوره في المسجد لأداء صلاة الجماعة لو سُئل عن ذلك، ولعدم وجوب التفتيش على الحاكم الشرعي عمن يحضر ومن لا يحضر، وكذلك فانّ سؤال النبي صلى الله عليه وآله بعض أصحابه عن عدم حضوره المسجد، كما تنقل الأحاديث، هو لتفقد أحواله بسبب انقطاعه عن حضور الصلاة في المسجد. ولا يُعقل أن يكون الحكم في من يؤدي الصلاة في بيته ويترك الصلاة في المسجد، أشد من حكم تارك الصلاة عمدًا، الذي ورد الحكم فيه بالضرب على أدائها.

وبعد ذلك، يروي الإمام الصادق عليه السلام حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا صلاة لمن لم يصلّ في المسجد مع المسلمين إلا من علة**»، أي لا صلاة كاملة يمكن أن يحصل المسلم بأدائها على الثواب المرجو، وإلا فإنّ الفقهاء قد حكموا على مثل هذه الصلاة بالإجزاء وسقوط التكليف. ولعل هذا الحكم والحكم السابق بالإحراق وغيرها من الأحاديث المشابهة مختصة بوجوب حضور الصلاة جماعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقط، أو

مع المعصوم مع بسط يده وتوليه لشؤون الحكم، باعتباره إمامًا معصومًا مفترض الطاعة.

ثم نقل عليه السلام حديثًا آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا غيبة لمن صلى في جوف بيته، ورغب عن جماعتنا**». **والتعبير بلفظ «جماعتنا»** يؤيد ما ذكرناه آنفًا من تفسير الحديث السابق، كما أن حكم تارك الجماعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله عمدًا رغبة عنها، يدل على أن مثل هذا الشخص منافق تجوز غيبته، ولو كان مؤمنًا لحرمت غيبته.

ثم يشدد الإمام الصادق عليه السلام الحكم على مثل هذا الشخص، بأنّ غيبته ليست جائزة فقط، بل تجب غيبته، وتسقط عدالته، ويجب هجرانه. وهذه الأساليب الثلاثة ستشكل ضغطًا هائلًا على هذه الفئة من المنافقين، لإجبارهم على حضور الصلاة جماعة مع الحاكم الشرعي وإمام المسلمين الذي يمثله المعصوم عليه السلام. وإذا لم ينفع ذلك كله معهم، فحينئذ يرفع أمرهم إلى إمام المسلمين، فيقوم بتحذيرهم وإنذارهم وإلزامهم بحضور الجماعة، وإلا أحرق عليهم دورهم ، ومن الطبيعي أنّه عندما يصل التهديد إلى هذه الدرجة، فإنّ هؤلاء سيتركون المدينة إلى مكان آخر، أو يحضرون الصلاة لدرء الحكم عنهم، وهذا يعزز ما قلناه من أن حكم الإحراق هو مجرد تهديد لا أكثر، للقضاء على حالة التحدي للحق التي يرغب المنافقون بإشاعتها ضد حكم المعصوم.

وفي الحقيقة فإن مثل هذا الكلام يعكس الدور الخطير الذي ينبغي أن تحتله الصلاة جماعة في زمن حكومة المعصوم عليه السلام، تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[1].

وعلى كل حال، فإنّ عددًا كبيرًا من الناس الذين لا يحضرون صلاة الجماعة لا يعلمون مقدار ثوابها، ولا يعرفون حلاوتها، فالإنسان عندما يصلي الفرائض وحده، ربما يكون متعبًا أحيانًا أو يحصل عنده شرود ذهني في أحيان أخرى، أو يؤخرها عن وقتها فيثقل عليه حينئذ أداؤها فيصليها كيفما اتفق إسقاطًا للواجب لا أكثر، أو تتعدد مشاغله وتكثر فلا يلتزم بأدائها في وقت محدد، مما يؤدي إلى نسيانها أو تركها بشكل تدريجي، ويفقد الإحساس بأهميتها.

إن لحضور صلاة الجماعة فوائد جمة؛ منها أنّها صلاة مقبولة، فمن خصائصها أنه إذا قُبلت صلاة واحد من أفراد الجماعة، قُبلت صلاة جميع الأفراد، فكيف إذا كانت بإمامة المعصوم عليه السلام. ومنها أنّها من مواطن استنزال الرحمة الإلهية، فإذا نزلت على واحد من

(١) سورة الحج، الآية : ٤١.

أفراد الجماعة عمّت الجميع. ومنها أن الجماعة كلما كان عدد الحضور فيها أكبر، كان الثواب أعظم. ومنها منافع اجتماعية كالتعارف وقضاء الحوائج وحل المشاكل. ومنها الاستفادة العلمية، سواء بتعلم بعض الأحكام الشرعية أو تلاوة القرآن أو سماع آية أو رواية أو حكمة أو موعظة.

فصلاة الجماعة من الأعمال البالغة الأهمية، ولكن التزامنا بها ـ مع الأسف ـ ليس كما ينبغي، نحتاج إلى جهود مكثفة وبرامج توجيهية وتوعية مستمرة لإعادة منزلة صلاة الجماعة إلى محلها اللائق بها في المجتمع.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان أحكام متعلقة بمن التزم بصلاة الجماعة، وهي حرمة غيبتهم على المسلمين، وثبوت عدالتهم بينهم.

وموضع الشاهد في هذه الرواية المباركة، هو أنّه إذا كان لا يجوز تتبع عثرات المسلمين والبحث عنها، حتى لإحراز العدالة، فكيف إذا لم يتوقف عليها أي أثر شرعي آخر؟.

المؤمن مبتلى

وفي الوقت نفسه الذي تم فيه النهي عن تتبع عثرات المؤمنين، جاءت الروايات لتؤكد أن الله سبحانه وتعالى يبتلي من يتتبع عثرات عباده المؤمنين. إن المؤمن مبتلى وتحت المجهر، ويبحثون عن أي شيء يمثل ثغرة في سلوكه، لعله تكلم بكلمة أو ارتكب قضية، وعلى كل حال، يجب أن يستعد الإنسان لذلك.

جاء في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما من مؤمن إلا وقد وكّل الله به أربعة: شيطانًا يغويه يريد أن يضله، وكافرًا يقاتله، ومؤمنًا يحسده، وهو أشدهم عليه، ومنافقًا يتتبع عثراته**»[1].

يتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن مقدار البلاء الذي يتعرض له المؤمن، وأنّ كل مؤمن مبتلى بأربعة، وهم الشيطان وثلاثة من الإنس: كافر ومنافق ومؤمن. ولا يخلو مؤمن من هذا البلاء في كل الأحوال إلى أن يتوفاه الله تعالى؛ لأنّ الدنيا دار الابتلاء. ولكل واحد من هؤلاء الأربعة دور يختلف عن دور الآخر.

الأول: «شيطانًا يغويه يريد أن يضله»: فالشيطان يتربص بالمؤمن ليل نهار، ويغويه بكل ما يستطيع من أجل إضلاله، فيأتيه من سبيل المال والجاه والنساء والمنصب

(١) الكافي ٢: ٢٥١، ح٩.

وغير ذلك من الوسائل والأساليب، ويركز بشكل خاص على نقاط ضعفه، وفي المقاومة المستمرة للإنسان المؤمن ضد محاولات الشيطان يقوى إيمانه، ويحصل على مزيد من الأجر والثواب، وليعلم المؤمن أن الشيطان لا يتركه ما دام مؤمنًا، وليس في قاموسه هدنة أو صلح أو وقف إطلاق نار، فهو يطلق عليك النار ليل نهار، وإن توقفت أنت عن المقاومة، فهو لا يوقف عدوانه، بل يزداد طمعه ويكثف جهوده وينوّع أساليبه، والخصم الذي لا يترك عداوته من الأفضل الاستمرار في معاداته، كما بيّن الله ﷻ في كتابه الشريف فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، فمن غير المعقول أن تتخذ من يعتبرك عدوًا دائمًا له صديقًا لك.

الثاني: «**وكافرًا يقاتله**»: فالكافر يسعى لقتل المؤمن ومحو أثره من الوجود، وهو لا يهدأ له بال حتى يحقق هدفه، ويسعى بكل ما أوتي من قوة في سبيل ذلك، فإن لم يستطع سعى لقتل شخصيته المعنوية وهدم سمعته، فيقوم بتلفيق التهم والأكاذيب وخلط الأوراق والتشويش على أفكاره، بايجاد بدائل زائفة وجماعات مشبوهة على أساس أنها هي التي تمثل هؤلاء المؤمنين المسالمين، ويمنعه من التألق والتصدي لمنع ظهور صورته الحقيقية أمام الأمم والشعوب المختلفة.

الثالث: «**ومؤمنًا يحسده وهو أشدهم عليه**»: داء المؤمن الحسد، حين يتمنى أن تزول كل نعمة ينعم الله تعالى بها على أخيه المؤمن، سواء كانت نعمة مادية أو معنوية، وربما كان الحسد أشد على المؤمن من إغراءات الشيطان وبأس الكافر. ولهذا شدّد الإسلام كثيرًا في النهي عن هذه الصفة والاستعاذة بالله ﷻ من شرورها، ودعا الإنسان إلى التخلص منها.

الرابع: «**ومنافقًا يتتبع عثراته**»: دأب المنافق هو تتبع عثرات المؤمنين، وهو على استعداد مستمر للتحالف مع كل أحد لإسقاط سمعة المؤمنين وتشويه صورتهم والحط من منزلتهم. والمنافق الذي يتظاهر بالإيمان يحاول التغلغل في صف المؤمنين والتفتيش على عثراتهم وزلاتهم، ليشهرهم بها وينال من سمعتهم.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

إقالة عثرة أهل المعروف

نجد في الروايات أن من يجب إقالة عثرته أيضًا، بالإضافة إلى المؤمن، هم أهل المعروف وإن لم يكونوا مؤمنين. وهم من يقومون بأعمال حسنة وخيرية لمنفعة الناس، سواء كانت تلك الأعمال ذات نفع محدود لفرد واحد، أو للنفع العام، فهؤلاء يجب أن يحظوا من المؤمنين باحترام خاص وتقدير مميز عن سائر الناس، لما يقومون به من أعمال الخير والمعروف. فأصحاب المعروف وأهل الخير من العناوين المهمة والكبيرة ذات التأثير الواسع في المجتمع.

ورد في الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أجيزوا لأهل المعروف عثراتهم واغفروها لهم، فإنّ كف الله تعالى عليهم هكذا، وأومأ بيده كأنه يظلل بها شيئًا**»[1].

أهل المعروف هم أهل الخير، ويمكن أن يكون أهل المعروف غير متدينين، ولكنهم يشتركون في هذا الحق مع المؤمنين؛ لأنّهم قدموا معروفًا إلى الناس وقاموا بأعمال خيرية، ومن المهم أن يعرف المؤمن أهل الخير، لكي لا يعاملهم كما يعامل سائر الناس، ونرى في مجمل النصوص الواردة أن أهل الخير لهم حرمة ومكانة خاصة.

ومن هذه النصوص: أن امرأة من الأسرى في إحدى الغزوات، عرّفت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله وقالت: أنا بنت حاتم الطائي، فأكرمها صلى الله عليه وآله وأطلق سراحها وحرّرها من العبودية[2]؛ إكرامًا لحرمة أبيها حاتم الذي كان معروفًا بإكرام ضيفه، مع أنّه توفي قبل الإسلام، وهذا يدل على أن إكرام أهل الخير والمعروف ينبغي أن يمتد إلى ذويهم وذراريهم، تشجيعًا للناس على أن يكونوا من أهل الخير والمعروف.

وفي هذه الرواية يطلب الإمام الصادق عليه السلام من المؤمنين أولًا أن يجيزوا لأهل المعروف عثراتهم، لكي يتخلصوا من تبعاتها الدنيوية، ثم يطلب منهم أن يغفروا لهم هذه العثرات، لكي يتخلصوا من تبعاتها الأخروية، ثم يبيّن العلّة في هذا الطلب بأن كف الله تعالى عليهم هكذا، وأومأ بيده كأنه يظلل بها شيئًا، أي أن يد الرعاية والرأفة والرحمة الإلهية فوق رؤوسهم وشاملة لهم. ومن كانت منزلته كذلك عند الله تعالى، فمن الأجدر بالمؤمنين بالله سبحانه وتعالى أن يحذوا حذو خالقهم في الصفح عنه، كل ذلك حتى لا يضيع المعروف بين الناس.

---

(١) الكافي ٤: ٢٨، ح١٢.
(٢) مستدرك الوسائل ١١: ١٩٣، ح٢١.

إقالة عثرة الجار

أورد الشيخ الصدوق في كتاب «**من لا يحضره الفقيه**» ـ وهو أحد الكتب الروائية الأربعة المعتبرة عندنا، والثلاثة الأخرى هي: الكافي للشيخ الكليني، والاستبصار وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ـ رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام، وهي تتضمن جملة الحقوق التي قررها الإسلام للإنسان، ومن هذه الحقوق حق الجار، إذ يقول عليه السلام: «**وأما حق جارك فحفظه غائبًا، وإكرامه شاهدًا، ونصرته إن كان مظلومًا، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءًا سترته عليه، وإن علمت أنّه يقبل نصيحتك نصحته في ما بينك وبينه، ولا تسلمه عند الشديدة، وتقيل عثرته**»[(١)].

يتناول الإمام السجاد عليه السلام في هذا المقطع بعض حقوق الجار، وهي:

الحق الأول: «**حفظه غائبًا**»: يجب حفظ الجار عندما يكون غائبًا والدفاع عنه ومراقبة داره، لحفظها من السرقة أو لكي لا يصل إليها أحد بسوء.

الحق الثاني: «**إكرامه شاهدًا**»: إذا كان حاضرًا فيجب إكرامه، ومن مصاديق الإكرام مبادرته بالسلام والسؤال عن أحواله وأحوال عائلته ومتعلقيه، ومن المصاديق دعوته عند الوليمة، وذكره بشيء من الطعام عند طبخ وجبة لذيذة في البيت، ومنها أيضًا حضور مناسباته في الأفراح والأحزان، والوقوف معه عند الشدائد وأوقات الحاجة.

الحق الثالث: «**نصرته إن كان مظلومًا**»: إذا ظُلم واعتُدي عليه، فينبغي نصرته والوقوف معه وعدم تركه.

الحق الرابع: «**لا تتبع له عورة**»: ولا ينبغي تتبع عيوبه بالتجسس عليه وسؤال هذا وذاك عنه.

الحق الخامس: «**إن علمت عليه سوءًا سترته عليه**»: إذا اطلع الجار على أمر سيئ من جاره مصادفة، فيجب ستره ويحرم التشهير به، كما لو كنت جالسًا في بيتك وسمعت صوت الأغاني والطرب في داره، أو إذا تخاصم الجار مع زوجته وتفاضحا بينهما وكشف كل منهما سيئات الآخر، فيجب ستره وعدم إخبار أحد بما سمع.

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٣، ح٣٢١٤.

الحق السادس: «**إن علمت أنّه يقبل نصيحتك نصحته في ما بينك وبينه**»: يستفاد من هذا النص أن من لا يتوقع منه سماع النصيحة فلا تجب نصيحته، لأنّه حينئذ يعتبرها تقريعًا وتسجيلًا للنقاط ، وتؤدي إلى نتيجة أسوأ. وهي واجبة إذا كان هناك احتمال للاستجابة. إن كان ممن يقبل النصيحة فينبغي اختيار الطريقة المناسبة لنصيحته، والنصيحة بشكل عام يجب أن تكون سرًا بين الناصح ومن يراد نصيحته، ألاّ يكون ذلك أمام شخص ثالث؛ لأنّ ذلك في الواقع تشهير لا نصيحة، كما ورد ذلك في نصوص صريحة، كقوله عليه السلام : «**من وعظ أخاه سرًّا فقد زانه، ومن نصحه علانية فقد شانه**»[1].

الحق السابع: «**لا تسلمه عند الشديدة**»: من حق الجار الوقوف معه إذا نزلت به مصيبة، أو مرت به شديدة من شدائد الدنيا، كضائقة مالية، فيجب مد يد العون والمساعدة له من غير أن يطلب ذلك.

الحق الثامن: «**تقيل عثرته**»: وهو الشاهد، فمن حق الجار على جاره، كحق المؤمن على أخيه المؤمن، وجوب إقالة عثرته، وإن لم يكن هذا الجار مسلمًا، أو كان مسلمًا ولم يكن مؤمنًا، فحق الجوار يقتضي الصفح عن أخطائه والتعامل معه على أساس التسامح والمعاشرة الكريمة.

إقالة العثرات من الصفات الربوبية

أورد الشيخ الطوسي في كتابه تهذيب الأحكام الدعاء التالي:

«**يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر والسريرة، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى ومنتهى كل شكوى، يا مقيل العثرات، يا كريم الصفح، ياعظيم المنّ، يا مبتدئًا بالنعم قبل استحقاقها، يا رباه يا سيداه يا أملاه يا غاية رغبتاه،أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن لا تشوه خلقي بالنار، وأن تقضي لي حوائج آخرتي ودنياي، وأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وأن تقيل عثرتي يا مقيل العثرات**»[2].

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٦٦، ح٢٩.
(٢) تهذيب الأحكام ٣: ٨٤ ،ح ١٢.

يتضمن هذا الدعاء الشريف عدة فقرات، منها موضع الشاهد على موضوعنا إقالة العثرة، وهي قوله عليه السلام: «**يا مقيل العثرات**»، نمر عليها مرورًا سريعًا:

الأولى: «**يا من أظهر الجميل وستر القبيح**»: يا إلهي، إذا كان فينا شيء حسن ولو كان قليلًا فأظهره للناس، ليروا هذا الجانب المشرق من حياتنا، وإذا كان فينا شيء قبيح ولو كان كثيرًا فأخفه عن الناس، ولا تهتكنا ،واسترنا، فأنت الساتر لعبادك، أذنبنا وعصينا وتجاوزنا فلم تهتكنا وسترتنا.

الثانية: «**يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر والسريرة**»: إلهي، لقد كانت ذنوبنا وجريرتنا وجرائمنا عظيمة، لكنك لم تؤاخذنا بها ولم تحاسبنا عليها وتحملتنا وصبرت علينا.

الثالثة: «**يا عظيم العفو**»: يا إلهي، أنت كثير العفو جدًا.

الرابعة: «**يا حسن التجاوز**»: يا إلهي، إنك تحسن التجاوز عن أخطائنا وذنوبنا وسيئاتنا.

الخامسة: «**يا واسع المغفرة**»: يا إلهي، إن دائرة مغفرتك ومساحة مغفرتك عامة جدًا. يوجد في قوانينا المعاصرة قانون يسمّى قانون العفو الخاص، ومعناه أن من أنهى ثلثي محكوميته في السجن مع حسن السيرة والسلوك داخل السجن يُطلق سراحه. وهناك قانون آخر يسمّى بقانون العفو العام، ومعناه إطلاق سراح جميع المسجونين. ووصف الله سبحانه وتعالى بواسع المغفرة، أي أن عفوه عام في كل مناسبة وفي كل قضية، كل من يطلب منه العفو يعفو عنه ويصفح.

السادسة: «**يا باسط اليدين بالرحمة**»: يا إلهي، أنت الباسط يديك بالرحمة، وأنت الذي ترحمنا.

السابعة: «**يا صاحب كل نجوى ومنتهى كل شكوى**»: إن كل من عنده همّ وغمّ يريد أن يتحدث به فأنت صاحبه، لأنّك أنت الله تسمع من ناجاك. وكذا كل من يريد أن يشتكي، فسيجد الله تعالى سميعًا لشكواه.

الثامنة: وهنا الشاهد «**يا مقيل العثرات**»: يا الهي، أنت المقيل عثرتي إن عثرت، وأنت مقيل عثرات الناس.

التاسعة: «**يا كريم الصفح**»: يا إلهي، أنت تتعامل بكرم مع خلقك، وعندما تصفح عن الناس فإنك تصفح عنهم بكرم.

العاشرة: «**يا عظيم المن**»: يا إلهي، أنت ذو العطاء الجزيل، فأنت الحنّان المنّان، تعطي كل شيء، وتعطينا أكثر مما نستحق.

الحادية عشرة: «يا مبتدئًا بالنعم قبل استحقاقها»: نحن البشر نعطي الأجر على مقدار العمل، فمثلًا إذا ركبنا سيارة لمسافة قصيرة فلها أجر معين، وإذا كانت المسافة أطول كانت الأجرة أكثر، وإذا كانت المسافة من مدينة إلى أخرى فستتضاعف الأجرة.. وهكذا، فعامل البناء، مثلًا، كلما كان عمله أطول كانت الأجرة أكثر، فعطاؤنا دائمًا يكون على مقدار العمل وبعد انتهائه، ولكن الأجر الذي يعطيه الله سبحانه وتعالى ليس كذلك، فهو يعطي الأجر قبل ابتداء العمل، ويضاعفه أضعافًا كثيرة تصل إلى سبعمائة ضعف أو أكثر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]. فبمجرد أن يقرر الإنسان أن يكون مطيعًا لله عز وجل وأن يكون عبدًا له، ستفتح أمامه الأبواب قبل الشروع بالعمل.

الثانية عشرة: «يا رباه يا سيداه يا أملاه يا غاية رغبتاه»: لكل إنسان رغبات، ولكن غاية الرغبة وأعلى شيء يتمناه الإمام المعصوم، والذي ينبغي لكل إنسان أن يتمناه هو: «**أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن لا تشوه خلقي بالنار**»،إلهي، أنت خلقتنا بهذا الوجه الحسن فكيف تشوهه بالنار؟. أرأيتم من يحترق وجهه كيف يقبح منظره بشكل مقزز، بحيث لا يمكن النظر إليه. «**وأن تقضي لي حوائج آخرتي ودنياي**»، يطلب الإمام عليه السلام أن تُقضى له حوائج الآخرة والدنيا، فيقدم حوائج الآخرة على حوائج الدنيا؛ لأنّ الدنيا مهما كانت حوائجها مهمة ومشاكلها عويصة فإنها سنوات وتنتهي، وأما الآخرة فهي الخلود الأبدي، ولا قياس بينهما عند المقارنة، فالدنيا مهما كانت يمكن تحملها إلى أن تنقضي.

«**أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وأن تقيل عثرتي يا مقيل العثرات**»: هذا وصف لله سبحانه وتعالى، ومن هنا ندرك عظيم أهمية إقالة العثرات، بحيث أصبحت وصفًا لله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤. ٢٥

الحق الخامس

(قبول عذر المؤمن)

ننتقل إلى الحق الخامس من حقوق الإخوان، الوارد في قوله: «**يقبل معذرته**»، أي إذا أخطأ المؤمن بحق مؤمن آخر، ثم جاء واعتذر منه فعليه أن يقبل عذره.

والعذر على ثلاثة أنحاء:

النوع الأول: عذر للتبرير، فمثلًا عندما يرتكب شخص جريمة عن سبق إصرار، وليس لديه عذر واقعي يعتذر به، يقول كلامًا ما ليبرر جريمته، فالسارق عندما يُسأل في المحكمة لماذا سرقت؟ يقول: قتل الجوع أولادي، أو إذا سئل القاتل: لماذا قتلت هذا الإنسان البريء؟ يقول: ما كنت أقصد قتله، أو ضحكوا عليّ وخدعوني، فمثل هذا الكلام مجرد تبرير وعذر يعتذر به الإنسان ليبرر خطأه إذا اعترف بخطئه، والاعتذار ناتج من محاولة تبرير هذا الخطأ الذي صدر منه. وكذلك عندما نقف بين يدي الله ﷻ يوم القيامة ويسألنا لماذا أذنبتم؟ نجيب: يا إلهنا، إن النفس أمارة بالسوء، ضعفت نفوسنا عندما رأينا الحرام فوقعنا فيه.

النوع الثاني: اعتذار للدفاع عن النفس، كمن فعل فعلًا ورآه أحد الأشخاص وتصور أنّه كان فعلًا سيئًا، فيأتي ليعتذر منه ويبين أن الموضوع ليس كما يتصور، وأنّ واقع الأمر أن القضية كذا وكذا، فهذا اعتذار للدفاع عن النفس، يدافع به الإنسان عن نفسه أمام شخص رأى لقطة أو مقطعًا من القضية ولم يطلع عليها كلها. ومثال ذلك من رأى شخصًا يخرج من بيت الجيران الذي تعيش فيه امرأة وحدها، وانصرف من غير أن يسأله عن سبب دخوله ، ولكنه يبادر إلى الاعتذار إليه وبيان الحقيقة، لإزالة هذا الانطباع السيئ، ويقول له: معذرة، لقد اشتعلت النار في بيت هذه المرأة، وسمعتها تصرخ وتطلب النجدة، فدخلت الدار وأطفأت النار. فهذا عذر للتوضيح بسبب لقطة معينة تفضي إلى انطباع خاطئ عن إنسان لم يرتكب قبيحًا، فيعتذر ليوضح حقيقة الموضوع.

النوع الثالث: الاعتذار من طالب حاجة لا تستطيع تنفيذها. ومثال ذلك أن يأتي شخص ليطلب منك اقتراض مبلغ من المال، ولم تكن تملك هذا المقدار، فتعتذر إليه لأنّك لا تستطيع تلبية طلبه، فهنا اعتذار لا من أمر سيئ، بل أنت تحاول من خلال الاعتذار أن تبعد احتمال تصوره أنك تستطيع إقراضه.

وهنا حينما يقول: «**حق المؤمن على المؤمن أن يقبل عذره** »، فهو يشمل الحالات الثلاث، في جميع هذه الحالات يجب قبول عذره، فمن أخطأ بحقك واعتذر فاقبل عذره، ومن جاءك معتذرًا لتوضيح موقف فاقبل توضيحه وعذره، ومن اعتذر إليك لأنّه غير قادر فاقبل عذره أيضًا.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**إنّ أخاك حقًا من قبل عذرك**»[1]، من حق الأخ على أخيه أن يقبل عذره إذا اعتذر إليه، فقبول العذر شاهد ودليل على الأخوّة الإيمانية. وأما عدم قبول العذر فدليل على عدم وجود أخوّة إيمانية، فصار قبول العذر مقياسًا لمعرفة الأخوّة الإيمانية.

وكذلك ورد النهي عن ردّ الإنسان إذا ما قدم الاعتذار، فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، أنّه جاء في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «**يا علي، من لم يقبل من متنصل عذرًا، صادقا كان أم كاذبًا، لم ينل شفاعتي**»[2].

«**يا علي، من لم يقبل من متنصل عذرًا**»: المتنصل يعني الشخص الذي أخطأ وتراجع عن خطئه، أو تبرأ من نسبة ذلك الخطأ إليه.

«**صادقا كان أم كاذبًا**»: يجب قبول العذر وإن كنت تعلم أنّه كاذب، لأنّ المهم هو أنّه اعتذر، وهذا هو المطلوب، ولو رجع في اليوم الثاني وكرر نفس الخطأ ونفس الاعتذار، فيجب قبوله أيضًا.

«**لم ينل شفاعتي**»: من لم يقبل عذر المؤمن، فلن يحصل على شفاعة محمد وآل محمد عليهم السلام ويحرم منها، فثمن الحصول على الشفاعة هو قبول عذر المؤمن وإن كان كاذبًا، وكذلك في يوم القيامة، فإنّهم عليهم السلام لا يشفعون عند الله تعالى لشخص في غفران ذنوبه والعفو عنه، ما لم يكن هو في الدنيا قد غفر لأخيه المؤمن وسامحه. فانظروا إلى

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٥٤.
(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢١٧، ح١.

مقدار ابتعادنا عن هذه المفاهيم الأخلاقية السامية، إذ نحن اليوم لا نقبل عذر الصادق، فكيف نقبل عذر الكاذب؟.

وورد في غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**شر الناس من لا يقبل العذر، ولا يقيل الذنب**»[1]، فشر الناس ليس هو من أذنب، بل شر الناس من يرفض قبول من جاء ليعتذر، ويبقى مصرًا على مقاطعة الآخر.

وعلى أساس هذه الخلفية نلاحظ التأكيد الكبير، أن من يرتكب بحقك خطأ معينًا ينبغي ألاّ يكون تقريعك له عنيفًا؛ فلعله يرجع ويعتذر، وإذا اعتذر فواجبك أن تقبل عذره، فإن لم تقبل لم تنل شفاعة محمد وآل محمد يوم القيامة، لا مناص من قبول عذر المؤمن وإقالة عثرته. فردّ الفعل العنيف يقطع الطريق على المعتذر في أن يعتذر، وإذا اعتذر فردّ الفعل العنيف قد يمنع الإنسان من أن يقبل العذر، ولهذا ينبغي ألا يكون الردّ قاسيًا حتى لو كان الخطأ جسيمًا، اكتفِ بالتعبير عن عدم الارتياح واتركه لله، فإنّ الله تعالى شأنه لا يتركه.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية أنّه قال: «**لا تصرم أخاك على ارتياب دون استعتاب، لعل له عذرًا وأنت تلومه، اقبل من متنصل عذرًا صادقًا كان أو كاذبًا، فتنالك الشفاعة**»[2].

«**لا تصرم أخاك على ارتياب**»: أي لا تبعد ولا تطرد أخاك، ولا تقطع علاقتك به على شبهة أو على ظن أو على شك أو على احتمال.

«**دون استعتاب**»: اذهب إليه حتى لو كان الخطأ جسيمًا، وصارحه وعاتبه وانظر ماذا يقول، وقل له: لم أكن أتوقع منك أن تقول عنّي هكذا.

«**لعل له عذرًا وانت تلومه**»: أي لعله لم يتكلم بهذا الكلام، أو تكلم ولكن بطريقة أخرى ونُقِل خطأ، ونحن نعلم أن النص يكون له معنى معين في الأجواء التي قيل فيها،فإذا اُقتُطع من أجوائه يصبح له معنى آخر، فربما لم يتحدث بهذا الحديث، أو تحدث ولكن ليس بهذه الطريقة التي نُقلت وكان قصده كذا، أو تحدث بنفس الطريقة، ولكن لسبب هو أن هؤلاء الجلاوزة ظلمة، فتكلم بهذه الطريقة ليحفظك من ظلمهم.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٩٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢١٧، ح٢.

«**اقبل من متنصل عذرًا، صادقًا كان أو كاذبًا فتنالك الشفاعة**»: وقد مرَّ في الرواية السابقة، أنّ الشفاعة لا ينالها من لا يقبل عذر أخيه المؤمن، وهنا رهن نيل الشفاعة بقبول عذر المؤمن، صادقًا كان أو كاذبًا.

رفض عذر المؤمن

الموضوع الآخر الذي نود الإشارة إليه هو رفض عذر المؤمنين بالرغم من الإلحاح والوساطات،حين تأخذ بعضهم حالة الأنانية والأنفة، فهنا أيضًا يوجد نهي كبير عن هذه الخصلة السيئة،ويعتبر من لا يقبل عذر الآخرين من أهل الدنيا، وليس من أهل الآخرة، وأهل الدنيا هم من كانت سمات الإيمان فيهم غير قوية، ويمكن أن تُسلب منهم.

ففي الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن الله سبحانه وتعالى « **يا أحمد أبغض الدنيا وأهلها، وأحب الآخرة وأهلها**»[١].

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم باسمه الذي عند أهل السماء، وهو «**أحمد**»، فهو في السماء أحمد وفي الأرض محمد، ويطلب منه بغض الدنيا، بألاّ تأخذ مأخذها من نفسه، ولا يتمسك بها، ولا يتعلق بها. ومعنى بغض الدنيا ألاّ يكون الإنسان أسيرًا لها، لا أن نترك التعامل معها، كيف وقد ورد النص في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٢].

وروي عن العالم عليه السلام: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»[٣]. ولهذا ليس منافيًا لبغض الدنيا أن يبني إنسان دارًا من الكونكريت المسلح يدوم سنوات أطول بكثير مما يعيش الإنسان، بل هذا من الإتقان في العمل الذي أمر به الإسلام.

ليس من بغض الدنيا ألاّ يملك الإنسان شيئًا في الدنيا، بل المهم ألا يكون أسيرًا لها، فهناك فقير تذهب نفسه حسرات لو ذهب منه بعض ماله، وهناك ثري لا يبالي بضياع المليارات، فهذه القضية لا علاقة لها بحجم المال أو النعم الدنيوية أو ما شابه ذلك، بل لها علاقة بالأخلاق؛ فهناك من عنده الكثير، ولكنه هو من يملك هذا الكثير وليس

---

(١) بحار الأنوار ٢٣:٧٤، ح٦.
(٢) سورة القصص، الآية : ٧٧.
(٣) من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٦، ح ٣٥٦٩.

العكس، فينفق مما أنعم الله تعالى به عليه على الآخرين، ويخرج حقوقه الشرعية، وهو ملياردير من الكسب الحلال، وليبارك الله له في ما أعطاه، فالإسلام ليس دينًا يؤمن بما تؤمن به الماركسية والشيوعية ويعادي كل من عنده مال، فلا مانع من الثراء المشروع، بشرط الالتزام بما فرضت عليه الشريعة من حقوق للفقراء. وما بقي مهما كان كثيرًا، فلا مانع من الاستمتاع به بما حلل الله تعالى، كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]، أي أن الله عَزَّ وَجَلَّ يريد الدنيا للمؤمنين، ولكن بالطرق الحلال وبالموازين الشرعية، ومعنى الزهد في الدنيا ألاّ يكون الإنسان أسيرًا وخادمًا لها، بل هي التي يجب أن تكون خادمة له.

ولكننا نرى البعض قد أسرته الدنيا إلى درجة المرض، ومهما ملك من إمكانات، فإنّه مع ذلك لا يتحمل أن يرى إنسانًا يركب سيارة أرقى من سيارته مثلًا، أو يسكن دارًا أفضل من داره، فالدنيا أكبر همه، وقد شغلته بكل وجوده، وكأنه لا شيء وراءها. وهناك من لا يستطيع أن يقتني مثل تلك السيارة أو الدار، فيطلق الشائعات ويثير الشكوك حول صاحب السيارة أو الدار، ويقول لا بُدَّ من أنه قد سرق هذه الأموال، مع أنّه لا يعلم حقيقة الحال. وبعضهم ينتقل إلى مرحلة العمل؛ فيحاول تشويه السيارة، أو يتناول حجرًا ليكسر به زجاج الدار، ويقول أريد أن أشفي صدري وأبرد غليلي. إن مثل هذه الثقافة ما زالت سائدة في بعض الأوساط.

يجب علينا أن نعلّم أبناءنا ثقافة عدم الانتقام من الآخرين بسبب ما يملكون، وأنّ الذي عنده، فليبارك الله له في ما عنده إن كان من الحلال، وإن كان من الحرام فإنّ وراءه حسابًا وعقابًا، وألاّ نتمنى زوال نعمة الآخرين فنكون من الحاسدين، ولكن نتمنى مثلها أو أكبر منها لأنفسنا من الحلال، من غير أن نتمنى زوالها من الغير،تسمى هذه بالغبطة، وهي جائزة شرعًا وممدوحة.

وهناك بعض من الناس قد أنعم الله تعالى عليه فأعطاه أولادًا وأموالًا، ولكن تراه بدلًا من أن يشكر الله على هذه النعم، يتذمر ويقول ماذا أعطاني الله؟ لقد أعطى فلانًا وفلانًا أكثر منّي؟ وكان عليه أن يشكر الله تعالى ويطلب الزيادة إذا أراد ذلك، ويقيّدها بما إذا كان في ذلك مصلحة لدنياه وآخرته.

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٣٢.

إنّ عدم قبول العذر يجعل الإنسان من أهل الدنيا، وهذا ما أكد عليه الحديث القدسي: «**أبغض الدنيا وأهلها**»، فينبغي ألا تأخذ الدنيا مأخذها من الإنسان ويكون أسيرًا لها، ولكن يجوز له أن يستمتع من نعمها بالحلال،لهذا يجب الحذر من الدنيا وأهلها أشد الحذر، لئلا ينزلق الإنسان مع إغراءاتها، فيترك التفكير بالآخرة، ويعيش لا همّ عنده إلا هم نفسه وحياته الشخصية، ولا يفكر بشي آخر.

إنّ أهل الدنيا فايروس يجب الابتعاد عنه، لأنّ الاقتراب منهم يؤدي إلى الإصابة بحب الدنيا، إذ الأمراض على نحوين: هناك أمراض غير معدية كالسرطان مثلاً، وهناك أمراض معدية تنتقل من شخص إلى آخر بالتماس معه أو الاقتراب منه كالإنفلونزا، وأهل الدنيا يؤثرون في من يقترب منهم، وشيئًا فشيئًا يصير واحدًا منهم، فأول ما يبدؤون به هو الاستخفاف والاستهزاء بهذا المؤمن، والكلمة الشائعة على ألسنتهم قولهم لمن يرونه مؤمنًا: لماذا أنت غارق في الإبريق؟ أي لماذا تأخذ مسألة التدين بجد إلى هذه الدرجة، وكأنّهم لم يجدوا وصفًا أسوأ في إحباط عزيمة المتدين من هذا الوصف. فإن بقي قريبًا منهم ولم يبتعد عنهم استمروا معه شيئًا فشيئًا، إلى أن ينسوه ذكر الله تعالى ويبعدوه عن الدين؛ لأنّ الاقتراب من أهل الدنيا ولو لنصف ساعة في اليوم، سيبعده عن الله تعالى بذلك المقدار، وربما ذوّقوه لذة الدنيا الحرام وحلاوة الشهوة والهوى، فيؤثر ذلك فيه ويدخل في قلبه حب الدنيا، وكلما توغل الإنسان في هذا الاتجاه ابتعد عن الآخرة، وهذا شيء خطير وحساس.

لذلك يوصي الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله قائلاً: «**أبغض الدنيا وأهلها، وأحب الآخرة وأهلها**»، ولا شكَّ في أن حب الآخرة يستتبعه عمل الإنسان لها، فإنّ من يحب شيئًا يعمل من أجل الوصول إليه، فإذا أحبّ الآخرة فإنّه سيعمل لها، وحينئذ سيستفيد في الدنيا ويستفيد في الآخرة، وعلى الإنسان الاقتراب من أهل الآخرة، لأنّهم فايروس حميد، وهم في نفس الوقت تلقيح ينفع في مقاومة أمراض حب الدنيا، فالجلوس مع أهل الآخرة والجلوس مع العلماء، والنظر إلى وجوههم عبادة، لأنّها تذكّر بالله عز وجل، والاستماع إلى أحاديثهم يذكّر بالله تعالى، فمنطقهم وسلوكهم ومنهجهم وحديثهم وكل شيء فيهم، يذكّر بالله تعالى، كما هو النظر إلى الكعبة عبادة، والنظر إلى المصحف الشريف عبادة، لأنّ هذه الأشياء تذكّر بالله عز وجل؛ وهذا نوع من الاتصال يكوّن علاقة، ومثال ذلك الصور التي نحبها ونعلقها على الجدران وننظر إليها باستمرار، تعمّق علاقتنا بهم،هذه حالة

إنسانية طبيعية، فكذلك النظر إلى المؤمنين عبادة، فإنّ سيماءهم في وجوههم من أثر السجود، وكل شيء يذكّر بالآخرة فالنظر له عبادة.

وهناك رواية طويلة يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وآله: **«يا ربّ ومن أهل الدنيا؟ ومن أهل الآخرة؟ قال جل من قائل: أهل الدنيا لا يعتذر إلى من أساء إليه، ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه»**[1]. فأهل الدنيا عندما يخطئون بحق الآخرين لا يعتذرون، تأخذهم العزة بالإثم، ولا يقبلون معذرة من اعتذر إليهم. هذه من صفات أهل الدنيا التي تبعد عن الآخرة. بينما من صفات أهل الآخرة أنّهم يعتذرون إذا أخطؤوا، ويقبلون عذر من أخطأ بحقهم.

وقد ورد في عدد آخر من الروايات التشدد ليس في قبول العذر فقط، بل في سرعة قبوله أيضًا، لأنّ من فوائد سرعة قبول العذر، أن المخطئ أو المسيء لن يتردد في الإقدام على الاعتذار خوفًا من عدم قبول الطرف الآخر وإراقة ماء الوجه بلا فائدة. ولو أن من أخطأ يأتي بسرعة ويعتذر، والذي أُخطئ بحقه يقبل العذر بسرعة،لتعمقت العلاقات الإيمانية ولم تبق بين المؤمنين فجوة.

لقد روى الشيخ الكليني في الكافي، عن علي بن جعفر العريضي، عن أخيه أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: **«أخذ أبي بيدي ثم قال: يا بني، إن أبي محمد بن علي أخذ بيدي كما أخذت بيدك، وقال: إن أبي علي بن الحسين أخذ بيدي وقال: يا بني، افعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه، وإن لم يكن من أهله كنت أنت من أهله. وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك فاعتذر إليك فاقبل عذره»**[2].

في هذه الرواية المباركة يخبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أخاه علي بن جعفر ـ وكان عالمًا فاضلًا جليل القدر ـ بكلام في مكارم الأخلاق كان يسره المعصوم للذي من بعده، وأراد الإمام الكاظم عليه السلام أن يتحف به أخاه والشيعة من بعده، وهو أن يفعل الخير لكل من يطلبه منه، بغض النظر عن الطرف المقابل، هل يستحق هذا الخير أو لا يستحقه، واستحقاقه للخير هو أن يكون من أهل الخير، فإنّ المتعارف أن الإنسان إذا أراد أن يفعل معروفًا، فإنّه يفعله لمن يستحقه في نظره، ولكن الإمام عليه السلام يقرر هنا مفهومًا جديدًا في عمل الخير، وهو أن تفعله لكل من يطلبه منك، وهذا لا يمنع من أن يبادر الإنسان إلى

---

(١) بحار الأنوار ٧٤:٢٣، ح٦.
(٢) الكافي ٨: ١٥٢، ح١٤٢.

فعل الخير لمن هو أهله قبل أن يطلبه منه، أما فعله لمن لا يعرفه فمتوقف على طلبه، ولكن من الأولى أن يفعله لمن يستحقه إذا طلبه.

ثم يعلل الإمام عليه السلام هذه القاعدة بقوله: «**فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه، وإن لم يكن من أهله كنت أنت من أهله**»، فإنّ المناط في فعل الخير ليس هو الطرف المقابل، بل هو فاعل الخير نفسه، وهو أن يكون من أهل الخير. وحينئذ يكون الأمر عنده على حد سواء في من طلب الخير منه.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام وجوب التحلي بخصلة قبول العذر، وهي موضع الشاهد في الرواية المباركة، فيقول: إن شتمك رجل واقف على يمينك، ثم انتقل ووقف إلى يسارك، يعني أن أي شيء لم يتغير، وأنّ الظرف على حاله كما هو، وأنّك ما زلت تعيش حالة التأثر، فاعتذر إليك فاقبل عذره.هذه هي الأخلاق التي يجب أن يتصف بها المؤمنون، تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[1]،هكذا ينبغي التعامل مع الجاهل.

قد يكون هناك شخص سمع شيئًا، وقبل أن يتثبت أصدر حكمه، وكثير منا كذلك مع الأسف، ثم تبيّن له خطأ فعله فاعتذر، لأنّ من نقل له ربما كان كاذبًا، أو كان صادقًا ولكنه فهم الكلام خطأ، أو ربما كان صادقًا ودقيقًا في نقله، ولكن الأجواء التي صدر فيها الكلام عن المتكلم والقرائن التي تحف بالكلام كانت لها معطيات في فهم الكلام بشكل آخر، وعندما جُرّد الكلام من ظروفه تغير المعنى المراد، أو ربما هناك شخص مريض نفسيًا، فعندما يراك يسلم عليك ويتكلم معك ويعتذرإليك، ولكنه بعد قليل وعندما تتاح له فرصة أخرى يشتمك أيضًا، فهو شخص متناقض، فهل أردّ عليه أو لا أقبل عذره فأكون مريضًا مثله؟، بل ينبغي أن تكون أكبر منه، وتكون نفسك كبيرة لتسع الناس بحلمك، ولا بُـدَّ من معاناة الألم والمحن وتحمّل الإيذاء في سبيل تغيير الناس نحو الأفضل، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قال: «**ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت**»[2]، وعندما دخل مكة فاتحًا ورفع أحد قادة الجيش شعار: «**اليوم يوم الملحمة... اليوم تُسبى الحرمة**»، أمر عليًا عليه السلام أن يأخذ الراية منه، وقال له: «**كن أنت الذي تدخل إدخالًا رفيقًا**»، فأخذها علي وأدخلها

(١) سورة الفرقان، الآية : ٦٣.
(٢) بحار الأنوار ٣٩: ٥٦.

كما أمر[1]، وأمر أن ينادى: «**من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[2]. وكل هؤلاء الأعداء والخصوم الذين وقفوا ضده وقاتلوه أكثر من عشرين عامًا وجيء بهم أسرى، قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[3].

عندما ننظر الآن إلى هذه القضية وهذا الواقع، نعرف من هو الكبير ومن هو الذي فاز، بالرغم من أن البعض من هؤلاء عندما دخلوا دورهم أو دار أبي سفيان، كانوا يقهقهون ويستهزئون ويقولون نجونا من القتل، وهم يظنون أن القضية ببعدها الآني فقط، وليست لها أبعاد في المستقبل، ولكن يعلم الجميع بعد مرور ذلك الزمن، أن موقف رسول الله ﷺ هو الموقف الصحيح. وها نحن اليوم نذكر هذا المنهج بفخر واعتزاز.

فمن يقبل العذر لا يعني أنّه بليد، بل يعني أنّه ينظر إلى المستقبل وإلى أفق أرحب، وإلى الآثار الإيجابية الكبيرة التي تترتب على قبول العذر. وينبغي أن يُقال للمعتذر بشكل غير مباشر: إن كان صدر منك كذا وكذا كما بلغني، فإني أقبل عذرك بما أنّك اعتذرت. فيكون قد فهم أن من يعتذر إليه ليس إنسانًا بليدًا، وإنما يصفح عنه لأنّه أكبر نفسًا منه، وأنّ أخلاقية الإسلام تأمره بذلك.

وفي رواية أخرى في بحار الأنوار: «**روي أن موسى بن جعفر** عليه السلام **أحضر ولده فقال لهم: يا بني إني موصيكم بوصية، فمن حفظها لم يضع معها، إن أتاكم آتٍ فأسمعكم في الأذن اليمنى مكروهًا، ثم تحول إلى الأذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقلْ شيئًا، فاقبلوا عذره**»[4].

يوصي الإمام الكاظم عليه السلام أولاده بوصية، ويقول لهم إن من يلتزم بها ويطبقها في حياته لن يضيع، ومفهوم ذلك أن من ترك العمل بها سوف يضيع، والمقصود بالضياع هنا ضياع منزلته في المجتمع، لأنّ الإنسان عندما يتعالى على صغائر الأمور وسفاسفها سيكبر في عيون الناس، وهذه الوصية هي أنّه لو جاءكم شخص فقال لكم قولًا تكرهونه وأساء إليكم، وبعد لحظة قال إني لم أقل ذلك، فاقبلوا عذره مع علمكم ويقينكم بأنّه كاذب.

(١) بحار الأنوار ٢١: ١٠٥.
(٢) بحار الأنوار ٩٧: ١٧، ح١.
(٣) الكافي ٢: ٥١٣، ح٢.
(٤) بحار الأنوار ٦٨: ٤٢٥، ح٦٧.

التماس العذر للإخوان

إذا أردنا اقتراض مبلغ من المال من أحد الإخوة المؤمنين، فينبغي التفكير أولًا قبل مفاتحته بالموضوع، باحتمال أنّه لا يملك المال، أو أن هناك ظرفًا طارئًا يمر به ولا يستطيع إقراضي، فماذا يجب أن تكون ردّة فعلي؟ هل سوف أنزعج، أو يجب أن أروّض نفسي على قبول هذا الاحتمال ببرودة أعصاب؟ وحينئذ ستخف الصدمة إذا كنت مستعدًا ومتهيئًا منذ البداية لقبول رفضه، أو عدم إمكانية تحقيق هذا الطلب.

وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال للحسن بن راشد: «**إذا سألت مؤمنًا حاجة فهيئ له قبل ما تطلب المعاذير، فإن اعتذر فاقبل عذره، وإن ظننت أن الأمور على خلاف ما قال**»[1].

يوصي الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه في هذا الحديث المبارك، بأنّه إذا طلب من مؤمن حاجة، فعليه أن يهيئ له المعاذير، أي يقول له قبل أن يعتذر: جئتك لاقتراض مبلغ من المال، فإن كنت لا تمتلك هذا المبلغ، أو هناك ظرف معين لا تستطيع بسببه أن تقرضني هذا المال، فأنت معذور سلفًا. أو يحتمل أن يكون معنى الرواية أنّه ينبغي التهيؤ لاحتمال ردّ طلبه، فلا يفاجأ بذلك. فإن اعتذر هذا المؤمن، فيجب قبول عذره وإن كان الأمر على خلاف ما يقول وما يعتذر به، المهم هو قبول عذر المؤمن إذا اعتذر، وإن كان ظاهر القرائن يشير إلى عكس ذلك.

---

(١) مستدرك الوسائل ٩: ٥٧، ح٥.

الحق السادس
(ردّ الغيبة عن المؤمن)

لقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، في الحديث الذي يرويه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الحق السادس من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن، وهو وجوب حفظ غيبته، أي يجب على المؤمن أن يدافع عن أخيه المؤمن حينما يُذكر بسوء أمامه، ويردّ الغيبة عنه حينما يريد شخص ذكر مثلبة فيه، وأما إذا لم تكن فيه هذه المثلبة فالأمر أسوأ وهو الافتراء. فعلى المؤمن أن يدافع عن أخيه المؤمن، ولو بأن يستبطن بشكل طبيعي الحديث عن حرمة الغيبة نفسها، وأنّ من حق المؤمن على أخيه المؤمن ألاّ يغتابه ويذكره بسوء؛ لأنها من الإساءة التي تتقاطع وتتنافى مع هذه الأخوّة والعلاقة الإيمانية.

هذا الموضوع يمثل أحد المواضيع الخطيرة والحساسة التي يكثر الابتلاء بها في الوسط الإيماني، فهناك واجبات معروفة من المتسالم بين المؤمنين الالتزام بها كالصلاة والصيام، وهناك محرمات معروفة من المتسالم بين المؤمنين اجتنابها كشرب الخمر والزنا، ولكنّ هناك ذنوبًا وإن كانت من الكبائر أيضًا تصدر من المؤمن، ولا يُستغرب صدورها منه كالغيبة، والحديث في هذا الموضوع أمر مهم لكثرة الابتلاء به.

قد يبرر بعضهم لنفسه ارتكاب هذا الإثم بأنّه إنما يتحدث بما هو صدق، وبما سمعه أو رآه بنفسه، ويظن أن ذلك جائز. وهو يجهل أن الغيبة إنما هي في الأمور الصادقة، وأما الأمور الكاذبة التي ينقلها عن المؤمن، فذاك أمر أشد من الغيبة؛ لأنّه كذب بالإضافة إلى كونه غيبة.

إن هناك عدم وضوح عند البعض الذي لا يملك ثقافة شرعية، فلا يعرف حدود الغيبة، وأين هي مساحتها التي تحرم فيها؟، وأين هي المساحات الأخرى؟ لذلك نحن نستفيد من استعراض أمير المؤمنين عليه السلام لهذا الحق، لنقف وقفة سريعة عند معنى الغيبة، وما حدودها، وما الأدلة عليها في القرآن الكريم والروايات الواردة عن أهل البيت و، لنستبين معنى الغيبة أولًا، والنهي عن الغيبة والمنع منها ثانيًا، وحرمة استماع الغيبة

ثالثًا. فالمغتاب الذي يذكر الآخرين بسوء عندما يرى مكانته الاجتماعية تتعزز كلما ذكر الآخرين بسوء، سوف يزداد في غيّه، فالاستماع والتفاعل مع الغيبة لهما مدخلية كبيرة في إبقاء هذا الموضوع متفاعلًا بين الناس، وأما حين يرى نفسه منبوذًا ومستهجنًا ومعزولًا إذا اغتاب مؤمنًا، والكل يقول له اسكت رجاءً، فإنّه سيكف عن الغيبة. ولذلك فما يحرم الغيبة يحرم الاستماع إليها أيضًا.

وهناك نقطة مهمة أخرى تتعلق بالغيبة، وهي وجوب النهي عن المنكر، فربما يظن البعض أن الاستماع إلى الغيبة غير حرام، وهو خطأ فادح؛لأنّ المغتاب والمستمع إليه شريكان في الإثم، ويتحمل كل واحد منهما وزر جريمته يوم القيامة، ولا ينفعه أن يقول: لا علاقة لي بالغيبة، فأنا لم أتكلم بشأن أحد بالسوء، لأنّه يجب عليه الوقوف بوجه المغتاب ونهيه عن هذا المنكر، بأن يقول له مثلًا: لماذا تفعل هذا؟. لماذا تسيء للآخرين؟. لماذا تسيء لنفسك بإساءتك للآخرين؟. إن هذا ليس صحيحًا، هذا حرام،أرجوك أن تترك هذه القضية فأنا خائف عليك. ولو استمرت نصيحة المغتاب هكذا لأقلع عن الغيبة، ولم ترَ من يستغيب.

كما أن الدفاع عن المستغاب أمر واجب أيضًا، والمؤمن قائم مقام أخيه حال غيبته، فكما أنه لا يقبل أن يُساء له بحضوره، فكذلك ينبغي ألا يقبل الإساءة إلى أخيه المؤمن في حال غيبته، فإذا ذُكر أمامه بسوء يبادر قائلًا مثلًا: لا يا إخوان، إن القضية ليست هكذا، وأنا أعرف هذا الرجل، ويشرح لهم القضية، أو إنّه لم يقل هذا أو لم يعمل هذا. ولو أن كل شخص منا يدافع عن أخيه المؤمن، لما بقي مجال للإساءة للمؤمنين إطلاقًا.

ونحاول هنا المرور سريعًا على هذه الموارد والمواضيع المتعلقة بالغيبة.

تعريف الغيبة

الغيبة كما عرّفها علماء الأخلاق هي ذكرك أخاك بما يكرهه لو بلغه؛ ولهذا ينبغي عند ذكر الأخ المؤمن أن يتخيله وكأنّه جالس أمامه، وهل سيكره هذه الكلمة التي سيقولها بحقه أو لا؟.

و لهذا التعريف معنى واسع يشمل الغيبة ومحرمات أخرى كالبهتان، فإذا بهت المؤمن أخاه المؤمن فهو أمر يكرهه أيضًا لو بلغه، وإذا اتهم المؤمن أخاه المؤمن فهو أمر يكرهه أيضًا عندما يسمعه، والإفك، وهو الكذبة الكبيرة، هي أمر يكرهه المؤمن

لو سمعه، والفاحشة، وهي السب الشتم وما إلى ذلك، فهو أمر يكرهه المؤمن أيضًا لو بلغه. وهو يشمل بيان العيب الظاهري، أي العيب الواضح المعروف، بحيث أن صاحب العيب يكرهه ويتأذى منه لو سمع أحدًا يذكره به. وكذا يشمل السخرية والاستهزاء لأنّه أمر يكرهه لو بلغه، ويشمل المهانه والتحقير أيضًا، ولا سيَّما أنه قد شاع في أعرافنا تلقيب الناس بعضهم للبعض الآخر بكلمة نابية صدرت منه أو موقف غير لائق، ليبقى وصمة يوصم بها طوال عمره، فهذه الألقاب التي نستخدمها لنستهزئ بها من الآخرين ونقلل من قيمتهم، هي من المحرمات أيضًا وإن لم تكن غيبة، بل هي عناوين أخرى محرمة.

وكذا فإنّ إيذاء المؤمن من المحرمات، لأنّه يكرهه لو بلغه وإن لم يكن غيبة، وهكذا إشاعة الفاحشة، وهي نشر ذنب معين اُبتلي به مؤمن أو غير مؤمن، فإنّه حتى لو كان هذا الشخص لا يستحق أن يُحفظ، فإن الذنب والمعصية يجب ألاّ يشاعا فيزول قبحهما بين الناس فيصبحا أمرًا طبيعيًا وعاديًا.

فهذه كلها ذنوب يكرهها صاحبها لو بلغته مع أنّها ليست غيبة. فالغيبة إذن هي بيان أمر يكرهه المستغاب إذا بلغه، ولكن بقيود تميّز الغيبة عن هذه الذنوب التي ذكرناها آنفًا.

قيود الغيبة

القيد الأول: وجود سر يُكشف للناس، فإذا كان نقصًا ظاهريًا معروفًا فهو ليس من الغيبة، كما لو وصف شخصًا يلثغ بكلامه بأنه ألثغ، أو يصف شخصًا يمشي برجل عرجاء بالأعرج، فهذا لا يسمى غيبة، لأنّ الناس تعلم أنّه كذلك، فشرط الغيبة هو كشف أمر مستور ومخفي وأنت تظهره للناس. إذن فالغيبة هي كشف نقص وعيب مستور للناس عن أخيك المؤمن.

القيد الثاني: كون النقص الذي يُذكر في المؤمن واقعيًا وموجودًا في الشخص المستغاب. وأما إذا لم يكن موجودًا فهو بهتان.

القيد الثالث: أن يكون الغرض من بيان هذا العيب هو التقليل من قيمة المؤمن، وأما بيانه لغرض آخر غير النيل من صاحبه والتقليل من شأنه فلا يعدّ غيبة، كما لو بيّن الطبيب علة خفية عند المريض، فيقول مثلاً إن عنده التهابًا في المجاري البولية أو علّة أخرى يخجل المريض من البوح بها أمام أقربائه أو أصدقائه، أو أن من كان مع المريض هو الذي يبوح بها للطبيب، لأنّ المريض يخجل من ذكرها. وكذا فإنّ

كشف عيب الخاطب لأهل المخطوبة إذا سألوا عنه أو بالعكس، لا يعد غيبة؛ لأنّه في موقع المشورة لا التشهير والانتقاص والهتك. ومن مصاديق عدم الغيبة مع كشف العيب المستور، ما لو أُريد توظيف شخص في موقع معين، وتحتاج مثل هذه الوظيفة إلى أخلاقية معينة.

فإذا كان بيان سلبيات ومناقص ومثالب الأخ المؤمن من أجل كسره والتقليل من شأنه والإساءة إليه فهو غيبة، وأما إذا كان الغرض منه شيئًا آخر مفيدًا وصحيحًا ومقبولًا ومقنعًا، فلا بأس به.

وليس من الغيبة أيضًا ذكر الأمور الحسنة التي يحرص على إخفائها الأخ المؤمن، خوفًا من تسلل الرياء فيبطل ثوابها كصلاة الليل ومساعدة الفقراء؛ لأنّ المقصود هو رفع شأن المؤمن لا كسره وبيان مناقصه. فذكر مناقب الآخرين وحسناتهم ومواقفهم الطيبة ونخوتهم ليست من الغيبة في شيء. اللهم إلا أن يصل الأمر إلى مستوى يؤذي هذا المؤمن واقعًا، فيصير حرامًا من باب حرمة إيذاء المؤمن، لا من باب حرمة الغيبة.

القيد الرابع: أن يكون الشخص المستغاب محددًا باسمه أو شكله أو شيء آخر يُعرف به، كأن تقول الشخص الذي ظهر البارحة على الفضائية الفلانية في الساعة الفلانية في البرنامج الفلاني، ثم تستغيبه إما بالكلام الصريح، أو بالكناية والتلويح والإشارة، بأن تعرف الناس أن هذا قصير مثلًا، فكل الحركات وأي طريقة إيحائية توصل نقص الأخ المؤمن للآخرين فهي غيبة، فالغيبة ليست فقط بالكلام، بل ربما كانت بالإشارة أو الكناية أو التلويح أو نبرة الصوت، كالابتسامة الصفراء الباردة التي تكون أوقع من الكلام في الذم أحيانًا. كل هذه الإشارات التي تحدد شخصًا ما تسمى غيبة.

أما لو لم يكن هناك تشخيص وتحديد لمؤمن بعينه، وإنما تريد أن تناقش ظاهرة معينة فتقول: يؤسفنا أنّه يوجد في مجتمعنا أناس تفعل كذا وكذا، أو أن هناك أناسا صارت تتعامل بكذا وكذا، أو أن هناك أناسا لا تخجل من تأريخها وجهادها وتذهب لتقضي لياليها بالملاهي، فهنا لم يُحدد شخص ما، وإنما تُناقَش ظاهرة. ولكن من مصاديق الغيبة، أن تذكر إنسانًا بأوصاف لا تنطبق إلا على مؤمن بعينه، بحيث يعرف السامع أنّه يقصد فلانًا.

القيد الخامس: أن يكون المستغاب مسلمًا، فالمشرك والكافر والملحد لا تحرم غيبته، كما سيتضح ذلك في النصوص الآتية.

القيد السادس: ألّا يكون متجاهرًا بالفسق والفجور، فهناك من يتبجح بما فيه من نقص وسيئة وخطيئة، ولا يبالي بما يقال فيه بسبب ذلك، وهو يتجاهر بها علنًا بلا استحياء، فهنا لا يصدق وصف الغيبة لمن تكلم في عوراته؛ لأنّه ليس هناك سر فيكشفه، بل هو من يتحدث به أمام الآخرين، أو يمارسه على رؤوس الأشهاد، ولكن ربما كان حرامًا لا بسبب كونه غيبة، بل لأنّه من باب حرمة إشاعة الفاحشة مثلاً.

إذن، هذه ستة قيود يجب وجودها مجتمعة في الكلام الصادر من شخص ضد شخص آخر حتى تسمى غيبة، وإذا لم يوجد أحدها لم تكن غيبة، وإن كان عملًا محرمًا لأسباب أخرى وعناوين أخرى.

الأدلة على أن الغيبة من الكبائر

إن الغيبة من الذنوب الكبيرة التي توعد الله سبحانه وتعالى صاحبها عليها بالنار، وهناك نصوص صريحة وواضحة في ذلك.

الأدلة من القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم المعصية الكبيرة والإثم العظيم في عدد من الآيات الكريمة:

منها قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1]. أي إذا ابتعدتم عن ارتكاب الذنوب الكبيرة، فسنغفر لكم ذنوبكم الأخرى وندخلكم الجنة، وأما إذا لم تفعلوا ذلك، فلن نغفر لكم شيئًا من ذنوبكم وسندخلكم النار.

وقد روى الكليني عن الإمام الصادق (صلوات الله وسلامه) عليه في تفسير هذه الآية أنّه قال: «**الكبائر: التي أوجب الله عز وجل عليها النار**»[2]، أي أن الله تعالى أوجب النار على من تصدر منهم هذه الكبائر.

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) الكافي ٢: ٢٧٦، ح٣١.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[1]، الهمزة هو الذي يطعن بالناس، يعني الشخص الذي يعيب الناس ويذكر عيوبهم، ومن يطعن بالناس لا تجد في قاموسه شخصًا سالمًا، حتى رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لم يسلم منهم وقالوا عنه إنّه أُذُن، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[2]، أي يسمع كل ما يُقال له ويصدّقه، مع أنّه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان أكمل الناس. واللمزة هو الذي يغتاب الناس ويذكر سيئاتهم ومناقصهم.

ومن هذه الآية نعرف أن الغيبة يُشترط فيها أن يكون الدافع إليها الانتقاص من الآخر وكسره وهتكه والتقليل من قيمته أمام الناس.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3]، يشبّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الغيبة بأكل الإنسان للحم أخيه الميت، وهي صورة مقززة تشمئز منها النفوس، وقد قرأت قبل فترة خبرًا غريبًا عن مقدّم برامج يفعل أشياء غريبة، وقد قام في إحدى الحلقات بقص قليل من لحم يده بسكين حارة ثم أكله. وهي صورة تثير الاشمئزاز، مع أنّه فعل ذلك بنفسه وأكل من لحمه الحي، فكيف إذا كان ذلك لحم أخيه الميت؟ فلا شكَّ في أنّه منظر لا يطاق.

ونفهم من هذا التشبيه أن الغيبة تستهدف شخصية الإنسان، لأنّ الاستهداف يطول نفس الإنسان مرة، ويطول شخصية الإنسان مرة أخرى، أي يستهدف سمعته وموقعه وحيثيته أمام الآخرين، فالغيبة تقتل هذه الشخصية وتسحقها، مع أنّه بشخصه حي يرزق، ولكن ذهب ماء وجهه وضاع بين الناس، وكما أن الميت غاب عن الحياة، فكذلك الغيبة هي قتل شخصية المؤمن وتدمير سمعته، لتغييب أي دور إيجابي له في الحياة.

ونفهم من هذه الآية الكريمة أن هناك بعض الناس يريد أن يدمر الآخر، لكي يخلو له الجو ويصعد بلا منافس، مع أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يأمر بالتنافس في الأعمال الصالحة، بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[4]، وينبغي أن يكون هذا التنافس الشريف في سبيل الله تعالى وتقربًا إليه، لا طلبًا للدنيا من مال أو جاه أو رئاسة، فحث على التنافس في أنواع

(١) سورة الهمزة، الآية :١.
(٢) سورة التوبة، الآية : ٦١.
(٣) سورة الحجرات، الآية : ١٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

الخيرات، من طلب العلم ومساعدة الفقراء وقضاء حوائج الناس وغير ذلك من صنوف الأعمال الصالحة، لا التنافس من أجل تقوية القدرات والإمكانيات، للسيطرة على مقدرات الناس.

هناك من يريد أن يكون هو المحور وهو الكبير، من غير أن يتعب نفسه فيكون أحسن من الآخرين، فيلجأ إلى تحطيم سمعة الآخرين والنيل منهم عن طريق الغيبة وغيرها من المحرمات، ليخلي الساحة من المنافسين. وهناك من يلجأ إلى المنافسة الشريفة واستعمال الوسائل الصحيحة والسليمة للتقدم في السباق، من غير أن يسيء لأحد.

وهناك عدة دروس نفهمها من هذه الآية الشريفة:

الدرس الأول: أن من يريد أن يتألق ويتميز، عليه أن يعمل جاهدًا في أن يكون مميزا، ويكون صاحب قدرة على العطاء، لا أن يُغرق الآخرين ويسيء إليهم. والقرآن الكريم يقول: إن الذي يستسيغ أكل لحم أخيه ميتًا، هو الذي يستهدف المؤمن ويشوه سمعته أمام الآخرين، لكي يصعد، ويأكل لحمه بعد قتله، لكي يعيش.

الدرس الثاني: أن الغيبة للمسلم وليس لغيره، لأنّ الآية الكريمة تقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، أي يجب ألّا يغتاب أحدكم الآخر، فالخطاب في الآية موجّه للمسلمين، ولأنّها تقول أيضًا: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾، والأخ لا يصدق على الآخر؛ لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»[1]، فالآخر ليس أخًا بل نظير في الخلق. ولهذا عندما تقول الآية« **أَخِيهِ**» فمعناه أن الخطاب في دائرة المسلمين، إذن فالغيبة موضوعة في دائرة المسلمين.

الدرس الثالث: أن الغيبة تصدق إذا كان المستغاب غائبًا، وسميت الغيبة من الغياب، يعني ذكر شخص غائب بسوء؛ لأنّه إذا كان موجودًا فلا تصدق الغيبة، وإنما تدخل الحرمة تحت عناوين أخرى، كالإساءة أو الإيذاء أو الفحش، وهي من الذنوب المعروفة الأخرى.

الدرس الرابع: كما أن الميت لا يمكن إحياؤه، فتشبيه الغيبة بأكل لحم الميت معناه أن الشخص الذي تستغيبه وتشوه سمعته وتكسره، لا تستطيع أن تتدارك ما قمت به لاحقًا، كالزجاج الذي ينكسر، فلا يمكن إعادته إلى سابق حاله، وكذلك إذا كسر

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٨٤، الرقم ٥٢.

القلب لا يمكن جبره وعودته إلى سابق حاله، فالغيبة تخلق فجوة حتى لو صفح الأخ المؤمن، ولكن يبقى الجرح لا يتماثل للشفاء.

الأدلة من السنّة

في عالم الروايات هناك اهتمام واسع وكبير بموضوع الغيبة، ويشعر الإنسان بالدهشة حينما يتصفح هذه الروايات ويرى عظم هذه القضية وأهميتها، وكم لها من أثر كبير في حركة الإنسان التكاملية نحو الله سبحانه وتعالى.

الرواية الأولى: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ الدرهم يصيب الرجل من الربا، أعظم عند الله** سبحانه وتعالى **في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل**»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضًا أنّه قال: «**إياكم والغيبة، فإنّ الغيبة أشد من الزنا، إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وانّ صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبه**»[2].

ويظهر من هذين الحديثين المباركين أن هناك نوعا من الارتباط بين الغيبة والربا، ففي الحديث الأول يقارن رسول الله صلى الله عليه وآله بين الربا والزنا، ويبيّن أن الربا أعظم إثمًا من الزنا، وفي الحديث الثاني يقارن صلى الله عليه وآله بين الغيبة والزنا، ويبيّن أن الغيبة أعظم جرمًا من الزنا؛ لأنّ الربا هو نوع من التلاعب بمال الإنسان، والغيبة هي نوع من التلاعب بعرضه وحيثيته وشخصيته. فدرهم من الربا أعظم في ذنبه من ست وثلاثين زنية، وليس معنى هذا أن الزنا ذنبه قليل، بل حرمة الزنا عظيمة جدًا، ولكن المشكلة فينا، إذ نقلل من خطورة الربا.

هناك ذنوب حرمتها لدينا واضحة جدًا كشرب الخمر والزنا، وهي خط أحمر، وهي بالفعل عظيمة الحرمة، وهناك ذنوب أخرى قد تضاهيها في العظمة وبمقدارها في الخطورة أو أشد منها، ولكننا لا نبالي بارتكابها، فمثلًا لدينا تساهل في التعامل بالمال، وتساهل في الغيبة، فقد يغتاب الإنسان ولا يدري أحيانًا أن هذه غيبة، وعندما ينبّه على ذلك يبرر سوء عمله ولا يستغفر الله من ذنبه، وكثيرًا ما يذكر بعضنا بعضًا بسوء في غيابه.

والربا أيضًا من هذه الموضوعات، مع أنّه من الذنوب العظيمة، وعندما يختلط المال الحرام بالمال الحلال ولو بنسبة واحد بالمائة، يصبح كله مشبوها ومالًا حرامًا، كقطرة النجاسة من الدم مثلًا، حين تقع في كمية من الماء لا تصل إلى الماء الكثير، تنجس الماء كله، فهذه القطرة تنتشر في الماء الطاهر وتنجسه، إلا إذا كان الماء كثيرًا، وذلك

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٢٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢٨٤، ح١٨.

بحث آخر. وهنا أيضًا لو اختلط درهم من المال الحرام بملايين من المال الحلال، فالكل يصبح مالًا مشبوهًا، ويجب أن يحذر الإنسان منه. ثم إنّ الدرهم من الربا يفوق في جرمه وخطره وتأثيراته السلبية في الإنسان ستا وثلاثين زنية، مع أنّ الزنا يحط من عرض المسلم وشخصيته وحيثيته وكرامته وخصوصياته. ولذا يجب أن ندرك عظم المعصية عندما نتعامل بدرهم حرام، وأنّه أعظم من التعامل مع عرض الإنسان.

وكذلك الزنا، فهو من كبائر الذنوب، ومن يرتكبه يتجاوز حقًا من حقوق الله ﷻ، فإذا تاب وعاد إلى الله ﷻ، فإنّه يتوب عليه وتنتهي القصة؛ لأنّه حق الله تعالى ويزول إذا صفح عنه، بينما صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبه؛ لأنّها ليست من حق الله تعالى، بل هي من حق الناس، ولا بُدَّ من أن يصفح عنك المستغاب. ولو أن الله تعالى غفر لنا ما هو حقه، فماذا سنفعل بحقوق الناس حتى يعفوا عنا ويتنازلوا عنها؟ لأنّ الله ﷻ فوضها للناس أنفسهم وجعلها بأيديهم، ولا يكفي فيها أن يستغفر الإنسان الله ﷻ، بل لا بُدَّ من طلب براءة الذمة من المستغاب نفسه، فإن أبرأ الذمة فالحمد لله، وإن رفض فلا بُدَّ من إرضائه، وإلا ستبقى الذمة مشغولة بهذا الذنب، ولذلك فالغيبة أعظم من الزنا كما أشار إليه الحديث الشريف.

الرواية الثانية: ورد في الروايات أيضا التأكيد على التعبير القرآني نفسه، في كراهية أكل لحم الأخ الميت، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه**»(١).

ويلاحظ أن أكثر روايات الغيبة مروية عن رسول الله ﷺ، وهو يعني أنّها أول الأمراض الأخلاقية التي بدأ الإسلام بمعالجتها، وهو يكشف عن خطورة هذا المرض الفتاك في المجتمع الإسلامي، بينما هناك روايات أخرى صدرت في وقت لاحق عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، في بعض مجالات العلاقات الاجتماعية لمعالجة ظواهر أخرى.

وقد تطرق رسول الله ﷺ في هذا الحديث المبارك إلى أربعة حقوق أساسية للمؤمن، تحدد الإطار العام الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإيماني، وهذه الحقوق هي:

أولًا: «**سباب المؤمن فسوق**»، أي يحرم سبّ المؤمن، وأنّ من يسبّه فاسق.

---

(١) الكافي ٢: ٣٥٩، ح ٢.

فالمجتمع الإيماني مجتمع خال من السب والشتم، وفي هذا الحكم إلزام للمسلم بتطهير لسانه من هذه الرذيلة، وما يتبعها من نتائج وخيمة على العلاقات الاجتماعية، واللجوء إلى وسائل أخرى من التعبير النظيف، الذي يؤدي إلى القضاء على كثير من المشاكل والتشنجات. وما زال مجتمعنا اليوم يعاني من استفحال هذه الظاهرة وتداعياتها الخطيرة، لتصل إلى درجة سبّ الخالق والدين والمذهب، وقد روجت لها فئات ضالة تريد محو قدسية الدين من نفوس المسلمين، منذ الغزو الثقافي الهائل الذي صاحب الغزو العسكري في بدايات القرن الماضي.

ثانيًا: «وقتاله كفر»، أي أنّ مجرد قتال المؤمن كفر، وإن لم يؤدِ ذلك إلى قتله، والكفر أشد من الفسق الذي يترتّب على سبّ المؤمن، لأنّ الكفر إخراج من الدين، بينما الفسق لا يستلزم الإخراج منه. فرفع السلاح في وجه المؤمن ومحاربته عمل محرم ويستتبع الخروج من الدين، سواء كان هذا السلاح باردًا كالسكين والسيف، أو حارًا كالمسدس والبندقية. ويؤكد هذا المعنى ما قاله زهير بن القين في يوم عاشوراء لمن جاء لقتال الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره،: «نحن وأنتم أمة واحدة ما لم يقع بيننا السيف، فإن وقع السيف فنحن أمة وأنتم أمة».

ثالثًا: «وأكل لحمه معصية»، أي يحرم غيبة المؤمن، وعبّر رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغيبة هنا بأكل لحم الإنسان، وهو التعبير القرآني نفسه عن الغيبة، وحكم عليها بأنّها معصية، يجب على الإنسان الإسراع إلى التوبة منها، لما يستلزمه الإصرار عليها من دخول النار.

رابعًا: «وحرمة ماله كحرمة دمه»، أي يحرم أكل مال المؤمن بالباطل، ويبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله أن حرمة مال المؤمن تساوي حرمة دمه، دفعًا للتصور الخاطئ أن حرمة المال أقل من حرمة الدم، فمن سرق مال المؤمن كمن قتله من حيث الذنب والمعصية والجريمة، ولا يُستثنى من ذلك سراق المال العام، إن لم يكونوا أعظم جرمًا؛ لأنّهم سرقوا مال المسلمين جميعًا.

ولا يُطلق تعبير (أكل لحم الميت) في ثقافتنا الدينية وموروثنا الروائي إلا على الغيبة، الأمر الذي يؤكد خطورة هذه المعصية وعظمها، باعتبار أنها تستهدف المؤمن الغائب الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه بسبب غيابه، فينكسر أمام الناس، كأنه ميت، فالغائب

يشبه الميت في هذا الجانب، إذ يشتركان في الغياب، ويشتركان أيضًا في عدم القدرة على الدفاع عن نفسيهما، فلذلك جاء هذا التشبيه.

الرواية الثالثة: ما رواه العلامة الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) في ذيل هذه الآية: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1]، إذ أورد رواية تهز المشاعر كثيرًا، يقول: «**نزلت هذه الآية في رجلين من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اغتابا رفيقهما، وهو سلمان، حين بعثاه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ليأتي لهما بطعام أيام المجاعة، فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال: ما عندي شيء، فعاد إليهما، فقالا: بخل أسامة، وقالا عن سلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة ـ أي مليئة بالماء ـ لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعندما دخلا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحمًا، قال: ضللتما، تأكلان لحم سلمان وأسامة**»[2].

يفضح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا الحديث المبارك رجلين من المسلمين، اغتابا أخوين مسلمين لهما وذكراهما بسوء، مع أنهما كانا يسعيان لخدمتهما، الأمر الذي آثار غضبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وامتعاضه، وأخبرهما بما يشاهده برؤيته البرزخية حقيقة ما كان عالقًا في أفواههما من بقايا خضرة اللحم، فاستغربا من ذلك وظنا أنّه يقصد بقايا الطعام الذي يتناولانه، ونفيا أنّهما أكلا لحمًا اليوم، فأنبأهما بأنّهما ضلاّ الفهم ولم يدركا مغزى ما يريده، فاضطر إلى كشف ما اطّلع عليه من حديثهما عن سلمان وأسامة وغيبتهما لهما. وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يريد أن يخبر هذين الرجلين بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد مكّنه من الاطلاع على ما يدور بينهما وغيرهما لو شاء من كلام، ويظنان أنّه لا علم لأحد بذلك، وأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُحطه بأقوالهما وأفعالهما سرًا. فنزلت الآية الكريمة في هذه المناسبة، لتبيّن حقيقة ما شاهده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وما أحسن ما قاله الشاعر:

وليس الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ ... ويأكلُ بعضُنا بعضًا عِيانًا

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢

(٢) مجمع البيان ٩: ٢٢٥.

آثار الغيبة

أولًا: الغيبة تأكل الحسنات

إنّ الغيبة تضيع العمل الصالح وتحرق الحسنات، وتبدد أفعال الخير التي يقوم بها الإنسان وتجعلها هباء منثورا، ويُعد هذا الأمر من أخطر العواقب التي يتعرض لها الإنسان، فهو لا يؤدي بصاحبه إلى التعرض للعقاب فقط، بل يمحق ما حصل عليه من الأجر والثواب. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الغيبة حرام على كل مسلم، وإنّها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»(١)، فكما تأكل النار الحطب وتحوله إلى رماد، فكذلك الغيبة تأكل الحسنات وتذرها قاعًا صفصفًا.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يُؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى، ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإنّي لا أرى فيه طاعتي. فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإنّي ما عملت هذه الطاعات. فيقول له: إن فلانًا اغتابك فَدُفعت حسناته إليك**»(٢).

تتحدث هذه الرواية الكريمة عن نقل الحسنات من الشخص المغتاب إلى حساب الشخص المستغاب، أي أن للغيبة ثمنًا باهظًا يدفعه الإنسان في يوم القيامة؛ عندما يجد ثواب أعمال صالحة قد ادّخرها لهذا اليوم، كيف ذهب مقابل كلمات نطق بها في الدنيا ضد مؤمن، للحط من قيمته وتشويه سمعته.

لذا علينا أن نكون حذرين جدًا في التعامل مع الآخرين، لئلا تذهب أعمالنا، ولا يبقى لنا غير الحسرات، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ثانيًا: الإخراج من ولاية الله

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته، ليسقطه من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان**»(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٥٧، ح٤٨.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢٥٩، ح٥٣.
(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٢٩٤، ح٢.

وفي هذه الرواية المباركة إخبار بأن الغيبة تشمل بالإضافة إلى ما يراه الإنسان بعينه من فعل سيئ لمؤمن، ما تسمعه أذناه فيرويه للآخرين، وتضيف هذه الرواية شرطًا لصدق الغيبة على ما يُنقل عن المؤمن، وهو قصد الإساءة إليه والحط من سمعته في المجتمع، وأما إذا لم يكن هذا القصد موجودًا، وكان نقل الإنسان لما يراه أو يسمعه عن المؤمن لسذاجة، أو لقصد آخر من المقاصد التي حددتها الشريعة في روايات أخرى فلا يُعد غيبة، كما مرت الإشارة إلى بعضها سابقًا. ثم تبيّن الرواية أثرًا خطيرًا جدًا، وهو أنّها تُخرج الإنسان من ولاية الله ﷻ، وتدخله في ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان؛ لأنّه يكون قد وصل إلى نهاية الخط بعمله هذا، ولا يحتاج بعدها إلى جهد آخر للإيقاع به وإضلاله.

ثالثًا: تضييع دين الإنسان

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه**»(1)، أي الغيبة تقضي على دين المسلم وتدمره بشكل سريع، كما يأكل المرض الخبيث المعروف بمرض الآكلة جوف الإنسان بشكل سريع. فالإنسان الذي يمارس الغيبة ويغفل عن نفسه قليلًا، سيفقد دينه ولا يستطيع استعادته بسهولة، ولهذا لا نتعجب عندما نرى أناسًا كانوا متدينين ثم فقدوا دينهم سريعًا بسبب الغيبة.

إنّ الغيبة والنميمة يحتّان الإيمان حتًّا كما يعضد الراعي الشجرة، فللغيبة الأثر السريع في زوال دين المسلم، كالشجر الذي تتساقط أوراقه سريعًا في فصل الخريف، حينما يهزها الراعي لتكون علفًا لقطيعه.

رابعًا: إحباط الأعمال

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**الجلوس في المسجد انتظار الصلاة عبادة ما لم يحدث. قيل: يا رسول الله وما يحدث؟ قال: الاغتياب**»(2).

يحث رسول الله ﷺ المسلمين على الدخول إلى المسجد وانتظار الصلاة إلى حين دخول وقتها، ويقول إن ذلك في حد نفسه عبادة، ولكنه يحذر في الوقت نفسه من آفة مهلكة تقضي على هذه العبادة، بل تهدد جميع عباداته كما مرَّ في روايات سابقة، إلا وهي الغيبة.

---

(1) الكافي ٢: ٣٥٧، ح١.
(2) الكافي ٢: ١٣٥، ح٧.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي، ثم يرتفع الحفظة بعمله له نور كنور الشمس، حتى إذا بلغ سماء الدنيا فيزكيه ويكثره، فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الغيبة، فمن اغتاب لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، أمرني بذلك ربي**»[1].

يشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله العمل الصالح في هذه الرواية بأشعة الشمس، أي هو نور يصعد إلى السماء، كما أن أشعة الشمس نور ينزل إلى الأرض، وقد قيض الله سبحانه وتعالى ملكًا في الطريق يسمى ملك الغيبة، ينظر في أعمال العباد فيرجع بعضها ويضربه في وجه صاحبه، وهي الأعمال الصالحة لأهل الغيبة، ويأذن لأعمال آخرين بالصعود، وهي الأعمال الصالحة لمن تنزهوا عن الغيبة.

خامسًا: حرمان المغتاب من دخول الجنة

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**تحرم الجنة على ثلاث: على المنان، وعلى المغتاب، وعلى مدمن الخمر**»[2]. يبيّن هذا الحديث الشريف الخطر الماحق لثلاث رذائل أخلاقية تحرم مرتكبيها من دخول الجنة، وهم:

أولًا: النمّام، وهو الذي ينقل الكلام السيئ من شخص إلى آخر، والنميمة مرض أخلاقي يصاب به بعض الناس، فيتلذذ بإثارة النزاعات والخصومات بين الناس، فيظهر الصلاح لهذا ويظهر الشفقة لذاك ليصدّقوا كلامه ويقع موقعه في القلوب، بعد أن يزيد في الكلام وينقص.

الثاني: المغتاب، وهو الذي يكشف عيوب المؤمنين ويظهرها للناس لتشويه سمعتهم، وهذا أيضًا ممن لا أمل لهم بدخول الجنة.

الثالث: مدمن الخمر، وهو الذي يصر على شرب الخمر ولا يترك تناوله استخفافًا بحرمته. ووضع مدمن الخمر إلى جانب النمام والمغتاب يعني أن له تصرفات تسيء إلى المجتمع، لأنّه فاقد لعقله الذي يستطيع به التحكم بسلوكه، وحينئذ لا يُؤمَن منه أي تصرف مشين يخل بالمجتمع.

سادسًا: سلب الإيمان من المغتاب

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا**

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢٤٦، ح٢٠.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٠، ح٦١.

المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»(١).

تبيّن هذه الرواية الشريفة أن المغتاب لا إيمان له، وهي تخاطب أهل الغيبة: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه**»، أي أنّهم ليسوا مؤمنين حقيقة، بل نطقوا بالشهادتين بألسنتهم حقنًا لدمائهم، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وطلب منهم أن يكفوا عن اغتياب المسلمين، ثم يطلب منهم ألّا يتتبعوا عوراتهم، فمن يفعل ذلك، فإنّ الله ﷻ يتتبع عورته ويفضحه على رؤوس الأشهاد ولو كان مختبئًا في زاوية من زوايا داره، وقد مر الحديث عن هذه الرواية سابقًا.

جزاء الغيبة في يوم القيامة

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ قال: «**من أكل لحم أخيه في الدنيا قرّب إليه يوم القيامة، فيقال له: كُله حيًّا كما أكلته ميتًا، فيأكله ويكلح ويصيح**»(٢).

تتحدث هذه الرواية الكريمة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث تتجسد الأعمال، فيؤتى بالإنسان المغتاب بحضور عام من الناس يوم المحشر، ثم يؤتى بالجسد الميت لمن اغتابه ويُطلب منه أن يأكله على رؤوس الأشهاد، فيضطر إلى أكله رغم كراهيته له؛ لأنّه لم يرعَ حرمة المؤمن في الدنيا، ولم يتدارك سوء عمله هذا، ويعترف أمام من اغتابه بما فعل ويطلب منه براءة الذمة، وضيّع الفرصة منه بسبب غيّه وتمرده على الخطاب الإلهي بتحريم الغيبة.

إذن فالصورة التي تتحدث عنها الآية الكريمة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، لم تكن مجرد تشبيه لبيان قبح الغيبة، بل هي الصورة الواقعية للغيبة في يوم القيامة، وهو مشهد من المشاهد التي لا يطيق الإنسان رؤيتها، فكيف إذا طُلب منه أن يفعل ذلك بنفسه ويأكل لحم أخيه ميتًا ؟.

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مررت ليلة أُسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون**

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢١٤، ح١٠.
(٢) مجمع الزوائد ٨: ٩٢.

الناس ويقعون في أعراضهم»[١]. تستعرض هذه الرواية الكريمة مشهدًا آخر من مشاهد يوم القيامة، وهو العذاب الذي يُعذب به المغتاب في الآخرة، وقد رأى رسول الله ﷺ هذا المشهد وسأل جبرئيل عنه، فأخبره أنّه العذاب الذي يُعذب الله ﷻ به أهل الغيبة في جهنم، وقد نقله لنا رسول الله ﷺ لكي نحذر من الغيبة ونبتعد عنها، فهل نحن منتهون؟.

وورد في رواية: «**أوحى الله ﷻ إلى موسى بن عمران أن المغتاب إذا تاب وقُبلت توبته، فهو آخر من يدخل الجنة، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار**»[٢]، وهذا يكشف عن حجم هذا الذنب وعظمته وتأثيره الكبير في حياة الإنسان ومصيره الأخروي.

حقيقة مدمن الغيبة

ورد في بعض الروايات أن مدمن الغيبة ليس بطيب المولد ولم يولد من حلال، وهذا الإدمان يكشف عن خبث المنبت.

فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**كذب من زعم أنّه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، فإنّها إدام طعام كلاب النار**»[٣].

يكشف هذا الحديث المبارك عن حقيقتين مهمتين بشأن أهل الغيبة، وهما:

أولًا: أن أهل الغيبة أولاد نطفة حرام، وليسوا أولاد حلال كما يزعمون.

ثانيًا: معنى أن الغيبة طعام كلاب النار، هو أن أهل الغيبة هم كلاب النار، لأنّهم أسوأ الناس، وأنّ حقيقتهم في جهنم أنّهم كلاب النار، ويتقوتون على لحوم الأموات.

وكما نرى في الحروب كثرة الولادات المشوهة خَلقيًا بسبب استعمال المواد المسرطنة والبيئة الملوثة، وكما أن البيئة المناخية الملوثة تنتج ولادات مشوهة، فكذلك البيئة الأخلاقية الملوثة تنتج حصيلة ملوثة أخلاقيًا، فلا يعني المنبت الحرام بالضرورة أن يتكون الولد من نطفة حرام، بل يمكن أن يعني أنّه تكوّن من أب وأم شرعيين، ولكنهما غير مهتمين بما يأكلان ويشربان، أمن حلال هو أم من حرام؟، وغير مهتمين أين يسكنان، أفي مكان مغصوب أم في مكان مباح؟، وحينئذ ماذا يتوقع من الطفل الذي سيولد من اللقمة الحرام أو في المكان المغصوب؟. فالتساهل في هذه الأمور يؤدي إلى أن تكون

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٢٢.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢٢٢.
(٣) بحار الأنوار ٧٢: ٢٤٨، ح١٣.

النطفة موبوءة، فتقع في مثل هذه المعاصي والذنوب. وقد يكون هذا المعنى هو أحد تفسيرات هذه الرواية الشريفة.

وسائل الغيبة

لا تقتصر الغيبة على ذكر المغتاب للآخرين بلسانه وتلفظه بكلمات تسيء إليهم، كما مرت الإشارة إليه في ثنايا الروايات السابقة، بل يتعدى ذلك إلى كل ما يفهم منه كشف عيوب الآخرين، ولو عن طريق استعمال الإشارة، أو الكتابة، أو الابتسامة، أو الكناية، كأن يقول كلامًا في بعض الناس الذين يلبسون اللون الأصفر مثلًا، أو هذا الذي قال كذا وكذا، أو تقاسيم الوجه، أو نبرة الصوت، أو النظرة بالعين، أو أي طريقة من طرق التعبير، تكون فيها إساءة للمؤمن المشخص الذي تعرفه الناس.

فعن عائشة تقول: «**دخلت علينا امرأة فلما ولّت ـ تعني خرجت ـ أومأت بيدي أنّها قصيرة. فقال** صلى الله عليه وآله: **قد اغتبتها يا عائشة**»[1]، فالإشارة باليد الى عيب ظاهر أو ما يعتبر نقصًا في العرف غيبة، ولا سيَّما أنّ القصر أو الطول أو اللون أو العرج وأمثال ذلك لا دخل للإنسان في إيجادها، وليست هي من الذنوب والمعاصي، ومع ذلك اعتبرها رسول الله صلى الله عليه وآله غيبة.

طريقة التخلص من الغيبة

كان رسول الله صلى الله عليه وآله عندما يريد أن ينتقد ظاهرة يتصف بها البعض يقول: ما بال قوم هكذا فعلوا أو هكذا قالوا، فلفظة «**قوم**» لا تتحدد بشخص معيّن، ولا تشير إليه، والمقصود منها علم الناس بوجود مثل هذه الظاهرة في المجتمع والتحذير منها، ولعل أصحابها يقلعون عنها عند إثارتها بشكل رسمي من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وورد في الحديث: «**كان رسول الله** صلى الله عليه وآله **إذا بلغه عن الرجل شيء صعد المنبر وقال: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا**»[2]، وهذا أسلوب غير مباشر لتنبيه الشخص المقصود، من غير الإشارة إليه من قريب أو بعيد، ومن غير أن يفهم أحد من الناس أن المقصود هو فلان، ويتضمن في الوقت نفسه نصيحة المسلمين بترك تلك الأعمال السيئة التي يتحدث عنها.

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٠٦.
(٢) انظر: بحار الأنوار ٧: ٢٢٩، ح٥.

حرمة الاستماع إلى الغيبة

الموضوع الآخر في الغيبة الذي يجب أن يحظى بأهمية فائقة، هو حرمة الاستماع إلى الغيبة، إذ كما يحرم على الإنسان أن يغتاب ويذكر الآخرين بسوء في غيابهم، فكذلك يحرم عليه أن يستمع إلى الغيبة، فسامع الغيبة شريك للمغتاب في الإثم.

فعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**السامع للغيبة أحد المغتابين**»(١)، والمقصود من سامع الغيبة هنا الساعي لسماعها، أو الساكت عند سماعها وترك وظيفته في الرد على المغتاب والدفاع عن المؤمن المستغاب.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**الغيبة كفر، والمستمع لها والراضي بها مشرك**»(٢)، أي أن المغتاب إنسان كافر خارج عن ربقة الإسلام عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن اعتبره أهل الدنيا مسلمًا، وأنّ المستمع لها والراضي بها مشرك حقيقة عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن اعتبره أهل الدنيا مسلمًا ، وأما من استمع إلى الغيبة ولم يكن راضيًا بها قلبه، ولكنه ترك العمل بوظيفته في الرد على المغتاب فلا يعد مشركًا، ولا شكَّ في أن المغتاب أشد جرمًا من المستمع الراضي بالغيبة، ولذا وصف الأول بالكفر والثاني بالشرك، كما جاء ذلك في الرواية المسندة عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «**والله إن الكفر لأقدم من الشرك وأخبث وأعظم**»(٣)، وأما تسمية المغتاب بالكافر، فلأنّه تمرد على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ وعمل بما حرّم، كما روي ذلك مسندًا عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا قال: «**من اجترأ على الله فأبى الطاعة وأقام على الكبائر فهو كافر**»(٤).

أما وجه تسمية مستمع الغيبة الراضي بها بالمشرك، فلأنّه عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأطاع الشيطان، كما ورد هذا المعنى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٥)، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يطيع الشيطان من حيث لا يعلم**»(٦).

وهذا ما يؤكد أن المسؤولية تقع على كل الجوارح وليس على اللسان فقط، ولا ينفع

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٢٦.
(٢) مستدرك الوسائل ٩: ١٣٣، ح٦.
(٣) الكافي ٢: ٣٤؛ ح٢.
(٤) الكافي ٢: ٣٨٤، ح٣.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٦) الكافي ٢: ٣٩٧، ح٣.

المستمع قوله: لم أتكلم ولم أنطق ببنت شفة، ولم أقصد سماع الغيبة وإنما وقعت اتفاقًا، لأنّه راضٍ بها، والراضي شريك في العمل، فالراضي بالظلم يعد شريكًا بالظلم، كما ورد ذلك في بني إسرائيل الذين كانوا في زمن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، واتهامهم بقتل الأنبياء، مع أن أجدادهم قبل مئات السنين هم الذين فعلوا ذلك، لأنّهم رضوا بذلك، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وكما أن لسان الإنسان محاسب على ما ينطق به، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2]، فكذلك سمع الإنسان مسؤول عمَّا يسمع ومحاسب عليه، فإنّ بعض الذنوب التي نُهي الإنسان عنها تتعلق بالأذن؛ كحرمة استماع الغناء مثلاً ، ففي الرواية: «**إنّ رجلا جاء إلى الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ فقال له: إن لي جيرانًا ولهم جوارٍ يتغنين ويضربن بالعود، فربما دخلت المخرج فأُطيل الجلوس استماعًا منّي لهم. فقال له عَلَيْهِالسَّلَامُ : لا تفعل. فقال: والله ما هو شيء أتيته برجلي، إنما هو سماع أسمعه بأذني؟ فقال الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ : أما سمعت الله عَزَّوَجَلَّ يقول:** «**إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** »؟ **فقال الرجل: بلى والله، فكأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من عربي ولا عجمي، لا جرم أنّي قد تركتها، وأنّي أستغفر الله. فقال له الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ : قم فاغتسل وصلّ ما بدا لك، فلقد كنت مقيمًا على أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك دون أن تستغفر وتتوب**»[3].

وقال الشاعر:

وسمعكَ صُنْهُ عن سماع القبيح   كصون اللسانِ عن النطقِ بهِ

وقد سمعت في أحوال الإمام السيد محسن الحكيم قُدِّسَسِرُّهُ، أنّه عندما يكون على المنبر في مجلس الدرس، وتمر سيارة في الشارع قد فتح صاحبها المذياع على موسيقى عالية، يشمئز ويتأوه ويقول: لا إله إلا الله، ثم يرجع فيكمل درسه،لذا ينبغي للمؤمن أن يصل إلى مستوى من القرب الإلهي، بحيث عندما يرى أو يسمع المعصية يشمئز منها.

وورد في رسالة الحقوق للإمام السجاد عَلَيْهِالسَّلَامُ قوله: «**وأما حق السمع فتنزيهه عن أن تجعله طريقًا إلى قلبك، إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيرًا أو تكسب خلقًا كريمًا،**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة ق، الآية : ١٨.

(٣) بحار الأنوار ٦: ٣٤، ح٤٨.

فإنّه باب الكلام إلى القلب، يؤدي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر، ولا قوة إلا بالله».

فالسمع طريق إلى القلب، فلا ينبغي للإنسان أن يعطي أُذنه إلا لما يحقق الاطمئنان لقلبه، كالنصيحة والموعظة والكلمة الطيبة وسماع القرآن، لأنّ السمع باب الكلام إلى القلب، فإنّ الإنسان إذا أراد الكلام مع قلبه، فإنّه من خلال الأُذن يوصل إلى القلب أنواع المعاني، ولكن الأذن لا تستطيع التمييز بين ما ينبغي أن تسمعه وما لا ينبغي أن تسمعه، فهي طريق لا أكثر للسماع، فيمكن أن تسمعها قرآنًا، ويمكن أن تسمعها موسيقى وأغاني، والعقل هو الذي يجب أن يتحكم بالسمع.

الفرق بين النهي عن الغيبة والردّ عليها

يقول الشيخ الأنصاري في كتابه الشريف المكاسب المحرمة في هذا الموضوع: «**والظاهر أن الردّ غير النهي عن الغيبة**»[1]، أي ردّ الغيبة غير النهي عن الغيبة، فالنهي عن الغيبة أن نأتي للمغتاب ونقول له: لماذا تغتاب؟ أليس هذا حرامًا؟ لماذا تهتك أعراض الناس؟ لماذا تكشف مناقص الناس ومثالبهم؟ وأما الردّ على الغيبة فالمراد به الانتصار للغائب الذي تمت استغابته بما يناسب تلك الغيبة، وإذا كانت الغيبة في ذكر منقصة لمؤمن، فالردّ هو دفاع في ردّ تلك المنقصة، والمنقصة تارة دنيوية كأن يُقال: هذا الحائر بلقمته أو هذا الذي ملابسه رثة، في إشارة إلى فقره، أو يقال: هذا الذي يلثغ بلسانه إشارة إلى نقص في تلفظه، فإن كانت المنقصة في أمر من أمور الدنيا من فقر أو عدم قدرة على إتقان العمل أو أي شيء من أمور الدنيا، فيجب الانتصار له بأن العيب ليس إلا ما عاب الله به، أي أن العيب حقيقة هو الذي يعيبه الله سبحانه وتعالى وينهى عنه، وهي المعاصي التي من أكبرها ذكرك أخاك بما لم يعبه الله به، فإنّ الله سبحانه وتعالى لم ينه أن يكون الإنسان أعور أو أعرج أو أصم أو يلثغ بلسانه، والدفاع أن نقول للمغتاب: لماذا تتكلم هكذا؟ فالعيب إنما هو الذي جعله الله عيبًا ونهى عنه، ومنه ذكرك الآخرين بسوء والنيل من قيمتهم ومقدارهم، هذا هو العيب الحقيقي، والعرج والعور وأمثالهما ليست عيبًا أو منقصة أو مثلبة، بل هو ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، والمفروض أن نقف معه وندعمه ونيسّر أمره ونتعاطف معه، فإنّ النقص في العضو ليس نقصًا في الشخصية الإنسانية، ولا ذنب للإنسان في وجوده، ولم

(١) المكاسب المحرمة ١: ٣٦٣.

يعبه الله ﷻ به، بل العكس هو الصحيح، فإنّ له الأجر العظيم لصبره على هذا البلاء وحسن تعامله معه.

وكذلك لا يعدّ عيبًا ومنقصة من قتر الله تعالى عليه رزقه وابتلاه بالفقر، فلا ينبغي أن يُنتقص من الإنسان لفقره ويقال مثلًا: لو كان فيه خير لعرف كيف يكسب المال، أو إنّه لا يعرف كيف يتاجر، وكيف يقال مثل هذا الكلام وعدد من أثرياء العالم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة، بينما هناك عدد من عقول الاقتصاد العالمية ومن أصحاب الشهادات العليا في الاقتصاد، حائرون بلقمتهم وقوت عيالهم، والله ﷻ يريد أن يقول إنّه هو الرزاق ذو القوة المتين، صحيح أنّه أمرنا أن ندخل البيوت من أبوابها ونتعلم صنعة لنكسب بها أرزاقنا، وأن نعمل وفقًا للقواعد الصحيحة، ولكنه وضع استثناءات، فهناك عقل اقتصادي كبير ينظّم اقتصاد دولة أو مدينة، ويقود تحولًا هائلًا وكبيرًا ليصل بها إلى صف الدول المتطورة اقتصاديًا، بينما هو في حياته الشخصية حائر بلقمة عيشه.

وأما إذا كان العيب عيبًا دينيًا، وكانت المنقصة في الدين لا في الدنيا، فعند اغتيابه يُدافع عنه بوجوه ومحامل تخرجه عن المعصية، كتارك الصلاة في أول وقتها، فيُدافع عنه بأن نقول: لعل ملابسه كانت غير طاهرة، أو لعله يحرص على الصلاة في بيته لسبب ما، وهكذا يبرر عمل المؤمن ويوجه موقفه بالشكل الذي يلائمه ويناسب مقامه، بحيث يكون ما يظهر منه غير معصية، فهذا دفاع عنه أمام الآخرين. وأما نهيه عن ترك فضيلة أول الوقت فيقال له : لا نقبل منك هذا الشيء، فأنت أخ مؤمن وقد تركت وقت الفضيلة، ويجب عليك المبادرة إلى الصلاة في أول وقتها.

ومثال آخر لو شوهد يكذب، فهنا يجب الدفاع عنه بأن يقال يحتمل أن يكون التقرير الذي قُدّم له كان خاطئًا، وقد تكلم على ضوء معطيات التقرير، أو توهم فقال شيئًا غير واقعي، ولكنه لم يقصد أن يكذب، والكذب ليس فقط بيان أمرخلافًا للواقع، بل هو تعمد بيانه خلافًا للواقع، ونحو ذلك، فنبحث عن مبرر لنوجه العمل بما يخرجه عن المعصية.

فإن لم يكن العمل يقبل التوجيه، اُنتصر له بأن المؤمن قد يُبتلى بالمعصية، فينبغي أن يُستغفر له ويُهتم به، لا أن يُعيّر به، ولعل تعييرك إياه أعظم عند الله من معصيته، وينبغي في مثل هذا أن نرفع أيدينا بالاستغفار له، ونصلي له ركعتين ونطلب من الله تعالى أن يهديه. وعلينا أن نهتم به وننصحه ونعالجه من هذا المرض الأخلاقي والنفسي، لا أن نجلس لنعيّره به، وحينئذ سيكون ذنب التعيير أعظم من ذنب المعصية نفسها.

إذن يجب ردّ الغيبة عن المؤمن في جميع الحالات، سواء كانت في أمر الدنيا أو أمر الدين، وسواء كان هذا العمل يحتمل التبرير أو لا يحتمل التبرير، فإن احتمل التبرير بررنا له ما صدر منه ما ظاهره خالف الشريعة، وإن لم يحتمل التبرير قلنا ضعفت نفسه وارتكب معصية، ونستغفر له وننصحه ونساعده، والمعصية مرض أخلاقي وروحي، والمرض الأخلاقي يحتاج إلى مساعدة في العلاج، وليس التعيير طريقًا للعلاج، وكذا ليس الهجران والابتعاد طريقًا للعلاج؛ لأنّنا حينئذ نساعده أكثر في الابتعاد عن طاعة الله ﷻ. ولهذا يجب ردّ الغيبة عن الأخ المؤمن على كل حال.

آثار ردّ الغيبة

عندما نراجع الروايات نرى أن هناك آثارًا إيجابية تترتب على نصرة المؤمن وردّ غيبته، وآثارًا سلبية تترتب على خذلانه وترك نصرته،من تلك الآثار الإيجابية:

الأول: الشمول بالنصرة الإلهية

إنّ من يردّ الغيبة عن أخيه المؤمن تشمله العناية الإلهية، وينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتيب عنده أخوه المؤمن وهو يستطيع نصره فنصره، نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة**»(1). وقد اشترطت هذه الرواية الشريفة القدرة على النصرة في وجوب ردّ الغيبة عن المؤمن ونصرته، ولكن ينبغي ألاّ يجعل ذلك ذريعة للتنصل من نصرة المؤمن؛ لأنّ مرجع ذلك في نهاية المطاف الذي يعلم ما تخفي الصدور وحقيقة الأمور.

وأما الأثر المترتب على النصرة هنا، فهو الحظوة بالنصرة الإلهية في الدنيا والآخرة، ومن نصره الله فلا غالب له. وهذا باب من أبواب الحصول على النصرة الإلهية على أعدائه في الدنيا والآخرة، فتحه الله تعالى لمن ينصر أخاه ويردّ عنه الغيبة، ولهذا ينبغي أن يغتنم الإنسان هذه الفرصة ليحظى بالعون اللامتناهي من الله القوي العزيز، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الثاني: دفع البلاء

ومن آثار ردّ الغيبة أيضًا أن الله ﷻ يدفع البلاء عن الرادّ، فعن الرسول الكريم ﷺ

(1) بحار الأنوار ٧٤: ٨٩.

قال: «**من ردّ عن أخيه غيبة سمعها في مجلس فردّها، ردّ الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا وفي الآخرة**»[1]. نلاحظ في هذا الحديث الشريف كسابقه، أن الجزاء يكون من جنس العمل، فالنصرة وإغلاق ألف باب من الشر يجانسان فعل الإنسان في ردّ الغيبة عن أخيه المؤمن، وليس هذا في الدنيا فقط، بل في الآخرة أيضًا، فالثواب الذي يتلقاه الإنسان على فعل الخير والمعروف غالبًا ما يكون أخرويًا، وفي بعض الأحيان يكون دنيويًا، ولكن هنا يكون الجزاء في الدنيا والآخرة معًا، الأمر الذي يدل على عظمة هذا العمل عند الله سبحانه وتعالى، وهو يوازي العقاب الشديد للمغتاب في الدنيا والآخرة.

الثالث: وجوب الجنة

ومما يحصل عليه الإنسان من ردّ الغيبة عن المؤمن هو حتمية دخول الجنة، فقد ورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من ردّ عن عرض أخيه المسلم وجبت له الجنة ألبتة**»[2]. والمقصود بالعرض هنا هو كل ما يمس كرامة المؤمن والنيل من سمعته.

وأما الأثر السلبي لترك ردّ الغيبة عن المؤمن، والتنصل من الدفاع عنه بوجه من يريد الحط من قيمته، هو الذل والهوان في الدنيا والآخرة، فقد ورد في تكملة الرواية الأولى: «**ومن خذله وهو يستطيع نصره، خذله الله في الدنيا وفي الآخرة**»، أي كما أن النصرة الإلهية تكون من نصيب من يردّ الغيبة عن المؤمن، فكذا هنا يكون الخذلان الإلهي في الدنيا والآخرة لمن ترك ردّ الغيبة عن المؤمن.

وورد في تكملة **الرواية الثانية** ذكر أثر غريب جدًا في من ترك ردّ الغيبة عن المؤمن؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فإن هو لم يردّها وهو قادر على ردّها، كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة**»، فالساكت عن الردّ مع استطاعته ذلك، عليه من الإثم والعقاب بمقدار سبعين ضعفًا من الإثم والعقاب على المغتاب. وهذا الكلام النبوي المقدس لا لمجرد التهديد والتهويل لمن ترك ردّ الغيبة، بل هو أثر لا محالة واقع؛ لأنّه صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[3]، كما شهد بذلك القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٦٤.
(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٤٧، ح٥٧.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

يقول الشيخ الأنصاري في بيان مغزى تضاعف العقوبة المذكور في هذه الرواية: «**ولعل وجه زيادة عقابه، أنّه إذا لم يردّه تجرأ المغتاب على الغيبة، فيصرّ على هذه الغيبة وغيرها**»[1]، لأنّ السكوت يطلق رسالة خاطئة للمغتاب ورسالة خاطئة للمجتمع، فالرسالة الخاطئة للمغتاب، أنّه قل ما تشاء في انتهاك أعراض المؤمنين والنيل من سمعتهم، بل وافعل ما يحلو لك، فإنّ أحدًا لا يتعرض لك ولو بكلمة عابرة أو نظرة غاضبة.

فإذا سُكت عن الغيبة تجرأ المغتاب أكثر فأكثر، حتى يصل به الأمر إلى أن يتجرأ على كل محترم ومقدّس، فيصبح الإنسان بسكوته وتركه الدفاع عن أخيه المؤمن، مشجعًا للمغتاب على مزيد من الغيبة والاعتداء على أعراض المؤمنين والنيل من سمعتهم. وبسبب هذه الثقافة الخاطئة نكون قد وجهنا رسالة للمجتمع أيضًا، لكي يمارس بالتدريج رذيلة الغيبة بعضه للبعض الآخر، وسنجد كل شخص ينال من الآخر وتكثر الشائعات واللغط، وحينئذ لن يسلم أحد، ولا تبقى لأحد قيمة ولا حرمة، لأنّ الجميع مستهدفون.

أسباب الغيبة

هناك موضوع شيّق آخر؛ وهو الأسباب والدوافع الكامنة وراء الغيبة، فنلاحظ في الآيات الشريفة التي تتحدث عن ردّ الغيبة، أنها تتحدث أيضًا عن سببين للغيبة؛ وهما سوء الظن والتجسس، فهذان الأمران يسببان الغيبة، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[2]، فعندما يبدأ الإنسان بإساءة الظن بشخص ما ويشك به، يتفعل عنده حب الاستطلاع، ويشرع بمراقبته وسؤال الآخرين عنه والنبش عن تأريخه لعلّه يجد مثلبة ما، بل يتعدى البعض إلى أبعد من ذلك؛ عندما يبحث عن عائلته وأقربائه وأصدقائه، لعلّه يجد بغيته المنشودة في تحطيم سمعة ذلك الشخص، بل لا يتورع البعض عن استعمال أخبث الأساليب، للإيقاع بالمؤمن وإغرائه في أمر سيئ، ليشوّه سمعته ويحط من قدره ومنزلته في المجتمع. فهل فوضه الله سبحانه وتعالى في أمر الجنة والنار؟ وهل سمح له بالتجسس على المؤمنين؟،

إنّ سوء الظن يحرك الفضول فيبدأ الإنسان بالتجسس، وبالعكس فإنّ التجسس يولّد سوء الظن، عندما يجد أخطاء على من يتجسس عليه، وأحيانًا لا يوجد شيء يقلل من قيمة الشخص، ولكن عندما يوضع تحت مجهر المراقبة تتبيّن أخطاؤه بشكل تدريجي،

---

(١) المكاسب المحرمة ١: ٣٦٢

(٢) سورة الحجرات، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

فيتولد سوء الظن به، فسوء الظن ينتج التجسس، والتجسس ينتج غيبة. والتجسس يعمّق سوء الظن، وسوء الظن العميق ينتج غيبة، وهكذا نرى هذه العناصر الثلاثة يرتبط بعضها بالآخر، ولذلك نرى التسلسل الرائع في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، فالخطاب موجه إلى المؤمنين وليس إلى الناس، أي أن هذا الحق من الحقوق الإيمانية. ولأنّ بعض الظن إثم، وحتى لا يقع فيه المؤمن، وسّع الدائرة وأمره بألاّ يظن بأخيه المؤمن سوءًا، وأن يظن به خيرًا ويحسن الظن به. فلم يسمح الشارع المقدس بالتجسس عليه، فهو بريء حتى تثبت إدانته، وليس مدانًا حتى تثبت براءته، هذه هي أحكام شريعتنا.

أما إذا كان هناك من هو في موقع خطير أو في مكان حساس، أو في مؤسسة أو جهاز أمني، وهناك معنيون بالمراقبة لدرء الضرر عن أمن المؤسسة أو أمن الدولة، وفي دوائر ضيقة ومهمات محددة، فذاك بحث آخر خارج عن محل كلامنا، نحن نتحدث عن علاقاتنا الإيمانية.

أما لو حصل سوء الظن من غير عمد، كما لو رأيت مؤمنًا في حالة مريبة، فتولد لديك انطباع أن هناك أمرًا ما، وحصل لديك خطور ذهني سريع ماذا يجب عليك أن تفعله؟، فهنا عليك المبادرة إلى الاستغفار، وأن تقول لنفسك: من المؤكد أنّه لم يقصد سوءًا، وتحسن الظن به.

ولكن لو تعمد الإنسان التجسس، فحصل له سوء الظن نتيجة لذلك فهو مأثوم، فإنّ الإنسان لو تعمد شيئًا باختياره، فدخل في أمر لا يستطيع الخروج منه وخرج عن اختياره فهو مأثوم، كمن قرر الانتحار، فصعد إلى بناية عالية بإرادته ورمى بنفسه، وفي لحظات السقوط إلى الأرض ندم على فعلته واستغفر الله، فلن ينفعه استغفاره في دفع المصير الذي ينتظره بعد لحظات، فهنا البداية كانت اختيارية، ولكنه في الأثناء خرج عن الاختيار، ففي هذه الحالة يكون مأثومًا أيضًا. فسوء الظن حينما يكون بمقدمات اختيارية، وإن كانت النتيجة غير اختيارية، ، يؤثم عليه صاحبه.

وأما إذا كانت البداية غير اختيارية، ولكن الاستمرار كان اختياريًا، كما لو كنت في الشارع فرفعت عينك ورأيت لقطة محرمة، كما لو رأيت امرأة تعرفها وقد نزعت حجابها، فهنا أنت معذور، ولكن الاستمرار بالنظر للتأكد هل هي المرأة التي تعرفها أو هي غيرها لا يجوز، وعليك أن تقول إن شاء الله ليست هي، وتستمر في طريقك ولا علاقة لك بأعراض الناس، لأنك لو عاودت النظر، فإنّ ذلك سيكون تجسسًا منك باختيارك.

موارد جواز الغيبة

متى يجوز أن نغتاب ونذكر الأخ المؤمن بسوء؟ ومتى لا يجوز ذلك؟. هناك بعض الموارد المحددة تجوز فيها الغيبة، فما هذه الموارد؟ ونحن نستعرض موارد جواز الغيبة، يجب أن نكون حذرين جدًا من الالتباسات التي قد تحصل من تدليس الشيطان، الذي يسعى إلى أن يصور أي حالة على أنّها من حالات الجواز، هذا هو الخطر الذي يواجه المؤمنين ويوهمهم بأن هذا المورد من موارد الجواز، حتى يغتاب بعضهم البعض الآخر، ويذكر بعضهم بعضًا بسوء.

وفي الوقت الذي نشير فيه إلى موارد الجواز، يجب أن نعرف أن هذه الموارد يجب الاقتصار فيها على الحد الأدنى، أي في حالة الشك في جواز هذا المورد أو عدم جوازه يجب الاحتياط والحكم بعدم الجواز، إذن علينا ألا نغتاب في موارد الشك، والضرورات تقدّر بقدرها، فالضرورة مثلًا تقول تجوز غيبة فلان، فيقتصر على مقدار الضرورة، وهو مثل الشراب المحرم الذي لا يجوز تناوله، ولكن يُشرب منه في حالة توقف العلاج عليه بمقدار الضرورة فقط، وكذا مثلًا في عدم جواز أكل الميتة، ولكن في حالة الإشراف على الموت من الجوع يجوز الأكل بمقدار الضرورة، أي ما يُبقي الإنسان على قيد الحياة.

المورد الأول : التظلم

والمقصود به هو الترافع إلى القاضي لحل النزاع الحاصل بين طرفين، فهنا يجوز لكل من الطرفين الإفضاء بشكواه إلى القاضي مع عدم حضور الطرف الآخر، وإن تضمن ذلك الغيبة وكشف ما هو مستور، لكي يعرف من نترافع إليه ونتحاكم عنده أين المشكلة ؟وماذا جرى؟ وأين الظلم؟، حتى يستطيع أن يصدر حكمًا ويرجع الحق إلى صاحبه.

ولكن عند التظلم يجب الاقتصار على بيان ما هو ضروري من الغيبة، أي المتعلق بالمسألة المتنازع عليها، وهو معنى أن تقدّر الضرورات بقدرها هنا. أي عند الذهاب للحاكم للتظلم واسترجاع الحق، لا يجوز أن تُذكر له أمور أخرى لا علاقة لها بموضوع التظلم، فمثلًا لو كان المتنازع عليه دارًا مغصوبة، فيقتصر على ذكر ما يتعلق بملكية هذه الدار، ومستند ذلك وكيف غُصبت ومتى غصبت، وأما أن يطرح موضوع أن الغاصب

أو مالك الدار يصلي أو لا يصلي، أو أنّه قد ارتكب القضية الفلانية، فهذا لا علاقة له بموضوع الترافع، وسواء علم به القاضي أو لم يعلم، فهو لا يؤثر في الملف القضائي المطروح، وبما أنّه لا يؤثر فإنّ القاضي حينئذ يكون حاله كحال أي مواطن آخر في هذا الموضوع، فيصدق عنوان الغيبة على ما هو خارج عن موضوع الترافع.

وهناك مسألة أخرى تتعلق بموضوع الترافع، وهي لو كان هناك أشخاص لا علاقة لهم بحسم المشكلة، ولكنهم كانوا جالسين في مجلس الترافع، كما يحصل ذلك كثيرًا في الدواوين العشائرية حيث يغص المجلس بالحاضرين عند فضّ النزاعات، فهنا لا تجوز الغيبة أمام هؤلاء، كما لا يجوز لهم الاستماع إليها أيضًا، ويجب على المتظلم في هذه الحالة أن يطلب إخلاء المجلس من الذين لا علاقة لهم بفض النزاع، لحرمة ما سينطق به أمامهم وحرمة الاستماع عليهم. إذن حتى في موارد الاستثناء، يكون جواز الغيبة في الترافع والتظلم حصرا أمام من نتظلم عنده، كما يجب على المتظلم الاقتصار على موضوع التظلم وعدم التطرق إلى مواضيع أخرى لا علاقة لها بموضوع الترافع.

وقد ورد في الرواية الشريفة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**ليّ الواجد بالدين يحل عرضه وعقوبته**»[1]. أي أن تماهل المدين الذي يملك المال الكافي في أداء دينه بعد حلول الأجل والمطالبة، يجيز للدائن غيبته أمام القاضي، ويجوز للقاضي حبسه ليجبره على أداء دينه. فهذا من موارد جواز بيان هذا المثلب والنقص وغيبته أمام القاضي ليحل مشكلته.

وورد في رواية أخرى أيضًا: «**مطل الغني ظلم، ولصاحب الحق مقال**»[2]. أي تباطؤ الغني في أداء الدين إلى صاحبه بعد حلول الأجل ومطالبة الدائن، ظلم يجوز معه للدائن أن يترافع إلى القضاء واغتياب المدين لاسترجاع ماله.

«**ولصاحب الحق مقال**»: أي يجوز لصاحب الحق أن يقول عندي حق عند فلان، ولكن أين يجوز له أن يقول ذلك؟ هل يشهّر بالقنوات التلفزيونية أو على صفحات التواصل الاجتماعي أو في الصحف والمجلات؟ أو يجب أن ينطق بمقاله عند من يستطيع أن ينتزع حقه؟. لا شكَّ في أنه لا يجوز إلا عند من بيده فصل هذه النزاعات وحل المشكلة، ولا يجوز التشهير به أمام الآخرين وفضحه على رؤوس الأشهاد، وهذا ما تشير

(١) بحار الأنوار ١٠٠: ١٤٦، ح٤.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢٣١.

إليه الآية الشريفة: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[1]، فإنّ الله ﷻ لا يحب أن يجهر الإنسان ويتحدث ويبيّن للناس كلاما فيه سيئة لأخيه المؤمن إلا للمظلوم، فمن حقة أن يجهر ويتحدث بسيئة المؤمن الذي ظلمه.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، أي هذا الذي حقق الانتصار لمظلوميته، فذهب وبيّن سيئة الآخر وشكاه، فأولئك ما عليهم من سبيل عند استغابتهم لمن ظلمهم لكي يستعيدوا حقهم، وهم لم يرتكبوا بذلك أي معصية لو استغابوا من ظلمهم للترافع والتحاكم. ولكن السبيل والمؤاخذة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المورد الثاني:

حالات الاستعانة بالغير لتقويم انحراف معين وردّ إنسان إلى الصلاح، كمؤمن يضرب زوجته مثلًا، ولا يستطيع ذووها حل مشكلتها، فيذهب أبوها إلى أبيه أو شيخ عشيرته أو إلى من يؤثر فيه أو إلى القضاء ليشكوه، فهنا تجوز غيبته وكشف عيبه أمام الشخص المعني بحلِ المشكلة. فإخبار الشخص المعني بمثالب المؤمن ليقوّم انحرافه ويصلحه أمر جائز أيضًا.

المورد الثالث:

في الاستفتاء والرجوع إلى المفتي لمعرفة الحكم الشرعي، كمن يذهب إلى المرجع أو وكيله ويكشف له عيب مؤمن ليحصل على حقه، كما لو غصب الأب حق ولده، أو غصب الأخ حقوق إخوانه في الميراث، فيستفتي للحصول على حكم شرعي يعينه على استرجاع حقه، فهنا تجوز الغيبة بما يقتصر على موضوع الاستفتاء. فإذا توقف الاستفتاء والوصول إلى الموقف الشرعي على تحديد الاسم أو الشخص فهنا تجوز الغيبة، وأما إذا أمكن الاستفتاء من دون تحديد الشخص فلا تجوز الغيبة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة الشورى، الآيتان: ٤١- ٤٢.

المورد الرابع:

تحذير المسلمين من شر أو ضرر معين، كما لو كان هناك مؤمن يحمل أفكارًا خاطئة، وكانت الناس تثق به لأنّه يرتدي العمامة، ولكنه عندما يرتقي المنبر يضل الناس ويتكلم بكلام خلاف العقائد الصحيحة، فهنا تجوز الغيبة وتحذير الناس منه، حفاظًا على سلامة عقائدهم.

ومثال آخر: لو كان هناك شخص يتظاهر بالإيمان وظاهر أخلاقه لطيف، ولكنه في الواقع فاسد ومنحرف، وهو يجامل الآخرين ليجرهم إلى الانحراف، والناس مخدوعة به، أو يتحدث بكلام جميل ويتعامل بلطف وينفق أمواله ضمن أجندة معينة وليس قربة إلى الله، بل يريد أن ينال من أبناء الناس ويورطهم في الدخول مع جماعات ضالة، فهنا تجوز الغيبة، بل تجب تعرية هذا الإنسان أمام الآخرين.

الغيبة السياسية

وهنا مسألة جديرة بالاهتمام، وهي هل هذه الأحكام التي نتحدث بها في الغيبة تقتصر على العلاقات الشخصية، أو تنسحب إلى العاملين في الحقل السياسي؟. في هذه الموارد يمكن أن نتلمس الموقف في كتب الأخلاق وفي الروايات.

أولًا: بما أنّه في زمان النص كان أئمتنا عليهم السلام في صف المعارضة، لم تكن هذه المسائل موضع ابتلاء عند أصحابهم ليسألوا عنها، لذا فالروايات خالية من ذكر هذا الموضوع.

ثانيًا: لم تكن في عصر الأئمة عليهم السلام أحزاب سياسية بالنحو المتعارف عليه اليوم، ولم تكن هناك قنوات إذاعية وتلفزيونية أو مؤتمرات صحفية، لذا لا يوجد بحث لهذه الحالة، وهي حالة الغيبة السياسية إذا صح التعبير. ولكن يمكن من خلال مجمل الروايات الواردة أن نستنطق هذه الروايات للوصول إلى الحكم الشرعي في الغيبة السياسية.

والمقصود بالسياسي هو الشخص الذي يتصدى للخدمة العامة، فإن كان إنسانًا صالحًا، فإنّ حفظه ليس حفظًا لنفسه فقط، بل هو حفظ للمشروع وحفظ للأمة، فإذا

كانت غيبة الإنسان العادي محرمة وفيها ما فيها، فإنّ غيبة السياسي السائر في الطريق الصحيح أشد حرمة؛ لأنّ كسر الإنسان العادي هو كسر لمواطن، وهو عظيم عند الله سبحانه وتعالى، ولكن كسر السياسي الصالح المتصدي هو كسر للمشروع الذي يمثله، وكسر للهوية التي يحملها، وسيحصل عند الناس شك في الدين، وهو أمر ذو آثار خطيرة. إذن فغيبة السياسي الصالح المستقيم أعظم عند الله من غيبة الإنسان العادي؛ لأنّه متصدٍ وصلاحه وهيبته وحسن ظن الناس به وارتباطهم به تجعل له موقعًا خاصًا.

وقد رأيت شهيد المحراب مرات عديدة يأتيه أناس ويطلبون منه براءة الذمة، فكان يقول لهم: أُبرئكم الذمة بقدر ما يتعلق الأمر بي أنا محمد باقر، فسألته عن قصده بكلامه هذا، فقال: أنا كشخص (محمد باقر الحكيم) أملك حق إبراء ذمة الآخرين عن نفسي، ولكني أحمل أيضًا موقعًا معنويًا ليس لي، وأنا لا أملك صلاحية إبراء الذمة عن الموقع؛ لأنّه موقع خدمة عامة وموقع تأثير في المسار الإسلامي، وهو ملك الإسلام.

لذلك فالسياسي حينما يكون سائرًا في الاتجاه الصحيح، تكون غيبته أعظم عند الله عزّ وجلّ، وإذا كان سائرًا في الاتجاه الخاطئ والعياذ بالله، فإنّه إذا كانت غيبة الإنسان العادي إذا شذ وانحرف جائزة، بل تكون واجبة إذا كان يجر الناس إلى الطرب أو يأخذهم ويعلمهم الحرام، فكيف الأمر بالسياسي المنحرف الذي هو في موقع خدمة عامة، ويمثل مشروعًا منحرفًا، ويؤثر في جمع غفير من الناس؟، فلا شكّ في وجوب غيبته وفضحه وتعريته أمام الناس، ليطّلعوا على حقيقة أمره ويقل خطره على الناس.

وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أترعوون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس**»[1]، أي أتعرضون عن ذكر الفاجر وتتحرزون عن ذلك ولا تفضحونه أمام الناس، لكي يحذروه ولا يتأثروا بفجوره، وتتركونه ينشر الرذيلة، وهو فايروس أخلاقي معدٍ في المجتمع، فهل تخافون على سمعة هذا الفاجر ولا تخافون على الناس من الانحراف؟.

المورد الخامس: ذكر المؤمن بلقب عُرف به ولا يشعر بالحرج منه، فهذا أيضًا من مستثنيات الغيبة، كلقب القصير والأخرس والطويل، فهي ألقاب لعوائل كريمة معروفة، ولا يشعر أفرادها بأي حرج عندما يُنادون بهذه الألقاب. وفي مقابل ذلك لو أُطلقت هذه الألقاب على أشخاص لا يُعرفون بها، وقُصد بها إيذاؤهم وهم لا يقبلون بذلك، كأن يُقال لإنسان قصير القامة فلان القصير، فهي من موارد الغيبة.

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٣٢.

فإذا كان اللقب من حيث المعنى اللغوي فيه بعض المثالب، ولكنه أصبح لقبًا مشهورًا لجماعة من الناس، وفي الوقت نفسه هم لا يُحرجون منه، ولا تُقصد به الإساءة عندما يُطلق عليهم، فلا يُعتبر غيبة.

المورد السادس: الغيبة في موارد المشورة، كمن يستشار في أمر التزويج، فيجب عليه الصدق والنصيحة لمن استشاره، ولو أدى ذلك إلى غيبة الخاطب أو المخطوبة. ولكن يجب الاقتصار على موضوع الاستشارة، وعدم التعدي إلى غيره، وإلا كان كل ما ليس له علاقة بالاستشارة من موارد الغيبة التي نهى عنها الإسلام بشدة وتوعد عليها بالعذاب الشديد.

وكذلك الاقتصار على مورد الاستشارة في تعيين شخص في وظيفة معينة، بأن يبيّن هل هو حاد أو معتدل أو بارد المزاج؟، وهل هو مواظب على الدوام أو غير مواظب؟، وهل هو أمين أو غير أمين؟.. وهكذا مما يتعلق بأمور الوظيفة.

والمستشار مؤتمن، فلا يجوز أن يشهّر به ويقال إنّه قال كذا وكذا في خصوص تزويج فلانة من فلان مثلًا، وإن لم يؤخذ بمشورته.

يقول الشيخ الأنصاري في هذا الموضوع: «**منها ـ أي من موارد استثناء الغيبة ـ نصح المستشير، فإنّ النصيحة واجبة للمستشير، فإنّ خيانته قد تكون أقوى مفسدة من الوقوع في المغتاب. وكذلك النصح من غير استشارة، فإنّ من أراد تزويج امرأة وأنت تعلم بقبائحها التي توجب وقوع الرجل من أجلها ـ أي هذه القبائح ـ في الغيبة والفساد، فلا ريب أن التنبيه على بعضها وإن أوجب الوقيعة فيها يجوز، لكن هذا أولى من ترك نصح المؤمن مع ظهور عدة من الأخبار في وجوبه**»(1).

وقد تطرق الشيخ الأنصاري إلى المشورة التطوعية، حين يبادر المؤمن من غير أن يُسأل إلى تقديم النصح، فمثلًا حين يرى شخص أن فلانًا يريد الزواج من فلانة، وهو يعلم أنه لا مستقبل لهذا الزواج وليس مجرد ظن، فيتدخل لبيان ما يعرفه عن قبائح الخاطب أو المخطوبة للحيلولة دون تورط هذه البنت العفيفة من ذلك الرجل الفاسق أو بالعكس، ثم يفتي الشيخ الأنصاري بأن هذا العمل أولى من ترك نصح المؤمن، بل هناك عدة من الأخبار في وجوبه.

---

(1) المكاسب المحرمة ١: ٢٥١.

فالشيخ الأنصاري يصرح بوجود عدد من الروايات يشير ظاهرها إلى وجوب النصح، إذا كانت هناك مفسدة تترتب على ترك الغيبة. فوجوب النصح أيضًا عنوان من العناوين التي نستطيع أن نعمّمها على الوضع السياسي، سواء مع طلب الاستشارة من الناس أو عدمه، فعندما نعلم أن هذا رجل منحرف أو حزب منحرف أو كتلة منحرفة أو مشروع منحرف، هنا تجب المبادرة، حتى مع عدم طلب المشورة، إلى غيبة هذا الشخص وبيان مثالبه، لما يترتب من المفاسد العامة على انتخابه أو تعيينه في الموقع الفلاني.

وفي الاتجاه الآخر، ربما كان هناك بعض الناس الذين لديهم انطباعات خاطئة عن شخص صالح أو حزب صالح أو تيار صالح أو جماعة أو كتلة صالحة، فهنا أيضًا تجب المبادرة، حتى مع عدم الاستشارة، إلى بيان صلاح هذا الشخص أو الحزب أو الكتلة ورفع الشبهة؛ لأنّ الدفاع عن هؤلاء هو دفاع عن المشروع الذي يحملونه إذا كانوا سائرين في الطريق الصحيح.

المورد السابع: استثناء أصحاب البدع من شمول الغيبة، وهم الناس المتصفون بالبدع والضلال والانحراف العقائدي، فهؤلاء تجوز غيبتهم لئلا تضل الناس وتنحرف بسبب بدعهم وضلالاتهم وانحرافاتهم.

وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «**إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي، فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم، كي لا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة**»[1].

وأهل الريب يعني أهل الشبهات، فهناك من دأبه إثارة الشكوك والشبهات ولا يجيب عنها، فيشكك الناس في دينهم وعقيدتهم، وكان الأجدر به أن يذهب إلى مجلس العلماء ويتحدث معهم عن تلك الشبهات ليطّلع على الجواب، لا أن يظهر على الفضائيات ويثير الشبهات بين الناس ويشكك الناس بعقيدتهم. والبدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، كأن يقول هذا حرام أو حلال وهو ليس بحرام أو حلال وهو يعلم بذلك.

وينبئنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن هؤلاء سيظهرون بعد وفاته، وواجب المسلمين حينئذ عدة أمور:

الأول: إظهار البراءة منهم علنًا أمام الناس، وهو يعني حرمة السكوت عنهم، ووجوب

---

(١) الكافي ٢: ٣٧٥، ح٤.

مواجهتهم مواجهة عنيفة، وذلك بأن يعلن المجتمع البراءة منهم، وما يستتبع ذلك من ترك معاملتهم وحضور مجالسهم وترك مجاملتهم وترك التزويج منهم وبهم، حتى يفيئوا إلى رشدهم ويتوبوا توبة علنية أمام الناس.

الثاني: الإكثار من سبّهم، لكي تسقط هيبتهم ويفقدوا منزلتهم الاجتماعية بين الناس، وليتجرأ عليهم الصغير والكبير.

الثالث: الإكثار من القول فيهم، أي إكثار الكلام فيهم والكتابة عنهم بشكل مستمر، لتعريتهم وكشفهم وفضحهم ما داموا متمسكين ببدعهم وضلالتهم، حتى يرجعوا عن غيّهم.

الرابع: الإكثار من الوقيعة فيهم، أي إعمال الحيلة للإيقاع بهم في المشاكل والمآزق.

الخامس: مباهتتهم، وذلك بذكر سيئاتهم وعثراتهم وأخطائهم ومثالبهم.

كل ذلك من أجل ألّا يطمعوا في إفساد الإسلام والمسلمين، ولا يتصوروا أن الإسلام كرة يلعبون بها كما يشاؤون. ومن أجل أن يحذرهم الناس ولا ينخدعوا ببدعهم وأباطيلهم و يتعلموا من بدعهم، فإنْ فعل المسلمون بهم ذلك، من فضحهم بالكلام ونشر أخطائهم وإيجاد الحواجز بينهم وبين الناس، كتب الله لمن يفعل ذلك بهم الحسنات ورفع له الدرجات في الآخرة. وهذا من الموارد التي يمكن أن تُشمل بها بعض التيارات السياسية التي تغوي الناس وتضلهم وتغرر بهم، وهو باب من الأبواب التي يمكن أن نطل منها على الغيبة في العمل السياسي.

المورد الثامن: المتجاهر بالفسق والفجور، وهو الذي يظهر فسقه وفجوره علنًا، كأن يقول أنا لا أصلي ولا أصوم، أو يشرب الخمر علنًا ويخرج وهو سكران أمام الناس، أو لا يتخفى من فعل المنكرات الأخرى، فمثل هذا الإنسان تجوز غيبته ولا حرمة له.

ورب معترض يقول: إن الغيبة هي كشف العيب المستور، وهذا متجاهر بالفسق والفجور، فلا يصدق عليه عنوان الغيبة أصلاً، فضلاً عن أن يكون من مستثنياتها. وقد اختلف علماء الأخلاق في عدّ هذا من مصاديق الغيبة.

ورد عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنه قال: «**ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر**»[١]. وورد عنه أيضًا قوله: «**ليس لفاسق غيبة**»[٢]. وورد أيضًا عنه

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢٨٩، ح٥.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٢٣٧.

ﷺ أنه قال: «**من ألقى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له**»[1].

كانت هذه مجموعة من الاستثناءات من حكم حرمة الغيبة، وهناك بعض الاستثناءات الأخرى، ولكننا ركزنا على الموارد التي هي محل ابتلاء، وفي هذه الموارد من جواز الغيبة، تجب الحيطة والحذر في ما إذا شككنا هل هذه من موارد الجواز أو لا؟.

وهناك ملاحظة أخيرة مهمة، وهي أن يكون هناك فعل يُعد من موارد الجواز المؤكدة، ولكن بيانه للناس فيه إشاعة للفحشاء، فيكون محرمًا من هذا الباب، كالمتجاهر في ممارسة الرذيلة، من الذين يصورون أنفسهم وينشرونها في مواقع التواصل الاجتماعي، فلا يجوز تعميمه ونشره على اليوتيوب مثلًا في صفحات أخرى، لا من باب حرمة غيبته، بل من باب منع إشاعة الفاحشة، فحتى البعض ممن تجوز غيبتهم، يحرم ذكر سيئاتهم للآخرين من باب منع إشاعة الفاحشة.

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٣٣.

الحق السابع

(إدامة نصيحة المؤمن)

الحق السابع من هذه الحقوق هو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ويديم نصيحته**»، فمن حق المؤمن على أخيه المؤمن النصح، وليس النصح وحده بل دوام النصح، أي ألّا يكتفي بنصحه مرة واحدة أو مرتين، بل يجب عليه أن ينصحه دائمًا، ومن النصيحة تشخيص مكامن القوة والخلل، فالمؤمن يكون تارة غافلاً وجاهلاً ويحتاج إلى من ينصحه ويوقظه من غفلته ويبيّن له الطريق، وأنّ الأمر الفلاني أنسب لدنياك وآخرتك. كأن يقول مثلاً إن المحل الفلاني أرخص في التسوق، والمكان الفلاني أحسن للسكن، والمنطقة الفلانية أفضل للتجارة، والمدرسة الفلانية لها ميزات كذا وكذا. وهكذا يمكن تزويد الأخ المؤمن بالمعرفة والمعلومات في كل أمر من الأمور، فإذا كان مريضًا ويريد الذهاب إلى الطبيب نقول له إن الطبيب الفلاني جيد جدًا ومجرب.

وتارة يكون المؤمن مخطئًا ويحتاج إلى من يصحح خطأه ويقوّم انحرافه، فيُنصح بأن يقال له: لا تفعل العمل الفلاني، وإنّ موقفك الفلاني لم يكن موفقًا، وكلمتك الفلانية لم تكن مناسبة، ولا تعمل الخطوة الفلانية، ويبيّن له عيوبها، وهكذا ينصحه في ترك أمثال هذه الأخطاء في أمر الدنيا والآخرة.

وتكشف النصيحة عن قضية باطنية داخلية يعيشها الإنسان الناصح، وهي حرقة القلب على الأخ المؤمن وعلى الآخرين، ومن معالي الأخلاق أن الإنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، وهذ تعبير عن سمو الأخلاق الخالي من الأنانية، بينما الأناني يريد الخير لنفسه فقط.

والجانب الآخر في النصيحة هو البعد الخارجي، فالاهتمام بالأخ المؤمن اهتمام بالمجتمع، والرغبة في أن يكون الآخرون على صواب، وعدم تحمل رؤية المؤمن يتعرض إلى انتكاسة أو منقصة أو مثلبة، فيذكره الآخرون بسوء.

يقول العلامة المجلسي في تعريف النصيحة: «**هي فعل أو كلام، يُراد بهما الخير للمنصوح، واشتقاقها من نصحت العسل إذا صفيته؛ لأنّ الناصح يصفّي فعله وقوله من**

الغش، أو من نصحت الثوب إذا خطته؛ لأنّ الناصح يلم خلل أخيه كما يلم الخياط خرق الثوب، والمراد بنصيحة المؤمن للمؤمن إرشاده إلى مصالح دينه ودنياه، وتعليمه إذا كان جاهلاً، وتنبيهه إذا كان غافلاً، والذب عنه وعن أعراضه إذا كان ضعيفًا، وتوقيره في صغره وكبره، وترك حسده وغشه، ودفع الضرر عنه وجلب النفع إليه، ولو لم يقبل نصيحته سلك به طريق الرفق حتى يقبلها، ولو كانت متعلقة بأمر الدين سلك به طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

يبدأ العلامة المجلسي ببيان أن النصيحة قد تكون بالفعل، كما إذا كان هناك شخص يرفع صوته في الكلام، فتؤشر له بيدك أن اخفض صوتك وتكلم بهدوء، وقد تكون النصيحة بالكلام. والهدف من النصيحة هو إرادة الخير للمنصوح، لئلا يرتكب خطأً أو يقع في شر. وأما إذا كانت الغاية من الفعل أو القول غير ذلك، كما لو أراد المتكلم جلب الخير لنفسه أو إبعاد الضرر عنها فلا يعد نصيحة.

ثم ينتقل العلامة المجلسي إلى بيان معناها اللغوي، وذلك بالرجوع إلى الأصل الذي اُشتقت منه، لكي يتوصل من خلاله إلى معناها الاصطلاحي، فيبيّن أن اشتقاق النصيحة إما من نصحت العسل إذا صفيته، ووجه التشابه أن الناصح يصفي فعله وقوله من الغش ومن أي مكر أو مكيدة. أو هي مشتقة من نصحت الثوب إذا خطته، فالخياط إذا خاط الثوب الممزق يقال نصحه أي أصلحه، ووجه الشبه أن الناصح يلم خلل أخيه كما يلم الخياط خرق الثوب ويخيطه لئلا تبدو عيوبه.

ثم ينتقل إلى بيان المعنى الاصطلاحي للنصيحة والمراد منها من خلال ذكر مصاديقها فيقول: والمراد بنصيحة المؤمن للمؤمن:

أولًا: إرشاده إلى مصالح دينه ودنياه، أي هدايته إلى ما فيه مصالح دينه، كإرشاده إلى فعل الطاعات والابتعاد عن المعاصي، وهدايته إلى ما فيه مصلحته الدنيوية أيضًا، كأن يرشده إلى إكمال دراسته أو تعلمه صنعة يعتاش منها.

ثانيًا: تعليمه إذا كان جاهلًا، أي تعليمه إذا كان لا يعرف ماذا يقول أو لا يدري ماذا يفعل.

ثالثًا: تنبيهه إذا كان غافلاً، وأما إذا كان يعلم ولكنه غافل، فيجب إيقاظه من غفلته،

---
(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٧.

وتنبيهه إلى الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يتحدث بها، أو الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يتعامل بها.

رابعًا: الذب عنه وعن أعراضه إذا كان ضعيفًا، أي إذا لم يستطع الدفاع عن نفسه وعن عرضه، فيجب الدفاع عنه ومساعدته بشتى الطرق في قول أو فعل أو سلوك، لدرء الخطر عنه وعن عرضه.

خامسًا: توقيره في صغره وكبره، ومن النصيحة أيضًا احترام المؤمن، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، فإنّ الآخرين عندما يرون هذا الاحترام والتقدير للمؤمن فإنّهم سيحترمونه أيضًا. وهذا يستلزم بالطبع ترك إهانته أو عدم المبالاة به، وتعويد الصغير على التوقير منذ صغره أمر مهم للغاية؛ لتكون هذه الخصلة الجميلة ملكة عنده ينشأ عليها ويتربى في كنفها.

سادسًا: ترك حسده وغشّه، فلا يجوز حسد المؤمن على نعمة خولها الله تعالى له، ولا يجوز أيضًا التعامل معه على أساس الغش، والوجه في أن ترك الحسد من النصيحة هو أن الهدف من النصيحة قصد الخير للمنصوح، بينما الحسد هو تمني زوال نعمة عن المحسود، لذا يكون ترك الحسد نصيحة، لأنّ الحاسد يقصد السوء له ولا يقصد الخير. وأما كون ترك الغش نصيحة فواضح؛ لأنّ من أراد غش غيره فهو لا يضمر له الخير.

ولترك غش المؤمن مصاديق كثيرة في حياتنا اليومية، فمن الغش له عدم نصحه في الموارد التي يحتاج فيها إلى النصيحة، بالرغم من أن في النصيحة ثقلا؛ لأنّ الناصح ربما خطر بباله عدم قبول نصيحته، وحينئذ سيدخل نفسه في أمر لا نفع له فيه، وكذلك هي ثقل على المنصوح؛ لأنّ النفس من الصعوبة بمكان أن تتقبل ما يوجه لها من نقد أو إرشاد. ولهذا يحتاج كل من الناصح والمنصوح إلى التوكل على الله سبحانه وتعالى في قول النصيحة وقبولها، والتعويل على سلامة النية من الطرفين.

سابعًا: دفع الضرر عنه، أي إذا تعرض المؤمن إلى ضرر فيجب إبعاد الضرر عنه. والوجه في أن دفع الضرر من النصيحة، هو ما قلناه من أن دفع الضرر عن المؤمن يستبطن قصد الخير له.

ثامنًا: جلب النفع إليه، فعلى المؤمن أن يسعى ما استطاع لجلب المنافع لإخوانه

المؤمنين، ولا سيَّما من أولئك الذين هم في موقع معين، سواء كان اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو إداريًا. وجلب النفع للمؤمن إنما يصدق قبل طلب الأخ المؤمن ذلك منه وحتى قبل أن يعرف به، وإلا دخل في عنوان وجوب قضاء حاجة المؤمن.

وبعد أن ينتهي العلامة المجلسي من تعريف النصيحة، ينتقل إلى موضوع آخر يتعلق بالنصيحة، وهو الإصرار على استعمال الرفق في سبيل قبول الطرف الآخر للنصيحة، وعدم الاكتفاء بالنصح كيفما اتفق واعتباره إسقاط تكليف لا أكثر، بل ينبغي الحرص على قبول الطرف الآخر للنصيحة، وذلك من خلال تكرارها في مناسبات متنوعة وبأساليب متنوعة، مصحوبة باللين والرفق والتودد، ويجب تحمّل الأخ المؤمن عند نفوره من قبول النصيحة للوهلة الأولى والثانية والثالثة؛ لأنّ قبول النصيحة يعني الاعتراف ضمنًا بالخطأ أو التقصير، وهذا أمر لا يرتضيه الإنسان لنفسه، ولا بُـدَّ لكل مؤمن من أن يوطن نفسه على قبول النصيحة وتجرعها مهما كانت مرّة، وهي أحد أمور ثلاثة يحتاج إليها المؤمن، منها قبول نصيحة من ينصحه، هذا إذا كانت النصيحة متعلقة بأمر الدنيا.

أما إذا كانت النصيحة متعلقة بأمر الدين، سلك به طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأسلوب الذي يميل إلى استعمال الشدة والقوة بشكل تدريجي، كما ورد ذلك في الحديث الشريف: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[1]، فالمؤمن هنا لا يختلف عن غيره في كيفية تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا وجدت الشروط المنصوص عليها في الكتب الفقهية.

منزلة النصيحة

وردت روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام في وجوب نصيحة المؤمن، وأنّها من حقوق المؤمن على المؤمن، وبيان منزلتها عند الله سبحانه وتعالى.

منها: ما رواه معاوية بن وهب عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب**»[2]، أي يجب نصيحة المؤمن في حضوره وعند غيابه أيضًا، سواء بالمراسلة أو الهاتف أو تكليف مسافر بأن يقول له كذا وكذا في أمر ما يخصه، والمهم أن يبقى طريق التواصل معه مستمرًا وإن كان غائبًا.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ١٩٢، ح٧.
(٢) الكافي ٢: ٢٠٨، ح٢.

ومنها: ما رواه جابرعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه**»[1]، فكما أن الإنسان حريص على نصح نفسه، فكذلك يجب عليه أن يكون حريصًا على نصح أخيه المؤمن، إذ مما لا ريب فيه أن الإنسان مهتم بشأن نفسه في جميع أحواله وأوقاته، في جلب النفع لها ودفع الضرر عنها، فكذلك يجب أن يكون لأخيه المؤمن.

ومنها: ما رواه السكوني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»**»[2]، وفي هذه الرواية المباركة توسيع لدائرة النصيحة لتشمل جميع خلق الله تعالى، وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأديانهم، والانتقال من الدائرة الضيقة لنصيحة المؤمنين فقط، إلى الدائرة الأرحب لتسع جميع البشر، والنصيحة لهم في أمور دنياهم ودينهم. أما النصيحة لهم في أمر دنياهم فواضح، وأما النصيحة لهم في أمر دينهم فهي هدايتهم إلى الإسلام الذي لن يقبل الله تعالى غيره من الإنسان دينًا في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]. ويستطيع المؤمن في هذا العصر الذي شهد ثورة في عالم الاتصالات، أن يسهم ماديًا أو معنويًا بإنشاء أو دعم القنوات الفضائية الموالية لمذهب أهل البيت عليهم السلام وبمختلف اللغات، لنصح الناس في ما ينفعهم من أمر دينهم ودنياهم، أو الاشتراك في منظمات الإغاثة الإنسانية في شتى مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فإن فعل المؤمن ذلك ولو بالطريق الفردي المتعارف، ومشى للناس جميعًا بالنصيحة في أمر دينهم ودنياهم، كان من أعظم الناس منزلة عند الله تعالى يوم القيامة.

ومنها: ما رواه سفيان بن عيينه قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه**»[4]، وقد أكدت هذه الرواية الشريفة ما ذكرته الرواية السابقة من تعميم النصيحة لجميع أفراد النوع الإنساني، وبيّنت بُعدًا جديدًا في النصيحة؛ وهو يجب أن تكون النصيحة لله عز وجل فقط، لا لشيء آخر، كحب الظهور أو حب التميّز أو

(١) الكافي ٢: ٢٠٨، ح٣.
(٢) الكافي ٢: ٢٠٨، ح٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٤) الكافي ٢: ٢٠٨، ح٦.

لبيان أنني أعرف وأنت لا تعرف أو أنني أفهم وأنت لا تفهم، فيجب عليك أن تسمع مني وتتبعني، فإن فعل المؤمن ذلك، فإنّه لن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ بعمل أفضل من خلوص النصيحة لجميع الناس بلا استثناء، وهو كلام خطير يحمل في طياته معاني كبيرة، لبيان عظمة منزلة النصيحة الخالصة لوجه الله تعالى، لا يجرؤ أحد على النطق بها غير المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي رواية أخرى عن عبد المؤمن الأنصاري قال: «**دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر وعنده محمد بن عبد الله بن محمد الجعفي فتبسمت إليه، فقال: أتحبه؟ قلت: نعم، وما أحببته إلا فيكم، فقال: هو أخوك، فملعون من غش أخاه، وملعون من لم ينصح أخاه، وملعون من حجب أخاه، وملعون من اغتاب أخاه**»[1].

يبيّن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية المباركة أن المتحابين في أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم إخوة بالأخوّة الإيمانية، وهي تساوق الأخوّة النسبية، كما ورد ذلك في الرواية الكريمة المروية عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه**»[2]، بل المؤمن أولى بالمؤمن من كل أحد، حتى من أبويه وأولاده ما لم يكونوا مؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾[3].

ثم يبيّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أن المؤمن إذا غش أخاه أو لم ينصحه أو حجبه وامتنع من لقائه أو اغتابه فهو ملعون، أي مطرود من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ومن لعنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُتب بين عينيه: آيس من رحمة الله، وحينئذ يكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[4].

بيان العيب من مصاديق النصيحة

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**من بصّرك عيبك فقد نصحك**»[5]، فالذي يفتح عين أخيه على عيوبه ويعرّفه بها وينبّهه عليها فقد نصحه، وكُتب عند الله تعالى في سجّل الناصحين.

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٢.
(٢) الكافي ٢: ١٦٦، ح٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٢.
(٥) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٩.

في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من أبان لك عيبك فهو ودودك**»[1]، أي صديقك الذي يحبك ويودّك، وليس هو من يسكت عنه ولا يبيّنه لك.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من بصّرك في عيبك، وحفظك في غيبك، فهو الصديق الصدوق فاحفظه**»[2]، أي أن الصديق المخلص والصادق في صداقته هو من كانت في خصلتان: الأولى: يجعلك ترى عيوبك، فينبّهك عليها لكي تسعى لعلاجها. والثانية: يدافع عنك في غيبتك، ولا يدع أحدًا يتعرض لك بسوء. ومثل هذا الصديق هو الذي يستحق أن تحافظ على صداقته وتتمسك به. وأما الصديق الذي لا يبصّر صديقه بعيوبه ولا يحفظه في غيبته، فلا يستحق أن تحافظ عليه وتتمسك به.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنما سمّي العدو عدوًا لأنّه يعدو عليك، فمن داهنك في معايبك فهو العدو العادي عليك**»[3]، يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام أولاً علة تسمية العدو عدوًا، فيقول إنما سمي كذلك لأنّه يعتدي عليك ويظلمك، وأما العدو الأشد عداوة للإنسان، فهو الذي يصانعه في عيوبه ولا يخبره بها، بل ويغشه ويبيّن له كذبًا أنّها محاسن، مع أنّه يعلم أنّها معايب.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**خير الإخوان أنصحهم، وشرهم أغشهم**»[4]، أي أن أفضل الإخوان هو أكثرهم نصحًا، وشرّ الإخوان وأسوأهم هو الذي لا ينصحك.

شروط النصيحة

إنّ للنصيحة شروطًا تجب مراعاتها حتى يصدق كونها نصيحة، هي:

الشرط الأول: أن يكون الناصح عاملًا بنصيحته، وإلا كان كما قيل: (طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلُ).

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٤.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٢.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٢٣٨.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كيف ينصح غيره من يغش نفسه**»[١]، وقال أيضًا: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**»[٢]. وقد مرّ الحديث عن هذا الموضوع في محاضرات سابقة.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من نصح نفسه كان جديرًا بنصح غيره**»[٣]، أي أن الإنسان الجدير واللائق بنصيحة الآخرين هو من يبدأ بنفسه أولًا فينصحها، وحينئذ ستكون نصيحته مؤثرة في الآخرين، وإلا فمن يستمع لنصيحة من لا يعمل بنصيحته، وأول ما سيقال له اعمل بنصيحتك أولًا، وقد قال الله سبحانه وتعالى بشأن هذا الصنف من الناس: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٤].

الشرط الثاني: أن تكون النصيحة فردية ومباشرة ومعزولة عن الآخرين، وإلا كانت هتكًا له وتشهيرًا به. فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**نصحك بين الملأ تقريع**»[٥]، فالنصيحة أمام الناس هي في الحقيقة ذم وإساءة وكسر لهذا الإنسان.

قبول النصيحة

إذا كانت النصيحة حقًا للمؤمن على المؤمن، فالاستماع إلى النصيحة وقبولها حق من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن أيضًا، فالمؤمن عليه أن ينصح، والمؤمن الآخر الذي يتوجه له النصح عليه أن يتقبل هذه النصيحة، فقد روى أبو العديس قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**يا صالح اتّبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتّبع من يضحكك وهو لك غاش، وستردّون على الله جميعًا**»[٦].

يبيّن الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية الشريفة ـ من خلال نصيحته أحد أصحابه ومن ورائه كل مسلم، بل كل إنسان؛ لأنّ الله تعالى جعلهم أئمة للناس كافة يجب عليهم اتّباعهم والاقتداء بهم ـ وجوب اتّباع الناصح وقبول نصيحته، ولو بلغت هذه النصيحة حدًّا لا يطيقه الإنسان فيبكي من شدة مرارتها، وعدم اتّباع من يضحكه ويؤنسه وهو له غاش

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٨٣.
(٢) بحار الأنوار ١: ١٩٩، ح٤.
(٣) موسوعة أحاديث أهل البيت ١١: ٣٦٨، ح٣١.
(٤) سورة الصف، الآية: ٣.
(٥) عيون الحكم والمواعظ: ٤٩٧.
(٦) وسائل الشيعة ١٢: ٢٤، ح١.

بسبب تركه النصيحة له؛ فإنّ الإنسان غالبًا ما يتّبع مواقف وآراء المجموعة الصغيرة التي يسمر معها ويقضي أوقات فراغه في الضحك واللهو معها، وهذه المجاميع الاجتماعية لا تهتم بما ينبغي أن يكون عليه صاحبها، بل هي تسعى وراء قتل الوقت بالراحة ولهو الحديث والضحك، ولا تبادر مطلقًا إلى تقديم النصح لأصحابها، ولا سيَّما إذا استلزم ذلك خدش مشاعرهم.

وهنا يأمر الإمام عليه السلام صالحًا باتّباع من يبكيه وهو له ناصح، وعدم اتّباع من يضحكه وهو له غاش، لأنّ الإنسان يتّبع من يريحه ويؤنسه ويسمعه كلامًا طيبًا، ولكنه في الواقع يغشه، ولا يريد له أن يتعرف على الموقف الصحيح وعلى السلوك الصحيح وعلى الكلمة الصحيحة، ولا يريد له أن يكون في حالة من الأداء الصحيح، فيبتسم له ويثني على سلوكه الخاطئ.

إن مثل هذا كمثل الذي يذهب إلى طبيب، فيخبره أنه معافى من كل مرض، في حين يأخذ السرطان منه مأخذه، فهنا لا يختلف اثنان على أن الطبيب غاش له، لعدم اطّلاعه على حقيقة مرضه وخطورته على حياته، وإن خرج المريض من عنده مسرورًا ضاحكًا. بينما يخبره طبيب آخر أنه مصاب بالسرطان وحياته في خطر، وعليه المبادرة إلى علاج نفسه، وهنا يتفق الجميع على أنّه ناصح له، وإن خرج المريض من عنده حزينًا باكيًا، ولا شكَّ في أن على المريض اتّباع الطبيب الناصح وعدم اتّباع الطبيب الغاش. وكذا الأمر في الأمراض الأخلاقية التي يصاب بها الإنسان، إذ عليه أن يتّبع من ينصحه وإن أبكاه، وعدم اتّباع من كان له غاشًا وإن أضحكه.

وسيعلم كل إنسان يوم القيامة، عندما تنكشف الأوراق وتتبيّن الحقائق، من كان له ناصحًا ومن كان له غاشًا، فيندم على ما كان منه من التفريط في اتّباع الناصح وعدم قبول نصيحته، ويندم على اتّباع من كان له غاشًا، ويقول: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولا﴾(١)، ولكن لات حين مندم.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**أحب إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي**»(٢)، يعبّر الإمام الصادق عن بيان العيب بالهدية، وأنّ أحب إخوانه إليه هو من أتحفه

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٨.
(٢) الكافي ٢: ٦٣٩، ح٥.

بهذه الهدية النفيسة، وهي تعريفه بعيوبه، والإمام عليه السلام منزّه عن العيوب؛ لأنّه مصنوع بعين الله تعالى، طهّره من الدنس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، ولكنه عليه السلام يريد منا أن نقبل النصيحة، وأن يكون أحب إخواننا إلينا هو من ينصحنا ويبصّرنا بعيوبنا، لأنّه عندما يفعل ذلك يكون قد أتحفك بهدية تفتح عينك وتعرف من خلالها مواطن الخلل، لكي تعالجه وتتكامل وتتطور أكثر فأكثر، وكلما تطور الإنسان صبّ ذلك في نفعه لا في نفع الناصح، فهو لا يُدخل في كيسه شيئًا، والمستفيد هو المنصوح الذي سيتخلص من الوقوع في الخطأ في القول أو الفعل أو السلوك أو التعامل مع الآخرين. لذلك يجب علينا شكر من يقدّم لنا عيوبنا؛ لأنّ ذلك بمثابة الهدية لنا، بل أنفس الهدايا، وبسببه سيحتل المرتبة الأولى بين الإخوان في قلوبنا.

ومما جاء في قبول النصيحة أيضًا، قول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يستغني المؤمن عن ثلاث خصال: توفيق من الله عزّ وجلّ، وواعظ من نفسه، وقبول من ينصحه**»[2]. يبيّن الإمام الصادق عليه السلام حاجة المؤمن الملحة إلى ثلاث صفات ينبغي أن توجد فيه ،هي:

الأولى: توفيق من الله عزّ وجلّ، لذا يجب على المؤمن أن يطلب التوفيق والتسديد من الله عزّ وجلّ في كافة أقواله وأفعاله، لأنّ كل عمل يقوم به الإنسان بلا توفيق إلهي هو كرمية بلا سهم، لا يمكن أن تصيب هدفها، وكهواء في شبك لا يجني منه صائده شيئًا، وكقابض على الماء فيخرج من فروج أصابعه. لهذا كان الأنبياء عليهم السلام يعولون على التوفيق الإلهي في نجاح مشاريعهم والوصول إلى أهدافهم، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾[3]، لأنّ الله سبحانه وتعالى عندما يوفق يجعل البركة في العمل، فيؤثر أثره المرجو منه.

الثانية: واعظ من نفسه،هناك صنفان من الناس: صنف ينسى نفسه ويحتاج إلى من يُنبّهه بشكل مستمر، وهناك صنف آخر يتصف بمراجعة نفسه ومحاسبتها في ما تلفظت به من أقوال أو ما ارتكبت من أفعال، فيعرف أن الكلمة الفلانية مع فلان كانت جيدة، وكلمته الأخرى لم تكن جيدة، وأنّه سيترتب عليها آثار سيئة،

(١) سورة الأحزاب، الآية : ٣٣.
(٢) وسائل الشيعة ١٢ : ٢٥، ح٣.
(٣) سورة هود، الآية : ٨٨.

أو أن أداء العمل الفلاني كان رديئًا، وينبغي أن يكون بالشكل الفلاني، وهكذا فهو لا تمر عليه ليلة إلا وحاسب نفسه، فيلوم نفسه على الخطأ. وهذا لطف من الله تعالى ونعمة يعطيها للإنسان، فتكون عنده الجرأة والشجاعة ليراجع نفسه ويعترف بأخطائه، فيستغفر الله سبحانه وتعالى منها ويعاهده على عدم العودة إليها.

الثالثة: وقبول من ينصحه، فيقبل النصيحة ممن ينصحه، وهذا أيضًا لا يقدر عليه كل شخص، فهو يحتاج إلى شجاعة أيضًا، إذ ليس من السهل على الإنسان أن يعترف بالخطأ، بل هو ميّال إلى التبرير الذي هو من أوسع أبواب الشيطان.

حق الناصح والمستنصح

ورد في رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام: «**حق المستنصح أن تؤدي إليه النصيحة، وليكن مذهبك الرحمة له والرفق به. وحق الناصح أن تلين له جناحك، وتصغي إليه بسمعك، فإن أتى بالصواب حمدت الله عز وجل، وإن لم يوافق رحمته ولم تتهمه، وعلمت أنّه أخطأ ولم تؤاخذه بذلك، إلا أن يكون مستحقا للتهمة**»[1].

يبيّن الإمام عليه السلام في هذه الرواية المباركة وجود حق لكل من المستنصح، وهو طالب النصيحة، والناصح، وهنا إشارة لطيفة؛ وهي أن الإنسان هو الذي يجب عليه أن يطلب النصيحة ممن هو أهل لتقديم النصيحة، كأن يكون صاحب عقل أو صاحب تجربة، والمنصوح قد يكون مستنصحًا فيطلب النصيحة من الناصح، وقد لا يكون كذلك،فلا يطلب النصيحة من الناصح، بل الناصح هو الذي يبادر إلى تقديمها للمنصوح.

أما حق المستنصح فهو أن تؤدي إليه النصيحة، أي على الناصح أن يقدّم النصيحة لمن يطلبها منه، ثم يأمر الإمام عليه السلام الناصح بأن يستعمل الرحمة والرفق عند تقديم النصيحة، أي يجب عليه ألاّ يكسره، فلا يقول له مثلًا: لقد أخطأت، لأنّه حينئذ سيستفزه بهذا الكلام، ويجعله في موقف المخطئ أو الجاهل، وربما سيكبر ذلك في نفسه ويمنعه من قبول النصيحة، بل يجب أن يقول له قولًا ليّنًا كأنّه يسأله مثلًا، أو يقدّم له اقتراحًا، أو يقول له لو تفكر بالعمل الفلاني لكنت محقًا، أو إنّي أرى لو كانت القضية الفلانية معي لتمنيت أنّي لا أفعلها، أوإنّي أخبرك بكذا وأنت فكر بالموضوع، وغيرها من التعابير التي لا يشعر معها بالحرج، حتى يستطيع أن يتخذ القرار الصائب.

(١) وسائل الشيعة ١٥: ١٧٨، ح٢.

وأما حق الناصح على المستنصح فهو أن يلين له جناحه، أي يتواضع له ولا يتكبر عليه؛ لأنّه قد أتاه بنفسه طالبًا منه النصيحة، ويشكره على أن قدّم له النصيحة، فإن وافقت النصيحة الصواب وجاءت بالمرجو منها، فعلى المستنصح أن يحمد الله ﷻ، وإن لم توافق الصواب وأخطأت المرجو منها، فعلى المستنصح أن يرحم الناصح، لأنّه بذل مجهوده وأفرغ وسعه في تقديم النصيحة بما يعرفه. ولا يجوز له أن يتهمه في نصيحته بأنّه أراد خداعه، ولا أن يؤاخذه ويعاتبه بأن ما نصحه به لم يكن صحيحًا، اللهم إلا إذا تيقن بأنّه خدعه ولم يصدق معه في النصيحة وكان خائنًا له، فلا تعبأ بأمره إلا أن يكون مستحقًا للتهمة.

طاعة المناصح

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**مناصحك مشفق عليك، ناظر في عواقبك، مستدرك فوارطك، ففي طاعته رشدك، وفي مخالفته فسادك**»[1].

يوضح أمير المؤمنين عليه السلام في حكمته العلوية هذه بُعدًا جديدًا من أبعاد النصيحة، وهو أن المناصح ـ وهو كثير النصح ـ يحمل ثلاث خصال حميدة للمنصوح، ربما لا نجدها عند كل ناصح، فإنّ الناصح يصدق على من قدّم النصيحة ولو مرة واحدة، ولكن المناصح هو الذي يكرر النصيحة المرة تلو الأخرى، إلى أن ينقذ المنصوح مما هو فيه، وهذه الخصال هي:

أولًا: الشفقة على المنصوح، وهي ناشئة من حب الناصح للمنصوح، وفرحه إن حصل له خير، وحزنه إن وقع في شر، وحرصه على جلب المنفعة له ودفع المكروه عنه. وتصدق هذه الحالة كثيرًا في نصيحة الأنبياء لأممهم والآباء لأولادهم.

ثانيًا: النظر في عواقب أمور المنصوح، فالمنصوح ولا سيَّما من كان في عمر المراهقة والشباب، لا ينظر إلى عواقب الأمور في ما يقدم عليه من أعمال، بسبب قلة تجاربه في الحياة، بينما من عركته التجارب وتقدم في العمر يهتم بالنظر في عواقب الأمور وخواتيمها، ولا يكتفي بالنظر إلى المنافع أو الأضرار الآنية العاجلة فقط.

ثالثًا: استدراك ما فرط به المنصوح، فالمناصح حريص على استدراك ما فات المنصوح من منافع مادية أو معنوية بسبب تفريطه في أداء أو إتقان عمله، وهو

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٨٩.

يريد بنصيحته أن تكون الأمور في وضعها الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه بعد أن ضيّعها المنصوح، مثل أن يكون المنصوح قد فقد سمعته الطيبة التي ورثها من عائلته بسبب أصدقاء السوء، فيقوم المناصح بنصحه في ترك هؤلاء الأصدقاء والاستعاضة عنهم بأصدقاء آخرين من ذوي السمعة الطيبة.

ثم يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام نتائج قبول ما يقوله المناصح، وهي أمران:

الأول: في طاعته رشدك، أي أن المنصوح يبلغ مرحلة الرشد والكمال باتّباع الناصح، ويخرج من مرحلة القصور والتقصير.

الثاني: في مخالفته فسادك، أي إذا خالف المنصوح الناصح في ما نصحه به، فسيؤول أمره إلى الفساد والضياع، ولا يستطيع بعدها تدارك ما فاته، بسبب تضييعه للفرصة التي وضعها أمامه الناصح، وحينئذ لا مفر من الأخذ بنصح الناصح.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قوله: «**طوبى لمن أطاع ناصحًا يهديه، وتجنب غاويًا يرديه**»[1]، أي هنيئًا لمن يصغي إلى نصيحة من ينصحه ويعمل بها؛ لأنّ في ذلك هدايته إلى طريق الصواب، وإنقاذه من مصير أسود ينتظره إن هو عصاه ولم يتنبه إلى ما يقوله له. وهنيئًا لمن تجنب غاويًا وضالًا يريد أن يوقع به ويجره إلى طريق الانحراف والرذيلة، واستطاع أن يميّز بين من يريد أن يهديه ومن يريد أن يضله ويغويه، وإن ظهر الاثنان بمظهر الناصح.

أهل البيت أنصح الناس

وهناك حكمة لطيفة لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة يقول فيها: «**نحن ـ بنو هاشم ـ أفصح وأنصح وأصبح**»[2]، أي أن محمدًا وآله الطاهرين هم أفصح الناس لسانًا، وتراثهم الموجود بين أيدينا هو خير دليل على ذلك، وقد اعترف بهذه الخصلة لهم المعاند قبل الموافق، والعدو قبل الصديق. وهم أنصح الناس لخلق الله، لا يدخرون جهدًا حتى في المبالغة بنصيحة أعدائهم فضلًا عن أوليائهم، وكتب السير والتأريخ والحديث مليئة بالشواهد على ذلك. وهم أيضًا أصبح الناس وجهًا؛ لأنّ نور الله يتلألأ من وجوههم المقدسة، وقد نقل هذه الحقيقة كل من نظر إلى وجوههم، كما نقلته كتب

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣١٣.
(٢) نهج البلاغة ٤: ٢٨، الحكمة ١٢٠.

السير والمناقب في حكاية صورهم. وإذا كان أهل البيت عليهم السلام هم أنصح الناس، فعلى الناس اتّباعهم.

النصيحة والحجة البالغة

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**قد نُصحتم فانتصحوا، وبُصّرتم فأبصروا، وأُرشدتم فاسترشدوا، فلله الحجة البالغة**»(١).

يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحكمة الكريمة، أن الحجة البالغة لله سبحانه وتعالى تتمثل في ثلاث مراحل:

الأولى: النصيحة، وقد تقدّم الله عز وجل بالنصيحة لخلقه عبر كتبه السماوية وأنبيائه المرسلين، بل بالغ لهم في النصيحة، فعزّز المرسلين بالأنبياء، وعزّز الأنبياء بالأوصياء، فلم يخلُ عصر من العصور منهم إتمامًا لحجته عليهم، لئلا يقول الناس يوم الحساب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾(٢). وما على الإنسان إلا أن يقبل بما نصحه الله تعالى به ويطبق ما جاء فيه ليكون من الناجين.

الثانية: التبصير، أي أن الله سبحانه وتعالى يبصّر عباده بما ينفعهم وما يضرهم، ببيان وافٍ وواضح لا لبس فيه ولا غموض. كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾(٣)، فما على الإنسان إذا جاءته البصائر إلا أن يستبصر.

الثالثة: الإرشاد، وهي المرحلة الأعلى في إقامة الحجة البالغة لله سبحانه وتعالى على عباده، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(٤)، فرجاء الوصول إلى الإرشاد الإلهي يكون بعد طي مرحلتي الإيمان والاستجابة لله تعالى في ما أمر ونهى.

محبة الناصح

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليكن أحب الناس إليك المشفق**

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٦٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

الناصح»[1]، ليكن أحب الناس اليك وأقربهم منك، الذي ينبهك على الأخطاء والإشكاليات، تمسَّك به فهو الذي ينفعك؛ لأنه يذكرك دائمًا بالصواب، ولا تأخذك حالة النرجسية وتتوهم أنك تعرف كل شيء، وأنك لا تخطئ، فكلنا خطاؤون، لذلك علينا أن نبحث عمن يكون شجاعًا وجريئًا ويصارحنا بأخطائنا.

سُنن النصيحة

الأولى: «**من خالف النصح هلك**»[2]، أي أن نتيجة العمل بما خالف النصيحة هو الهلاك، وليس الندم على فوات فرصة فقط ؛ إذ بالنصيحة يتدارك الإنسان ما فاته، ولكن إذا فاتته النصيحة فلن يتداركها.

الثانية: «**من عصى نصيحه نصر ضده**»[3]، أي من لم يطع من ينصحه، فهو بشكل تلقائي يكون قد نصر الغاوي الذي هو ضد الناصح.

الثالثة: «**من نصحك فقد أنجدك**»[4]، أي من نصحك فقد ساعدك وأنقذك، فعندما يشب حريق في بيت إنسان، يحتاج إلى من يهب لمساعدته ونجدته لإطفاء الحريق، ولا يستطيع صاحب الدار أن يقول لهذا المنجد لا أحتاج إلى مساعدتك والنار تلتهم عياله وأمواله، والنصيحة كذلك، فلا بُـدَّ من قبول النصيحة وعدم التهاون في الأخذ بها، إذا صدرت من ناصح مشفق وكانت في محلها.

الرابعة: «**من قبل النصيحة أمن من الفضيحة**»[5]، أي أن قبول النصيحة يدرأ عن الإنسان الفضيحة ويجعله في مأمن منها، لأنّه قد جعل نفسه في حصن حصين يمنع عنه وصول الفضيحة إليه. وهنا مقابلة في معادلة لا تقبل التخلف، أحد طرفيها النصيحة والطرف الآخر الفضيحة، فمن لا يقبل النصيحة فعليه توقع وقوع الفضيحة بين الفينة والأخرى، فيحل به الخزي ويلبس لباس الذل.

الخامسة: «**من أكبر التوفيق الأخذ بالنصيحة**»[6]، أي أن قبول النصيحة والعمل بها ليس نجاحًا فقط، بل هو من أكبر النجاح، وعدم قبول النصيحة أو قبولها وعدم

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ٣٢٨١. غرر الحكم: ح٣٤٩٤.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٩.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٧.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٩.
(٥) غرر الحكم: ح ٨٤٣، موسوعة أحاديث أهل البيت ١١: ٣٦٨، ح٢٩.
(٦) عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٢.

الأخذ بها من أكبر الخذلان والخسران. فالنجاح والتوفيق في الوصول إلى الأهداف المنشودة مقرونان بقبول النصيحة، والفشل والخذلان مقرونان بعدم قبول النصيحة وترك العمل بها.

السادسة: «**من أمرك بإصلاح نفسك فهو أحق من تطيعه**»[1]، التقابل هنا بين الآمر بالنصيحة، وإطاعة المنصوح، وإنّ أحق الناس بالطاعة وأجدرهم بها وأولاهم بالاتّباع هو من ينصحك؛ لأنّه يريد نفعك وإبعاد السوء والشر عنك، من غير أن يدخل في كيسه شيء في عالم الدنيا. وفي مقابل ذلك فإنّ أحق الناس بالعصيان والتمرد هو من غشك بترك نصحك، وعدم المبالاة بالمصير الذي سيؤول إليه أمرك.

السابعة: «**من أقبل على النصيح أعرض عن القبيح**»[2]، والتقابل هنا بين الإقبال على النصيحة الذي هو إقبال على الأمر الحسن والجميل، والإعراض عنها الذي هو إقبال على الأمر القبيح، فمن اتّجه نحو النصيحة كان في الوقت نفسه معرضًا ومبتعدًا عن القبيح؛ لأنّهما على طرفي نقيض.

الثامنة: «**من استغش النصيح غشيه القبيح**»[3]، والتقابل في هذه الحكمة هو نقيض التقابل في الحكمة السابقة، فمن غش الناصح وتظاهر بقبول نصيحته وأضمر عدم العمل بها، سيكون مآله وعاقبته أن يغشاه القبيح كما تغشي أمواج البحر الهائجة من يسبح في غمراتها فتغرقه، فالعمل بالنصيحة في الواقع هو طوق النجاة الوحيد الذي يستطيع الغريق أن يتشبث به ، وإلا كان مصيره الهلاك لا محالة، ولا ينفعه حينئذ لوم نفسه أو الندم على تفريطه في الأخذ بقول الناصحين.

التاسعة: «**من أعرض عن نصيحة الناصح أحرق بمكيدة الكاشح**»[4]، الكاشح هو الذي يغوي الإنسان بأسلوب خادع ليّن، ظاهره الشفقة والرحمة وباطنه الحيلة والنقمة، وهو كما قال الشاعر:

يُعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ عنكَ كما يروغُ الثعلبُ

والتقابل هنا بين نصح الناصح ومكيدة المخادع، ومن لم يقبل بالنصيحة وقع في المكيدة، فالإنسان بين خيارين لا ثالث لهما؛ إما اتّباع الناصح بصدقه وصراحته

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٤١.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٦١.
(٣) غرر الحكم: ح٧٧٤٣، ميزان الحكمة ٤: ٣٢٨١.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٩.

لما فيه خيره وصلاحه، أو الوقوع في شباك مكيدة المخادع بكذبه ومكره لما فيه فساده وهلاكه.

العاشرة: «**مرارة النصح أنفع من حلاوة الغش**»[1]، التقابل هنا بين مرارة النصيحة وحلاوة الغش والخديعة، وتجرع المرارة صعب عسير، وتذوق الحلاوة سهل يسير، والإنسان بطبعه ميّال إلى سلوك الطريق السهل، متنكب عن الطريق الوعر. وفي هذه الحكمة بيان أن النصيحة على مرارتها، أنفع للإنسان من الغش على حلاوته، بل في حلاوة الغش السم الزعاف، فكم من إنسان خدعته حلاوة العسل فقتله السم الذي دُسّ فيه، وكم من إنسان أحيته مرارة الحنظل من مرض خبيث يعتريه.

الحادية عشرة: «**لا خير في قوم ليسوا بناصحين ولا يحبون الناصحين**»[2]، فالخير كل الخير في الأمة الناصحة التي ينصح بعضها بعضًا، والشر كل الشر في الأمة التي تترك النصيحة ويغش بعضها بعضًا. والخير كل الخير في الأمة التي تحب الناصحين وتقدسهم وتضعهم في محل الصدارة والقيادة، والشر كل الشر في الأمة التي لا تحب الناصحين وتتركهم وراءها ظهريًا في زوايا التهميش والإقصاء. ومن أين يأتي الخير لأمة لا تتناصح بينها ولا تحب ناصحيها؟.

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: «**نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى، ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرًا، فإن استقمتم هديتكم، وإن أعوججتم قوّمتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن؟ وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها. اللهم قد ملّت أطباء هذا الداء الدوي، وكلّت النزعة بأشطان الركي، أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولِهوا ولَهَ اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفًا زحفًا وصفًا صفًا؟ بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون عن الموتى، مُره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام،**

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٨٩.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٥٣٥.

ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك هم إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم. إن الشيطان يُسني لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة، فاصدفوا عن نزغاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، واعقلوها على أنفسكم»(١).

تحتوي هذه القطعة المباركة من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في أهل الكوفة، وصفًا لحواريي رسول الله صلى الله عليه وآله الذين آمنوا حقًا، وجاهدوا بين يديه صدقًا، فقتلوا وقُتلوا، ثم يتشوق إليهم ويبث لوعته على فراقهم. وفي كلامه هذا تعريض لأنصاره الذين خذلوه في ساعة الحسم في ميدان القتال في معركة صفين، عندما انشق آلاف منهم وأجبروه على قبول التحكيم، ثم ها هم اليوم يعترضون عليه بشأن ذلك. ثم يحذرهم عليه السلام الفرقة والاختلاف، فإنّهما من دسائس الشيطان الرجيم، يريد من بعدهما الفتنة، ويحذرهم من إملاء الشيطان لهم ووساوسه ونفثاته. ثم يطلب منهم قبول النصيحة ممن يهديها لهم، وأن يحبسوها على أنفسهم. وقد كانت هذه الخطبة قبل واقعة النهروان، ولكنها لم تنفع معهم، وأسلسوا قيادهم إلى الشيطان حينما اجتمعوا لحرب أمير المؤمنين عليه السلام، فقُتلوا عن بكرة أبيهم، وخسروا الدنيا والآخرة؛ لأنّهم لم يقبلوا نصيحة أنصح الناس لهم، ولو قبلوها وعملوا بها لربحوا دينهم ودنياهم، ولكن أضلهم الشيطان بمكره، وكانت عاقبة أمرهم إلى الخسران المبين.

---

(١) نهج البلاغة ١: ٢٣٤، الخطبة ١٢١.

الحق الثامن

(حفظ خلة المؤمن)

الحق الثامن من الحقوق الإيمانية هو حفظ خلّة المؤمن، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يحفظ خلته**»، أي على المؤمن أن يحفظ مودّة أخيه المؤمن، وأن يكنّ له المحبة والمشاعر المرهفة والعواطف الصادقة، فمن حق المؤمن على المؤمن أن يتعامل معه بحب وودّ وتقدير واحترام.

هذه السمة من السمات المهمة التي يجب أن توجد في قلب المؤمن ومشاعره تجاه المؤمن الآخر؛ لأنّها أُخوّة إيمانية أساسها الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان برسوله الكريم صلى الله عليه وآله، والإيمان بأهل البيت عليهم السلام.

فالمحبه لله ولرسوله ولأهل البيت تمتد لتشمل الأخ المؤمن، وحينما يحبه ويوده يكون خليله، فالخلة من الخليل.

ومعنى «**ويحفظ خلته**» أي يجب على المؤمن أولاً أن يحب أخاه المؤمن، ثم يثبت على هذه المحبة، والثبات على المحبة متوقف على وجود المحبة نفسها.

خلة المؤمن في الروايات

هناك روايات كثيرة وردت في هذا الباب تؤكد أهمية هذه المحبة والمودة والخلة بين المؤمنين، نستعرض بعضًا منها:

ورد ت في كتاب وسائل الشيعة، باب وجوب حب المؤمن وبغض الكافر ـ وكما نعرف فإن الحر العاملي وهو من كبار فقهاء الإمامية، يضع عنوان الأبواب من الفتوى التي يستنبطها من الروايات في ذلك الباب، وهنا يستنبط وجوب حب المؤمن وبغض الكافر، وحرمة بغض المؤمن وحب الكافر ـ هذه الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الرجل ليحبكم وما يعرف ما أنتم عليه فيدخله الله الجنة، وإنّ الرجل ليبغضكم وما يعلم ما أنتم عليه فيدخله الله ببغضكم النار**»[1].

---

(١) وسائل الشيعة ١٠: ١٧٦، ح١.

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة سعة كرم الله سبحانه وتعالى، وعظم منزلة أتباع أهل البيت عليهم السلام، بحيث أن من يحبهم من غير أن يعرف ما هم عليه من الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام، يدخله الله تعالى الجنة، وكذا يدخل من يبغضهم النار وإن لم يعلم ما هم عليه. وهذا الحديث يستبطن مفهومًا مهمًا، وهو أن من يحب أهل البيت عليهم السلام، وإن لم يعرف ما هم عليه يدخل الجنة، وأنّ من يبغضهم وإن لم يعرف ما هم عليه سيدخل النار. وأما من يحب أهل البيت عليهم السلام وهو عارف بحقهم، ويحب أتباع أهل البيت وهو عارف بما هم عليه، فهو من أهل الجنة وإن لم يكن منهم. وكذا سيدخل النار لا محالة من أبغض أهل البيت عليهم السلام وهو عارف بحقهم، ومن أبغض أتباعهم وهو عارف بما هم عليه من الهدى. وأما من نصب لهم العداوة وهو عارف بحقهم فهو في الدرك الأسفل من النار.

في رواية أخرى عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما التقى مؤمنان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لأخيه**»[1]، فالمعيار في الأفضلية هو حب المؤمن لأخيه المؤمن، وتتفاوت درجات المؤمنين بتفاوت حب بعضهم للبعض الآخر، والأفضلية هنا هي عند الله سبحانه وتعالى، ولكن الرواية هنا تقصر هذه الأفضلية في حالة اللقاء بين المؤمنين، وكأنّ الأفضلية تختلف باختلاف الحالات. وعلى كل حال فقد بيّنت الرواية الشريفة العلاقة بين الإيمان والحب على أساس الأخوّة الإيمانية، ولم تجعل معيار الأفضلية هذا خارج حدود الدائرة الإيمانية.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أيّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصوم، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لكلٍّ فضل، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله**»[2].

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك أن للإيمان عرى عديدة، ولكن العروة الأوثق هي الحب في الله. ونرى رسول الله صلى الله عليه وآله يستعمل أسلوب وطريقة السؤال والجواب، ليركز هذه المعلومة في الأذهان، وهذا منهج في التعليم؛، لأنّه صلى الله عليه وآله يعلم

(١) الكافي ٢: ١٢٧، ح١٥.
(٢) الكافي ٢: ١٢٥، ح٦.

أن ما سيقوله معلومة جديدة لم يتعلمها المسلمون من قبل ولا تخطر في بالهم، ونرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد استعمل هذا المنهج في كثير من الموارد التي جمعتها الموسوعات الروائية.

فأوثق عرى الإيمان هو الحب في الله؛ لأنّ هذا الحب في الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي الثبات للإنسان، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**وهل الدين إلا الحب**»[1] ينبغي للإنسان أن تتحرك مشاعره على وفق الموازين الإلهية، وهي الحب في الله، والبغض في الله، وتولي أولياء الله، والبراءة من أعداء الله، والتولي والتبري وجهان لعملة واحدة وحقيقة واحدة، فلا يمكن لإنسان أن يحب شخصًا ويحب عدوه أيضًا في آن معًا، لأنّ كل واحد منهما نقيض الآخر، ولا يمكن أن يجتمع نقيضان في آن واحد ومكان واحد. ولذلك فالتولي دائمًا هو الوجه الآخر للتبري، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، ويخطئ من يتصور أنّه يستطيع أن يجمع بين ولاءين لعدوين متعارضين؛ فعلامة الحب هي البغض للنقيض، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّه يحب أهل البيت عليهم السلام ويحب قاتليهم، كما نرى ذلك ممن يشيعون هذه الثقافة الساذجة بين المسلمين بقولهم: سيدنا معاوية حارب سيدنا عليًا، وسيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين،هو مجرد كلام سفسطائي لا واقع له، وخدعة مفضوحة لا يتقبّلها إلا السذج من الناس.

وفي رواية أخرى عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له**»[2]، يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا معيار التدين والالتزام بالدين، وأنّه الحب في الله والبغض في الله، ومن لم يكن كذلك فلا دين له.

وعلى ضوء هذا الميزان نستطيع أن نعرف حينئذ من هو المتدين حقًا ومن هو مدّعي التدين، وليس للمتدين أن يحب من يشاء ويبغض من يشاء على أساس آخر غير هذا المقياس المذكور، والمتدين الحقيقي هو الذي يجعل العقيدة تتحكم بمشاعره، فيحب من أراد الله أن يحبه، ويبغض من أراد الله أن يبغضه، هذه هي حقيقة الدين؛ لأنّ الدين التزام وليس مجرّد ادّعاء، وليس مجرد أفكار نؤمن بها بالقلب ونخالفها بالسلوك، وحتى نعرف أنّا متدينون حقًا يجب أن نرى هل تنطبق عقيدتنا مع سلوكنا وأفعالنا، فإذا انطبقت فنحن متدينون، وإلا يجب أن نشك في ديننا وفي التزامنا.

---

(١) الكافي ٨: ٨٠، ح٣٥.
(٢) الكافي ٢: ١٢٧، ح١٦.

وعن فضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من حب الرجل دينه حبه لإخوانه**»[1]، يطرح الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة معيارًا وميزانًا في معرفة حب الإنسان لدينه، فحب الإخوان من الدين، ولا يمكن أن يكون للإنسان التزام ديني ويكون محبًا لدينه، وهو لا يحب إخوانه المؤمنين، ومن محبة الإنسان لإخوانه نكتشف مدى التزامه وحبه لدينه.

وعن ابن أبي نجران قال: «**سمعت أبا الحسن** عليه السلام **يقول: من عادى شيعتنا فقد عادانا، ومن والاهم فقد والانا، ومن أبغضهم فليس منا... إلى أن قال: من ردّ عليهم فقد ردّ على الله، ومن طعن عليهم فقد طعن على الله؛ لأنّهم عباد الله حقًا وأولياؤه صدقًا، والله إنّ أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر**»[2]، يبيّن الإمام عليه السلام في هذه الرواية منزلة أتباع أهل البيت عليهم السلام، ردًّا على حملة مسعورة من أعداء آل محمد والناصبين لهم العداء، التي ما زالت مستمرة إلى يومنا الحاضر، وخلاصة هذه الدعوة أن أهل البيت شيء وأتباعهم شيء آخر، وأنّهم لا يمثلونهم وليسوا منهم ولا على منهجهم، وإنما هم يتسترون بحب أهل البيت تمريرًا لآرائهم الضالة وعقائدهم المنحرفة التي أخذوها من اليهودية تارة ومن المجوسية تارة أخرى، ولذلك يزعم هؤلاء النواصب أنّهم من يحب أهل البيت حقيقة، لا هؤلاء الروافض الذين يستحقون الذبح والقتل الجماعي بالعبوات والمفخخات. وهي دعوة أكل عليها الدهر وشرب، لا يملك القوم غيرها لتبرير جرائمهم البشعة بحق شيعة أهل البيت عليهم السلام عبر القرون المتمادية.

ومن هنا فقد تصدى الإمام عليه السلام بنفسه ليضع الموازين القسط في نصابها، لئلا يعدو الباطل على الحق، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فبيّن حقيقة منزلة أتباع أهل البيت عليهم السلام، وأنّ من عاداهم فقد عادى أهل البيت، ومن والاهم فقد والى أهل البيت، ومن أبغضهم فليس من أهل البيت. ثم ينتقل إلى مرتبة أعلى في بيان درجتهم فيقول عليه السلام: «**من ردّ عليهم فقد ردّ على الله، ومن طعن عليهم فقد طعن على الله**». فهل هناك منزلة أعظم من هذه المنزلة؟.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام العلة التي من أجلها حصلوا على هذه المرتبة الرفيعة، وهي أنّهم عباد الله حقًا وأولياؤه صدقًا، فمن كان سلوكه سلوك الولاء لأهل البيت عليهم السلام، ومن كان التشيّع لعلي وآل علي يسري في دمائه وينعكس على أفعاله ويظهر في أقواله،

---

(1) وسائل الشيعة ١٦: ١٧٩، ح٨.
(2) بحار الأنوار ٦٥: ١٦٧، ح ٢٥.

فهو من عباد الله حقًا وأوليائه صدقًا. ثم يقسم الإمام عليه السلام بالله سبحانه وتعالى لبيان الكرامة التي حباهم الله تعالى بها يوم القيامة، ولا يفعل الإمام عليه السلام ذلك إلا لبيان أمر خطير، قد لا يتعقله السامع لأول وهلة فيقول: «**والله إنّ أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر**»، أي يشفع الفرد الواحد منهم لشعب بأكمله فيدخله الجنة لو شاء ذلك؛ لأنّ العرب كانوا آنذاك ربيعة ومضر.

وعن ابن فضال عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**من والى أعداء الله فقد عادى أولياء الله، ومن عادى أولياء الله فقد عادى الله، وحق على الله أن يدخله نار جهنم**»[1]، فالموالاة لأعداء الله تعني المعاداة لأولياء الله، لأنّ التولي والتبري وجهان لحقيقة واحدة، وهما من أوضح سمات الإيمان، ولا يستقيم معهما قول من يقول إن الجميع عنده على حدٍ سواء، وإنّه يقف على مسافة واحدة من الجميع، أو إنّه يحب الله تعالى ويحب أحباءه، ولكنه لا يتبرأ من أعدائه، فلا بُـدَّ من أن تكون عنده موازين الحب في الله والبغض في الله، وبالطبع لا أحد يدّعي أنّه يبغض الله أو يبغض أهل البيت عليهم السلام، ولكن المعيار في تشخيص ذلك هو حب أتباع أهل البيت، فمن كان محبًا لهم فهو محب لله تعالى، ومن كان مبغضًا لهم فهو مبغض لله تعالى.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**من فضل الرجل عند الله محبته لإخوانه، ومن عرّفه الله محبة إخوانه أحبّه الله، ومن أحبّه الله وفّاه أجره يوم القيامة**»[2]، يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا أن ميزان المفاضلة بين المؤمنين عند الله عزّ وجلّ هو مقدار حب المؤمن لإخوانه المؤمنين، فكلما كان حبه لهم أكبر، كانت منزلته أعظم عند الله عزّ وجلّ. ولكي يوفقه الله جلّ جلاله إلى نيل هذه المنزلة الرفيعة يهيئ له سبل معرفة إخوانه ومحبتهم، ومن عرّفه الله محبة إخوانه أحبّه الله تعالى، ومن أحبّه الله وفّاه أجره يوم القيامة.

قد يخطر بالبال أن الله سبحانه وتعالى يوفّي أجر كل عمل صالح وثوابه ولا يبخس منه شيئًا، فكيف يقول هنا إنّه يوفيه أجره، وكأنّه الوحيد الذي يستوفي أجره يوم القيامة؟. والجواب: أن الله تعالى قدر لكل عمل صالح مقدارا من الثواب، كما حدّد لكل عمل طالح مقدارًا من العقاب، وهو أمر يعرفه الملائكة الذين يباشرون حساب الناس في يوم القيامة، إلا

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٩١، ح١١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٩٧، ح٢٩.

أجر محبة المؤمن لأخيه المؤمن، فليس له مقدار معيّن من الثواب لعظمته، ولذلك فإنّ الله ﷻ يتولى بنفسه إعطاء هذا الثواب للمؤمن.

وهناك روايات مهمة في هذا الباب ذُكرت في كتاب الكافي الشريف، نتطرق إليها في ما يلي:

منها: ما رواه سلام بن المستنير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله**»[1]. أي أن للإيمان طرقًا كثيرة متفاوتة سعة وضيقًا، ولكن أعظم هذه الطرق وأوسعها هو ودّ المؤمن لأخيه المؤمن في الله، لا من أجل شيء آخر. والمودّة هي الحب الشديد، ولذلك طلبها الله ﷻ من المسلمين أجرًا للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله على تبليغ الرسالة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[2].

ثم ينتقل الحديث الشريف إلى بيان الوسيلة التي يستطيع بها المؤمن الوصول إلى مرتبة الأصفياء، ألا وهي الحب في الله والبغض في الله، والعطاء في الله والمنع في الله، فإذا استوفى المؤمن هذه الأمور الأربعة، كان من خالصة عباد الله وصفوتهم. ولكن الحب في الله والبغض في الله أمر ليس سهل المنال، فالإنسان قد يقدم على فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، طاعة له وامتثالًا لأمره ونهيه، رغبة في الثواب أو فرارًا من العقاب، وأما الحب في الله والبغض في الله فهما يحتاجان إلى معرفة الله تعالى أولًا، أي معرفة أسمائه وصفاته، وهو أمر صعب إلا لمن سلك طريق التوحيد الخالص الذي لا تشوبه أي شائبة من شوائب الشرك، ولكن أكثر الناس ليسوا كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3]، ولهذا لا يتذوق طعم التوحيد الخالص، ولا يحظى بهذه المنزلة، إلا الأوحدي من المؤمنين.

ومنها: ما رواه أبو بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**سمعته يقول: إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور الله، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم**

---

(١) الكافي ٢: ١٢٥، ح٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

ونور منابرهم كل شيء حتى يعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله»[1].

تنقل هذه الرواية المباركة مشهدًا من مشاهد يوم القيامة يختص به المتحابون في الله، وهو أن الله ﷻ يجلسهم على منابر من نور الله، فتشرئب الأعناق إليهم وتشخص الأبصار بالنظر لهم، وقد ملأ نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم عرصات يوم القيامة، فيعرف جميع الخلق أن هؤلاء المتحابون في الله. ويعكس هذا المشهد الفريد عظم منزلة المودة والمحبة الإيمانية الإلهية بين المؤمنين.

ومنها: ما رواه أبو حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «**إذا جمع الله عزّ وجلّ الأولين والآخرين، قام منادٍ فنادى يُسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب. قال: فيقولون: فأي ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله. قال: فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نِعمَ أجر العاملين**»[2].

يتحدث الإمام السجاد عليه السلام في هذه الرواية الكريمة عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يتعلق بالمتحابين في الله، وهذا المشهد يكون بحضور جميع الخلائق من الأولين والآخرين، فيأتي ملك من الملائكة قبل بدء الحساب وينادي بصوت مرتفع يسمعه الجميع: أين المتحابون في الله؟ وهذا يعني أنّهم يعرفون أنفسهم، وأنّ هذه هي صفتهم عند الله عزّ وجلّ، فتقوم طائفة من الناس ويتقدمون نحو هذا الملك، فيُقال لهم: ادخلوا الجنة بغير حساب. فيذهبون نحو الجنة، فيلقاهم ملائكة آخرون ويقولون لهم: إلى أين أنتم ذاهبون ولم يبدأ الحساب بعد؟ فيخبرونهم بأن الملائكة أخبرتهم بدخول الجنة بغير حساب، فيسألونهم أي نوع من الناس أنتم؟ أي ما هو عملكم الذي استحققتم به دخول الجنة بغير حساب؟ فيخبرونهم أنهم المتحابون في الله، فتقول لهم الملائكة: نِعمَ أجر العاملين. هذه الجملة تستحق وقفة للتأمل فيها، وهي أن الحب والبغض أمر جوانحي، أي مسألة قلبية محضة، وقد استحق هؤلاء المتحابون دخول الجنة جزاء لهذا الأمر القلبي، فكيف تقول لهم الملائكة: «**نِعمَ أجر العاملين**» ؟ أي أنكم استحققتم هذا المقام بعملكم لا بمجرد حبكم وبغضكم في الله.

(١) الكافي ٢: ١٢٥، ح٤.
(٢) الكافي ٢: ١٢٦، ح٨.

والجواب: أن المؤمن لا يصل إلى هذه المنزلة العالية ـ أي منزلة الحب والبغض في الله ـ إلا بعد طي منازل كثيرة من التزكية والعمل الصالح، والحصول عليها إنما هو بمثابة تتويج لما سبق منه في جهاده الأكبر ضد النفس الأمّارة بالسوء، وعندها يكون دخولهم الجنة من غير حساب باعتبار أن صحيفة أعمالهم خالية من السيئات التي غفرها الله تعالى لهم، بعد وصولهم إلى منزلة الحب في الله والبغض في الله، وليس فيها سوى الحسنات التي لا يقدر على إحصائها العادّون.

ومنها: ما رواه جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرًا فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته، ففيك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب**»[1].

ربما يتساءل الإنسان أحيانًا هل هو من الصالحين فتكون عاقبته الجنة، أو من الطالحين فتكون عاقبته النار؟ ويريد أن يعرف ذلك من غير أن يطّلع على نيته أحد. وهنا يعطي الإمام الباقر عليه السلام معيارًا يعرف الإنسان من خلاله حقيقته؛ هل فيه خير أو ليس كذلك؟ وهذا المعيار هو أن ينظر الإنسان إلى قلبه، هل يحب أهل الإيمان والطاعة أو يبغضهم؟ وهل يحب أهل العصيان والفسوق أو يبغضهم؟. فإن كان يحب أهل الخير والصلاح ويبغض أهل الشر والعناد، فليعلم أنّه على خير وأنّ مصيره إلى الجنة، وإن كان على عكس ذلك، فليعلم أنه لا خير فيه وهو من أهل جهنم. ثم يعلل الإمام الباقر عليه السلام ذلك بأن الإنسان يُحشر مع من يحب، فإن أحب أهل الجنة كان معهم، وإن أحب أهل النار كان معهم.

ومنها: ما رواه جابر الجعفي أيضًا عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**لو أن رجلًا أحب رجلًا لله لأثابه الله على حبه إياه، وإن كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو أن رجلًا أبغض رجلًا لله، لأثابه الله على بغضه إياه، وإن كان المبغض في علم الله من أهل الجنة**»[2].

وفي موضوع حب المؤمن لأخيه المؤمن، يبيّن الإمام الباقر عليه السلام بُعدًا جديدًا، وهو حالة حب المؤمن لشخص على أساس أنه مؤمن، وهو في علم الله ليس كذلك، وانّما

---

(١) الكافي ٢: ١٢٦، ح١١.
(٢) الكافي ٢: ١٢٧، ح١٢.

كان يتظاهر بالإيمان، فإنّ الله ﷻ يثيب هذا المؤمن ويدخله الجنة، بينما يدخل ذلك الشخص النار؛ لأنّ هذا المؤمن أحب هذا الشخص على أساس الإيمان، ولم يتبيّن له خلاف ذلك إلى أن مات. وعلى العكس من ذلك، لو أن مؤمنًا أبغض شخصًا على أساس أنّه من أهل النار إلى أن مات، ولم يكتشف حقيقته ليصحح موقفه منه، فإنّ الله ﷻ يُدخل هذا المؤمن الجنة، وسيلتقي مع من كان يبغضه فيها، لأنّ بغضه إياه كان لله تعالى. ومنه يتبين ما لنيّة الإنسان من أثر عظيم في مصيره وإن خالفت الواقع.

أهمية حفظ الخلة الإيمانية

إنّ حفظ الخلة متفرع على وجود الخلة، إذ يجب أولًا أن يحب المؤمن أخاه المؤمن ويودّه ويصاحبه، ثم يجب عليه أن يديم ويحفظ هذه الخلة، فنفس المحبة شيء مهم، ولكنّ الحفاظ عليها وإبقاءها وتعميقها وترسيخها في قلب المؤمن تجاه أخيه المؤمن شيء آخر يجب الالتفات إليه.

وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا يرجع صاحب المسجد بأقل من إحدى ثلاث: إما دعاء يدعو به يدخله الله به الجنة، وإما دعاء يدعو به فيصرف الله عنه بلاء، وإما أخ يستفيده في الله ﷻ. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد فائدة الإسلام، مثل أخ يستفيده في الله بعد الإسلام**»[(١)].

لا شكَّ في أن المداومة على حضور الصلاة في المسجد لها الكثير من الفوائد، اقتصر الإمام الصادق عليه السلام في هذا المقام على ذكر ثلاث منها، وهذا يدلل على أهمية إحياء وإقامة الصلاة في المساجد، وهذه الفوائد هي:

الأولى: دعاء يدعو به يدخله الله به الجنة، لأنّ حضور صلاة الجماعة في المساجد من مواطن استجابة الدعاء، وإنّ أهم ما يدعو به المؤمن هو دخول الجنة، فهو من المطالب التي يواظب عليها المؤمن طيلة حياته، وهذا الإصرار على هذا الدعاء وتكراره والإلحاح به على الله تعالى مع جماعة المؤمنين في المسجد، توفر فرصة أكبر للاستجابة، وحينئذ سيضمن لنفسه دخول الجنة.

الثانية: دعاء يدعو به فيصرف الله عنه بلاء، ولا شكَّ في أن دفع الضرر والبلاء يضاهي جلب المنفعة، وإذا كان المؤمن حريصا على طلب الجنة، فهو حريص أيضًا على الدعاء

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٧٥، ح٣.

لدفع البلاء عن نفسه وعائلته وجماعة المؤمنين، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يردّ عبده خاليًا إذا دعاه، فالمؤمن إذا طلب حاجة ما في دعائه، وكان من حكمة الباري عَزَّوَجَلَّ عدم قضائها أو تأخيرها، فهو لا يردّ يديه خاليتين، بل يدفع عنه بلاء قد حل به، أو يصرف عنه بلاء كان مقدرًا أن يقع فيه.

الثالثة: أخ يستفيده في الله عَزَّوَجَلَّ، لأنّ من يواظب على حضور الصلاة في المسجد هم أهل الإيمان، الذين يتقربون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك؛ لأنّه من الأعمال التي ندب إليها وحث عليها ووعد عليها الثواب الجزيل. فالشريحة التي تجتمع في المسجد هي طبقة من الناس الذين لديهم التزام ديني عادة، فهم على شاكلته وأقرب إلى طراز تفكيره وسلوكه، وحينئذ سيكون من السهل جدًا إقامة علاقة معهم وتوطيدها.

ثم نقل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حديثًا عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مفاده أنّه ليس هناك من فائدة للمسلم بعد الإسلام من الأخ المسلم، وهي نعمة عظمى؛ لأنّ الأخ المؤمن لا يرضى لأخيه المؤمن أن يقع في الخطأ، ويحب له ما يحب لنفسه، ولأنه مؤمن فهو لا يريد الخطأ لنفسه ويريد لها الطاعة وفعل الخيرات، فيحب ذلك لأخيه ويحثه على الالتزام بها، ويصطحبه إلى أماكن الطاعة وينبهه إلى ما فيه خيره وصلاحه، ويمنعه من الوقوع في المعاصي والأخطاء. فرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يعد الأخ المؤمن أهم النعم بعد الإسلام؛ لأنّ وجوده سيستتبع الكثير من الالتزامات، وسيدفع عنه الوقوع في الكثير من المطبات والمحرمات.

وفي رواية أخرى عن محمد بن زيد قال: «**سمعت الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: من استفاد أخًا في الله عَزَّوَجَلَّ، استفاد بيتًا في الجنة**»[1].

يبيّن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية المباركة أحد أنواع الثواب الذي يحصل عليه المؤمن من اتّخاذه مؤمنًا آخر أخًا له، وهذا الثواب هو بيت في الجنة، فمقابل كل مؤمن نبني معه علاقة إيمانية وننفتح عليه ونصاحبه، سنحصل على بيت في الجنة؛ لأنّ الأخ المؤمن يعني إتيان مجموعة من الطاعات، وترك مجموعة من المحرمات أو المكروهات، وهذا يضمن لنا بيتًا في الجنة، فكل أخ مؤمن سيعني مجموعة من النصائح والإرشادات والتوجيهات، ومجموعة من المواقف الطيبة والتشجيع على مواقف صحيحة، وهذا كله

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٦، ح٤.

يمكن أن يوفر لنا بيتًا في الجنة، فالذي يصاحب عشرة من المؤمنين، ستكون عنده عشرة بيوت في الجنة.

في رواية أخرى عن جعفر بن محمد بن أبي فاطمة قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**إن العبد يكون بارًا بقرابته ولم يبقَ من أجله إلا ثلاث سنين، فيصيّره الله ثلاثًا وثلاثين سنة، وإنّ العبد ليكون عاقًا بقرابته وقد بقي من أجله ثلاث وثلاثون سنة، فيصيّره الله ثلاث سنين. ثم تلا هذه الآية:** ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[1] **قال: قلت: جعلت فداك، فإن لم يكن له قرابة؟ قال: فنظر إليّ مغضبًا وردّ عليّ شبيهًا بالزبر: يا ابن أبي فاطمة، لا تكون القرابة إلا في رحم ماسة، صل أخاك المؤمن، فللمؤمن على المؤمن أن يبره فريضة من الله. يا ابن أبي فاطمة تباروا، فينسئ الله في آجالكم، ويزيد في أموالكم، وتعطون العافية في جميع أموركم، وإن صلاتكم وصومكم وتقربكم إلى الله أفضل من صلاة غيركم**»[2].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام أهمية صلة الرحم والبر بالأقارب في إطالة الأعمار عشرة أضعاف، فمن كان مقدرًا له أن يموت بعد ثلاث سنين، يُنسئ الله تعالى في أجله ويؤخر موته ثلاثين سنة، ليبقى حيًا إلى ثلاثة وثلاثين عامًا. وعلى عكس هذا الأمر؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى يقلل من أعمار قاطعي الأرحام عشرة أضعاف ما بقي منها، فمن كان ما بقي من عمره ثلاثة وثلاثين عامًا، يبتر الله تعالى شأنه ثلاثين عامًا منها، فيبقى من أجله ثلاث سنين.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام ـ في معرض جوابه عن استفسار الراوي عمن لم يكن عنده أقارب ليصلهم ـ إلى بيان أن صلة الأخ المؤمن بمنزلة صلة الأرحام، وتترتب عليها الآثار نفسها، بل إن بر المؤمن وصلته من الواجبات. وقد استنكر الإمام عليه السلام على الراوي هذا السؤال؛ لأنّه من الأمور التي ينبغي أن تكون واضحة عند المؤمن، أن منزلة الأخ المؤمن تضاهي منزلة الأرحام، بل تزيد عليها إذا لم يكن الأرحام مؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[4]. ومصاديق صلة الرحم والبر كثيرة، تبدأ بالسلام والكلمة الطيبة، وصولاً إلى مواساته بالمال وإيثاره على النفس.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٧، ح ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

ثم بدأ الإمام عليه السلام بعطف الكلام إلى توصية المؤمنين بأن يبر أحدهم الآخر، وبيّن آثارًا أربعة للتواصل بين المؤمنين وهي: الزيادة في الآجال، والزيادة في الأموال، والعافية في جميع الأمور، وأنّ صلاتهم وصومهم وتقربهم إلى الله أفضل من صلاة غيرهم. فالعبادة تُقبل بشكل أفضل حينما تكون مع العلاقات الإيمانية. ثم تلا الإمام الصادق عليه السلام هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، والسر في تلاوته عليه السلام لهذه الآية الكريمة هو قلة وجود أخوّة حقيقية بين المؤمنين؛ لأنّ أكثر المؤمنين ليسوا من أصحاب الإيمان الخالص بالله تعالى، فلا تكون علاقتهم بإخوانهم المؤمنين علاقة إيمانية خالصة، بل هم يشركون معها نية أخرى، كالقرابة والمناطقية والمصلحة وغير ذلك، مما يؤثر في منزلة هذه الأخوّة عند الله سبحانه وتعالى.

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**ما أحدث الله إخاءً بين مؤمنين إلا أحدث لكل منهما درجة**»(٢)، أي أن الأخوّة الإيمانية التي يحدثها الله تعالى بين مؤمنين، في كل مستوى من المحبة، يرفعهم الله عز وجل بها درجة، وكلما اتسعت مساحة هذه الأخوّة بين المؤمنين، ارتفعت درجاتهم عند الله تعالى.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ المؤمنين المتواخيين في الله ليكون أحدهما في الجنة فوق الآخر بدرجة، فيقول: يا ربّ إن صاحبي قد كان يأمرني بطاعتك ويثبطني عن معصيتك ويرغبني في ما عندك، فاجمع بيني وبينه في هذه الدرجة، فيجمع الله بينهما. وإنّ المنافقين ليكون أحدهما أسفل من صاحبه بدرك في النار، فيقول: يا ربّ إن فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ويثبطني عن طاعتك ويزهدني في ما عندك، فاجمع بيني وبينه في هذا الدرك، فيجمع الله بينهما. وتلا هذه الآية: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(٣)**»(٤).

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٨، ح١٤.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٨، ح١٤.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٨، ح١٤

ينقل الإمام الباقر عليه السلام هنا مشهدين من مشاهد الآخرة، أحدهما في الجنة والآخر في النار، وهما معًا يحكيان تأثير الأخوّة والخلة في تعالي درجات المؤمن في الجنة، وتسافل درجات الكافر في النار.

المشهد الأول هو لمؤمنين متآخيين في الله، ولكن أحدهما أعلى درجة من الآخر، لأنّ الجنة درجات، كما أن النار دركات. ومن كان في الدرجة العليا يُؤذن له بالنزول للدرجات التي تحته، ولا يُسمح لأصحاب الدرجات السفلى بالصعود إلى الدرجات الأعلى، فيقول صاحب الدرجة العليا لله سبحانه وتعالى: يا ربّ إن صاحبي قد كان يأمرني بطاعتك، فيحثني على إتيان الصلوات في أوقاتها، ويشجعني على صلاة الليل والدعاء وتلاوة القرآن، وكان يثبطني عن معصيتك ويخوفني عواقبها، وكان يرغبني أيضًا في ما عندك من الثواب الجزيل، فاجمع اللهم بيني وبينه في هذه الدرجة. فيجمع الله جلّ جلاله بينهما في الدرجة العليا، وكذا يحصل المؤمن الآخر على الدرجة الأعلى ببركة العلاقة الإيمانية مع أخيه المؤمن.

والمشهد الثاني في النار لمنافقين كانا متآخيين في الدنيا، ولكن أحدهما في درك أسفل من الدرك الذي فيه صاحبه، فيقول صاحب الدرك الأسفل: يا ربّ إن فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ويصطحبني معه إلى أماكن المعاصي، ويثبطني عن طاعتك، فكلما هممت بالعمل بطاعتك سوّف لي التوبة وأخّرني عنها حتى انقضى عمري، وكان يزهّدني في ما عندك من الثواب، ويقول إن كان ما يقولون صحيحًا فإنّ هذا الثواب والعقاب ليس حقيقيًا، وإنّما هو كالأحلام التي يراها الإنسان في منامه، اللهم فاجمع بيني وبينه في هذا الدرك، فيجمع الله تعالى شأنه بينهما في هذا الدرك لينال عذابًا أشدّ، كل ذلك بسبب الخلة التي كانت بينهما في دار الدنيا. ثم تلا الإمام الباقر عليه السلام قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، فالخلة نافعة للمؤمن ومضرة للمنافق في الآخرة.

وعن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**النظر إلى العالم عبادة، والنظر إلى الإمام المقسط عبادة، والنظر إلى الوالدين برأفة ورحمة عبادة، والنظر إلى الأخ تودّه في الله عزّ وجلّ عبادة**»[1].

(١) بحار الأنوار ٧١: ٧٣، ح٥٩.

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث الشريف أربعة أنواع من العبادة، التي قد يُدهش الإنسان من إطلاق اسم العبادة عليها، لو لا أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّاها كذلك:

أولها: النظر إلى العالم عبادة؛ لأنّ النظر إليه يذكّر بالله عزّ وجلّ.

ثانيها: النظر إلى الإمام المقسط عبادة؛ لأنّ رؤيته تذكّر بالعدل والإنصاف، وهو يشمل الحاكم العادل أيضًا.

ثالثها: النظر إلى الوالدين عبادة، وقيّد رسول الله صلى الله عليه وآله النظر إليهما بالرأفة والرحمة، بينما لم يفعل ذلك في النوعين السابقين.

رابعها: النظر إلى الأخ المؤمن عبادة، وهو الشاهد، وقيّد رسول الله صلى الله عليه وآله النظر إليه بالمودّة في الله عزّ وجلّ، فلا يشمل مطلق النظر إليه.

ومن هنا يتبين عظم منزلة الأخوّة الإيمانية عند الله عزّ وجلّ.

وعن عمار بن موسى قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**حب الأبرار للأبرار ثواب للأبرار، وحب الفجار للأبرار فضيلة للأبرار، وبغض الفجار للأبرار زين للأبرار، وبغض الأبرار للفجار خزي على الفجار**»[1].

ورد التقابل بين الأبرار والفجار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[2]، مما يدلل على أنّهما من الألفاظ المتقابلة التي يحمل كل منها معنى مناقضًا لمعنى اللفظ الآخر، والأبرار هم أصحاب الدرجة العليا في الجنة، كما ورد ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3]، بينما يحتل الفجّار الدرك الأسفل في الجحيم، كما ورد ذلك في الآية الكريمة: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾[4]. فالأبرار والفجار على طرفي نقيض، وكل واحد منهما يمثل القدوة لأصحابه، فالأبرار يمثلون أهل الجنة، بينما يمثل الفجار أهل النار.

(١) الكافي ٢: ٦٤٠، ح٦.
(٢) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.
(٣) سورة المطففين، الآيات: ١٨ ـ ٢١.
(٤) سورة المطففين، الآيات: ٧ ـ ٩.

وقد قسمت الرواية الكريمة حب كل واحد منهما وبغضه لمثيله ولمناقضه إلى أربعة أقسام:

الأول: حب الأبرار للأبرار، وهو موضع الشاهد في أهمية الأخوّة الإيمانية، وفي هذا الحب الثواب الجزيل في الآخرة.

الثاني: حب الفجار للأبرار، وهو فضيلة للأبرار؛ لأنّ الفجار لا يحبون الأبرار عادة، ولكن لو فرض مثل هذا، فهذا يعني المنزلة الفضلى للأبرار؛ بحيث يستطيعون التأثير في الفجار وكسب ودّهم وعطفهم.

الثالث: بغض الفجار للأبرار، وهو زين للأبرار؛ لأنّه من الطبيعي أن يكره أهل الفجور أهل الإيمان، فإذا أظهروا هذا البغض والعداوة، فهو أمر جيد للأبرار أن أعداءهم هؤلاء الحثالات.

الرابع: بغض الأبرار للفجار، وهو خزي على الفجار؛ لأنّ المؤمن لا يعادي إلا من يستحق العداوة بسبب أعماله المشينة وسلوكه المنحرف، فهو فايروس معنوي متحرك، والميكروبات ليست في الصحة فقط، فهناك ميكروبات معنوية أيضًا، فالإنسان الموبوء بالأمراض الأخلاقية مصاب بوباء معنوي، وهو جرثومة متحركة تشيع الفاحشة، وأينما ذهب حلّ الشيطان معه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه بعد كلام له، ثم وصل إلى هذه الجملة: **«إنّ المؤمنين من أهل ولايتنا وشيعتنا إذا اتقوا لم يزل الله تعالى مطلاً عليهم بوجهه حتى يتفرقوا، ولا تزال الذنوب تتساقط عنهم كما يتساقط الورق بالخريف، ولا تزال يد الله على يد أشدهما حبًا لصاحبه»**(١).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة حقيقة من الحقائق الغيبية للأخوّة الإيمانية، وهي أن المؤمنين من أهل الولاية إذا اجتمعوا، أتحفهم الله عز وجل بتحفتين إلى أن يتفرقوا وهما:

الأولى: أن الله عز وجل لم يزل ينظر إليهم بعين عنايته وكرمه ما داموا مجتمعين، وفيه حث وترغيب على اجتماع المؤمنين ليحصلوا على هذه البركة الإلهية، وتحذير من الانعزال والابتعاد عن جماعة المؤمنين بأي ذريعة كانت، فالمكان الذي يجتمع فيه المؤمنون يستنزل الرحمة الإلهية.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٠، ح٥.

الثانية: ولا تزال الذنوب تتساقط عنهم كما يتساقط الورق بالخريف، ومعلوم أن أوراق الأشجار تتساقط بسرعة في الخريف، وهذا يعني أنّه كلما طالت مدة هذا الاجتماع، ازدادت الذنوب التي يغفرها الله سبحانه وتعالى لهم.

وهناك تحفة ثالثة يخص الله تعالى بها الأشدّ حبًا من هؤلاء المجتمعين لإخوانه الآخرين، وهي أنّه لا تزال يد الله على يده، ويد الله تعني قدرة الله تعالى وسطوته، فمن أراد أن تكون يد الله معه على الدوام فليبحث عن مؤمنين أقل حبًا لإخوانهم الآخرين، وليدم مجالستهم وذكر الله تعالى معهم، ليحظى بهذه التحفة التي لا ينالها إلا من كان ذا حب عظيم للمؤمنين. وهكذا يكون مستوى اللطف الإلهي مرتبطًا بمستوى حب المؤمن لأخيه المؤمن، فالقضية لا ترتبط بصرف المحبة، بل ترتبط بمستوى المحبة، ومراتب المحبة ترتبط بمراتب الكمال الذي يمنحه الله تعالى لعباده المؤمنين.

وعن جعفر بن محمد عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن قلب الظمآن إلى الماء البارد**»[1].

يشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث الشريف سكون المؤمن إلى المؤمن بشرب الظمآن للماء البارد، فليس هناك ألذ من تلك اللحظات التي يشرب فيها الإنسان العطشان الماء البارد، فيرتوي ويسكن فؤاده بعد ذلك العطش الشديد. وكذلك حال المؤمن عندما يجلس مع أخيه المؤمن فيطمئن قلبه ويذهب همّه وغمّه، ويعيش أسعد لحظات حياته.

والسكينة لا تنزل في قلب المؤمن إلا ليزداد إيمانًا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[2]، فمن أراد أن يزداد إيمانه، فليكثر من مجالسة إخوانه المؤمنين.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: أيها الناس، حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة... إلى أن قال: ألا وإنّ ودّ المؤمن من أعظم سبب الإيمان. ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله، فهو من أصفياء الله. ألا وإنّ المؤمنين إذا تحابا في الله عزّ وجلّ، وتصافيا في الله، كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكى أحدهما من جسده موضعًا، وجد الآخر ألم ذلك الموضع**»[3].

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٠، ح٦.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٠، ح٧.

يبيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث المبارك، ثلاثة آثار مهمة تترتب على الأخوّة الإيمانية، هي:

الأول: أن محبة المؤمن للمؤمن من أهم الأسباب التي تؤدي إلى زيادة الإيمان، فمن كان إيمانه ضعيفًا فليلجأ إلى ودّ المؤمنين ومحبتهم ليزداد إيمانًا.

الثاني: أن الحب في الله والبغض في الله والعطاء في الله والمنع في الله تجعل المؤمن من أصفياء الله، أي ممن يصطفيهم الله تعالى إلى قربه، بعد أن طووا هذه المراحل الأربع، التي تعد اثنتان منها من العمل الجوانحي والأخريان من العمل الجوارحي، أي عندما يكون المؤمن باطنًا وظاهرًا خالصًا لله عزّ وجلّ، فحينئذ يكون من أصفيائه.

الثالث: أن المؤمنين إذا تحابا في الله عزّ وجلّ وتصافيا في الله، كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكى أحدهما من جسده موضعًا وجد الآخر ألم ذلك الموضع، فهنا شرطان إذا استطاع المؤمنون تطبيقهما كانوا كالجسد الواحد الذي يحس بعضه بألم البعض الآخر، وهما أن يحب بعضهم بعضًا في الله تعالى، أي يحب الآخرين لأنّهم مؤمنون فقط وليس لأي داع آخر. والشرط الثاني هو التصافي في الله عزّ وجلّ، وهو أن يخلو قلب المؤمن وسلوكه من أي شائبة تجاه أخيه المؤمن، ويكون صافيًا له كالماء الزلال، كل ذلك لأنّه مؤمن، لا لشيء آخر، وهي منزلة رفيعة تحتاج إلى جهد جهيد حتى يستطيع الإنسان الوصول إليها.

في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ثلاثة أشياء في كل زمان عزيزة: الأخ في الله، والزوجة الصالحة الأليفة، والولد الرشيد. ومن أصاب أحد الثلاثة فقد أصاب خير الدارين. واحذر أن تؤاخي من أرادك لطمع أو خوف أو ميل أو للأكل والشرب، واطلب مؤاخاة الأتقياء وإن أفنيت عمرك في طلبهم، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق على وجه الأرض أفضل منهم بعد الأنبياء والأولياء. وما أنعم الله على العبد بمثل ما أنعم به من التوفيق بصحبتهم؛ لأنك إن صاحبت الأتقياء كنت على نهجهم ومنوالهم، قال الله عزّ وجلّ: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»**»[1].

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٢، ح٣.

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة ثلاثة أشياء عزيزة المنال، هي:

الأول: الأخ في الله، وهو محل الشاهد، فالحصول على أخ في الله، معياره ومقياسه في الأخوة هو الله سبحانه وتعالى، فيحب لله وفي الله، أمر نادر.

الثاني: الزوجة الصالحة الأليفة، والحصول على زوجة تحمل صفتي الصلاح والألفة أمر نادر أيضًا، فربما حصل الرجل على امرأة صالحة غير أليفة، وربما حصل على امرأة أليفة غير صالحة، وفي تقديم صفة الصلاح على الألفة إشارة إلى اختيار المرأة الصالحة على المرأة الأليفة إذا وقع التردد بينهما.

الثالث: الولد الرشيد، والمقصود بالرشد هو ترجيح المصلحة على المفسدة، واختيار النافع وترك الضار، والولد الرشيد هو الولد العاقل الحليم غير الطائش، وهذا أمر صعب المنال أيضًا في ظل الانحرافات والمشاكل الأخلاقية التي تمر بها المجتمعات.

فالأخ في الله والزوجة الصالحة والولد الرشيد، ثلاثة أشياء مهمة جدًا ونادرة الحصول بأوصافها الكاملة، ولا يطمع مؤمن بالحصول عليها أجمع، فإن حصل عليها فتلك السعادة العظمى، وإن حصل على اثنين فليعلم أنه ذو حظ عظيم، وإن حصل على واحد منها فقد أصاب خير الدارين، سعادة الدنيا والآخرة.

ولعل في تقديم الأخ المؤمن على الزوجة الصالحة الأليفة والولد الرشيد إشعارًا بالأفضلية عليهما، كما أن تقديم الزوجة على الولد ربما يشعر بأفضليتها عليه.

إن الحصول على زوجة وولد بالأوصاف المذكورة في الحديث أمر ليس بيد الإنسان وخارج عن إرادته، ولكن الحصول على أخ مؤمن أمر ممكن، وإن كان صعبًا جدًا. ومن هنا جاء تحذير الإمام عليه السلام من مؤاخاة ثلاثة، وهم:

الأول: من أرادك لطمع، والطامع لا يصلح لأخوّة؛ لأنّه صاحب مصلحة، يبحث عن منفعته من خلالك ما دمت قادرًا على نفعه، فإن زال المال أو الجاه أو المنصب الذي تستطيع بواسطته نفعه تركك وكأنّه لا يعرفك، وإذا مررت بأزمة كان أول المتبرئين منك.

الثاني: من أرادك لخوف، والخائف لا يصلح لأخوّة أيضًا؛ لأنّ الخوف لا يمكن أن يكون أساسًا لعلاقة سليمة أبدًا، ولأنّه إذا زالت أسباب الخوف انقطعت أخوّته وانقلب عليك.

الثالث: من أرادك لميل، والمقصود بالميل الهوى، فربما يميل إنسان إلى آخر بسبب عرقه أو حزبه أو عشيرته، ومثله لا يصلح لأخوّة أيضًا؛ لأنّها أخوّة قائمة على أساس آخر غير الأساس الذي تقوم عليه الأخوّة الإيمانية، وهو المحبة في الله سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل الإمام الصادق عليه السلام إلى بيان من تنبغي مؤاخاته، فيقول: «**واطلب مؤاخاة الأتقياء**»، أي الأخ الحقيقي هو من تحتاج إلى البحث عنه، وليس الذي يبحث عنك؛ لأنّ من يقصدك فهو إما يريدك لطمع أو خوف أو ميل، وكل هؤلاء لا خير في أخوّتهم، ومن يجب أن تبحث عنه هم الأتقياء، وهم الذين عندهم مخافة الله سبحانه وتعالى، ودائمًا ما يجعلون الله نصب أعينهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، وهؤلاء لن نجدهم في الواجهة؛ لأنّه لا طمع لهم في الدنيا، وعادة ما يكونون بعيدين عن الأنظار، ويحتاج العثور عليهم إلى جهد ووقت كبيرين، ولهذا يوصينا الإمام الصادق عليه السلام بالاستمرار في البحث عنهم ولو أفنينا أعمارنا في ذلك؛ لأنّهم يستحقون المؤاخاة، ولا يُعد ما بُذل من جهد ووقت هباءً منثورًا وإن لم نعثر على واحد منهم، لأنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق على وجه الأرض أفضل منهم بعد الأنبياء والأولياء.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام أنه لا نعمة ينعم الله تعالى بها على العبد، مثل ما أنعم به من التوفيق بصحبة هؤلاء الأتقياء؛ لأنّ من صاحب الأتقياء كان على نهجهم ومنوالهم، وسوف يتأثر بتقواهم ومواقفهم وسلوكهم وأحوالهم وأفعالهم، وسوف يسير ضمن الإطار الصحيح. كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[1]، فالأخلاء ـ وهم الأصدقاء الذين اتّخذ بعضهم بعضًا خليلاً ومقرّبًا ـ سوف يعادي أحدهم الآخر، لأنّ هذه الصداقات لم تنشأ على أساس التقوى، فتأخذ أصحابها إلى الهاوية، وسوف يتنصل كلٌ من خليله ويبتعد عنه، إلا المتقين الذين كانت أخوّتهم قائمة على أساس التقوى، ولهذا تكون صلبة وثابتة.

إدخال السرور على المؤمن

وهو من مصاديق حفظ خلة المؤمن، وقد ورد التأكيد عليه في روايات كثيرة.

منها: عن أبي حمزة الثمالي قال: «**سمعت أبا جعفر** عليه السلام **يقول: قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **من سرّ مؤمنًا فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله**»[2].

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٢) الكافي ٢: ١٨٨، ح١.

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك عظيم منزلة المؤمن عند الله عز وجل، وأنّ من أدخل السرور والفرح على قلب مؤمن، فإنّه يدخل السرور على قلب سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، وكذلك يدخل السرور على الله تعالى شأنه. ومعنى سرور الله تعالى ـ مع أن السرور والحزن من خصائص النشأة المادية، وهو سبحانه وتعالى منزه عن المادة ـ هو ما يترتب على السرور من اللطف والعناية والرحمة، أي ما يترتب على السرور من آثار.

ومنها: عن جابر، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**تبسّم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن**»[1].

يتناول الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية الكريمة المنزلة الرفيعة للمؤمن عند الله عز وجل، وأنّه يحظى بالعناية الإلهية إلى الدرجة التي يُعد فيها إدخال السرور عليه عبادة، مهما كان ذلك السرور قليلًا، كالابتسام بوجهه وإخراج القذى من عينه؛ لأنّ المؤمن هو وحده من استطاع تحقيق الهدف الذي من أجله خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان. بل اعتبر سبحانه وتعالى أن أحب عبادة عنده هي إدخال السرور على المؤمن، وليس من أحب العبادات، فهي أحب عبادة عنده على الإطلاق؛ أي أنّه أقرب طريق للإنسان إلى عبودية الله تعالى وتحقيق القرب منه؛ لأنّه يأتي للإنسان بالتوفيق، فتكون صلاته وصيامه وسائر عباداته بخشوع وخضوع وتوجه. فالبداية ونقطة الانطلاق في طريق القرب الإلهي هي إدخال السرورعلى الأخ المؤمن.

ومن هذه الرواية والروايات الآتية التي تمثل الرؤية الإسلامية الاجتماعية، تتضح أهمية البعد الاجتماعي في الإسلام، وأهمية التكافل والتضامن الاجتماعي، إلى درجة أن يكون إدخال السرور على قلب الأخ المؤمن، هو أفضل ما يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى.

ومنها: عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أحب الأعمال الى الله إدخال السرور على المؤمنين**»[2].

ومنها: عن مفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سرورًا أنّه عليه أدخله فقط، بل والله علينا وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله**»[3].

---

(١) الكافي ٢: ١٨٨، ح٢.
(٢) الكافي ٢: ١٨٩، ح٤.
(٣) الكافي ٢: ١٨٩، ح٦.

ومنها: عن سدير الصيرفي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث طويل: «**إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه، كلما رأى المؤمن هولًا من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عزّ وجلّ، حتى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ فيحاسبه حسابًا يسيرًا، ويأمر به إلى الجنة، والمثال أمامه. فيقول له المؤمن: يرحمك الله نِعمَ الخارج خرجت معي من قبري، وما زلت تبشرني بالسرور والكرامة من الله حتى رأيت ذلك، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي كنت أدخلته على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله عزّ وجلّ منه لأبشرك**»(1).

ومنها: عن محمد بن جمهور قال: «**كان النجاشي، وهو رجل من الدهاقين، عاملًا على الأهواز وفارس، فقال بعض أهل عمله لأبي عبد الله عليه السلام: إن في ديوان النجاشي عليّ خراجًا، وهو مؤمن يدين بطاعتك، فإن رأيت أن تكتب لي إليه كتابًا. قال: فكتب إليه أبو عبد الله عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، سرّ أخاك يسرك الله. قال: فلما ورد الكتاب عليه دخل عليه وهو في مجلسه، فلما خلا ناوله الكتاب وقال: هذا كتاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام. فقبّله ووضعه على عينيه، وقال له: ما حاجتك؟ قال: خراج عليّ في ديوانك. فقال له: وكم هو؟ قال: عشرة آلاف درهم. فدعا كاتبه فأمره بأدائها عنه، ثم أخرجه منها وأمر أن يثبتها له لقابل، ثم قال له: هل سررتك؟ فقال: نعم جعلت فداك. ثم أمر الوزير بمركبة وجارية وغلام وأمر له بتخت ثياب، في كل ذلك يقول: هل سررتك؟ فيقول: نعم جعلت فداك. فكلما قال نعم زاده حتى فرغ. ثم قال له: احمل فرش هذا البيت الذي كنت جالسًا فيه حين دفعت إليّ كتاب مولاي الذي ناولتني فيه وارفع إليّ حوائجك، قال: ففعل. وخرج الرجل فصار إلى أبي عبد الله عليه السلام بعد ذلك، فحدّثه بالحديث على جهته، فجعل يسر بما فعل. فقال الرجل: يا ابن رسول الله كأنّه قد سرك ما فعل بي؟ فقال: إي والله لقد سر الله ورسوله**»(2).

الإحسان إلى الإخوان

ومن مصاديق حفظ خلة المؤمن الإحسان إلى الإخوان، وقد وردت روايات كثيرة في ذلك.

(١) الكافي ٢: ١٩٠، ح٨.
(٢) الكافي ٢: ١٩٠، ح٩.

منها: عن جميل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سمعته يقول: إن مما خص الله عز وجل به المؤمن أن يعرّفه برّ إخوانه وإن قلّ، وليس البر بالكثرة، وذلك أن الله عز وجل يقول في كتابه:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**، ثم قال:** ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١)**، ومن عرّفه الله بذلك أحبه الله، ومن أحبه الله سبحانه وتعالى وفاه أجره يوم القيامة بغير حساب. ثم قال: يا جميل ارو هذا الحديث لإخوانك فإنّه ترغيب في البر**»(٢).

ومنها: عن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلا خمش وجه إبليس وقرح قلبه**»(٣).

ومنها: عن أبي محمد العسكري عليه السلام، عن آبائه، قال: «**كتب الصادق عليه السلام إلى بعض الناس: إن أردت أن يختم بخير عملك حتى تقبض وأنت في أفضل الأعمال، فعظّم لله حقه أن تبذل نعماءه في معاصيه، وأن تغتر بحلمه عنك، وأكرم كل من وجدته يذكرنا أو ينتحل مودتنا، ثم ليس عليك صادقًا كان أو كاذبًا، إنما لك نيتك وعليه كذبه**»(٤).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة أن من يريد أن تحسن عاقبته ويختم عمله بخير، وأن يُقبض وهو مقيم على أفضل الأعمال، فعليه أن يلتزم بثلاثة أمور، هي:

الأول: تعظيم حق الله سبحانه وتعالى بألاّ يبذل نعمته في معاصيه، فلا ينفق ما يرزقه الله تعالى على المعاصي، فمن رزقه الله تعالى نعمة كدار أو سيارة مثلًا، فيجب عليه ألا يرتكب معصية فيها وإن كانت صغيرة، فإنّ ذلك مما يغضب الله سبحانه وتعالى، ومن يحلل عليه غضبه فقد خسر وهوى.

الثاني: ألاّ يغتر بحلم الله تعالى عنه، وهنا يكمن الخطر، فإنّ الإنسان حينما يرتكب المعاصي ويرى أن الله سبحانه وتعالى ساتر عليه ولا يرى الجزاء المباشر، يتصور أنّه في مأمن من مكر الله سبحانه وتعالى الذي يمكن أن يباغته في أي لحظة، وحينئذ ستكون الضربة القاضية التي توقعه ولا يستطيع النهوض منها، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٥)، فالله تعالى يصبر على عباده لأنّه حليم، لعلهم يتوبون ويرجعون عن غيّهم، ولكن إذا أصر الإنسان على ذنوبه، فإن لم يكن

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٢) الكافي ٢: ٢٠٦، ح٦.
(٣) الكافي ٢: ٢٠٧، ح٩.
(٤) بحار الأنوار ٧٠: ٣٥١، ح٤٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

إمهالًا له ليزداد إثمًا، فسيأتيه الكيد الإلهي الذي يقصم ظهره ولا يقدر معه على شيء، قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1].

الثالث: إكرام كل من يجده يذكر أهل البيت عليهم السلام أو ينتحل مودتهم، سواء كان صادقًا أو كاذبًا، فالموقف منه يكون على أساس الظاهر؛ لأنّ الأصل في قبول العمل عند الله سبحانه وتعالى هو نية العامل لا نيّة من يقع عليه العمل، فهو الذي سوف يحاسب إن كان كاذبًا في دعواه.

جزاء الإحسان إلى المؤمن

لقد حثّ الله سبحانه وتعالى على مكافأة الإحسان بمثله؛ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[2]، ووردت روايات كثيرة في هذا الباب أيضًا.

منها: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن منكم يوم القيامة ليمر به الرجل له المعرفة به في الدنيا، وقد أُمر به إلى النار، قال: فيقول له: يا فلان أغثني فقد كنت أصنع إليك المعروف في الدنيا، وأسعفك في الحاجة تطلبها مني، فهل عندك اليوم مكافأة؟ فيقول المؤمن للملك الموكل به : خلِّ سبيله. قال: فيسمع الله قول المؤمن فيأمر الملك أن يجيز قول المؤمن، فيخلي سبيله**»[3].

في هذه الرواية الشريفة مشهد من مشاهد يوم القيامة ينقله الإمام الصادق عليه السلام، وهو يعكس كرامة المؤمن عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة، إذ لا يهب له الشفاعة فقط في مثل ربيعة ومضر كما مرّ في رواية سابقة، بل يمضي أمره للملائكة في إطلاق سراح من يُقادون إلى النار، وهي كرامة أخرى للمؤمن لم تتطرق إليها الروايات السابقة، فأي كرامة للمؤمن أعظم من هذه الكرامة؟. أليس من حقّه حينئذ أن يفتخر بأن يكون له إله كهذا الإله؟ وأي منزلة سيحظى بها المؤمن في الآخرة، إذا كانت هذه منزلته عند الحساب في يوم القيامة؟ وحينئذ هل يمكن أن نستكثر على الزهراء عليها السلام أو على الحسين عليه السلام أن يستنقذا شيعتهما من النار؟.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٣) بحار الأنوار ٨: ٤١، ح٢٦.

وهناك التفاتة لطيفة في الرواية؛ هي أن المؤمن لا يشفع لمن لا يستحق الشفاعة ولا يفعل مثل هذا العمل مع أي كان، بل هذا الرجل بعد أن انتهى حسابه وسيق إلى النار، ورأى مؤمنًا يعرفه كان قد أسدى إليه معروفًا طلبه منه في دار الدنيا، دعاه الى مكافأته والإحسان إليه كما أحسن هو له في الدنيا.

ومنها: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كان في زمن موسى** عليه السلام **ملك جبار قضى حاجة مؤمن بشفاعة عبد صالح، فتوفي في يوم الملك الجبار والعبد الصالح، فقام على الملك الناس وأغلقوا باب السوق لموته ثلاثة أيام، وبقي ذلك العبد الصالح في بيته، وتناولت دواب الأرض من وجهه، فرآه موسى بعد ثلاثة أيام فقال: يا ربّ هو عدوك، وهذا وليك؟ فأوحى الله إليه: يا موسى إن وليي سأل هذا الجبار حاجة فقضاها، فكافأته عن المؤمن، وسلّطت دواب الأرض على محاسن وجه المؤمن لسؤاله ذلك الجبار**»[1].

تحكي هذه الرواية قصة شفاعة عبد صالح لمؤمن في حاجة له عند ملك جبار فقضاها له في زمن موسى عليه السلام، وفيها مجموعة من الدروس:

الأول: لا ينبغي لعبد صالح أن يشفع عند ملك جبار، لا في حاجة نفسه ولا في حاجة غيره وإن كان مؤمنًا، وكان الأجدر به أن يطلب من موسى عليه السلام أن يدعو الله عزّ وجلّ في قضائها له، ولذلك استحق العقوبة في دار الدنيا؛ لأنّها أهون من عقوبات الآخرة.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى قد كافأ الملك الجبار على قضاء حاجة المؤمن، مع أنّه كان عدوًا له. وقد جزاه على إحسانه هذا بعد وفاته، لئلا يأتي يوم القيامة ويطلب الجزاء على إحسانه، لأنّه قد استوفاه في دار الدنيا.

الثالث: أن المؤمن صاحب الحاجة لم تنله عقوبة؛ لأنّه إنّما جاء إلى العبد الصالح في قضائها، وهو عمل صحيح، فإنّ الرواية لم تقل إنّه طلب من العبد الصالح أن يشفع له عند الملك الجبار في قضائها، وحتى لو أنّه طلب ذلك منه، كان ينبغي عليه أن يرشده إلى الطريق الصحيح في قضائها، إما بأن يطلبها من الله تعالى مباشرة بالدعاء، أو يرفع حاجته إلى موسى عليه السلام ليشفع له في قضائها عند الله سبحانه وتعالى، أو أن العبد الصالح يدعو الله تعالى بقضاء حاجة هذا المؤمن.

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٣٥٠، ح٤٠.

ومنها: قال علي بن الحسين عليه السلام: «**معاشر شيعتنا أما الجنة فلن تفوتكم، سريعا كان أو بطيئًا، واعلموا أن أرفعكم درجات وأحسنكم قصورًا ودورًا وأبنية، أحسنكم فيها إيجابًا لإخوانه المؤمنين، وأكثرهم مواساة لفقرائهم. إن الله عز وجل ليقرّب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلّم بها أخاه المؤمن الفقير، بأكثر من مسير مائة ألف عام في سنة بقدمه، وإن كان من المعذبين بالنار، فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم**»[1].

في هذا الحديث المبارك يزفّ الإمام السجاد عليه السلام البشرى إلى الشيعة جميعًا بدخول الجنة، ولكن يتفاوتون في وقت دخولها، فبعضهم يدخلها سريعًا وبعضهم يدخلها بطيئًا، ولم توضح الرواية أكثر من هذا، فهي ساكتة عن الفئة الثانية التي تتأخر في دخول الجنة بسبب ذنوبها، هل ستلبث في النار أحقابًا إلى أن تتطهر منها، أو سيحجزون في مكان بين الجنة والنار، أو سيؤخرون في عرصات يوم القيامة إلى أن يفرغ الله تعالى من حساب الخلائق؟ إذ لا خلود في النار لمن كان يؤمن بولاية أهل البيت عليهم السلام.

ثم ينتقل الإمام السجاد عليه السلام إلى بيان السبل التي يستطيع بها المؤمن نيل الدرجات الرفيعة في الجنة، وهي:

الأول: خدمة إخوانه المؤمنين، فكلما كان أكثر نفعًا لهم، كان أعلاهم درجة وأحسنهم قصورًا.

الثاني: مواساة فقراء المؤمنين، والمواساة هي إشراك فقراء المؤمنين في أمواله وألا يحرمهم منها، وربما يخطر بالبال ماذا يفعل من لا مال له لكي يواسي الفقراء؟. فهنا يبيّن الإمام السجاد عليه السلام الجواب عن هذا السؤال المقدّر فيقول: «**إنّ الله عز وجل ليقرّب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلّم بها أخاه المؤمن الفقير، بأكثر من مسير مائة ألف عام**»، وليست الكلمة التي يكلم بها المؤمن غير الفقير، وليست أي كلمة يتكلم بها مع الفقير، بل الكلمة التي تحمل في طياتها المواساة له بسبب ما يعانيه من الفقر، وليس الكلمة التي تتضمن المواساة الصادرة من المؤمن الغني الذي يستطيع مدّ يد العون لأخيه المؤمن الفقير ولكنه لا يفعل، بل الكلمة التي يكلم بها المؤمن الفقير من كان مثله في الفقر، فطوبى لفقراء المؤمنين وهنيئًا لهم هذه التحفة الإلهية، وما أسرع دخولهم إلى جنان الخلد قبل غيرهم إذا كانت كل كلمة مواساة منهم تقدّمهم مسيرة مائة ألف عام.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٨، ح٦١.

وأخيرًا يوصي الإمام السجاد عليه السلام بعدم احتقار الإحسان إلى الإخوان، وألّا يحسبوه أمرًا هينًا، بل الخير كل الخير في هذا العمل الذي لا يقوم مقامه شيء آخر، فهو الذي يجتاز به المؤمن عقبات يوم القيامة ويدفعه إلى الأمام بشكل واسع وكبير.

الحق التاسع

(رعاية ذمة المؤمن)

يتضح الحق التاسع من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن في قول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**ويرعى ذمته**»، فما المقصود من رعاية الذمة؟.

الذمة هي العهد والعقد والالتزام الذي يقطعه المؤمن على نفسه لأخيه المؤمن، فمعنى أن المؤمن يرعى ذمة المؤمن، أي يلتزم بالعهود والعقود والوعود التي يتعهد بها للأخ المؤمن. وعبارة «**ويرعى ذمته**» على إطلاقها تشمل العديد من الحالات، ويمكن أن يقسم إطلاق هذه الصفة الواردة في هذه العبارة إلى حالتين:

الحالة الأولى: إذا كان العقد خارجيًا اعتباريًا، كالبيع والشراء، أو أن يَعِد أحدًا بشيء من المال، أو يعده بأن يزوره أو يحل مشكلته أو يقضي حاجة له ونحوها.

الحالة الثانية: إذا كان العقد باطنيًا حقيقيًا، كعقد الأخوّة بين المؤمن وأخيه المؤمن وما شابه ذلك.

وعندما نقول «**يرعى ذمته**» ونعني بها العقود الخارجية، فهنا يمكن أن يكون لرعاية الذمة في هذه العقود معنيان:

المعنى الأول: يرتبط بالوفاء بعقود الأخ المؤمن التي لم يفِ بها، كما لو باع المؤمن بضاعة لشخص، ولكنه تعرض لحادث طارئ ولم يستطع إيصال البضاعة للمشتري، فمن واجب المؤمن أن يرعى ذمة أخيه المؤمن ويذهب ليفي بالتزاماته. أو أنّه أعطى وعدًا لشخص بمساعدته ومد يد العون له، ولكن حال دون تحقيق ذلك حائل، فعلى المؤمن هنا أن يبادر للوفاء بوعد أخيه المؤمن الذي قطعه على نفسه لشخص ثالث. فيكون المقصود برعاية الذمة أن الأخ المؤمن يقوم بالنيابة عن أخيه المؤمن، بأداء الالتزامات والواجبات التي ألزم نفسه بها ولم يستطع أن يفي بها.

والمعنى الثاني: أن يكون المقصود من رعاية ذمة المؤمن، هو وفاء المؤمن بالتزاماته التي قطعها على نفسه لأخيه المؤمن، من بيع أو شراء أو وعد أو عهد.

والعهد الذي يقطعه الإنسان مع نفسه بأخوّته مع المؤمن هو عقد حقيقي، وليس عقدًا اعتباريًا خارجيًا؛ لأنّه ليس كالبيع؛ إذ يمكن أن تبيع ويمكن ألا تبيع، بينما أخوّة المؤمن أمر مفروض من الشارع المقدس لا بُـدَّ من الالتزام به.

وهناك مجموعة من الروايات في كل واحدة من هذه الحالات، نذكر أولًا الروايات التي تناولت رعاية ذمة المؤمن في العقود الخارجية من البيع والإيجار ونحوهما.

فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته، ويواري عورته، ويفرّج عنه كربته، ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده**»[1].

يبيّن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الحديث المبارك خمسة من حقوق المؤمن على المؤمن، وهي أربعة في حياته وواحد بعد مماته، وهذه الحقوق:

الأول: أن يشبع جوعته، وهو أول حقوق المؤمن على المؤمن، فلا يجوز لمؤمن أن يترك أخاه يتضور من الجوع وهو شبعان، بل يجب عليه أن يشاطره لقمة العيش.

الثاني: يواري عورته، فلا يجوز لمؤمن أن يدع أخاه المؤمن يرتدي ثيابًا رثة لا تليق به، وهو يرتدي الثياب الفاخرة، وعليه أن يواسيه ومن يعول، فيكسوه من الثياب بما يكسو نفسه وعياله.

الثالث: يفرّج عنه كربته، وهو الشاهد، فيجب على المؤمن عندما يرى أخاه مهمومًا ومغمومًا ويمر بمحنة ومشكلة، أن يسارع لتفريج كربته وإزالة همه وغمه.

الرابع: يقضي دينه، إذا كان الأخ المؤمن مدينًا ولا يستطيع الوفاء بدينه، فيجب على المؤمن أن يوفي هذا الدين إذا كان قادرًا على ذلك، أو يسعى لقضائه عنه، فيكون قد رعى ذمته، أي يؤدي التزامات أخيه المؤمن مع الآخرين.

الخامس: إذا مات خلفه في أهله وولده، فحق المؤمن لا ينتهي بالموت، بل يستمر بعد وفاته أيضًا، فيجب على المؤمن الحفاظ على عائلة أخيه المؤمن إذا مات ورعاية أبنائه.

وفي رواية أخرى عن عمر بن دينار قال: «**دخل الحسين** عليه السلام **على أسامة بن زيد وهو مريض، وهو يقول: واغماه. فقال له الحسين** عليه السلام**: وما غمك يا أخي؟ قال: دين في ذمتي**

(١) الكافي ٢: ١٦٩، ح٢.

ستون ألف درهم. فقال الحسين عليه السلام: هو عليّ. قال أسامة: إني أخشى أن أموت. فقال الحسين عليه السلام: لن تموت حتى أقضيها عنك. قال: فقضاها قبل موته»[1].

والشاهد في هذه الرواية المباركة أن سيد الشهداء عليه السلام دفع الدين الذي في ذمة أسامة بن زيد، الذي وصف علاقته به بكلمة «**يا أخي**»، التزامًا منه تجاه أخيه المؤمن أسامة بن زيد في رعاية ذمته. وهو تجسيد حي للحالة الأولى، وهي أن الأخ المؤمن يفي بالتزامات أخيه المؤمن مع الآخرين، فيكون هذا هو المعنى الأول.

أما المعنى الثاني لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**يرعى ذمته**»، فهو أن على المؤمن أن يقضي حوائج أخيه المؤمن التي وعده بها، كما لو قال له إني محتاج فوعده بمبلغ من المال، أو وعده بزيارته، أو قطع له عهدًا في أمر ما، فيجب عليه الوفاء به. وهو يختلف عن المعنى الأول في عدم وجود طرف ثالث.

ومما يعزز هذا المعنى ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو قوله: «**أشرف الهمم رعاية الذمام**»[2]. ومعنى هذه الحكمة العلوية، هو أن أفضل الهمم أن تقضي حاجة الأخ المؤمن الذي وعدته بها، وتفي بالتزاماتك تجاه الأخ المؤمن.

وفي رواية أخرى عن هشام بن سالم قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عدة المؤمن أخاه في شيء نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرّض، وذلك قوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[3].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام أن وعد المؤمن أخاه المؤمن في شيء هو نذر يجب عليه الوفاء به، بل يزيد على النذر؛ لأنّ الإنسان يستطيع أن يتخلف عن نذره بدفع الكفارة، ولكن وعد المؤمن لأخيه نذر لا كفارة له، أي أنّه لا يستطيع التحلل منه في حال من الأحوال. ومن أخلف وعده لمؤمن فهو في الحقيقة بدأ بخلف الله سبحانه وتعالى ثم بخلف أخيه المؤمن، وحينئذ سيتعرض لمقته سبحانه وتعالى، أي لغضبه، ومن حل بساحته غضب الله فلا رجاء له في النجاة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[4]. ثم يطبّق

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، ح٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٢٤.
(٣) الكافي ٢: ٣٦٣، ح١.
(٤) سورة طه، الآية: ٨١.

الإمام عليه السلام هذا المعنى على قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

لذلك فالخلف بالوعد الذي يقطعه الإنسان مع الأخ المؤمن والتنصل من الالتزامات تجاهه، مصداق لعدم الوفاء بحق من حقوق المؤمن، وهو رعاية ذمته، أي قضاء حوائجه التي وعده بها، وتأدية التزاماته تجاه أخيه المؤمن. هذا كله فيما إذا كان العقد خارجيًا، سواء كان بين الأخ المؤمن وشخص ثالث، أو بين المؤمن وأخيه المؤمن.

أما إذا كان العقد قلبيًا باطنيًا، كعقد الأخوّة بين مؤمن ومؤمن، فهو مشمول أيضًا بوجوب مراعاة ذمة المؤمن، ومثاله عقد المؤاخاة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وآله مع علي عليه السلام بعد الهجرة، فهذا ليس عقدًا خارجيًا، بل هو عقد قلبي، وهو عقد حقيقي لأخوّة عميقة بين المؤمن وأخيه المؤمن.

لقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**أشرف الشيم رعاية الودّ، وأحسن الهمم إنجاز الوعد**»[2]، أي أن أنبل وأفضل خصلة للمؤمن هي مراعاة المحبة، ويؤثر فيه الزاد والملح كما هو شائع على الألسنة، بمعنى أن الودّ والمحبة والمشاعر والعواطف بين المؤمن وأخيه المؤمن تؤثر في تعميق الأخوّة الإيمانية بينهما، فيرعى محبته، أي يحفظ أخوّته ومحبته ويراعي علاقته بهذا الأخ المؤمن.

وورد في الشعر المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام:

ولا أقول نعمْ يومًا فأتبعها بالمنع ولو ذهبت بالمال والولد[3]

أي إذا قال المؤمن للمؤمن نعم وَقَبِل أخوّته ووضع يده في يد أخيه، فلا يتبعها بالبخل ولا يقصر في شيء من حقوق الأخوّة، حتى لو كان حفظ الأخوّة يستلزم منه تضييع الأموال والأولاد، لأهمية حفظ حق الأخ المؤمن.

فالتآخي بين المؤمن وأخيه المؤمن من الحقوق العظيمة، ومن لم يكن لذلك أهلًا فعليه ألا يورط نفسه في مؤاخاة الآخرين، وليبق على الأخوّة العامة، ولكن من وضع يده في يد مؤمن وقال له: إني أؤاخيك في الله، فقد ألزم نفسه بحقوق كثيرة، ومن جاءه يطلب مؤاخاته فليعتذر منه ويقل له: إن لهذه الأخوّة حقوقًا كثيرة لا أستطيع الالتزام بها.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١١٤.
(٣) ديوان الإمام علي بن أبي طالب ١: ٧٨.

ولهذا الاعتبار نلاحظ وجود تأكيد كبير على حفظ الأخوّة بين المؤمنين، وتقوية هذه العلاقة، وإخبار المؤمن أخاه المؤمن بأنّه يحبه؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى استحكام وتعزيز وتعميق العلاقة بينهما.

فقد ورد عن يحيى بن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن جده قال: «**مرّ رجل في المسجد وأبو جعفر عليه السلام جالس وأبو عبد الله عليه السلام، فقال له بعض جلسائه: والله إني لأحب هذا الرجل. قال له أبو جعفر عليه السلام: ألا فأعلمه فإنّه أبقى للمودة، وخير في الألفة**»[1].

وورد عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا أحببت رجلًا فأخبره**»[2].

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن أبيه الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أحب أحدكم صاحبه أو أخاه فليعلمه**»[3].

وعن صالح بن الحكم قال: «**سمعت رجلًا يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقول إني أودّك، فكيف أعلم أنه يودّني؟ قال عليه السلام: امتحن قلبك، فإن كنت تودّه فإنّه يودّك**»[4]، يبيّن الإمام الصادق عليه السلام معيارًا لمعرفة ما في قلب الآخر من الحب والمودّة له، وهو أن يرجع إلى قلبه وينظر هل يحب هذا الشخص أو لا يحبه، فإن رأيت أنك تحبه وترتاح له، فاعلم أنّه يحبك أيضًا، وإذا رأيت قلبك ينزعج منه ولا يحبه أو يكرهه، فاعلم أنّه كذاب في ما يخبرك به من محبته لك؛ لأنّ المحبة طريق واحد له طرفان، فمن يدّعي محبتك ولا ترى في قلبك مثل هذا الحب فاعلم أنه كاذب.

وعن عبيد الله بن إسحاق المدائني قال: «**قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ونحن في جواره: إن الرجل من عرض الناس يلقاني فيحلف بالله أنّه يحبني، فأحلف بالله إنّه لصادق. فقال عليه السلام: امتحن قلبك، فإن كنت تحبه فاحلف، وإلا فلا**»[5].

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٨١، ح١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ١٨٨، ح٢.
(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٥٥، ح٥.
(٤) الكافي ٢: ٦٥٢، ح٢.
(٥) بحار الأنوار ٧١: ١٨٢، ح٥.

وعن الفضيل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**انظر قلبك، فإن أنكر صاحبك فقد أحدث أحدكما**»[1]، أي إذا رأيت قلبك قد تغيّر على أخيك، فاعلم أن أحدكما قد قصّر بحقوق الأخوّة، وليس بالضرورة أن يكون هو المقصّر، بل ربما تكون أنت المقصّر.

وعن نصر بن قابوس قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**إذا أحببت أحدًا من إخوانك فأعلمه ذلك، فإنّ إبراهيم** عليه السلام **قال:** «﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾»[2]»[3]. أي أن إخبار المؤمن لأخيه المؤمن بأنّه يحبه، مع أنّه يعلم ذلك، يزيد العلم إلى درجة الاطمئنان، واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام الذي كان يسعى إلى درجة الطمأنينة بقدرة الله تعالى على كل شيء.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا أحببت رجلًا فأخبره بذلك، فإنّه أثبت للمودّة بينكما**»[4]؛ لأنّ هذا من شأنه أن يعمق ويعزز المحبة والمودة بينكما.

---

(١) الكافي ٢: ٦٥٢، ح١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.
(٣) الكافي ٢: ٦٤٤، ح ١.
(٤) الكافي ٢: ٦٤٤، ح٢.

الحق العاشر
(عيادة المؤمن في مرضه)

أشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحق العاشر من حقوق المؤمن على المؤمن بقوله: «**ويعود مرضته**»، فمن حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يزوره إذا مرض، والسبب في التأكيد على التواصل مع المؤمن في حال مرضه، واعتباره حقًا مستقلًا عن الحقوق الإيمانية مع وجود مبدأ التواصل بين الإخوان، أن الإنسان حينما يمرض ينعزل عن العالم الخارجي، بعد أن كان يمضي جلّ وقته في التواجد مع الناس، فيحضر الاجتماعات والبرامج والفعاليات ويعيش في المجتمع مع الآخرين، ولكن عندما يمرض يقيم في داره، ويصبح عنده شعور بالعزلة، وشعور بأن المجتمع مستمر في حركته وهو متأخر عنهم، فالمرض حالة طارئة تحصل للإنسان يمكن أن تولد عنده هذا الشعور، عندما يبقى وحيدًا في الدار بعد خروج الأولاد إلى المدارس والجامعات أو إلى العمل، لأنّه مريض لا يستطيع أن يخرج، وهذا الشعور يضيف ألمًا معنويًا إلى الألم الطبيعي بحكم المرض، لأنّه مريض يتألم من شيء ما في بدنه، وتزيده قضية الشعور بالعزلة والابتعاد عن الناس، فهو مركون في مكان في المستشفى أو في الدار بحكم مرضه، وهذا الشعور قاتل ومؤلم، فعندما يزوره أخوه المؤمن ، يزيل عنه هذا العبء والهمّ ويشعر بالاطمئنان والراحة والسكينة.

روى أبو المفضل، عن أحمد بن محمد العلوي، عن جده الحسين بن إسحاق بن جعفر، عن أبيه إسحاق بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام، عن آبائه عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**يعيّر الله عز وجل عبدًا من عباده يوم القيامة فيقول: عبدي ما منعك إذا مرضت أن تعودني؟ فيقول العبد: سبحانك سبحانك أنت رب العباد، لا تألم ولا تمرض. فيقول الله جل وعلا: مرض أخوك المؤمن فلم تعده، وعزتي وجلالي لو عدته لوجدتني عنده، ثم لتكفلت بحوائجك فقضيتها لك، وذلك من كرامة عبدي المؤمن، وأنا الرحمن الرحيم**»[1].

(١) بحار الأنوار ٧: ٣٠٤، ح ٧٥.

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك ـ الذي يرويه الإمام الكاظم عليه السلام عن آبائه، والذي خص به أخاه إسحاق بن جعفر ـ مشهدًا من مشاهد يوم القيامة التي أطلعه الله سبحانه وتعالى عليها، وهو أن الله تعالى شأنه يعيّر المؤمن الذي يترك عيادة أخيه المؤمن عند مرضه، وذلك بأن يقول له: عبدي ما منعك إذا مرضت أن تعودني؟. وهنا يقع المؤمن في الذهول والحيرة، إذ كيف يمكن أن يصيب المرض رب العزة والجلالة، وهو خالق كل شيء، والمرض فايروس خلقه الله تعالى ويأتمر بأمره؟ فيبادر المؤمن إلى إبداء استغرابه من هذا السؤال، منزهًا الله جل جلاله عن الألم والمرض؛ لأنّ الخالق سبحانه وتعالى لا يصاب بالمرض والألم.

وهنا يبيّن الله سبحانه وتعالى أن من زار المؤمن في مرضه فكأنّما زار الله، وهنا يدرك المؤمن مغزى توبيخ الله تعالى له بسبب إهماله عيادة إخوانه عند مرضهم، ثم يقسم الباري جل جلاله بعزته وجلاله، لو عاد المؤمن أخاه في مرضه لوجده عنده. ومنه نعلم أن مكان المريض هو مكان استجابة الدعاء؛ لأنّ الله حاضر فيه، بمعنى أنّ عين الله راعية للمريض والمكان الذي فيه المريض،لذا من زار المريض فكأنما زار الله تعالى في عرشه. وما دام المؤمن يعود أخاه المؤمن إذا مرض في سبيل الله، فإنّ الله سبحانه وتعالى يتحفه بهدية نفيسة، وهي أنّه يتكفل بحوائجه جميعًا فيقضيها له.

هذه من آثار عيادة المؤمن في مرضه، ويعلل الله سبحانه وتعالى مكافأته هذه بقوله: «**وذلك من كرامة عبدي المؤمن، وأنا الرحمن الرحيم**». فليغتنم المؤمنون هذه الفرص الثمينة، وهذا الباب الإلهي الواسع الذي فتحه وجعله سببًا لقضاء حوائجهم، ولا يعتذر أحد بترك عيادة أخيه المؤمن المريض بسبب ضيق ما في اليد، وأنّه يخجل من أن يذهب إليه بيد خالية، لأنّ المؤمن يعرف حال أخيه المؤمن ويعذره، ويكفي أن يكون مجيئه فرحة وإدخالاً للسرور في قلب أخيه المؤمن، وليذهب بفقره هذا ويطلب من الله الكريم أن يوسّع عليه في رزقه، ويرفع عنه ما يسببه له ضيق ما في يده من خجل مع إخوانه المؤمنين.

عن علي بن عقبة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**للمسلم على أخيه المسلم من الحق: أن يسلّم عليه إذا لقيه، ويعوده إذا مرض، وينصح له إذا غاب، ويسمّته إذا عطس، ويجيبه إذا دعاه، ويتبعه إذا مات**»[1].

---

(١) الكافي ٢: ١٧١، ح٦.

ذكر الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة ستة حقوق للمؤمن على أخيه المؤمن؛ خمسة منها في حياته وواحد بعد وفاته، هي:

الأول: يسلّم عليه إذا لقيه، من المستحبات المؤكدة في الإسلام إفشاء السلام، أي السلام على من تعرف ومن لا تعرف، ويتأكد هذا المستحب المؤكد أكثر حتى يصبح حقًا من الحقوق، هو سلام المؤمن على أخيه المؤمن، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾[1]، وتحية الإسلام هي أن يقول المسلّم: (السلام عليكم)، ومعناه الدعاء للمسلّم عليه بأن يعيش في كنف اسم الله تعالى السلام، وهو مشتق من السلم الذي هو ضد الحرب، وليس هناك كلمة أفضل من هذه الكلمة، تعبر عن حفظ العلاقة الودية بين الناس وإشاعة الأمن في المجتمع.

ومن أراد أن يحصل على الثواب الأخروي وعلى الآثار المعنوية للسلام، فعليه أن يستعمل الصيغة الشرعية للتحية وهي: (السلام عليكم). ويستتبع هذا الحقَّ بشكل منطقي حقٌّ آخر للمؤمن، وهو وجوب الردّ على تحيته بأفضل منها، وهو أن يقول: (وعليكم السلام ورحمة الله)، كما أمر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2] ، وإن كان وجوب ردّ التحية لا يقتصر على المؤمن فقط، بل يجب ردّ تحية كل مسلِّم.

وهناك ظاهرة غريبة عن تراثنا الإسلامي الأصيل، وهي استبدال لفظ السلام بألفاظ أجنبية كان المستعمر المحتل يستعملها ويروج لها في بعض الأوساط، ثم انتشرت بالتدريج في أوساط أخرى، ولا بُـدَّ من العودة إلى صيغة التحية الصحيحة، والتخلص من كل ألوان التحية البديلة. وهناك نوع آخر شائع في بعض الأوساط، وهو الاقتصار على الإيماء بالرأس بدلاً من التلفظ بصيغة التحية، وكأنّ تحريك الرأس على كبره أيسر عندهم من تحريك اللسان على صغره.

وقد ورد في الأخبار أن الفضل الأعظم والثواب الأجزل هو لمن بدأ بإلقاء التحية،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٦.

وقد ورد في بعض الروايات أن أجر التحية، هو تسع وتسعون حسنة للبادئ وواحدة للرادّ. وكان من خُلق رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبدأ بإلقاء التحية على كل من يلقاه.

الثاني: يعوده إذا مرض، وهو الشاهد، فمن حق المؤمن على المؤمن أن يزوره إذا مرض، ولا شكَّ أن في هذا العمل تكريما واحتراما للمؤمن أمام عائلته وجيرانه وعموم المجتمع، ولما في الزيارة من تفقد لأحوال المريض لعله يحتاج الى شيء ويخجل من البوح به، ويعرفه الزائر له من خلال قربه منه.

الثالث: ينصح له إذا غاب، وذلك بأن يحفظ ويرعى عائلته وجميع شؤونه في غيابه.

الرابع: يسمّت عطسته، أي إذا عطس المؤمن أمام أخيه المؤمن فعليه أن يسمته، أي يقول له: (يرحمكم الله)، وهو دعاء له بالدخول في الرحمة الإلهية.

الخامس: يجيبه إذا دعاه، أي على المؤمن أن يقبل دعوة أخيه المؤمن بحضور مائدة طعامه، لما في ذلك من التكريم له.

السادس: يتبعه إذا مات، أي على المؤمن أن يحضر جنازة أخيه المؤمن وتشييعه ودفنه ومجلس فاتحته، لما في ذلك من إدخال السرور على الميت، ومواساة عائلته في تحمل هذا المصاب الجلل.

في رواية أخرى: عن هارون، عن ابن صدقة، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم بسبع ونهاهم عن سبع، أمرهم بعيادة المرضى...إلخ**»[1]

لقد مرَّ في الروايات السابقة الثواب الجزيل الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى في الآخرة لمن عاد أخاه المؤمن في مرضه، ومما لا شكَّ فيه أن عيادة المرضى من الآداب المتعارفة في العلاقات الاجتماعية، وهي أوسع دائرة مما تطرقت إليه الروايات التي اقتصرت على بيان ثواب عيادة المؤمن لأخيه المؤمن في مرضه، ولكن السائد في العلاقات الاجتماعية أنّها تتسع لتشمل عيادة المرضى، وإن كانوا غير مؤمنين، بل حتى لو لم يكونوا مسلمين، من الأقارب والأصدقاء والجيران وزملاء العمل، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعود جيرانه من غير المسلمين أيضًا إذا مرضوا، وفعل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حجة كقوله، وهو يعني جوازه لغير المسلم أيضًا، وهو من الآداب الاجتماعية العامة التي حث عليها الإسلام.

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٣٨، ح٣.

أما الفوائد المترتبة على هذا العمل في الدنيا فهي:

الفائدة الأولى: الراحة النفسية للمريض وإخراجه من العزلة التي يشعر بها، فإنّ زيارته تشعره بأنك تدرك معاناته وألمه، وهذا الشعور يؤدي إلى راحة نفسية وتطييب خاطر المريض، فتدخل هذه الزيارة على قلب المريض الفرح والسرور والاستقرار النفسي، فالمريض يحتاج إلى من يقلل من محنته وألمه، وهذه العيادة تخفف من الألم النفسي الذي يعيشه وتدخل عليه السرور.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لكل شيء شيء يستريح إليه، وإنّ المؤمن يستريح إلى أخيه المؤمن كما يستريح الطير إلى شكله**»(1)، فكما أن الطيور على أشكالها تقع، فلا ترى حمامة تصاحب غرابًا مثلاً، وإنما تصاحب حمامة مثلها، فكذلك المؤمن عندما يرى مؤمنًا يأنس به ويرتاح له وتنفتح أساريره ويطمئن نفسيًا وقلبيًا، وكل هذا إذا كان في وضعه الاعتيادي ولم يكن مريضًا، فما بالك إذا كان مريضًا وتزوره؟ فمن الطبيعي أنّ يكون للزيارة مثل هذا التأثير من الراحة النفسية.

الفائدة الثانية: مساعدته في حل مشاكله، فالمريض وهو راقد في المستشفى أو في داره منقطع عن عمله، وهناك من الناس من يؤمن رزقه ويباشر أمر معاشه من خلال عمله اليومي، فإذا انقطع عن العمل انقطع رزقه، فيبقى قلقًا لا يدري كيف يؤمن نفقات عائلته، ولا سيَّما إذا طال به المرض وقعدت به علته، بالإضافة إلى نفقات العلاج والدواء والطعام الخاص الذي ينبغي عليه تناوله، وهذه تشكل عبئًا إضافيًا على نفقاته المعتادة، فالمشكلة المالية واحدة من المشاكل التي تواجه المريض بشكل عام، وهناك مشاكل أخرى يتعرض لها المريض أحيانًا، كحاجته إلى من يساعده ويتسوق له ويخدمه ويأخذه للطبيب، فمن الممكن أن يستطيع الزائر مساعدة المريض في تلافي جزء من هذه المشاكل، وسيأتي لاحقًا في بيان آداب عيادة المريض جلب هدية له، كالمواد الغذائية المناسبة لحاله، لأنّه لا يستطيع الخروج ولا يوجد عنده من يتسوق له. إذن فحل مشاكل المريض هي إحدى فوائد الزيارة، سواء كانت مشكلة مالية أو مشكلة في إدارة شؤونه الخاصة، كالمراجعة عنه لإنجاز معاملاته المتأخرة بسبب مرضه ونحوها.

---

(1) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٤، ح٣٠.

وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ليُعن قويكم ضعيفكم، ويعطف غنيكم على فقيركم، ولينصح الرجل أخاه كنصحه لنفسه، واكتموا أسرارنا، ولا تحملوا الناس على أعناقنا**»[1].

تناول الإمام الباقر عليه السلام خمس وصايا مهمة لأتباع أهل البيت عليهم السلام لتنظيم أمورهم:

الأولى: إعانة القوي للضعيف، فمن كان صاحب وجاهة أو نفوذ، فليساعد الضعفاء من إخوانه المؤمنين بوجاهته ونفوذه، ويدفع عنهم الحيف والظلم.

الثانية: عطف الأغنياء على الفقراء، أي ليساعد الأغنياء إخوانهم المؤمنين الفقراء ماليًا لانتشالهم من الفقر، إما بالمساعدات المالية المباشرة، أو بتوفير فرص عمل لهم ونحو ذلك.

الثالثة: نصيحة الأخ المؤمن، وأن يخلص له النصيحة كما ينصح نفسه، ولا يترك نصيحته تحت أي ذريعة كانت، فالمهم أن يحرص المؤمن على أخيه المؤمن كما يحرص على نفسه.

الرابعة: كتمان أسرار أهل البيت عليهم السلام، والمقصود بها الأمور التي تؤدي إلى تعريض حياتهم إلى الخطر، وإلا فإنّ أهل البيت عليهم السلام ليست لديهم عقائد باطنية خاصة يخشون الكشف عنها وإظهارها للناس، بل ذلك ما حثّوا أتباعهم على بيانه وتوضيحه لعامة المسلمين، لتقام الحجة على الناس، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد نصبهم خلفاء بعد رسوله وحجة على خلقه، فالأمر الذي كانوا يوصون به شيعتهم هو المحافظة على الأسرار الداخلية وعدم إشاعتها للآخرين، لأنّهم إن أشاعوها مكّنوا أعداءهم الذين يتربصون بهم الدوائر من ضربهم والقضاء عليهم، حين يعرفون نقاط ضعفهم وقوتهم. وهذه واحدة من مشاكلنا الحالية أيضًا، بسبب ثقافتنا الأمنية المحدودة، فترانا ننشر كل ما يتعلق بأمورنا الداخلية وتحركاتنا، وأحيانًا نرى ذلك حتى على صفحات التواصل الاجتماعي الإلكترونية.

الخامسة: عدم حمل الناس على أعناق آل محمد عليهم السلام، أي الحرص على عدم كشف هوية أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ لئلا يعرفهم الأعداء فينالوا منهم، فيكون أهل البيت

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٥، ح ١٥.

عليهم السلام سببًا في إيذائهم وهدم بيوتهم وزجهم في السجون وقتلهم، كما شهد التأريخ بالمعاناة الشديدة التي عاشها الشيعة على مرور الأيام.

والشاهد في الرواية هو قوله عليه السلام: «**ليُعن قويكم ضعيفكم، ويعطف غنيكم على فقيركم**»، فحالة العطف والعون ومد يد المساعدة لحل مشاكل المؤمنين، قضية أساسية في العلاقة الإيمانية.

وعن محمد بن عجلان قال: «**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل رجل فسلم وجلس، فسأله الإمام الصادق: كيف من خلفت من إخوانك؟ قال: فأحسن الثناء وزكّى وأطرى. فقال له عليه السلام: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ فقال: قليلة. فقال: كيف مشاهدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. فقال عليه السلام: كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ فقال: إنك لتذكر أخلاقًا قلّما هي في مَن عندنا يا ابن رسول الله. فقال عليه السلام: كيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة؟**»[1].

إذن لا يمكن أن نزعم أن مثل هؤلاء الأغنياء من شيعة علي عليه السلام، وهم لا يتفقدون الفقراء في منطقتهم ولا يزورونهم ولا يساعدونهم، فهذه الأمور الثلاثة: (العيادة والمشاهدة والصلة)، هي من واجب الأغنياء تجاه الفقراء.

إذن فالفائدة الثانية لعيادة المريض، هي حل مشاكله ومساعدته ودعمه معنويًا.

الفائدة الثالثة: المواساة، وهي إشعار المريض بأنه قريب منه ويواسيه في محنته وعارف بآلامه وأوجاعه ويحمل همه، وسيأتي في آداب الزيارة أن المؤمن عندما يدخل على أخيه المريض يضرب على جبهته، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ويقول: (لا إله إلا الله)، لكي يشعره أنّه متألم من أجله، فعيادة المريض فيها إظهار المواساة له وإظهار الألم لألمه ووجعه، وحالة المواساة هذه مهمة جدًا، وتؤدي الى حالة من القرب النفسي مع الأخ المؤمن.

ورد في رواية عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**لا والله لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون لأخيه مثل الجسد إذا ضرب عليه عرق واحد تداعت له سائر عروقه**»[2]، فعلاقة المؤمن مع إخوانه المؤمنين يجب أن تكون من هذا النوع أيضًا، بحيث إذا تعرض أحدهم لمحنة، هبّ الجميع إلى إنقاذه من محنته.

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٥٣، ح٤٨.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٣، جزء من ح ٣٠.

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**المؤمنون في تبارّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالسهر والحمى**»[1]، فينبغي أن تكون علاقة المؤمن بالمؤمن كعلاقة الجسد الواحد، بمعنى أن أي عضو من أعضائه تحدث له مشكلة، فإنّها تسري إلى سائر الأعضاء، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه جسد المجتمع الإيماني، فكل مؤمن يتعرض إلى أذى ما، يحس بهذا الأذى جميع المؤمنين، وهذه هي المواساة، التي تتجسد بشكل جلي في عيادة المؤمن لأخيه المؤمن عند مرضه.

وهناك تشبيه في بعض النصوص لعلاقة المؤمن بالمؤمن بهذا الترابط العضوي، وربما كان هذا الترابط معنويًا في بعض الأحيان، والأمر مثل أصوات الآلاف من الإذاعات التي تبث برامجها ونحن لا نسمعها الآن، ولكن لو جئنا بمذياع يلتقط هذه الأمواج المرسلة من قنوات البث الإذاعي، فإنّنا سنستطيع حينئذ سماعها، وعلاقة المحبة بين المؤمنين هي كحالة الأمواج الإذاعية، فهي موجودة ولكن تحتاج إلى جهاز استقبال، وهو عند المؤمن الشعور بالانقباض الذي يحس به عندما يتعرض أخوه المؤمن إلى الأذى، بسبب أزمة أو محنة يمر بها.

وقد ورد ما يؤكد هذا المعنى في ما رواه جابر الجعفي قال: «**تقبضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام، فقلت: جعلت فداك، ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني، حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي؟ فقال عليه السلام: نعم يا جابر، إن الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين من طينة الجنان، وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، فإذا أصاب روحًا من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزنٌ، حزنت هذه لأنها منها**»[2].

وورد هذا المعنى في رواية أخرى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن الرجل يصبح مغمومًا، فقال عليه السلام: «**إذا أصابه ذلك فليعلم أن أخاه مغموم، وكذلك إذا أصبح فرحان لغير سبب يوجب الفرح**»[3]. فالمؤمن يحزن لحزن أخيه المؤمن ويفرح لفرحه، ولو كان في بلد آخر ولا يعرفه. وفي رواية أخرى فُسّر هذا الفرح أو الحزن الذي يصيب المؤمن، بأنّه يكون لفرح أهل البيت عليهم السلام أو حزنهم؛ لأنّ شيعتهم خُلقوا من فاضل طينتهم.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٣، جزء من ح٣٠.
(٢) الكافي ٢: ١٦٦، ح٢.
(٣) بحار الأنوار ج٧١، ص ٢٢٧، ح٢٠.

وعن أبي بصير قال: «**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام ومعي رجل من أصحابنا فقلت له: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، إني لأغتم وأحزن من غير أن أعرف لذلك سببًا؟ فقال** عليه السلام: **إن ذلك الحزن والفرح يصل إليكم منّا؛ لأنّا إذا دخل علينا حزن أو سرور كان ذلك داخلاً عليكم، لأنّا وإياكم من نور الله عز وجل، فجعلنا وطينتنا وطينتكم واحدة، ولو تركت طينتكم كما أُخذت لكنا وأنتم سواء، ولكن مُزجت طينتكم بطينة أعدائكم، فلولا ذلك ما أذنبتم ذنبًا أبدًا**»[1]. وفي الحديث إشارة إلى التزاوج بين المؤمن وغير المؤمنة، فتنتقل هذه الطينة عبر الآباء والأجداد إلى الأجيال، ولو لم تختلط هذه الطينة لكانت طينة المؤمن كطينة المعصوم، فتعطيه الرؤية التي تمنعه من الوقوع في الحرام والذنب والمعصية.

إذن فغمّ أهل البيت عليهم السلام وفرحهم ينعكسان على المؤمنين، فيشعرون بالغم أحيانًا من دون أن يعرفوا سببًا محددًا لذلك، وكذلك يشعرون بالفرح والسعادة من دون أن يعرفوا سببًا محددًا وواضحًا.

(١) بحار الأنوار ج٧٤،ص ٢٦٧.

الحق الحادي عشر
(حضور جنازة الأخ المؤمن)

ذكر رسول الله ﷺ هذا الحق بقوله: «**ويشهد ميتته**»، ينبغي على المؤمن أن يشهد أخاه المؤمن حين وفاته عند احتضاره وعند تغسيله وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه ودفنه وزيارة قبره، وتعاهد أهله؛ لأنّ الأخوّة الإيمانية لا تنحصر في حياة المؤمن في هذه الدنيا، بل يجب أن يستمر تكريم المؤمن واحترامه بعد وفاته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1]، فالآية مطلقة تشمل الإنسان حيًا وميتًا. وقال رسول الله ﷺ: «**حرمة المسلم ميتًا كحرمته وهو حي سواء**»[2]

وسنتناول بالشرح جميع هذه الحقوق التي أشارت إليها الروايات إما بالتصريح قولًا أو من خلال سيرة النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وسلوكهم العملي.

وينبغي ألاّ يختلف مستوى التكريم والتبجيل والاحترام والتوقير للأخ المؤمن، سواء كان حيًا أو ميتًا، كما سيتضح من خلال استعراض الفقرات التالية:

الأولى: عيادة المؤمن عند مرضه وعند الاحتضار

وقد وردت روايات كثيرة في عظيم الثواب الذي ادّخره الله عز وجل للمؤمن الذي يزور أخاه المؤمن في مرضه، نقتصر على ذكر رواية واحدة. روى أبو حمزة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**أيما مؤمن عاد مؤمنًا خاض الرحمة خوضًا، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإذا انصرف وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ويسترحمون عليه ويقولون: طبت وطابت لك الجنة إلى تلك الساعة من غد، وكان له - يا أبا حمزة - خريف في الجنة، قلت: ما الخريف جعلت فداك؟ قال: زاوية في الجنة يسير الراكب فيها أربعين عامًا**»[3]

(١) سورة الإسراء، الآية : ٧٠

(٢) وسائل الشيعة ج٢، ص٨٧٥، الباب الحادي والخمسون، ح١

(٣) وسائل الشيعة ج٢ ،ص ٦٣٤، الباب العاشر من أبواب الاحتضار، ح٣

وأما ما ورد في الاحتضار ففيه أمر بالوجوب بتوجيه المحتضر نحو القبلة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على رجل من ولد عبدالمطلب وهو في السَّوق ـ النزع ـ وقد وُجِّه إلى غير القبلة، فقال: وجّهوه إلى القبلة فإنكم إذا فعلتم ذلك أقبلت عليه الملائكة، وأقبل الله عزّ وجلّ عليه بوجهه، فلم يزل كذلك إلى أن يقبض**»[1]

كما استفاضت الروايات في استحباب تلقين المحتضر الشهادتين، والإقرار بالأئمة عليهم السلام وتسميتهم بأسمائهم، واستحباب تلقين المحتضر كلمات الفرج، وتلقينه التوبة والاستغفار والدعاء بالمأثور، ونقل من اشتد عليه النزع إلى مصلاه الذي كان يصلي فيه أو عليه، واستحباب قراءة سورتي (الصافات) و(يس) عنده، وكراهة حضور الحائض والجنب عنده وقت خروج روحه وعند تلقينه، وكراهة مسه عند خروج روحه، واستحباب تغميضه وشد لحيته وتغطيته بثوب بعد ذلك، واستحباب الإسراج عند الميت ليلاً ودوام الإسراج في ذلك البيت.

الثانية: إعلام إخوته المؤمنين عند موته

ينبغي أن يُشهر ويعلن موت المؤمن بين إخوته المؤمنين ليقوموا بما يجب، ويُستحب عليهم إزاء أخوهم المؤمن، وأن لا يُكتم موته، ولا تجرى عليه المراسم سرًا، ويؤذن لهم بحضور موته، فعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**ينبغي لأولياء الميت منكم أن يؤذنوا إخوان الميت بموته، فيشهدون جنازته، ويصلون عليه، ويستغفرون له، فيُكتب لهم الأجر، ويُكتب للميت الاستغفار، ويكتسب هو الأجر فيهم وفيما اكتسب لميتهم من الاستغفار**»[2]

الثالثة: المبادرة إلى تجهيز الميت

حث الشارع المقدس على الإسراع في تجهيز الميت ودفنه، فقد روى الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**يامعشر الناس لا ألفينّ رجلًا مات له ميت ليلًا فانتظر به الصبح، ولا رجلًا مات له ميت نهارًا فانتظر به الليل، لا تنتظروا بموتاكم طلوع الشمس**

---

(١) وسائل الشيعة ج٢ ص ٦٦٢، الباب ٣٥، ح٦
(٢) الكافي ٣/ ١٦٦، ح١

ولا غروبها، عجّلوا بهم إلى مضاجعهم يرحمكم الله. قال الناس: وأنت يا رسول الله يرحمك الله»[1].

ونقل الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**كرامة الميت تعجيله**»[2]، أي تعجيل دفنه.اللهم إلا إذا اشتبه موته، فيجب أن يُنتظر به ثلاثة أيام إلا أن يتحقق قبلها أو يشتبه بعدها.

روى علي بن أبي حمزة قال: «**أصاب الناس بمكة سنة من السنين صواعق كثيرة، مات من ذلك خلق كثير، فدخلت على أبي إبراهيم عليه السلام فقال مبتدئا من غير أن أسأله: ينبغي للغريق والمصعوق أن يتربص به ثلاثًا لا يُدفن إلا أن يجيء من ريح تدل على موته. قلت: جُعلت فداك كأنك تخبرني أنه قد دُفن ناس كثير أحياء؟ فقال: نعم يا علي قد دُفن ناس كثير أحياء ما ماتوا إلا في قبورهم**»[3]

الرابعة: تغسيل الميت

يجب تغسيل الميت المسلم وجوبًا كفائيًا، ولا يجوز تركه أو دفنه بلا تغسيل، روى سماعة عن أبي عبدالله عليه السلام قوله: «**غسل الميت واجب**».[4]

ولو باشر المؤمن تغسيل أخيه المؤمن ففي ذلك الثواب الجزيل ، فعن أبي سعيد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**أيما مؤمن غسل مؤمنًا فقال إذا قلبه: اللهم إن هذا بدن عبدك المؤمن قد أخرجت روحه منه وفرقت بينهما فعفوك عفوك، إلا غفر الله له ذنوب سنة إلا الكبائر**»[5]

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما من مؤمن غسل مؤمنًا ويقول وهو يغسله: يارب عفوك عفوك، إلا عفا الله عنه**»[6]

---

(١) وسائل الشيعة ج٢ ص ٦٧٤، ح١
(٢) وسائل الشيعة ج٢، ص ٦٧٦، ح٧
(٣) وسائل الشيعة ج٢، ص٦٧٧،ح٥
(٤) وسائل الشيعة ج٢، ص ٦٧٨،ح١
(٥) وسائل الشيعة ج٢، ص ٦٩٠، الباب ٧، ح١
(٦) وسائل الشيعة ج٢، ص٦٩١، ح١

الخامسة: تكفين الميت

يجب تكفين الميت والنهي عن دفنه عاريًا أو دفنه في ملابسه التي مات فيها، يدل على ذلك ما رواه الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**إنما أُمر أن يكفّن الميت ليلقى ربه عزّ وجلّ طاهر الجسد، ولئلا تبدو عورته لمن يحمله أو يدفنه، ولئلا ينظر الناس على بعض حاله وقبح منظره، ولئلا يقسو القلب بالنظر إلى مثل ذلك للعاهة والفساد، وليكون أطيب لأنفس الأحياء، ولئلا يبغضه حميمه فيلغى ذكره ومودته فلا يحفظه فيما خلف وأوصاه به وأمره به وأحب**»(1)

ويستحب التبرع بكفن الميت لما في ذلك من الثواب الجزيل، روى سعد بن طريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من كفن مؤمنًا كان كمن ضمن كسوته إلى يوم القيامة**»(2).

ويجوز تجهيز المؤمن وتكفينه من مال الزكاة إذا لم يخلف مالاً، عن الفضل بن يونس الكاتب قال : سألت أبا الحسن موسى عليه السلام فقلت له: «**ما ترى في رجل من أصحابنا يموت ولم يترك ما يكفن به، أشتري له كفنًا من الزكاة؟ فقال: أعطِ عياله من الزكاة قدر ما يجهزونه فيكونون هم الذين يجهزونه، قلت: فإن لم يكن له ولد ولا أحد يقوم بأمره فأجهزه أنا من الزكاة؟ قال: كان أبي يقول: إن حرمة بدن المؤمن ميتًا كحرمته حيًا، فوارِ بدنه وعورته وجهزه وكفنه وحنطه، واحتسب ذلك من الزكاة، وشيع جنازته. قلت: فإن اتجر عليه بعض إخوانه بكفن آخر وكان عليه دين، أيكفن بواحد ويقضي دينه بالآخر؟ قال: لا، ليس هذا ميراثًا تركه، إنما هذا شيء صار إليه بعد وفاته، فليكفنوه بالذي اتجر عليه، ويكون الآخر لهم يصلحون به شأنهم**»(3).

السادسة: الصلاة على الميت

ونبحث هذه الفقرة ضمن النقاط التالية:

أـ وجوب الصلاة على الميت المسلم

يجب الصلاة على الميت وجوبًا كفائيًا، إذا تركه الجميع أثموا، وإن أتى به بعضهم

---

(1) وسائل الشيعة ج٢، ص٧٢٥، الباب الأول من أبواب التكفين، ح١.
(2) وسائل الشيعة ج٢ / ص ٦٩١، الباب السادس والعشرون من أبواب الدفن، ح١.
(3) وسائل الشيعة ج٢، ص٧٦٠، الباب الثالث والثلاثون، ح١.

سقط عن الآخرين، عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: «**صلِّ على من مات من أهل القبلة، وحسابه على الله**»[1].

ب ـ المبالغة في الدعاء للميت المؤمن

يستحب كثرة الدعاء للميت المؤمن والإلحاح في ذلك؛ لأنه أحوج ما يكون إليه بعد موته،

عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: شارب الخمر والزاني والسارق يصلى عليهم إذا ماتوا؟ قال: نعم**»[2].

ج ـ الصلاة خمس تكبيرات على المؤمن

المشهور من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يصلي على بعض الأموات خمس تكبيرات وعلى البعض الأخر أربع تكبيرات، وقد فسر أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا الاختلاف بأن المؤمن يختص بخمس تكبيرات، بينما يصلى على المنافق أربع تكبيرات، فعن إسماعيل بن سعد الأشعري، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «**سألته عن الصلاة على الميت ، فقال: أما المؤمن فخمس تكبيرات، وأما المنافق فأربع**»[3].

د ـ تكرار الصلاة على المؤمن

ورد في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أنهم زادوا في عدد التكبيرات وكرروا الصلاة على بعض المؤمنين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى على حمزة سبعين صلاة، وكبر عليه سبعين تكبيرة**»[4].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كبر أمير المؤمنين عليه السلام على سهل بن حنيف وكان بدريًا خمس تكبيرات، ثم مشى ساعة ثم وضعه وكبر عليه خمسا أخرى، فصنع به ذلك حتى كبر عليه خمسا وعشرين تكبيرة**»[5].

الخامسة: تشييع جنازة المؤمن

وهو من أبرز حقوق المؤمن على إخوته المؤمنين بعد وفاته، وقد عُد في عدة روايات

---

(١) وسائل الشيعة ج٢ ص ٨١٤، الباب السابع والثلاثون، ح٢.
(٢) وسائل الشيعة ج٢ ، ص ٨١٤، الباب السابع والثلاثون، ح١.
(٣) وسائل الشيعة ج٢، ص ٧٣٧، الباب الخامس من أبواب صلاة الجنازة، ح٦.
(٤) وسائل الشيعة ج٢ ،ص ٧٧٧، الباب السادس من أبواب صلاة الجنازة، ح٣
(٥) وسائل الشيعة ج٢، ص٧٧٧، الباب السادس من أبواب صلاة الجنازة ح١.

بأنه من جملة حقوقه الواجبات، فعن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ فقال: «سبع حقوق واجبات، ما من حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيَع شيئًا منها خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه نصيب ـ ثم عد هذه الحقوق إلى أن قال ـ: والحق السابع أن تبر قسمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته**»[1]

وقد ذكرت الروايات ثوابًا جزيلًا لمن شيع مؤمنًا، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أول ما يتحف به المؤمن في قبره أن يُغفر لمن تبع جنازته**»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من شيع جنازة مؤمن حتى يدفن في قبره وكّل الله به سبعين ملكا من المشيعين يشيعونه ويستغفرون له إذا خرج من قبره إلى الموقف**»[3].

وأما تعيين الجهة التي يمشي بها المشيع أثناء تشييع جنازة المؤمن، فعن أبي بصير قال: «**سألت أبا عبد الله عليه السلام: كيف أصنع إذا خرجت مع الجنازة؟ أمشي أمامها أو خلفها أو عن يمينها أو عن شمالها؟ فقال: إن كان مخالفًا فلا تمشي أمامه، فان ملائكة العذاب يستقبلونه بأنواع العذاب**»[4].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**امشِ أمام جنازة العارف، ولا تمش أمام جنازة الجاحد، فإن أمام جنازة المسلم ملائكة يسرعون به إلى الجنة، وأن أمام جنازة الكافر ملائكة يسرعون به إلى النار**»[5].

ويكره الركوب في جنازة المؤمن، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مات رجل من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج سول الله صلى الله عليه وآله في جنازته يمشي، فقال له بعض أصحابه: ألا تركب يا رسول الله؟ فقال: إني لأكره أن أركب والملائكة يمشون**»[6].

ويستحب حفر القبر لدفن المسلم ، وقد وعد الله سبحانه وتعالى عليه الثواب الجزيل. فعن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من احتفر لمسلم قبرًا محتسبًا حرّمه الله على**

(١) الكافي ج٢، ص ١٦٩، ح٢.
(٢) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٢٠، الباب الثاني من أبواب الدفن، ح٤.
(٣) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٢٢، الباب الثالث من أبواب الدفن، ح٢.
(٤) وسائل الشيعة ج٢، ص٨٢٦، الباب الخامس من أبواب الدفن، ح٥.
(٥) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٢٦، الباب الخامس من أبواب الدفن، ح ٤.
(٦) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٢٧، الباب السادس من أبواب الدفن، ح ١.

النار، وبوّأه بيتًا من الجنة، وأورده حوضًا فيه من الأباريق عدد نجوم السماء، عرضه ما بين ايلة وصنعاء»[1].

السابعة: الدعاء عند إنزال المؤمن في قبره

يستحب الدعاء عند إنزال المؤمن في قبره، عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: **«ما أقول إذا أدخلت الميت منا في قبره؟ قال: قل: اللهم هذا عبدك فلان وابن عبدك نزل بك وأنت خير منزول به، فإذا سللته من قبل الرجلين ودليته قلت: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، اللهم إلى رحمتك لا إلى عذابك، اللهم افسح له في قبره ولقنه حجته وثبته بالقول الثابت وقنا وإياه عذاب القبر، وإذا سويت عليه التراب قل: اللهم جافِ الأرض عن جنبيه، وصعد روحه إلى أرواح المؤمنين في عليين، وألحقه بالصالحين»** [2].

الثامنة: تلقين الميت

يستحب تلقين الميت ويتأكد في المؤمن، روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله لما وضع فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب عليه السلام في قبرها زحف حتى صار عند رأسها، ثم قال: **«يا فاطمة إن أتاك منكر ونكير فسألاك من ربك فقولي: إن الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، وابني إمامي ووليي. ثم قال: اللهم ثبت فاطمة بالقول الثابت، ثم خرج من قبرها وحثا عليها حثيات»**[3].

التاسعة: حثو التراب على قبر الميت

يستحب حثو التراب على قبر الميت المؤمن باليد وظهر الكف ثلاثًا والدعاء بالمأثور، عن محمد بن مسلم قال: **«كنت مع أبي جعفر عليه السلام في جنازة رجل من أصحابنا، فلما أن دفنوه قام إلى قبره فحثا التراب عليه مما يلي رأسه ثلاثًا بكفه ثم بسط يده على القبر، ثم قال: اللهم جاف الأرض عن جنبيه، وأصعد إليه روحه، ولقه منك رضوانًا، وأسكن قبره من رحمتك ما تغنيه به عن رحمة من سواك، ثم مضى»**[4]

---

(١) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٣٣، الباب الحادي عشر من أبواب الدفن، ح٢.
(٢) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٥٠، الباب الحادي والعشرون من أبواب الدفن، ح ٤.
(٣) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٨٤، الباب العشرون من أبواب الدفن، ح٩.
(٤) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٥٥، الباب التاسع والعشرون ،ح ٣

العاشرة: جعل اللبن والآجر على قبر المؤمن

يجوز جعل اللبن والآجر على قبر الميت المؤمن، عن أبان بن تغلب قال : «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جعل علي عليه السلام على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله لبنًا. فقلت: أرأيت إن جعل الرجل عليه آجرًا هل يضر الميت؟ قال: لا** »[1]

الحادية عشرة: تربيع القبر

يستحب تربيع قبر المؤمن ورفعه أربع أصابع ورشّ الماء عليه، عن عقبة بن بشير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : يا علي ادفني في هذا المكان، وارفع قبري من الأرض أربع أصابع، ورش عليه الماء**»[2]

الثانية عشرة: القيام على القبر والدعاء بالمأثور

يستحب القيام على قبر المؤمن والدعاء له بالمأثور، عن عبدالله بن عجلان قال: «**قام أبو جعفر عليه السلام على قبر رجل من الشيعة فقال: اللهم صل وحدته، وآنس وحشته، وأسكن إليه من رحمتك ما يستغني بها عن رحمة من سواك**»[3]

الثالثة عشرة: وضع لوح على القبر

يستحب وضع لوح على قبر المؤمن وكتابة اسمه عليه، عن أبي علي الخيراني، عن جارية لأبي محمد عليه السلام : «**أن أم المهدي عليه السلام ماتت في حياة أبي محمد عليه السلام ، وعلى قبرها لوح مكتوب عليه: هذا قبر أم محمد**»[4]

الرابعة عشر: زيارة القبر

يستحب زيارة قبر المؤمن، عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام : «**الموتى نزورهم؟ قال: نعم. قلت: فيعلمون بنا إذا أتيناهم؟ فقال: إي والله إنهم ليعلمون بكم، ويفرحون بكم، ويستأنسون إليكم**»[5]

---

(١) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٤٥، الباب الثامن والعشرون من أبواب الدفن،ح١
(٢) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٥٦، الباب الحادي والثلاثون من أبواب الدفن، ح٣
(٣) وسائل الشيعة ج ٢/ ، ص٨٦٢، الباب الرابع والثلاثون من أبواب الدفن، ح١
(٤) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٦٤، الباب السابع والثلاثون من أبواب الدفن،ح٣
(٥) وسائل الشيعة ج٢، ص ٨٧٨، الباب الرابع والخمسون من أبواب الدفن، ح٢

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي الحسن عليه السلام قال: «**قلت له: المؤمن يعلم من يزور قبره؟ قال: نعم لا يزال مستأنسًا به ما زوال عند قبره، فإذا قام وانصرف من قبره دخله من انصرافه عن قبره وحشة** »[1]

الخامسة عشرة: تعاهد أهله

ينبغي أن يتعاهد المؤمن عائلة أخية المؤمن الميت، ويتفقد أحوالهم ويسد عوزهم، وقد صرحت الروايات بأنه حق من حقوق المؤمن على إخوته المؤمنين، عن أبي جعفر عليه السلام قال : «**من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته...إلى أن قال: فإذا مات خلفه في أهله وولده**»[2]

الصلاة على المنافقين

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3]، أي يا رسول الله، إن الذين خذلوك وتكاسلوا عن الجهاد معك وطعنوا الأمة الإسلامية والمشروع الإسلامي من الخلف هم منافقون، فإذا مات واحد منهم فلا تصلِّ على جنازته ولا تقم على قبره، ولا تمنحه الشرعية ولا تحترمه ولا تقدره، فالمنافق يجب أن يعاقب، ولا يعامل معاملة المؤمن.

ثم تبيّن الآية الكريمة علّة نهي الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله عن الصلاة على المنافق إذا مات وزيارة قبره بأمرين:

الأول: كفرهم بالله ورسوله، فهؤلاء نتيجة خذلانهم وطعنهم بالمشروع الإسلامي وتقاعسهم عن أداء واجباتهم، كفروا بالله ورسوله، لأنّ حقيقة الإيمان هي النصرة، فالإيمان موقف والتزام وحمل للمشروع، وهؤلاء تخلوا عن المشروع وكفروا بالله ورسوله.

---

(١) وسائل الشيعة ج٢/ ، ص٨٧٨، الباب الرابع والخمسون من أبواب الدفن،ح٤
(٢) . الكافي ج٢، ص ١٦٩، ح١
(٣) سورة التوبة، الآية : ٨٤.

والثاني: ماتوا وهم فاسقون، فالذي يخذل الله ورسوله ويخذل الأمة ويطعن مشروعها هو إنسان فاسق.

فترك الصلاة على المنافقين، وترك الوقوف على قبورهم والدعاء لهم، يُفهم منه أنّه عذاب وطرد لهم، وكشف وتعرية لانحرافهم. ومفهوم هذه الآية الكريمة أنه إذا مات المؤمن، فصلّ عليه يا رسول الله، وقف على قبره، وادعُ له.

وهناك مجموعة من الآداب التي تجب مراعاتها في تشييع المؤمن عند وفاته، هي:

الأول: المشي خلف الجنازة أو بجانبها وعدم التقدم عليها، على عكس ما عليه المجوس والنصارى، إذ يمشون أمام الجنازة.

الثاني: يكون التشييع مشيًا على الأقدام، فلا تكون الجنازة مرفوعة على الأكف والمشيعون يسيرون خلفها بسياراتهم، أو تكون الجنازة في سيارة الأسعاف والمشيعون خلفها بسياراتهم، فهذا ليس تشييعًا، لأنّه يفقد التوقير اللازم للميت.

الثالث: عدم ترك التشييع في أثناء الطريق، بل يجب البقاء مع الميت إلى حين دفنه، لما فيه من حفظ لكرامة الميت وتوقيره، اللهم إلا إذا شكر ولي الميت المشيعين وطلب منهم عدم معاناة المشقة أكثر من ذلك، فحينئذ يمكن الاستفادة من هذا الترخيص ومغادرة التشييع، ولكن مع ذلك لا يسقط الرجحان، ويبقى من المستحب مواصلة التشييع حتى انتهاء مراسيم الدفن، ولكنه يرفع كراهية الانسحاب من التشييع.

الرابع: تجنب الضحك وإبراز الفرح والسرور والمزاح في أثناء التشييع، فهو عمل يفتقد إلى اللياقة اللازمة، فالمقام مقام حزن ومواساة لأهل الميت، وتوقير للمؤمن المرفوعة جنازته أمام أنظار الناس. وقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من ضحك على جنازة أهانه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ولا يستجاب دعاؤه، ومن ضحك في المقبرة رجع وعليه من الوزر مثل جبل أحد، ومن ترحم عليهم نجا من النار**»[1].

وورد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين عليه السلام تَبِع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال: «**كأنّ الموت فيها ـ أي في الدنيا ـ على غيرنا كُتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الذين نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم،**

(١) وسائل الشيعة ٣: ٢٣٣، ح٥.

ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظ وواعظة، ورمينا بكل فادح وجائحة»[(١)].

يوبّخ أمير المؤمنين عليه السلام أحد الأشخاص حين سمعه يضحك في تشييع جنازة ويعظه ليدرك خطأ فعلته، ويبيّن أنّ ضحكه في هذا المقام يعني عدم فهمه لفلسفة الحياة في الدنيا، وأنّ الموت محتّم علينا لا مفر منه، فكيف نتناسى هذه الحقيقة الدامغة ونتعامل في الدنيا وكأننا فيها مخلّدون، وكأنّ الموت على غيرنا قد كُتب وليس علينا، وكأنّ هؤلاء الأموات الذين يرحلون من بين ظهرانينا سوف يرجعون إلينا قريبًا، ونتغافل عن حقيقة أنهم راحلون إلى عالم آخر لا عودة منه إلى عالم الدنيا، ولا يشغلنا من هؤلاء الأموات إلا التفكير في ما تركوه من أموال وكيف نتقاسمها، فصرنا نحن مثابة من يرمى بكل أمر جلل وبكل آفة، وعندها فإنّ الله سبحانه وتعالى لن يرحمنا عندما يكون حالنا هو عدم الاعتبار، وعدم وزن الأمور بميزانها الصحيح، فلا نعطيها قيمتها ولا نحفظ للمؤمن كرامته، فحينئذ يجب أن ننتظر أي بلاء سينزل بنا، ويسلط الله سبحانه وتعالى علينا من لا يرحمنا، ويحمّلنا من الأمور ما لا طاقة لنا بها، إذن علينا أن نتجنب الضحك في أثناء تشييع جنازة المؤمن.

الخامس: السكينة والوقار، أي على من يشترك في تشييع جنازة ألّا يتكلم بغير ذكر الله تعالى، ولا يتلفت يمينًا وشمالاً، ويمشي بسكينة ووقار وهدوء ويفكر ويعتبر.

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**عليكم بالسكينة ،عليكم بالقصد في المشي بجنائزكم**»[(٢)]، يوصي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسكينة والوقار والمشي بهدوء وعدم الإسراع عند تشييع الجنازة، ثم قبل الوصول إلى القبر يُستحب إنزال الميت، ثم رفع الجنازة والمشي بها خطوتين ثم إنزالها مرة ثانية، ثم رفع الجنازة وإنزالها في القبر، فالميت ذاهب إلى دار الوحشة والغربة، وروح الميت ترمق أهلها وذويها ومن حضر جنازتها بنظرات توديع، وهي ذاهبة إلى مثواها الأخير.

هذه هي أهم آداب التشييع التي نجدها في الروايات.

وللمؤمن المتوفى حقوق علينا، منها:

الحق الأول: زيارة قبره، فزيارة قبر المؤمن كزيارته حيًا، وقد ورد في الروايات أن الميت يعلم بقدوم من يزوره كما يعلم الحي ذلك، فعن أبي المأمون الحارثي قال: «**قلت**

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٢٩، الحكمة ١٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ٢٥٩، ح٩.

لأبي عبد الله عليه السلام **: ما حق المؤمن على المؤمن؟ قال: إن من حق المؤمن على المؤمن المودّة له في صدره... إلى أن قال: وإذا مات الزيارة إلى قبره»**[١].

وفي رواية أخرى، سأل محمد بن مسلم أبا عبد الله عليه السلام : «**الموتى نزورهم؟ قال: نعم. قلت: فهل يعلمون بنا إذا أتيناهم؟ فقال** عليه السلام **: إي والله إنهم ليعلمون بكم، ويفرحون بكم، ويستأنسون إليكم**»[٢].

وجاء في رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**إنهم يأنسون بكم، فإذا غبتم عنهم استوحشوا**»[٣].

وعن عمرو بن أبي المقدام قال: «**مررت مع أبي جعفر بالبقيع بقبر رجل من أهل الكوفة، قال: فوقف عليه وقال** عليه السلام **: اللهم ارحم غربته، وصل وحدته، وآنس وحشته، واسكن إليه من رحمتك ما يستغني بها عن رحمة من سواك، وألحقه بمن كان يتولاه**»[٤]، وهكذا ينبغي أن ندعو عندما نقف على قبر المؤمن.

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**من أتى قبر أخيه، ثم وضع يده على القبر وقرأ إنا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرات، أمن يوم الفزع الأكبر، أو يوم الفزع**»[٥] الشك من الراوي هل قال الإمام الفزع الأكبر أو الفزع، والنتيجة واحدة. فمن وضع يده على قبر أخيه المؤمن وقرأ سورة القدر سبع مرات، آمنه الله من أهوال يوم القيامة؛ لأنه أزال الوحشة عن أخيه المؤمن.

الحق الثاني: ألاّ يُذكر بسوء، لأنّه قد ذهب إلى دار حقه، وفيها سيحاسب على ما أتى من عمل صالح أو طالح، وليس للميت المؤمن إلا الرحمة والذكر الحسن، لأنّ من كان أهلًا لرحمة الله، كيف نتجرأ ونذكره بسوء؟. فقد روى الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق واجبة من الله** عزّ وجلّ **عليه...إلى أن قال: ألاّ يقول فيه بعد موته إلا خيرًا**»[٦].

(١) الكافي ٢: ١٧١، ح ٧.
(٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٢٢، ح٢.
(٣) الكافي ٣: ٢٢٨، ح١.
(٤) الكافي ٣: ٢٢٩، ح٦.
(٥) الكافي ٣: ٢٢٩، ح٩.
(٦) وسائل الشيعة ١٢: ٢٠٨، ح١٣.

الحق الثالث: أن يُحفظ في أهله وولده، فتجب رعاية عائلة المؤمن المتوفى كما لو كان حيًا، لأنّ المرء يُحفظ في ولده، وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**من حق المؤمن على أخيه المؤمن...إلى أن قال: فإذا مات خلفه في أهله وولده**»[1]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**مودّة الآباء نسب بين الأبناء**»[2]، والنسب يعني القرابة، فإذا تصادق اثنان من الآباء، فإنّ العلاقة بينهما ستمتد إلى عائلتيهما، فالعلاقة بين الآباء بمثابة القرابة بين الأبناء، فيتصادق أولادهم بعضهم مع بعض، وتتصادق نساؤهم بعضهن مع بعض.

وورد في نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مودّة الآباء قرابة بين الأبناء، والقرابة إلى المودة أحوج من المودّة إلى القرابة**»[3]، لأنّ المودّة تولد القرابة، ولا تولّد القرابة المودّة. فليس المهم بالقريب إلا المحبة، فيؤمن غدرته، ويقف معه في الشدة، ففائدة القرابة المودّة، والمهم في القرابة والعلاقة الرحمية المودّة والمحبة والنصرة، ولكن ما الفائدة من قريب لا يكلّم قريبه سنين؟، فهذه القرابة أحوج للمودّة من حاجة المودّة إلى القرابة، فإذا كانت هناك قرابة ولا توجد مودّة بينهم فهناك مشكلة، ولكن إذا كانت هناك مودّة، ولكن لا توجد قرابة فليس هناك مشكلة، فحاجة القرابة إلى المودة أكثر من حاجة المودة إلى القرابة، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) الكافي ٢: ١٦٩، ح١.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٨٨.
(٣) نهج البلاغة ٤: ٧٣، ح٣٠٨.

الحق الثاني عشر
(إجابة دعوة المؤمن)

يتمثل هذا الحق في قول رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في الرواية محل البحث: «**ويجيب دعوته**»، أي يقبل دعوته له لتناول الطعام. وهذا الحق لا يختص بالمؤمن فقط، بل يشمل جميع المسلمين؛ لأنّ أغلب روايات هذا الباب جاءت تحت عنوان إجابة دعوة المسلم، ولكن هناك خصوصيات للمؤمن كما سيتضح من خلال البحث.

وهذا النص يحتمل معنيين:

الأول: وهو الأظهر أن يجيب دعوته إذا دعاه لوليمة، أو للحضور في مجلسه وداره، وهو يتطلب:

أ- أن يكون الدافع تعميق الأخوّة الإيمانية والتقارب بينهما، وليس الرياء أو استغلاله ماديًا أو معنويًا أو اعتباريًا.

ب- ألاّ تكون الدعوة عبئًا على الضيف المؤمن، كما لو اضطر الى إلغاء مواعيده والتزاماته، أو كانت تؤثر في صحته أو وضعه الاقتصادي، كأن تتطلب السفر إلى مكان بعيد للحضور إلى دار المؤمن.

ج- مع توفر الشروط يجب عدم الاهتمام بنوع الضيافة، فالمسألة ليست ذات صلة بالطعام بقدر ما هي توثيق للعلاقة الإيمانية، وأن يتقبل من المضيف ما تجود به نفسه.

ويؤيد هذا المعنى ما ورد عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنه قال: «**لو دُعيت إلى كراع لأجبت**»[(١)]، والكراع هو رجل الشاة أو يدها.

الثاني: إذا طلب منه شيئًا أو حاجة فعليه أن يجيبه، فيستمع إليه ويتعامل مع حاجته.

وقد يشير إلى هذا المعنى ما ورد عن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبعة حقوق واجبات... والحق الثاني أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره**»[(٢)].

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ٢٨٨٢٥ ح١٣.
(٢) الكافي ٢: ١٦٩ ح٢.

وما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**أطع أخاك وإن عصاك**»(١) أي حتى لو لم يستجب لمطالبك فأنت أجب دعوته وأعنه في ما يطلب.

وقد تطرقت الروايات التي تتحدث عن هذا الحق إلى مواضيع مختلفة نحاول التعرض لها في ما يلي:

إجابة الدعوة سنّة نبوية

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل الدعوة إلى الطعام، كما ورد ذلك في ما رواه جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجيب الدعوة**»(٢)، فمع كثرة أشغاله وازدحام أوقاته في تبليغ الرسالة وإدارة الدولة، كان حريصًا على إجابة دعوة من يدعوه من المسلمين لتناول الطعام في منزله، ويمكننا أن نتصور بسهولة كيف أنّ المسلمين كانوا حريصين أيضًا على دعوته إلى بيوتهم تبركًا وتقربًا، بل إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبادلهم هذه الدعوات، فكان يدعوهم إلى منزله لتناول الطعام، ترسيخًا لهذا الخلق الكريم في المجتمع، كما نطق بذلك القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾(٣). وكان من رفيع خلقه صلى الله عليه وآله إجابة دعوة المسلم وإن كان فقيرًا ضعيفًا مملوكًا غريبًا، ولم يكن يستنكف من ذلك، فقد ورد عن ابن عباس قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك**»(٤).

إجابة الدعوة من حقوق المسلم

أكدت الروايات الشريفة أنّ تلبية دعوة المسلم لأخيه المسلم هي من حقوقه التي ينبغي مراعاتها، فعن إسحاق بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ من حق المسلم على المسلم أن يجيبه إذا دعاه**»(٥). بل هي من الواجبات كما صرحت بذلك رواية المعلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ من حق المسلم الواجب على أخيه إجابة**

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٢١٣ ح ٤٠.
(٢) وسائل الشيعة ٢٤: ٢٧١، ح٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٤) مستدرك الوسائل ١٦: ٢٣٦، ح ١٠.
(٥) الكافي ٦: ٢٧٤ ح ٢.

دعوته»[١]، فهي إذن حق واجب للمسلم، فضلًا عن المؤمن الذي يحظى بحق أعظم من أخيه المؤمن، كما في رواية المعلى بن خنيس أيضًا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ من الحقوق الواجبات للمؤمن أن تجاب دعوته**»[٢].

وجوب إجابة دعوة المؤمن

أما المؤمن فقد ورد التأكيد والتغليظ على إجابة دعوته، واعتبارها من الواجبات، وأنّ من تركها تهاونًا بها فقد خرج من ولاية الله سبحانه وتعالى، فقد روى المعلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق واجبة، ليس منها حق إلا وهو واجب على أخيه، إن ضيّع منها حقًا خرج من ولاية الله وترك طاعته ولم يكن له منها نصيب ـ إلى أن قال ـ والسابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته**»[٣].

الحث على إجابة الدعوة

قد يجد من لا يريد تلبية دعوة الأخ المسلم العذر المقبول لدى الداعي في حضور مأدبة الطعام كبعد المسافة وازدحام السير، ولكن مع ذلك فإنّ الإسلام يدعو أتباعه إلى تحمل المشاق من أجل ذلك، فقد روى جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أوصي الشاهد من أمتي والغائب أن يجيب دعوة المسلم، ولو على خمسة أميال، فإنّ ذلك من الدين**»[٤]، والمعلومة الجديدة التي تضيفها هذه الرواية الكريمة هي أنّ إجابة دعوة المسلم هي من الدين، يعني أنه إنما يمتثل أمرًا دينيًا كما هي الأمور الدينية الأخرى، وإن كان مظهرها مظهرًا دنيويًا بحتًا؛ لأنّ المقصود من إجابة الدعوة ليس هو الأكل والشرب، وإنما احترام المسلم وإكرامه أمام أهله وذويه وجيرانه ومعارفه بإجابة دعوته، وتعزيز العلاقات الطيبة في المجتمع، وما يترتب على إجابة الدعوة من آثار اجتماعية كثيرة، منها تقريب قلوب الحاضرين بعضهم من بعض والتعارف بينهم، وغير ذلك من النتائج الطيبة التي يريدها الإسلام.

---

(١) الكافي ٦: ٢٧٤ ح٥.
(٢) الكافي ٦: ٢٧٤ ح٣.
(٣) مستدرك الوسائل ١٦: ٢٣٦، ح٧.
(٤) الكافي ٦: ٢٧٤ ح٤.

ترك إجابة دعوة المسلم

وصفت الروايات الكريمة ترك إجابة دعوة المسلم إلى مائدة الطعام بوصفين:

الأول: أنه من الجفاء، فإنك عندما تعتذر عن إجابة دعوة أخيك المسلم من غير علة صادقة ملزمة تكون قد جفوته، وخلقت فجوة بينك وبينه يصعب ردمها، وقد ورد في هذا المعنى ما رواه أبو البختري عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه الباقر عليهما السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثلاثة من الجفاء: أن يصحب الرجل فلا يسأله عن اسمه وكنيته، وأن يُدعى الرجل إلى طعام فلا يجيب أو يجيب فلا يأكل، ومواقعة الرجل أهله قبل الملاعبة**»(١).

الثاني: أنه من العجز، فالإنسان محتاج إلى تناول الطعام، وهو لا بُدَّ من أن يفعل ذلك في أوقات معروفة في اليوم، وهو إن لم يتناول هذه الوجبة في دار أخيه فسيتناولها في بيته، فلا يوجد مبرر مقبول إن لم يكن هناك عذر صادق ملزم غير العجز والكسل، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**إنّ من أعجز العجز رجلًا دعاه أخوه إلى طعامه فتركه من غير علّة**»(٢).

إنّ الإسلام باصراره هذا على إجابة الدعوة، إنما يريد أن يقضي على الانعزال والابتعاد عن المجتمع، الذي قد يحسبه البعض فضيلة خُلقية، ويدعوهم إلى الاختلاط بينهم والتعارف والتآلف ولو على مستوى إجابة الدعوة إلى تناول الطعام.

الثالث: أنه من العصيان، فإنه مع كل هذه التأكيدات على أهمية إجابة دعوة المسلم، يُعد تركها من غير عذر ملزم عصيانًا، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله**»(٣).

دوافع ترك إجابة الدعوة

عزا الإسلام أسباب ترك إجابة دعوة المسلم إلى البخل، وتلبيتها إلى الكرم، فالإنسان البخيل هو الذي لا يجرؤ على أن يأكل من طعام الآخرين خوفًا من أن يأكلوا من طعامه، كما أنّ الإنسان الكريم يحب أن يأكل من طعام الآخرين حتى يأكلوا من طعامه، فقد

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٤٤٧، ح٤.
(٢) وسائل الشيعة ٢٤: ٢٧١، ح٩.
(٣) مستدرك الوسائل ١٦: ٢٣٤، ح٥.

روى ياسر الخادم عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «**السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه، والبخيل لا يأكل من طعام الناس لئلا يأكلوا من طعامه**»[١]. وروي عن الإمام الرضا عليه السلام أيضًا أنه قال: «**الخيّر يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه**»[٢].

عدم إجابة دعوة الفاسق والمنافق والمشرك

في الوقت الذي حث فيه الإسلام على ضرورة إجابة دعوة المسلم والمؤمن، فقد نهى عن إجابة دعوة الفاسق والمنافق والمشرك؛ لأنّ إجابة دعوتهم تعد تكريمًا لهم وإعلاء لشأنهم في المجتمع، في حين أمر الإسلام بوجوب نهي الفساق عن المعاصي، وشدد على محاربة المنافقين والكفار والإغلاظ عليهم، فقد روى الحسين بن زيد عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: «**ونهى عن إجابة دعوة الفاسقين إلى طعامهم**»[٣]. وما رواه إبراهيم الكرخي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لو أنّ مؤمنًا دعاني إلى طعام ذراع شاة لأجبته، وكان ذلك من الدين، ولو أنّ مشركًا أو منافقًا دعاني إلى طعام جزور ما أجبته، وكان ذلك من الدين، أبى الله لي زبد المشركين والمنافقين وطعامهم**»[٤].

حضور الوليمة من غير دعوة

حذّر الإسلام من حضور الوليمة من غير دعوة صاحبها؛ لما في ذلك من إحراج لصاحب الوليمة الذي أحضرمقدارًا من الطعام على عدد من دعاهم، أو لضيق المكان الذي قد لا يتسع لأكثر من المدعوين، أو لغير ذلك من الأسباب، فقد روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «**من دخل على غير دعوة دخل سارقًا وخرج معيّرًا**»[٥].

---

(١) مستدرك الوسائل ١٦: ٢٦٨، ح٣.
(٢) وسائل الشيعة ٢٤: ٢٧٩، ح١٠.
(٣) وسائل الشيعة ٢٤: ٢٦٨، ح٢.
(٤) الكافي ٦: ٢٧٤ ح١.
(٥) مستدرك الوسائل ١٦: ٢٣٦، ح١١.

تحذير المسؤولين من حضور ولائم الأغنياء

لقد شيّد الإسلام دولته الكريمة في عهد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ودولة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على مراعاة الفقراء والطبقة المحرومة في المجتمع ماديًا ومعنويًا، وعدم المساس بمشاعرهم ولو على مستوى حضور المسؤولين مأدبة طعام يُدعى لها الأغنياء دون الفقراء، ويتضح ذلك جليًا من الكتاب الذي أرسله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فسعى إليها: «**أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلًا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تُستطاب لك الألوان، وتُنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو..**»[1].

(١) نهج البلاغة ١: ٧٢.

الحق الثالث عشر

(قبول هدية المؤمن)

يتضح الحق الثالث عشر من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يقبل هديته**»، أي من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، قبول هدية الأخ المؤمن، وهذا يجرنا للبحث عن موضوع الهدية والصلة، وهي عمل يذكر الإنسان من خلاله الآخرين، فيقدّم لهم شيئًا من شأنه أن يعزز العلاقة والمحبة والأخوّة بين صاحب الهدية ومن أهديت إليه. وهذه الهدايا مهما كانت بسيطة، إلاّ أن لها أثرًا نفسيًا طيبًا في قلوب الناس ونفوسهم. ولذلك هناك تشجيع وحث في النصوص الشرعية على مسألة الهدية، وتشديد على استحبابها.

ولا بُـدَّ من البحث في عدة محاور في هذا الموضوع:

المحور الأول: أهمية الهدية

وتتجلى أهميتها في دورها الكبير في تطييب الخواطر وتقريب النفوس وكسر الحواجز.

فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: لئن أهدي لأخي المسلم هدية تنفعه، أحبّ إليّ من أن أتصدق بمثلها**»[(١)]، ففي سلّم الأولويات في الأعمال الصالحة، تُقدّم الهدية المفيدة على الصدقة.

وعن الرضا عليه السلام، عن أبيه الإمام الكاظم عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن علي عليه السلام أنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نِعمَ الشيء الهدية، وهي مفتاح الحوائج**»[(٢)]، أي من أراد من الله سبحانه وتعالى أن يقضي حوائجه ويحل مشاكله، فليقدم هدية لأخيه المؤمن؛ لأنّها من أفضل الأشياء.

(١) الكافي ٥: ١٤٤، ح١٢.
(٢) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٦، ح١٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**ثلاثة تدل على عقول أربابها: الرسول، والكتاب، والهدية**»[1].

يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحكمة المباركة، أن هناك ثلاثة أشياء لو أتى بها الإنسان، لكانت دليلاً على رجحان عقله، وأنّ لديه حكمة في التعاطي والتعامل مع الآخرين، وهي:

الأول: الرسول، فهو يقطع الطريق على القيل والقال، ويمنع من أن تُحرّف الحقائق وتُشوّه الوقائع وتتغير الأخبار، فتترتب عليها نتائج وخيمة، فإنّ كثيرًا من مشاكلنا اليوم هي من جراء هذا الكم الهائل من القيل والقال، ولو أن الإنسان عندما يتعرض إلى مشكلة يرسل من يتفاوض عنه مع الطرف المقابل بشكل مباشر، لحُلت كثير من المشاكل وقُضي على الشائعات التي تلوكها الأفواه بسبب الغموض الذي يكتنف كل مشكلة، ولكن لو تركها صاحبها سائبة، فستصل إلى الطرف المعني مشوهة أو مبتورة أو أكبر من حجمها. إذن فالذي يرسل رسولاً ويفتح قناة مباشرة مع الأطراف الأخرى، يوصل رسالته بشكل صحيح، وهذا يعني أنّه عاقل وهو دليل على الحكمة.

الثاني: الكتاب، وفيه توثيق للأشياء، وعدم تركها عرضة للنسيان بسبب الاتكال على الذاكرة وحدها، وعن طريق كتابة وتوثيق الاتفاقات والبيوع وأنواع المعاملات، سوف تُحل الكثير من المشكلات، فالوثيقة خير دليل وخير برهان وخير ما يرجع إليه، من دون زيادة أو نقصان.

الثالث: الهدية، وهو مورد الشاهد، فالهدية مفتاح العاقل إلى قلوب الناس، إذ يجسّر بها العلاقة معهم ويمتد إلى قلوبهم، فهي تدخل في نفوس الآخرين، ولذا يُستحب للإنسان أن يقدم هدايا إلى الآخرين.

المحور الثاني: دوافع الهدية

يجب أن يكون الدافع شريفًا ونبيلاً، وأن يكون لله سبحانه وتعالى.

وهناك أسباب عديدة للهدية:

منها: مكافأة المحسن على معروفه، كما لو تطوع إنسان بتقديم خدمة أو إسداء

---

(١) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٦، ح١٣.

معروف، فهنا تُقدم له هدية مقابَلة لإحسانه بالإحسان. وهي يمكن أن تكون دافعًا مهمًا من دوافع الهدية.

ومنها: مجاملة من يراد مجاملته، ومثاله العرف السائد في أوساطنا بتقديم وجبات من الطعام للجار الجديد الذي نزل توًا في داره، فهو بسبب انشغاله بنقل الأثاث وترتيبه لا يستطيع الطهو، فيقوم الجيران بإهداء الطعام له، أو كتقديم الهدايا للأقرباء والأصدقاء في المناسبات، كالقدوم من سفر الحج والزيارة، والأفراح كالزواج والولادة، من أجل تعزيز الروابط معهم.

ومنها: الهدية لله سبحانه وتعالى، فتقدم الهدايا لا من أجل هدف معين، وإنما في سبيل الله سبحانه وتعالى وتقربًا إليه. وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **الهدية على ثلاثة أوجه: هدية مكافأة، وهدية مصانعة، وهدية لله عزّ وجلّ**»[1].

وعن أبي الحسن عليه السلام، في الرجل يهدي الهدية إلى ذي قرابته يريد الثواب وهو سلطان، قال: «**ما كان لله عزّ وجلّ ولصلة الرحم فهو جائز وله أن يقبضها**»[2].

ولكن إذا كانت الدوافع غير شريفة وغير نظيفة فلا تجوز، كما لو كانت الهدية غطاء للرشوة، من أجل تمشية معاملة معينة، ولو قيل له إنّها رشوة فربما لن يقبل، أو يرفع دعوى قضائية ضد صاحبها، فيعمد إلى القول إنها هدية، مع أنّها في حقيقتها رشوة، إذ لا تتغير الحقائق بتغير الأسماء.

ومما يؤكد هذا المعنى ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند ذكر أهل الفتنة فقال: «**فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع**»[3]، أي يسمّون الخمر نبيذًا ويشربونه؛ لحرمة الخمر وحلية النبيذ، ويسمّون الرشوة هدية؛ لحرمة الرشوة وحلية الهدية، ويسمّون الربا بيعًا؛ لحرمة الربا وحلية البيع، فيخادعون الآخرين بتغيير الأسماء، لتغيير الأحكام الثابتة عند الله عزّ وجلّ، وما يخدعون إلا أنفسهم.

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضًا قال: «**من شفع لأخيه شفاعة، فأهدى إليه هدية فقبلها منه، فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الربا**»[4].

---

(١) الكافي ٥: ١٤١، ح١.
(٢) الكافي ٥: ١٤١، ح٤.
(٣) بحار الأنوار: ٧٢: ٤٥، ح٧.
(٤) كنز العمال ٦: ١١٢، ح١٥٠٧٠.

وعن أبي حميد الساعدي قال: «**استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد، فلما قدم قال هذا لكم وهذا لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أُهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا ؟. والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئًا، إلا جاء به يوم القيامة يحمله في عنقه أمام الناس**»[(١)].

تتحدث هذه الرواية الكريمة عن أمر مهم يتعلق بادارة الدولة، ولا سيَّما في ظروفنا الحالية، وهو أن رسول الله ﷺ وظّف شخصًا لجباية الضرائب، وعندما ذهب هذا الشخص وأنجز عمله ورجع إلى رسول الله ﷺ في المسجد، أخرج الأموال التي جمعها، ولكنه قال هذا لبيت المال، وهو ما جباه من الضرائب، وهذا لي مما أعطانيه الناس من هدايا، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، وخطب خطبة تعرّض فيها لمعالجة هذه الظاهرة قبل استفحالها، فاستنكر أولًا على هذا الموظف عمله هذا، وإن لم يكن في ظاهره أنّه ارتكب حرامًا، بل لم يكن هذا الموظف يرى أن في عمله هذا أدنى شبهة؛ لأنّ ما حصل عليه كانت هدايا حباه بها الناس فعلًا، ولكن رسول الله ﷺ بيّن أن هذه الهدايا ليست لهذا الموظف، الذي لم يكن ليحصل عليها لولا تصديه لعمله الوظيفي هذا، فلو قعد في داره فهل سيحصل عليها؟. وقطعا يتفق الجميع على نفي ذلك، ومعنى ذلك أن هذه الأموال التي حصل عليها بعنوان الهدية، يجب أن ترجع لبيت المال. ثم حذّر رسول الله ﷺ من أن أي شخص يأخذ مثل هذه الهدايا بسبب وظيفته ويجعلها لنفسه، فإنّه سيطوق بها يوم القيامة أمام الناس جميعًا، ويفضحه الله تعالى على رؤوس الخلائق.

وقد كتب سماحة الوالد عزيز العراق (رحمة الله عليه) في وصيته: كل هدية قُدّمت لي وقيمتها أكثر من ثمن قارورة عطر؛ خمسة آلاف إلى عشرة آلاف دينار، فهي ليست لي وإنما هي لبيت المال، فإني لو كنت جالسًا في الحوزة العلمية في النجف الأشرف ومشغولا بالدرس والتدريس، هل سيعطيني أحد هذه الهدايا ؟،هذه هدايا للموقع وليست لشخصي. وهذا درس لنا جميعًا علينا أن نستفيد منه ونتعلم منه.

وورد عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[(٢)]، والسحت هو المال الحرام، أنه قال: «**هو الرجل يقضي لأخيه الحاجة ثم يقبل هديته**»[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم ٦: ١١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٢.
(٣) تفسير نور الثقلين ١: ٦٣٣، ح١٩٨.

المحور الثالث: قبول الهدية

وهو من مكارم الأخلاق إذا كانت ضمن المعايير الصحيحة. وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من تكرمة الرجل لأخيه المسلم أن يقبل تحفته، ويتحفه بما عنده ولا يتكلف له شيئًا**»(١)، فكرامة المسلم عند أخيه هي قبول هديته، ومن هوانه عليه عدم قبولها.

ومما يرتبط بقبول الهدية موضوع المكافأة على الهدية، ولا ينبغي التكلف في ردّ الهدية بمثلها أو أحسن منها، بل كلٌ بحسب حاله، فالهدية أمر معنوي بحت، ولا ينبغي أن يقيّم بتقييم مادي، وإنما قيمته بما يحمله من معنى التكريم، فمثلًا كانت لي بنت في الروضة ورسمت ورودًا على قصاصة من الورق وأهدتها لي، فكان لهذه القصاصة وقع في نفسي أبلغ من كثير من الأشياء الثمينة التي أُهديت لي، فالهدية هي أمر معنوي، وليس عيبًا أن يعطي الإنسان بمقدار ما يستطيع، ولو بأن يتفنن بشيء ما ويقدّمه هدية، وإن لم تكن له قيمة مادية، ولكن فيه قيمة معنوية كبيرة، كما لو زار أحدنا ضريح سيد الشهداء في كربلاء وذكر أخاه بالدعاء تحت قبته وصلى عنه ركعتين، فمثل هذه الهدية لا تُقدّر بثمن.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا يرد الرجل هدية، فإن أخذ فليكافئه، والذي نفسي بيده، لو دُعيت إلى ذراع لأجبته، ولو أهدي إليّ كراع لقبلت**»(٢)، وكانت العرب آنذاك لا تُعد الدعوة الى ذراع أو كراع وليمة، ولا تجيب من دعا إليها.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**الهدية رزق الله، فمن أهدي إليه شيء فليقبله**»(٣)، وإذا كانت الهدية رزق الله، فلا ينبغي الامتناع عن قبولها وردّها.

المحور الرابع: فوائد الهدية

أي معطيات الهدية والنتائج المترتبة عليها وآثارها.

انظروا إلى القرآن الكريم حينما يحدثنا بقصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(٤).

(١) الكافي ٥: ١٤٣، ح٨.
(٢) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٦، ح١٤.
(٣) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٧، ح١٨.
(٤) سورة النمل، الآيتان: ٣٥ـ٣٦.

لقد أرادت بلقيس بما أُوتيت من ذكاء وحكمة، أن تكتشف نوايا سليمان عليه السلام؛ هل هو ملك من ملوك الأرض أو نبي من أنبياء الله تعالى؟، وحينئذ تعلم كيف تتعامل معه، وقد ورد في بعض الروايات أنّها أرسلت لسليمان عليه السلام خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، وألبستهم أفضل الملابس وأركبتهم أفضل الدواب والخيول، وزيّنت الخيول بالذهب والفضة. وعندما وصلت الهدايا إلى سليمان عليه السلام غضب، وقال كلامًا فيه من التهديد والوعيد ما ترتعد منه فرائص الملوك خوفًا وهلعًا، فقد توعد مملكة سبأ بأن يرسل اليهم جيشًا عرمرمًا يقضي على ملكهم وسلطانهم، إلاّ أن يأتوه طائعين.

وموضع الشاهد في الآية الكريمة أن الهدية تُفرح المهدى إليه وتُدخل عليه السرور، ومن آثارها أنّها تكف شر الأشرار أو من قصد المُهدي بسوء.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تهادوا تحابوا، فإنها تذهب بالضغائن**»[1]، والضغائن هي الأحقاد، ويخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن الهدية تورث المحبة في قلب من تُهدى إليه، وتذهب عن صدره الأضغان والكراهية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**نِعمَ الشيء الهدية، تذهب بالضغائن**»[2]، فالهدية هي غسيل القلوب من الكراهية، وكل ما من شأنه تعكير صفو العلاقات الاجتماعية. ومعنى ذلك أنّه لو سادت هذه الثقافة بين الناس، فإنّها كفيلة بتطهير القلوب من الشحناء والبغضاء بين أفراد النوع الإنساني.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**تصافحوا فإنّ المصافحة تزيد في المودة، والهدية تذهب بالغل**»[3]، يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك طريقين لتمتين الروابط الاجتماعية:

الأول: المصافحة، التي من شأنها زيادة المحبة بين المتصافحين، وهذا يعني أن المحبة ذات حدود واسعة جدًا، ففي كل مرة يلتقي فيها الأخوان المؤمنان ويتصافحان، تزداد هذه العلاقة القلبية بينهما، وإذا ما فرضنا أنهما كانا يفعلان ذلك سنوات، فإلى أيّ حد ستصل هذه المحبة؟

(١) الكافي ٥: ١٤٤، ح١٤.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٤٤، ح١.
(٣) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٤، ح٢.

الثاني: الهدية، التي من آثارها إزالة الحقد والكراهية من قلوب المتهادين، فقد يتسلل الغل إلى قلب المؤمن لظرف معيّن تجاه أخيه المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾[١]، وحينئذ عليه أن يبادر إلى غسل هذا الغل بالهدية.

وعن علي عليه السلام قال: «**ما استُعطف السلطان، ولا استُسلت سخيمة الغضبان، ولا استُميل المهجور، ولا استُنجحت صعاب الأمور، ولا استُشفعت الشرور بمثل الهدية**»[٢]، يذكر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحكمة العلوية المباركة الهدية، كحل سحري لخمس من الحالات الصعبة والطارئة التي قد تمر بالإنسان أحيانًا ولا يجد لها مخرجًا، وهي:

الأولى: استعطاف السلطان، فقد يمر بالإنسان ظرف طارئ يجعل أمره بيد السلطان الذي يستطيع الفتك به، وهو يحتاج في مثله إلى الخروج من سطوته وتهدئته والتخفيف من قراراته التعسفية، أو يحتاج إلى استعطافه لقضاء حاجة عنده، فعليه أن يلجأ إلى الهدية ليستميل بها قلبه.

الثانية: استرضاء الغضبان، فقد تثير بعض التصرفات نتيجة الاحتكاك اليومي المباشر مع الناس واختلاف أمزجتهم غضب البعض، وليس من الصحيح ترك الغضب ـ كحالة مؤقتة تمر على الإنسان ـ يستشري ويستفحل ويتحول إلى عداوة، ففي مثل هذه الحالة، على الإنسان أن يبادر إلى استرضاء الغضبان بالهدية، فمن شأنها أن تهدئ من الغضب وتقضي عليه.

الثالثة: استمالة المهجور، فقد يهجر بعض الناس بعضهم الآخر، لأمر من أمور الدنيا سبّب النزاع والخصومة بينهم، وتتعقد العلاقات الاجتماعية بينهم بسبب هذا الهجران، الذي يصبح من الصعب معه إعادة العلاقات إلى سابق عهدها، فالهدية هنا من شأنها أن تؤثر أثرها المطلوب، وتقلع جذور الهجران والتباعد بين الإخوان والأصدقاء والأقارب.

الرابعة: استنجاح الأمور الصعبة، أي طلب النجاح للأمور الصعبة والمتعسرة يكون عبر الهدية، فهي التي من شأنها تحقيق نجاحات باهرة لما استُعصى من المشاكل، وتقيّض الوسائل المناسبة وتشق الطريق للحلول الناجعة، لأنها توفر الأرضية الملائمة لكل ذلك.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٧، ح١٦.

الخامسة: استشفاع الشرور، أي بالهدية تُدفع الشرور؛ فمن تتوقع منه شرًا يمكن دفع شره بأن تهدي له هدية تنظف قلبه من دوافع الشر وتزيل منه البغضاء.

فالهدية تحقق جميع هذه الأمور، وتذلّل جميع الصعاب والمشاكل التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان في حياته؛ لأنها توجِد حالة من المحبة والنخوة والصلة والتراحم بين الناس.

المحور الخامس: عدم التركيز على ثمن الهدية

ليس المهم ما هي الهدية، لأنها أمر معنوي يحكي حالة الاهتمام بالمُهدى إليه، وهي مسألة رمزية ينبغي أن تبقى في ذاكرة الزمن، ومحفورة في جبين الحياة، فمن المناسب أن يأتي الحاج لذويه وأصدقائه بعود سواك من الحج، لأنّه البلد الذي ينبت فيه شجر الأراك، وورد الاستحباب في استعماله قبيل الوضوء والصلاة، ولا ينبغي استصغار قيمته لقلة ثمنه، لأنّه يحمل معاني كبيرة؛ منها أن مُهديه الذي ذهب لأداء عمل عبادي باهظ الثمن، قد ذكر من يهدي إليه هذا العود من السواك في تلك البقاع المقدسة بالدعاء والزيارة التي لا حدود لقيمتها.

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تهادوا بالنبق تحيي المودّة والموالاة**»[1]، وثمرة النبق كانت متوافرة بكثرة في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الناس يزهدون بها لوفرتها وسهولة الحصول عليها، ورسول الله صلى الله عليه وآله يطلب من المسلمين التهادي بالنبق، بالرغم من توافره للجميع بكثرة، ولكن المطلوب هو النتيجة والأثر المترتب على التهادي، وهو إحياء المودّة والموالاة بين المسلمين.

المحور السادس: ردّ الهدية بهدية أخرى

هو داخل في باب ردّ الجميل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[2]، فعلى المُهدى إليه أن يتحين الفرصة المناسبة لردّ الهدية إلى من أهداه، ولا يكن طرفًا سلبيًا في المعادلة بأن يأخذ فقط ولا يعطي، فإنه وإن لم يكن يملك ما يردّ به على ما أُهدي إليه، فعليه أن يردّ بالشيء البسيط الذي يقدر عليه والباقي على الله، فهو الذي يرتب الأمور ويضعها موضعًا حسنًا يليق بها في نفوس الآخرين.

---

(١) الكافي ٥: ١٤٤، ح١٣.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

لقد ورد عن علي عليه السلام أنّه قال: «**إذا أكرم أحدكم أخاه بالكرامة فليقبلها، فإن كان ذا حاجة صرفها في حاجته، وإن لم يكن محتاجا وضعها في موضع حاجته، حتى يؤجر فيها صاحبها. ومن كان عنده جزاء فليجز جازيه، ومن لم يكن له جزاء فثناء حسن**»[1]

وفي رواية أخرى زيادة: «**ودعاء**»[2]. ترسم هذه الرواية المباركة عن أمير المؤمنين عليه السلام المنهج الذي ينبغي للمُهدى إليه أن يتعامل به مع الهدية، وهو إن كان محتاجًا لها صرفها في موضع حاجته، كما لو أُهدي إليه ثوب وكان محتاجا إليه فليلبسه، وإن لم يكن محتاجًا إليه، فليعطه لمن هو محتاج إليه ليحصل المُهدي على الثواب المرجو. ثم ينتقل عليه السلام إلى بيان المنهج في ردّ الهدية؛ فمن كان ذا سعة فليردّ الهدية بأخرى الى مُهديها، وإن لم يكن لديه ما يردّ به هدية المُهدي، فليرد بالثناء الجميل والدعاء الحسن.

المحور السابع: إشراك الآخرين بالهدية

ولا سيَّما إذا كانت الهدية من النوع الذي يمكن إشراك الآخرين فيه كالطعام، كما لو أهدى أحدهم صندوقًا من التمر لشخص كان جالسًا مع جماعة من الناس، فيُستحسن أن يُخرج كمية من ذلك التمر ويوزعه بين الجالسين.

وقد روى الإمام الجواد عليه السلام، عن أبيه الإمام الرضا عليه السلام، عن أبيه الإمام الكاظم عليه السلام، عن الإمام الصادق عليه السلام، عن الإمام الباقر عليه السلام، عن الإمام السجاد عليه السلام، عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أُهديت له هدية وعنده جلساؤه، فقال: أنتم شركائي فيها**»[3]، وهذا من الخلق الجميل، ولا سيَّما من أولئك الذين يتصدون لأمر عام أو يحظون بوجاهة اجتماعية وتتكرر عليهم الهدايا، أن يشركوا معهم من كان حاضرًا وقت الإهداء، فإنّ هذا من شأنه أن يعمم المحبة وينزع فتيل الحسد والكراهية.

وقد ورد أيضًا في المعنى نفسه: «**جلساء الرجل شركاؤه في الهدية**»[4]، ومن كان يريد أن يخص بهديته المُهدى إليه فقط، فليعطها إياه في مكان يكون فيه وحده.

---

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٣٩٧، ح١.
(٢) دعائم الإسلام ٢: ٣٢٦، ح١٢٣٠.
(٣) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٩، ح١.
(٤) الكافي ٥: ١٤٤، ح١٠.

المحور الثامن: الهدية المعنوية والهدية المالية

الهدية المعنوية أفضل من الهدية المالية، ورد عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قوله: «**إنّ أفضل الهدية الكلمة من كلام الحكمة، يسمعها العبد ثم يتعلمها ثم يعلّمها**»(١)، فنحن مثلاً في كل يوم ثلاثاء نأتيكم بهدية، وهي هذه الروايات من ثقافة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومعارفهم، هذه كلها هدايا في الحياة، فهذه الحكمة والكلمة الطيبة هدية، ومع الأسف نحن قليلاً ما نفكر بالهدايا المعنوية كإهداء كتاب، ونقتصر على الهدايا المادية.

وعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**ما أهدى المرء المسلم إلى أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة، يزيده الله بها هدى، ويردّه عن ردى**»(٢)، فالحكمة التي تُهدى إلى مسلم وتدله على الطريق الصحيح ليمشي فيه، وتردّه عن الطريق الأعوج الذي هو ماض فيه، هي في الواقع أفضل هدية يمكن أن يحصل عليها الإنسان.

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**نِعمَ الهدية الموعظة**»(٣)، فالموعظة التي يعظ بها الإنسان الآخرين، هي هدية كبيرة يقدمها إليهم.

وروي عن النبي الأكرم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أن جبرائيل جاء إلى النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقال: «**يا رسول الله إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسلني إليك بهدية لم يعطها أحدا قبلك. قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: قلت: وما هي؟ قال: الصبر، وأحسن منه. قلت: وما هو؟ قال: الرضا، وأحسن منه؟ قلت: وما هو؟ قال: الزهد، وأحسن منه، قلت: وما هو؟ قال: الإخلاص، وأحسن منه، قلت: وما هو؟ قال: اليقين، وأحسن منه. قلت: وما هو؟ قال جبرائيل: إن مدرجة ذلك التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ. فقلت: وما التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يرجُ ولم يخف سوى الله، ولم يطمع بشيء سوى الله**»(٤).

يبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مدارج الكمال الست، وهي: الصبر، ثم الرضا بقضاء الله وقدره، ثم الزهد، ثم الإخلاص، ثم اليقين، ثم التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو أعلاهنّ منزلة وأشرفهنّ درجة، ومن كان عنده التوكل فهذا يعني أن السالك قد طوى في

---

(١) كنز العمال ١٠: ١٧٢، ح ٢٨٨٩١.
(٢) بحار الأنوار ٢: ٢٥، ح٨٨.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٩٤.
(٤) بحار الأنوار ٧٤: ٢٠، ح ٤.

مسيرته المعنوية إلى الله ﷻ جميع المراحل الخمس السابقة، أو أنّه إذا حصل على درجة التوكل حصل على باقي الدرجات.

ثم يسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن حقيقة التوكل على الله ﷻ؟ فيجيبه بأنّه العلم بأن المخلوق- وليس الإنسان فقط، بل جميع ما خلق الله ﷻ- لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، وليس هم سوى وسائل لا أكثر، فأكبر إمبراطور على وجه الأرض لا يستطيع إلحاق الأذى بنملة ما لم يأذن الله بذلك، وإنّ أغنى أغنياء العالم كقارون، لا يستطيع أن ينفق دينارًا واحدًا في طاعة الله إذا لم يهده الله تعالى. ثم استعمال اليأس من الخلق جميعًا، وهذا طبعًا لا يعني إهمال الأسباب الطبيعية في الطلب، التي جعلها الله سبحانه وتعالى كذلك ،وأمرنا باتّباعها، فإذا مرض الإنسان عليه أن يذهب إلى الطبيب للعلاج، وفي الوقت نفسه يطلب من الله ﷻ الشفاء، فهو الذي يهدي الطبيب الى أن يشخّص المرض تشخيصًا صحيحًا، ويكتب الدواء الكفيل بعلاج المرض، فنحن لسنا القائلين بالجبر ولا بالتفويض، وإنما مدرستنا هي أنّه لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين.

فإذا وصل العبد إلى درجة التوكل ترتبت على ذلك الأمور التالية:

أولًا: لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يشرك في عمله أحدًا مع الله ﷻ، لأنّ جميع ما عداه هم مخلوقات لا يستحقون أن يشركهم في عمله.

ثانيًا: لم يرجُ ولم يخف سوى الله، فالرجاء والخوف ينبغي أن يكونا لله ومن الله وحده لا شريك له، ومن كان كذلك لو أدخل على أعتى طاغوت وهو مقيد اليدين، فإنه لن يشعر برهبة ولا خوف؛ لأنّه على يقين من أن هذا الطاغوت لا يستطيع أن يضره بشيء ما لم يكن مقدرًا من الله تعالى، كما جاء ذلك على لسان أهل الإيمان في القرآن الكريم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[1].

ثالثًا: لم يطمع بشيء سوى الله، فيقتصر طمعه على الله وحده؛ لأنّه الذي بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، وكل من سواه لا يملكون من قطمير، وغير قادرين على نفع أنفسهم أو دفع الضر عنها.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.

المحور التاسع: تقديم الهدية لمن يستحق ولمن لا يستحق

وردعن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**عُدْ من لا يعودك، وأهدِ إلى من لا يهدي إليك**»[1]، أي على الإنسان أن يقوم بواجبه وإن تقاعس الآخرون، ومن لا يبادلك الهدية، قدم الهدية له مرة ومرتين وعشرًا، إذ ينبغي أن تكون أنت الكبير، وأما تقصير الآخر في واجبه فهو مشكلته، فعلينا أن نتعامل مع الآخرين بما تمليه علينا ضمائرنا ومنظومتنا الأخلاقية.

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٠٠، ح ٤٠٧٦.

الحق الرابع عشر
(مكافأة صلة المؤمن)

يتجلى هذا الحق من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن بقول رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديث محور البحث: «**ويكافئ صلته**»، ومعنى مكافأة الصلة هو ردّ الجميل ومقابلة المعروف بمعروف مثله، وبالرغم من كون هذا الحق هو من الحقوق التي لا تختص بالمؤمن، وإنما تشمل وجوب ردّ المعروف لكل إنسان ولو كان كافرًا، ولكن خص المؤمن به هنا من باب الأولوية.

مكافأة الصنيعة في القرآن

وقد ورد ذكر هذا الحق في القرآن الكريم في عدد من الآيات نذكر بعضًا منها:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1]، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة هذا الحق الإنساني بصيغة الاستفهام الاستنكاري؛ إشارة إلى كونه من الأمور البديهية التي يتسالم عليها العقلاء، وبيّنه أيضًا بصيغة الحصر؛ إشارة إلى أنّ الإحسان لا بُـدَّ من أن يجازى بإحسان مثله، ولا يمكن أن يكون السكوت أو الإساءة جزاء له.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[2]، فقد أرسل شعيب إحدى ابنتيه إلى موسى عليهما السلام ليكافئه على العمل الذي قدمه لهم بسقي مواشيهم من الماء الذي كان الناس يسقون منه مواشيهم، وكان عليه السلام قد أرسل ابنتيه ليقوما بهذا العمل لعجزه عنه بسبب كبر سنه، وعدم وجود ولد له أو خادم أو أجير. وبالرغم من أنّ موسى عليه السلام قد أتى بهذا العمل بمبادرة طوعية ولا يستحق عليه الأجر، ولكن مع ذلك سمّته ابنة شعيب أجرًا؛ لئلا يشعر موسى عليه السلام بأنّ أباها يريد ردّ إحسانه بإحسان مثله، بل بإحسان أجمل بتخليصه من كل ما يمكن أن يدخل في باب الامتنان،

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٢) سورة القصص، الآية : ٢٥.

ومن هنا عرف موسى عليه السلام أنه أمام عائلة متميزة في منطقها، فاستجاب لدعوته وقصد منزل شعيب عليه السلام.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[1]، تقرر الآية الكريمة أنّ مكافأة الصلة بأحسن منها هي سنة إلهية، وقد تكرر بيان ذلك في مواضع أُخرى من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[3].

مكافأة الصنيعة في الروايات

ورد ذكر هذا الحق وبيان تفاصيله في روايات أهل البيت عليهم السلام تحت عناوين مختلفة، نقتصر على موضع الحاجة منها في بيان هذا الحق.

أهمية مكافأة الصنيعة

ورد التأكيد الشديد على أهمية مكافأة الصنيعة في الأخبار الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة، نستعرض في ما يلي بعضًا منها.

الرواية الأولى: ما رواه إسماعيل المكي عن الحسن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لا يردّ الرجل هدية، فإن أخذ ليكافئه. والذي نفسي بيده لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أُهدي إليّ ذراع لقبلت**»[4].

استعرض هذا الحديث المبارك توجيهًا أخلاقيًا مهمًا يسهم في زيادة اللحمة الاجتماعية وتمتين الروابط الأخوية بين الناس، وذلك من خلال التأكيد على قبول الهدية ثم المكافأة عليها بهدية مثلها. ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وآله على أمرين، هما أنه لو دُعي لتناول طعام بسيط ـ ويتمثل آنذاك بذراع شاة وليس شاة بأكملها كما هي عادة العرب آنذاك ـ لأجاب ولبى الدعوة، وأنه صلى الله عليه وآله لو أهدي إليه شيء بسيط لقبله.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٦.
(٤) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٠٦ ح١٤.

الرواية الثانية: ما رواه الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سألكم بالله فأعطوه، واستعاذكم بالله فأعيذوه، ومن دعاكم بالله فأجيبوه، ومن اصطنع إليكم معروفًا فكافئوه»**[1].

الملاحظ في هذه الرواية المباركة أنها قيّدت إجابة الأمور الثلاثة الأولى بأن تكون بالله سبحانه وتعالى، بينما أطلقت مكافأة المعروف وإن لم يكن أتى به لوجه الله سبحانه وتعالى.

الرواية الثالثة: بالإسناد المتقدم قال: «**من أدّى إلى أحد معروفًا فليكافئ، فإن عجز فليثن به، فإن لم يفعل فقد كفر النعمة**»[2].

الرواية الرابعة: عن أبي القاسم الكوفي في كتاب الأخلاق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من اصطنع إليكم معروفًا فكافئوه**»[3].

مكافأة الصنيعة بأحسن منها

ورد الحث على مكافأة الصنيعة بأفضل منها في القرآن الكريم كما مرت الإشارة إليه آنفًا، وورد الحث عليه في السنّة المطهرة في روايات عديدة.

منها: ما رواه الحسين بن سعيد عن الصادق عليه السلام قال: «**وليست المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي عليه، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء**»[4].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا أنّ المكافأة الحقيقية لا تكون بأن يردّ على المعروف بمثله، بل لا بُدَّ من أن يزيد عليه ويأتي بأفضل منه، فإنه إن فعل ذلك فقد كافأه، وإلاّ كان الفضل له؛ لأنه قد بادر إلى اصطناع المعروف أولاً.

ومنها: ما رواه زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من صنع بمثل ما صُنع إليه فإنما كافأه، ومن أضعفه كان شكورًا، ومن شكر كان كريمًا، ومن علم أنّ ما صنع إنما صنع إلى نفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودتهم، ولا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت إلى نفسك، ووقيت به عرضك، واعلم أنّ الطالب إليك الحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك فأكرم وجهك عن ردّه**»[5].

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٤ ح١.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٤ ح٢.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٤ ح٤.
(٤) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٧ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٤.
(٥) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٥ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح١.

يطرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرواية المباركة ثلاثة مفاهيم تتعلق بالصنيعة ومكافأتها، هي:

المفهوم الأول: مراتب المكافأة

وقد قسمها عليه السلام إلى قسمين:

الأول: ردّ الصنيعة بمثلها، وهي مرتبة المكافأة.

الثاني: ردّ الصنيعة بمثليها، أي بأحسن منها، وهي مرتبة الشكر. ومن فعل ذلك كان كريمًا.

المفهوم الثاني: جهة الصنيعة

فالإنسان عندما يقدم على عمل المعروف إما يكون ناظرًا فيه إلى الآخرين، أو يكون ناظرًا فيه إلى نفسه، فإن كان الأول فهو ينتظر من الآخرين شكرهم ومودتهم، وإن كان الثاني لم ينتظر من الناس جزاء ولا شكورًا، ولم ينتظر أيضًا زيادة في مودتهم له ؛ لذا ينبغي للإنسان أن يكون ناظرًا إلى أن ما يقدمه للآخرين إنما يقدمه في الحقيقة إلى نفسه، فيكون قد حافظ على عرضه – أي على سمعته ـ في الدنيا، واستحق جزيل الثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

المفهوم الثالث: الترغيب في فعل المعروف

وقد تطرق أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الموضوع هنا لا من باب التماس الثواب الأخروي، بل من جهة مكارم الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، فإن من طلب حاجة إليك فإنما قد أراق ماء وجهه، فعليك أن تصون ماء وجهك بعدم ردّ قضاء حاجته.

وجوب مكافأة الصنيعة

يجب على من أُسدي له معروف أن يكافئه ولا يتواني عن ردّه بمثله أو بأحسن منه، وقد ورد ذلك في الروايات الشريفة. منها: ما رواه علي بن سالم قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في كتاب الله مسجلة، قلت: وما هي؟ قال: «هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان»، جرت في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، من صُنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به**»[1].

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٦ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٣.

وقد ذمت الروايات الشريفة من يكفر بالصنيعة ولا يكافئها وسمّته بقاطع سبيل المعروف، منها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعو سبيل المعروف؟ قال: الرجل يُصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره**»(١).

أقل مراتب المكافأة

قد يمر الإنسان أحيانًا بظرف قاهر لا يستطيع معه مكافأة الصنيعة بأحسن منها أو بمثلها، فماذا عليه أن يفعل؟ هل يسكت ويتغاضى أو هناك أسلوب آخر يستطيع بواسطته ردّ الإحسان ومكافأة المعروف؟

لقد خطّ لنا أهل البيت عليهم السلام في مثل هذه الحالات منهجًا للتعامل معها، ألا وهو الشكر اللساني في حضور المحسن وغيابه.

منها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من سألكم بالله فأعطوه، ومن آتاكم معروفًا فكافئوه، وإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا الله له حتى تظنّوا أنكم قد كافأتموه**»(٢).

وما روي عنه أيضًا، قال صلى الله عليه وآله: «**كفاك بثنياك على أخيك إذا أسدى إليك معروفًا أن تقول: جزاك الله خيرًا، وإذا ذُكر وليس هو في المجلس أن تقول: جزاه الله خيرًا، فإذن أنت قد كافأته**»(٣).

ومنها: ما رواه الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من أُتي إليه بمعروف فليكافئ به، فإذا عجز فليثن عليه، فإن لم يفعل فقد كفر النعم**»(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**من قصرت يده بالمكافأة فليطل لسانه بالشكر**»(٥).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**المعروف غل لا يفكه إلا مكافأة أو شكر**»(٦).

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٩ باب ٨ من أبواب الأمر بالمعروف، ح١.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٧ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٥.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٧ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٧.
(٤) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٩ باب ٨ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٢.
(٥) وسائل الشيعة ١٦: ٣١١ باب ٨ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٨.
(٦) بحار الأنوار ٧٢: ٤٤ ح١٢.

صنيعة المؤمن

تشير الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى ظاهرة غريبة هي نكران صنيعة المؤمن، فمهما عمل المؤمن من معروف إلى الناس فإنه لا يقابل إلا بكفرانها، وهو أمر قد جرى به القضاء الإلهي، إلا في المؤمن الذي تجب عليه مكافأة صنيعة أخيه المؤمن، وفيها إشارة إلى أنّ على المؤمن ألاّ ينتظر جزاء ولا شكورًا من الناس حينما يقدم على فعل المعروف، وألاّ يثنيه ذلك عن المزيد منه، ونشير هنا إلى بعض هذه الروايات:

الرواية الأولى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن مكفّر، وذلك أنّ معروفه يصعد إلى الله عزّ وجلّ فلا يُنشر في الناس، والكافر مشهور وذلك أنّ معروفه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد إلى السماء**»[1].

الرواية الثانية: عن السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **يد الله عزّ وجلّ فوق رؤوس المكفرين ترفرف بالرحمة**»[2].

وتبيّن هاتان الروايتان العلة التي من أجلها لا تقابل صنيعة المؤمن بالشكر والمكافأة، وهي أنّ الله سبحانه وتعالى يريد هذا المعروف خاصًا لوجهه الكريم لا يخالطه أي غرض دنيوي، ويدخره له عنده ليجزيه به الجزاء الأوفى في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

الرواية الثالثة: عن الحسين بن موسى عن أبيه الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عن أبيه عليهم السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**كان رسول الله** صلى الله عليه وآله **مكفّرًا لا يُشكر معروفه، ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي، ومن كان أعظم من رسول الله** صلى الله عليه وآله **معروفًا على هذا الخلق، وكذلك نحن أهل البيت مكفّرون لا يُشكر معروفنا، وخيار المؤمنين مكفّرون لا يُشكر معروفهم**»[3].

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٨ باب ٧ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٩.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٨ باب ٧من أبواب الأمر بالمعروف، ح١٠.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٨ باب ٧من أبواب الأمر بالمعروف، ح١١.

الحق الخامس عشر
(شكر نعمة الأخ المؤمن)

يتجلى هذا الحق بقول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الرواية موضع البحث: «**ويشكر نعمته**»، فيجب على الأخ المؤمن أن يشكر نعمة أخيه المؤمن، وشكر النعمة من القضايا الأساسية والمهمة ويترتب عليها الأجر العظيم.

معنى الشكر

يأتي الشكر تارة بمعنى الشكر النفسي والقلبي اتجاه هذا الإحسان وهذه النعمة، وقد ورد في هذا المعنى قول الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها**»(١).

ويأتي تارة أُخرى بمعنى الشكر اللفظي واللساني، وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ في هذا المعنى قوله: «**من شكر المعروف فقد قضى حقه**»(٢).

وعن أبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «**إذا قصرت يدك عن المكافأة فأطل لسانك بالشكر**»(٣).

وعنه عَلَيْهِالسَّلَامُ أيضًا: «**من حق الشكر لله تعالى أن يشكر من أجرى تلك النعمة على يده**»(٤).

ويأتي ثالثة بالمعنى العملي وردّ الإحسان بإحسان مثله، ومنه قول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**من اصطنع إليه المعروف فاستطاع أن يكافئ عنه فليكافئ**»(٥).

وقد يأتي بمعنى رابع وهو أن المؤمن حين يُنعم على أخيه بنعمة يقوم أخوه بشكره قلبيًا ولسانيًا وعمليًا، وهو يتطلب مرتبة عالية من الاندماج حتى كأن نعمة الأخ المؤمن هي نعمة للإنسان نفسه.

---

(١) الكافي ٢:٩٦ ح١٥.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٦ ح٨.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٦ ح٨.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٦ ح٩.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٥ ح٤.

لذلك فالشكر يتطلب خفض الجناح والتواضع لمن كان واسطة في النعمة الحقيقية التي تقرب الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، وليست الوهمية التي تقرب الإنسان إلى الشيطان رتبة، كأن يوفر له معصية أو ما شابه.

إنّ من يقوم بإحسان ويقدّم نعمته لنا إنما هو مجرد وسيلة لإيصال هذه النعمة وحامل لها، ولكن المنعم الحقيقي هو خالق هذه النعمة، وهو الله سبحانه وتعالى. وكما نشكر الموصل والواسطة لهذه النعمة لا بُـدَّ من أن نشكر المنعم الحقيقي.

مراتب الشكر

تكون مراتب الشكر على أساس المعاني السابقة للشكر، وقد وردت في ذلك روايات كثيرة نذكر بعضها.

الرواية الأولى:عن ميسر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين**»[1].

الرواية الثانية: عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عز وجل**»[2].

الرواية الثالثة: عن أبي بصير قال: «**قلت لأبي عبد الله** عليه السلام: **هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرًا؟ قال: نعم. قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان في ما أنعم عليه في ماله حق أداه، ومنه قوله تعالى:** ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[3]، **ومنه قوله تعالى:** ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[4]، **وقوله:** ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[5]»[6].

الرواية الرابعة: عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «**من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة**»[7].

---

(١) الكافي ٢: ٩٥ ح١٠.
(٢) الكافي ٢: ٩٥ ح١١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٩٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.
(٦) الكافي ٢: ٩٥ ـ ٩٦ ح١٢.
(٧) الكافي ٢: ٩٦ ح١٣.

الرواية الخامسة: عن صفوان الجمّال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «**ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله، إلاّ أدى شكرها**»(١).

الرواية السادسة:عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها**»(٢).

الرواية السابعة: عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّ الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله، فيوجب الله عز وجل بها له الجنة**»(٣).

الرواية الثامنة: عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسيرعلى ناقة له إذ نزل فسجد خمس سجدات، فلما أن ركب قالوا: يا رسول الله إنا رأيناك صنعت شيئًا لم تصنعه فقال: نعم، استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشرني ببشارات من الله عز وجل، فسجدت لله شكرًا، لكل بشرى سجدة**»(٤).

الرواية التاسعة: عن يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا ذكر أحدكم نعمة الله عز وجل فليضع خده على التراب شكرًا لله، فإن كان راكبًا فلينزل فليضع خده على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه**»(٥).

أهمية الشكر

تتجلى أهمية الشكر في منظومة الإسلام الأخلاقية في عدد من الأخبار نتبرك بذكر بعض منها.

الرواية الأولى: روى السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر**

(١) الكافي ٢: ٩٦ ح١٤.
(٢) الكافي ٢: ٩٦ ح١٥.
(٣) الكافي ٢: ٩٦ ح١٦.
(٤) الكافي ٢: ٩٨ ح٢٤.
(٥) الكافي ٢: ٩٨ ح٢٥.

المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[1].

تنزل هذه الرواية المباركة منزلة الشكر في استحقاق الثواب منزلة الصبر في ثلاثة مواضع، ولأنّ ثواب الصبر لا حدود له فقد جُعل مقياسًا يقاس إليه كل عمل ذي ثواب عظيم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ثواب الصابرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

الرواية الثانية: عن أبي بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله** سبحانه وتعالى: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[3]»[4].

تتحدث هذه الرواية الكريمة عن المنزلة الأرفع للشكر، وذلك حينما ينطلق الشكر بعمله لا من أجل الثواب الجزيل، بل لأن الله سبحانه وتعالى أهل للشكر.

الرواية الثالثة: عن عبيد الله بن الوليد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة**»[5].

يبيّن هذا الحديث المبارك أنّ الأمور التي من شأنها أن تضر الإنسان إذا تعرض لها يرتفع ضررها إذا اقترنت بما يناسبها من أفعال، وهي الدعاء عند الشدائد، وطلب المغفرة من الله عزّ وجلّ عند ارتكاب المعاصي، وشكر الله تعالى عند نزول النعم.

الرواية الرابعة: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من شكر المعروف فقد قضى حقه**». **وقال** عليه السلام **أيضًا:** «**من شكر من أنعم عليه فقد كافأه**»[6].

ويتبين من هاتين الحكمتين العلويتين أهمية الشكر في قضاء حق النعم البشرية والإلهية على الإنسان.

(١) الكافي ٢: ٩٤ ح١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٣) سورة طه، الآيتان: ١ - ٢.
(٤) الكافي ٢: ٩٥ ح٦.
(٥) الكافي ٢: ٩٥ ح٧.
(٦) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٥ ح٨.

الشكر وزيادة النعم

لقد تطرقت الروايات الشريفة أيضًا إلى أنّ شكر النعم هو السبيل إلى زيادتها وتضاعفها، فما من نعمة تُشكر إلاّ كانت في نمو وازدياد، وما من نعمة تكفر إلاّ كانت في تضاؤل واضمحلال.

الرواية الأولى: عن السكوني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله : **ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة**»[١].

تبيّن هذه الرواية الشريفة أنّ إلهام الله سبحانه وتعالى الإنسان الشكر على النعمة، معناه أنه يريد أن يزيده من تلك النعمة، ولهذا ينبغي على الإنسان كما يطلب نزول النعم من الله سبحانه وتعالى، أن يطلب منه توفيقه لشكر ما أنعم به عليه حذرًا من زوالها ورغبة في زيادتها.

الرواية الثانية: عن عبد الله بن إسحاق الجعفري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مكتوب في التوراة: اُشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كُفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير**»[٢].

يبيّن هذا الحديث الكريم أنّ الدعوة إلى شكر النعم وبيان آثار هذا الشكر ليست من خصائص الدين الإسلامي الحنيف فقط، فقد ذكرت ذلك أيضًا الكتب السماوية السابقة. وتطلب هذه الفقرات الكريمة على لسان الإمام الصادق عليه السلام من الإنسان أن يشكر من أنعم عليه بنعمة ما، وأن ينعم على من يشكره، ثم تبيّن آثار ذلك الشكر في عدم زوال النعم وزيادتها، كما أنها معرضة للزوال إذا كفر بها ولم تُشكر. ومعنى أمان لها من الغير أنّ الشكر أمان للنعم من التغير والتبدل.

الرواية الثالثة: عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من أُعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله** عزّ وجلّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣]»[٤].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث الشريف المستند القرآني لقوله: «**من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة**»، وهو الآية الكريمة المذكورة التي جاءت كلمة الزيادة فيها مؤكدة بلام التأكيد، أي أنّ الشكر يستلزم الزيادة حتمًا من الله سبحانه وتعالى، وهو وعد قطعه على

(١) الكافي ٢: ٩٤ ح٢.
(٢) الكافي ٢: ٩٤ ح٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية : ٧.
(٤) الكافي ٢: ٩٥ ح٨.

نفسه، ومن أوفى عهدًا من الله ﷻ. فاسعوا إلى الازدياد من النعم بالشكر، ولا تملوا الشكر وأكثروا منه فهو باب واسع فتحه الله الكريم للراغبين في زيادة النعم.

الرواية الرابعة: عن عمر بن يزيد قال: «**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقني مالًا فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولدًا فرزقني ولدًا، وسألته أن يرزقني دارًا فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجًا. فقال: أما ـ والله ـ مع الحمد فلا**»[1].

ينفي الإمام الصادق عليه السلام في جواب عن سؤال لأحد أصحابه أن يكون توالي النعم عليه استدراجًا له من الله ﷻ بعد أن كان ذلك مع أداء حقها من الشكر. ومنه يُعلم أنّ تتابع النعم على الإنسان غير الشاكر هو استدراج له ليزداد كفرًا فيزداد بُعدًا عن الله عزّ وجلّ ويزداد عذابًا يوم القيامة.

فائدة الشكر

وهذا الشكر فيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن يكون الإنسان بقدر المسؤولية ويحفظ الجميل، فحينما يقوم الأخ المؤمن بخطوة فيها إحسان، فالشكر على هذا الإحسان هو عرفان بالجميل، وهو تعبير عن أنّ هذا الإنسان كريم؛ كقول الشاعر:

إذا أَنـتَ أَكرَمتَ الكَريـمَ مَلَكتَه وَإِن أَنـتَ أَكرَمـتَ اللَئيـمَ تَمَرَّدا

فالإنسان المؤمن كريم النفس يذكر الخدمات التي يقدمها الأخ المؤمن له.

الفائدة الثانية: هو نوع من أنواع التثقيف على المعروف، فعندما يقوم الآخر بخطوة صحيحة، فنقوم بردّ الجميل ونشكره على ذلك سيتشجع ويقوم بهذا الجميل لغيرنا من الناس، فيشيع الإحسان بين الناس، ولكن إذا لم نشكره شكرًا لفظيًا فسيتخلى عن الفعل الحسن والجميل لأي من الناس، فنكون قد قطعنا باب المعروف بتركنا الشكر. وهنا تكمن أهمية الشكر.

الفائدة الثالثة: إنّ الشكر يستبطن التواضع، فعندما نشكر أحدًا من الناس على صنيعه لنا فإنّ ذلك يعني أننا نتواضع له، وهو خفض الجناح للأخ المؤمن، وهذه سمة من سمات المؤمنين، وهي قضية حساسة ومهمة.

---

(١) الكافي ٢: ٩٧ ح١٧.

الشكر على الإحسان الحقيقي

الشكر يكون للنعمة الحقيقية، والجميل والإحسان الحقيقيين في المنظور الإلهي، إذ ينبغي أن يكون الشكر على الإحسان الواقعي الصحيح المنسجم مع المبادئ والأطر الشرعية ومع القيود والحدود الإلهية. وما أكثر ما يُعد عند البعض إحسانًا، ولكنه في الواقع معصية أو ترغيب بالمعصية أو خلق لمناخات المعصية، فأي جميل في هذا الأمر؟ كمن يعطي مثلًا «**كارتًا**» من هذه «**الكارتات**» التي تفتح القنوات الفضائية المشفرة التي نسمع عنها، ويقال إنّ بين هذه القنوات قنوات غير لائقة وغير مناسبة، فمع أنّ لهذا «**الكارت**» سعرًا معينًا، ولكن عندما تستخدمه وتفتح التشفير قد ترى أشياء لا تليق بك، وتوقعك في الحرام، فمثل هذه القضية لا تعتبر نعمة تستحق الشكر، بل هذا الشخص ورطني وجعلني في معرض الوقوع في الحرام. فالشكر إذن إنما يكون للنعمة، والنعمة هي التي تنسجم مع المبادئ والأطر الشرعية ومع القيود والحدود الإلهية.

شكر الله على كل حال

الموضوع الآخر هو شكر الله سبحانه وتعالى على كل حال، وهو أن نحمد الله سبحانه وتعالى على كل حال نحن فيه، فمثلًا لا ينبغي أن نترك شكر من سعى وبذل جهدًا من أجلنا ولكن لم تتحقق النتيجة، لأنه قد تعب وبذل مجهوده وهذا ما يستطيع فعله، وأما تحقق النتيجة ونجاح الحاجة فهو أمر خارج عن يده، فيجب علينا أن نشكره وان لم تحصل النتائج، وأحيانًا يتعرض الإنسان إلى مكروه واذا بنا نراه ـ أجارنا الله وإياكم ـ يتطاول حتى على الله سبحانه وتعالى، فالبعض يقع في الكفر بالله لفظيًا وإن لم يقصده عقائديًا، هذا مع الأسف من العادات السيئة التي نجدها في بعض الأوساط الاجتماعية ذات المستوى الثقافي الهابط، فعندما يتعرض أحدهم إلى مكروه ما أو يشتد به الغضب ينبري لسب الخالق جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه، فيسيء إلى مقام الربوبية الجدير بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير.

يجب حمد الله تعالى على كل الأحوال وفي كل الظروف، فإن نزلت مصيبة نقول: الحمد لله على ما أصابنا، وينبغي أن نعتقد بوجود حكمة في نزول هذا البلاء، كأن يريد الله تعالى أن يرفع درجتنا بهذا الابتلاء، فهي نعمة جاءت لنا وفرصة لنشكر الباري عزّ وجلّ ونحمده عليها، فحمد الله على كل حال قضية أساسية في القاموس الأخلاقي للإسلام.

ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر**

يسره قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتم به قال: الحمد لله على كل حال»[١].

ينقل لنا الإمام الصادق عليه السلام سنّة جده المصطفى صلى الله عليه وآله عند نزول النعمة، وسنّته عند حلول البلاء، لكي نلتزم بهذه السنّة الكريمة عند حدوث النعمة أو عند التعرض للبلاء، فكان صلى الله عليه وآله يقول عند النعمة: الحمد لله على النعمة، ويقول عند البلاء: الحمد لله على كل حال. يجب علينا الالتزام بهذه السنّة وعدم تخطيها.

الشكر عند رؤية المبتلى

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تُسمعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ولو شاء فعل. قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبدًا**»[٢].

يعلمنا الإمام الباقر عليه السلام هنا كيفية شكر الله عز وجل عند رؤية إنسان مبتلى بعاهة بدنية، كالعمى والعرج والجنون وغيرها من أنواع البلاء، وصيغة الشكر على النعمة التي يتمتع بها هو وسلبت من ذلك المبتلى: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك ولو شاء فعل) ، وجزاء هذا الشكر هو عدم الإصابة بذلك البلاء إلى آخر العمر. وقد شرط الإمام عليه السلام عدم إسماع المبتلى عند قول كلمات الشكر هذه مراعاة لمشاعره، وهذا من مفردات خُلق الإسلام الرفيع الذي يأمر به أتباعه. وهكذا ينبغي أن يتحول الشكر إلى ظاهرة في حياة الإنسان، بحيث يستغل ويغتنم كل ما من شأنه أن يشكر الله تعالى عليه من نعمه العظيمة، ولو كانت تلك نعمة قديمة مرّت عليه ولم يؤد شكرها سابقًا أو يجدد لها الشكر، فيتحول الإنسان بشكل تدريجي إلى إنسان شاكر، ويكون من أهل الشكر، ويسجل اسمه في قائمة الشاكرين.

وشكرُ الله سبحانه وتعالى له جزاء وفير في الدنيا قبل الآخرة، منه أنه يزيد في النعم، كما نطق بذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣]. ولعل عدم النهي عن إسماع الآخرين كلمات الشكر، باستثناء المبتلى، يحمل في طياته

(١) الكافي ٢: ٩٧ ح١٩.
(٢) الكافي ٢: ٩٧ ح٢٠.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

الدعوة إلى أن يتحول شكر الله ﷻ إلى ظاهرة اجتماعية، للقضاء على ما هو سائد في أوساط الناس من الاستهانة بنعم الله تعالى وعدم شكره على نعمائه التي لا تحصى على كل واحد منا، فنسمع البعض يقول: ماذا أعطانا الله؟ مع أنه غارق في نعمه ﷻ، ونراه بمجرد أن يُبتلى ببلاء أيامًا معدودات، ينطلق لسانه بكفران النعم الجسام التي منّ الله تعالى بها عليه، ويتناسى ما أغدق عليه من نعم كل هذه السنين الطوال، حتى تحول كفران النعم إلى ظاهرة في المجتمع تحتاج إلى تذكير مستمر لعلاجها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهناك ظاهرة اجتماعية أُخرى جديرة بالإشارة إليها؛ وهي الاستهزاء بالمبتلى والاستخفاف به، وكأنّ ما يتعرض له الإنسان من بلاء هو سُبّة عليه، مع أنّ الابتلاء الإلهي للبشر ليس للانتقام منهم، ولا للتشفي، ولا ليجعلهم محلًا لاستهزاء وسخرية الآخرين، بل هي لهم نعمة في نفسها لما سيعوضهم بدلها في عاجل الدنيا أو آجل الآخرة، كمن سُلبت منه نعمة البصر، فيرزقه الله تعالى حافظة قوية يعوضه بها، وييسر له الكثير من أُموره. وهو ـ أي البلاء ـ في نفس الوقت عبرة وعظة لنا؛ لنشكر الله تعالى على ما وهبه لنا من هذه النعم التي سلبها من عدد محدود جدًا من عباده، لينتبه من غفلته وهو يموج في بحور الدنيا ويلهث وراء ملذاتها الفانية.

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما من عبد يرى مبتلى بابتلاء ما فيقول: الحمد لله الذي عدل عني ما ابتلاك به، وفضّلني عليك بالعافية، اللهم عافني مما ابتليته به، إلا لم يبتلَ بذلك البلاء**»(١).

يذكر الإمام الصادق عليه السلام صيغة أُخرى لشكر الله تعالى عند رؤية مبتلى، وهي تختلف عن الصيغة الأولى في الرواية السابقة التي كانت أكثر اختصارًا، كما أنها اشتملت على قيد لم يذكر هنا، وهو عدم إسماع المبتلى هذه الكلمات. وهذا لا يعني إلغاء هذا القيد عند استعمال هذه الصيغة، بل يبقى الأمر على ما هو عليه عند استعمال هذه الصيغة أيضًا، ومن هذا التنوع نفهم أنّ الإنسان يستطيع استعمال أي صيغة يراها للشكر ما دامت تتضمن المحتوى نفسه، ولو كان ذلك باللهجة الدارجة، ولكن استعمال الصيغ الواردة في النصوص أفضل، فإذا لم يكن يحفظ فله التعبير بما شاء من كلمات تتضمن شكر الله تعالى الذي عافاه مما ابتلى به هذا المبتلى.

---

(١) الكافي ٢: ٩٧ ح٢٠.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**إذا رأيت الرجل وقد اُبتلي وأنعم الله عليك فقل: اللهم إني لا أسخر ولا أفخر، ولكن أحمدك على عظيم نعمائك عليّ**»[1].

أي لا أسخر من هذا المبتلى بسبب ما ابتلاه الله سبحانه وتعالى به، ولا أفتخر عليه بخلوي من هذا البلاء. وهنا يبيّن الإمام الصادق عليه السلام صيغة ثالثة لشكر الله تعالى عند رؤية مبتلى ، وتتضمن هذه الصيغة التركيز على حالة عدم الاستهزاء بالمبتلى وعدم الفخر عليه عند رؤيته، وقد مرّت الإشارة سابقًا إلى وجود هذه الظاهرة في مجتمعاتنا عند رؤية المبتلى، ولعلها كانت موجودة آنذاك أيضًا، فأراد الإمام عليه السلام معالجة هذه الظاهرة بإنشاء هذه الصيغة الخاصة في شكر الله تعالى عند رؤية المبتلى.

إنّ توجيه الخطاب إلى المبتلى بما ابتلاه الله تعالى به، إما استهزاء به أو افتخارًا عليه، يعد مخالفة صارخة لما أُمرنا به من التوجه بالخطاب لله سبحانه وتعالى وشكره على العافية من هذا البلاء، من أجل عدم الابتلاء بهذا البلاء والإصابة به، فإنّ الاستهزاء بالمبتلى أو الافتخار عليه قد يودي إلى نتيجة عكسية تمامًا، وهي الإصابة بذلك البلاء، فالاستهزاء بالمبتلى والافتخار عليه بالإضافة إلى كونهما من المحرمات يستحق صاحبهما العقوبة الإلهية، فإنّه يعرّض نفسه للإصابة بهذا الابتلاء أكثر من الساكت الذي لا يشكر ولا يسخر، والشكر وحده هو الذي يدفع الإصابة بذلك البلاء، وهناك روايات تشير إلى أنّ من عيّر مؤمنًا فإنه لا يخرج من الدنيا حتى يُصاب بنفس ما عيّر به غيره، كما ورد ذلك في قول الإمام الصادق عليه السلام: «**من عيّر مؤمنًا بشيء لم يمت حتى يركبه**»[2]. فلماذا السخرية من المبتلى؟ أبسبب أنّ الله تعالى ألبسنا ثوب العافية وحرمه منه؟ فهل كان لنا الخيار في ذلك، أو كان لهذا المبتلى الخيار فيه؟ ولماذا الافتخار على المبتلى؟ أهو بعمل قد عملناه فحصلنا على السلامة، أم كان الابتلاء نتيجة تقصير منه لذلك أُصيب به؟. إنّ العقل يأبى لصاحبه أن يكون ساخرًا بمبتلى أو مفتخرًا عليه، فإن لم يكن أمثال هؤلاء من أهل الدين فليكن من أصحاب العقول.

هناك رواية لطيفة جدًا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ الله جل جلاله ليعتذر إلى عبده المؤمن المحوج في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه، فيقول: وعزتي وجلالي ما أحوجتك في**

(١) الكافي ٢: ٩٨ ح٢٢.
(٢) الكافي ٢: ٣٥٦ ح٢.

الدنيا من هوان كان بك عليّ، فارفع هذا السجف ـ أي الستر ـ فانظر إلى ما عوضتك من الدنيا. قال: فيرفع فيقول: ما ضرني ما منعتني مع ما عوضتني»[1]، فالله ﷻ كريم مع عباده لطيف بهم، ولهذا لا ينبغي أن نسخر ولا نفتخر على مبتلى بفقر أو غيره من ألوان البلاء، وهذان شرطان أساسيان حتى يحظى الإنسان بالحفاظ على النعمة، ولا يزيل الله ﷻ هذه النعمة منه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فإنّ ذلك يحزنهم**»[2]. وقد مرّ هذا المضمون في رواية سابقة، وهذا التأكيد على عدم إسماع المبتلى هذا الشكر على العافية مما ابتلي به، لأن إسماعه ذلك سيدخل الحزن في قلبه، وإن كان لا يقصد به الإساءة إليه، ولذلك يجب عدم إسماعه حذرًا من أن يؤذيه ذلك ويجعله يتذكر فقدانه هذه النعمة وتنعّم أكثر الناس بها.

شكر المنعم الحقيقي

والنقطة الأخيرة في مسألة شكر النعمة، هي أن نشكر المنعم الحقيقي وهو الله ﷻ، ولكنه يوصل نعمه إلينا بأسباب طبيعية من خلال عباده، فمثلًا إذا أراد الله تعالى أن يرزقك يهيئ لك سببًا ما، كأن يُهدي إليك شخص هدية معينة أو يوفر لك فرصة معينة، فهذا موصل كساعي البريد، والمنعم الحقيقي هو الله ﷻ ، علينا أن نشكر المنعم وأن نشكر الموصل أيضًا، ولا يكفي أن نشكر المنعم فقط، لأنّ هذا بذل جهدًا، وقد أرسله الله تعالى وجعله وسيلة، وكل منا يمكن أن يكون وسيلة خير، فيجب أن نشكر الموصل أيضًا.

جاء في رواية يرويها عمار الدهني قال: «**سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: إنّ الله يحب كل قلب حزين، ويحب كل عبد شكور، يقول الله ﷻ لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانًا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربي. فيقول الله ﷻ: لم تشكرني إذ لم تشكره. ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس**»[3].

يبيّن الإمام السجاد عليه السلام في هذه الرواية المباركة صنفين من الناس يحبهما الله ﷻ، وهما صاحب القلب المحزون، والعبد الشكور أي الكثير الشكر، والمناسبة في ذكر

(١) الكافي ٢: ٢٦٤ ح١٨.
(٢) الكافي ٢: ٩٨ ح٢٣.
(٣) الكافي ٢: ٩٩ ح٣٠.

هاتين الخصلتين أنهما من خصال المؤمن، والحزن ضد الفرح، ومن كان في هذه الدنيا فرحًا فسيكون محزونًا في الآخرة، ومن كان محزونًا هنا كان فرحًا هناك، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾(١)، أي في الحياة الدنيا كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(٣).

والقلب الحزين هو القلب المنكسر، وقد ورد في الرواية الشريفة: «**إنّ الله عند المنكسرة قلوبهم**»(٤)، وانكسار القلب هو لحظة استجابة الدعاء، وعندما تدمع العين فاعلم أنّ هذه لحظة استجابة الدعاء. ولذلك ورد في آداب زيارة الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام قراءة إذن الدخول، فإن انكسر القلب ودمعت العين فاعلم أنّ هذا هو الاذن بالدخول، ولا يكون ذلك إلا لمن حزن قلبه.

والصنف الآخر الذي يحبه الله تعالى هو العبد الشكور، ومن تمام شكر الخالق، شكر المخلوق الذي كان واسطة لوصول النعمة، وفي هذا الحديث الشريف ينقل الإمام السجاد عليه السلام مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، ليتجلى بوضوح كامل العلاقة الصميمية بين شكر الخالق وشكر المخلوق، والمشهد هو «**أنّ الله ﷻ يقول لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانًا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربي**»، ظنًا منه أنّ شكره تعالى وحده على نعمه يغني عن شكر الآخرين. «**فيقول الله ﷻ: لم تشكرني إذ لم تشكره**»، إذن من لم يشكر المخلوق لم يشكر الله تعالى. ثم يبيّن الإمام السجاد عليه السلام هذا المفهوم الأخلاقي الرفيع بقوله: «**أشكركم لله أشكركم للناس**»، فجعل ميزان كثرة شكر الله تعالى هو أن يكون الإنسان أكثر شكرًا للناس. وبهذا الكلام النوراني تتبدد الظلمات عن التصورات الخاطئة التي تعشش في أذهان البعض؛ أنّ الاكتفاء بشكر الله تعالى يغني عن شكر من كان وسيلة في وصول النعمة. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما أشار إليه القرآن الكريم في الترابط الوثيق بين السبب والواسطة في وصول النعمة، في

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٤) بحار الأنوار ٧٠: ١٥٧، ح٣.

حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وآله لزيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[1].

وهناك رواية أُخرى في هذا السياق عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**من حق الشكر لله تعالى أن يشكر من أجرى تلك النعمة على يده**»[2]، والمعنى أنّ لشكر الله تعالى حقًا لا يتم إلا باستيفائه، وهذا الحق هو شكر الإنسان الذي جعله الله تعالى وسيلة وطريقًا لوصول النعمة إلينا، إذن فشكر المنعم وشكر الموصل لهذه النعمة أمران مترابطان لا يجوز التفكيك بينهما. وهذا أيضًا من آداب الشكر.

(١) سورة الأحزاب، الآية : ٣٧.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢ : ٣٥٧.

الحق السادس عشر

(نصرة المؤمن)

يتجلى هذا الحق بقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في الرواية الكريمة التي وضعناها أساسًا لهذا البحث: «**يحسن نصرته**»، فلا يكفي أن تنصر أخاك المؤمن، بل عليك أن تحسن هذه النصرة، أي تنصره بشكل صحيح، وأن تنصره بكمال النصرة.

وهذا يدعونا الى أن نقف قليلاً عند أساليب أداء الواجب، أي أداء العمل والخدمة، فلو فرضنا أنّ إنسانًا يعمل في مكان ما مدرسًا يقول: إني أبحث عن تعيين لأقضي بعض الوقت في الوظيفة لإسقاط الواجب، ثم أذهب للتدريس الخصوصي حيث المال الوفير، فهل يمكن قبول مثل هذا الكلام من شخص كل ما يفكر فيه هو مجرد الحضور في المدرسة لكي لا يُقطع مرتبه الشهري ولا تعاقبه الوزارة؟ وليس مهمًا عنده بعد ذلك أفهم التلاميذ الدرس أم لم يفهموا، وأعطى للدرس حقه كما ينبغي أم لم يعطه. لا يمكن أن يقال لمثل هذا المعلم إنه قد أحسن التعليم، وإن وقف في الصف وسرد المعلومات المتعلقة بالموضوع كالببغاء، ثم ينصرف بعد انتهاء وقت الدرس، غير آبه باستيعاب الطلاب للدرس.

إنّ حسن التعليم والتدريس هو أن يعطي المعلم والمدرس حق الدرس، بحيث يخرج من قاعة الدرس وهو على يقين بأنّ الطلاب قد فهموا الدرس فهمًا جيدًا، وأن يكون حريصا على استيعابهم للدرس ولو بتنويع أساليب التدريس؛ من خلال الإجابة عن الأسئلة وتكرار المادة الدراسية وتبسيطها، وتكليف الطلاب بواجبات بيتية، واستعمال أمثلة وأساليب توضيحية لإيصال المعلومة إلى أذهان الطلاب، إلى غير ذلك مما كنا نراه من معلمي ومدرسي الجيل السابق في مدارسنا العراقية. إذن هناك فرق واضح بين التدريس وحسن التدريس، وكذلك الأمر هنا؛ فهناك فرق بين مجرد النصرة وحسن النصرة.

مثال آخر: سلوك الموظف في دائرة من دوائر الدولة مع المراجع الذي جاء خطأ

إلى هذا المكان وكان عليه مراجعة دائرة أُخرى ، فيوجهه الوجهة الصحيحة ويعطيه العنوان الصحيح، أو مراجع لا يعرف الطرق الروتينية التي تمر بها المعاملة، فيرشده الى أيّ موظف يذهب وكيف يملأ الاستمارة وما المطلوب منه. مثل هذه الأعمال لا تعتبر إسقاطًا للواجب فقط، لأنه يقوم بعمله على أحسن وجه وفي أعلى درجات المسؤولية والحرص على أداء الواجب الوظيفي، و يتعداه إلى حد الإنصاف.

وهناك مرتبة ثالثة وهو صاحب المشروع الحريص الذي لا يكتفي بالإنصاف، والذي يرى الطلاب أبناء له، ولا يكتفي بتوفير وتهيئة كل الظروف الملائمة للدراسة، بل يتعداها إلى الأسباب التي تدعو هذا الطالب مثلاً إلى استيعاب الدرس، وعلّة شروده الذهني، والمشاكل التي يعاني منها داخل البيت، والاتصال بوالديه ومحيطه الاجتماعي في محاولة لحل المشكلة التي يعاني منها في عدم التوجه إلى الدرس، وهذا أمر أكثر من الإنصاف، مثل هذا المعلم مؤمن بقضية أكبر من مجرد التدريس الجيد وبذل الوسع في إيصال المادة العلمية للطلاب؛ فهو بالإضافة إلى ذلك مصلح اجتماعي كرّس حياته لإنقاذ المجتمع، فالأب أحياناً يعجز عن إصلاح ابنه ولا يستطيع أن يعدل سلوكه بالرغم من استعماله جميع الوسائل، ولكن هذا المدرس صاحب الإيمان بالقضية، يبذل المزيد من وقته من أجل حل مشكلة أمثال هؤلاء الطلاب، لعله يستطيع علاج مشاكلهم قبل أن تستفحل ويتحولوا إلى فريسة سهلة بأيدي أصحاب التوجهات المنحرفة في المجتمع. فالمرتبة العالية من تحمل المسؤولية، هي أن يشعر الإنسان بأنه مؤمن بالمهمة المناطة به وحريص عليها؛ فهو لا يكتفي بأداء مهمته الوظيفية في حدود عمله زمانًا ومكانًا، بل يكرّس حياته من أجل المشروع الذي آمن به في الإصلاح. إنه مستعد أن يعطي كل شيء من أجل العمل الذي نذر نفسه له، ويتخطى حدود المسؤولية المناطة به، وهو بذلك لا يريد من أحد جزاءً ولا شكورًا، فهو يرى نفسه صاحب مشروع،لذا نراه محروق القلب تجاه هذه القضية.

فمعنى «**يحسن نصرته**» أي من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يحسن نصرته، فيقف معه حتى الموت، فهو كأخيه من أمه وأبيه، بل هو أكثر من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[١]، أي أنّ أقرب الناس لإبراهيم عليه السلام حتى من ابنه هم الذين آمنوا به، ورسول الله صلى الله عليه وآله والذين آمنوا معه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

فالأخوّة الإيمانية مقدّمة على الأخوة النسبية، والأخ المؤمن أكثر قربًا من الأخ النسبي، لذا يجب أن أقف معه أكثر، وأكون محروق القلب بشأنه، ومهما سمعت منه فلا أتركه، وأبقى معه إلى آخر الخط.

فهذا هو معنى حسن النصرة، أي انصر أخاك على عدوه الظالم له، وانصره على نفسه إذا سوّلت له ركوب طريق الخطأ أو الخطيئة. ولا تقبل من عاذل عذله، ولا من لائم لومه، في ترك أخيك وأداء ما عليك من حق تجاهه، انظروا إلى عظمة حق المؤمن على المؤمن.

وأخيرًا اسمحوا لي أن أتلو على مسامعكم هذه الأبيات المنسوبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

إِنَّ أَخَاكَ الصِّدْقَ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ ... وَ مَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَعَـك
وَ مَـنْ إِذَا عَايَنَ أَمْراً قَـطَعَـك ... شَـتَّتَ فِيـهِ شَـمْلَهُ لِيَجْمَعَـك

أخو الصدق: الصدوق، وهو من يحسن نصرة أخيه، وتتجسد هذه النصرة بالسعي للأخ المؤمن والوقوف معه، وبإلحاق الضرر بالنفس من أجل أن يفيده، فيسهر معه عندما تواجهه مشكلة، ويضع نفسه في فوهة المدفع ليدفع عنه، ويتلقى السهام لئلا يصيبه مكروه، وإذا رأى أمرًا فيه خطر عليه واستهداف له ضيّع نفسه ليحفظه، فيضحي بنفسه من أجله، ويفديه بنفسه ويقدمه عليها، هذا هو الأخ الصدوق الذي يجب حسن نصرته، وهذه هي العلاقة الإيمانية التي يجب أن توجد بين المؤمنين، وبهذا المستوى من النصرة والمؤازرة والمحبة والمودة نستطيع أن نغلب الآخرين، ممن هم على طرف نقيض مع الإسلام والإيمان.

النصر والهزيمة في المنظور الإلهي

وردت في القرآن الكريم آيات تبين أنّ النصر حليف المؤمنين كقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾، أي إنّ كلمة النصر هي التي سبقت، فالله سبحانه وتعالى يقول لقد قلناها لأنبيائنا؛ إنّ النصر معكم دائمًا، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٢]، أي إنّ الظفر والغلبة

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

لجند الله دائمًا، فالنصر لأنبياء الله والظفر لمشروع الله، فلا ينبغي أن يتردد أحد أو يشك في أنّ النصر إنما هو لمشروع السماء لا غير.

وقد يقول البعض: لقد قُتل الأنبياء، وقد قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**ما منا إلا مقتول أو مسموم**»(١)، وتقطعت أشلاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، بينما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ و ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، فكيف يُتصور ذلك؟ ونحن نرى كبوات وتلكؤات، ونجد أحيانًا انكسارات عسكرية، ففي أحد هُزم المسلمون مع أنّهم كانوا بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف ينسجم هذا الواقع مع هذه الآيات؟.

والجواب واضح؛ فهذه الآيات ناظرة إلى المسار العام لحركة الرسالات الإلهية، لا إلى حالات خاصة في مقاطع زمنية متفاوتة، فقد خسر رسول الله صلى الله عليه وآله في جولة، ولكن كان النصر حليفه في نهاية المطاف وهزم المشركين، وطهّر أرض جزيرة العرب من عبادة الأوثان، فالعبرة بالنتيجة وليست في تفاصيل بعض المعارك خلال مسيرة الحرب الطويلة، فإذا خسر جولة وكسب المعركة فمن هو المنتصر؟ أليس المنتصر هو الذي يكسب المعركة؟ والحرب كر وفر كما يقولون؛ خطوات للأمام وخطوة للخلف، وهنا قد يتقدم العدو وهناك نتقدم عليه، المهم هو حينما تنتهي المعركة ويحسم الصراع ونرى من هو المنتصر.

وكذلك كان الإمام الحسين عليه السلام في عصر يوم عاشوراء شهيدًا على رمضاء كربلاء، ويبدو أنّه قد خسر المعركة، ولكن لو نظرنا اليوم إلى ملحمة كربلاء وسألنا هل انتصر الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء أو انكسر؟ فإذا كنا لا نعرف الجواب فما علينا إلا أن ننتظر في كل عام أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، وحينئذ سنرى الجواب في ساحات كربلاء، حيث يخرج إليه عشرون مليون زائر من المؤمنين به ومن مختلف بقاع الدنيا، يمشون على الأقدام مئات الكيلو مترات، وفي المقابل نسأل أين قبر يزيد بن معاوية؟ وهل هناك من يريده أو من يسير إليه؟ وهل هناك من يتشرف بالانتماء إليه؟. إذن هذا هو النصر العظيم.

---

(١) بحار الأنوار ٢٧: ٢١٧، ح١٨.

لقد كابد رسول الله ﷺ الأمرّين حتى قال: «**ما أُوذي نبي مثلما أوذيت**»[١]، فقد تحمل المعاناة والآلام وبقي محاصرًا ومعزولاً في مساحة ضيقة، ولكننا نرى اليوم ظهورًا للإسلام بشّر به الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٢]، فقد أخذ الإسلام مدياته في العالم، ونسأل من هو المنتصر اليوم، هل هو رسول الله ﷺ أم أبو سفيان؟ وهل يزور أحد قبر أبي سفيان؟ وهل يتشرف إنسان بالانتماء إليه؟ وهل يوجد من يعتز ويفتخر به؟. لقد ذهب كل هؤلاء إلى مزابل التاريخ، وبقيت راية الحق خفاقة.

لهذا لا ينبغي أن نتعجل في الحكم عندما نرى كثرة الإخفاقات في المديات القصيرة، لأنّنا عندما ننظر إلى المسار العام نرى دومًا الانتصارات هي سيدة الموقف، فالمشروع الرسالي مشروع منتصر لا محالة، وهذا الانتصار هو الذي يذكره الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ﷺ وللمؤمنين.

انظروا إلى قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ أي ننصرهم على أعدائهم، وهذا أمر واضح، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وننصر الذين آمنوا أيضًا، فلا نقتصر على نصر رسول الله ﷺ، بل ننصر المؤمنين أيضًا، وهذا النصر سيكون حليفهم، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٣]، ننصرهم في هذه الدنيا، وهناك نصر آخر مدّخر لهم يوم القيامة، لاحظوا هنا التعبير القرآني عن يوم القيامة بـ ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، فمن هم الذين يُقدمون للشهادة في يوم القيامة؟ إنّهم الله والملائكة والأنبياء والمؤمنون، فالملائكة والأنبياء والمؤمنون يُستقدمون للشهادة بين يدي الله سبحانه وتعالى، ولهذا سُمّي يوم القيامة بيوم الشهادة، فهو اليوم الذي تقدم فيه الشهادة بحق الناس، من يشهد بحقنا هم الملائكة والأنبياء، والأئمة الأطهار عليهم السلام يشهدون أيضًا لأنّهم امتداد للأنبياء، وقد ورد التأكيد على هذا المعنى في زيارات المعصومين أيضًا: «**أشهد أنك تشهد مقامي وتسمع كلامي**»[٤]، والمؤمنون يشهدون أيضًا.

---

(١) بحار الأنوار ٣٩: ٥٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) سورة غافر: ٥١.
(٤) مستدرك الوسائل ١٠: ٣٤٥، ح١.

شروط النصر

إذن فالنصر لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكن لهذا النصر شروط يجب أن تتوفر حتى يتحقق، فإذا نجحنا في تحقيق الشروط تحقق الانتصار، وإذا أخفقنا في تحقيق الشروط لم يتحقق الانتصار، المشكلة ليست في القاعدة الإلهية للنصر ولكن المشكلة فينا، فنحن الذين أخفقنا، ولكن القاعدة الإلهية تقول إن النصر لنا على الدوام، فما الشروط التي يتوقف عليها النصر الإلهي؟.

الشرط الأول: عدم الضعف والقلق

لاحظوا هذه الآية الشريفة من سورة آل عمران التي ذُكر فيها بعض هذه الشروط: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي لا تضعفوا في المعركة، ولا تنكسروا، وكونوا أقوياء وثابتين وواثقين بالله سبحانه وتعالى. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أي لا تقلقوا من المشاكل، ولا تحملوا همًّا للمعاناة والمحنة وكثرة الأعداء، وكونوا صبورين، فإن لم تضعفوا ولم تقلقوا فإنّ الله سبحانه وتعالى يحقق لكم النصر: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي أنتم غالبون، ولكن هذا النصر الذي يعدنا الله تعالى به لا يتحقق إلا بشرط الإيمان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الشرط الثاني: التغير نحو الأحسن

في سورة الأنفال إشارة إلى شرط آخر من شروط النصر، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢).

هل تريد أن تقعد في بيتك ويأتيك النصر؟ كلا طبعًا، سيدخل عليك مجرمو داعش ويذبحونك مع أطفالك، فلا بُـدَّ من الحركة والاستعداد للمواجهة، والتغيير يجب أن يبدأ من هنا، والخطوة الأولى يجب أن تبدأ من هنا، ولولا فتوى المرجعية، ولولا استجابة شبابنا وأبنائنا لهذه الفتوى والإسراع إلى ساحات الجهاد، ما كانت لدينا اليوم هذه العزة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

والكرامة، ولما كنّا نجلس في بغداد آمنين، هذه سنّة إلهية في النصر وهي أن نتغير نحو الأفضل، ونمنع من تغيير الأمور الحسنة إلى السيئة، بل نغيّر أمورنا السيئة إلى أمور حسنة، هذا هو المنهج، وهذا هو الشرط الأساسي في تحقيق الانتصار.

الشرط الثالث: عدم محبة أعداء الله

يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، لا يمكن أن ترى مؤمنًا حقيقيًا بالله وباليوم الآخر وهو يحب ويوالي من عادى الله ورسوله، إذ كيف يمكن لمؤمن أن يودّ أعداء الله ورسوله ؟ وكيف يمكن أن يتقرب إليهم؟ وكيف يمكن أن ينفتح عليهم ويعطي في قلبه حيزا لهم؟ فهؤلاء أعداء الله ورسوله، ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا وهو يحب أعداء الله وأعداء رسوله؛ لأنّ النور والظلمة لا يمكن أن يجتمعا، وكذلك محبة الله ومحبة إعداء الله لا يمكن أن تجتمعا في قلب واحد. ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(1)، حتى لو كان أعداء الله ورسوله هم أقرب الناس إلينا؛ كآبائنا أو أبنائنا أو إخواننا أو أحد أقاربنا، فلا يجوز أن نحبهم، إذا كان هذا الإنسان عدوًا لله ولرسوله، مهما كان قريبًا، لا يمكن أن يكون محبًا لي، ولا يمكن أن أكون محبًا له، ولا يمكن أن أعطيه الولاء والمحبة.

نعم قد يجامل الإنسان أُناسًا وتكون له علاقات إنسانية في المجتمع فهذا شيء آخر، ولكن الولاء والمودة والثقة والمشاعر لا تعطى إلا للمؤمنين، ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا وهو يعطي مشاعر الحب والولاء لأعداء الله وأعداء رسوله.

وقد أشارت هذه الآية المباركة إلى أربعة عناوين ممن هُم أقرب الناس إلى الإنسان، وهم الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة، ولكن في آية أُخرى هناك إشارة إلى عنوانين إضافيين، وهي قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، أموال كسبتموها.. حصلتم عليها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، إن كانت عندكم تجارة مع المعاندين من أعداء الله، وتخافون إن ارتبكت علاقتكم بهم أن تضيع هذه التجارة، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي مساكن تعجبكم، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾، إذا كانت علاقتك بهذه الأشياء أشد من علاقتك بالله ورسوله والجهاد في سبيله فإنّ النتيجة هي:

---

(1) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّه بِأَمْرِهِ﴾، فانتظروا وانظروا كيف يكون عذاب الله، وكيف سينزل بكم في العاجل والآجل، ﴿وَاللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، وهكذا نرى أنّ في الآية الأخيرة تفصيلًا أكثر؛ فقد ذكرت عناوين إضافية، بينما اقتصرت الآية الأولى على العناوين الأربعة، وهي الأقرب للإنسان، فإذا كان هناك شخص يحب أباه أو ابنه أو أخاه أو عشيرته، أكثر من حبه لله ورسوله والجهاد في سبيل الله، فلينتظر ما سيحل به في القريب العاجل، وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بالفسق، وإذا كان فاسقًا فهو مطرود من الهداية الإلهية ومحروم منها، اللهم إلا أن يتدارك نفسه بالتوبة إلى الله عزّ وجلّ.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

الحق السابع عشر
(حفظ حليلة المؤمن)

يتبيّن هذا الحق من قول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الرواية التي نقلناها في صدر البحث: «**يحفظ حليلته**»، والحليلة هي الزوجة. فمن حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يحفظ زوجته من حيث حفظ خدره وكرامته وعرضه.

يجب عليك حفظ عرض الأخ المؤمن كما لو كان عرضك، وعليك أن تحفظه في البعد الديني، والبعد الاجتماعي والبعد السلوكي، ويجب عليك أن تخاف عليها كما لو كانت زوجتك.

الأخ المؤمن يزور أخاه المؤمن، ثم تتطور العلاقة بينهما وتتحول إلى علاقة عائلية، وربما رفعت الحشمة بين العائلتين فيجلسان معًا على مائدة واحدة، وربما امتد نظر البعض إلى البعض الآخر، وربما تطور الأمر إلى تبادل الحديث والابتسامة، وربما تطور الأمر أكثر وأكثر. وفي العلاقة الإيمانية ينبغي أن تقف هذه العلاقة عند حدودها الشرعية ولا تتجاوزها، ويجب أن تبقى الحرمات محفوظة، ولكن مع الأسف نجد أنّ هناك تساهلًا في مجتمعنا في هذا الموضوع، لذا ينبغي أن يبقى الحجاب مسدولًا بين المؤمن وزوجة أخيه المؤمن، فالإنسان كتلة من المشاعر والعواطف والأحاسيس تؤثر فيه النظرة والكلمة والابتسامة والحركة، لئلا يجد الشيطان لعنه الله ثغرة ينفذ منها، لأنه حاضر في كل مكان وزمان يتربص بعدوه الإنسان ليزله عن الطريق. ولهذا علينا أيها الإخوة عدم التساهل في هذا الموضوع أبدًا وتحت أي ذريعة كانت، ويجب أن تبقى الحرمات محفوظة على كل حال.

ومن مصاديق حفظ حليلة الأخ المؤمن، أن يكون حرصه على حفظ عرض أخيه، كحرصه على حفظ عرضه، فتتحول الحالة الاجتماعية إلى حالة مؤازرة، وكل عينه على عرضه وعلى أعراض المؤمنين، وعند ملاحظة أي خلل وأي تسامح يبادر إلى وضع حد له، فمثلاً إذا رأيت زوجة أخي المؤمن في حالة غير لائقة أو في سلوك غير طيب، وهي لم

تكن قاصدة لشيء، بل هي مسترسلة، فيجب تنبيهها بالكلمة الطيبة، وعندها تكون هناك حالة من التضامن وينضبط المجتمع، فالانحرافات تبدأ بخطوة ثم تليها خطوة ثانية ثم تليها خطوة ثالثة، ثم يرى الإنسان فجأة أنه قد وصل إلى نقطة لم يتصور أن يكون فيها.

ويجب علينا أيها الإخوة بوصفنا بشرًا ولسنا ملائكة، أن نتعامل بواقعية وحذر مع كل ما حولنا، فإنّنا ننطوي بين جنباتنا على نفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، ولهذا على كل واحد منا أن يحفظ حليلته أولًا، ثم ينطلق لحفظ حليلة أخيه المؤمن من أن تتعرض إلى أي سوء.

الحق الثامن عشر
(قضاء حاجة المؤمن)

يتضح هذا الحق من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن بقول رسول الله ﷺ: «**يقضي حاجته**»، فالمؤمن يقضي حاجة أخيه المؤمن، وهذا من أهم الحقوق، وقد ورد الكثير من النصوص الشرعية في هذا الموضوع، وفي التأكيد على أهمية قضاء حوائج المؤمنين.

قضاء الحوائج في الروايات

نحاول هنا كما في سائر الحقوق الأخرى أن نلقي نظرة سريعة على الروايات الواردة في هذا الموضوع، لكي نكتشف مدى أهميته، والأجر العظيم الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لكل مؤمن يسعى في قضاء حاجة أخيه المؤمن. وقضاء الحوائج بشكل عام هو من الأمور المهمة في الشريعة، كما أن له دورًا عظيمًا وكبيرًا في حياة الناس.

الرواية الأولى: ورد في بحار الأنوار عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته ما كان في حاجة أخيه**»[1].

تتحدث هذه الرواية المباركة عن المكافأة العظيمة التي يحصل عليها من يسعى في قضاء حوائج إخوانه المسلمين، ألا وهي أن الله سبحانه وتعالى يكون في قضاء حوائجه في طول المدة التي يسعى فيها في قضاء حوائج إخوانه، أي أنه كلما كثرت حاجات إخوانه إليه واستغرق قضاؤها وقتًا أكثر، قضى الله عزّ وجلّ له عددًا أكبر من حوائجه الشخصية. فمن انشغل في قضاء حاجة أخيه المسلم وقضى وقتًا في هذا الأمر، كان الله سبحانه وتعالى في قضاء حاجته طيلة انشغاله في حاجة أخيه.

فالإنسان الذي يقضي حياته بالسعي في حوائج المؤمنين، يقيّض الله سبحانه وتعالى له ملائكة يقضون وقتهم في حل مشاكله وتذليل الصعوبات والعقبات التي تواجهه، فلا تتصور أن هذه بمعزل عن تلك.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٦، ح١١.

الرواية الثانية: ورد في بحار الأنوار أيضًا، عن علي بن يقطين، عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «**كان في بني إسرائيل رجل مؤمن، وكان له جار كافر، فكان هذا الكافر يرفق بالمؤمن، ويوليه المعروف في الدنيا، فلما أن مات الكافر بنى الله له بيتا في النار من طين، فكان يقيه حرها، ويأتيه الرزق من غيرها، وقيل له: هذا لما كنت تدخل على جارك المؤمن فلان بن فلان من الرفق وتوليه من المعروف في الدنيا**»[1].

كان علي بن يقطين المقرب من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قائدًا للشرطة في الدولة العباسية، وقد تصدى لهذه المسؤولية في هذه الدولة الجائرة بأمر من الإمام الكاظم عليه السلام، ليقضي حوائج المؤمنين ويحل مشاكلهم ويخفف من أعبائهم.

يروي علي بن يقطين عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هذه الرواية المباركة عن الأثر الأخروي للمعاملة الطيبة للمؤمن ولو كانت من كافر، وهي تحكي قصة حسن معاملة كافر لجاره المؤمن في بني إسرائيل، فكان هذا الكافر يرفق بالمؤمن، ولا تخلو المجتمعات من مثل هذه النماذج التي تتعامل مع البشر على أساس إنساني، فترى البعض ممن لا دين له ولا عقيدة صحيحة لديه، ولكنه يمتلك آدابًا اجتماعية وصاحب أخلاق جيدة، تنعكس من خلال تعامله مع من يختلفون عنه في الدين والمعتقد، وهو لا ينطلق في حسن معاملته هذه من دوافع دنيوية أو أخروية، وإنما هو يفعل ذلك بدوافع إنسانية نبيلة فقط، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق في كرمه وإحسانه، فلا يدع هذا الكافر بلا ثواب على إحسانه لعبده المؤمن في الدنيا، فيعطيه من الجزاء الأوفى الذي يظل هذا الكافر متحيرًا منه، فهو يجعله في بحبوحة من العيش وهو في النار، فيبني الله تعالى له بيتًا في النار من طين، يخفف عنه حرارة نار جهنم، ويأتيه الرزق من غير النار، أي أنّ طعامه يختلف عن طعام أهل النار، فماؤها يغلي في البطون كغلي الحميم، وطعامها يقطّع الأمعاء، كما ورد في الأوصاف القرآنية، فطعام النار وشرابها لا يطاق، وهو عذاب آخر لأهل النار، ولكن هذا الكافر تأتيه قصعته من خارج النار، وعندما يستغرب من هذه الكرامة التي خصه الله تعالى بها، يقول له الملائكة: «**هذا لما كنت تدخل على جارك المؤمن فلان بن فلان من الرفق وتوليه من المعروف في الدنيا**»، وكنت تقضي حوائجه، فخصك الله سبحانه وتعالى بهذه الميزة وانت في النار.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٥، ح٥٢.

الرواية الثالثة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ لله عبادًا من خلقه يفزع العباد إليهم في حوائجهم، أولئك هم الآمنون يوم القيامة**»(١).

يخبر الإمام عليه السلام في هذا الحديث المبارك عن مجموعة من المؤمنين يلجأ إليهم الناس عند الشدائد وعندما يتعرضون إلى مشكلة ما ليسعفوهم ويقفوا معهم، والإنسان المهتم بقضاء حوائج الناس يُعرف في المجتمع، ويخبر الناس بعضهم بعضًا عندما تعرض لهم حاجة أنّ قضاء حاجتك عند فلان. ثم يبشّر الإمام عليه السلام أُولئك بأنهم الآمنون يوم القيامة حينما يهيمن الفزع والهلع على قلوب الناس في ذلك اليوم، وهم من مصاديق قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾(٢).

الرواية الرابعة: ورد في الكافي الشريف عن ابن أبي نصر قال: «**قرأت في كتاب أبي الحسن الرضا عليه السلام إلى أبي جعفر: يا أبا جعفر، بلغني أنّ الموالي إذا ركبت أخرجوك من الباب الصغير، فإنما ذلك من بخل منهم لئلا ينال منك أحد خيرًا، وأسألك بحقي عليك لا يكن مدخلك ومخرجك إلا من الباب الكبير، فإذا ركبت فليكن معك ذهب وفضة ثم لا يسألك أحد شيئًا إلا أعطيته، ومن سألك من عمومتك أن تبره فلا تعطه أقل من خمسين دينارًا والكثير إليك، ومن سألك من عماتك فلا تعطها أقل من خمسة وعشرين دينارًا والكثير إليك، إنما أُريد بذلك أن يرفعك الله**»(٣).

ينقل الراوي هنا كتاب الإمام الرضا عليه السلام من خراسان إلى ابنه الإمام الجواد عليه السلام عندما أسكنوه دار الإمارة في المدينة المنورة، وعاملوه معاملة الأُمراء باعتبار أنّ أباه كان وليًا للعهد في خلافة المأمون العباسي، ويظهر من هذا الكتاب الكريم أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يتابع أخبار عائلته في المدينة عن كثب، فوصله خبر أنّ ولده الوحيد محمد الجواد عليه السلام كان إذا أراد الخروج أخرجه الموالي ـ وهم الخدم والحمايات التي كانت في قصر الإمارة ـ من الباب الخلفي الصغير، ولم يكونوا يخرجونه من الباب الرئيس للقصر؛ لأنّ الناس من أصحاب الحوائج كانت تقف أمام الباب الرئيس، فكان الموالي يخرجونه من الباب الخلفي الصغير بخلاً منهم أن يقضي الإمام الجواد عليه السلام حوائجهم، ولئلا ينال منه أحد خيرًا، وبالرغم من صغر سن الإمام الجواد عليه السلام آنذاك، إذ لا يتجاوز

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٨ ح٨١.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٩.
(٣) الكافي ٤: ٤٣ ح٥.

ثماني سنوات، فإنّ والده الإمام الرضا عليه السلام يقسم عليه بحقه عليه، وهو حق الأبوة وحق الإمامة، وفي هذا الأسلوب من الكلام تغليظ شديد وإلحاح أكيد على اتّباع ما سيطلبه منه من مطالب، وهي كالتالي:

أولاً: أن يكون مدخله ومخرجه من الباب الكبير للقصر فقط، وألّا يخرج من الباب الخلفي كما يفعله معه جلاوزة السلطان.

ثانيًا: إذا ركب للخروج من القصر ليكن معه من الدنانير والدراهم ما يكفي ليعطي كل من يسأله.

ثالثًا: أن يعطي من يسأله من عمومته خمسين دينارًا فأكثر، وكان الدينار آنذاك يعادل مثقالاً من الذهب، أي يعطي خمسين مثقالاً من الذهب في الأقل، وأن يعطي من تسأله من عماته خمسة وعشرين دينارًا فأكثر، وكان أعمام وعمات الإمام الجواد عليه السلام خمسة وثلاثين فردًا. وقد حدّد الإمام الرضا عليه السلام لولده الجواد عليه السلام الحد الأدنى من العطاء، وترك له الباب مفتوحًا أن يزيد ما شاء، كل بحسب حاجته ومقدار مؤونته، ومن هنا ندرك سر لقب «الجواد» الذي حمله إمامنا محمد بن علي عليه السلام.

ثم بيّن الإمام الرضا عليه السلام لولده محمد عليه السلام الهدف الذي من أجله يوصيه بهذه الوصايا، لئلا يتصور من يطلع على هذا الكتاب بعد ذلك أنّ الإمام الرضا عليه السلام يريد الدنيا لولده بهذه الأعمال، فيقول له: «**إنما أُريد بذلك أن يرفعك الله**»، فالهدف إذن أخروي لا دنيوي وإن كانت وسائله دنيوية بحتة، إذ الأعمال بالنيات، وهذه الأعمال إذا اقترنت بنية التقرب إلى الله جلّ جلاله لا شكَّ أنها ستكون مدارج للرفعة والكمال والحظوة الكبيرة عند الله عزّ وجلّ. ونلاحظ هنا أنّ الإمام المعصوم يحتاج أيضًا إلى ممارسة هذه الأعمال لينال حظوة أعظم عند الله عزّ وجلّ. وأما الأبعاد السياسية لهذا السلوك فستكون له نتائج كارثية على الحكم العباسي، ونعرض عن الخوض فيها لسكوت الرواية عنها، ولعدم علاقتها بالموضوع محل البحث.

«**فأنفق ولا تخش من ذي العرش اقتارًا**»: أي أنفق على هؤلاء الناس واقض حوائجهم ولا تخش الفقر والفاقة، فإنّ الله تعالى سيمدك بما تحتاج إليه ما دمت تنفق في هذا السبيل، ولكن عليك أن تنفق بحكمة ومنطق وأن تضع المال في محله، والله سبحانه وتعالى يعوضك عن هذا الإنفاق. ومن كل ذلك نعلم أنّ قضاء حوائج الناس مسألة في غاية الأهمية.

فضل قضاء حاجة المؤمن

أما قضاء حاجة المؤمن الذي هو أخص من قضاء حوائج الناس، فله بحث آخر في فضله، وفي أنه حق من الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى على عباده.

الرواية الأولى: عن أبي الأعز النخاس، قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «**قضاء حاجة المؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها، وعتق ألف رقبة لوجه الله، وحملان ألف فرس في سبيل الله بسرجها ولجمها**»(١).

يتحدث الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة عن عظيم ثواب قضاء حاجة المؤمن، فهي تعادل من الثواب ما يعجز أن يأتي به عابد عامل من الطاعات والصدقات ولو عمّر ألف عام، ويذكر الإمام عليه السلام هنا ثلاثة أنواع من الثواب على ثلاثة أنواع من الطاعات، التي بمجموعها لا تعادل ثواب قضاء حاجة واحدة من حاجات المؤمن:

الأول: ثواب ألف حجة متقبلة، والمقصود هنا ثواب الحج المستحب؛ إذ الواجب على المسلم هو الحج مرة واحدة في العمر مع القدرة والاستطاعة، ولا يجب عليه أكثر من واحدة ولو كان مستطيعًا. وذكر «**متقبلة**» هنا لأنّ أغلب الناس حجهم باطل وغير مقبول، وقد كشف عن هذه الحقيقة الإمام السجاد عليه السلام عندما كشف الغطاء لأحد المؤمنين فرأى قليلًا من البشر فقط يطوفون حول الكعبة، وأكثر الباقين بهيئة حيوانات، وعندما سأله عن ذلك قال: «**ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج**»(٢)، فكيف وأكثر الناس لا يستطيع أن يأتي بالحج أكثر من مرة واحدة في العمر؟، هذا إذا كانت متقبلة، وأما قضاء حاجة المؤمن فهي تزيد على ثواب ألف حجة متقبلة بجميع مناسكها.

الثاني: ثواب عتق ألف رقبة لوجه الله تعالى، مع أنّ عتق رقبة واحدة فيه من الثواب الجزيل الذي لا يخطر على قلب بشر كما ذكرت الروايات، فكيف بثواب عتق ألف نسمة من رق العبودية؟.

الثالث: ثواب حملان ألف فرس في سبيل الله بسرجها ولجمها، والمقصود به ثواب تجهيز جيش المسلمين بألف فرس بكامل لوازمها، أي ما يعادل تجهيز المجاهدين بألف آلية عسكرية في سبيل الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٤، ح٥.
(٢) مستدرك الوسائل ١: ١٥٧، ح٢٢.

واعلموا أحبائي أنّ كلام المعصوم لا مبالغة فيه، ولا تتصوروا أنّ هذا على الله كثير، فالله سبحانه وتعالى جواد كريم لا تنقص خزائنه بكثرة العطاء، بل يزداد جودًا وكرمًا. وثواب قضاء حاجة المؤمن يزيد على كل هذا الأجر العظيم.

الرواية الثانية: عن الإمام الصادق عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله ـ وهذه من روايات السلسلة الذهبية ـ قال: «**والله لقضاء حاجة المؤمن خير من صيام شهر واعتكافه**»(١)، يقسم رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك على أنّ ثواب قضاء حاجة واحدة للمؤمن، أفضل من صيام شهر كامل يصومه الإنسان وهو معتكف في المسجد بعيدًا عن الناس، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى إليه من رب الأرض والسماء، ولو أنّ مؤمنًا قضى في كل يوم حاجة واحدة لمؤمن من حوائج الدنيا، فمعنى ذلك أنه يحصل من الثواب على أفضل من ثواب صيام ألف شهر معتكفًا.

الرواية الثالثة: عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «**من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة، أدناهنّ الجنة**»(٢). الذي يظهر من هذا الحديث المبارك أنّ هناك أُمورًا أكثر من الجنة، ولعل أحدها هو رضوان الله سبحانه وتعالى، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٣).

الرواية الرابعة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله سبحانه وتعالى: عليّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة**»(٤). وقد جاء نظير هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(٥)، أي أن هذا الثواب لا حساب له، ولا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. وهذا يعني أنّ ثواب قضاء حاجة المؤمن لا حصر له بعدد مهما كان ذلك الرقم كبيرًا جدًا، أي أنّ ثوابه لا نهاية له في تعبيراتنا الحسابية اليوم.

الرواية الخامسة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ لله عز وجل وجوهًا خلقهم من خلقه، وأمشاهم في أرضه لقضاء حوائج إخوانهم، يرون الحمد مجدًا**»(٦)، أي أنّ الله عز وجل خلق أناسًا وجعلهم وجوهًا معروفة بين خلقه يسعون لقضاء حوائج إخوانهم المؤمنين، ومن

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٥ ح٦.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٥ ح٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٥ ح٨.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٦) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٦، ح١٢.

سماتهم أنهم يرون الحمد مجدًا، أي أنهم لا يريدون شيئًا جزاء على أعمالهم، ومجدهم هو قول: الحمد لله رب العالمين حينما يوفقهم الله لقضاء حوائج المؤمنين.

الرواية السادسة: عن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلا خمش وجه إبليس وقرّح قلبه**»[١]، يوصي الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه أن يحسن إلى أولياء الإمام ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأنه عندما يساعد أخاه المؤمن فإنه يخمش وجه إبليس لعنه الله ويجرح قلبه، لأنه لا يريد أن يشيع الإحسان بين المؤمنين وتتقوى أواصر المحبة والتعاون بينهم، بل هو يسعى جاهدًا إلى أن تسود العداوة والبغضاء بين المؤمنين، كما أخبر بذلك الله سبحانه وتعالى بقوله في كتابه الكريم: «**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء**»[٢].

الرواية السابعة: عن داود بن سرحان قال: «**دخل سدير الصيرفي على أبي عبد الله** عليه السلام، **فقال له: يا سدير ما كثر مال رجل قط إلا عظمت الحجة لله عليه، فإن قدرتم أن تدفعوها عن أنفسكم. فقال له: يا ابن رسول الله بماذا؟ قال: بقضاء حوائج إخوانكم من أموالكم**»[٣].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه من ذوي الأموال، أنّ كثرة المال لها تبعات يجب على المؤمن مراعاتها، وإلا كان في الآخرة في خطر، لأنّ حجة الله سبحانه وتعالى عليه ستكون أكبر، لكثرة ما أعطاه من مال. وهنا يتساءل هذا الصحابي عن طريق الخلاص من هذه الحجة، فيجيبه الإمام عليه السلام بأنّ طريقها هو قضاء حوائج المؤمنين المالية.

فالمفتاح لمن أعطاه الله تعالى زيادة على ما يحتاج إليه هو وأهل بيته، هو مساعدة إخوانه المحتاجين والسعي في قضاء حوائجهم بهذه الأموال، وعندها سترتفع حجة الله سبحانه وتعالى عنه ويخف حسابه وتزيد في ميزان أعماله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الرواية الثامنة: عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهرًا**»[٤]، هذه الرواية الكريمة من روايات السلسلة الذهبية أيضًا، يتحدث فيها رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثواب قضاء حاجة المؤمن بأنه

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٠١ ح٣٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩١.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٢ ح٣٩.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٢ ح٤٠.

يعادل عبادة الله ﷻ دهرًا، والدهر يساوي فترة زمنية طويلة جدًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١).

الرواية التاسعة: عن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا إسحاق من طاف بهذا البيت طوافًا واحدًا كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، وغرس له ألف شجرة في الجنة، وكتب له ثواب عتق ألف نسمة، حتى إذا صار إلى الملتزم فتح الله له ثمانية أبواب الجنة يقال له ادخل من أيها شئت. فقلت: جعلت فداك هذا كله لمن طاف؟ قال: نعم، أفلا أُخبرك بما هو أفضل من هذا؟ قال: قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافًا وطوافًا حتى بلغ عشرًا**»(٢).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا عظيم ثواب قضاء حاجة المؤمن، عن طريق مقايستها بثواب الطواف حول البيت الحرام، وأنها تعادل عشرة أضعاف ذلك الثواب الذي ذكره له، أي أنّ من قضى حاجة واحدة للمؤمن كتب الله له عشرة آلاف حسنة، ومحا عنه عشرة آلاف سيئة، ورفع له عشرة آلاف درجة، وغرس له عشرة آلاف شجرة في الجنة، وكتب له ثواب عتق عشرة آلاف نسمة. كل هذا ترغيبًا للمؤمنين في قضاء حوائج إخوانهم.

الرواية العاشرة: عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «**معاشر شيعتنا أما الجنة فلن تفوتكم، سريعًا كان أو بطيئًا، ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلمو أنّ أرفعكم درجات وأحسنكم قصورًا ودورًا وأبنية أحسنكم فيها إيجابًا لإخوانه المؤمنين وأكثرهم مواساة لفقرائهم، إنّ الله ﷻ ليقرّب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلّم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسير مائة ألف عام وإن كان من المعذبين في النار، فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم الله تعالى حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره**»(٣).

يتحدث الإمام السجاد عليه السلام في خطابه العام هذا لجماهير الشيعة ويبيّن لهم أُمورًا مهمة هي:

أولًا: أنّ الجنة مضمونة لهم، ولكنهم يتفاوتون في دخولها، فمنهم من يدخلها سريعًا، ومنهم من يتأخر في دخولها بسبب تأخره في الحساب، وقد تكلمنا سابقًا عن

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٢ ح٤٦.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٨ ح٦١.

الصراط وكيفية عبوره، وكيف أن البعض يعبره بسرعة كالبرق الخاطف، والبعض الآخر يعبره بسرعة فارس راكب على فرسه، والبعض يعبره بسرعة عداء يركض، والبعض يعبره هرولة، والبعض يعبره مشيًا، والبعض يعبره زحفًا، ثم يبدأ الصراط يضيق حتى يراه البعض مثل الشعرة، ويكاد يقع في النار ولكنه يتمسك ويتعلق به إلى أن يعبره، والبعض يسقط في جهنم ويلبث فيها أحقابًا، ثم يخرج منها ويدخل الجنة بعد أن يصفو.

ثانيًا: أنّ التنافس ينبغي أن يكون في درجات الجنة، فإنّ للجنة درجات كثيرة كما صرح بذلك القرآن الكريم.

ثالثًا: أنّ أرفع أهل الجنة درجة وأحسنهم قصورًا ودورًا وأبنية، هو من كان في الدنيا أحسن المؤمنين قضاء لحوائج إخوانه المؤمنين، وأكثرهم مواساة لفقرائهم.

رابعًا: أنّ مواساة الفقراء مرة تكون بالمال لمن كان صاحب مال، ومرة تكون بالكلمة الطيبة لمن لم يكن لديه مال زائد ينفقه على الفقراء. ثم يبيّن الإمام عليه السلام مقدار ثواب كلمة المواساة للفقير، بأنّ الله عز وجل يقرب قائلها إلى الجنة أكثر من مسير مائة ألف عام، ولو كان معدل سرعة الإنسان مشيًا ثلاثة كيلو مترات في الساعة، فإنّ هذا يعني أنه يقطع مسافة اثنين وسبعين كيلو مترا في اليوم، وهو يساوي أكثر من خمسة وعشرين ألف كيلو متر في السنة، فإذا ما ضربت في مائة ألف سنة فإن النتيجة ستكون مليارين وخمسمائة ألف كيلو متر، وهذا ما تقربه إلى الجنة كلمة واحدة، فكيف إذا كثرت كلماته خلال عمره المديد، فحينئذ لا نمتلك أرقامًا لتحديد المسافة، ولكن نعلم إجمالاً أنّ المؤمن كلما كثرت كلماته في مواساة إخوانه الفقراء كان من أهل الجنة، وإن كان هؤلاء الفقراء من المعذبين في النار، أو كان ذلك المؤمن الناطق بكلمة المواساة من المعذبين في النار.

خامسًا: يجب عدم احتقار الإحسان والزهد فيه مهما كان قليلاً، ولو كان مجرد كلمة مواساة عابرة؛ لأنه سوف ينفع الله تعالى به صاحبه حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره في يوم القيامة، ولهذا علينا أن نسعى في قضاء حوائج المؤمنين لنضمن لأنفسنا العبور السريع على الصراط لندخل الجنة بسلام آمنين.

الرواية الحادية عشرة: عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه قال: «**قال رسول**

الله ﷺ: **المؤمنون إخوة يقضي بعضهم حوائج بعض، فبقضاء بعضهم حوائج بعض يقضي الله حوائجهم يوم القيامة»**[١].

وهذه الرواية هي أيضًا من روايات السلسلة الذهبية، يتحدث فيها رسول الله ﷺ عن أنّ من مقتضى الأخوة الإيمانية أن يقضي المؤمنون بعضهم حوائج بعض، لا أن يبادر البعض منهم لذلك بينما يتقاعس الآخرون اتكالاً على إخوانهم العاملين، بل على الجميع المبادرة إلى قضاء حوائج إخوانهم متى ما اطّلعوا عليها.

الرواية الثانية عشرة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما من مؤمن يدخل بيته مؤمنين فيطعمهما إلا كان ذلك أفضل من عتق نسمة. وما من مؤمن يقرض مؤمنًا يلتمس به وجه الله إلا حسب الله له أجره بحساب الصدقة. وما من مؤمن يمشي لأخيه في حاجة إلا كتب الله له بكل خطوة حسنة، وحطّ عنه سيئة، ورفع له بها درجة، وزيد بعد ذلك عشر حسنات، وشفّع في عشر حاجات. وما من مؤمن يدعو لأخيه في ظهر الغيب إلا وكّل الله به ملكًا يقول: ولك مثل ذلك. وما من مؤمن يفرّج عن أخيه كربة إلا فرّج الله عنه كربة من كرب الأخرة. وما من مؤمن يعين مؤمنًا مظلومًا إلا كان له أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام. وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلا نصره الله في الدنيا والآخرة. وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة**»[٢].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة جزاء ثمانية أعمال يقوم بها المؤمن لإخوته المؤمنين، وهي كالتالي:

- إطعام اثنين من المؤمنين أفضل من عتق رقبة.
- جزاء إقراض مؤمن مبلغًا من المال يعادل ثواب الصدقة بقدرِ ذلك المبلغ.
- جزاء الخطوة الواحدة في السعي لقضاء حاجة مؤمن خمسة أمور، منها أن تقضى له عشر حاجات.
- جزاء الدعاء للأخ المؤمن في ظهر الغيب أن يُعطى مثله.
- جزاء تفريج كربة دنيوية عن مؤمن تفريج كربة أخروية.
- جزاء إعانة مؤمن مظلوم أفضل من ثواب صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١١ ح٦٣.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣١١ ح٦٧.

- جزاء نصرة المؤمن نصر الله تعالى له في الدنيا والآخرة.
- جزاء خذلان مؤمن خذلان الله تعالى له في الدنيا والآخرة.

الرواية الثالثة عشرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله في عون المؤمن ما دام المؤمن في عون أخيه المؤمن، ومن نفّس عن أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه سبعين كربة من كرب الآخرة**»(١).

يحث رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الرواية المباركة على أهمية وضرورة التواصل الاجتماعي بين المؤمنين، ويبيّن أنّ إعانة الله سبحانه وتعالى لهم متوقفة على إعانة بعضهم للبعض الآخر، والمؤمن الذي يعيش في عزلة اجتماعية سيحرم من هذه الكرامة الإلهية. وكثيرًا ما يؤكد رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومون عليهم السلام، على الثواب الجزيل الذي ينتظر المؤمن الذي يخوض غمار الحياة الاجتماعية ويتواصل مع إخوانه المؤمنين، ويسهم في رفع بعض الصعوبات عنهم.

الرواية الرابعة عشرة: عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنّما هي رحمة من الله ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا وهو موصول بولاية الله، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر عليها فقد ظلم نفسه وأساء إليها**»(٢).

يكشف الإمام الكاظم عليه السلام في هذه الرواية المباركة النقاب عن حقيقة جديدة من حقائق قضاء حاجة المؤمن؛ وهي أنّها باب من أبواب الرحمة الإلهية فتحه الله تعالى له، فإن استثمر هذه الفرصة وولج هذا الباب فقد اتصل بولاية أهل البيت المتصلة بولاية الله سبحانه وتعالى، فمن دخلها فقد دخل في ولايته سبحانه وتعالى، ومن كان الله تعالى وليه فقد فاز فوزًا عظيمًا، وكان في كنف الله تعالى وجواره. وأما من تقاعس عن قضاء حاجة أخيه المؤمن بعد أن قصده بها، فقد ظلم نفسه وخسر خسرانًا مبينًا وحرم نفسه من الدخول في رحمة الله تعالى ورعايته.

الرواية الخامسة عشرة: عن ابن مهران قال: «**كنت جالسًا عند مولاي الحسين بن علي** عليه السلام، **فأتاه رجل فقال كذا... ثم قال: قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة، صائمًا نهاره قائمًا ليله**»(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٢ جزء من ح٦٩.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣١٣ جزء من ح٦٩.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣١٥ ح٧٢.

ينقل الإمام الحسين عليه السلام هذه الرواية المدهشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ثواب قضاء حاجة المؤمن، وأنها تعادل عبادة تسعة آلاف سنة، أي لو كان متوسط عمر الإنسان ستين سنة، نطرح منها خمسة عشر عامًا إلى أن يبلغ الإنسان سن التكليف الشرعي، ثم عبد هذا الإنسان الله سبحانه وتعالى خمسة وأربعين عامًا، أي الأعوام المتبقية من عمره، فإنّ قضاء حاجة واحدة للمؤمن تعادل مائتي مرة عمر هذا العابد، وكل ذلك لا من باب الترغيب في قضاء حوائج المؤمنين فقط، بل سيحصل من يفعل ذلك حتمًا على هذا الثواب. ومن ذلك نعرف عظم ثواب قضاء حاجة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى.

الرواية السادسة عشرة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما من مؤمن بذل جاهه لأخيه المؤمن إلا حرّم الله وجهه على النار، ولم يمسّه قتر ولا ذلة يوم القيامة. وأيما مؤمن بخل بجاهه على أخيه المؤمن، وهو أوجه جاهًا منه، إلا مسّه قتر وذلة في الدنيا والآخرة، وأصابت وجهه يوم القيامة لفحات النيران، معذَّبًا كان أو مغفورًا له**»(1).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا مسألة قضاء حاجة المؤمن بواسطة الجاه والمنزلة الاجتماعية التي يمتلكها مؤمن آخر، ويخبر عن مكنون الغيب بأنّ من استعمل جاهه في قضاء حاجة أخيه المؤمن كان من أهل الجنة، ولم يمسه قتر ولا ذلة عند الحساب في عرصات يوم القيامة، وأما المؤمن الذي يبخل بجاهه على أخيه المؤمن ويمتنع عن استعمال جاهه في قضاء حاجته، فإنه سيتعرض للذلة والمهانة في الدنيا والآخرة. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى وإن لم يدخله النار في الآخرة، ولكنه ستصيب وجهه يوم القيامة لفحات النيران، سواء كان من أهل الجنة أو من أهل النار، ولا يتخلص من هذه العقوبة الإلهية حتى الإنسان الصالح الطيب، ولا بُـدَّ من أن يخزيه الله سبحانه وتعالى ويذله.

هذه الآثار الوضعية المباشرة لخذلان المؤمن وعدم نصرته وعدم قضاء حاجته، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يسعى في قضاء حوائج المؤمنين.

الرواية السابعة عشرة: عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفّس كربته، وأعانه على نجاح حاجته، أوجب الله عز وجل له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله يعجّل له منها واحدة، يصلح بها أمر معيشته، ويدّخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله**»(2).

(1) بحار الأنوار ٧١: ٣١٧ ح٧٨.
(2) بحار الأنوار ٧١: ٣١٧ ح٨٥.

تبين هذه الرواية المباركة أنّ إغاثة المؤمن المضطر هي السبيل للحصول على العيش الكريم في الدنيا، وهي السبيل أيضًا للخلاص من أهوال يوم القيامة التي لا تطاق، والمراد من الإغاثة هو كشف الشدة، واللهفان هو المكروب، واللهفان العطشان، وهو كناية عن إعانة المؤمن الذي ضاقت به السبل وسدت في وجهه أبواب الفرج.

الرواية الثامنة عشرة: عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «**يا مفضل اسمع ما أقول لك، واعلم أنه الحق وافعله، وأخبر به علية إخوانك. قلت: جعلت فداك وما علية إخواني؟ قال: الراغبون في قضاء حوائج إخوانهم. ثم قال: ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله عز وجل له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وإخوانه الجنة بعد أن لا يكونوا نصّابًا. وكان المفضل إذا سأل الحاجة أخًا من إخوانه قال له: أما تشتهي أن تكون من علية الإخوان؟**»(1).

يبين هذا الحديث الشريف أنّ هناك فئة متميزة من المؤمنين، هم الذين يسعون في قضاء حوائج إخوانهم، ويطلق عليهم الإمام الصادق عليه السلام «**عِلْية الإخوان**»، ويمكن لأي مؤمن مهما كان مستواه الثقافي والاجتماعي أن يتبوأ هذه المرتبة العالية ويكون في قمة الهرم الاجتماعي لجماعة المؤمنين. وإذا كان للمؤمن إزاء كل حاجة يقضيها لأخيه المؤمن مائة ألف حاجة من حاجات يوم القيامة، فإنه وبعملية حسابية بسيطة لو قضى عشر حاجات من حوائج إخوانه المؤمنين، فقد ادّخر لنفسه مليون حاجة من حوائج الآخرة، أولها دخوله الجنة، وثانيها دخول والديه، وثالثها دخول زوجته وأولاده وهكذا، بشرط ألاّ يكونوا من أهل النصب والعداوة لآل محمد عليهم السلام.

الرواية التاسعة عشرة: عن صدقة الأحدب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قضاء حاجة المؤمن خير من عتق رقبة، وخير من حُملان ألف فرس في سبيل الله**»(2).

يستعرض الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة عظيم الثواب المدّخر لمن قضى حاجة لأخيه المؤمن، الذي يعجز عن إحصائه العادّون، والحملان بالضم حمل الشخص على الفرس وبعثه إلى الجهاد.

الرواية العشرون: عن أبي الصباح الكناني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**لقضاء حاجة**

(1) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٢ ح٩٠.
(2) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٤ ح٩٢.

امرئ مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف»[1].

تستعرض هذه الرواية الكريمة أيضًا الثواب الجزيل الذي ينتظر من قضى لأخيه المؤمن حاجة. إنّ الهدف من كل هذا التأكيد وتنوع الروايات في بيان الثواب الهائل الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لمن قضى حاجة لأخيه المؤمن، هو ليس من أجل الترغيب في ذلك فقط، بل من أجل حث المؤمنين على نيل هذه الدرجات الرفيعة في الآخرة، التي ربما ينحصر الطريق إليها بهذا العمل، أو لأنه أيسر السبل للحصول على هذه المقامات الرفيعة.

الرواية الحادية والعشرون: عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**تنافسوا في المعروف لإخوانكم وكونوا من أهله، فإنّ للجنة بابًا يقال له المعروف لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإنّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل الله عزّ وجلّ به ملكين: واحدًا عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفرون له ربه، ويدعون بقضاء حاجته. ثم قال: والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة**»[2].

يحث الإمام الصادق عليه السلام شيعته على التنافس في قضاء حوائج إخوانهم، ليكونوا ممن يدخلون الجنة من باب المعروف، الذي لا يدخله إلا أهل المعروف في الدنيا. ثم يبيّن الإمام عليه السلام كيف أنّ الساعي في قضاء حاجة أخيه المؤمن يحفه الله تعالى بملائكته، وكيف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى فعله هذا ويُسرّ به.

التضامن في قضاء الحوائج

وردت الأخبار عن الأئمة الهداة عليهم السلام بضرورة التضامن بين المؤمنين في قضاء بعضهم حوائج البعض الآخر، نذكر بعضها.

الرواية الأولى: روى الراوندي بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**المؤمنون إخوة يقضي بعضهم حوائج بعض، فيقضي الله لهم حاجتهم**»[3].

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٤ ح٩٣.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٨ ح٩٩.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣١٦ ح٧٣.

يبيّن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ في هذا الحديث المبارك أنّ سعي المؤمنين بعضهم للبعض الآخر في قضاء حوائجهم، هذه الحالة من التضامن تقع في نظر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فيقضي لهم حوائجهم جميعًا.

الرواية الثانية: عن الحسين بن زيد عن الإمام الصادق عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عن أبيه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قال: «**قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ : المؤمنون إخوة، يقضي بعضهم حوائج بعض، فبقضاء بعضهم حوائج بعض يقضي الله حوائجهم يوم القيامة**»[1].

أضاف هذا الحديث المبارك معلومة جديدة وهي أنّ ثواب تضامن المؤمنين بينهم في قضاء حوائجهم في الدنيا، هو قضاء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لهم حوائجهم في يوم القيامة.

الوعد بقضاء حاجة المؤمن

نتطرق هنا إلى موضوع آخر يتعلق بقضاء حاجة المؤمن أيضًا، وهو ضرورة الوفاء بالوعد الذي يقطعه المؤمن لأخيه المؤمن بقضاء حاجته، ولا يتركه في دوامة الانتظار القاتل، فلا هو قد قضى حاجته، ولا هو اعتذر إليه ليبحث عن طريق آخر لقضاء حاجته.

الرواية الأولى: عن أبي جنادة والحسين بن مخارق عن جعفر بن محمد عن أبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ قال: «**من ضمن لأخيه المسلم حاجة له، لم ينظر الله تعالى له في حاجته حتى يقضي حاجة أخيه المسلم**»[2].

يتناول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ في هذا الحديث المبارك ظاهرة الوفاء بالعهد، وكيف أن من يعطي وعدًا لأخيه في قضاء حاجته ثم لا يفعل، من غيرعذر سائغ عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فإنّ الله تعالى لا ينظر في قضاء أي حاجة له حتى يفي بوعده لأخيه المسلم ويقضي له حاجته. ونرى ـ مع الأسف ـ استفحال هذه الظاهرة في مجتمعاتنا اليوم، فعندما يطلب المسلم من أخيه المسلم قضاء حاجة له يقدر عليها، نرى الطرف المقابل يكيل له الكلام الطيب والوعود المعسولة بأن يعتبر الحاجة مقضية، ولكنه في الواقع لا يحرك ساكنًا، ويضع أخاه المسلم في خانة الانتظار الكاذب، وربما يكرر عليه الطلب فيعده بأكثر مما وعده سابقًا ولكن من دون جدوى.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٠ ح٦٤.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣١٧ ح٧٧.

لذا ينبغي الالتفات الى أن تأخر قضاء بعض حوائجنا ـ خصوصًا أُولئك الذين هم موضع لها ـ مرتبط بحوائج إخواننا التي أناطوها بنا وتكفلنا بقضائها لهم.

الرواية الثانية: روى الراوندي بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من ضمن لأخيه المسلم حاجة له لم ينظر الله تعالى له في حاجته حتى يقضي حاجة أخيه المسلم**»[1].

وهكذا تبقى حاجة الضامن محبوسة عن القضاء حتى يقضى حاجة أخيه التي وعده بقضائها. وما أكثر ما نرى الوعود الكاذبة التي يطلقها البعض لمن يلتمسون منهم قضاء حوائجهم ظنًا أنّ في ذلك سياسة وشطارة، ولم يعلموا أنهم قد قيّدوا حوائجهم في مربط حوائج إخوانهم، فلا تُقضى لهم حتى يفوا بجميع ما وعدوا به.

ردّ حاجة المؤمن

هناك روايات عجيبة في مسألة ردّ حاجة المؤمن، نتبرك بذكر بعضها:

الرواية الأولى: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أيما مؤمن سأله أخوه المؤمن حاجة وهو يقدر على قضائها ولم يقضها له سلّط الله عليه شجاعًا في قبره ينهش أصابعه**»[2] .

الرواية الثانية: عن محمد بن سنان قال: «**كنت عند الرضا عليه السلام فقال لي: يا محمد إنه كان في زمن بني إسرائيل أربعه نفر من المؤمنين، فأتى واحد منهم يزور الثلاثة وهم مجتمعون في منزل أحدهم في مناظرة بينهم، فقرع الباب فخرج إليه الغلام، فقال: أين مولاك؟ فقال: ليس هو في البيت. ودخل الغلام إلى مولاه فقال له المولى: من كان الذي قرع الباب؟ قال: فلان، فقلت له: لست في المنزل. فسكت ولم يكترث ولم يلم غلامه، ولا اغتم أحد منهم لرجوعه عن الباب، وأقبلوا في حديثهم، فلما كان من الغد بكّر إليهم الرجل فأصابهم وقد خرجوا يريدون ضيعة لبعضهم، فسلم عليهم وقال: أنا معكم. فقالوا له: نعم، ولم يعتذروا إليه، وكان الرجل محتاجًا ضعيف الحال، فلما كانوا في بعض الطريق إذا غمامة قد أظلتهم، فظنوا أنه مطر، فبادروا، فلما استوت الغمامة على رؤوسهم إذا مناد ينادي من جوف الغمامة: أيتها النار خذيهم وأنا جبرائيل رسول الله، فإذا نار من جوف الغمامة قد اختطفت الثلاثة نفر وبقي الرجل مرعوبًا يعجب مما نزل بالقوم وما**

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٦ ح٧٣.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣١٩ ح٨٣.

يدري ما السبب، فرجع إلى المدينة فلقي يوشع بن نون عليه السلام فأخبره الخبر وما رأى وما سمع، فقال يوشع بن نون عليه السلام: أما علمت أنّ الله سخط عليهم بعد أن كان عليهم راضيًا، وذلك بفعلهم بك، فقال: وما فعلهم بي؟ فحدّثه يوشع، فقال الرجل: فأنا أجعلهم في حلّ وأعفو عنهم، قال: لو كان هذا قبل لنفعهم، فأما الساعة فلا، وعسى أن ينفعهم من بعد»[١].

يبيّن الإمام الرضا عليه السلام في هذه الرواية المباركة قصة ما جرى على ثلاثة نفر من المؤمنين من بني إسرائيل ونزول العقاب الإلهي الصارم بهم، لتقاعسهم عن قضاء حاجة أخ لهم في الإيمان ضعيف الحال واستهانتهم به لفقره، وكيف حل بهم المكر الإلهي حينما جعل أخاهم الرابع صاحب الحاجة الذي قصدهم بحاجته في غفلة عن استضعافهم واستصغارهم له لضعف حالته المادية، وقد كان صادق النية معهم بحيث أنه لو اطّلع على ما عاملوه به من الاستخفاف لعفا وصفح عنهم، فيكون ذلك حائلاً دون وقوع العذاب الإلهي بهم. ورغم أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يحذروننا دائمًا من مثل هذه السلوكيات المشينة التي لا تتناسب مع القيم الإنسانية النبيلة، فضلاً عن القيم الإسلامية الكريمة، ولكن نرى مع الأسف الشديد أنّ أمثال هذه الممارسات الاستعلائية منتشرة في الأوساط الاجتماعية التي تدّعي التدين وتتظاهر به، والله يعلم كم من العقوبات الإلهية قد نزلت بساحتنا بسبب هذه السلوكيات، ولكن لا يوجد من يخبرنا بها كما فعل يوشع بن نون عليه السلام بأمر الله عزّ وجلّ؛ لأنّ إمامنا الذي إليه مردّ أمرنا غائب عن الأنظار بسبب كثرة ذنوبنا وابتعادنا عن القيم الصحيحة التي دعا لها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

الرواية الثالثة: عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«قلت: جعلت فداك ما تقول في مسلم أتى مسلمًا زائرًا أو طالب حاجة وهو في منزله، فاستأذن عليه فلم يأذن له ولم يخرج إليه؟ قال** عليه السلام: **يا أبا حمزة أيما مسلم أتى مسلمًا زائرًا أو طالب حاجة وهو في منزله فاستأذن عليه ولم يخرج إليه، لم يزل في لعنة الله حتى يلتقيا، فقلت: جعلت فداك في لعنة الله حتى يلتقيا؟ قال: نعم يا أبا حمزة، في لعنة الله حتى يلتقيا من جديد»**[٢].

يبيّن الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية الكريمة الأثر الوخيم في عدم قضاء حوائج المؤمنين، والذنب الفادح في ردّ الأخ المؤمن والامتناع عن استقباله، ولو بمقدار

(١) الكافي ٢: ٣٦٤ ح٢.
(٢) الكافي ٢: ٣٦٥ ح٤.

الخروج إليه والسلام عليه ليتخلص من الإحراج، فعدم استقباله ولو بهذا المقدار تترتب عليه جميع هذه المضاعفات الخطيرة.

نسأل الله الجليل أن يغفر لنا ولكم جميع تقصيرنا في حق إخواننا المؤمنين، وأن يجعلنا جميعًا ممن يقضي حوائج المؤمنين ولا يردّها.

الرواية الرابعة: عن إبراهيم التيمي قال: «**كنت أطوف بالبيت الحرام، فاعتمد عليّ أبو عبد الله** عليه السلام **فقال: ألا أُخبرك يا إبراهيم ما لك في طوافك هذا؟...إلى أن قال: أيما مؤمن سأله أخوه المؤمن حاجة وهو يقدر على قضائها ولم يقضها له، سلط الله عليه شجاعًا في قبره ينهش أصابعه**»[1].

تستعرض هذه الرواية المباركة أحد الآثار الأخروية ومشهدًا من مشاهد عذاب البرزخ بسبب التغافل عن قضاء حاجة المؤمن للقادر على قضائها، إذ يسلط الله سبحانه وتعالى عليه في قبره أفعى تعض أصابع يديه ورجليه إلى يوم يبعثون، وهكذا يبقى يتجرع آلام لدغها، وينفث مع كل لدغة صرخة ألم الندم والحسرة على ما فرط في حق أخيه المؤمن.

الرواية الخامسة: ورد في كتاب الكافي الشريف عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجته ابتلي بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر**»[2].

يذكر الإمام الباقر عليه السلام بُعدًا من أبعاد عدم المبادرة في قضاء حاجة المسلم، وهو أن الله سبحانه وتعالى يبتليه بقضاء حاجة غير صحيحة لغير المؤمن فيؤثم بذلك ولا يؤجر.

الرواية السادسة: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**أيما رجل من شيعتنا أتى رجلاً من إخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر، إلا ابتلاه الله بأن يقضي حوائج غيره من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة**»[3].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا جزاء الامتناع عن قضاء حاجة المؤمن بعد أن يأتيه طالبًا منه مساعدته في قضائها وهو قادر عليها، فالحديث بين المؤمنين من شيعتهم عليهم السلام، فجزاؤه أن يبتليه الله سبحانه وتعالى بأن يقضي حوائج أعداء أهل البيت عليهم السلام، من حيث يقصد أو لا يقصد، ومن حيث يعرف أو لا يعرف، فيعذبه الله تعالى عليها يوم القيامة.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٩ ح٨٣.
(٢) الكافي ٢: ٣٦٥-٣٦٦ ح١.
(٣) الكافي ٢: ٣٦٦ ح٢.

الرواية السابعة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لم يدع رجل معونة أخيه المسلم حتى يسعى فيها ويواسيه إلا ابتلي بمعونة من يأثم ولا يؤجر**»[1]، يعني أنه لم يسعَ في قضاء حاجة أخيه، وهو نفس المضمون المنقول آنفًا عن الإمام الباقر عليه السلام.

وتكرار هذه المطالب من الأئمة عليهم السلام دليل على أهميتها، ولما في التكرار من أثر تربوي كبير في الفرد والجماعة.

الرواية الثامنة: عن علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «**من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرًا به في بعض أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله عزّ وجلّ**»[2].

يوضح الإمام الكاظم عليه السلام هنا عقوبة من بخل بمساعدة أخيه المؤمن بعد أن قصده مستجيرًا به وهو قادر عليها، بأنه قد قطع ولاية الله عزّ وجلّ، لأنه قد قطع ولاية أخيه المؤمن، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، وعندها سوف لن يتولى أموره ولا يعينه ولا ينصره. فالحذر الحذر، ثم الحذر الحذر من التغافل عن قضاء حوائج المؤمنين، لما فيه من النتائج الوخيمة والعواقب الشديدة في الدنيا والآخرة.

الرواية التاسعة: عن الإمام الصادق (سلام الله عليه) أيضًا يقول: «**أيما مؤمن منع مؤمنًا شيئًا مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله يوم القيامة مسودًّا وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار**»[4].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة أن من يمتنع عن قضاء حاجة المؤمن، وهو قادر عليها بنفسه أو من عند غيره، يُنعت بالخيانة لله ورسوله يوم القيامة، وينادى عليه بهذا الاسم عند سوقه إلى النار، بعد أن يسودّ وجهه، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[5]، وتزرقّ عيناه، وجاءت الإشارة إلى ذلك في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[6]،

---

(١) الكافي ٢: ٣٦٦ ح٣.
(٢) الكافي ٢: ٣٦٦ ح٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٤) الكافي ٢: ٣٦٧ ح١.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٠.
(٦) سورة طه، الآية : ١٠٢.

وتُقيّد يداه إلى عنقه، ويدخل النار ذليلًا بسبب امتناعه عن إعانة أخيه المؤمن.

ومع هذا الصنف من الروايات، لا محيص لمن لا يرغب في الثواب، ولا يحركه للاندفاع في قضاء حاجة أخيه المؤمن، إلا الانصياع إلى روايات التهديد والوعيد التي تبيّن مدى العذاب الذي سيتعرض له هؤلاء الممتنعون عن قضاء حوائج إخوانهم، ويكفي لمن كان له مسكة من عقل وصف هؤلاء بالخونة لله ورسوله حافزًا للمبادرة والإسراع في إعانة إخوانه المحتاجين.

وقد قرأنا في اللقاء السابق بعض النصوص التي تبيّن حجم التوبيخ والتقريع الإلهي لهؤلاء المترفعين عن مساعدة إخوانهم المؤمنين، وهو شيء رهيب ومرعب، ورد على لسان أهل البيت عليهم السلام، والروايات مستفيضة وكثيرة في هذا الشأن.

الرواية العاشرة: عن يونس بن ضبيان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا يونس من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه، حتى يسيل عرقه أو دمه، وينادي مناد من عند الله: هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه. قال: فيوبخ أربعين يومًا، ثم يؤمر به إلى النار**»[1].

ينقل الإمام الصادق عليه السلام هنا صورة أُخرى من صور عذاب من امتنع عن أداء حق المؤمن، وهي أنّ الله عز وجل يوقفه على رجليه خمسمائة سنة، وإذا كان كل يوم من أيام الآخرة يعادل ألف سنة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2]، فإن مجموع الأيام التي يوقفه الله سبحانه وتعالى فيها على رجليه يساوي مائة وثمانين مليون سنة من سنوات الدنيا، فكيف سيتحمل هذا الإنسان الذي لا يطيق الوقوف على رجليه بضع ساعات أن يقف كل هذه الملايين من السنين؟ وهكذا سيقف من حبس حاجة لمؤمن مرغمًا ذليلًا حتى يسيل عرقه أو دمه ـ يبدو أنّ الترديد من الراوي ـ من شدة الألم، ثم ينادي ملك من عند الله سبحانه وتعالى ويصفه بالظالم الذي حبس عن الله حقه، فينزّل مَن ظلم حق مؤمن منزلة الظالم لله سبحانه وتعالى، فمن ظلم مؤمنا كمن ظلم الله عز وجل، ثم توبخه الملائكة على فعلته وجريمته هذه أربعين يومًا، ثم يؤمر به إلى النار وساءت مصيرًا، نستجير بالله من ذلك.

---

(١) الكافي ٢: ٣٦٧ ح٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.

الرواية الحادية عشرة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله عز وجل: يا ملائكتي أبخل عبدي على عبدي بسكنى الدار الدنيا ؟ وعزتي وجلالي لا يسكن جناني أبدًا**»[1].

ينقل لنا الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة صورة جديدة من صور الآخرة بشأن قضية محددة، وهي مخاطبة الله سبحانه وتعالى ملائكته الكرام بشأن عبد كانت له دار لا يحتاج إلى سكناها وزائدة عن حاجته، وقد طلب منه أخ له مؤمن أن يسكنها ليستر بها نفسه وعياله من أعين الناس ومن حرارة الشمس في الصيف وبرودة الجو في الشتاء، فمنعه إياها، وفي موجة من الغضب الإلهي يقسم رب العزة والجلالة بعزته وجلاله ألاّ يسكن هذا وأمثاله في جنته، فكانت هذه الدار الزائدة وبالاً على صاحبها، وكان بإمكانه أن يجعلها طريقًا إلى الجنة لو لم يبخل بها على أخيه وأسكنه إياها، ولكنه حرم أخاه مدة محدودة فحرمه الله تعالى جنته ورضوانه أبد الآبدين.

وكم هو خطير مثل هذا الكلام الذي يصف بواقعية ما سيحصل في يوم القيامة من مشاهد تذهل العقول هولها ؟ وكم لهذه الأمور من آثار عظيمة، ونحن نعدّها هينة في الدنيا ولا نحسب لها حسابًا؟، باعتبار أنّ مثل هذه الدار هي ملكي الشخصي، ومن حقي أن أتصرف فيها كما أشاء، وليس هناك من إلزام شرعي أو قانوني يمنعني من ذلك، وأنّ لي مطلق الحرية في منع أخي المؤمن من سكناها، وأتوهم أني لم أرتكب بذلك إثمًا، وإذا تأتي صاعقة يوم القيامة، إذ أُحاسب على أُمور كنت أحسب أني لن أقف فيها للحساب. صحيح أني لم أرتكب ذنبًا يدخلني الله سبحانه وتعالى بسببه النار، ولكنه يستطيع أن يحرمني جنته ورضوانه كما في صاحب الدار هذا.

الرواية الثانية عشرة: عن علي بن جعفر قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «**من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنّما هي رحمة من الله عز وجل ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا، وهو موصول بولاية الله عز وجل، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلّط الله عليه شجاعًا من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة، مغفور له أو معذّب، فإن عذره الطالب كان أسوأ حالاً. قال: وسمعته يقول: من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرًا به في بعض أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله سبحانه وتعالى**»[2].

---

(١) الكافي ٢: ٣٦٧ ح٣.

(٢) الكافي ٢: ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ح٤.

يبيّن الإمام الكاظم عليه السلام في هذا الحديث المبارك أنّ حاجة المؤمن إلى المؤمن هي باب لطف ورحمة فتحه الله تعالى له، وهو مخير بين قبول هذه الرحمة بقضاء حاجة أخيه أو رفضها بامتناعه عن قضائها، فإن قبل ذلك فقد وصله بولاية أهل البيت عليهم السلام التي هي موصولة بولاية الله عز وجل، أي أنّ ولايتهم متصلة بولايته تعالى، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلّط الله عليه ثعبانًا ينهشه في قبره إلى يوم القيامة، سواء كان من أهل الجنة أو من أهل النار، لأنه عذاب برزخي، وعالم البرزخ هو العالم من بعد الموت إلى حين قيام الساعة عندما يكون الإنسان في قبره، فإنْ عذر طالب الحاجة مَن لم يقضِها له فإنه إن تخلص من نهش الأفعى في قبره، سيكون في ندامة شديدة من حيث إنّ هذا المؤمن قد عفا عنه وأسقط حقه ومثله يستحق قضاء الحاجة، أو أنّ المراد أن يكون حقه محفوظًا له ليحاسبه عليه يوم القيامة.

إن هذه المنظومة التي تنظم العلاقات الإيمانية تجعل الإنسان مسؤولًا عن أخيه المؤمن، حتى لو أسقط هذا المؤمن حقه، ولكن الله عز وجل له حق أيضًا، ومعايير العذاب الإلهي تختلف عن معايير الإنسان، فالشخص قد يسقط حقه، ولكن الله سبحانه وتعالى يقدّر أنّ هذه المنظومة إذا جرى التساهل فيها فسوف تنفرط، فالمؤمن قد يعطف قلبه على الآخر فيسقط ما بذمته له من حقوق، وعندها سترتبك العلاقة، وتحدث فوضى اجتماعية، ويزول هذا التماسك واللحمة بين المؤمنين، ويفقد المجتمع تماسكه. ولذلك إن عذره الطالب كان أسوأ حالًا.

ثم ينقل علي بن جعفر عن أخيه الإمام موسى بن جعفر كلامًا مشابهًا، في أنّ من استجار به أخوه المؤمن فلم يجره فقد قطع الولاية بينه وبين الله سبحانه وتعالى، ولم يعد وليًا له، ومن لم يكن في ولاية الله تعالى فقد وقع في ولاية الشيطان.

إذن ردّ حوائج المؤمنين وعدم قضائها مع القدرة على ذلك، من الأمور التي جاء النهي عنها كثيرًا، وفيها كل هذه الآثار السلبية.

أهمية السعي في قضاء الحاجة وإن لم تنجح

شدد أهل البيت عليهم السلام على أهمية السعي في قضاء حوائج المؤمنين وإن لم تُقضَ ؛ لأنّ أمر قضائها بيد الله عز وجل، إن شاء فعل إن كان ذلك في مصلحة المؤمن، فالسعي هو المطلوب وهو الذي يترتب عليه الثواب الأخروي.

الرواية الأولى: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أنّ من عبادي من يتقرب إليّ بالحسنة فأحكّمه في الجنة، فقال موسى: يا ربي وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أم لم تقضَ**»[1].

هؤلاء الذين يقومون بالعمل الصالح ويأتون بالحسنات قربة إلى الله تعالى سأجعلهم حكامًا في الجنة، أي أعطيهم مفتاح الجنة بأيديهم، وأجعلهم هم الذين يقررون، ويكون لهم حضور وسطوة في الجنة، فقال موسى: يا ربي وما تلك الحسنة؟ فأجابه الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يسعون مع إخوانهم المؤمنين في قضاء حوائجهم، سواء قضيت أو لم تقض، المهم أنهم يمشون فيها وإن كانوا يعلمون أن الطرق أمام قضائها مسدودة، ولكن لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، وهو وحده الذي بيده مفاتيح كل شيء، والقادر على كل شيء، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولأنه سبحانه وتعالى هو الذي يلين القلوب، وما علينا إلا السعي، سواء أنتج هذا السعي أو لم ينتج، فهذا غير مرتبط بنا، بل هو قرار رب العالمين، وفي كل الأحوال فإنّ عليك القيام بما يجب عليك ويتحقق به الغرض.

الرواية الثانية: ورد عن الباقر عليه السلام قال: «**من ذهب مع أخيه في حاجة، قضاها أو لم يقضها، كان كمن عبد الله عمره**»[2]. يبيّن لنا الإمام هنا ثواب السعي في قضاء حاجة المؤمن، وأنه يعادل ثواب من قضى عمره بأجمعه في عبادة الله تعالى.

نلاحظ من مجموع الروايات الواردة في هذا الباب أنّ هناك تأكيدًا على ضرورة قضاء الحاجة عند السؤال والطلب، فإذا طلب منك الأخ المؤمن قضاء حاجة فعليك أن تسعى في قضائها له.

طلب الحاجة داخل في طلب المساعدة

ورد في الروايات الكريمة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ طلب الحوائج داخل في عنوان طلب المساعدة.

الرواية الأولى: عن الإمام العسكري عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[3]، قال: «﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، **يعني الصلوات المكتوبات التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله، وأقيموا أيضًا الصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين. ﴿وَآتُوا**

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٩ ح١٠١.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٣٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٣

الزَّكَاةَ﴾: من أموالكم، ومن أبدانكم إذا لزمت زكاة الأبدان، ومن معونتكم إذا التمست. ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: تواضعوا مع المتواضعين لعظمة الله عزّ وجلّ في الانقياد لأولياء الله محمد نبي الله وعلي ولي الله والأئمة بعدهما سادات أصفياء الله»[1].

يوضح الإمام في هذه الرواية الكريمة معنى الآية الكريمة الآنفة الذكر، ولزوم هذا البيان ناشئ من تصور قاصر عند الناس في فهم الآية، فهم يتوهمون أنّ إقامة الصلاة تقتصر على أداء الصلاة المكتوبة، بينما المقصود منها أيضًا ذكر الصلاة على محمد وآله الطاهرين، وكذلك الأمر بالنسبة للزكاة، فهم يقصرونها على الزكاة الواجبة، بينما هي تشمل أيضًا زكاة الأبدان وهي زكاة الفطرة، وتشمل أيضًا زكاة المعونة ـ وهي موضع الشاهد ـ والمقصود منها تقديم المعونة والمساعدة اللازمة إذا طُلبت منكم، ويتضح هذا المعنى بشكل جلي في روايات أُخرى كقوله عليه السلام: «**لكل شيء زكاة، وزكاة العلم نشره**»[2]. أما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فالتصور الشائع أنّ المراد به هو ركوع الصلاة، بينما المقصود منه واقعًا هو التواضع، أي تواضعوا مع المتواضعين لعظمة الله عزّ وجلّ في الانقياد لأولياء الله: محمد نبي الله، وعلي ولي الله، والأئمة بعدهما سادات أصفياء الله.

الرواية الثانية: عن صفوان عن العيص عن ابن مسكان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**أحبب أخاك المسلم، وأحبب له ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لنفسك، إذا احتجت فسله، وإذا سألك فأعطه، ولا تدخر عنه خيرًا فإنه لا يدخره عنك، كن له ظهرًا فإنه لك ظهر، إن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فزره، فإنه منك وأنت منه، وإن كان عليك عاتبًا فلا تفارقه حتى تسل سخيمته وما في نفسه، وإذا أصابه خير فاحمد الله عليه، وإن ابتلاه فاعضده وتمحل له**» أو «**تحمل له**»[3] على نسخة أُخرى.

يقرر الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية المباركة القاعدة الرئيسة في العلاقة بين المسلمين، وهي: أن تحب المسلم أولاً، ثم تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. وبالطبع فإن تحقّق هذا الأمر في القلب وتجسده في الواقع ليس هينًا، ويحتاج إلى فطرة سليمة وأرضية تربوية عالية؛ لأنّ النفس الإنسانية ميالة إلى الأنانية والاثرة، وإذا ما تحقق هذا الحب فينبغي أن يتجسد في ترسيم العلاقات الاجتماعية الصادقة في أرض

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٨، ح٦٢.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٣٦٨، ح١١.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٢، ح٥.

الواقع، وقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الرواية تسعة أُمور تظهر هذا الحب المتبادل بين المسلمين، وهي:

أولًا: سؤاله عند الحاجة، أي إذا كانت عندك حاجة فاطلبها من أخيك المسلم.

ثانيًا: إعطاؤه عند السؤال، وقضاء حاجته، وهنا الشاهد.

ثالثًا: عدم ادخار الخير عنه، لأنه لا يدخره عنك، أي لا تتأخر عليه في خير من خدمة أو غيرها، كما أنه لا يتأخر عنك في ذلك.

رابعًا: أن تكون له ظهرًا، فإنه لك ظهر، لاحظوا هنا لو أنّ هذا المؤمن يشعر إخوانه المؤمنين دائمًا بأنه ظهر لهم، والمؤمن الآخر يشعر إخوانه الآخرين بنفس الشعور، فسيكون هناك تماسك كبير في المجتمع.

خامسًا: حفظه عند غيابه، أي عند سفره مثلًا، فلا تسمح لأحد بأن يسيء إليه أو إلى عائلته، وعليك أن تدافع عنه.

سادسًا: زيارته عند حضوره، أي إذا عاد من سفره فعليك بزيارته في منزله احترامًا له وزيادة في إكرامه؛ لأنه منك وأنت منه، فأنتما في الحقيقة شيء واحد، وإن اختلفتم في الأسماء والأنساب.

سابعًا: تطييب نفسه عند حدوث ما يكدر صفو العلاقة، فإذا كان عاتبًا عليك وقد حمل في نفسه ضدك شيئًا ما، فلا تفارقه حتى تنتزع هذا الأذى والغضب من نفسه، وعليك إقناعه وإرضاؤه ولا تبق هذه النقطة السوداء في قلبه.

ثامنًا: حمد الله عزّ وجلّ عندما يكون الأخ المسلم في خير، لأن ما يصيبه من خير يصيبك منه أيضًا.

تاسعًا: الوقوف معه عند تعرضه للبلاء، والبحث له عن عذر في ذلك، أو ـ على قراءة النسخة الأخرى – تحمل عنه ما يصيبه من البلاء.

فهكذا يجب أن تكون علاقة المسلم بأخيه المسلم، وبطريق أولى علاقة المؤمن بأخيه المؤمن.

قضاء حاجة المؤمن وإن لم يطلبها

المرحلة الأخرى هي قضاء حاجة الأخ المؤمن وإن لم يطلبها، فالبعض تمنعه عزة نفسه من أن يطلب من أحد حاجة، والبعض يمنعه الحياء من ذلك، والبعض تراه يطلبها من غير أهلها، ولهذا ينبغي على المؤمن بمجرد أن يطّلع على حاجة أخيه أن يبادر إلى

قضائها قبل سؤاله إياها، فإن رآه يعاني من مشكلة مالية أو إدارية فعليه أن يسرع إلى حلها إن استطاع ذلك وإن لم يطلبها منه.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن المعلى بن خنيس قال: «**قلت لأبي عبد الله** عليه السلام: **ما حق المسلم على المسلم؟ قال: سبعة حقوق واجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئًا خرج من ولاية الله وترك طاعته، ولم يكن لله** عز وجل **فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى إني عليك شفيق، أخشى أن تضيّع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل. قال: قلت له: لا قوة إلا بالله. قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك، والحق الثاني أن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره، والحق الثالث أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك، والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته، والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى، والحق السادس أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه، والحق السابع أن تبر قسمه، وتجيب دعوته، وتعوده في مرضه، وتشهد جنازته، وإذا علمت أنّ له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك**»[١].

والشاهد في هذه الرواية المباركة ما تضمنه الحق السابع من قوله عليه السلام: «**وإذا علمت أنّ له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة**»، أي إذا علمت بطريق ما بحاجة أخيك المسلم، فعليك السعي إلى قضائها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولا تضطره إلى أن يطلب منك قضاءها، فإنّ هذه المبادرة من شأنها أن ترسخ العلاقة وتسهم في توطيدها بشكل كبير.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**من ذهب مع أخيه في حاجة قضاها أو لم يقضها كان كمن عبد الله عمره**»[٢].

وعن محمد بن مسلم قال: «**أتاني رجل من أهل الجبل، فدخلت معه على أبي عبد الله** عليه السلام **فقال له عند الوداع: أوصني. فقال: أوصيك بتقوى الله، وبر أخيك المسلم، وأحب له ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لنفسك، وإن سألك فأعطه، وإن كف عنك فأعرض عليه، لا تملّه خيرًا فإنه لا يملّك**»[٣].

---

(١) الكافي ٢: ١٦٩، ح٢.
(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢١١ ح٢٢.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٥ ح١٤.

قضاء حاجة المؤمن ودينه بعد وفاته

كما أنّ للمؤمن حقوقًا على أخيه المؤمن في حياته، فكذلك له حقوق عليه بعد مماته.

منها: ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته، ويواري عورته، ويفرّج عنه كربته، ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده**»(١).

مراتب قضاء الحاجة

وهي ثلاث مراتب:

١ - إعطاؤه ما زاد عن الحاجة.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**لأكلة أُطعمها أخًا لي في الله أحب إليّ من أن أُشبع مسكينًا، ولأن أُشبع أخًا في الله أحب إليّ من أن أُشبع عشرة مساكين، ولأن أُعطيه عشرة دراهم أحب إلي من أن أُعطي مائة درهم في المساكين**»(٢).

٢ - المساواة بينه وبين صاحب الحاجة من قوته.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**المسلم أخو المسلم، وحق المسلم على أخيه المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه، ولا يروى ويعطش أخوه، ولا يكتسي ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم**»(٣).

وورد في كتاب فقه الرضا عليه السلام: «**اعلم يرحمك الله أن حق الإخوان واجب فرض لازم أن تفدّونهم لأنفسكم وأسماعكم وأبصاركم وأيديكم وأرجلكم وجميع جوارحكم، وهم حصونكم التي تلجؤون إليها في الشدائد في الدنيا والآخرة، لا تماطوهم ـ أي لا تفخروا عليهم ـ ولا تخالفوهم ولا تغتابوهم ولا تدعوا نصرتهم ولا معاونتهم، وابذلوا النفوس والأموال دونهم، والإقبال على الله عز وجل بالدعاء لهم، ومواساتهم ومساواتهم في كل ما يجوز فيه المساواة والمواساة، ونصرتهم ظالمين ومظلومين**»(٤).

---

(١) الكافي ٢: ١٦٩ ح١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٦٣ ح٢٦.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢٢١ ح٢.
(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٦ ح٢٠.

٣ - يؤثره على نفسه

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من آثر على نفسه بالغ في المروءة**»[١].

وقال عليه السلام: «**الإيثار غاية الإحسان**»[٢].

وقال عليه السلام: «**الإيثار أعلى مراتب الكرم وأفضل الشيم**»[٣].

عن أبان بن تغلب قال: «**كنت أطوف مع أبي عبد الله عليه السلام فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجة، فأشار إليّ، فكرهت أن أدع أبا عبد الله عليه السلام وأذهب إليه، فبينا أنا أطوف إذ أشار إليّ أيضًا فرآه أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان إياك يريد هذا؟ فقلت: نعم. قال: فمن هو؟ قلت: رجل من أصحابنا. قال: هو على مثل ما أنت عليه؟ قلت: نعم، قال: فاذهب إليه، قلت: فأقطع الطواف؟ قال: نعم، قلت: وإن كان طواف فريضة؟ قال: نعم، قال: فذهبت معه، ثم دخلت عليه فسألته، فقلت: أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن، فقال: يا أبان دعه لا ترده ، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أردد عليه، فقال: يا أبان تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني، فقال: يا أبان أما تعلم أنّ الله عزّ وجلّ قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت: بلى جعلت فداك، فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر**»[٤].

وعن أبي محمد العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين لليوناني الذي رأى منه المعجزات الباهرات وأسلم على يديه: «**آمرك أن تواسي إخوانك المطابقين لك على تصديق محمد صلى الله عليه وآله وتصديقي والانقياد له ولي مما رزقك الله وفضّلك على من فضّلك به منهم، تسد فاقتهم، وتجبر كسرهم وخلتهم، ومن كان منهم في درجتك في الإيمان وساويته فيما لك في نفسك، ومن كان منهم فاضلاً عليك في دينك آثرته بمالك على نفسك حتى يعلم الله منك أنّ دينه آثر عندك من مالك، وأنّ أولياءه أكرم عليك من أهلك وعيالك**»[٥].

(١) غرر الحكم: ح٩١٧٣.
(٢) غرر الحكم: ح٩١٥٦.
(٣) غرر الحكم: ح٩١٦٠.
(٤) الكافي ٢: ١٧١ ح٨.
(٥) بحار الأنوار ٧١: ٢٢١ ح١.

آداب قضاء حاجة المؤمن

١ . عدم المنة على من تقضي حاجته.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١].

٢. استصغار الخدمة المقدّمة في قضاء الحاجة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث: باستصغارها لتعظم، وباستكتامها لتظهر، وبتعجيلها لتهنؤ**»[٢]

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**رأيت المعروف لا يتم إلا بثلاث خصال: تصغيره وتيسيره وتعجيله، فإذا صغرته فقد عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا يسرته فقد تممته، وإذا عجلته فقد هنأته، فإن كان غير ذلك فقد محقته**»[٣].

٣. إخفاؤها والتكتم عليها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صُنع إليك معروف فانشره**»[٤].

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**احفظ عني ثلاثًا: إذا صنعت معروفًا فعجله، فإنّ تهنئته تعجيله، فإذا فعلته فاستره فإنه إن ظهر من غيرك كان أعظم لعذرك، فإذا نويته فاقصد به وجه الله دون رياء الناس، فإنك إذا قصدت به وجه الله كان أحسن لذكره في الناس**»[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٢) نهج البلاغة: ١٠١.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦١ ح١.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٢ ح٦.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦١ ح٢.

٤. تعجيلها.

عن الرضا عن أبيه عن الصادق عليهم السلام قال: «**إنّ الرجل ليسألني الحاجة فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها فلا يجد لها موقعًا إذا جاءته**»(١).

حاجة المؤمن إلى أخيه المؤمن رحمة

وفي رواية عن إسماعيل بن عمار الصيرفي قال: «**قلت لأبي عبد الله** عليه السلام: **جعلت فداك، المؤمن رحمة على المؤمن؟ قال: نعم، قلت: وكيف ذاك؟ قال: أيّما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسبّبها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنما ردّ عن نفسه رحمة من الله** عزّ وجلّ **ساقها إليه وسبّبها له، وذخر الله** عزّ وجلّ **تلك الرحمة إلى يوم القيامة، حتى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها، إن شاء صرفها إلى نفسه، وإن شاء صرفها إلى غيره. يا إسماعيل فإذا كان يوم القيامة وهو الحاكم في رحمة من الله قد شرعت له فإلى من ترى يصرفها؟ قلت: لا أظن يصرفها عن نفسه، قال: لا تظن ولكن استيقن فإنه لن يردها عن نفسه، يا إسماعيل من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له سلّط الله عليه شجاعًا ينهش إبهامه في قبره إلى يوم القيامة، مغفورًا له أو معذبًا**»(٢).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة كيف يكون المؤمن رحمة على المؤمن، في جواب سؤال وجهه إليه أحد أصحابه، وتتمثل في طلب المؤمن حاجته من أخيه المؤمن، فهي باب الرحمة الذي يفتحه الله تعالى له، فإن قضى حاجته فمعنى ذلك أنه قد قبل هذه الرحمة، وإن ردّها ولم يقضها له وهو يقدر على قضائها فمعنى ذلك أنه لم يقبل تلك الرحمة. ولكن هذه الرحمة تبقى محفوظة عند الله عزّ وجلّ إلى يوم القيامة، فيعطيها لطالب الحاجة، وهذا هو ثواب من طلب حاجة إلى أخيه المؤمن فلم يقضها له، وأما عقاب من أحجم عن قضائها فإنّ الله عزّ وجلّ يسلّط عليه ثعبانًا في قبره من حين موته إلى يوم القيامة يعض إبهامه، سواء كان من أهل الجنة أو من أهل النار.

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٦ ح٩.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٢٤ ح٩٤.

الحق التاسع عشر

(شفاعة المؤمن في حاجة المؤمن وقبول شفاعته)

يتجلى هذا الحق بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يشفع مسألته**»، فحق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشفع مسألته، ويشفع من الشفاعة وهي الوساطة، أي يتوسط في مسألة أخيه المؤمن ليقضيها له، فقوله: «**يشفع**»، يشير إلى توسط الإنسان عند الآخرين لقضاء حوائج المؤمنين، ويشير أيضًا إلى قبول وساطة الآخرين.

وقد ورد التأكيد على هذا الحق في كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، نستعرض في ما يلي بعضًا منها:

الرواية الأولى: في كتاب وسائل الشيعة الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إن الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم**»(1).

الرواية الثانية: عن ابن مهران قال: كنت جالسًا عند مولاي الحسين بن علي عليه السلام فأتاه رجلٌ فقال: يا ابن رسول الله إن فلانًا له عليَّ مالٌ ويريد أن يحبسني، فقال عليه السلام: «**ما عندي مالٌ أقضي عنك، قال: كلمهُ، قال عليه السلام: فليس لي به أنسٌ، ولكني سمعت أبي أمير المؤمنين عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة**»(2)، لذلك هذا حق عظيم من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض.

---

(1) وسائل الشيعة ١٦: ٣٨١ باب ٣٤ ح٣.

(2) بحار الأنوار ٣٤: ٣١٥، ح٧٢.

الحق العشرون

(تسميت عطسة المؤمن)

الحق الآخر للمؤمن كما في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يسمت عطسته**»، أي عندما يعطس أخوك المؤمن، فمن حقه عليك أن تسمت عطسته، أي تدعو له بالرحمة.

وأما فائدة التسميت فأُمور:

أولًا: إظهار الاهتمام.

ثانيًا: الدعاء للمؤمن بطلب الرحمة له، وهذا شيء مهم جدًا.

فقد أفرد الشيخ الكليني بابًا كاملًا في كتاب الكافي الشريف في موضوع العطاس والتسميت، باسم «**باب العطاس والتسميت**»[(١)]، ذكر فيه روايات عدة:

منها: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**للمسلم على أخيه من الحق أن يسلّم عليه إذا لقيه، ويعوده إذا مرض، وينصح له إذا غاب، ويسمته إذا عطس**»[(٢)]، يقول العاطس: الحمد لله رب العالمين لا شريك له، فيقول الآخر: يرحمك الله، فيجيبه العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

ومنها: عن أبي عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا عطس الرجل فسمّتوه ولو كان من وراء جزيرة**»، وفي رواية أخرى: «**ولو من وراء البحر**»[(٣)].

ومنها: عن إسحاق بن يزيد ومعمر بن أبي زياد وابن رئاب قالوا: كنا جلوسًا عند أبي عبد الله عليه السلام إذ عطس رجلٌ، فما ردّ عليه أحد من القوم شيئًا حتى ابتدأ هو ـ أي الإمام ـ فقال: «**سبحان الله ألا سمّتم ! إنّ من حق المسلم على المسلم أن يعوده إذا اشتكى، وأن يجيبه إذا دعاه، وأن يشهده إذا مات، وأن يسمّته إذا عطس**»[(٤)].

---

(١) الكافي ٢: ٦٥٣.
(٢) الكافي ٢: ٦٥٣ ح١.
(٣) الكافي ٢: ٦٥٣ ح٢.
(٤) الكافي ٢: ٦٥٣ ح٣.

ومنها: عن صفوان بن يحيى قال: كنت عند الرضا عليه السلام فعطس، فقلت له: صلى الله عليك، ثم عطس فقلت: صلى الله عليك، ثم عطس فقلت: صلى الله عليك، وقلت له: جعلت فداك إذا عطس مثلك نقول له كما يقول بعضنا لبعض يرحمك الله أو كما نقول؟ قال: «**نعم، أليس تقول صلى الله على محمد وآل محمد؟ قلت: بلى، قال: ارحم محمدًا وآل محمد، قال: بلى وقد صلى الله عليه ورحمه، وإنما صلواتنا عليه رحمة لنا وقربة**»(١).

ومنها: عن داود بن الحصين قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فأحصيت بالبيت أربعة عشر رجلًا، فعطس أبو عبد الله عليه السلام فما تكلم أحدٌ من القوم، فقال أبو عبد الله: «**ألا تسمّتون! من حق المؤمن على المؤمن إذا مرض أن يعوده، وإذا مات أن يشهد جنازته، وإذا عطس أن يسمّته، وإذا دعاه أن يجيبه**»(٢).

ومنها: عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه قال: عطس رجلٌ عند أبي جعفر عليه السلام فقال: الحمد لله، فلم يسمّته أبو جعفر، وقال: «**نقصنا حقنا، ثم قال** عليه السلام: **إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وأهل بيته، فقال الرجل: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآل محمد، فسمّته أبو جعفر**»(٣).

ومنها: عن ابن أبي عمير عن سعد بن أبي خلف قال: كان أبو جعفر عليه السلام إذا عطس فقيل له: يرحمك الله، قال: «**يغفر الله لكم ويرحمكم**» ، **وإذا عطس عنده إنسان قال:** «**يرحمك الله عز وجل**»(٤).

إذن نقول لمن يعطس: يرحمك الله، بعد أن يقول: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله، وعندما يُقال له: يرحمك الله، يقول لهم: يغفر الله لكم، أو بارك الله فيكم.

ومنها: عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إذا عطس الرجل فليقل: الحمد لله رب العالمين لا شريك له، وإذا سمّت الرجل فليقل: يرحمك الله، وإذا ردّ فليقل: يغفر الله لك ولنا، فإن رسول الله** صلى الله عليه وآله **سُئل عن آية أو شيء فيه ذكر الله فقال: كل ما ذكر الله فيه فهو حسن**»(٥).

---

(١) الكافي ٢: ٦٥٣ ح٤.
(٢) الكافي ٢: ٦٥٤ ح٧.
(٣) الكافي ٢: ٦٥٤ ح٩.
(٤) الكافي ٢: ٦٥٥ ح١١.
(٥) الكافي ٢: ٦٥٥ ح١٣.

ومنها: عن ابن أبي نجران عن بعض أصحابنا قال: عطس رجل نصراني عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له القوم: هداك الله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**قولوا: يرحمك الله، فقالوا له: إنه نصراني، فقال: لا يهديه الله حتى يرحمه**»[1].

عن أبي بكر الحضرمي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾[2]، ماذا يراد منه؟ فقال الإمام: «**العطسة القبيحة**».

وهناك مجموعة أخرى من الروايات، ولكن نكتفي بهذا المقدار.

(١) الكافي ٢: ٦٥٦ ح١٨.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

الحق الحادي والعشرون

(إرشاد ضالة المؤمن)

وردت الإشارة إلى هذا الحق في الرواية موضوع البحث عن رسول الله ﷺ: «**يرشد ضالته**»، أي من حق المؤمن على أخيه المؤمن إذا أضاع شيئًا أن يرشده إليه، وذلك بإبداء الاهتمام ومساعدته في العثور عليه، ويشمل ذلك:

١ . إذا كان لديه شيء فأضاعه، فيعين أخاه المؤمن على العثور عليه.

٢ . إذا كان لديه طموح في الوصول إلى شيء لم يكن عنده، فيعينه على تحقيقه.

٣ . إذا كانت الضالة أمرًا ماديًا، كمكان أو شيء أو شخص.

٤ . إذا كانت ضالته أمرًا معنويًا كالمقامات الإلهية والمعنوية.

وقد ورد التأكيد على هذا الحق في روايات عدة:

منها: ما رواه الشيخ الكليني في الكافي الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**الحكمة ضالة المؤمن فحيث ما وجد أحدكم ضالته فليأخذها**»(١).

ومنها: ما رواه الشيخ المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام السجاد عليه السلام قال: «**هلك من ليس له حكيم يرشده**»(٢).

ومنها: ما في غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا داعيكم إلى طاعة ربكم، ومرشدكم إلى فرائض دينكم، ودليلكم إلى ما ينجيكم**»(٣).

ومنها : ما في غرر الحكم أيضًا عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**أخوك في الله من هداك إلى رشاد، ونهاك عن فساد، وأعانك على إصلاح معاد**»(٤).

٥ . إذا كان يعرف الضالة ويرشده إليها.

٦ . إذا لم يعرفها ولكنه يعرف من يعرفها فيرشده إلى من يعرفها.

---

(١) الكافي ٨: ١٦٧ ح١٨٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ١٥٩.

(٣) غرر الحكم: باب ١٠، رقم الحكمة ٢٠٦٧.

(٤) غرر الحكم: باب ٤١، رقم الحكمة ٩٦٩٧.

ومنها : ما روي عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: «**الدال على الخير كفاعله**»[1].

ومنها: ما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ في حق المؤمن على المؤمن، يذكر فيها عدة حقوق، الرابع: «**أن تكون عينه، ودليله، ومرآته**»[2].

ومنها: عن سماعة قال: «**سألت الإمام الصادق** عَلَيْهِالسَّلَامُ **عن قول الله تعالى:** ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعا﴾»[3] قال: «**من أخرجها من ضلال إلى هدى فكأنما أحياها، ومن أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها**»[4].

(١) بحار الأنوار ٤٦ : ١٦٩.
(٢) الكافي ٢ : ١٦٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.
(٤) الكافي ٢ : ٢١٠ ح١.

الحق الثاني والعشرون
(ردّ سلام المؤمن)

ذكر رسول الله ﷺ في الرواية موضوع البحث ثلاثين حقًا للمؤمن على أخيه المؤمن، والحق الثاني والعشرون من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض هو ردّ سلام المؤمن إذا سلّم، وهو قوله ﷺ: «**يرد سلامه**»، فردّ السلام حق للمؤمن على أخيه المؤمن، أي السلام ورد السلام، والتحية التي يطلقها الإنسان تُمثل واحدًا من الآداب المهمة في العلاقة الإيمانية بين المؤمنين؛ أن يُحيّي بعضهم بعضًا، والتحية من الحياة، وهي دعاء للأخ المؤمن بالسلامة والأمان والبقاء لئلا يتعرض إلى مكروه.

السلام تحية أهل الجنة والملائكة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[1] - في إشارة إلى الملائكة - أنهم يُحيون من خلال السلام وإشاعة السلام، وقد وردت هذه الآية الشريفة في أهل الجنة، فأهل الجنة يُحيي بعضهم بعضًا بالسلام.

وقد نص عدد من الآيات القرآنية الشريفة على أن الملائكة أيضًا يقومون بالتحية عبر السلام؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾[2]، إذن التحية المتبادلة بين الملائكة والأنبياء هي السلام، فالملائكة تقول «**سَلَامًا**»، والنبي يُجيبها «**سَلَامٌ**»، إذن السلام مُتبادل بين الملائكة والأنبياء.

وتشير آية أُخرى إلى أن الملائكة حينما تأتي لتقبض الأرواح الطيبة، الأرواح المؤمنة، تسلم عليهم قبل قبض الروح، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]. الملائكة تقبض الأرواح الطيبة

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٦٩.
(٣) سورة النحل، الآية : ٣٢.

وتقبض الأرواح الخبيثة والعياذ بالله، ولكن حينما تتوفى الأرواح الطيبة تلقي التحية على أصحابها، إذ تقول لهم: سلامٌ عليكم، تفضلوا وادخلوا الجنة جزاء بما كنتم تعملون، وتفتح لهم أبواب الجنة وتنقلهم إلى دار السعادة.

وكذلك فإنّ خزنة الجنة، وهم العاملون فيها، يُسلمون على أهل الجنة كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1]، فالمتقون عندما يذهبون إلى الجنة ويصلون إلى أبوابها، تُفتح لهم ويستقبلهم خزنتها بالتحية فيقولون لهم: سلام عليكم طبتم، ثم يطلبون منهم الدخول إليها ويبشرونهم بالبقاء فيها أبدًا، وعلينا أن نتعلم من خُلق الملائكة كيف نتعامل مع من يأتينا ويدخل من أبوابنا، فنستقبلهم بالابتسامة والبشاشة والسلام والعبارات الطيبة مثل: تفضلوا، أهلاً ومرحبًا. وإن شاء الله تعالى يكون خلقنا هكذا في التعامل مع ضيوفنا كما يتعامل الملائكة مع الوافدين على الجنة.

السلام تحية الله تعالى لأنبيائه

وهكذا يسلّم الله سبحانه وتعالى على أنبيائه وعلى أهل بيت رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[2]، الله يُسلم على أهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا السلام هو دعاءٌ بالسلامة والبقاء والحفظ، وهو تعبيرٌ عن الاهتمام والرعاية، فحين تسلم على شخص وتطلب له السلامة، فذلك يعني أنك تحترمه وتقدره، وتنفتح عليه وتُبدي له الاهتمام.

فهذا السلام يُحقق حالة من المحبة ويعزز ويعمّق هذه الأخوة، ويوثق العلاقة الإيمانية بين المؤمنين، ولذلك اعتُبِرَ من آداب المؤمنين بعضهم مع بعض.

آداب السلام في الإسلام

كل خطوة في الإسلام لها آداب؛ كيف تُلقى؟ كيف تؤدى؟ وما هي حدودها؟ فلو أخذنا هذا السلام على بساطته لوجدنا فيه آدابًا، ونحاول هنا على عجالة أن نستعرض آداب السلام:

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٣٠.

الأدب الأول: البدء بالسلام

من آداب السلام أن تبدأ بالسلام، وتكون أنت المُبادر، وورد في رواية: كان رسول الله ﷺ يبتدئ المسلمين دائمًا بالسلام، وفي يوم من الأيام قرر شخص أن يسبق الرسول بالسلام، واختفى خلف جدار ينتظر مجيء الرسول ليبادره بالسلام، وكان متهيئًا ليفاجئ الرسول، وإذا برسول الله من خلف الجدار قال: يا فلان السلام عليك، وأوضح له أنه لا يمكنه أن يغلبه بهذه المسألة، فثقافة البدء بالسلام شيء مهم.

لاحظوا أيضًا هذه الرواية الشريفة في كتاب بحار الأنوار: قال الإمام أبو عبد الله الصادق (سلام الله عليه): «**البادئ بالسلام أولى بالله وبرسوله**»[(١)]، الذي يبتدئ السلام هو الأولى وهو الأقرب إلى الله ورسوله.

فإن بدأت بالسلام تحصل على (٦٩) حسنة، وإن رددت السلام فلك حسنة واحدة؛ لأن السلام مستحب وردّ السلام واجب، فمن يأتي بالمستحب يحصل على أجر كبير، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**السلام سبعون حسنة، تسع وستون للمبتدئ، وواحدة للراد**»[(٢)].

وورد في كتاب الكافي الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «**اِبدؤوا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تُجيبوه**»[(٣)]، هذه هي عقوبته، فلا نجيبه عن سؤاله حتى يُسلّم.

وعن رسول الله ﷺ أيضًا قال: «**أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام**»[(٤)]، ولذلك فإنّ من الآداب المهمة للسلام أن يبدأ الإنسان بالسلام ويُبادر إليه.

الأدب الثاني: إفشاء السلام

أي الإكثار من السلام، وعدم الشعور بالتعب أو الإعياء، فابدأ بالسلام وأشعه بين الناس؛ لأن إشاعة السلام شيء مهم.

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١١، ح٤٦.
(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٧، ح٤٦.
(٣) الكافي ٢: ٦٤٤ ح٢.
(٤) الكافي ٢: ٦٤٤ ح٣.

جاء في بحار الأنوار عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام عن آبائه قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **إن في الجنةِ غُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها**»، هناك غرف في الجنة ترى من داخلها خارجها، «**وباطنها من ظاهرها**»، ومن الخارج ترى الداخل، كالكرستال النقي المتلألئ الذي يستطيع الإنسان أن يرى من خلاله، «**يسكنها من أمتي من أطاب الكلام**»، **الكلام الطيب**، «**وأطعم الطعام، وأفشى السلام**»، فالذي يُفشي السلام يسكنه الله في هذه الأماكن الرفيعة والمهمة، «**وصلى بالليل والناس نيام**»، **الصلاة في آناء الليل، ثم قال:** «**إفشاء السلام ألّا يبخل بالسلام على أحدٍ من المسلمين**»[1]، أن يسلم على من يلقاه سواء كان يعرفه أو لا يعرفه، صغيرًا كان أو كبيرًا، فإشاعة وإفشاء السلام من آداب السلام.

وورد في رواية أُخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من التواضع أن تسلم على من لقيت**»[2].

وفي رواية أُخرى: قال النبي صلى الله عليه وآله: «**يا أنس سلّم على من لقيت**»، **أن تسلم على كل من تراه**، «**يزيد الله من حسناتك وسلّم في بيتك يزيد الله في بركتك**»[3]، حتى في بيتك سلّم على أهلك، فهذا السلام يُدخل البركة إلى البيت.

وورد في رواية عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يومًا: «**يا أنس أسبغ الوضوء تمر على الصراط مرّ السحاب، أفشِ السلام يكثر خير بيتك، أكثر من صدقة السر فإنها تُطفئ غضب الرب** عز وجل»[4]. يوصي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الرواية أحد أصحابه بأُمور ثلاثة ويبيّن له ثمرة كل واحد منها ،هي:

الأول: إسباغ الوضوء، وهو الاعتناء بالوضوء والاهتمام به وأداؤه بشكل جيد، وجزاؤه سرعة المرور على الصراط يوم القيامة.

الثاني: إفشاء السلام، أي إلقاء التحية على الجميع، وجزاؤه كثرة خير البيت، فإن كنت تريد زيادة رزق بيتك، وأن تكون النعمة موجودة دائمًا فيه وألا يصيبك الفقر، فعليك بإفشاء السلام، وهذه من الآثار الدنيوية لإفشاء السلام.

الثالث: الإكثار من صدقة السر، وجزاؤه إطفاء غضب الرب عز وجل.

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٢، ح٢.
(٢) الكافي ٢: ٦٤٦ ح١٢.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٣، ح٥.
(٤) بحار الأنوار ٧٣: ٤،ح٨.

وجاء في روايةٍ خامسة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام**»[١]. ،تتضمن هذه الرواية الشريفة فقرتين، الأولى في بيان أنّ أكثر الناس عجزًا هو من عجز عن الدعاء، مع أنه من أيسر الأمور، فما على الإنسان إلا أن يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بقلبه ويطلب منه قضاء حاجته، من جلب منفعة أو دفع مكروه، فمما لا شك فيه أن من أعظم الأسباب لقضاء الحوائج هو طلبها من الله جلّ جلاله، كما بيّن ذلك في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[٢]. وتتضمن الفقرة الثانية بيان أن أكثر الناس بخلاً هو من بخل بالسلام، مع أنه أمر يسير لا يكلفه إلا تحريك شفتيه بقول السلام عليكم.

وورد في رواية سادسة: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: إفشاء السلام في العالم**» [٣]، أي أن أفضل سلوك أخلاقي لأهل الدنيا والآخرة هو إفشاء السلام، والسر في ذلك أنّ السلام يليّن الطرف الآخر مهما كان متشددًا ومتصلبًا، ويزيل من قلبه جذور الحقد والكراهية، ويزرع فيه بذور المحبة والمودّة.

الأدب الثالث: أن يُسلم الإنسان حتى لو كان وحده.

ورد عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[٤]، أنه قال: «**إذا دخل الرجل منكم بيته، فإن كان فيه أحد يُسلم على من في البيت، وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربنا، يقول الله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾**»[٥]، فحينما تطلب السلام لنفسك وأنت وحدك، فإنّ الله سبحانه وتعالى يرد عليك السلام.

الأدب الرابع: ردّ السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[٦]، والأفضل في ردّ

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٤،ح١١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١٢، ح٥٠.
(٤) سورة النور، الآية: ٦١.
(٥) بحار الأنوار ٧٣: ٣،ح٣.
(٦) سورة النساء، الآية: ٨٦.

السلام أن تقول: (وعليكم السلام ورحمة الله)، أي أضف لها، أو ردّوها بمثلها إن لم تكونوا على ما يرام؛ لأن ردّ السلام من الواجبات، فقد جاء في كتاب الكافي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**السلام تطوّع ورده فريضة**»[1]، فالسلام مستحب ولكن ردّ السلام واجب.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة في الردّ بالأحسن، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أتاه رجلٌ فقال: «**السلام عليك يا نبي الله، فقال: وعليك ورحمة الله، ثم أتاه آخر فقال: السلام عليك يا نبي الله ورحمة الله، فقال** صلى الله عليه وآله **: وعليك ورحمة الله وبركاته، ثم أتاه آخر فقال: السلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، فقال** صلى الله عليه وآله **: وعليك، فقيل له: يا رسول الله لِم لمْ تقل لهذا كما قلت للذين من قبله؟ فقال** صلى الله عليه وآله **إنه تشافها**»[2]، أي لم يبقَ له شيئًا حتى يضيف عليها، إذ قالها كاملةً.

الأدب الخامس: إيصال السلام

فمن الآداب التعامل مع السلام كأمانة، وإيصال هذه الأمانة، لاحظوا هذه الرواية عن جابر بن عبد الله البجلي قال: «**سمعت سلمان الفارسي يقول لي وللأشعث بن قيس: إن لي عندكما وديعة، فقلنا: ما نعلمها إلا أن قومًا قالوا لنا أقرؤوا عنا السلام، قال سلمان: فأيّ شيء أفضل من السلام وهي تحية أهل الجنة؟**»[3]، فمن آداب السلام إيصال أمانة السلام.

الأدب السادس: عدم التمييز في السلام.

أي السلام على الجميع، لاحظوا هذا الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إن من التواضع أن يرضى الرجل بالمجلس دون المجلس، وأن يُسلم على من يلقى، وأن يترك المراء وإن كان محقًا، ولا يحب أن يحمد على التقوى**»[4]. تضمن هذا الحديث أربع خصال للمتواضع، وبها يتميّز عن المتكبر، وهي:

الأولى: أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يقصد صدر المجلس.

---

(١) الكافي ٢: ٦٤٤ ح١.
(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٢،ح٥١.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١٤.
(٤) بحار الأنوار ٧٣: ٦،ح١٩.

الثانية: يسلّم على كل من يلقاه، صغيرًا كان أو كبيرًا، عالمًا كان أو جاهلًا، غنيًا كان أو فقيرا.

الثالثة: يترك الجدال وإن كان على حق وخصمه على باطل.

الرابعة: لا يحب أن يمدحوه في شيء حسن أتى به.

وفي روايةٍ أخرى: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**خمسٌ لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوب الحمار، وحلب العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سُنَّة من بعدي**»(١). يبيّن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ خمس خصال للتواضع، وقد عاهد نفسه ألا يترك واحدة منها حتى يتوفاه الله تعالى، لتكون سنّة يقتدي بها المسلمون من بعده، وهي:

الأولى: الجلوس مع الفقراء على الأرض ومشاركتهم طعامهم.

الثانية: ركوب الحمار، وكان الأشراف من الناس آنذاك يأنفون من ركوبه لما في ذلك من الذل، ويركبون الخيول بدلًا منه.

الثالثة: حلب العنز، وهو عمل العبيد عادة، أي أنه يقوم بأداء أعماله بنفسه ولا يكلف الآخرين ليقوموا بها.

الرابعة: لبس الصوف، وهو لباس الفقراء لما فيه من الخشونة.

الخامسة: التسليم على الصبيان، وهذا السلام يزيد الطفل ثقةً بنفسه، و هذه الأعمال يأباها سائر الناس لما فيها من التواضع الشديد، ولا يعتبر الإنسان لو تركها متكبرًا، ولكن مع ذلك ألزم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ نفسه بها.

ويجب علينا أن نسلّم على الجميع ولا ننتظر الردّ، فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**السلام من أسماء الله، فأفشوه بينكم، فإنّ الرجل المسلم إذا مرَّ بالقوم فسلم عليهم فإن لم يردوا عليه يردّ من هو خير منهم وأطيب**»(٢)، أي سيردّ الأهم منهم؛ فالملائكة سترد، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو الذي سيردّ السلام، وهو ما يبغيه المؤمن.

وورد عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قوله: «**من قال سلام عليكم ورحمة الله فهي عشرون حسنة**»(٣)، وهو يرتبط أيضًا بعدم التمييز في السلام على الجميع.

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١٠،ح٣٨.
(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٠،ح٣٩.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١١،ح٤٦.

الأدب السابع: صيغة السلام

أي كيف نسلّم؟ لاحظوا هذه الرواية الشريفة في بحار الأنوار بالإسناد إلى وهب، قال: «**لما أسجد الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبى إبليس أن يسجد، قال له ربه عَزَّوَجَلَّ: «اخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين»، ثم قال عَزَّوَجَلَّ لآدم: يا آدم انطلق إلى هؤلاء الملأ من الملائكة، فقل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فسلّم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فلما رجع إلى ربه عَزَّوَجَلَّ قال له ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: هذه تحيتك وتحية ذريتك من بعدك في ما بينهم إلى يوم القيامة**»[1].

إن صيغة السلام: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»، هي الصيغة التي علمها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينما طلب منه أن يذهب إلى الملائكة ويُسلم عليهم بهذه الصيغة، فردّوا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقولهم: «**وعليك السلام ورحمة الله وبركاته**»، فكان القرار الإلهي في السلام من تلك اللحظة إلى يوم القيامة هو: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، هكذا يُعلمنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ صيغة السلام.

وورد في كتاب الكافي الشريف عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: يكره للرجل أن يقول حياك الله ثم يسكت حتى يتبعها بالسلام**»[2]، أي لا ينبغي للإنسان عندما يرى شخصًا آخر أن يكتفي بما يتداوله الناس للتحية في ما بينهم، كأن يقول له: حياك الله، أهلًا ومرحبًا، ثم يسكت، بل ينبغي له أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأدب الثامن: هيئة التحية

ورد في رواية عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**إنّ من تمام التحية للمقيم المصافحة، وتمام التسليم على المسافر المعانقة**»[3].

هذه الرواية في بيان كمال هيئة التحية، فصيغة التحية هي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأما هيئة التحية فهي تختلف بين المقيم والقادم من السفر، فكمال التحية للمقيم في نفس البلد أو الزميل في نفس مكان العمل هي المصافحة، مع نطق صيغة

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٦ ح٢١.
(٢) الكافي ٢: ٦٤٦ ح١٥.
(٣) الكافي ٢: ٦٤٦ ح١٤.

السلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وتمام التسليم على المسافر المعانقة؛ لأن المعانقة فيها المزيد من الترحيب والاهتمام بهذا الوافد إلينا.

الأدب التاسع: السلام الكامل

لاحظوا هذه الرواية التي تشير إلى ضرورة أن يكون السلام كاملًا واضحًا من كلا الطرفين، وألاّ يكون ناقصًا، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**لا غرار في الصلاة ولا التسليم**»[1]، والغرار في التسليم أن يقول الرجل: السلام عليك أو يرده فيقول: وعليك، ولا يقول: وعليك السلام، ويُكره تجاوز الحد في الرد على السلام كما يكره الغرار، أي ينبغي أن يقول المسلّم: السلام عليكم، ولا يقول: السلام عليك، وينبغي للرادّ أيضًا أن يقول: وعليكم السلام، ولا يقتصر على قول: وعليكم. وكذلك ينبغي في الردّ على السلام عدم تجاوز الحد الوارد في النصوص، فكما يُكره النقص، كذلك تُكره الزيادة في الجواب على حدود السلام المتعارفة.

الأدب العاشر: في سلام المرأة

كيف يُسلّم الرجل على المرأة؟، ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عن النساء كيف يُسلّمن إذا دخلن على القوم، قال: «**المرأة تقول: عليكم السلام، والرجل يقول: السلام عليكم**»[2]. فالمرأة عندما تدخل إلى مكان فيه رجال تقلب صيغة السلام فتقول: عليكم السلام، ويقول الرجل في الردّ عليها: السلام عليكم.

الأدب الحادي عشر: تراتبية السلام

أي من يجب عليه أن يبادر إلى السلام أولًا؟ لاحظوا هذه الرواية عن أبي عبد الله عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في بيان من يسلّم على من، قال: «**يسلّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، وإذا لقيت جماعة جماعة سلّم الأقل على الأكثر، وإذا لقي واحد جماعة سلّم الواحد على الجماعة**»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٧، ح٢٢.
(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٧، ح٢٤.
(٣) الكافي ٢: ٦٤٧ ح ٣.

وعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «**إذا سلّم من القوم واحدٌ أجزأ عنهم**»[1].

يبيّن هذا الحديث المبارك حكمًا جديدًا؛ وهو كفاية أن يردّ شخص واحد إذا كانوا جماعة، كما لو دخل عليكم أحدهم وقال: السلام عليكم، فلا حاجة الى أن يردّ عليه الجميع، بل يكفي أن يرد أحدكم السلام عليه، وإن ردّ أكثر من واحد فهو يحظى بثواب ردّ السلام، بينما من سمع السلام منكم ولم يرد واكتفى بردّ الآخرين فلا إثم عليه.

وورد أيضًا عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**البادي بالسلام أولى بالله وبرسوله**»[2]، لأنّ من التواضع أن يبدأ الإنسان الآخرين بالسلام، وأن يسلّم على من يلقاه.

وفي روايةٍ أُخرى: «**يسلّم الراكب على الماشي، والقائم على القاعد**»[3]، إذن فالقاعدة دائمًا أن من كان في موقعٍ أفضل يجب عليه أن يبدأ بالسلام.

الأدب الثاني عشر: السلام عند الوداع

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه قال: «**إذا قام الرجل من مجلسه فليودع إخوانه بالسلام، فإن أفاضوا في خيرٍ كان شريكهم، وإن أفاضوا في باطل كان عليهم دونه**»[4]، أي ليكن توديعه لهم بالسلامٍ عليهم، فإذا ودعهم بالسلام وهم كانوا يشتغلون بخيرٍ فله نصيب من ذلك، وأما إذا كانوا يشتغلون بشرٍ ـ والعياذ بالله ـ فشرهم عليهم وحدهم.

الأدب الثالث عشر: استخدام صيغة الجمع عند السلام

فلا تقل: (السلام عليك)، بل قل: (السلام عليكم) حتى لو كان شخصًا واحدًا، لاحظوا هذه الرواية الكريمة في كتاب الكافي الشريف، عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**ثلاثة تردّ عليهم ردّ الجماعة وإن كان واحدًا.... والرجل يُسلّم على الرجل فيقول: السلام عليكم**»[5].

---

(١) .بحار الأنوار ٧٣: ٧، ح٢٦.
(٢) الكافي ٢: ٦٤٥ ح٨.
(٣) الكافي ٢: ٦٤٧ ح٤.
(٤) بحار الأنوار ٧٣: ٩، ح٣٦.
(٥) الكافي ٢: ٦٤٥ ح١٠.

الأدب الرابع عشر: الجهر بالسلام

وهو رفع الصوت عند السلام ليُسمع، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا سلّم أحدكم فليجهر بسلامه، فلا يقول المسلم سلّمت فلم يُردّ عليّ، فإذا ردّ أحدكم فليجهر بردّه، ثم قال: كان عليٌ عليه السلام يقول: لا تغضبوا ولا تُغضِبوا، أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[1]. فكما يُستحب الجهر بالسلام، كذلك يُستحب الجهر بردّ السلام.

هذه هي الآداب الأربعة عشر للسلام التي استعرضناها، ونسأل الله أن يُعيننا على الالتزام بها جميعًا.

(١) الكافي ٢: ٦٤٥ ح٧.

الحق الثالث والعشرون
(تطييب الكلام مع الأخ المؤمن)

يتضح هذا الحق في الرواية موضوع البحث بقول رسول الله ﷺ: «**ويطيّب كلامه**»، أي يجب على المؤمن أن يطيّب كلامه حينما يتحدث مع أخيه المؤمن.

مفهوم طيب الكلام

الطيب من حيث المفهوم هو ألاّ نستغيب أمام المؤمن، ولا نكذب بين يديه، ولا نذكر الفاحشة على ألسنتنا في مسمع منه، فالمضمون يجب أن يكون مضمونًا طيبًا، وكذلك الأسلوب والعبارات والنبرة يجب أن تكون طيبة، فالأسلوب يجب ألا يكون فيه قسوة، ولا يكون فيه كسر، ولا يكون فيه إساءة، ولا تحقير، أيها المؤمن، عندما تخاطب أخاك المؤمن فخاطبه بكلام طيب، هذا معنى طيب الكلام.

وهناك معنى آخر، وهو أنّ المؤمن يطيِّب كلام أخيه المؤمن، أي عندما يأتي أخوك المؤمن وهو عصبي المزاج ويكلمك بعصبية، فيجب عليك أن تأخذه على محمل حسن، وعندما يكلمك عن شخص ويبدأ ينعته بكلمات بذيئة ويطلب منك أن تنقلها، فلا ينبغي لك أن تنقلها بهذه الصورة، وتصنع مشكلة بين الأخوين، بل قل له: فلان اتصل وبدأ يسأل عنك، وأوصل المضمون والمعنى بطريقة طيبة وبكلام طيب، حتى لا تصنع مخاصمة بين الأخوين.

العلاقة الإيمانية وطيب الكلام

طيب الكلام هو الحالة الطبيعية بين المؤمنين، ويستثنى من ذلك حالات النهي عن المنكر، فإذا فعل شخص أمامك المنكر فيجب عليك أن تظهر له عدم الاكتراث وعدم الاهتمام، وتحاول أن تنهاه عن هذا الفعل بأي طريقة كانت، حتى يرجع هذا المؤمن إلى صوابه، وتحول بينه وبين الانحراف وارتكاب الخطأ، أما إذا رأيت الخطأ أمامك ولم

تفعل شيئًا وبقيت تعامله بمحبة، فأنت بذلك تشجعه على الخطأ، وسيتوسع في ممارسة الخطأ، ويزداد في انحرافه إلى غير ذلك، فهذا في الحقيقة معنى تطييب الكلام.

الحث على طيب الكلام

لقد أكد الإسلام أهمية طيب الكلام عند محادثة الناس، وقد ورد الحث عليه في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[١]، وفي الروايات الشريفة، فهو من خلق الأنبياء، وقد أمر الله سبحانه وتعالى به أنبياءه، ففي الحديث القدسي: قال الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه موسى عليه السلام: «**يا موسى أطب الكلام**»[٢].

وورد في حديث قدسي آخر: قال الله سبحانه وتعالى لنبيه عيسى عليه السلام: «**يا عيسى أطب الكلام، وكن حيثما كنت عالمًا أو متعلمًا**»[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: «**ما يكون من الرجل في حال إحرامه، فإذا دخل مكة وطاف وتكلم بكلام طيب كان ذلك كفارة لذلك الذي كان منه**»[٤]، فالكلمة الطيبة كفارة تمحو ما ارتكبه المحرم من ذنوب بلسانه.

ثقافة الدعاء وطيب الكلام

وفي طيب الكلام هناك أيضًا ثقافة الدعاء، وكيفية مخاطبة الله سبحانه وتعالى بالكلام الطيب وبالثناء، وقد رأيت في ذلك روايات مهمة نتلو بعضها.

لاحظوا هذه الروايات في كتاب الكافي الشريف، باب الثناء قبل الدعاء.

الرواية الأولى: عن الحارث بن المغيرة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إياكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربه شيئًا من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عز وجل والمدح له، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، ثم يسأل الله حوائجه**»[٥]، فالمديح لله والثناء عليه

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.
(٢) الكافي ٨: ٤٦.
(٣) الكافي ٨: ١٣٧.
(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٨٤ ح٣٠٣٠.
(٥) الكافي ٢: ٤٨٤ ح١.

ﷻ والصلاة على النبي وآله قبل طلب الحوائج هي من آداب الدعاء، أي يبدأ الداعي بالكلام الطيب قبل بيان ما يريد ويطلب، وحينئذ ستكون القاعدة هي أن يبدأ الإنسان بالكلمة الطيبة ثم يطلب ما يريد.

الرواية الثانية: عن محمد بن مسلم قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ في كتاب أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) أنّ المدحة قبل المسألة، فإذا دعوت الله عزّ وجلّ فمجده، قلت: كيف أمجدهُ؟ قال: تقول: يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يا فعال لما يريد، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من هو ليس كمثله شيء**»[1]، فتمجيد الله ﷻ من مصاديق الثناء عليه والمدح له ﷻ، إذ لا يستحق التمجيد سوى الله ﷻ، إذن فالمدحة قبل المسألة، وعلى الإنسان أن يقول هذه الكلمات ثم يسأل حاجته ويطلبها منه تعالى شأنه.

الرواية الثالثة: عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنما هي المدحة، ثم الثناء، ثم الإقرار بالذنب، ثم المسألة، إنه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالإقرار**»[2]. تبيّن هذه الرواية المباركة ثلاث مراحل تسبق طلب الحوائج من الله ﷻ، وهي المدحة، أي التمجيد كما بيّنته الرواية السابقة، ثم المديح، ثم الإقرار بالذنوب؛ لأنّ الإنسان تأخذه العزة بالإثم، ويصر على خطئه، ويبرر خطأه، وهذا هو أسلوب الشيطان في تزيين الذنب بعين الإنسان كما ورد ذلك في قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾[3]، فسلاح الشيطان هو تزيين الباطل.

وقد ورد في رواية ننقلها بالمعنى: كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالسًا ومعه عدد من أصحابه، فدخل رجل كان غائبًا لفترة، فسلّم وجلس، فردّ رسول الله عليه السلام وسأله: أين كنت يا أبا فلان، لم نرك منذ مدة؟ فقال: يا رسول الله كنت في سفر، فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله عمّا رأى في سفره هذا، فقال: يا رسول الله المساجد كثيرة، وناسها متدينون وطيبون، وقد استمتعت كثيرًا بذهابي هناك حيث الموعظة، والنصيحة، والحديث الطيب، وتلاوة القرآن، ومجالس الدعاء، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: صدقت، وجلس الرجل قليلاً ثم استأذن وذهب، وبعد قليل دخل رجل آخر وسلّم، فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله: أين كنت يا

---

(١) الكافي ٢: ٤٨٤ ح٢.
(٢) الكافي ٢: ٤٨٤ ح٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

أبا فلان لم نرك منذ مدة؟ فقال له: لقد كنت في سفر يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: الى أين؟ فقال: كنت في المدينة الفلانية، وكانت نفس المدينة التي كان يتحدث عنها الرجل الأول، فسأله رسول الله ﷺ: ما الأخبار؟ فقال له: يا رسول الله إنها مدينة مليئة بالفسق، والفجور، والطرب، والراقصات، والقمار، فقال رسول الله ﷺ: صدقت، فتعجب أصحاب رسول الله ﷺ لأنّ المدينة واحدة، فإما أن تكون هكذا أو هكذا، وخرج الرجل، ولم يتجرأ أحد من المسلمين ويتكلم مع رسول الله ﷺ عن تصديقه لكليهما مع ما في كلامهما من التعارض الواضح، ولكن رسول الله ﷺ عرف ما في نفوسهم، وقرأ ما في عيونهم، فقال لأصحابه: هل أنتم مستغربون؟ فقالوا: نعم يا رسول الله، ما القصة؟ كيف يمكن أن يكونا صادقين ؟! فقال لهم رسول الله ﷺ: كل شخص منهم يبحث عما يريده، فالأول يبحث عن المَساجد، ووجد ما يريده واستأنس، والثاني يبحث عن هواه وملذاته، ووجد ما يريده.

أما أنت فعن أي شيء تبحث في هذه الدول الأوروبية مع كل المزالق المتواجدة فيها؟ فقد تجد فيها شبابًا مراهقين عندما تلاحظ تدينهم تخجل من نفسك، كنت مرة في كندا وركبت مع أحد الشباب المؤمنين في سيارته لكي يوصلني، فقال: سيدنا ما رأيك أن نقرأ دعاء الصباح، فقلت له: جيد جدًا تفضل، فقال: أنت اقرأ سيدنا، فقلت له: لا، أنت اقرأ لنا، فبدأ يقرأ دعاء الصباح بصوت شجي، وحزين، وعن ظهر قلب، فخجلت من نفسي لأني لم أحفظ دعاء الصباح، إذ أقرأه في مفاتيح الجنان فقط، ولكن هذا الشاب في كندا، ومراهق، لا يتجاوز عمره التاسعة عشرة، حافظ لدعاء الصباح وكان يقرأه بصوت شجي ويبكي، قلت: عجيب! أنا ابن السيد محسن الحكيم لست حافظًا لدعاء الصباح، ولست ملتزمًا بدعاء الصباح في كل يوم، وهذا الشاب في كندا حافظ له وملتزم به بشكل عفوي، قال: سيدنا أنا كل صباح عندما أخرج أقرأ دعاء الصباح في الطريق، قلت في قلبي هنيئًا له، فالإنسان هو وتوجهاته، هو واهتماماته، هو الذي يقرر.

إنّ الاعتراف بالخطأ أمر مهم، وعدم تبرير الخطأ أمر مهم أيضًا، إذا كنت تريد أن تقع في التبرير في أي حالة فستقع في المعصية حتى وأنت في بيت الله، وإذا كنت لا تريد أن تبرر وتريد أن تكون واقعيًا، وتقف بشجاعة أمام الخطأ، فعليك أن تقول هذا خطأ وتصلح نفسك.

نسأل الله أن يعيننا على إصلاح أنفسنا.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تقديم المديح والثناء قبل الدعاء قوله: «**إذا أردت أن تدعو فمجد الله عز وجل واحمده، وسبحه، وهللهُ، وأثنِ عليه، وصلِّ على محمد وعلى آله، ثم سل تُعطَ**»(١). فانظروا كم هو مهم الكلام الطيب مع الله عز وجل، وإذا أخذنا بهذه التراتبية فسنُعطى ما نريد.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إذا طلب أحدكم الحاجة فليثنِ على ربه، وليمدحهُ، فإنّ الرجل إذا طلب الحاجة من السلطان هيأ له من الكلام أحسنَ ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجدوا الله العزيز الجبار، وامدحوه وأثنوا عليه، تقول: يا أجود من أعطى، ويا خير من سُئل، ويا أرحم من استُرحم، ويا أحد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، يا من لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، يا من يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويقضي ما أحب، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء، يا سميع، يا بصير، وأكثر من أسماء الله عز وجل فإنّ أسماء الله كثيرة، وصلِّ على محمد وآله، وقل: اللهمّ أوسع عليَّ من رزقك الحلال ما أكفُّ به وجهي، وأؤدي به أمانتي، وأصل به رحمي، ويكون عونًا لي في الحج والعمرة. وقال: إنّ رجلًا دخل المسجد فصلى ركعتين ثم سأل الله عز وجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: عجل العبد ربه، وجاء آخر فصلى ركعتين ثم أثنى على الله عز وجل وصلى على النبي وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: سل تعطَ**»(٢).

عن عثمان بن عيسى عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت: آيتان في كتاب الله عز وجل أطلبهما فلا أجدهما، قال عليه السلام: وما هما؟ قلت: قول الله عز وجل: «ادعوني أستجب لكم» فندعوه ولا نرى إجابة، قال عليه السلام: أفترى الله عز وجل أخلف وعده؟ قلت: لا، الله لا يخلف وعده، قال عليه السلام: فمما ذلك؟ قلت: لا أدري، قال عليه السلام: لكني أخبرك؛ من أطاع الله عز وجل في ما أمره ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه، قلت: وما جهة الدعاء؟ قال: تبدأ فتحمد الله، وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تصلي على النبي وآله، ثم تذكر ذنوبك فتقر بها ثم تستعيذ منها، ثم قال عليه السلام: وما الآية الأخرى؟ قال: قلت: قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٣) وإني أُنفق ولا أرى خلفًا، قال عليه السلام: أفترى الله**

(١) الكافي ٢: ٤٨٥ ح٥.
(٢) الكافي ٢: ٤٨٥ ح٦.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٩

ﷻ **أخلف وعده؟ قلت: لا، قال** عليه السلام **: فمما ذلك؟ قلت: لا أدري، فقال** عليه السلام **: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله وأنفقه في حقه، لم ينفق رجل درهمًا إلا أخلف عليه»**[1].

إذن، طيب الكلام مسألة مهمة حتى في علاقتنا بالله، وفي الدعاء هو جزء من استجابة الدعاء من قبل الله سبحانه وتعالى.

(١) الكافي ٢: ٤٨٦ ح ٨.

الحق الرابع والعشرون
(برّ إنعام المؤمن)

وهو قول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الرواية محل البحث: «**يبرّ إنعامه**»، فالمؤمن يبر إنعام أخيه المؤمن ليتقبل هذا الإحسان وهذا المعروف ويُعوضه بأفضل منه، أو أنّ المؤمن يبر إنعامه لأخيه المؤمن، بمعنى أنه يكتمه ويستره، فحينما يقوم بمعروفٍ لأخيه المؤمن لا يعلنه، ولا يظهره، ولا يفشي هذا الأمر، ولا يحرج أخاه المؤمن أنه قدم له عونًا أو مساعدةً في شيءٍ ما.

أهمية المعروف

تتجلى أهمية المعروف من خلال تأكيد الكثير من الآيات والروايات عليه، واعتباره ركيزة اساسية من ركائز البناء الاجتماعي السليم، وبنيت عليه الأحكام والقوانين في سائر مفاصل الحياة الاجتماعية، كقوله تعالى: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3]. وكقول الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ من أحب عباد الله إلى الله لمن حبّب إليه المعروف وحبّب إليه فعاله**»[4]، وقال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**إنّ البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار فيه المعروف من الشفرة في سنام الجمل، أو من السيل إلى منتهاه**»[5].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية : ١٩٩.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٤) وسائل الشيعة ١٦ : ٢٨٦ ح٤.
(٥) وسائل الشيعة ١٦ : ٢٨٧ ح٨.

وعن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أول من يدخل الجنة المعروف وأهله**»(١).

وبهذا الإسناد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: «**إنّما المعروف زرع من أنمى الزرع، وكنز من أفضل الكنوز، فلا يُزهدنّك في المعروف كفرُ مَنْ كفر، ولا جُحودُ مَنْ جَحَد، فإنه قد يشكرك عليه من يسمع منك فيه، وقد تصيب من شكر الشاكر ما أضاع منه العبد الجاحد**»(٢).

وعنه عليه السلام أيضًا قال: «**إني لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم ولا يشترون الأحرار بمعروفهم**»(٣).

وعنه عليه السلام أيضًا قال: «**كل معروف صدقة**»(٤).

وعنه عليه السلام أيضًا قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سرورًا**»(٥).

أجر المعروف

وعد الله تعالى على لسان حججه بالثواب الجزيل لأهل المعروف، ترغيبًا في العمل به، فقد روى جميل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إنّ مما خصّ الله عزّ وجلّ به المؤمن، أن يعرّفه برّ إخوانه وإن قلّ، وليس البرّ بالكثرة، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**، ثم قال:** ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٦)**، ومن عرّفه الله عزّ وجلّ بذلك أحبّه، ومن أحبّه الله تبارك وتعالى وفّاه أجره يوم القيامة بغير حساب، ثم قال: يا جميل،ارو هذا الحديث لإخوانك فإنه ترغيب في البرّ**»(٧).

وقد ذكر القرآن الكريم أنّ الله عزّ وجلّ سيعطي الأجر لبعض أصناف المؤمنين بغير حساب، وقد ذكرت هذه الرواية الكريمة أنّ من هؤلاء أهل المعروف.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٣٩ ح ٢.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٠ ح ٥.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٥ ح ٥.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤١ ح ١٢.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٨٨ ح ١.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٩
(٧) وسائل الشيعة ١٦: ٣٧٧ح١.

ومعنى إيفاء الأجر بغير حساب أنّ النعيم الذي يعيشون فيه في الآخرة في ازدياد مستمر، فيرى صاحبه في كل يوم نعَمًا جديدة وتوسّعًا في جنانه لا انتهاء له ولا زوال.

أما أجر المعروف في الدنيا فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعطيه ضعف ما يعطي وينفق في أعمال البرّ، كما ورد ذلك في ما رواه أبو بصير قال: «**ذكرنا عند أبي عبد الله الأغنياء من الشيعة، فكأنه كره ما سمع منّا فيهم، فقال: يا أبا محمد إذا كان المؤمن غنيًا وصولًا رحيمًا له معروف إلى أصحابه، أعطاه الله أجر ما ينفق في البرّ مرتين ضعفين؛ لأنّ الله يقول في كتابه:** ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[1]»[2]

وقال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قال رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد عليّ الحوض**»[3].

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قال: «**قال رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **يقول الله: المعروف هدية مني إلى عبدي المؤمن، فإن قبلها مني فبرحمتي ومنّي، وإن ردها عليّ فبذنبه حرمها ومنه لا منّي**»[4].

التطوع بالمعروف

ينبغي على المؤمن المبادرة إلى المعروف والتطوع به قبل السؤال، فقد ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «**جزى الله المعروف إذا لم يكن يبدأ عن مسألة**»[5].

وفي الخبر أن معاوية سأل الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الكرم والنجدة والمروّة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أما الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال، والإطعام في المحل...**»[6].

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**للكرم فضيلة المبادرة إلى فعل المعروف وإسداء الصنائع**»[7].

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣٧.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢٨٩ ح١٣.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٣٠٣ ح٢.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٢ ح ١٤.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤١ ح ١٠.
(٦) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٢ ح ١٥.
(٧) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٦ ح ٢٨.

عدم استصغار المعروف

قد يحجم الإنسان عن عمل المعروف بسبب قلة ما في يده، مع أنّ المعيار في المعروف ليس القلة والكثرة، وإنما تجاوز عقبة الشح وكسر شَرَه البخل في النفس، وقد أشار قوله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]. وكذلك فإن القليل والكثير لا يحسبان بالعدد، فربما كانت نسبة القليل الذي يتطوع به الفقير بالقياس إلى ما يملك، أكثر بكثير من نسبة ما يعطيه الغني بالقياس إلى أمواله، فيكون درهم الفقير أكثر أجرًا من دنانير الغني، وإذا كانت الكلمة الطيبة صدقة، لأنها معروف، و«**كل معروف صدقة**»[٢]، ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّ الكلمة الطيبة أفضل من التصدق بالمال الذي يلحقه أذى، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لا تستصغروا شيئًا من المعروف قدرتم على اصطناعه إيثارًا لما هو أكثر منه، فإن اليسير في حال الحاجة إليه أنفع لأهله من ذلك الكثير في حال الغناء عنه**»[٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وبشر حسن**»[٥].

لقد حث الشارع المقدس على إسداء المعروف بقدر المستطاع وإن كان قليلًا، كما مرّت الإشارة إليه في الروايات السابقة، وكذلك يؤكد عليه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**افعل المعروف ما أمكن**»[٦].

تصغير المعروف وستره وتعجيله

ينبغي لفاعل المعروف أن يلتزم بثلاثة أُمور ،هي:

الأول: تصغيره وإن كان في نفسه كبيرًا وجليلًا؛ لأنّ هذا من شأنه أن يعظمه في عين من فعلت له هذا المعروف.

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢٨٥ ح٢.
(٣) سورة البقرة، الآية : ٢٦٣.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٠ ح ٨.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٠ ح ٢٠.
(٦) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٥ جزء من ح٢٨.

الثاني: ستره وعدم إذاعته والبوح به للآخرين، وإن كان ذلك بحسن نيّة؛ لأنّ في ذلك تتميمًا للمعروف، وإلا كان ناقصًا، أما إذا تعمّد نشره وإذاعته للمنّ به على من اصطنعه له، فقد تحول الى منكر، وفقد عنوان المعروف.

الثالث: تعجيله والإسراع به، وعدم انتظار سؤال صاحب الحاجة أو إلحاحه في طلبها؛ لأنّ في تعجيله التهنيء به لمن قدّم له، وإلا فإنّ المعروف مع التطويل والتسويف تنكيد له.

وقد ورد هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**رأيت المعروف لا يتمّ إلا بثلاث: تصغيره وستره وتعجيله، فإنك إن صغرته عظّمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تمّمته، وإذا عجّلته هنأته، وإذا كان غير ذلك سخّفته ونكّدته**»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث: باستصغارها لتعظم، وباستكتامها لتظهر، وبتعجيلها لتهنأ**»[2].

دفع السيئة بالحسنة

حثّ الإسلام العزيز على دفع السيئة بالحسنة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4]، أي من أساء إليك فعوضه بالإحسان، وليصدر منا دائمًا العمل الحسن، وليصدر منا المعروف، ولا سيّما بعد صدور السيئة، فهو كفيل بمحوها، قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

وإذا ما تدارك الإنسان إساءته بالإحسان، فإنّ الله سبحانه وتعالى يغفر له ويبدّل سيئاته حسنات، كما ورد ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[6].

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٣١٤ ح١.
(٢) نهج البلاغة ٣: ١٧٢/ ١٠١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٥) سورة النمل، الآيتان: ١٠ ـ ١١.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

تقديم المعروف للجميع

النقطة الأخرى التي نودّ الحديث عنها هي المعروف وإسداؤه للجميع، أي أن يكون الإنسان ممن يُقدم المعروف للجميع؛ لمن يستحقه ولمن لا يستحقه، فإن كان الآخر لا يستحق المعروف، فإنك أهل لأن تكون من أهل المعروف.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**اصطنع المعروف إلى أهله، وإلى غير أهله، فإن لم يكن من أهله فكن أنت من أهله**»[1]، أي اعمل المعروف إلى أهل المعروف وهم من يستحقونه، واعمل المعروف أيضًا حتى لأولئك الذين هم ليسوا من أهل المعروف وهم الذين لا يستحقونه، فإن كان لا يستحق هذا المعروف، فأنت تستحق أن تكون من أهل المعروف، فلا يصدر منك إلا المعروف، هذه هي ثقافة أهل البيت عليهم السلام أجمعين.

تمييز المؤمنين بإسداء المعروف

صحيح أنك تصنع المعروف للجميع، ولكنّ الأقربين أولى بالمعروف، والأقرب هو الأكثر قربًا لنا بالأخوة الإيمانية، فالمؤمن يجب أن يُخص بالإحسان وبالمعروف بشكلٍ خاص ويُميز في الإحسان إليه.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**خصوا بألطافكم خواصّكم وإخوانكم**»[2]، فيجب أن يُميز المؤمن بإسداء المعروف والإحسان إليه.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قوله: «**أنفع الكنوز معروفك تودعه الأحرار، وعلم يتدارسه الأخيار**»[3]، أي أنّ أهمّ الكنوز وأنفعها للإنسان أمران، الأول: المعروف الذي يُسديه ويُقدمهُ إلى الأحرار، وهم الذين يحفظون الجميل، ويذكرون المعروف لأهله،والثاني: هو تدارس مناقب أهل البيت عليهم السلام، وكراماتهم، وعلومهم، ومعارفهم، كالذي نصنعه نحن في هذه اللقاءات والمحاضرات، حين نتدارس معارف أهل البيت عليهم السلام، التي هي معارف الإسلام، وهذا من أنفع الكنوز للإنسان.

(١) بحار الأنوار ٧١: ٤١٣، ح٢٧.
(٢) بحار الأنوار ١٢: ٣٤٩، جزء من ح٦.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٩، ح٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**إن مالك لا يغني جميع الناس، فاخصص به أهل الحق**»[1]، فلا أحد منا يستطيع أن يحل جميع مشاكل الناس المالية، ولذا ينبغي علينا أن نقدّم أهل الحق والمؤمنين ونسدي لهم الخدمة والمعروف.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**خير المعروف ما أصيب به الأبرار**»[2]، أي أنّ أفضل أعمال البر والمعروف هي ما يُقدمها الإنسان لذوي البر.

وعنه عليه أفضل الصلاة والسلام قال: «**خير البر ما وصل إلى الأحرار**»[3]، وهم الذين لا يبيعون دينهم أو دنياهم بدنيا غيرهم، ولا يملك زمام أُمورهم سواهم، فالمؤمنون والأبرار والأحرار هي سمات من يجب أن يُخصوا بالبر والمعروف، وأن نميّزهم عن غيرهم، فيجب أن نقدّم المعروف بالدرجة الأساسية لهذه الطبقة وهذه الشريحة من الناس.

وعن الإمام الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا عُرِضَ على أحدكم الكرامة فلا يردّها، فإنما يردّ الكرامة الحمار**»[4]، أي لو تكرم عليك أخوك المؤمن وقدّم إليك معروفًا، ولو بشق تمرة، فاقبل منه ذلك، لأنها تُرسخ وتعزز العلاقة بين المؤمنين، فمضمون الرواية هو أنَ من لا يقبل الكرامة فهو حمار.

عدم الخوف من العوز عند فعل المعروف

ينبغي لعامل المعروف ألاّ يتوجس خيفة من نقص ماله عند إقدامه على فعل المعروف، بل يجب عليه أن يتوقع الزيادة والتوفيق.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: تنزل المعونة على قدر المؤونة**»[5]، فالله سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، ينزل المعونة والرزق على قدر المؤونة، أي على قدر الحاجة، فلا ينبغي أن يقلق الإنسان أو يخشى العوز والفاقة حينما يقدّم لإخوانه المؤمنين المعروف.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٠، جزء من ح٦.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٠، جزء من ح٦.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٥٠، جزء من ح٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٢: ١٤٠، ح١.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٨ ح١.

وورد عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «**كان في بني إسرائيل رجلٌ صالح، وكانت له امرأة صالحة، فرأى في النوم أنّ الله تعالى قد وقّت لك من العمر كذا وكذا سنة، وجعل نصف عمرك في سعة، فاختر لنفسك إما النصف الأول وإما النصف الآخر، فقال الرجل: إن لي زوجة صالحة وهي شريكتي في المعاش، فأشاورها في ذلك فتعود إليّ فأخبرك، فلما أصبح الرجل قال لزوجته: رأيت في النوم كذا وكذا، فقالت: يا فلان اختر النصف الأول وتعجّل العافية لعل الله سيرحمنا ويتم لنا النعمة، فلما كان في الليلة الثانية أتى الآتي فقال: ما اخترت؟ قال النصف الأول، فقال ذلك لك، فأقبلت الدنيا عليه من كل وجه، ولما ظهرت نعمته قالت له زوجته: قرابتك والمحتاجون وجارك وأخوك، فهبهم، فعاشوا سعيدين موفورًا لهم حظهم هم وجميعِ جيرانهم وأقاربهم، فمضى نصف العمر وجاز حد الوقت فرأى الرجل مثل الذي رآه أولًا في النوم، قال: إن الله سبحانه وتعالى قد شكر لك ذلك، ولك تمام عمرك سعة مثل ما مضى**»[1].

وهنا دروس كبيرة، أولها: المشورة مع العائلة، بما أنّ القرارات الحاسمة والمصيرية في الحياة تشمل تبعاتها الزوجة أيضًا، فعلينا أن نشاورها فيها، ثانيها: تقديم الرجاء والأمل، وانظروا إلى رجاء هذه المرأة الصالحة وثقتها بالله سبحانه وتعالى، ثالثها: قبول ما أشارت به الزوجة بعد ما أدرك صدقها ورجحان عقلها وتوكلها على الله عزّ وجلّ، رابعها: أنّ التوكل على الله سبحانه وتعالى شيء مهم، فهناك أسباب طبيعية يجب احترامها واعتمادها، ولكن هناك أيضًا شيء ما وراء هذه الأسباب، وهو التوكل على الله تعالى، خامسها: أنّ العطاء لا يُنقص وإنما يزيد، فالله تعالى يبارك للإنسان في ما يُقدّم وفي ما يُعطي.

زوال النعمة بترك المعروف

إذا أعطيت فالله سبحانه وتعالى يزيدك، أما إذا كانت لديك القدرة على عمل المعروف ولم تفعل، فسيصبح مردود ذلك عكسيًا عليك، وسيسلب الله سبحانه وتعالى هذه النعمة منك؛ لأنها عطيةٌ إلهية، فإن استخدمتها بشكل صحيح فالله سبحانه وتعالى يعطيك الزيادة، وأما إذا استخدمتها بشكل غير صحيح أخذك الله سبحانه وتعالى بالنقصان.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٨ ح٢.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام قال: «**اعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم فتتحول إلى غيركم**»[١]، فإذا مللت من حوائج الناس إليك واستكثرتها وأخذت تتنصل من قضائها، فالله سبحانه وتعالى يسلبك هذه النعمة ويعطيها لغيرك؛ لأنّ زوال النعمة يكون بترك المعروف.

ويؤيد ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**أحسنوا مجاورة النعم، لا تملوها ولا تنفروها، فإنها قلما نفرت من قوم فعادت إليهم**»[٢]، أي عندما تأتيك النعم كن جارًا حسنًا لها، وتعامل معها بشكلٍ جيد، ولا تتعب ولا تنفر من خدمة الناس، فإن المعروف إذا خرج من بيتك لا يرجع إليه أبدًا إلا بقدرة قادر، فإياك والجزع والكلل والملل من فعل المعروف، وإلا فسوف يضيع عليك الأمر ولا تحصل على مبتغاك.

فعل المعروف لبني هاشم

رعاية الهاشميين، وتكريمهم، واحترامهم، وتوقيرهم، أمر مهم جدًا؛ لأن في فعل المعروف خصوصية، وهناك نصوص كثيرة دلت على أهمية المعروف لبني هاشم، وقد كان في أحوال بعض علمائنا الكبار إذا دخل عليه أحد أطفال السادة، أن يقف على قدميه كرامة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا الموضوع من المواضيع المهمة أيضًا.

ولنقف عند هذه المسألة؛ لأنّ هناك نوعًا من التساهل في هذا الموضوع، ويجب أن نرى ما الآثار العظيمة المترتبة على احترام وتكريم وتوقير بني هاشم، ولا سيَّما من السادة العلويين.

فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من اصطنع صنيعةً إلى واحدٍ من ولدِ عبد المطلب ولم يُجازهِ عليها في الدنيا فأنا أُجازيه غدًا إذا لقيني يوم القيامة**»[٣].

وفي روايةٍ أخرى عن هشام بن الحكم قال: «**كان رجلٌ من ملوك أهل الجبل يأتي الصادق عليه السلام في حجته، فيُنزله أبو عبد الله عليه السلام في دار من دوره، وطال حجه ونزوله، فأعطى أبا عبد الله عشرة آلاف درهم ليشتري له دارًا، وخرج إلى الحج، فلما انصرف**

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٩ ح١
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٨ ح٥.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٣ ح١.

قال: جُعِلتُ فِداك اشتريت الدار؟ قال: نعم، وأتى بصكٍ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشتراه جعفر بن محمد لفلان بن فلان الجبلي، اشترى له دارًا في الفردوس، حدها الأول رسول الله صلى الله عليه وآله، والحد الثاني أمير المؤمنين عليه السلام، والحد الثالث الحسن بن علي، والحد الرابع الحسين بن علي عليهما السلام، فلما قرأ الرجل ذلك قال: رضيتُ، جعلني الله فداك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إني أخذت ذلك المال ففرقته في ولد الحسن والحسين عليهما السلام، وأرجو أن يتقبل الله ذلك ويثيبك به في الجنة، فانصرف الرجل إلى منزله وكان الصك معه، ثم اعتل علة الموت، فلما حضرته الوفاة جمع أهله وحلفهم أن يجعلوا الصك معه، ففعلوا ذلك، فلما أصبح القوم غدوا إلى قبره فوجدوا الصك على ظهر القبر مكتوبًا عليه: وفّى إليّ ولي الله جعفر بن محمد»[1].

بالفعل حينما انتقل إلى النشأة الأخرى رأى ثواب صلة وإكرام ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله أمامه في العالم الآخر، وقد كتب هذا على ظهر الصك، ليكون كرامةً في أنّ أهل البيت وفّوا بما وعدوا، والإمام الصادق عليه السلام كان وفيًا بما وعد.

وفي رواية أُخرى في هذا السياق، عن أبي حبيب النباحي قال: **«رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، وحدثني محمد بن منصور السرخسي، بالإسناد عن محمد بن كعب القرضي، قال: كنت في جحفة نائمًا، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، فأتيته، فقال لي: يا فلان سررت بما تصنع مع أولادي في الدنيا. فقلت: لو تركتهم بمن أصنع؟ فقال صلى الله عليه وآله: فلا جرم تجزى من في العقبى، فكان بين يديه طبق فيه تمر صيحاني، فسألته عن ذلك، فناولني قبضةً فيها ثماني عشرة تمرة، فنهضت من النوم، وتأولت أن أعيش ثماني عشرة سنة، فنسيت ذلك، فرأيت يومًا ازدحام الناس فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أتى علي بن موسى الرضا عليه السلام، فرأيته جالسًا في هذا الموضع نفس المكان الذي رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وبين يديه طبق فيه تمر صيحاني، فسألته عن ذلك؟ فناولني قبضةً فيها ثماني عشرة تمرة، فقلت له: زدني منه، فقال عليه السلام: لو زادك جدي رسول الله صلى الله عليه وآله لزدناك»**[2].

وفي رواية أُخرى عن الشيخ القمي يقول: **«رويت على مشايخ قم أنّ الحسين بن الحسن بن الحسين بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام كان بقم يشرب علانيةً، فقصد يومًا الحاجة إلى باب أحمد بن إسحاق الأشعري، وكان وكيلًا في**

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٣ ح٢.
(٢) بحار الأنوار ٤٩: ١١٩،ح٥.

الأوقاف بقم، فلم يأذن له، فرجع إلى بيته مهمومًا، فتوجه أحمد بن إسحاق إلى الحج، فلما بلغ سامراء فاستأذن على أبي محمد العسكري عليه السلام فلم يأذن له، فبكى أحمد طويلا وتضرع حتى أذن له، فلما دخل قال: يا ابن رسول الله لِمَ منعتني الدخول عليك وأنا من شيعتك ومواليك؟ قال عليه السلام: لأنك طردت ابن عمنا عن بابك، فبكى أحمد وحلف بالله أنه لم يمنعه من الدخول عليه إلا لأن يتوب من شرب الخمر، قال عليه السلام: صدقت، ولكن لا بُـدَّ من إكرامهم، واحترامهم، على كل حال، وأن لا تحقرهم، ولا تستهين بهم لانتسابهم إلينا، فلما رجع أحمد إلى قم عائدا من الحج، أتاه أشرافهم، وكان الحسين معهم، فلما رآه أحمد وثب إليه، واستقبله، وأكرمه، وأجلسه في صدر المجلس، فاستغرب الحسين ذلك منه واستبدعه، وسأله عن سببه، فذكر له ما جرى بينه وبين العسكري عليه السلام في ذلك، فلما سمع ذلك ندم من أفعاله القبيحة، وتاب منها ورجع إلى بيته وأهرق الخمور وكسر آلاتها، وصار من الأتقياء المتورعين، والصلحاء المتعبدين، وكان ملازمًا للمساجد ومعتكفًا فيها حتى أدركه الموت»[1].

هناك إنسان يرتكب المعصية وقلبه أسود وقاس، وهو ضال مضل، وهناك شخص يرتكب الخطأ ولكن سريرته طيبة، وقلبه طاهر، ولكن ارتبكت عليه الأمور، فضاع في لحظة وأخطأ، علينا أن نميّز بين الناس، فالمنحرف فايروس متحرك أينما تضعه يؤثر في الآخرين ويفسد الناس، وله أثر سيئ فيجب إبعاده، ويوجد إنسان يضعف ويخطئ، ولكن قلبه طيب، فهذا يجب احتواؤه، وشتان بين الإبعاد والاحتواء، بحسب طبيعة هؤلاء الناس.

وورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**قال جدنا محمد صلى الله عليه وآله: إني سأشفع يوم القيامة لأربع طوائف، ولو كان لهم مثل ذنوب أهل الدنيا: من سلّ سيفه لذريتي ونصرهم، ومن أعانهم في حال فقرهم وفاقتهم بما يقدر عليه من المال، ومن أحبهم بقلبه ولسانه، ومن قضى حوائجهم إذا اضطروا إليها وسعى بها**»[2].

يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك أربعة أصناف من الناس يشفع لهم يوم القيامة، ولو كانوا من أصحاب الذنوب العظيمة التي تعادل ذنوب أهل الدنيا جميعًا، وهو وعدٌ قطعه رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه في أن يكون أهل هذه الأصناف الأربعة من

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٥، ح٤.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٥، ح٥.

أهل الجنة، مع أنهم لو تُركوا وتلك الذنوب العظام التي ارتكبوها لكانوا من أهل النار، وطبعًا هذا لا يعني أنّ جميع هذه الأصناف هم من أصحاب الذنوب الكبيرة، ولكن لو كانوا من أهلها لغفرها لهم الله تعالى بشفاعة رسول الله ﷺ، وهذه الأصناف هي:

الصنف الأول: من شهر سيفه ودافع عن ذريته ﷺ ونصرهم.

الصنف الثاني: من ساعدهم في حال فقرهم وفاقتهم بما يقدر عليه من المال الذي يكف عن وجوههم ذل الفقر والعوز.

الصنف الثالث: من أحبهم بقلبه وأظهر محبتهم على لسانه، أي لا يبقى حبهم بينه وبين ربه فقط، وجاء في الروايات أنّه إذا أحببت شخصًا فأخبره، وهذا إبراز للمحبة، وتعبير عنها، وهو يعزز المحبة، ويقرب الناس بعضهم من بعض، فإنّ شخصًا لو همس في أذنك وقال: في الله ولله أنا أحبك، أنت أخ إيماني، لك محبة خاصة في قلبي، فإنك عندما تسمع هذا الكلام ستنفتح أكثر، وتتعاطى معه أكثر.

الصنف الرابع: من قضى حوائجهم إذا اضطروا إليها وسعى بها، وهنا يوجد قيد في قضاء حوائجهم، وهو عند اضطرارهم إليها، وهذا معناه عدم شمول قضاء حوائجهم التي لم يضطروا إليها، ويستطيعون قضاءها بأنفسهم.

ونلاحظ أنّ الأصناف الأربعة ترتبط بذرية رسول الله ﷺ فقط، ولا تشمل كل بني هاشم، أو ذرية أمير المؤمنين عليه السلام من غير فاطمة عليها السلام، بل تقتصر على ذرية رسول الله ﷺ من أولاد أمير المؤمنين عليه السلام من فاطمة عليها السلام، وهم الحسن والحسين ﷺ وذراريهم فقط.

ولعل هناك من يقول: نذهب ونفعل ما نشاء، ونرتكب أي ذنب، ومن ثم نهتم قليلًا بذرية رسول الله ﷺ وتنتهي القضية، كلا، فإنه إذا تبعثرت الأوضاع الدينية لمثل هؤلاء سيُسلب منهم التوفيق، ولا يستطيعون الاهتمام بذريته ﷺ، بل يجب أن يكون قلب هؤلاء طاهرًا ونقيًا حتى يستطيعوا أن يؤدوا مثل هذه الأمور.

وعن رسول الله ﷺ قال: «**حقّت شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله**»(١)، أي يستحق شفاعة رسول الله ﷺ ثلاثة: من أعان ذريته بيده ونصرهم بقوة، ومن أعانهم بلسانه فجلب لهم معروفًا أو دفع عنهم مكروهًا، ومن أعانهم بأمواله إذا احتاجوا إليها.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٦، جزء من ح٨.

وقال ﷺ: «**أكرموا أولادي، وحسّنوا آدابي**»[١]، يعني أكرموا ذريتي، واعملوا بآدابي.

وقال ﷺ: «**أحبوا أولادي الصالحين لله**»[٢]، أي أظهروا المحبة للصالحين من ذريته ﷺ، وأبدوا المشاعر الطيبة اتجاههم.

وعنه ﷺ قال: «**من أكرم أولادي فقد أكرمني**»[٣]، أي علينا أن نكرم ذريته ﷺ بنية إكرامه، وسيصل هذا الإكرام لرسول الله ﷺ، وهو كفيل بأن يردّ لنا هذا الإحسان في الآخرة عندما نكون أحوج إليه.

وفي رواية أُخرى عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «**حق قرابات أبوي ديننا محمد وعلي وأوليائهما أحق من قرابات نسبنا، إن أبوي ديننا يُرضيان عنا أبوي نسبنا، وأبوي نسبنا لا يقدران أن يرضيا عنا أبوي ديننا محمدًا وعليًا (صلوات الله عليهما)**»[٤]، للنسب حق، فأخوك وابن عمك مثلاً لهما حق قرابة النسب، ولكن حق قرابة أبوي ديننا أولى من حق قرابة النسب، وكم هو تعبير جميل، والسؤال لماذا ذرية رسول الله ﷺ مهمة؟ لأنهم اخوتنا أيضًا، ولكن ليس بالنسب، بل هم أبناء أبوي ديننا رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، فهؤلاء أبناؤهما، فابن أبيك هو أخوك في قرابة النسب، وابن رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام هو ابن أبيك في قرابة الدين، لأنهما أبوا ديننا، وهما أولى، وتأتي هذه الأولوية من أنّ أبوي ديننا يستطيعان أن يرضيا عنا أبوي نسبنا، فرسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام يستطيعان إقناع أبي وأُمي ليرضيا عني، ولكن أبي وأُمي لا يستطيعان أن يرضيا عني أبوي ديني محمدًا ﷺ وعليًا عليه السلام، إذن فالشخص الذي هو راض عنك ويرضي عنك أباك وأمك، فتحظى برضا الوالدين أيضًا، يكون هو الأولى والأقرب، ويجب أن يقدّم في الاحترام والتوقير والرعاية على الأبوين النسبيين.

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وقد قيل له إنّ فلانًا كان له ألف درهم، عُرضت عليه بضاعتان يشتريهما لا تتسع بضاعته لهما، فقال: «**أيهما أربح لي؟ فقيل له: هذا يفضل ربحه على هذا بألف ضعف، قال: أليس يلزمه بعقله أن يؤثر الأفضل؟ قالوا: بلى، قال:**

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٦، جزء من ح٨.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٦، جزء من ح٨.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٧٦، جزء من ح٨.
(٤) بحار الأنوار ٢٣: ٢٦٢، جزء من ح٨.

فهكذا إيثار قرابة أبوي دينك محمد وعلي (صلوات الله عليهما) أفضل ثوابًا بأكثر من ذلك، لأنّ فضله على قدر فضل محمد وعلي (صلوات الله عليهما) على أبوي نسبه»[١].

يضرب الإمام الكاظم عليه السلام في هذه الرواية المباركة مثلًا لتقريب معنى أولوية قرابة الدين على قرابة النسب: تاجر عنده مال يريد أن يشتري بضاعة، فذهب للسوق فرأى بضاعتين وماله لا يكفي إلا لواحدة منهما، فسأل أي بضاعة منهما يقدّمها على الأخرى؟ فقيل له: هذه يفضل ربحها على تلك بألف ضعف - هذه تشتريها بمائة دينار وتبيعها بألف عندما تعود إلى بلدك، والثانية تشتريها بمائة دينار وتبيعها بمليون في بلدك، أي بألف ضعف، فهل يشتري البضاعة التي يربح منها ألف دينار أو البضاعة التي يربح منها مليونًا؟- فيجيب الإمام عليه السلام أنّ عقله يلزمه أن يؤثر الأكثر ربحًا، ثم بيّن عليه السلام أنّ إيثار قرابة أبوي الدين محمد وعلي عليهما السلام أفضل ثوابًا بأكثر من ذلك، لأنّ فضل الإحسان إلى ذريتهما على قدر فضل محمد وعلي عليهما السلام على أبوي النسب.

وفي رواية أُخرى عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام قال: «**إنّ رجلًا جاع عياله فخرج يبغي لهم ما يأكلون، فكسب درهمًا فاشترى به خبزًا وإدامًا، فمرَّ برجل وامرأة من قرابات محمد وعلي (صلوات الله عليهما)، فوجدهما جائعين فقال: هؤلاء أحق من قراباتي، فأعطاهما إياهما وانصرف، ولم يدر بماذا يحتج في منزله، فجعل يمشي رويدًا يتفكر في ما يعتذر به عندهم ويقوله لهم، فبينما هو في طريقه إذا بفيج يطلبه فدلّ عليه، فأوصل اليه كتابًا من مصر وخمسمائة دينار في صرة، وقال: هذه بقيةٌ حملت إليك من مال ابن عمك مات بمصر وخلّف مائة ألف دينار على تجار مكة والمدينة وعقارًا كثيرًا، ومالًا بمصر بأضعاف ذلك، فأخذ الخمسمائة دينار، فوسّع على عياله، ونام ليلته، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وعليًا عليه السلام، فقالا له: كيف ترى إغناءنا لك لما آثرت قرابتنا على قرابتك؟ إلى أن ذكر أنه وصل إليه من أثمان تلك الأملاك ثلاثمائة ألف دينار، فصار أغنى أهل المدينة، ثم أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا عبد الله هذا جزاؤك في الدنيا على إيثار قرابتي على قرابتك، ولأعطينك في الآخرة بدل كل حبة من هذا المال في الجنة ألف قصر، أصغرها أكبر من الدنيا، مغرز كل إبرة منها خير من الدنيا وما فيها»**.[٢]

---

(١) بحار الأنوار ٢٣: ٢٦٢، جزء من ح٨.
(٢) بحار الأنوار ٢٣: ٢٦٢، جزء من ح٨.

ينقل لنا الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام في هذه الرواية الكريمة قصة رجل فقير لا يملك قوت عياله، فخرج يطلب عملاً ليحصل على مال يمكّنه من أن يشتري شيئًا لهم يسدّ به جوعتهم، فوجد عملاً حصل منه على درهم، وذهب إلى السوق واشترى خبزًا وإدامًا، ورجع فرحًا إلى عائلته إذ حصل لهم على ما يأكلون، ولكنه مر أثناء الطريق على رجل وامرأة من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أضرَّ بهما الجوع، فقال: هؤلاء أولى من أولادي، وأعطاهما ما اشتراه وانصرف، ولم يعرف بماذا سيعتذر لعائلته وهم ينتظرونه ساعات ليجلب لهم ما يسدون به رمقهم، هل سيقول لهم إني وجدت من هو أحق منكم من أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله وأعطيتهم الطعام؟ بالطبع لن يقبلوا بذلك، كيف وهم واجبو النفقة عليه؟، يجب عليه إطعامهم وكسوتهم قبل غيرهم وإن كانوا من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنّ عذره هذا لا يجدي نفعًا، فقد أقدم على فعل أكثر مما هو مطلوب منه شرعًا، بل مخالف لما هو مطلوب منه، ولعل حبّه لرسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي دفعه إلى تقديم ذريته، وبقي حائرًا لا يعلم ماذا سيقول وماذا سيفعل، فقرر أن يسير ببطء لعله يهتدي إلى عذر يعتذر به لعائلته، لقد كان عمله هذا ونيته الصالحة بمرأى من الله تعالى، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين ينظران إليه من عالم الغيب، وإلى نجاحه الباهر في هذا الامتحان الإلهي العسير، وجاءت المكافأة أسرع من المتوقع، فها هو ساعي البريد يبحث عنه حتى وجده بعد لحظات من هذا الامتحان، فأوصل إليه كتابًا من مصر، وأخبره أنّ قريبًا له في مصر قد توفي وترك له إرثًا عظيمًا، وناوله صرة فيها خمسمائة دينار من الذهب، كما ترك له ألف دينار على تجار مكة والمدينة وأملاكًا كثيرة من بساتين ودور، وترك له أيضًا مالاً بمصر بأضعاف ذلك، فاشترى لعائلته طعامًا طيبًا ووسّع عليهم، وعندما نام في تلك الليلة رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وعليًا عليه السلام في عالم الرؤيا، وسألاه: كيف ترى إغناءنا لك بسبب إيثارك قرابتنا على قرابتك؟ وقد وصل إليه من أثمان تلك العقارات ثلاثمائة ألف دينار من الذهب، فصار أغنى أهل المدينة، ثم أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله مرة أُخرى في عالم الرؤيا ليزف له بشرى جزاء إحسانه إلى ذريته برغيف من الخبز مع إدام بسيط لم يتجاوز ثمنه درهما واحدا، فخاطبه بلقب العبودية قائلاً له: «**يا عبد الله**»، وهذا يعني أنّ هذا الإنسان قد صار عبدًا حقيقيًا لله عزّ وجلّ، بعد أن آثر هوى الدين على هواه في ظرف عصيب يندر من يجتازه بنجاح، ثم قال له إنّ هذه الأموال التي تركها قريبه التاجر له بتخطيط مسبق من الله تعالى هي جزاؤه في

الدنيا، وأما ثوابه في الآخرة فإنه سيعطيه بدل كل حبة من هذا المال في الجنة ألف قصر، أصغر تلك القصور أكبر من الدنيا بأسرها بما فيها من سماوات وأرضين، ومغرز كل إبرة ـ كناية عن أنّ أصغر كل جزء منها ـ خير من الدنيا وما فيها، وإنه لثواب يفوق التصور البشري، وليس هذا على الله بمستبعد، فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وكل هذا لا يساوي أمام عظمته سبحانه وتعالى شيئًا.

وروي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: حدثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **أربعة أنا لهم شفيع، ولو أتوا بذنوب أهل الأرض: الضارب بالسيف أمام ذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في مصالحهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه**»[1]، ومنها يتضح أنّ الإحسان إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله هي الباب الواسع لدخول الجنة.

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام، سمعته يقول: «**لا تدعوا صلة آل محمد** عليهم السلام **من أموالكم، من كان غنيًا فعلى قدر غناه، ومن كان فقيرًا فعلى قدر فقره، ومن أراد أن يقضي الله له أهم الحوائج فليصل آل محمد** عليهم السلام **وشيعتهم، بأحوج ما يكون إليه من ماله**»[2].

تبيّن هذه الرواية المباركة أمرين في غاية الخطورة وهما:

أولًا: الإحسان إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله، كل بقدر طاقته ووسعه، الغني بما يناسب غناه والفقير بما يناسب فقره، يعني ألا يكتفي الغني بإعطاء القليل كما يعطي الفقير، وألا يمتنع الفقير من إعطاء القليل لقلته، لئلا يحرموا أنفسهم من جميل الجزاء في الدنيا وجزيل العطاء في الآخرة.

ثانيًا: من كانت له حاجة مهمة يريد قضاءها فأمامه هذ الطريق السريع الذي لو سار به لوصل الى ما يبتغي سريعًا، ألا وهو صلة آل محمد وشيعتهم، أي الإحسان إلى ذريتهم والإحسان إلى شيعة آل محمد، ومنه نعرف أنّ الإحسان إلى شيعتهم يوازي الإحسان إلى ذريتهم في قضاء الحوائج الدنيوية الخطيرة والمهمة والمتعسرة.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٨٢، ح٢٠.

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٨٣، ح٢١.

وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**سمعته يقول: إنّ الرحم معلقة بالعرش تقول: اللهم صِلْ من وصلني، واقطع من قطعني، وهي رحم آل محمد عليهم السلام، وهو قوله:** ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[1] **وكل ذي رحم**»[2].

وقد وردت في كتاب بحار الأنوار، باب مدح الذرية الطيبة وثواب صلتهم، مجموعة من الروايات سأنتقي بعضها التي تتضمن إشارات مهمة عن دور الإحسان إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله.

الرواية الأولى: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، فتغشاهم ظلمة، فيضجون إلى ربهم، ويقولون: يا ربنا اكشف عنا هذه الظلمة، قال: فيقبل قومٌ، يمشي النور بين أيديهم، قد أضاء أرض القيامة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء أنبياء الله؟ فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بأنبياء، فيقول أهل الجمع: فهؤلاء ملائكة؟ فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بملائكة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء شهداء؟ فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بشهداء، فيقول أهل الجمع: من هم؟ فيجيئهم النداء: يا أهل الجمع سلوهم من أنتم، فيقول أهل الجمع: من أنتم؟ فيقولون: نحن العلويون، نحن ذرية محمد رسول الله، نحن أولاد علي ولي الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنون، فيجيئهم النداء من عند الله عزّ وجلّ: اشفعوا في محبيكم، فيشفعون، فيُشفّعون**»[3].

يستعرض الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، عندما يجتمع الناس كلهم في المحشر في ظلمة شديدة، فيضجون إلى الله تعالى جميعًا بأن يكشف عنهم هذه الظلمة، وإذا بأشخاص يمشون يكشف نورهم ذلك الظلام الدامس، وهنا يسأل الناس عن هوية هؤلاء الاشخاص: أهؤلاء أنبياء أم ملائكة أم شهداء؟ ويأتيهم الجواب من الله تعالى في كل مرة بالنفي، فيسألونه من هم؟ فيأتيهم الجواب من ساحة القدس الإلهي: أسألوهم بأنفسكم. فيسألونهم، فيعرفونهم بأنفسهم بخمسة عناوين هي: نحن العلويون، نحن ذرية محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، نحن أولاد علي ولي الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن المطمئنون الآمنون، كل هذه العناوين

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢١

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٨٣، ح٢٢.

(٣) بحار الأنوار ٩٣: ٢١٧ ح١.

الخمسة تنطبق على آل محمد عليهم السلام، عرّفوا أنفسهم بعنوان لكل صنف من أصناف الناس كانوا يعرفونهم به في الدنيا.

الرواية الثانية : عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**النظر إلى ذريتنا عبادة، فقيل له: يا ابن رسول الله النظر إلى الأئمة منكم عبادة، أم النظر إلى جميع ذرية النبي؟ فقال: بل النظر إلى جميع ذرية النبي عبادة**»[1]. يبيّن الإمام الرضا عليه السلام في تلك الأجواء المشحونة بالتمويه على الناس من قبل بني العباس بأنهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، أنّ النظر إلى ذرية آل محمد عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، ومع كل هذا الوضوح ينطلق السؤال من المستمعين، وكأن الاستغراب كان هو الدافع وراء هذا السؤال: هل النظر إلى خصوص الأئمة المعصومين هو عبادة، أو النظر إلى جميع ذرية النبي عبادة؟ وطبعًا عندما يقول ذرية النبي فالمقصود بهم هم ذرية علي عليه السلام من فاطمة عليها السلام، ولا يشمل أولاده من غيرها، فضلًا عن عدم شموله باقي بني هاشم، وهنا يأتي التأكيد من الإمام عليه السلام أنّ النظر إلى جميع ذرية النبي عبادة.

وإذا كان مجرد النظر إليهم عبادة، فلا شكَّ أنّ احترامهم وإكرامهم والإحسان إليهم أشد عبادة. وأين هذا الكلام من استباحة المسلمين لدمائهم وأموالهم ومطاردتهم وسجنهم ونفيهم وتجويعهم وإذلالهم وتشريدهم وإهانتهم وظلمهم يتقربون بذلك إلى الله سبحانه وتعالى بهذه الأفعال، وكأنهم من كفار ملة أُخرى أمرهم الله تعالى أن يفعلوا بهم ذلك؟.

الرواية الثالثة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أنا سيد الأنبياء والمرسلين، وأفضل من الملائكة المقربين، وأوصيائي سادة أوصياء النبيين والمرسلين، وذريتي أفضل ذريات النبيين والمرسلين**»[2].

يبيّن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الحديث الشريف للمسلمين أُمورا ثلاثة يرتبط بعضها ببعض وهي:

أولًا: أنه سيد الأنبياء والمرسلين جميعًا بلا استثناء، فهو أفضل من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وباقي الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. وأنه صلى الله عليه وآله أفضل من جبرئيل ومكائيل وإسرافيل وعزرائيل والملائكة أجمعين.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢١٨ ح٢.
(٢) بحار الأنوار ٩٣: ٢١٨ ح٥.

ثانيًا: أنّ أوصياءه الأئمة الاثني عشر المعصومين عليهم السلام هم أفضل أوصياء جميع الأنبياء والمرسلين.

ثالثًا: أنّ ذريته صلى الله عليه وآله هم أفضل من جميع ذراري الأنبياء والمرسلين.

وإذا كانت كل هذه التأكيدات قد وردت من رسول الله صلى الله عليه وآله، نعرف حجم الانحراف الذي عاشته الأُمة عن أوصيائه وذريته إلى اليوم، خلال كل هذه القرون المتمادية التي أورثت بغضهم وعداوتهم وظلمهم وقتلهم.

الرواية الرابعة: و فيها مضامين عالية ومهمة، تقول: **ذكر العلامة (قدس سره) في كتابه المسمى بمنهاج اليقين بسنده عمن رواه قال: وقعت في بعض السنين ملحمة بقم، وكان في هذه الحرب جماعة من العلويين، وكان هناك السادة الهاشميون أيضًا، فتفرق أهلها في البلاد - أي انتصر العدو في هذه المعرِكة- وكان فيها امرأةٌ علوية صالحة كثيرة الصلاة والصيام، وكان زوجها من أبناء عمها، أُصيب في تلك الملحمة، وكان لها أربع بناتٍ صغار من ابن عمها ذلك، فخرجت مع بناتها من قم لما خرجت الناس منها، فلم تزل ترمي بها الغربة من بلدٍ إلى بلد، حتى أتت بلخ، وكان قدومها إليها إبان الشتاء -** بلخ منطقة شديدة البرد - **فقدمت بلخ في يوم شديد البرد، ذي غيم وثلج، فحين قدمت بلخ بقيت متحيرة لا تدري أين تذهب، ولا تعَرف موضعًا تأوي إليّه يحفظها وبناتها من البرد والثلج، فقيل لها: إن بالبلد رجلاً من أكابرها، معروفًا بالإيمان والصلاح، يأوي إليه الغرباء وأهل المسكنة** - رجل ميسور الحال، وجيه وكبير في قومه، بيته مفتوح لأصحاب الحاجات- **فقصدت إليه العلوية وحولها بناتها، فلقيته جالسًا على باب داره، وحوله جلساؤه وغلمانه، فسلمت عليه وقالت: أيها الملك إني امرأة علوية ومعي بناتٌ علويات ونحن غرباء، وقدمنا إلى هذا البلد في هذا الوقت من البرد الشديد، وليس لنا من نأوي إليه، ولا لنا في هذه المدينة من نعرفه فنلجأ إليه، والثلج والبرد قد أضرنا، دُلِلنا إليك، فقصدناك لتأوينا، فقال: ومن يعرف أنك علوية؟ ائتيني على ذلك بشهود، فلما سمعت كلامه خرجت من عنده حزينةً تبكي ودموعها تنتثر، واقفة في الطريق متحيرة لا تدري أين تذهب، فمر بها سوقيٌ، فقال: ما لك أيتها المرأة واقفة والثلج يقع عليك وعلى هذه الأطفال معك؟ فقالت: إني امرأة غريبة لا أعرف موضعًا آوي إليه، فقال لها: امضي خلفي حتى أدُلكِ على الخان الذي يأوي إليه الغرباء، فمضت خلفه.**

قال الراوي: وكان بمجلس ذاك الملك رجلٌ مجوسي، فلما رأى العلوية، وقد ردّها

الملك وتعلل عليها بطلب الشهود وقعت لها الرحمة في قلبه، فقام في طلبها مسرعًا، فلحقها عن قريب فقال: إلى أين تذهبين أيتها العلوية؟ قالت: خلف رجل يدُلني على الخان لآوي إليه، فقال لها المجوسي: لا، بل ارجعي معي إلى منزلي، فأوي إليه فإنه خيرٌ لك، قالت: نعم، فرجعت معه إلى منزله، فأدخلها منزله، وأفرد لها بيتًا من خيار بيوته، وأفرشه لها بأحسن الفرش، وأسكنها فيه، وجاء بالنار والحطب وأشعل لها التنور، وأعد لها جميع ما تحتاج إليه من المأكل والمشرب، وحدث امرأته وبناته بقصتها مع الملك، وفرح أهله بها، وجاءت إليها المرأة - زوجة المجوسي- مع بناتها وجواريها، ولم تزل تخدمها وبناتها وتؤنسها حتى ذهب عنهن البرد والتعب والجوع، فلما دخل وقت الصلاة، قالت للمرأة: ألا نقوم إلى قضاء الفرض؟ قالت لها امرأة المجوسي: وما الفرض؟ إنا أُناسٌ لسنا على مذهبكم، إنا على دين المجوس، ولكن زوجي لما سمع خطابك مع الملك، وقولك إنك امرأة علوية، وقعت محبتك في قلبه لأجل اسم جدك، وردّ الملك لك، فقالت العلوية: اللهم بحق جدي وحرمته عند الله اسأله أن يُوفق زوجك لدين جدي، ثم قامت العلوية إلى الصلاة والدعاء طول ليلها لأن يهدي الله ذلك المجوسي لدين الإسلام.

قال الراوي: فلما أخذ المجوسي مضجعه ونام مع أهله تلك الليلة، رأى في منامه أنّ القيامة قد قامت، والناس في المحشر، وقد كظهم العطش، وأجهدهم الحر، والمجوسي في أعظم ما يكون من ذلك، فطلب الماء، فقال له قائل: لا يوجد الماء إلا عند النبي محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وسلم وأهل بيته فهم يسقون أولياءهم من حوض الكوثر، فقال المجوسي: لأقصدنهم فلعلهم يسقونني جزاءً لما فعلت مع ابنتهم وإيوائي إياها، فلما قصدهم وجدهم يسقون من يرد إليهم من أوليائهم ويردّون من ليس من أوليائهم، وعلي واقفٌ على شفير الحوض وبيده الكأس، والنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وسلم جالسٌ وحوله الحسن والحسين وأبناؤهم، فجاء المجوسي حتى وقف عليهم وطلب الماء وهو لما به من العطش، فقال له عليٌ عَلَيْهِالسَّلَامُ: إنك لست على ديننا فنسقيك، فقال له النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: يا علي اسقه، فقال: يا رسول الله إنه على الدين المجوسي، فقال: يا علي إنّ له عليك يدًا بيّنة، قد آوى ابنتك فلانة وبناتها، فكنّهم عن البرد، وأطعمهم من الجوع، وها هي الآن في منزله مكرمة، فقال له عليٌ عَلَيْهِالسَّلَامُ: ادنُ مني أدنُ مني، فدنوت منه فناولني الكأس بيده، فشربت شربةً وجدت بردها على قلبي، ولم أر شيئًا ألذ ولا أطيب منها.

قال الراوي: وانتبه المجوسي من نومته وهو يجد بردها على قلبه ورطوبتها على شفتيه ولحيته، فانتبه مرتاعًا، وجلس فزعًا، فقالت له زوجته: ما شأنك؟ فحدّثها بما رآه من أوله إلى آخره، وأراها رطوبة الماء على شفته ولحيته، فقالت له: يا هذا قد ساق إليك خيرًا بما فعلت مع هذه المرأة والأطفال العلويين، فقال: نعم، والله لا أطلب أثرًا بعد عين.

قال الراوي: وقام الرجل من ساعته وأسرج الشمع، وخرج هو وزوجته حتى دخل البيت الذي تسكنه العلوية، وحدثها بما رآه، فقامت وسجدت لله شكرًا، وقالت: والله إني لم أزل طول ليلتي أطلب إلى الله هدايتك للإسلام، والحمد لله على استجابة دعائي فيك، فقال لها: اعرضي عليّ الإسلام، فعرضته عليه، فأسلم وحسن إسلامه، وأسلمت زوجته وجميع بناته وجواريه وغلمانه، وأحضرهم مع العلوية حتى أسلموا جميعهم.

قال الراوي: وأما ما كان من الملك، فإنه في تلك الليلة لما أوى إلى فراشه، رأى في منامه ما رآه المجوسي، وأنه قد أقبل إلى الكوثر، فقال: يا أمير المؤمنين اسقني فإني وليٌّ من أوليائك، فقال له عليٌّ عليه السلام: اطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله، فإني لا أسقي أحدًا إلا بأمره، فأقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: يا رسول الله، مُر لي بشربةٍ من الماء، فإني وليٌّ من أوليائك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ائتني على ذلك بشهود، فقال: يا رسول الله وكيف تطلب مني الشهود دون غيري من أوليائكم؟ فقال صلى الله عليه وآله: وكيف طلبت الشهود من ابنتنا العلوية لما أتتك وبناتها تطلب منك أن تأويها في منزلك؟ ثم انتبه وهو حيران القلب، شديد الظمأ، فوقع في الحسرة والندامة على ما فرط منه في حق العلوية، وتأسف على ردّها، فبقي ساهرًا بقية ليلته، حتى أصبح وركب وقت الصبح يطلب العلوية ويسأل عنها، فلم يزل يسأل ولم يجد من يخبره عنها، حتى وقع على السوقي الذي أراد أن يدلها على الخان، فأدله أنّ الرجل المجوسي الذي كان معه في مجلسه أخذها إلى بيته، فعجب من ذلك، ثم إنه قصد إلى منزل المجوسي وطرق الباب، فقيل: من بالباب؟ فقيل له: الملك واقفٌ ببابك يطلبك، فعجب الرجل من مجيء الملك إلى منزله إذ لم يكن من عادته، فخرج إليه مسرعًا، فلما رآه الملك وجد عليه الإسلام ونوره، فقال الرجل للملك: ما سبب مجيئك إلى منزلي ولم يكن لك ذلك عادة؟ فقال الملك: من أجل هذه المرأة العلوية، وقد قيل لي إنها في منزلك، وقد جئت في طلبها، ولكن أخبرني عن حال هذه الحلية عليك، فإني أراك قد صرت مسلمًا؟ فقال: نعم والحمد لله، وقد منّ عليّ ببركة هذه العلوية ودخولها منزلي بالإسلام، فصرت أنا وأهلي وبناتي وجميع أهل بيتي على دين محمد وأهل بيته،

فقال له: وما السبب في إسلامك؟ فحدثه بحديثه ودعاء العلوية له ورؤياه وقص القصة بتمامها، ثم قال: وأنت أيها الملك ما سبب حرصك على التفتيش عنها بعد إعراضك أولاً عنها وطردك إياها؟ فحدثه الملك بما رآه وما وقع له مع النبي ﷺ، فحمد الله تعالى ذلك الرجل على توفيق الله تعالى إياه لذلك الأمر الذي نال به الشرف والإسلام وزادت بصيرته، ثم دخل الرجل على العلوية فأخبرها بحال الملك، فبكت وخرت ساجدة لله شكرًا على ما عرفه من حقها، فاستأذنها في إدخاله عليها، فأذنت له فدخل عليها واعتذر إليها وحدثها بما جرى له مع جدها (صلوات الله عليه)، وسألها الانتقال إلى منزله، فأبت وقالت: هيهات لا والله، ولو أنّ الذي أنا في منزله كره مقامي فيه لما انتقلت إليك، وعلم صاحب المنزل بذلك، فقال: لا والله لا تبرحي منزلي وإني قد وهبتك هذا المنزل، وما أعددت فيه من الأهبة هدية مني إليك، وأنا وأهلي وبناتي كلنا في خدمتكِ، ونرى ذلك قليلاً في جنب ما أنعم الله تعالى به علينا بقدومك»[1].

هذه رواية وقصة من القصص التي تُشير إلى الأجر العظيم في خدمة ذرية رسول الله ﷺ.

الرواية الخامسة: روى ابن الجوزي في كتابه عن جده أبي الفرج بإسناده لأبي الخصيب قال: **«كنت كاتبًا للسيدة أم المتوكل العباسي، فبينما أنا في الديوان وإذا بخادم صغير يخرج من عندها - الرجل لا يدخل الحجرة، ولكن يجوز ذلك للخادم الصغير غير البالغ، لتبادل الرسائل أو نقل التوجيهات وما شابه - ومعه كيس فيه ألف دينار - الدينار الواحد يعادل مثقال ذهب- وقال: تقول لك السيدة: فرّق هذا على أهل الاستحقاق فهو من أطيب مالي، واكتب أسماء الذين تفرّقه عليهم حتى إذا جاءني من هذا الوجه شيءٌ صرفته إليهم - هذه أموال نقية بحسب تعبيرها، اذهب وقسمها بين الفقراءِ ممن تعرفهم وأعطني قائمة بأسماء هؤلاء الفقراء وكم أعطيتهم، حتى إذا أتتني موارد أُخرى أصرفها لهم، وقد يكون هذا حتى تتأكد، وترى أين ذهبت هذه الأموال، وعلى من أُنفقت - قال: فمضيت إلى منزلي وجمعت أصحابي وسألتهم عن المستحقين، فسمّوا لي أشخاصًا، ففرّقت عليهم ثلاثمائة دينار، وبقي الباقي بين يدي إلى نصف الليل، وإذا أنا بطارق يطرق الباب فسألته من أنت؟ فقال: أنا فلان العلوي، وكان جاري فأذنت له، فدخل وقلت له: ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ قال: طرقني طارق من ولد رسول الله ﷺ وسلم ولم يكن عندي ما أُطعمه - أتاني ضيف من ذرية رسول الله يطلب العون وهو جائع، ولا**

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٢٥ ح٢٦.

يوجد في بيتي مؤونة لكي أعطيه، وأنت جاري فساعدني بشيء إن استطعت - فأعطيته دينارًا فأخذه، وشكر لي وانصرف، فخرجت زوجتي وهي تبكي وتقول: أما تستحي؟ يقصدك مثل هذا الرجل ابن رسول الله فتعطيه دينارًا؟ وقد عرفت استحقاقه - أنت تعلم أنه سيد علوي، وهو فقير لا يوجد عنده لقمة يطعم بها ضيفه، وعندك سبعمائة دينار في الكيس، وأنت مخول أن تصرفها الى الفقراء، ولكنك أعطيته دينارًا واحدًا، ألا تستحي؟ - فأعطه الجميع، فوقع كلامها في قلبي - استحسنت كلامها، فهو سيد ابن رسول الله، وهو محتاج فمن يستحق السبعمائة أكثر منه؟ - فقمت خلفه وناولته الكيس فأخذه وانصرف، فلما عدت إلى الدار ندمت وقلت: الساعة يصل الخبر إلى المتوكل وهو يمقت العلويين فيقتلني، فقالت لي زوجتي: لا تخف وتوكل على الله وعلى جدهم، فبينا نحن كذلك إذ طرق الباب والمشاعيل بأيدي الخدم وهم يقولون أجب السيدة، فقمت مرعوبًا وكلما مشيت قليلًا تواترت الرسل، فوقفت عند ستر السيدة فسمعت قائلًا يقول ــ وهي أم المتوكل ــ : يا أحمد جزاك الله خيرًا، وجزى زوجتك، كنت الساعة نائمة فجاءني رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وقال: جزاك الله خيرًا، وجزى زوجة ابن الخصيب خيرًا، فما معنى هذا؟ فحدثتها الحديث وهي تبكي، فأخرجت دنانير وكسوة وقالت: هذا للعلوي، وهذا لزوجتك، وهذا لك، وكان ذلك يساوي مائة ألف درهم، فأخذت المال وجعلت طريقي على باب العلوي، وطرقت الباب وقال من داخل المنزل وقبل أن يفتح الباب: هات ما عندك يا أحمد وخرج وهو يبكي، فسألته عن بكائه فقال: لما دخلت منزلي قالت لي زوجتي: ما هذا الذي معك؟ فعرفتها، فقالت لي: قم بنا نصلي وندعو للسيدة، وأحمد، وزوجته، فصلينا ودعونا ثم نمت، فرأيت رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في المنام وهو يقول: «قد شكرتهم على ما فعلوا معك، الساعة يأتونك بشيء فاقبله منهم»(١).

انظروا إلى رعاية رسول الله لذريته، ورعايته لمن يسدي المعروف لذراريه.

الرواية السادسة: **«نقل ابن الجوزي في كتاب تذكرة الخواص أنّ عبد الله بن المبارك كان يحج سنة ويغزو سنة، وداوم على ذلك خمسين سنة، فخرج في بعض السنين لقصد الحج وأخذ معه خمسمائة دينار وذهب إلى موقف الجمال في الكوفة ليشتري جمالًا للحج، فرأى امرأة علوية على بعض المزابل تنتف ريش بطة ميتة، قال: فتقدمت إليها وقلت: لماذا تفعلين هذا؟ فقالت: يا عبد الله لا تسأل عما لا يعنيك، قال: فوقع في خاطري**

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٣١ ح٢٩.

من كلامها شيء فألححت عليها، قالت: يا عبد الله قد ألجأتني إلى كشف السر إليك، أنا امرأة علوية ولي أربعة يتامى مات أبوهن من قريب، وهذا اليوم الرابع ولم نأكل شيئًا، وقد حلّت لنا الميتة فأخذت هذه البطة أصلحها وأحملها إلى بناتي فيأكلنها، قال: فقلت في نفسي: ويحك يا ابن المبارك أين أنت عن هذه؟ فقلت: افتحي حجرك، ففتحت فصببت الدنانير في طرف إزارها وهي مطرقة لا تلتفت إليّ، قال: ومضيت إلى المنزل ونزع الله من قلبي شهوة الحج في ذلك العام، ثم تجهزت إلى بلادي وأقمت حتى حج الناس وعادوا، فخرجت أتلقى جيراني وأصحابي، فجعل كل من أقول له قَبل الله حجك وشكر سعيك يقول: وأنت شكر الله سعيك وقَبل حجك، أما قد اجتمعنا بك في مكان كذا وكذا، وأكثر عليّ الناس في القول، فبتُ متفكرًا في ذلك فرأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: يا عبد الله لا تعجب، فإنك أغثت ملهوفة من ولدي، فسألت الله تعالى أن يخلق على صورتك ملكًا يحج عنك كل عام إلى يوم القيامة، فإن شئت تحج وإن شئت لا تحج»[1].

الرواية السابعة: ونقل أيضًا في كتابه عن أبي الدنيا: «أنّ رجلًا قد رأى رسول الله ﷺ في منامه وهو يقول: امضِ إلى فلان المجوسي وقل له: قد أجيبت الدعوة، فامتنع الرجل من أداء الرسالة، لئلا يظَن المجوسي أنه يتعرض له، وكان الرجل المجوسي في دنيا وسيعة، فرأى الرجل رسول الله ثانيًا وثالثًا، فذهب إلى المجوسي وقال له في خلوة من الناس: أنا رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: قد أجيبت الدعوة، فقال له المجوسي: أتعرفني؟ قال: نعم أعرفك، فقال: إني أُنكر دين الإسلام ونبوة محمد، قال: وهو الذي أرسلني إليك مرة، ومرة، ومرة، فقال المجوسي: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ودعا أهله، وأصحابه فقال لهم: كنت على ضلال وقد رجعت إلى الحق، فأسلموا، فمن أسلم فما في يده فهو له، ومن أبى فلينزع عما لي عنده، فأسلم القوم وأهله، وكان له ابنة مزوجة من ابنه ففرق بينهما، ثم قال المجوسي للرسول: أتدري ما الدعوة؟ فقلت له: لا والله وأنا أريد أن أسألك الساعة عنها، فقال: لما زوجت ابنتي صنعت طعامًا ودعوت الناس فأجابوا، وكان إلى جانبنا قوم أشراف من ذرية رسول الله ﷺ فقراء لا مال لهم، فأمرت غلماني أن يبسطوا لي حصيرًا في وسط الدار، فسمعت صبيةً تقول لأمها: يا أماه لقد آذانا هذا المجوسي برائحة طعامه، فأرسلت إليهن بطعام كثير وكسوة ودنانير للجميع، فلما نظرن إلى ذلك قالت الصبية للباقيات: والله ما نأكل

(1) بحار الأنوار ٩٣: ٢٣٤ ح٣٤.

حتى ندعو له، فرفعن أيديهن وقلن: حشرك الله مع جدنا رسول الله ﷺ وأمّنَ بعضهن، فتلك الدعوة التي أجيبت»[1]. بعث له رسول الله ﷺ خبرًا يقول: يا مجوسي ببركة هؤلاء العلويات قدّر الله لك أن تكون معنا في الجنة، فلذلك أسلم هو وأهل بيته ومن في الدار.

فالمعروف لذرية رسول الله ﷺ له مثل هذه المنزلة العظيمة.

نسأل الله أن يوفقنا دائمًا الى أن نكون ممن يسدي المعروف لمن هو أهله، ولمن ليس من أهله، لنكون نحن من أهله، وكذلك الرعاية الخاصة والاحترام والتوقير للسادة من ذرية رسول الله ﷺ.

أدوات المعروف

إنّ مظاهر المعروف كثيرة، ولكن أدواته تنحصر في ثلاث، هي: القلب واللسان واليد. وقد أشارت إلى هذا المعنى الرواية الشريفة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**والمعروف واجب على كل أحد بقلبه ولسانه ويده**»[2]، ويستفاد منها أنّ المعروف واجب عيني على كل إنسان، أي لا يسقط عنه إن عمل به غيره، ولا يجوز له الاكتفاء بما يقوم به الآخرون من معروف، بل لا بُـدَّ من أن يأتي به بنفسه بجميع مراتبه التي ذكرتها الرواية الكريمة، ونتناولها هنا بشيء من البيان:

المعروف بالقلب: وهو أن يضمر الإنسان ويكنّ في قلبه وفي نفسه الخير للآخرين، لا أن يضمر لهم الحقد والغل والاعتداء، وهذه الصفات ترتبط بالقلب، أي يستشعر الإنسان في قلبه المودة والمحبة، وأن يفكر وينوي الإحسان والمعروف للآخرين.

المعروف باللسان: وهي الكلمة الطيبة التي يتفوه بها الإنسان، فيَسعَد الآخرون بسماعها، وكما جاء في الأثر: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[3]، فالإنسان يستعمل المفردات اللغوية لإفهام الآخرين ما يقصده، وبإمكانه أن يعبر عن مقصوده بألفاظ مختلفة وتعابير متفاوتة، بعضها يسر السامع، وبعضها لا يسره بل يسيء إليه، فإذا كان المهم إيصال الأفكار، فبالإمكان أن نوصل هذه الأفكار من دون أن نكسر أحدًا، وإن كان المقصود هو التشفي والثأر والكسر والتكبر على الآخرين والاستعلاء عليهم فهذا بحث آخر،

---

(١) بحار الأنوار٩٣: ٢٣٥ ح٣٤.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤١ ح١٣.
(٣) وسائل الشيعة ٥: ٢٣٤ ح٣.

فالنصوص، واختيار المفردات، ونبرة الصوت، وتقاسيم الوجه، كلها مؤثرة بتوصيل الفكرة مهما كانت قاسية، ولكن بطريقة هادئة تشعر الآخر- وإن كنت ناقدًا له - أنك لا تقصد كسره، فهناك فرق بين أن تكون ناقدا لفكرة، أو منهج، أو قضية، وبين أن تكون حاقدا على شخص والعياذ بالله.

المعروف باليد: والمراد به العمل الجيد الذي ينجزه الإنسان للآخرين، وعادة ما تكون اليد هي الوسيلة لإيجاده في الخارج.، فاليد يجب أن تكون يدًا تعمل المعروف، وتصنع المعروف، وتتعامل بالمعروف، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو معروف.

إذن هذه ثلاث مراتب للمعروف هي: (القلب، واللسان، واليد)، فمن لم يقدر على اصطناع المعروف بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ففي الأقل يدعو إلى الخير، ويتمنى الخير للناس.

شروط المعروف

يمتاز المعروف عن غيره بشروط ثلاثة هي: (التصغير والتسهيل والتسريع)، وإلا لم يكن معروفًا، فمع تهويل العمل وتعسيره وتأخيره يكون نقيضًا للمعروف، وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في الرواية الشريفة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**رأيت المعروف لا يتم إلا بثلاث خصال: تصغيره وتيسيره، وتعجيله، فإذا صغرته فقد عظّمته عند من تصنع إليه، وإذا يسرته فقد تممته، وإذا عجّلته فقد هنأته**»[1].

فشرط قبول المعروف أن تقلل من قيمته، وإذا قللت من قيمته أمام الآخرين، فإنك تعظم من قيمته بين يدي الله سبحانه وتعالى، ثم تيسيره وتسهيله للناس، ويجب عليك تجنب وضع الصعوبات والمشاكل أمام إنجازه، لكي يستطيع الآخرون الاستفادة منه، فإنّ وضع العراقيل - ولا سيَّما الأمور الروتينية المملة - يجعل الكثير من الناس يعرضون عن الانتفاع من هذا المعروف. كما يجب تعجيل المعروف والابتعاد عن كل ما من شأنه الإبطاء في تحصيله والاستفادة منه، فيا من بيده مقدرات الناس، ويا من بيده مصالح الناس، انظروا إلى أهمية أوقات الناس، ولا تؤخروا إنجاز أعمالهم بذرائع واهية، وانظروا على عظيم هموم الناس، وكيف تحلون مشاكلهم وتنجزون أعمالهم بأسرع ما يمكن، ولا تؤجلوا عمل اليوم إلى الغد.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦١ ح١.

إذن هناك ثلاثة شروط: (تصغيره، وتيسيره، وتعجيله)، فإذا صغرته فقد عظّمته عند من تصنع إليه، وإذا يسرته فقد تممته، فإن كماله بيسره، وإذا عجلته فقد هنأته.

في رواية أخرى عن الصادق عليه السلام أنه قال لسفيان الثوري: «**احفظ عني ثلاثًا: إذا صنعت معروفًا فعجله، فإن تهنئته تعجيله، فإذا فعلته فاستره، فإنه إن ظهر من غيرك كان أعظم لعذرك، فإذا نويته فاقصد به وجه الله دون رياء الناس، فإنك إن قصدت به وجه الله كان أحسن لذكره في الناس**»(١).

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صنع إليك معروفٌ فانشره**»(٢)، هذه الطريقة تؤدي إلى إشاعة المعروف، إذا فعلت المعروف فلا تتحدث به، ويا من صُنع إليك المعروف تكلم، واشرح، وعرِّف بأهل المعروف، بمن صنع لك المعروف، فهذه توجد حالة التوازن الصحيح بين هذا وذاك.

آثار المعروف

للمعروف آثار كثيرة، دنيوية وأخروية، وهي نتائج قهرية تترتب على عمل المعروف وتقديم الإحسان للآخرين، وقد تطرق القرآن الكريم والأحاديث المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، إلى بيان الكثير من هذه الآثار التي قد يهتدي إليها الإنسان الفطن بما يشاهده من توفيقات لأصحاب المعروف، ونتناول في ما يلي الإشارة إلى هذه الآثار التي ذُكرت في النصوص الدينية:

الأثر الأول: الطمأنينة الأخروية، أي أنّ الذي يفعل المعروف يكون مطمئنًا في الآخرة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)، فالله سبحانه وتعالى يؤجره على هذا العمل، ولن يشعر بالخوف والحزن يوم القيامة، ويكون مطمئنًا ومستقرًا في يوم الفزع الأكبر يوم القيامة.

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦١ ح٢.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٦٢ ح٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

الأثر الثاني: تمام النعمة، أي أنّ الله ﷻ يتم النعمة على المحسنين، كما أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، فالذي يعطيه الله تعالى الكتاب ويعطيه تفصيل كل شيء هو من أحسن، أي يتم الله تعالى نعمته على من يحسن بأن يعطيه الحجة التامة والعلم التفصيلي بجميع الأمور.

الأثر الثالث: استجابة الدعاء، أي أنّ الله تعالى يستجيب دعوات أهل المعروف، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، كان طلبهم من الله: اغفر لنا ذنوبنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، والله سبحانه وتعالى استجاب لهم، وآتاهم ثواب الدنيا، وهو ما أرادوه من النصر في هذه الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين؛ لأنهم كانوا محسنين استجاب الله دعاءهم، ونصرهم في الدنيا، ورزقهم الجنة في الآخرة، فثواب الدنيا وأجر الآخرة للمحسنين.

الأثر الرابع: التسديد الإلهي، الله يسدد المحسن، فقد جاء في سورة النحل الآية ١٢٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، الله مع المحسن يعينه، ويسدده، وينصره، ويحقق له ما يريد. وفي سورة العنكبوت الآية ٦٩: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، هذه المعية تؤدي إلى هداية السبل، فالله يفتح لك الطريق، ويعينك، ويسددك، فهو معك إذا كنت محسناً.

الأثر الخامس: البشارة، الله يبشر المحسنين، في سورة الأحقاف الآية ١٢: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فالقرآن للظالم إنذار، وللمحسن بشارة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٧ ـ ١٤٨.

الأثر السادس: تكفير الذنوب، فالإحسان يكفّر ذنوب الإنسان، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[1]، فالإنسان بحسناته يكفّر عن سيئاته، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، أي أنّ من تحول من حالة الظلم والإساءة إلى حالة الإحسان والمعروف، فإنّ الله سبحانه وتعالى يغفر ويُكفّر ويتجاوز ويصفح عن المحسنين.

الأثر السابع: المودّة، وهي العلاقة الحميمة، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3]، أي افعل المعروف، وقم بالأمور بالطريقة الحسنى، فإذا الذي بينك وبينه عداوة بمنزلة الولي الحميم، فقد يتحول العدو إلى محب وقريب، وهذه المحبة ناتجة من فعل المعروف، وقد أشارت إلى هذه الحقيقة الرواية الشريفة: «**من بذل معروفًا مالت إليه القلوب**»[4]، فبذل المعروف يؤدي إلى جلب محبة الناس له، فتتعزز المحبة والمودّة من خلال فعل المعروف.

الأثران الثامن والتاسع: سلوك الطريق المطمئن، الطريق الموثوق به، والعاقبة الحسنة لفاعل المعروف، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأمور﴾[5]، فإذا كنت محسنًا فأنت متمسك بالعروة الوثقى، والطريق الموثوق به، والمسار المطمئن.

يقال إنّ الإمام محسن الحكيم قدس سره حينما أنهى موسوعته الفقهية (مستمسك العروة الوثقى) - وهي دورة استدلالية فقهية كاملة، وتعتبر من أهم ما هو موجود في تراثنا الفقهي - أراد أن يضع اسمًا لهذه الموسوعة الفقهية، فتفاءل بالقرآن الكريم وظهرت هذه الآية الشريفة: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٢) سورة النمل، الآية: ١١.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٧ ح٢٨.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

فسمى الموسوعة (مستمسك العروة الوثقى)، وقد قال لي أحد المراجع: إنّ الموسوعة الفقهية للإمام الحكيم لا يستغني عنها فقيه. وكان منهج الإمام الحكيم فيها يتلخص بالإيجاز والعمق والدقة، فخير الكلام ما قلّ ودلّ، فكانت عبارتها مقتضبة ذات مداليل واسعة، وكل كلمة لها مدلولها الخاص، ولا يوجد فيها كلام حشو، ولا يوجد فيها كلام تفصيلي، ولا شروح، وهي دورة استدلالية فقهية كاملة، ولذلك إذا أراد أحد أن يكتب شرحًا لهذه المجلدات الأربعة عشر، فسيكون الشرح عشرات المجلدات.

إن الطريق المطمئن، والمسار الموثوق به، يتحقق من خلال الإحسان، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، وكذلك تحصل من خلال الإحسان العاقبة الحسنة، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأمور﴾.

الأثر العاشر: الرحمة، فمن آثار المعروف الرحمة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فالرحمة الإلهية قريبة من المحسن، وهي أثر من آثار الإحسان.

الأثران الحادي عشر والثاني عشر: الفلاح، والهداية، فالفلاح والنجاح يتحققان من خلال الإحسان، وكذلك تتحقق الهداية من خلال الإحسان والمعروف، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، فالمحسن على هداية، والمحسنون هم المفلحون، إذن فالفلاح والهداية إنما يحصلان من خلال الإحسان والمعروف.

الأثر الثالث عشر: رفع المؤاخذة، من آثار الإحسان رفع العقوبة عن المحسن، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[3]، فالله

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة لقمان، الآيات: ٢ ـ ٥.
(٣) سورة التوبة، الآية : ٩١.

ﷻ يرفع العقوبة عن المحسن، وما على المحسن من سبيل، أي من إثم، وملاحقة، ومتابعة، لأنه تبارك يرفع المؤاخذة عنه.

الأثر الرابع عشر: السعادة في الدنيا والآخرة: يحصل الإنسان على سعادة الدارين بإحسانه ومعروفه، فيعيش في الدنيا سعيدًا، وفي الآخرة سعيدًا، وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[1]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، إذن يعطي الله ﷻ الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، إضافة إلى إحسانه إليهم، كما يعطيهم السعادة في الدار الآخرة.

الأثر الخامس عشر: العفة، وقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[3]، فمن يكون مثواه وفعله حسنًا، تصبح عنده حصانة وعفة، فلا يرتكب الرذيلة، فالعفة إذن أثر آخر من آثار المعروف. ويحظى من يفعل المعروف أيضًا بالقبول ومحبة الناس، ومحبة الله ﷻ، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[5]، إذن يحب الله ﷻ المحسن، وكذلك يدل عليه ما مرّ في الرواية السابقة: «**من بذل معروفه مالت إليه القلوب**». فالإحسان يورث المحبة في قلوب الناس.

الأثر السادس عشر: زوال العذاب، فمن آثار الإحسان ارتفاع العذاب الأخروي عن صاحبه، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً

(١) سورة النحل، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، إذن فالعذاب لا يرتفع عمن لم يكن محسنًا،بل يرتفع عن المحسن، وينجو من عذاب الله ﷻ في الآخرة بفعل إحسانه في الدنيا.

الأثر السابع عشر: الأمان، فالمعروف يوجب الأمان والاستقرار، والمجتمع الذي يشيع فيه المعروف يعيش في حالة من الطمأنينة والسكينة والأمان، لاحظوا قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[2]، فتقرر الآية الكريمة أنّ نتيجة الإحسان والقيام بالحسنة وأداء المعروف، هي الأمان من الفزع والخوف الأكبر في يوم القيامة.

الأثر الثامن عشر: دفع ميتة السوء، فالمعروف يبعد ميتة السوء، إذ يموت البعض في أوضاع سيئة؛ كمن يأتيه ملك الموت عند قضاء الحاجة مثلًا، فيقع في حالة غير لائقة وغير مناسبة، أو يموت في ظروف أو حالات غير مناسبة عند وقوع حوادث معينة أو ظروف قهرية، كالحرق والغرق والدهس والسقوط من شاهق، ويتم تجاوز ميتة السوء من خلال فعل المعروف.

وقد ورد التأكيد على هذا المعنى في مجموعة من الروايات، منها:

ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: «**صنيع المعروف أو فعل المعروف يدفع ميتة السوء**»[3]، وبهذا الحديث المبارك يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قد وضع الحجر الأساس في بناء صرح هذا المفهوم الإسلامي، في اختيار الميتة اللائقة ودفع ميتة السوء.

وهناك أبعاد مهمة في رواية أمير المؤمنين عليه السلام لهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان بمقدوره أن ينشئ هذا المعنى بنفسه، ومن هذه الأبعاد فتح طريق الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله لئلا تندرس سنته صلى الله عليه وآله، ومنها أنها تمثل تحديا سياسيا صارخا للمنع الذي صدر بعد وفاته صلى الله عليه وآله بمنع الرواية عنه والعقوبة عليها، ومنها الحرص على الاستفادة

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٩.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٠،ح٧.

من هذا المفهوم ووصوله الى أكبر عدد من المسلمين عبر العصور، الذين يرون الحجية منحصرة في أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنها: ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء**»(١)، والمراد من مصرع السوء هو الوفاة التي تكون في ظروف سيئة، والتي فيها هوان وذلة، والله سبحانه وتعالى يدفعها عن الإنسان بفعله للمعروف.

الأثر التاسع عشر: برّ الرسول، وهو يحصل من خلال فعل المعروف، كما أشارت إليه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من أوصل إلى أخيه المؤمن معروفًا فقد أوصل إلى رسول الله** صلى الله عليه وآله»(٢)، فمن يفعل المعرف لأخيه المؤمن بدافع الإيمان، فهو في الحقيقة قد قدّم معروفًا لرسول الله صلى الله عليه وآله، ومنه نستنتج أنّ كل ما يأتي به المؤمن من إحسان، هو في الواقع إحسان مقدّم لرسول الله صلى الله عليه وآله، ومن الطبيعي أنّ ثواب هذا المعروف سيكون أعظم، لأنه إحسان مقدّم لشخص رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما الإحسان الذي يقدّمه إلى الآخرين من غير المؤمنين فثوابه محدود بحسبهم، وحينئذ سيكون الترغيب عظيمًا في الإقدام على عمل المعروف لأخيه المؤمن، إذا علم المؤمن أنّ ما يأتي به من معروف هو بمثابة تقديمه لرسول الله صلى الله عليه وآله.

الأثر العشرون: زيادة النعمة ودفع البلاء، وهذا يحصل من خلال فعل المعروف، وقد ورد ذلك في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**صاحب المعروف لا يعثر، وإن عثر وجد متكأً**»(٣)، لأنّ الله سبحانه وتعالى يدفع عنه البلاء، وإن عثر يسخر له الله من يعينه ويساعده في الخروج من الأزمة التي يقع فيها بفضل فعله المعروف، وهكذا يستطيع الإنسان التخلص من كثير من أنواع البلاء الذي قدّر له، بسبب فعله المعروف للآخرين.

وجاء في رواية أُخرى: «**صنائع المعروف تدر النعماء وتدفع البلاء**»(٤)، فمن أراد الزيادة في الخير بحيث يدر عليه درًا، فعليه بفعل المعروف، ومن أراد دفع البلاء عن نفسه، فعليه بفعل المعروف.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٤٠٧ ح١.
(٢) الكافي ٤: ٢٧ ح٨.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٦ ح٢٨.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٦ ح٢٨.

الأثران الحادي والعشرون والثاني والعشرون: زيادة العمر والسمعة الطيبة، وقد ورد هذا الأثر في ما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**كثرة اصطناع المعروف يزيد في العمر وينشر الذكر الحسن**»[1]، وهذان الأثران لا يحصلان بمجرد عمل المعروف، بل لا بُـدَّ من كثرة فعل المعروف، وطبعًا لا تتحقق الكثرة إلا بعدد الثمانين فما فوق، كما جاء ذلك في استنباط الإمام علي الهادي عليه السلام للكثرة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[2] قال: «**عددنا تلك المواطن فكانت سبعين موطنًا** »[3]. فطول العمر والذكر الطيب لا يحصلان إلا بالمثابرة على أعمال المعروف، وحينما يكون الإنسان كثير الإحسان للآخرين ويسدي لهم المعروف، يمكن أن يعيش محبوبًا ومقبولًا في المجتمع.

الأثر الثالث والعشرون: تحقيق حالة البروز الاجتماعي، فعمل المعروف يعطي المكانة الاجتماعية الرفيعة للإنسان، وقد أشار إلى هذا الأثر أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**من بذل معروفه استحق الرئاسة**»[4]، أي أنّ الله سبحانه وتعالى يعطي الوجاهة والبروز والظهور والزعامة لمن يسدي المعروف للناس ويخدمهم ويقوم بواجبهم. ويستشف من استعمال مفردة «**البذل**» هنا، أنه لا يكفي كثرة المعروف للحصول على هذا الأثر، بل لا بُـدَّ من بذله لمن يستحقه ولمن لا يستحقه، وأن يبذله للقاصي والداني.

كتمان المعروف

يحبذ للإنسان أن يكتم المعروف الذي يقوم به، ولا يجهر به، ولا يتحدث عنه أمام الآخرين، فقد ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**أحيوا المعروف بإماتته، فإنّ المنّة تهدم الصنيعة**»[5]. يطلب منا أمير المؤمنين عليه السلام هنا أن نحيي المعروف، ولكن كيف نحيي المعروف؟ والمتبادر إلى الذهن أنّ حياة المعروف تكون أولًا بإيجاده في

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٦ ح٢٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥.
(٣) الكافي ٧: ٤٦٣ ح٢٠.
(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٤٦ ح٢٨.
(٥) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٩ ح٥.

الخارج، وثانيًا بنشره بين الناس والحديث بما قمنا به من معروف، ولكنه عليه السلام يبيّن لنا أمرًا آخر على عكس ما تبادر لنا، فإنّ حياة المعروف تكون بإماتته، أي بعدم الحديث عنه وترك نشر ما أتينا به من معروف، ثم يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام العلّة التي من أجلها يطلب منا إماتة المعروف بقوله: «**فإنّ المنّة تهدم الصنيعة**»، أي أنّ ذكر ما يأتي به الإنسان من معروف يتضمن المنّة على من وقع عليه المعروف، وإذا مَنّ الإنسان بما جاء به من معروف، فهو في الحقيقة قد هدم معروفه، وقضى على إحسانه، ولذلك علينا أن ننسى ما نفعل من معروف ونغيّبه ولا نذكره، ولا نخشى من ضياعه؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لن ينساه لنا، وسنجده في كتاب أعمالنا وميزان حسناتنا. وكذلك فإن استذكار المعروف قد يؤدي إلى الرياء والعجب والتفاخر، وقد يؤدي إلى المنّة في يوم ما، فتقول والعياذ بالله: أنا فعلت لك كذا وكذا، وحينها يموت المعروف.

وجاء في رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «**سل المعروف ممن ينساه، واصطنعه إلى من يذكره**»[١]. يطلب منا أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرواية الشريفة أن نطلب المعروف والمساعدة من الشخص الذي ينسى هذا المعروف وهذه المساعدة، ويطلب منا أيضًا أن نعمل المعروف لمن يذكره ولا ينساه، أي ينبغي أن تكون المعادلة عكسية بين طرفي المعروف، وفي ذلك حياة للمعروف؛ فإنّ سؤال المعروف ممن لا ينساه ويتحدّث به أمام الآخرين يستبطن المنّة به، ومع المنّة يموت المعروف، وكذلك فإنّ اصطناع المعروف إلى من لا يذكره وينساه أو يتناساه ولا يتحدّث به أمام الآخرين إماتة له أيضًا، لأنّ الحديث بما قدّمه صاحب المعروف من معروف من شأنه أن يحقق الوئام الاجتماعي، ومعه تتركز وتترسخ العلاقة بين المؤمنين، ويزداد صاحب المعروف في تقديم معروفه للآخرين، ويتشجع الباقون في عمل المعروف لما له من ذكر حسن.

وورد في رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «**من مَّنَ بمعروفه فقد كدَر ما صنعه**»[٢]، أي أنّ صنع المعروف شيء براق جميل ولطيف للغاية، وإذا ما مننتَ به فقد كدرته وضيعته على نفسك، ولهذا يجب الاجتناب جدًا عن المنّ بما تأتي به من معروف وما تقدمه من إحسان للآخرين. إذن فبقاء المعروف صافيًا وجميلًا يكون بالابتعاد عن المنّ به، لأنه يمحق المعروف.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٩ ح٥.

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٩ ح٥.

وجاء في رواية أُخرى في هذا السياق: «**ملاك المعروف ترك المَّن به**»(١)، أي أنّ المعروف متقوم بترك المنّ به، فإن صاحبه المن أو لحقه لم يكن معروفًا أصلاً، والمن يعني تذكير الآخرين بما قدمته لهم من مساعدة أو إحسان. إذن فكتمان المعروف وعدم البوح به من الأمور المهمة والمؤثرة في المعروف، بل لا يعد المعروف مع عدمها معروفًا.

جزاء المعروف

بحث الجزاء الإلهي الذي يعطيه الله سبحانه وتعالى في الدنيا وفي الآخرة لأهل المعروف بحث قرآني شيق، ونتناول في ما يأتي بعض الآيات القرآنية في هذا الموضوع.

منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢)، فالزوجة إذا كانت مصرة على نمط خاص من الحياة والسلوك الذي لا ينسجم مع قيمك، وكنت لا تستطيع أن تتخلى عن قيمك ولا تستطيع أيضًا أن تحرمها؛ لأنّ في ذلك فقدانًا للأنس والاستقرار في العائلة، فليس هناك من سبيل سوى التسريح بمعروف، لتبحث المرأة عن الحياة التي تريد.

ويطلق لفظ التسريح على من يخرجونه من السجن، وعلى من يخرجونه من الأسر، وهنا أيضًا تسريح، لأنّ الزوجة تقيد نفسها مع زوجها عند الزواج به، وعليها الالتزام بما تفرضه عليها الحياة الزوجية من واجبات، فإن أبت ذلك فليس أمامها إلا التحرر من قوانين الزوجية، وإطلاق سراحها لتجد لنفسها ما تريد من حياة، ولكن إذا رضيت بما قسم لها الله تعالى، وكانت تريد الله تعالى ورسوله والحياة الأخرى، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيعطي المحسنة من هؤلاء النساء الأجر والثواب العظيم في الآخرة.

إن الزوجة حين تصبر على الفقر مع الزوج المؤمن، ولا تتذمر ولا تشكو من العيش معه بسبب فقره، تبتغي في ذلك رضوان الله تعالى وثوابه في الدار الآخرة، فهي محسنة وكتب الله تعالى لها ثواب المحسنين.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٩ ح٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فأجر المحسن محفوظ له عند الله سبحانه وتعالى، وسيعطيه إياه في الآخرة؛ لأنّ الدنيا الفانية بعمرها القصير لا تتسع لعظيم ما سيعطيه الله تعالى من أجر للمحسنين.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[2]، أي أنّ من يقدم العمل الحسن والمعروف فلن نضيعه، بل نحفظه له ونؤجره على فعل المعروف.

ومنها : قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3]، فالذين استجابوا لله والرسول هم من خرجوا إلى الجهاد واستعدوا للتضحية، بعدما أصابهم الألم ووقع فيهم ما وقع.

وكم نحن بحاجة إلى الحديث في مثل هذه الآيات الشريفة في هذه الظروف التي نحن فيها، فبعدما ضاعت الموصل وصلاح الدين والأنبار وغيرها من مدن العراق العزيزة، وبعدما انهار الجيش، هبَّ المجاهدون في سبيل الله استجابة لنداء الله ورسوله، فنداء المرجعيّة اليوم هو نداء لله والرسول؛ لأنّ المرجعيّة امتداد للإمامة الإلهية، وهي المسؤولة عن توضيح الحكم الشرعي، فهؤلاء الذين هبوا للجهاد ولبّوا النداء، هؤلاء محسنون، فإن اتقوا الله عزّ وجلّ في جميع أعمالهم كان لهم أجر عظيم، فتلبية النداء والتقوى والورع والعمل في سبيل الله، يقابلها أجر عظيم أعده الله للمحسنين الذين يلبون نداء الله ورسوله.

ومنها: قوله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[4]، تقرر الآية الكريمة ميزان الثواب والعقاب يوم القيامة، وهو مضاعفة أجر الحسنة إلى عشرة أضعاف تلك الحسنة، بينما لا يحسب على السيئة الواحدة إلا تلك السيئة فقط، فهل ترون عظيم رحمة الله وكرمه مع عباده؟، على هذا الحساب سوف لا يُظلم أحد أبدًا؛ فأي ظلم يُتصور إذا كانت السيئة بواحدة والحسنة بعشر؟،هذا ليس عدلاً فقط، بل هو أكثر من العدل، هو إحسان ولطف من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

عناوين الأجر في القرآن

هناك مجموعة من عناوين الأجر والثواب، تشير إليها الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن جزاء الإحسان، وهي من مصاديق الإحسان.

الأجر الأول: حفظ ماء الوجه، فوجه المحسن أبيض، ويكون كريمًا ومحترمًا في قومه وعند الله سبحانه وتعالى، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١)، فالذي يحسن يعطيه الله تعالى جزاء الحسنة هذه الأمور:

الأول: الحسنى، ولعل المراد بها في هذه الآية الجنة، وزيادة على الجنة، وهي رضوان الله سبحانه وتعالى، فقد يغفر الله تعالى لأقوام ويدخلهم الجنة وهو غير راض عنهم، أو يكون المراد من تلك الزيادة ما يتفضل به الله عز وجل من النعم على عبده المحسن في الحياة الدنيا.

الثاني: لا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة، وهنا الشاهد، أي لا يغطي وجوههم غبار وسواد، فوجوههم ليست مغبرة ولا ظلماء، بل هي نقية ومبيضّة وصافية وطاهرة، فالمحسن يكون مرفوع الرأس؛ لأنه من أهل المعروف، وهو عزيز وليس بذليل.

الثالث: أنّ المحسنين هم أصحاب الجنة وأهلها، وليسوا طارئين عليها، وهم فيها خالدون.

الأجر الثاني: المنّ الإلهي، أي أنّ الله سبحانه وتعالى يمُن على العبد جزاء إحسانه، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢)، فنتيجة لإحسان يوسف وأخيه عليهما السلام، منّ الله تعالى عليهما، أي تفضل وأنعم عليهما، والمراد من المنّ الإلهي هنا هو جمع شمله مع أبيه وإخوانه. إذن هذا المنّ الإلهي هو نتيجة الإحسان.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

الأجر الثالث: النصر الإلهي، فمن كان محسنًا حظي بنصر الله ﷻ وتأييده على عدوّه، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، فالنصر هنا كان للإحسان.

الأجر الرابع: بقاء النسل، فبقاء الذرية منوط بعمل المعروف الذي يأتي به الإنسان، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ...إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢)، إذن فبقاء الذرية ونجاتها جزاء للإحسان.

الأجر الخامس: الجنة، فهي جزاء الله تعالى للمحسن، كما ورد ذلك في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، وكما جاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾(٤)، وكما ورد أيضًا هذا المعنى في آية أُخرى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥)، جزاء المحسن جنات تجري من تحتها الأنهار، فالجنة جزاء لفعل المعروف.

الأجر السادس: التحية من الله ﷻ، فالله يحيي أهل المعروف. لاحظوا هذه الآيات من سورة الصافات: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٦)، وقوله

(١) سورة الصافات، الآيات: ١١٤ ـ ١٢١.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ٧٥ ـ ٨٠.
(٣) سورة المرسلات، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ١٦.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٥.
(٦) سورة الصافات، الآيتان: ٧٩ ـ ٨٠.

تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، انظروا إلى تكرار السلام من الله تعالى على أنبيائه جزاء للإحسان الذي عملوه.

الأجران السابع والثامن: الحكمة والعلم، فالله سبحانه وتعالى يتكرم على أهل المعروف بالحكمة والعلم. لاحظوا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٤]، الحُكم يأتي بمعنى الحكمة، ويأتي أيضًا بمعنى الإدارة والقيادة، إذن الحكم والعلم هما جزاء الإحسان.

الأجر التاسع: الرحمة، كما تجلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥]، فالإنسان المحسن ـ وهو من يقوم بالمعروف ـ يرزقه الله سبحانه وتعالى الرحمة، وتكون الرحمة قريبة منه، وهناك العديد من الآيات الشريفة الأخرى التي جاءت لتؤكد على مفهوم الرحمة.

الأجر العاشر: الفدية، دفع البلاء هو جزاء للمعروف، وقد ورد هذا الأجر في قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، ثم بعد آيات يقول: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[٧]، إذن، فهذه الفدية حينما دفع الله سبحانه وتعالى البلاء بها عن إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل، إنما جاءت جزاءً لإحسانه؛ لأنه كان من المحسنين.

الأجر الحادي عشر: الاتصال بالوحي، فالكتب السماوية هي جزاء يعطيه الله سبحانه وتعالى للمحسنين، والأنبياء من المحسنين، كما ورد النص على هذا الأجر في قوله تعالى:

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٠ ـ ١٣١.
(٤) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٦) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٧) سورة الصافات، الآية: ١٠٧.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ وبعد آيات ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فالكتاب المستبين هو الكتاب الواضح الذي فيه بيان بليغ، ويقصد به هنا التوراة، فإنها كانت كتاب موسى عليه السلام، إذن فإن إنزال الكتب السماوية على الأنبياء يمثل مصداقًا آخر من مصاديق الجزاء والثواب الإلهي للمحسنين.

الأجر الثاني عشر: المكانة الاجتماعية، يعطي الله سبحانه وتعالى المكانة الاجتماعية المرموقة للمحسن. لاحظوا هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، ومكّناه يعني أعطيناه التأثير والوجاهة والقدرة والموقع المتميز، وأصبح متمكنًا في مصر، إذ كان رئيسًا للوزراء في الحكم الملكي آنذاك، فالملك جعل يوسف عليه السلام رئيسًا للوزراء كما نعبر في مصطلحاتنا اليوم، وجعل بيده جميع القرارات وأمر الديوان عنده، فهو يتحكم بالأمور كيف يشاء، وهذه المكانة الاجتماعية المرموقة كانت من نصيب يوسف عليه السلام ؛ لأنه كان محسنًا، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، فجزاء الإحسان المكانة الاجتماعية.

الأجر الثالث عشر: النجاح في الاختبارات والامتحانات الإلهية والابتلاءات، فالله سبحانه وتعالى يوفق المحسن للنجاح في هذه الاختبارات، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[3]، أي إنّ هذا لهو الاختبار الواضح الكبير. تعرفون أنّ الله سبحانه وتعالى لم يرزق إبراهيم عليه السلام ولدًا إلا بعد عمرٍ طويل، بعد أن أصبح شيخًا كبيرًا، فحينما جاء الأمر الإلهي بذبح إسماعيل عليه السلام، كان اختبارًا عسيرًا وشاقًا، فكم هو صعب أن يمسك الإنسان بيده السكين ليذبح ابنه العزيز الذي جاء بعد سنين طويلة من الانتظار والترقب؟، لقد كان بلاء عظيمًا على إبراهيم وعلى ابنه إسماعيل عليهما السلام، ولقد فاز إسماعيل ونجح في الاختبار عندما قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، وكذلك فاز إبراهيم ونجح عندما أمسك السكين وهمّ بتنفيذ الأمر الإلهي بذبح ولده إسماعيل عليه السلام ولم يبرر لنفسه بأي عذر، مع أنّ الله سبحانه وتعالى جعل له

(١) سورة الصافات، الآيات: ١١٧ ـ ١٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٥ ـ ١٠٦.

فسحة للتراجع، حينما جاءه هذا الأمر في عالم الرؤيا، ولم ينزل به جبرائيل عليه السلام من عند الله تعالى، فكان بإمكانه أن ينتظر نزول الوحي أو يطلب من الله تعالى توضيحًا أو إعفاء من هذا الأمر، ولكنه لم يفعل وامتثل فورًا للأمر الإلهي بعد أن أخبر به ولده إسماعيل عليه السلام، ولقد كان سر النجاح في هذا البلاء المبين أنّ إبراهيم عليه السلام كان من المحسنين. إذن كان هذا جزاء لإحسانه، فكن محسنًا واعمل المعروف، ليمكنك الله من النجاح في مطبات هذه الدنيا فتفوز وتخرج منها بسلام.

الأجر الرابع عشر: السمعة الطيبة، فأهل المعروف يجازيهم الله بسمعة طيبة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، أي جعلنا له سمعة طيبة في الأمم التي ستأتي من بعده فتذكره بخير، وهذا جزاء للمحسنين أن تكون سمعتهم طيبة تشيع في الآفاق، في زمانهم، وفي الأزمنة الآتية والأُمم اللاحقة. وكذلك كان الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام إذ جعل الله تعالى له السمعة الطيبة في الأمم القادمة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾(٢). وكذلك تكرر هذا الكلام مع موسى وهارون عليهما السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ... وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، وقد تكرر هذا التعبير في الآية الشريفة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أو ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ للعديد من الأنبياء؛ في نوح وإبراهيم وموسى وهارون، وهذا تأكيد على أنّ السمعة الطيبة تكون جزاء لمن يقوم بالإحسان والمعروف.

الأجر الخامس عشر: النجاة من الكربات ومن المحن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

(١) سورة الصافات، الآيات: ٧٥ـ٨٠.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٨.
(٣) سورة الصافات، الآيات: ١١٤ ـ ١٢١.

الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، فلقد أنقذه الله تعالى من الكرب العظيم، والبلاء العظيم، والمحنة العظيمة، والمصيبة الكبرى، ونجى أهله منها؛ لأنه كان من المحسنين.

وورد نفس التعبير بحق موسى وهارون صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ..إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢)، وقد تكرر التعبير بالكرب العظيم، والبلاء العظيم، مع نوح وموسى وهارون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الأجر السادس عشر: الهداية الخاصة، فقد جاءت جزاء وثوابًا لمن يقوم بالمعروف ويقدّم الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، إذن فهذه الهداية الخاصة كانت جزاء لإحسانهم.

كانت هذه أهم عناوين الأجر التي وردت في جزاء الإحسان.

مصاديق الإحسان في القرآن الكريم

نستعرض في ما يلي الأمور التي اعتبرت إحسانًا ومعروفًا في القرآن الكريم، لنعرف المعروف من وجهة نظر القرآن الكريم.

المصداق الأول: تجنب الفساد، وقد اعتبره القرآن الكريم معروفًا، فالمعروف يبعد الإنسان عن الفساد، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤)، إذن تجنب الفساد في الأرض، وترك الإفساد فيها بعد إصلاحها مصداق من مصاديق الإحسان في القرآن الكريم. وهذا التوازن الدقيق بين الخوف والرجاء مسألة في غاية الأهمية، فإذا كان الإنسان يستحضر المخاوف، وكلنا خطّاؤون، وكلنا خطيئة، وكلنا زلة،الإنسان ليس معصومًا، فكلنا نرتكب

(١) سورة الصافات، الآيات: ٧٥ ـ ٨٠.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١١٤ ـ ١٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

ذنوبًا وأخطاءً كثيرة، ولو شغل هذا الجانب كل اهتمام الإنسان فسوف يصاب بالإحباط والقنوط واليأس من رحمة الله ﷻ، وأما لو حاول الإنسان استحضار الجانب الآخر دائمًا، فإنه سيهوّن ويقلل من شأن المعصية، فتصبح عنده حالة من الارتخاء والتجاوز والإسفاف بالمعصية والذنب والإثم؛ لذلك يجب الجمع بين الخوف والرجاء وحفظ التوازن بينهما، فينبغي أن نستحضر ذنوبنا لتحصل لنا حالة القلق منها ونخاف من الله ﷻ، وفي نفس الوقت نستحضر رحمة الله تعالى لكي لا نصاب باليأس أو القنوط، فيحصل التوازن بين الرجاء وعدم الركون إلى النفس والهوى والشهوات واستغلال رحمة الله ﷻ بطريقة سلبية، وبين الوقوع باليأس من رحمة الله ﷻ. إذن تجنب الفساد مصداق من مصاديق الإحسان والمعروف.

المصداقان الثاني والثالث: تجنب الفحشاء وتجنب الذنوب الكبيرة،الفحشاء هي الذنوب القبيحة، والذنوب الكبيرة هي في مقابل الذنوب الصغيرة، ويعرّف الذنب الكبير بأنه الذنب الذي وضع له الشرع حدًا، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[1]، فالله ﷻ يعطي الحسنى للمحسنين جزاءً، والحسنى هي الجنة، وهؤلاء المحسنون هم الذين يبتعدون عن الذنوب الكبيرة ويتجنبون الفاحشة، إلا اللمم، وهي الذنوب الصغيرة التي تصدر منهم أحيانًا، ولكن سرعان ما يتوبون منها ويعودون إلى الله ﷻ، فيتوب الله عليهم ؛لأنه واسع المغفرة. إذن تجنب كبائر الإثم وتجنب الفواحش من مصاديق الإحسان.

المصاديق الرابع والخامس والسادس: الاستغفار، والتهجد في آناء الليل، ورعاية المحرومين ،الآيات الشريفة التالية تذكر هذه المصاديق الثلاثة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ.وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[2]، فالمصداق الأول فيها هو أنّ هؤلاء المحسنين كانوا يقضون جزءا من الليل بالتهجد في العبادة والانقطاع إلى الله ﷻ، والمصداق الثاني فيها

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة الذاريات، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

للإحسان هو أنّ هؤلاء المحسنين يستغفرون الله تعالى بالأسحار، والمصداق الثالث فيها للإحسان هو أنّهم يرعون المحرومين ويساعدونهم.

المصداق السابع: الأمل والرجاء بالانضمام إلى صف الصلحاء، فالله ﷻ يجعل الإنسان المحسن محسنًا برجائه وأمله، لأنّ الشخصية السلبية التي ترى دائمًا النصف الخالي من الكأس، لا تستطيع أن تكون تعبيرًا وتجسيدًا لحالة الإحسان، في حين أنّ الإحسان يعني خدمة الآخر، ويعني التواصل، فيجب أن يكون المحسن إنسانًا إيجابيًا. إذن فالتفاؤل والأمل بحد ذاتهما مصداق من مصاديق الإحسان، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فالرجاء من الله ﷻ أن يدخلهم في رحمته ويجعلهم من الصالحين، هو مصداق من مصاديق الإحسان، والله يجازيهم على ذلك.

المصاديق الثامن والتاسع والعاشر: الإنفاق وكظم الغيظ والعفو، وقد وردت هذه المصاديق الثلاثة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، فالإنفاق هو المصداق الأول للمعروف فيها، وكظم الغيظ الذي يعني السيطرة على الأعصاب والمشاعر وعدم الانجرار وراء الانفعالات العصبية، هو المصداق الثاني من مصاديق الإحسان فيها، والمصداق الثالث للمعروف فيها هو العفو، الذي يعني الصفح عن الآخرين.

وهناك تصور خاطئ عند البعض، هو أنّ الإحسان يقتصر على إعطاء المال، والواقع أنّ الإنفاق جانب مهم من الإحسان، ولكن دائرة المعروف والإحسان تتعدى ذلك، لتصل إلى أنّ السلوك المستقيم حسنة، والفكرة الصحيحة حسنة، والتعاطي مع الآخرين حسنة، والأمل حسنة، وهكذا كل ما ذكرنا من مصاديق وسنذكره.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

المصداقان الحادي عشر والثاني عشر: الإيمان والعمل الصالح، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1] فالإيمان والعمل الصالح من مصاديق الإحسان.

المصاديق الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر: الزكاة والصلاة واليقين بالآخرة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2]، فهنا ثلاثة مصاديق للإحسان، وهي دفع الزكاة وإقامة الصلاة، مع أنها عمل عبادي بحت، واليقين بالآخرة، مع أنه مجرد اعتقاد قلبي.

المصداق السادس عشر: تكريم الزوجة عند طلاقها، وقد اعتبر القرآن الكريم هذا التكريم من مصاديق الإحسان أيضًا، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، فإذا طلقت المرأة قبل الدخول وحصول المعاشرة الزوجية، تستحق نصف المهر شرعًا، وهنا يطلب الله ﷻ من الرجل تعويضهن عما فاتهن من المهر، على الغني بقدر استطاعته، وعلى الفقير بمقدار ما يستطيع أن يقدم، وهذا التكريم هو نوع من أنواع الإحسان والمعروف.

المصداق السابع عشر: تفسير الرؤيا والإجابة عن أسئلة الآخرين، اعتبرها القرآن الكريم من مصاديق المعروف أيضًا، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، عليك الإجابة عن أسئلتنا وتفسير أحلامنا؛ لإنك من المحسنين، إذن هذا مصداق من مصاديق الإحسان.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٣ ـ ٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٦.

المصداقان الثامن عشر والتاسع عشر: التقوى والصبر، لاحظوا هذه الآية الشريفة: ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فالتقوى والصبر يحصل عليهما الإنسان المحسن بسبب إحسانه.

وورد ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾[2]، وذكرت ذلك أيضًا الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، هنيئًا للمتقين على ما يحصلون عليه من نعم عظيمة في الجنة؛ لأنهم عندما كانوا في الدنيا، كانوا يتقون الله تعالى ويجتنبون المعاصي، حين كان الآخرون يذهبون وراء شهواتهم ونزواتهم ويرتكبون شتى المعاصي، والآن في الآخرة يعطيهم الله تعالى كل هذه العطايا والنعم الإلهية، جزاء لتقواهم التي اعتبرها القرآن الكريم إحسانًا.

المصداق العشرون: التواضع، فهو مصداق آخر من مصاديق الإحسان والمعروف، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ.... فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، فمن لا يستكبر ويتواضع فهو محسن، إذن فالتواضع مصداق من مصاديق الإحسان.

المصداق الحادي والعشرون: الجهاد في سبيل الله، وهو أيضًا مصداق من مصاديق المعروف، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.
(٣) سورة المرسلات، الآية: ٤١.
(٤) سورة المائدة، الآيات: ٨٢ ـ ٨٥.

عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، تتحدث الآية الكريمة عن حالة مرضية عاشها مجتمع المسلمين في عصر رسول الله ﷺ، وهي تخلّفهم عن نصرته ﷺ حينما كان يستنهضهم للجهاد، وكانوا يرفضون الخروج معه لقتال أعداء الله، فجاءت هذه الآية الكريمة لتوثيق هذه الحالة المرضية من ناحية، وبيان علاجها من ناحية أُخرى ، ويكمن العلاج في أمرين: الأول: لم يكن ينبغي لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن نصرة رسول الله ﷺ، ولا أن يضنوا بأرواحهم في أن يضحوا بها وهم يرونه يتقدمهم في ساحات الجهاد، ولا أن يخذلوه ويتركوه وحيدًا في الميدان. والثاني: معرفة أنّ ما يتحملونه من جوع وعطش وتعب في سبيل الله عند خروجهم للجهاد وما يلحقونه من أذى بأعداء الله، إنما يُكتب لهم به عمل صالح، وعندها سيكونون من أهل الإحسان الذين لا يضيع لهم أجر عند الله سبحانه وتعالى.

وفي زماننا هذا تصدت المرجعية لمواجهة العصابات التكفيرية، وقالت، وبيّنت، فلا يصح حينما تكون المرجعية في الميدان أن يتخلف الناس ويكونوا بعيدين، ويقدّموا الحفاظ على أنفسهم ومصالحهم على الحفاظ على الوطن وأعراض المسلمين وأموالهم. ولكن شعب العراق يختلف عن أهل المدينة هؤلاء ومن حولهم من الأعراب آنذاك؛ فقد هبّ مئات الألوف من العراقيين لتلبية نداء المرجعية التي تمثل القيادة الشرعية في عصر الغيبة، وتحملوا الأعباء وتقدموا للدفاع عن الأرض والعرض، وقدموا أرواحهم رخيصة على مذبح الوطن والعقيدة. إذن فالجهاد في سبيل الله مصداق من مصاديق الإحسان.

وتطرقت آية أُخرى في كتاب الله عزّ وجلّ لبيان أنّ جهاد النفس هو أيضًا من مصاديق الإحسان، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، فيكفي أن تقرر، وأن تعزم، ويكفي أن تقوم بواجبك، ليأتي التسديد الإلهي والهداية، ففي الجهاد الأصغر حينما يثبت المؤمن أمام الأعداء، فإنّ الله تعالى يحقق له النصر، وكذلك الأمر في جهاد النفس ،إذا قرر الإنسان أيضًا أن يكون صالحًا ومستقيمًا وملتزمًا بالأحكام الشرعية، فإنّ الله تعالى يعينه على ذلك، ولو خطا الإنسان نحو الله خطوة، فإنّ الله تعالى يخطو نحوه عشر خطوات، والذي يأتي بالحسنة فله عشر

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

أمثالها، ولكن يجب علينا أن نتحرك ونقرر ونعقد العزم والإرادة في أن نسير في طريق العبودية لله ﷻ.

المصداق الثاني والعشرون: طلب الخير، فقد اعتبر القرآن الكريم طلب الخير للآخرين مصداقًا من مصاديق الإحسان، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، يعني ليس من إثمٌ على هؤلاء إذا لم يخرجوا إلى الجهاد لهذه الأسباب، إذا نصحوا لله ورسوله وطلبوا الخير في هذه المعركة، وأخلصوا النية، وكانت لديهم العزيمة؛ لأنّ الله ﷻ يرفع العقوبة عن المحسن. إذن فالذين لم يخرجوا إلى الجهاد لكونهم من الضعفاء أو المرضى أو لعدم امتلاكهم نفقة الخروج، ولكنهم كانوا ناصحين لله ورسوله، فإنّ الله تعالى لا يؤثمهم ولا يعاقبهم لتخلفهم عن الجهاد. إذن طلب الخير، النصح، مصداق آخر من مصاديق الإحسان.

المصداق الثالث والعشرون: الدعاء، وهو مصداق آخر من مصاديق الإحسان، كما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، تتحدث الآية الكريمة عن صنف من القسيسين والرهبان الذين يبكون من خشية الله تعالى عندما يسمعون ما يتلى من القرآن، بسبب ما عرفوا من الحق، فكانوا يتفاعلون مع القرآن الكريم، وهذا ما ورد التأكيد عليه في آداب تلاوة القرآن، أنّ الإنسان يجب أن يتلو القرآن بتأن وتمعّن وتدبر، فليس مهمًا كم يقرأ من الصفحات، بل المهم كيف يقرأ، أي الاهتمام بنوعية القراءة أكثر من الكم، بحيث إذا دار الأمر بين أن يقرأ جزءًا بأكمله بغير تدبر، أو نصف جزء بتدبر، فعليه أن يختار قراءة نصف جزء بتدبر، والتدبر يعني الوقوف عند الآيات القرآنية، وهناك بعض المصاحف تحتوي على بيان معنى الكلمات الصعبة في الهامش، يحبذ للإنسان

(١) سورة التوبة، الآية: ٩١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

أن يكون عنده هذا النوع من المصاحف، فهو يقرأ ويرى ماذا تقصد الآية الشريفة، وأي مفردة لا يعرفها يكون معناها موجودا في المصحف، ويستطيع أن يتأمل فيها، فيبكي خوفًا عندما تأتي آيات العذاب، و يتفاعل شوقًا ورجاءً من الله عندما تأتي آيات الرحمة والوعد بالجنة، فيعيش مع القرآن، ومع مضامينه، يتألم لآيات العذاب، ويسعد ويفرح لآيات الرحمة والبشارة، هكذا يجب أن نكون، وقد كان هؤلاء الذين ذكرتهم الآية من هذا النوع، ويقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي يسألون الله سبحانه وتعالى أن يكونوا يوم القيامة مع محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ هناك فرق واضح بين أن يقولوا: فاكتبنا مع الشاهدين، وبين أن يقولوا: فاكتبنا من الشاهدين، فهم لم يسألوا الله تعالى أن يكونوا من الشاهدين، بل سألوه أن يكونوا مع الشاهدين، فمقام الشهادة ليس مقامًا يطلبه الإنسان لنفسه؛ لأنه جعلٌ من الله سبحانه وتعالى، كما لا يجوز للإنسان أن يسأل الله تعالى أن يكون نبيًا، والدليل على أنّ مقام الشهادة جعلٌ إلهي هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[4] أي يتلو رسول الله صلى الله عليه وآله ويأتي بعده شاهد منه، أي من رسول الله صلى الله عليه وآله، والدليل على أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، هو قوله تعالى في آية المباهلة: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[5] وقد ثبت بالقطع في كتب الأخبار والتأريخ والسير والتفسير أنه لم يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله من الرجال غير علي بن أبي طالب عليه السلام. وأما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[6]، فهي تثبت أنّ مقام الشهادة جعلٌ من الله تعالى، وليس مقامًا يطلبه الإنسان من الله تعالى فيهبه له، كما أنه ليس المراد من الأُمة الوسط جميع المسلمين على مدى العصور والأزمان، بل هم جماعة منهم، كما ورد

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.
(٢) سورة المزمل، الآية: ١٥.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٥.
(٤) سورة هود، الآية:١٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

نظيره في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(١)، وكذلك فإن الأمة في القرآن الكريم قد تطلق على الفرد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(٢)، وقد تطلق على الجماعة الصغيرة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾(٣).

إذن فهؤلاء القسيسون والرهبان الذين أسلموا وصدّقوا بنبوة رسول الله ﷺ، طلبوا من الله ﷻ أن يكتبهم مع الشاهدين، فأثابهم الله تعالى بسبب دعائهم هذا الجنة.

وهذه المفاهيم القرآنية الواضحة التي تدعو الإنسان إلى الالتزام والطاعة، حريٌّ بنا أن نستوعبها وننطلق منها لطلب الجنة، فالوحي غذاء فكري ومعنوي معًا، ونحن عطاشى وجياع معنويًا، ونعيش حالة من الغموض، ونحن بين يدي الله سبحانه وتعالى، وأمامنا منازل عظيمة وخطيرة، وليس هناك ما يمنعنا من أن نأخذ هذا الوحي ونستفيد منه، ونلتزم به، ونحظى بسعادة الدنيا والآخرة.

ينبغي أن يكون منطقنا منطق هذه الثلة المؤمنة عندما قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، يا إلهنا، نريد أن تضع أسماءنا في قائمة الصالحين، وليس في قائمة الأشرار، ولا المنحرفين، ولا في قائمة الضالين، ولا في قائمة المشركين، بل نريد أن تكون أسماؤنا في قائمة الصالحين، ومن كان مخلصًا، وصالحًا، وطيبًا، وملتزمًا، ثم دعا الله ﷻ، فلا بُدَّ من أن يستجيب له الله تعالى، وهكذا أثاب الله هذه المجموعة بما قالت وبما دعت وعلى ما بدا منها، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾. ولكن كيف صار هؤلاء محسنين؟ يخبرنا القرآن الكريم أنهم صاروا كذلك بدعائهم، وبما قالوا، إذن فالدعاء مصداق للإحسان.

وهناك آيات أُخرى نصت على أنّ الدعاء من مصاديق الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤)، أي يجب أن يقترن الدعاء بالخوف من الله دون يأس، مع الطمع برحمة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة القصص، الاية: ٢٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

الله دون إسفاف وترهل، فإذا دعونا كذلك كنا من المحسنين، وأصبحت رحمة الله قريبة منا.

المصداق الرابع والعشرون: الدعوة إلى توحيد الله، وهي أيضًا مصداق من مصاديق الإحسان. لاحظوا قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، وتدعون: أي تعبدون، بعلًا: اسم صنم مصنوع من ذهب، تذرون: تتركون، و﴿آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ تعني آباءكم السابقين عليكم، إذ يطلق لفظ (الأب) على الأب وعلى الجد وعلى أبي الجد وعلى جد الجد، وهكذا يتسلسل إلى أبي البشر آدم عليه السلام. والآيات الكريمة تحكي دعوة نبي الله إلياس عليه السلام قومه إلى التوحيد، فكان محسنًا بسبب هذه الدعوة.

المصداق الخامس والعشرون: محبة أهل البيت عليهم السلام، فهي مصداق من مصاديق الإحسان، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢)، يقترف: يكتسب، أي من يحب قربى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يكتسب حسنةً، إذن فحب أهل البيت عليهم السلام حسنةٌ ومعروفٌ، يزيد الله له فيها حسنًا، وهو مصداق آخر من مصاديق الإحسان.

المصداق السادس والعشرون: رعاية كبار السن، وهو أيضًا مصداق من مصاديق الإحسان في القرآن الكريم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، أي أنك ترعى الكبار لأنك محسن، وهذا أبونا شيخ كبير لا يتحمل فراق ولده، ولهذا ذكروا للمحسن أنّ أباهم كبير السن ولا يستطيع فراق ولده، ليتساهل معه رعاية للشيخ الكبير، إذن رعاية الكبار مصداق من مصاديق الإحسان.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٢٥ ـ ١٢٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٣) سورة يوسف، الآية : ٧٨.

المصداق السابع والعشرون: الصلح، وهو مصداق آخر من مصاديق الإحسان. لاحظوا هذه الآية الشريفة: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1]، خافت: توقعت، نشوزًا: تجاوزًا أو ترفعًا أو تجافيًا، وتتحدث الآية الكريمة عن نشوز الزوج، وإن كان الشائع في العرف هو نشوز الزوجة، فهي حينما لا تمكّن زوجها ولا تهتم به ولا ترعاه يقال لها ناشز، فالنشوز صفة للزوجة، ولكن هذه الآية الكريمة تقول: كما أنّ الزوجة تكون ناشزًا، فكذلك الزوج يمكن أن يكون ناشزًا أيضًا، فالزوج الذي لا يعتني بزوجته ولا يهتم ببيته، والبيت بالنسبة له مكان نوم لا أكثر، يعتبر ناشزًا أيضًا، وهو مصداق من مصاديق النشوز، على الرجل أن يطيب خاطر زوجته، ويشرح لها ظروفه، لكي تقدّر وتتقبل غيابه عن البيت بطيب خاطر، ولكن إذا كان عنده وقت فيجب أن يعطي وقته لعائلته وزوجته، بأن يجلس معهم ويتحدث، ويبتعد عن حالة التجافي والإهمال ويكون بشوشًا معهم، ولكن هناك من الرجال من يأخذ الهموم معه إلى البيت، ويتعامل بجفاء مع عائلته، ويكون شديدًا وقاسيًا معهم، فهذا نشوز.

أما الإعراض فهو يعني قلة الاهتمام، وهي حالة سلبية وسيئة في سلوك الأزواج مع زوجاتهم، فحينئذ لا ضير أن يتصالحا مع بعضهما، ويتعاملا مع بعضهما بمرونة، لكي لا تندفع الأمور إلى الانفصال والطلاق وما إلى ذلك من حالات قد تؤدي إليها، لكي يتخلصوا من سوء المعاشرة، فالحل يكمن في الصلح والتقارب، ولكنْ هناك أزواج يرون أنه لا يناسبهم ولا يليق بهم أن يتنازلوا لزوجاتهم، والحق أنّ التواضع للزوجة ليس شيئًا سيئًا، ولا خاطئًا، وإنما هو شيء صحيح، وليس عيبًا أن تكون للمرأة وجهة نظر، ولذا ينبغي أن يسمع الرجل لزوجته، فربما يكون لها رؤية أُخرى أو دليل مقنع فيقتنع، وفي المقابل ربما يكون لديه دليل مقنع، وهي التي تقتنع، فسلامة العلاقة الزوجية تحتاج إلى مرونة من الطرفين، والصلح يمنع الزوجين من سوء المعاشرة، أو من الانفصال وما إلى ذلك، فالصلح خير، وهذه قاعدة عامة يذكرها القرآن الكريم، أي الصلح أفضل من الخصومة.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

وفي خصوص العلاقة الزوجية لا يوجد منا أحد معصوم عن الخطأ، رجالاً ونساءً، في كلا الطرفين نقاط قوة ونقاط ضعف، وفي الحياة يجب أن يتحمل بعضنا البعض، وكذلك في العلاقة الزوجية يجب على الزوج تحمل زوجته، وعلى الزوجة تحمل زوجها، وأن يتعاملا مع بعضهما بمرونة، وهذه لا تخص العلاقة الزوجية فقط، بل ينبغي أن تكون هذه القاعدة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، سائدة في العلاقات الاجتماعية بين الناس أيضًا، فلو أراد كل شخص أن يفرض رأيه ويكسر الآخر، فلن نستطيع حينئذ أن نحقق الغرض، وإنما يجب أن تكون هناك حالة من المرونة بين الطرفين.

ثم تتطرق الآية الشريفة إلى بيان حقيقة أنّ النفس البشرية جُبلت على الشح، أي على الحرص الشديد والبخل، ونفهم من هذا المقطع في هذه الآية ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، أنّ نصف المشاكل، سواء كانت زوجية أو مشاكل عامة، ناتجة من البخل، ويشمل البخل في المال، والبخل في بشاشة الوجه، والبخل في الكلمات الرقيقة، والبخل في التعاطي مع الأمور.

وأخيرًا تتطرق الآية إلى أنّ الإنسان لو اتقى وأحسن، فإن الله خبير بهذا الإحسان، ويرى ذلك ويحسبه له.

المصداق الثامن والعشرون: العمل بالتكليف، فهو مصداق من مصاديق الإحسان، كما ورد ذلك في قوله تعالى من سورة الصافات في قصة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي وضع جبينه على الأرض، ومعنى ﴿صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي أحسنت يا إبراهيم بإسراعك بتنفيذ الأمر الإلهي، إذن فالعمل بالتكليف هو مصداق من مصاديق الإحسان.

المصداق التاسع والعشرون: الأضحية التي تقدم قربانًا في الحج، فهي أيضًا حسنة، ومصداق من مصاديق الإحسان. لاحظوا قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٥.

اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ... وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فالأضحية وتقديم القرابين لله ﷻ مصداق من مصاديق الإحسان.

هذه هي المصاديق التسعة والعشرون التي يستعرضها القرآن الكريم من مصاديق الإحسان.

وبهذا ننتهي من هذا الحق من الحقوق الإيمانية.

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٦ ـ ٣٧.

الحق الخامس والعشرون
(تصديق قَسَم المؤمن)

يتجلى هذا الحق من حقوق الأخوة الإيمانية بقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الرواية موضوع البحث: «**يصدق أقسامه**»، إي أنّ الأخ المؤمن إذا أقسم على شيء فمن حقه على أخيه المؤمن أن يقبل هذا القسم منه، وأن يتعامل معه على أنّ ما أقسم عليه أمر قد تحقق. والقسم واليمين والحلف كلها مفردات تشير إلى هذه الحقيقة، وهي من الأمور المهمة التي يجب أن نقف عندها.

أنواع اليمين

لليمين أنواع عدة ،نذكرها في ما يلي:

النوع الأول: يمين التأكيد، وهو أن يقوم الإنسان بعمل ما ويخبر به بصيغة القسم، فيقول مثلًا: والله فعلت، والله ذهبت، والله سأذهب، وقد يكون في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، أو يخبر عن حالة معينة فيقول: والله أنا مريض، والله أنا فقير.

النوع الثاني: يمين المناشدة، وهي طلب قضاء حاجة من الآخرين بصيغة القسم، كأن يقول: بالله عليك اجلب لي ماء، بالله عليك خذني معك إلى المكتبة، بالله عليك حل لي مشكلتي.

النوع الثالث: يمين العقد، وهي اليمين التي يترتب عليها الأثر الشرعي والكفارة، ويتحقق ذلك حينما يقسم الإنسان على القيام بفعل ما، واجبًا كان أو مندوبًا أو مباحًا، أو يقسم على ترك أمر ما محرم أو مكروه، وحين ذاك يتعين عليه دفع الكفارة إذا حنث بهذه اليمين.

النوع الرابع: يمين الإنكار، وهي تتحقق في المرافعات القضائية، عندما يدّعي شخص مثلاً أنّ فلانًا سرق منه الشيء الفلاني، ولا يوجد لديه دليل لإثبات ذلك، وينكر الشخص المتهم بالسرقة ما يُتهم به، فعندها يأمره القاضي بالحلف أنه لم

يسرق، عملاً بقاعدة «**البينة على المدّعي واليمين على المنكر**»، فيحلف بالله أنه لم يسرق، فتبرأ ذمته مما اتهم به.

أنواع اليمين في الروايات

وردت الإشارة إلى هذه الأنواع الأربعة لليمين في روايات أهل البيت عليهم السلام، فمما ورد في يمين التأكيد ما رواه زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**كل يمين حلف عليها لا يفعلها مما له منفعة في الدنيا والآخرة فلا كفارة عليه**»(١).

ومما ورد في يمين المناشدة ما رواه عبد الله بن سنان عن عبد الرحمن بن عبد الله قال: «**سألت أبا عبد الله** عليه السلام **عن الرجل يقسم على الرجل في الطعام ليأكل معه، فلم يأكل معه، هل عليه في ذلك كفارة؟ قال** عليه السلام: **لا، ليس عليه كفارة**»(٢).

في كتاب الكافي الشريف :عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الأيمان ثلاث: يمين ليس فيها كفارة، ويمين فيها كفارة، ويمين غموس توجب النار، فاليمين التي ليس فيها كفارة، الرجل يحلف بالله على باب برٍّ أن لا يفعله، واليمين التي تجب فيها الكفارة، الرجل يحلف على باب معصيةٍ أن لا يفعله فيفعله، واليمين الغموس التي توجب النار، الرجل يحلف على حق امرئ مسلم على حبس ماله**»(٣).

وعن علي بن إبراهيم قال: «**الأيمان ثلاث: يمين تجب فيها النار، ويمين تجب فيها الكفارة، ويمين لا تجب فيها النار ولا الكفارة، فأما اليمين التي تجب فيها النار، فرجل يحلف على مال رجل يجحده ويذهب بماله، ويحلف على رجل من المسلمين كاذبًا فيورطه، أو يعين عليه عند سلطان وغيره فيناله من ذلك تلف نفسه أو ذهاب ماله، فهذا تجب فيه النار، وأما اليمين التي تجب فيها الكفارة فالرجل يحلف على أمر هو طاعة لله أن يفعله، أو يحلف على معصية لله أن لا يفعلها ثم يفعلها فيندم على ذلك فتجب فيه الكفارة، وأما اليمين التي لا تجب فيها الكفارة فرجل يحلف على قطيعة رحم، أو يجبره السلطان أو يكرهه والده أو زوجته، أو يحلف على معصية لله أن يفعلها ثم يحنث، فلا تجب فيه الكفارة**»(٤)

---

(١) وسائل الشيعة ٣٣: ٢٤٨ ح٣.
(٢) الكافي ٧: ٤٤٦ ح٦.
(٣) الكافي ٧: ٤٣٨ ح١.
(٤) الكافي ٧: ٤٣٩ ذيل ح١.

ما يصح وما لا يصح من القسم

نقرأ في كتاب الكافي الشريف، الجزء السابع، باب ما لا يلزم من الأيمان والنذور، الحديث الرابع في هذا الباب:

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «**سألته عن رجل حلف في قطيعةِ رحم، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا نذر في معصية، ولا يمين في قطّيعة رحم.، قال: وسألّته عن رجلٍ أحلفه السلطان بالطلاق وغير ذلك فحلف، قال: لا جُناح عليه، وسألته عن رجلٍ يخافً على مالهِ من السلطان، فيحلف لينجو به منه؟ قال: لا جُناح عليه، وسألته: هلٍ يحلف الرجل على مال أخيه كما على ماله؟ قال: نعم**»[1].

يسأل الراوي في هذه الرواية الكريمة الإمام الرضا عليه السلام عن أربعة أنواع من اليمين، هل فيها مؤاخذة أو إثم أو عقوبة أو كفارة، وهي كالتالي:

الأول: اليمين في قطيعة الرحم، كأن يحلف الرجل ألاّ يكلّم أباه أو ابنه أو زوجته، فيجيبه الإمام الرضا بنقل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه لا ينعقد يمين أصلًا لا في معصية ولا في قطيعة رحم.

الثاني: اليمين بالطلاق كاذبًا عند السلطان مجبرًا، وهو من الأيمان المعروفة في فقه المذاهب الأخرى، فيجيبه الإمام الرضا عليه السلام بأنه لا جناح عليه، أي لا إثم عليه ولا يترتب عليه الطلاق.

الثالث: اليمين كذبًا خوفًا على المال من السلطان الجائر لئلا يأخذه منه ظلمًا، فأجابه الإمام الرضا عليه السلام بأنه لا جناح عليه أيضًا، أي ليس عليه الكفارة في هذه اليمين.

الرابع: يمين الرجل كاذبًا عند السلطان على مال الأخ المؤمن لينجيه منه، فيجيبه الإمام عليه السلام بنعم، أي أنه يجوز له أن يحلف كذلك ولا يترتب عليه إثم أو كفارة.

وعن عمرو بن البراء قال: «**سُئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا أسمع، عن رجل جعل عليه المشي إلى بيت الله والهدي، قال: وحلف بكل يمين غليظ أن لا أكلّم أبي أبدًا، ولا أشهد له خيرًا، ولا يأكل معي على الخوان أبدًا، ولا يأْويني وإياه سقف بيتٍ أبدًا، قال: ثم سكت، فقال أبو عبد الله: أبقي شيء؟ قال: لا، جُعلتُ فِداك، قال: كل قطّيعة رحمٍ فليس بشيءٍ**»[2]، أي أنّ اليمين في قطيعة الرحم لا تنعقد وهي باطلة ولا أساس لها.

(١) الكافي ٧: ٤٤٠ ح٤.
(٢) الكافي ٧: ٤٤٠ ح٥.

وعن سماعة بن مهران قال: «**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلٍ جعل عليه أيمانًا أن يمشي إلى الكعبة، أو صدقة أو عتق أو نذر أو هدي إن هو كلّم أباه، أو أمه، أو أخاه، أو ذا رحم، أو قطع قرابة، أو مأثم فيه يقيم عليه، أو أمر لا يصلح له فعله، فقال: كتاب الله قبل اليمين، ولا يمين في معصية**»[1]، وقوله عليه السلام: «**كتاب الله قبل اليمين**»، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[2]، أي أنّ هذه اليمين لا أثر لها ولا تنعقد ؛لأنها يمين في معصية، ومخالفة لما أمر به الله عز وجل في كتابه الكريم.

عن محمد بن مسلم: «**أنّ امرأةً من آل المختار حلفت على أختها أو ذات قرابة لها، فقالت: أدني يا فلانة فكلي معي، فقالت: لا، فحلفت، وجعلت عليها المشي إلى بيت الله وعتق كل ما تملك وأن لا يظلها وإياها سقفُ بيت، ولا تأكل معها على خوانٍ أبدًا، فقالت الأخرى: مثل ذلك، فحمل عمر بن حنظلة إلى أبي جعفر عليه السلام مقالتهما، فقال: «أنا قاضٍ في ذا، قل لها: فلتأكل وليظلها وإياها سقف بيت، ولا تمشي، ولا تعتق، ولتتقي الله ربهاً ولا تعد إلى ذلك، فإنّ هذا من خطوات الشيطان**»[3] . ، نصّت هذه الرواية الشريفة أنه لا قيمة لمثل هذه الأيمان؛ لأنها أيمان في معصية الله سبحانه وتعالى الذي أمر بصلة الرحم، وهي من خطوات الشيطان اللعين الرجيم الذي يتربص بالإنسان الدوائر، ويوقع العداوة بين الإنسان وأهل بيته وأقاربه وأصدقائه وجيرانه ومعارفه.

وعن إسحاق بن عمار قال: «**سألت أبا إبراهيم ـ الإمام أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ـ عن رجلٍ قال: لله عليّ المشي إلى الكعبة إن اشتريت لأهلي شيئًا بنسيئة، فقال: أيشق ذلك عليهمٍ؟ قال: نعم، يشق عليهم أن لا يأخذ لهم شيئًا بنسيئة، قال: فليأخذ لهم بنسيئة وليس عليه شيء**»[4]. يبيّن الإمام الكاظم عليه السلام أنه لا شيء من الإثم أو الكفارة على اليمين بمثل هذه الأمور التي في تركها ضرر على العائلة، فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل يمينًا فيها ضرر على الإنسان أو على عائلته.

وفي روايةٍ أُخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال في رجل حلف بيمين أن لا يكلّم ذا قرابة له، قال: «**ليس بشيء، فليكلّم الذي حلف عليه، وقال: كل يمينٍ لا يُراد**

(١) الكافي ٧: ٤٤٠ ح٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) الكافي ٧: ٤٤٠ ح٨.
(٤) الكافي ٧: ٤٤١ ح١١.

بها وجه الله ﷻ فليس بشيء في طلاق أو عتق، قال: وسألته عن امرأةٍ جعلت مالها هديًا لبيت الله إن أعارت متاعها لفلانة وفلانة، فأعار بعض أهلها بغير أمرها، قال: «ليس عليها هديٌ، إنما الهدي ما جُعِلَ لله هديًا للكعبة، فذلك الذي يوفّى به إذا جُعل لله، وما كان من أشباه هذا فليس بشيء، ولا هدي لا يُذكر فيه الله ﷻ»(١). ، فالحلف يكون مقبولاً حينما تكون فيه طاعة لله ﷻ، وأما إذا كانت فيه معصية لله، أو تجاوز للحكم الشرعي، فلا تنعقد هذه اليمين.

وفي روايةٍ أُخرى عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، قلت له: الرجل يحلف بالأيمان المغلظة أن لا يشتري لأهله شيئًا، قال: «**فليشتر لهم وليس عليه شيء في يمينه**»(٢).

عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**لا يمين في غضب، ولا في قطيعةِ رحم، ولا في جبرٍ، ولا في إكراه، قال: قلت: فما الفرق بين الإكراه والجبر؟ قال: الجبر من السلطان، ويكون الإكراه من الزوجة والأُم والأب وليس ذلك بشيء**»(٣). فربما يفقد الإنسان في لحظات الغضب السيطرة على مشاعره، فيحلف ألّا يفعل الأمر الفلاني مثلاً، فلا ينعقد مثل هذا الحلف ؛لأنه صدر في حالة الغضب، وكذلك لا تنعقد اليمين في حالات الجبر والإكراه، ثم بيّن الإمام عليه السلام الفرق بين الجبر والإكراه جوابًا عن سؤال السائل.

في رواية أُخرى عن سعد بن أبي خلف قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: إني كنت اشتريت جاريةً سرًا من امرأتي، وإنه بلغها ذلك، فخرجت من منزلي، وأبت أن ترجع إلى منزلي، فأتيتها في منزل أهلها، فقلت لها: إنّ الذي بلغكِ باطل، وإن الذي أتاكِ بهذا عدو لك أراد أن يستفزك، فقالت: لا والله لا يكون بيني وبينك خيرٌ أبدًا، حتى تحلف لي بعتق كل جارية لك وبصدقةِ مالك إن كنت اشتريت جاريةً وهي في ملكك اليوم، فحلفتُ لها، وأعادت اليمين وقالت لي: فقل: كل جاريةٍ لي الساعة فهي حرة، فقلت لها: كل جاريةٍ لي الساعة فهي حرة، وقد اعتزلت جاريتي، وهممت أن أعتقها وأتزوجها لهواي فيها،فقال عليه السلام: «**ليس عليك في ما أحلفتك عليه شيء، وأعلم أنه لا يجوز عتقٌ**

---

(١) الكافي ٧: ٤٤١ ح١٢.
(٢) الكافي ٧: ٤٤٢ ح١٤.
(٣) الكافي ٧: ٤٤٢ ح١٦.

ولا صدقةٌ إلا ما أُريد به وجه الله وثوابه»[١]، فالعتق الشرعي هو ما كان لله ﷻ، وليس لأجل فلان أو فلانة، فمثل هذه اليمين لا تنعقد أيضًا.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا حلف الرجل على شيء، والذي حلف عليه إتيانه خير من تركه، فليأت الذي هو خير ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان**»[٢]، إذا حلف على شيء، يعني حلف على تركه، مثلاً: والله لن أصلي أول الوقت، والله لن أصلي صلاة الليل، أو أي شيء من هذا النوع، فأيّ فعلٍ حلف على تركه، وكان فعله أفضل من تركه، لا يعتني بهذا الحلف لأنه ليس قسمًا في سبيل الله، وليقم بهذا العمل ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان.

في رواية أُخرى عن سعيد الأعرج قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يحلف على اليمين، فيرى أن تركها أفضل، وإن لم يتركها خشي أن يأثم، أيتركها؟ فقال عليه السلام: «**أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيت خيرًا من يمينك فدعها**»[٣]، أي إذا وجدت الخير على خلاف اليمين، وكان الأفضل هو الشيء الذي أقسمت على خلافه، فاترك اليمين واعمل بالأحسن والأفضل.

حرمة القَسَم

أكدت النصوص الشريفة من الآيات القرآنية والروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، أنّ للقَسَم حرمة، فيجب ألاّ يقسم الإنسان بالله ﷻ إلا عند الضرورة، والقسم على كل شيء تحول ـ مع الأسف ـ إلى حالة متداولة في ثقافتنا، فأحاديثنا مليئة بالقسم بالله ﷻ، لماذا نقسم بالله؟ ولماذا نقحم لفظ الجلالة واسم الله العزيز في تفاصيل يومية حياتية بسيطة؟.

لاحظوا هذه الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، أي لا تتجرؤوا على الله، ولا تجعلوا الله ﷻ وسيطًا وسببًا بالحلف به، ولا تذكروه في أيمانكم من دون أن تكون هناك ضرورة

(١) الكافي ٧: ٤٤٢ ح١٨.
(٢) الكافي ٧: ٤٤٣ ح٢.
(٣) الكافي ٧: ٤٤٤ح٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

لهذا الأمر، عليكم أن تلتزموا بفعل الحسن، واتقوا الله، وأصلحوا بين الناس، ولكن لا تجعلوا الله ﷻ عرضةً لأيمانكم.

وقد وردت في كتاب الكافي الشريف إشارات الى هذا الموضوع، ففي الرواية الشريفة عن أبي أيوب الخزاز قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول:** ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾»[1].

وفي رواية أُخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أجلَّ الله أن يحلف به، أعطاه الله خيرًا مما ذهب منه**»[2]، فالهدف من الحلف تأكيد قضية للحصول على مكسب ما، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا إنسان، إذا تركت القسم وفقدت مكسبًا حفاظًا على قداسة اسم الله وحفاظًا على هيبة الذات المقدسة، فإنّ الله ﷻ يعوضك خيرًا مما فقدته، وإنك إذا أقسمت للحصول على شيء ما ، فقد تحصل عليه وقد لا تحصل، ولكن إذا تركت القسم مراعاة لحرمةً القسم، فإنّ الله تعالى يعطيك أكثر مما تتوقع أن تحصل عليه بالقسم.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**اجتمع الحواريون إلى عيسى عليه السلام فقالوا له: يا معلم الخير أرشدنا، فقال لهم: إنّ موسى نبي الله أمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين**»[3]، أي أنّ الإمام الصادق عليه السلام يأمرنا أن لا نحلف بالله كاذبين ولا صادقين.

وعن أبي سلام المتعبد أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول لسدير: «**يا سدير من حلف بالله كاذبًا كفر، ومن حلف بالله صادقًا أثم، إنّ الله عزّ وجلّ يقول:** ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾»[4].يبيّن الإمام الصادق عليه السلام حكمًا في غاية الخطورة، وهو دوران أمر الحلف بين الكفر والإثم، ولذا يجب اجتنابه على كل حال، ويستدل على ذلك بالآية الكريمة أعلاه.

وفي رواية عن أبي بصير قال: «**حدثني أبو جعفر عليه السلام أنّ أباه كانت عنده امرأة من الخوارج، فقال مولى له: يا ابن رسول الله إنّ عندك امرأةً تبرأ من جدك، فقضى لأبي أنه**

---

(١) الكافي ٧: ٤٣٤ ح١.
(٢) الكافي ٧: ٤٣٤ ح٢.
(٣) الكافي٧: ٤٣٤ ح٣.
(٤) الكافي٧: ٤٣٤ ح٤.

طلقها، فادّعت عليه صداقها، فجاءت به إلى أمير المدينة تستعديه، فقال له أمير المدينة: يا علي إما أن تحلف، وإما أن تعطيها حقها. فقال لي: قم يا بني فأعطها أربعمائة دينار، فقلت له: يا أبه جعلت فداك ألست محقًا؟ فقال: بلى يا بني، ولكني أجللت الله أن أحلف به يمين صبر»[١]، فانظروا إلى عظيم حرمة القسم عند الإمام عليه السلام بحيث أنه دفع أربعمائة دينار ولم يحلف، مع أنه كان محقًا، كل ذلك إجلالاً وتقديسًا لاسم الله سبحانه وتعالى بأن يجعله عرضة ليمينه.

خطورة القَسَم الكاذب على الإيمان

مرّ في رواية سابقة أن «**من حلف بالله كاذبًا فقد كفر**»، ومعنى ذلك أنّ إيمان الإنسان مرهون بقسمه.

وجاء في الرواية الشريفة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من حلف على يمين وهو يعلم أنه كاذب فقد بارز الله عز وجل**»[٢]، لأنه دخل بخصومة مع الله سبحانه وتعالى، حين حلَف به كاذبًا استهانة بالذات المقدسة.

وفي رواية أُخرى: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**اليمين الصبر الكاذبة تورث العقر والفقر**»[٣]، أي من يقسم بالله كاذبًا فإنّ الله سبحانه وتعالى يعاقبه بعقوبتين مدى عمره: الأولى: لا يرزقه بذرية، والثانية: يصاب بالفقر والفاقة.

وفي رواية أُخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ اليمين الفاجرة تنغل في الرحم، قال: قلت: جعلت فداك ما معنى تنغل في الرحم؟ قال: تعقر**»[٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ الله سبحانه وتعالى خلق ديكًا أبيض عنقه تحت العرش، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، له جناح في المشرق، وجناح في المغرب، لا تصيح الديوك حتى يصيح، فإذا صاح خفق بجناحه، ثم قال: سبحان الله، سبحان الله العظيم الذي ليس كمثله شيء، قال: فيجيبه الله سبحانه وتعالى فيقول: لا يحلف بي كاذبًا من يعرف ما تقول**»[٥]، يعني من يحلف بالله سبحانه وتعالى كاذبًا لا يعرف التوحيد، ويخرج عن ربقة الإسلام، ويكون كافرًا، إذ

(١) الكافي ٧: ٤٣٥ ح ٥.
(٢) الكافي ٧: ٤٣٥ ح ١.
(٣) الكافي ٧: ٤٣٦ ح ٤.
(٤) الكافي ٧: ٤٣٧ ح ١١.
(٥) الكافي ٧: ٤٣٧ ح ١١.

عندما نقول: سبحان الله العظيم ليس كمثله شيء، فإننا نصف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأوصاف لا يعرف معناها من يحلف كذبًا، ويسلب منه توفيق طاعة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهناك شاهد آخر على هذا الأمر في الآية الشريفة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾[1]، يعني أنّ هذا القسم يكون على ما أشهدتنا عليه وأوصيتنا به، سنلتزم به، ولا نستبدل هذه الأمانة التي أمنتنا عليها حتى لو كان ذا قربى، ونوصلها كما هي.

وقد ذكر صاحب تفسير نور الثقلين شأن نزول هذه الآية الشريفة يقول: «**إنها نزلت في ابن بند وابن أبي مارية النصرانيين، وكان هناك رجل يقال له تميم الداري، وهو مسلم، خرج معهما في سفر، وكان مع تميم خرج ومتاع وآنية منقوشة بالذهب وقلادة، أخرجها لبعض أسواق العرب ليبيعها، فلما مروا بالمدينة اعتل تميم، فلما حضره الموت دفع ما كان معه إلى ابن بند وابن أبي مارية، وأمرهما أن يوصلاها إلى ورثته، فقدما المدينة فأوصلا ما كان دفعه إليهما تميم، وحبسا الآنية المنقوشة بالذهب والقلادة، فقال ورثة الميت: هل مرض صاحبنا مرضًا طويلاً أنفق فيه نفقة كثيرة؟ فقالا: ما مرض إلا أيامًا قليلة، قالوا: هل سرق منه شيء في سفره هذا؟ قالا: لا، قالوا: هل اتجر تجارة خسر فيها؟ قالا: لا، قالوا: فقد افتقدنا أنبل شيء كان معه، آنية منقوشة بالذهب مكللة، وقلادة، فقالا: ما دفعه إلينا قد أديناه إليكم، فقدموهما إلى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وقالوا: يا رسول الله، صاحبنا مات وهذان جلبا أغراضه، ولكننا نفقد شيئين مهمين بين أغراضه، وهما يقولان إنه لم يمرض مدة طويلة لكي ينفق على نفسه، ولم يُسرق لكي نقول سلبوه، فلا نعرف ما القصة، فأوجب عليهما اليمين،قال لهما رسول الله: «احلفا، فحلفا كذبًا، فأطلقهما»، ثم ظهرت القلادة والآنية عليهما، فأخبروا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فانتظر الحكم من الله، فأنزل الله هذه الآية**»[2]. فهذه هي الشهادة الأولى التي حلفهما رسول الله بها.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٦.
(٢) تفسير نور الثقلين ١: ٦٨٤.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا﴾(١)، يعني من أولياء الميت، في إشارة للآيات القادمة والحكم الذي بيّنه، وحين ذاك أخذ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الآنية والقلادة منهما، وأرجعهما إلى ورثة تميم، فهذا أيضًا حكم القسم، وحنث القسم.

شروط القسم في القرآن الكريم

هناك ثلاثة شروط أساسية مطلوبة للقسم تشير إليها الآيات القرآنية الشريفة هي:

الشرط الأول: القدرة، فيجب أن يكون الحالف قادرًا على الوفاء بما يقسم عليه، كما لو قال: والله سأشتري لك الحاجة الفلانية، أو والله سآخذك إلى المكان الفلاني، وكان عازمًا على شراء تلك الحاجة أو أخذه إلى ذلك المكان، ولكن لو عجز عن أن يفي بقسمه سقطت عنه اليمين، ولا يعد حنثًا أو عصيانًا في ما أقسم عليه.

ونجد الإشارة إلى هذا الشرط في القرآن الكريم في الحوار الذي دار بين يعقوب عَلَيْهِالسَّلَامُ وأولاده، عندما طلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين بطلب من شقيقه يوسف عَلَيْهِالسَّلَامُ، وهم لم يكونوا يعرفون أنّ العزيز الذي طلب منهم ذلك هو يوسف: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاط بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٢)، رفض يعقوب عَلَيْهِالسَّلَامُ إرسال بنيامين معهم حتى يؤتوه بموثق من الله، أي حتى يحلفوا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنهم سيرجعونه له، ثم يقيّد يعقوب عَلَيْهِالسَّلَامُ ما طلبه منهم من اليمين بالله، بما لو أُحيط بهم بأمر قهري خارج عن اختيارهم ولا يتمكنون معه من إرجاع بنيامين له، وكأنه يعلم بما سيقع لهم فقيّد لهم القسم لينبّههم على ذلك؛ لأنّ ذكر هذا القيد لا حاجة له لسقوط الحنث باليمين في حال العجز عن تنفيذها لأمر قاهر خارج عن الإرادة، وهذا تقييد للقسم بالقدرة.

وقد ذكر بعض المفسرين هنا التفاتة لطيفة، يقول: إنّ قول يعقوب عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، أي إذا تعرضتم بأجمعكم إلى أمر قاهر لا تستطيعون بسببه إرجاع بنيامين معكم، فإنكم مُبرؤون من الحنث بهذا القسم، ولكن إذا بقي واحد منكم لم يُحط به، فبحكم هذا القسم يجب عليه

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٦.

أن يرجع لي بنيامين. إذن فالقدرة على الوفاء شرط بنفوذ اليمين، وهذا معناه أنّه يجب على الإنسان أن يحلف على أشياء ممكنة التحقيق، ولكن إذا حصل مانع من تحقيقها ولم تكن له القدرة على الوفاء بما أقسم عليه، سقط عنه الحنث ولم يؤاخذ عليه.

الشرط الثاني: لا ينعقد القسم إلا بالله ﷻ، وعندها يكون قسمًا شرعيًا ويجب الوفاء به، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، يعني لا تنكثوا عهودكم، عندما يقول أحدكم: عليّ عهد الله، لأنه من أنواع القسم بالله ﷻ، وكذلك لا تنكثوا أيمانكم، عندما يقول أحدكم: أقسم بالله أو أحلف بالله؛ وذلك لأنكم بعهودكم وأيمانكم هذه قد جعلتم الله عليكم كفيلًا ووكيلًا، إذ عندما تحلف لأحدهم: والله سأفعل لك هذا، فهو يعني أنك وضعت الله كفيلًا عليك في هذا الأمر، وحينما يكون الله ﷻ هو الكفيل عليك في القسم، فإنّ ذلك معناه أنك تضع الله ﷻ طرفًا، فهو الذي يستوفي منك ما أقسمت عليه لو تخليت عن تنفيذه، وهو بالطبع سيعاقبك في الدنيا قبل الآخرة على تهاونك بالوفاء، لأنه ﷻ يعلم بما نفعل.

ووردت الإشارة إلى هذا الشرط أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[2]، هنا يُقسم إبراهيم عليه السلام بالله ﷻ، أن يدبّر تدبيرًا لأصنامهم، يعني يهدمها ويدمرها بعد تفرقهم ورجوعهم إلى بيوتهم، حين تبقى هذه الأصنام وحدها، وهنا اُستعملت صيغة **«تالله»، وهي من صيغ القسم الصحيحة كما في «والله»** و**«بالله»**

وكذا وردت الإشارة إلى هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]، تبيّن الآية الشريفة حكمًا شرعيًا قضائيًا، لفض النزاع بين الزوج وزوجته عندما يدّعي عليها أنه وجدها تزني والعياذ بالله، وليس هناك شهود رأوا ذلك غيره، فحينها يتوجب عليه اليمين خمس مرات، يكرر في الأيمان الأربع الأولى أنه صادق في

(١) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.
(٣) سورة النور، الآيات: ٦ ـ ٩.

ما يقول، ويحلف في المرة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذبًا، فعندها يحكم عليها بالرجم، ولكنها تستطيع أن تدفع عن نفسها العقوبة، وذلك بأن تقسم خمس مرات أيضًا، تحلف في الأربعة الأولى أنّ زوجها كاذب في ما يدّعيه، وتحلف في المرة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان صادقًا، فإذا حلفت فرّق القاضي بينهما وانحلت العلقة الزوجية بينهما من غير حاجة إلى إجراء صيغة الطلاق، أي أن عقد الزواج ينفسخ تلقائيًا.

وهناك ظاهرة غير صحيحة تسود في مجتمعاتنا في هذه الأيام، وهي سهولة وسرعة اتهام الآخرين بالفاحشة من غير تثبت ومن غير دليل شرعي، فعندما يأتي أحد ويتهم امرأة بالزنا والعياذ بالله، يطلب منه القضاء الشرعي أن يأتي بأربعة شهود، فإذا أتى بهم وشهدوا بأنهم رأوا الفاحشة بشكل كامل بالعين وتطابقت شهاداتهم أُقيم عليها الحد، وإذا لم يأت بالشهود الأربعة، وأتى بثلاثة أو أقل أُقيم عليهم حد القذف، فهنا نرى تشددًا كبيرًا من الشارع المقدس في هذه القضية، ولكننا ـ وهو مما يؤسف له ـ نلاحظ في مجتمعاتنا تساهلًا كبيرًا في هذا الأمر، فنراهم يتهمون الرجال والنساء بمجرد الظن والشك والشبهة، أو في ظرف غير مبرر، وهذا أمر خطير جدًا، وذنبه عظيم، والله ﷻ يتشدد كثيرًا في هذا الأمر، فبنى حكم إقامة حد الزنا ليس على شاهد واحد، ولا على اثنين، ولا على ثلاثة، بل لا يثبت إلا بأربعة شهود، وإلاّ اعتبره قذفًا واتهامًا بالباطل.

ولكن الحكم يختلف في اتهام الزوج لزوجته بالفاحشة، فحكمه ما تقدّم ذكره؛ إذ يقسم خمس مرات على ذلك، وقد يقال: لماذا هذا التمييز وهذا الفرق بين اتهام الغير واتهام الزوج؟ والجواب: إنّ الزوج قادر على أن يدخل إلى أماكن ويرى زوجته فيها، وأما الآخرون فلا يستطيعون ذلك، فمثلًا لو قال شخص: إنّ فلانة ارتكبت الموبقة، يُقال له: وما أدراك؟ فيقول: إني رأيت فلانًا دخل عليها في البيت، فإنّ ذلك لا يكفي في ثبوت جريمة الزنا، وإن كان في النفس شك، ولكن لا يمكن البناء عليه في توجيه التهمة، لأن دخوله عليها لا يعني تحقق المعصية بكامل أبعادها، ولكن الزوج يستطيع أن يجد زوجته في أماكن لا يستطيع الآخرون أن يروها فيها عادة، ولهذا تكفي رؤيته وحده في إثبات هذه الجريمة بعد أداء الإيمان الخمس أمام القاضي الشرعي.

الشرط الثالث: أن يقصد القسم، فحينما يقول: والله، يجب أن يكون قاصدًا أنه يقسم على شيء ما، لأن الإنسان ربما يأتي بصيغة القسم وهو لا يقصده، كما يتفق وقوع ذلك كثيرًا في الأحاديث اليومية بين الناس، فهذا ليس بقسم. وكذا لا يعتبر قسمًا شرعيًا ما

يكره عليه الإنسان من أداء القسم، لأنّ المكره مسلوب الاختيار والقصد، فلا ينعقد له قسم أصلاً.

وقد وردت الإشارة إلى هذا الشرط في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(1)، فهنا لا توجد كفارة ولا عقوبة على من يقسم قسمًا لم يقصده، ولكن يؤاخذه الله عز وجل بما تعمد فيه، كما ورد ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾(2)، أي بما وثّقتم عليه الأيمان بالقصد والنية، وحين ذاك يؤاخذكم الله عز وجل على ذلك.

هذه هي الشروط الثلاثة لصحة القسم الذي يجب على صاحبه أن يفي ويلتزم به.

الوفاء بالقسم

على الإنسان أن يفي ويلتزم بالقسم حينما يأتي به، وعلى المؤمن أن يصدّق أخاه المؤمن عندما يقسم له، إذ اُعتبر هذا الحق من حقوق الأخوة الإيمانية، وذلك لأنّ هذا التصديق يعمّق العلقة الاجتماعية، وعندها تكون الكلمة محترمة، فحينما يقسم الإنسان على شيء، يصدّق الآخرون أنه سيفي به.

نقرأ قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(3)، أي لا تكونوا في مسألة الوفاء بأيمانكم كتلك السيدة التي حلت الغزل الذي غزلته، إذ يقال إن هناك امرأة، في زمن الجاهلية أو في صدر الإسلام، ميسورة الحال ومتمكنة ولديها خدم، فكانت تغزل هي وخدمها من الصباح إلى العصر، وعندما يحل العصر تقول لخدمها: حلّوا الغزل، فينقضون الغزل الذي كانت تغزله من الصباح إلى العصر، فوصفت بأنها حمقاء، وقد تكون مصابة بمرض نفسي، إذ لا يوجد إنسان طبيعي يفعل هذا الشيء. فالله هنا يحذر عباده من أن يعملوا هذا الشيء نفسه، فعندما يفتح الغازل الخيط بعد

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(2) سورة المائدة، الآية: ٨٩.
(3) سورة النحل، الآية: ٩٢.

عقده، لا يرجع كما كان، بل تصبح فيه حالة ارتداد، فالتشبيه القرآني جميل جدًا، إذ يشبّه من نقض يمينه بمن نقضت غزلها، فإنها إذا نقضت الغزل لن تعود الأمور كما كانت، بل أسوأ مما كانت، وكذلك الحالف الذي يغرّر بالناس باسم الله لكي يصدّقوه، فمن يحلف بالله ﷻ ولا يفي فهو غادر، ويستهزئ بالله حين يقسم به ولا يفي بقسمه.

ثم تبيّن الآية الكريمة أنّ تسابق الجماعات والأمم على نقض إيمانها بالله العزيز وعهودها، فتكون أمة أكثر انحرافًا من أمة، إنما هو ابتلاء من الله ﷻ، ليختبركم بهذه الأيمان والأقسام التي تأتون بها، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون، عندما يضع أمامكم استحقاقات هذا العمل، وآثاره العظيمة، فيتبين لكم حينئذ كيف كنتم تتعاملون في هذا الموضوع.

استغلال القسم

وهو أن يحلف شخص ليغرر بالآخرين، ويستغل ثقة الناس بالله ﷻ، فعندما يحلف ويقول: واللهِ، تقبل الناس منه هذا القسم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(1)، تتحدث الآية الكريمة عن ظاهرة مرضية في مجتمع المسلمين في المدينة، تتلخص في الولاء الذي تكنّه جماعة من المسلمين لقوم غضب الله عليهم، وقال أصحاب التفاسير إنّ المقصود من هؤلاء القوم هم اليهود. ثم يصف الله ﷻ هذه الجماعة ـ الذين صادقوا ووالوا وأحبوا قومًا غضب الله عليهم، وبنوا علاقاتهم مع المغضوب عليهم ـ بقوله: ﴿مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾، وهؤلاء إذا لم يكونوا من المسلمين حقيقة ولا من اليهود فهم منافقون، ولهذا كان لا بُـدَّ من كشف هوية هذه الجماعة الجديدة التي التبست على باقي المسلمين، فهؤلاء ظاهرهم الإسلام، ولكنهم يوالون أعداء المسلمين، ويشقون الصف، ويتخلون عن مصالح الأمة، ويذهبون إلى خندق الأعداء، ويبنون علاقات معهم، ولا يهمهم غير الحفاظ على مصالحهم، فهؤلاء ليسوا منكم، لأنّ كون الإنسان من قومٍ، يعني أن يحفظ

---

(1) سورة المجادلة، الآيتان: 14 ـ 15.

مصالحهم، ويؤيد مواقفهم، وأما من يتنصل من قومه ووطنه ويصطف مع الأعداء، فهو ليس منهم، وهم أيضًا ليسوا من اليهود ولا من الكفار ولا يعتقدون بعقائدهم، ولكن الذي يجمعهم معهم هو مصالحهم الفئوية.

ولكن القرآن الكريم يشير في آية أُخرى الى أنّ من يحمل الولاء لليهود أو غيرهم من الكفار، فهو في الحقيقة منهم، وإن كان ظاهره أنه منكم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[1]، فكيف يمكن أن نجمع بين الآيتين مع أنّ ظاهرهما التنافي، فالآية الشريفة هنا تقول: كل من يواليهم فهو منهم، ولكن الآية السابقة تقول: ﴿مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾؟.

والجواب: أنّ المقصود بـ ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليس منهم بالديانة، لأنّ هؤلاء مسلمون وأُولئك يهود، وأما ما ورد في الآية الثانية: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، أي يأخذ حكمه منهم، وأنّ العذاب الذي ينزل عليهم ينزل أيضًا على من يواليهم، فالمنافقون ظاهرهم أنهم مسلمون، ولكنهم في الحقيقة يهود أو نصارى بحسب الولاء الذي يحملونه لأحدهما.

ثم تنتقل الآية الكريمة إلى بيان أبرز ما تمتاز به هذه الجماعة، وهي صفة الحلف على الكذب: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، لكي يستطيع باقي المسلمين معرفتهم وتمييزهم ليحذروا منهم، فهم لا يحلفون على الصدق كما هو المفروض والمقصود من الحلف بالله تعالى، بل يحلفون على الكذب وهم يعلمون أنه كذب، لكي يموهوا الحقائق عليكم ويضللوكم، فالمنافقون يقسمون بالله كذِبًا على خلاف الواقع وهم يعلمون أنهم كاذبون، ويستغلون اسم الله سُبحانه وتعالى لمآربهم الخاصة، وهؤلاء ينتظرهم عذاب شديد أعدّه الله سُبحانه وتعالى لهم. وكأنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ هذه الجماعة ماضية في مخططاتها وسينجحون بقدر ما يحققون من جهد، وبقدر ما يغفل المسلمون عن كشف هوياتهم وفضحهم والوقوف في وجه مخططاتهم وإفشالها ودحرها؛ لأنّ الآية لم تشر إلى أي عقوبة دنيوية لهم.

ولقد استحقوا هذا العذاب الأخروي الشديد بسبب حجم الجريمة التي يرتكبونها، وهي خيانتهم للإسلام والمسلمين، واستغلالهم للحلف بالله سُبحانه وتعالى على الكذب، ليخدعوا المسلمين لمآرب خاصة ومصالح وقتية وقصيرة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

وهناك آيات أُخرى بشأن استغلال المنافقين للقسم وأيمانهم الكاذبة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾[3].

حنث القسم

هو أن يحلف شخص ثم ينقض قسمه ويتخلى عنه، وهناك الكثير من الآيات القرآنية الشريفة تُشير إلى هذا الموضوع، وفيها تقريع ووعيد بالعذاب الشديد لمن يحلف بالله ﷻ ثم يتخلف عنه ولا يلتزم به.

منها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4]، الإيلاء هو أن يحلف الزوج على هجران زوجته، وكانت هذه الظاهرة شائعة في أيام الجاهلية، فكان الرجل يُقسم على ألاّ يعاشر زوجته ويهجرها، فتبقى الزوجة معلقة، واستمرت هذه الظاهرة أيضًا بعد الإسلام، فكان المسلمون يؤلون من نسائهم إذا اختلفوا معهن. وقد حاول الإسلام القضاء على الآثار السلبية المترتبة على الإيلاء، فنزلت هذه الآية الشريفة التي أمهلت الزوج أربعة أشهر ليحسم فيها موقفه، فإما أن يحنث بيمينه ويعود إلى زوجته ويتعامل معها كزوجة ويدفع الكفارة، ثم يغفر الله تعالى له هذا الذنب فهو الغفور الرحيم، وإما أن يطلقها، وحينئذ سيحكم الله ﷻ في موقفه هذا، فهو السميع الذي يسمع كل شيء، والعليم الذي يعلم ما تخفي الصدور.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]، يتوعد الله ﷻ في هذه الآية الكريمة من يشتري ويبيع اسمه ﷻ بثمن بخس، فيحلف على أتفه الأمور ثم يحنث بيمينه، بخمسة أمور: لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله ﷻ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يُزكيهم في الدنيا، ولهم

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٢.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

عذابٌ أليم في الآخرة، إذن فمن يحنث في اليمين فهو بعيدٌ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل البُعد في الدنيا والآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، يتحدث هذا المقطع القرآني وما سبقه عن المشركين، الذين أخلّوا بعهودهم ونكثوا أيمانهم التي قطعوها للمسلمين على الالتزام والوفاء بها، وطعنوا في دينكم ونسبوا إليه ما هو منه براء، فالموقف من هؤلاء هو أن تقاتلوهم فهم أئمة الكفر، الذين لا أيمان لهم، لأنهم سرعان ما يحنثون بها، فلعل قتالهم يكون رادعًا لهم في ترك الخيانة والالتزام بعهودهم والوفاء بأيمانهم.

فاستخدام السيف والقوة في الإسلام يكون عندما يصل استعمال الوسائل السلمية إلى طريق مسدود، ويزيد من جرأة العدوّ وتنمره في الاستخفاف بالدين الإسلامي الحنيف، والاستخفاف بالمسلمين إلى حد التعدي عليهم وقتالهم. ثم يستنكر الله عَزَّوَجَلَّ على المسلمين سكوتهم وتقاعسهم وعدم المبادرة إلى قتالهم، مع أنهم هم الذين بدؤوا بالقتال، ثم يوبخهم توبيخًا شديدًا ويتهمهم بالجبن، ويبيّن السبب الحقيقي لهذا التخاذل بأنهم يخافونهم، وهم بوصفهم مسلمين كان الأولى بهم أن يخافوا الله عَزَّوَجَلَّ، لا أن يخافوا أعداءه، ثم يبيّن لهم الأسباب الموجبة لقتال هؤلاء المشركين بأُمور:

الأول: أنهم قوم نكثوا أيمانهم ولم يفوا لكم بما أقسموا عليه، وهنا يأتي تحريض المسلمين على القتال؛ ألا تدافعون عن أنفسكم، وعن أعراضكم، وعن أموالكم، وعن وطنكم، وعن عقيدتكم؟ ألا تقاتلون قومًا لا يحترمون أيمانهم والتزاماتهم وعهودهم؟.

الثاني: أنهم همّوا باخراج رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فقد كانت فكرتهم في بادئ الأمر إخراج رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من مكة، ثم بعد ذلك اختلفوا بينهم وقرروا أن يقتلوه.

الثالث: أنهم بدؤوكم أول مرة بالقتال، وليس لكم من سبيل إلا الدفاع عن أنفسكم.

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٠ ـ ١٥.

إذن فالموقف يتطلب منكم أن تقفوا بوجه هذه المجموعات المنحرفة والضالة، وكيف تخافونهم والله ﷻ أحق وأولى أن تخافوه إن كنتم تؤمنون به، فإنّ من خاف الله ﷻ لا يخاف أحدًا سواه، ومن كان يخاف عدوه فإنه لا يخاف الله تعالى. انطلقوا لقتالهم، فإنكم إذا قاتلتموهم ستتحقق النتائج التالية:

أولًا: سيُعذبهم الله بأيديكم، ويذيقهم صنوف الأذى بأيديكم، وهو أنكى لهم أن تتولوا تعذيبهم بأنفسكم خلال الحرب والقتال في ساحات الوغى.

ثانيًا: سيخزيهم ويفضحهم ويبيّن كذب دعاواهم الباطلة وشعاراتهم المزيفة وما يتبجحون به، عندما يذوقون مرارة الهزيمة المنكرة على أيديكم.

ثالثًا: سينصركم عليهم، فتذوقون حلاوة النصر، وتعيشون مرفوعي الرؤوس، وسيحترمكم القاصي والداني؛ لأنكم ضحيتم ودافعتم عن حقكم ودينكم، وبذلتم الغالي والنفيس في سبيل العيش بعزة وكرامة.

رابعًا: سيشفي صدور قوم مؤمنين ويُذهب غيظ قلوبهم، فإنّ هناك من المؤمنين ممن هم الآن يعيشون في ظّل سلطانهم الغاشم، قد تحمّلوا كثيرًا من هؤلاء الأعداء، وهم لا يستطيعون الانتصار لأنفسهم من دونكم، وإنكم بقتالكم لهم وانتصاركم عليهم ستُذهبون الغيظ من قلوبهم، لأنهم سيرون من جرّعوهم الذل والهوان يداسون تحت أقدامكم في ساحات الحرب والجهاد.

خامسًا: سيتوب الله ﷻ على من يشاء، ممن قصروا عن الجهاد وتقاعسوا عن الاستجابة لرسول الله ﷺ، والله ﷻ عليمٌ بما فيه صلاحكم، وحكيم في كيفية صلاحكم.

كفارة حنث اليمين

لقد شرّع الإسلام لبعض المخالفات الشرعية عقوبة سمّاها كفارة، والكفارات إما أن تكون أمرًا وحدانيًا أو متعددًا، والكفارات المتعددة إما أن تكون تخييرية، أي اختيار واحد من ثلاثة أُمور بحسب ما يناسبه، أو ترتيبية بأن تضع الشريعة له ثلاثة أُمور عليه أن يأخذ بالأول منها، فإن لم يستطع وتعذر عليه الأخذ به أخذ بالثاني، فإن لم يستطع عمل بالثالث. وكفارة حنث اليمين هي من الكفارات الترتيبية، كما بيّن القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

تبيّن الآية الكريمة أنّ الكفارة ليست على كل يمين يأتي بها المسلم، فهناك أيمان هي مجرد لغو لا يؤاخذ الله تعالى صاحبها بشيء، كقول الرجل: أي والله، ولا والله، ولكنه يؤاخذ في ما عقد عليه الإنسان النية والقصد، فحلف على أمر ما يريد إثباته أو نفيه.

ثم بيّنت الآية كفارة حنث اليمين؛ وهي كفارة ترتيبية تبدأ بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم المكفّر أهله وعائلته، فلا يلزم أن يكون الطعام من أفخر الأنواع، وإنما من أوسط أنواع الطعام التي يطعمها لأهله، فإن لم يستطع فكسوة عشرة مساكين، أي يعطي ثيابًا لهم تستر أجسادهم من برد الشتاء أو حر الصيف، فإن لم يستطع فتحرير رقبة، أي يعتق عبدًا لوجه الله تعالى، وكان نظام العبودية سائدًا في العصور السابقة، وكان الإسلام يسعى بكل الوسائل المتاحة للقضاء على هذا النظام، ومنها أنه شرّع تحرير العبيد ككفارات لكثير من الذنوب، ونلاحظ هنا أنه لم يقيّد الرقبة بالمؤمنة كما في بعض الكفارات الأخرى، بل أطلق الأمر لتشمل العبد غير المسلم، ومنه يتبيّن حرص الإسلام على تخليص البشرية جمعاء من العبودية، ولو كانوا غير مسلمين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام يصومها المكفّر عن ذنب الحنث باليمين، ثم تدعو الآية الكريمة المسلمين إلى الالتزام بأيمانهم وحفظها من خلال الوفاء بها، وأخيرًا تبيّن الآية الشريفة الحكمة التي من أجلها شرّع الله سبحانه وتعالى لنا هذه الأحكام لنتخلص من عقوبات الذنوب والمخالفات التي نرتكبها، وهي أن نكون من الشاكرين له.

موارد القَسَم في القرآن الكريم

نحاول أن نستعرض استعراضًا سريعًا هذه الموارد التي يذكرها القرآن الكريم، عن شخصيات أدت قسمًا، سلبًا أو إيجابًا، من صالحين أو من طالحين، لكن أصل هذا المبدأ هو من أدى قسمًا ونقل عنه القرآن الكريم هذا القسم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

المورد الأول: قسم الشيطان لآدم وحواء

نجد القرآن الكريم يحدثنا عن قسم أدّاه الشيطان الرجيم لآدم وحواء عليهما السلام، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

تبيّن هذه الآيات الشريفة وما قبلها وما بعدها من سورة الأعراف قصة آدم وحواء عليهما السلام، ونقتصر على ذكر الأجواء التي أقسم فيها إبليس (عليه اللعنة) لآدم وحواء عليهما السلام، فحينما كانا في الجنة ـ ولعلها جنة في نشأة مادية ودنيوية في مكان جميل جدًا ـ فسح الله سبحانه وتعالى لهما المجال بأن يستفيدا من جميع النعم الموجودة فيها، وفي هذا البستان الكبير والمكان الجميل منعهما من الاقتراب من شجرة واحدة وأمرهما بعدم الأكل منها، وحذّرهما من الشيطان اللعين تحذيرًا شديدًا، وبيّن لهما أنه عدو لهما ويريد أن يخرجهما من تلك الجنة.

وتدخل الشيطان الرجيم وظهر بمظهر الناصح، وحاول أن يغري آدم وحواء عليهما السلام بأن يأكلا من ثمار هذه الشجرة، وزعم لهما أنّ ربّهما ـ أي الله سبحانه وتعالى، وقال ذلك تصغيرًا للذات الإلهية المقدّسة، وأنه ربهما فقط وليس ربه أو رب الآخرين من المخلوقات-إنما نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة لئلا يكونا ملكين من الملائكة، لأنّ كل من أكل من تلك الشجرة صار ملكًا، أو لئلا يكونا من الخالدين في الجنة، وإلى هنا لم يصدّقا كلامه بعد ما سمعاه من التحذيرات الإلهية منه، ولكن الشيطان استعمل هنا القسم، وأخذ يحلف لهما أنه لهما من الناصحين، وأنه ليس له أي مصلحة سواء أكلا منها أو لم يأكلا، ولم يكن آدم وحواء قد سمعا من يحلف كاذبًا، وعندها وقعا في الفخ وصدّقا قوله، فأكلا من هذه الشجرة، وعندها حدث ما لم يتوقعاه، فقد بدت لهما عوراتهما، فبادرا إلى قطع أوراق الشجر ليضعاه على

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٩ ـ ٢٣.

عورتيهما حياء، وجاءهما النداء الإلهي استفهاميا صارما عن مخالفة نهيه عن الأكل من هذه الشجرة، مع تقدّم تحذيره لهما أنّ الشيطان الذي خدعهما وأغراهما بالأكل منها هو عدو لهما يريد أن يخرجهما من الجنة، فما كان أمامهما إلا الاعتراف بخطئهما وأنهما كانا ظالمين بعصيانهما له ﷻ، وأنه إن لم يغفر لهما كانا من الخاسرين.

ونتيجة لهذه الخطوة فإنّ الله ﷻ أخرجهما من تلك الجنة وأهبطهما إلى الأرض، وكذلك أهبط الشيطان اللعين إليها أيضًا، ليتكرر الابتلاء والامتحان الإلهي بينه وبين جميع ذرية آدم وحواء عليهما السلام، وليكون بعضهم لبعض عدوًا إلى يوم الوقت المعلوم، وهكذا انتقل الإنسان إلى مرحلة الابتلاء، وهنا توجد أبحاث تفصيلية للعلماء بشأن هذه القصة، منها أنّ الأنبياء لو كانوا معصومين فكيف خالفوا الأوامر الإلهية كما خالف أدم عليه السلام هنا؟ وذكروا في الجواب عن هذا السؤال أنّ هذا النهي لم يكن نهيًا مولويًا، بل كان نهيًا إرشاديًا، والمقصود من النواهي المولوية النواهي الصادرة من الله ﷻ في المنع من ارتكاب الذنوب الكبيرة كشرب الخمر والزنا والقتل بغير حق وغيرها مما هو معروف، وتتصف هذه الحرمة بالمنع الدائم والمستمر لكل البشر وعلى مر العصور، ويترتب على ارتكابها عقوبة أخروية.

أما النواهي الإرشادية فهي النواهي التي تصدر من الله ﷻ لبعض البشر في بعض الأوقات للاختبار أو لمصلحة معينة، ولا يترتب عليها عقوبة أخروية، ويضربون مثلاً لها في النواهي التي يصدرها الطبيب لمريض بمرض معين، ويأمره بتجنب بعض الأكلات الضارة حفاظًا على صحته، والمريض لو خالف هذه النواهي وأكل من تلك الأطعمة الممنوعة فإنّ ذلك لا يعدّ إهانة للطبيب، ولن يتأذى من ذلك؛ لأنّ هذه التوصيات ليست شخصية، ولا قضية تخصه، بل المريض وحده من سيدفع ثمن هذه المخالفة، ويسيء لنفسه، لأنه لم يأخذ بالنصيحة. كذلك الله ﷻ عندما نهى آدم وحواء عن تلك الشجرة لم يكن نهيًا مولويًا، بمعنى أنه حرمها عليهما حرمة لو عصوه فيها لاستحقوا العذاب الأخروي، بل قال لهما: إذا كنتما تريدان البقاء في هذه الجنة، وهذا المكان الجميل، فعليكما ألاّ تقربا هذه الشجرة، أي أنّ هذا النهي كان نهيًا إرشاديًا، ولهذا دفعا ثمن هذه المخالفة بعد أن حصل الذي حصل، وظهرت لهما سوءاتهما، وعندها عرفا حجم الخطأ الذي ارتكباه، وهنا طلبا من الله ﷻ أن يغفر لهما ويرحمهما لئلا يكونا من الخاسرين.

المورد الثاني: قسم إبراهيم عليه السلام

يتقل لنا القرآن الكريم قسم إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[1].

تتحدث هاتان الآيتان الكريمتان وما قبلهما وما بعدهما عن قصة إبراهيم عليه السلام، ونقتصر على ذكر ما يتعلق بموضوع البحث، وهنا يقسم إبراهيم عليه السلام على إنزال الكيد والمكروه بالأصنام التي كان قومه يعبدونها بعد أن يتفرقوا ويذهبوا خارج معبدهم حيث سيبقى وحيدًا معها. وكان في المعبد الكثير من الأصنام فحطمها جميعًا إلا أكبر صنم فيها فقد تركه، وقد وفّى إبراهيم عليه السلام بقسمه سريعًا ولم يتأخر عنه، وقد كان عليه السلام قد أقسم أمام عمه آزر وقومه جميعًا أنه سيحطم هذه الأصنام، بعد أن دار حوار ساخن بينه وبينهم بشأن جدوى عبادة هذه الأحجار التي لا تضر ولا تنفع، وتَرْك عبادة الله الواحد الأحد.

المورد الثالث: عهد آل فرعون لموسى عليه السلام

لقد قطع آل فرعون على أنفسهم عهدًا لموسى عليه السلام أنهم سيؤمنون بالله تعالى ويرسلون معه بني إسرائيل لو كشف عنهم الرجز، ولكنهم نكثوا عهدهم لمّا كشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب، فانتقم منهم وأنزل بهم العذاب الماحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[2].

يتحدث هذا المقطع القرآني الكريم عن محنة موسى عليه السلام مع آل فرعون، في دعوته لهم إلى نبذ عبادة الأصنام، وعبادة الله الواحد الأحد. والمراد بآل فرعون هم عشيرة

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥٧ ـ ٥٨.
(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٣٠ ـ ١٣٥.

فرعون الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة المحيطة به، بدليل آيات عديدة ورد فيها هذا التعبير، منها قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[٢].

وتحدثت هذه الآيات الكريمة في هذا المقطع القرآني عن ثلاث مراحل تدرّج بها الله ﷻ معهم لجرّهم إلى الإيمان به وترك عبادة الأوثان، وهذه المراحل هي أنواع من التضييق عليهم وإيذائهم وسلب بعض النعم منهم، لعلهم ينتبهون من غفلتهم ويؤمنون بأن مجاري الأمور هي بيد الله ﷻ، وأنه ليس لآلهتهم دخل في ذلك كما يزعمون، وأنه لو كانت لها القدرة لرفعت عنهم ألوان العذاب الذي يحلّ بهم منذ مجيء موسى عليه السلام، وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، فكانت البداية بسلب بعض النعم منهم وحرمانهم منها، فابتلوا بالقحط والجفاف، الأمر الذي ترتب عليه نقصان الناتج الزراعي وارتفاع الأسعار، ومن المعلوم أنّ مصر كانت وما زالت مجتمعًا زراعيًا، ولم تكن وسائل النقل البدائية آنذاك مؤهلة لاستيراد كميات كبيرة من البلدان الأخرى لسد النقص الحاصل في منتوجهم الزراعي، ولكنهم لم يتذكروا ولم تنفعهم آلهة المطر ولا آلهة الثمر ولا آلهة الشمس والقمر حينما كانوا يأتونها متضرعين لتنقذهم مما هم فيه.

ولم يُجد هذا الأسلوب معهم نفعًا، واستمروا في غيّهم وضلالهم، فكانوا إذا جاءتهم حسنة قالوا هذه لنا واحتكروها لأنفسهم ومنعوا الآخرين من الانتفاع بها، وإن أصابتهم سيئة تطيّروا بموسى ومن آمن معه، وقالوا لهم أنتم السبب في الشؤم الذي حلّ بنا، ويردّ الله ﷻ عليهم مقولتهم هذه، بأنّ طائرهم عند الله، ولكن أكثر آل فرعون الذين يتصدون لموسى ومن آمن معه لا يعلمون بذلك. وكان موسى عليه السلام مستمرًا في إظهار المعاجز لهم لعلهم يؤمنون، ولكنهم على النقيض من ذلك قد اتّخذوا موقفًا سلبيا جدًا ومتشنجًا، برفض كل ما يجيء به من الآيات، واعتبروا ذلك سحرا يريد أن يسحرهم به ليتركوا عبادة آلهتهم ويؤمنوا بما يدعوهم إليه من عبادة الواحد الأحد. ومع هذا الإصرار والعناد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤١.

والاستكبار وعدم جدوى العقوبات السابقة، انتقل بهم الله سبحانه وتعالى إلى مرحلة أُخرى من العقوبات أكثر شدة.

المرحلة الثانية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾. وفي هذه المرحلة سلّط الله سبحانه وتعالى عليهم خمس آيات جديدة هي الطوفان الذي أغرق زروعهم وبيوتهم، والجراد الذي التهم جميع محاصيلهم الزراعية، والقمّل الذي ملأ شعرهم وثيابهم وكان معهم في نومهم ويقظتهم وحلهم وترحالهم لا يجدون منه خلاصا، والضفادع التي عاشت معهم في دورهم بأعداد كبيرة بعد أن تحولت بيوتهم إلى مستنقعات آسنة، ولو لم يكن في الضفادع إلا أصوات نقيقها المزعجة لكفاهم أذى، والدم الذي تنزفه أجسامهم ولا يجدون له دواء، فكانت رائحة الدم الكريهة التي ثلوث ثيابهم وأبدانهم تزكم أنوفهم. ولم يُجدِ ذلك نفعًا أيضًا، بل زادهم علوًا واستكبارًا، وكانوا قومًا مجرمين. ولم يلجؤوا إلى موسى عليه السلام ليدلهم على سبيل الخلاص مما هم فيه من الأذى والقذارة والمرض وصنوف العذاب، فانتقل بهم الله تعالى إلى المرحلة الأخيرة من التضييق والتشديد قبل حلول العذاب لعلهم يهتدون.

المرحلة الثالثة: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

المورد الرابع: يمين إبليس

تكرر اليمين من إبليس اللعين في موارد عدة:

منها: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[(١)].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الحوار الذي دار بين ربّ العزة والجلالة وإبليس الرجيم عليه اللعنة، حينما عصى الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السلام، وفي هذا المقطع يقسم إبليس اللعين أنه بمقابل إغواء الله سبحانه وتعالى له، سيقعد لذرية آدم على الصراط المستقيم ليضلهم ويبعدهم عن الله ويصدهم عن الهداية والطاعة والإيمان بالله سبحانه وتعالى، ثم ليأتينهم من

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦ ـ ١٧.

جميع الجهات، فالذي لم تنفع معه وسيلة الإضلال الأولى، يأتيه بوسيلة إضلال أُخرى من جهة أُخرى، وهكذا يستمر في المحاولة معه تلو المحاولة ولا يدعه إلى أن يوقع به، وعندها سوف يبعدهم عن شكر الله تعالى فلا تجد أكثرهم شاكرين، بل يكفرون بالنعمة.

ومنها: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ...قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١)، يقسم إبليس اللعين في هذه الآية أيضًا بمقابل إغواء الله سبحانه وتعالى له، أن يزيّن لبني آدم في الأرض ويضلّهم جميعًا باستثناء من أخلصه الله تعالى، فهؤلاء لا يستطيع إبليس إغواءهم مهما فعل، والقدر المتيقن من هؤلاء المخلَصين ـ بفتح اللام ـ هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وعندما يكون الشيطان الرجيم غير قادر على إغوائهم، فمعنى ذلك أنهم معصومون. وأما تزيين إبليس لعنه الله لبني آدم المعاصي، فهو بإظهار السيئات بمظهر حسن، فمثلًا يظهر المرأة التي لا يجوز النظر إليها في عيونهم جميلة ولطيفة، ليرغبوا في النظر إليها فيقعوا في الحرام، وكذلك يزيّن الغيبة والنميمة والكذب والافتراء والبهتان في آذان السامعين، فيقعون في الحرام، فهو يظهر لهم هذه الأمور على أنها جميلة ومؤنسة. والتزيين يعني التبرير، وهو السلاح الفتاك للشيطان، فكل ذنب يقترفه الإنسان يظهره له الشيطان بمظهر حسن، ويجعل له تبريرًا معينًا.

إن هذا الضلال الذي يضرب بأطنابه بين البشر في أصقاع الأرض ناتج من قرار الشيطان، وقد كان إبليس من الجن، وكان مختارًا، وكان من العبّاد، وله سجدة تطول خمسمائة عام، ولكن حينما أمره الله سبحانه وتعالى بالسجود لآدم عصى، لأنه استخدم القياس، فقال: «**خلقتني من نار وخلقته من طين**»، وكيف تسجد النار للطين وهي أشرف؟ وأخذه العُجْب، فعصى الله سبحانه وتعالى، فطرده الله تعالى من رحمته، وعندما أصبح طريدًا أخذ يتوعد ذرية آدم بالإغواء والإضلال، وهذا الإغواء هو الأثر الطبيعي لعصيانه وتمرده على أمر الله سبحانه وتعالى، ولذلك فمسألة تزيين الباطل هي سلاح إبليس اللعين، ثم يوسوس للعاصي ما يبرر به عصيانه، كما برر لنفسه بأنّ النار أشرف من التراب، مع أنّ هذه الأفضلية لا حقيقة لها؛ ولهذا نرى المذنبين يبررون لأنفسهم سوء أعمالهم، ويصدّقون هذه التبريرات، كما أخبر عنهم المولى الجليل بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٣٢ ـ ٤٠.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، أي انحرفوا وأذنبوا وعصوا وهم يحسبون أنهم على الطريق الصحيح والمنهج الحق، وحالة التزيين هذه هي من أشد وأفتك الأسلحة التي يستخدمها الشيطان الرجيم.

المورد الخامس: يمين أنبياء أنطاكية

ورد في سورة «**يس**» قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[2]، والقرية يراد بها أنطاكية، وهي الآن تقع ضمن الحدود التركية شمال سورية، وموضع الشاهد في هذه الآيات الكريمة هو يمين هؤلاء الأنبياء الثلاثة أنهم مرسلون من الله تعالى، وهو قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ الذي وقع موقع القسم: والله نحن أنبياء أرسلنا الله. إذن أتوا لأهل هذه القرية وأقسموا لهم أن الله أرسلهم إليهم.

المورد السادس: قسم أهل الكتاب

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾[3].

تبيّن الآية الشريفة قصة مسلم كان في سفر مع اثنين من المسيحيين، ومرض في الطريق، فأوصاهما أن يوصلا أغراضه إلى الورثة إن مات، ثم تبيّن أنّ في أغراضه نقصًا، إذ كان لديه قلادة وآنية، ولكنهم لم يجدوهما بين الأغراض، فأتى الورثة رسول الله ﷺ يشكون عنده هذين الاثنين، فسألهما فأنكرا، فطلب منهما أن يقسما بالله أنهما لم يأخذا منها شيئًا، فأقسما، واعتبر رسول الله ﷺ هذا القسم دليلًا كافيًا على براءتهما، ثم

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) سورة يس، الآيات: ١٣ ـ ١٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٦.

ظهرت بعد ذلك القلادة والآنية، فأخذهما رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ منهما وأرجعهما إلى الورثة.
إذن فإن قسم أهل الكتاب الذي أقسموه بعد الصلاة، هو مورد من موارد القسم في القرآن الكريم.

المورد السابع: قسم أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ

لقد جاءت الإشارة إلى هذا المورد بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

لقد كان نبي الله أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ أسطورة الصبر، وقد ابتلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا النبي العظيم بأنواع البلاء، فقد تحدى الشيطان الرجيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ، وطلب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يُفوضه لاختباره عَلَيْهِالسَّلَامُ، إذ انفجر الشيطان اللعين غضبًا منه عَلَيْهِالسَّلَامُ لأنه كان شاكرًا لله.

لقد كان لنبي الله أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ الكثير من الأبناء، والكثير من الأراضي الواسعة والمواشي والأنعام، وفي لحظة فقد أهله وولده وماله، إذ احترقت مزارعه، ومات أولاده، وبقي صفر اليدين، ولم يبق معه إلا زوجة صالحة، وهي بنت نبي الله يوسف عَلَيْهِالسَّلَامُ، وصبر أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ على هذا البلاء، فطلب الشيطان اللعين من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُفوضه في استهداف أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ في بدنه، فخوله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك ما سوى العينين والعقل، وصبر أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ.

لقد ازداد البلاء على أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ فأُصيب بأمراض عضال، عجيبة وغريبة، لم يرَ الناس مثلها من قبل، فكانت الديدان تأكل من جسمه، وكانت تظهر من جسده رائحة نتنة نتيجة هذا التقرح والالتهابات الشديدة، فخاف الناس من هذا المرض أن يكون مرضًا معديًا، فطردوه وزوجته من المدينة، وصبر أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ.

واستمر الابتلاء ثمانية عشر عامًا، كان نبي الله أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ خلالها صابرًا شاكرًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلى أن حرّض الشيطان اللعين العبّاد والرهبان وأغراهم به، فكانوا يأتونه ويشمتون به، وكان وقع هذا كبيرًا على أيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ، فاضطر الى أن يبوح لهم بأسراره وقال: في أيام

---

(١) سورة ص، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.

الوفرة والنعمة لم أجلس على مائدةٍ إلا وجئت بالفقراء والمستضعفين وأجلستهم على مائدتي[1].

تقول بعض الروايات: إنّ زوجة النبي اضطرت الى أن تعمل في البيوت خادمة، مقابل الحصول على مبلغ قليل من المال لتوفير الرزق والأكل لزوجها المريض في الفراش، فخاف الناس من أن تنقل مرضه إليهم، فطردوها[2].

فأصبحوا بلا مال، ولا أولاد، ولا صحة، ولا سكن، وهم في غربة، في الصحراء، وفي يوم من الأيام غابت زوجة نبي الله أيوب عليه السلام ثم أتت ومعها خبز، فسألها : من أين أتيتِ بهذا الخبز؟ فقالت له: لا تسألني يا نبي الله، فأكلا الخبز، وبعد أيام جاعا جوعًا شديدًا، فذهبت زوجته وجاءت بالخبز، فسألها السؤال ذاته، فأجابته الجواب ذاته، فألحّ عليها، فاضطرت إلى أن تكشف الحقيقة، وقالت له إنها في المرة السابقة قصت شعرها وباعته لتأتي برغيفٍ من الخبز، وفي المرة الثانية قصت شعرها أيضًا وباعته، يُقال: إنه من شدة الألم الذي انتاب النبي عليه السلام أقسم بالله سبحانه وتعالى أن يعاقبها[3].

وبعد أن وصل بهم الحال إلى هذا المستوى، اضطر النبي الى أن يرفع يده بالدعاء وينادي ربه من صميم القلب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، ولم يقل له: يا إلهي حلّ مشكلتي، بل قال: يا إلهي، إن الشيطان قد بالغ كثيرًا بإيذائي وأنت أرحم الراحمين. وهنا جاء الأمر الإلهي: قم واضرب الأرض برجلك ليخرج الماء، فقام النبي وضرب الأرض بقدمه فانفجر ينبوع من الماء، وكان هذا الماء نقيًا طاهرًا فيه الصحة، فاغتسل النبي بهذا الماء، فعاد أفضل مما كان طراوةً ونقاوةً بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وكانت زوجته المسكينة تهيم بالأرض تبحث عن طعام، فلما رجعت إلى زوجها لم تره على الهيئة التي تركته عليها فلم تعرفه، ووجدت رجلًا جميلًا حسن المنظر، ولكنه يشبه زوجها، فقالت له: تركت هنا مريضًا مسجّى يشبهك كثيرًا، فقال لها: يا فلانة أنا أيوب ألم تعرفيني؟ لقد جاء الفرج الإلهي.

وأعاد الله سبحانه وتعالى له كل ما أعطاه سابقًا من المال، وأعاد له ذريته بشكلٍ مضاعف، وهنا

(١) بحار الأنوار ١٢: ٣٤٢ـ ٣٤٣.
(٢) بحار الأنوار ١٢: ٣٥٤.
(٣) بحار الأنوار ١٢: ٣٤٣ـ ٣٤٤.

اختلف المفسرون، فقال بعضهم: إن المضاعف بمعنى أحيا أولاده الأموات وصار لديه أولاد، وقال بعضهم: إنّ الله سبحانه وتعالى تفضل عليه بأن أنجبت له زوجته ضعفًا من الأولاد، وإن كان كبيرًا في السن.

وبالنسبة إلى القسم الذي قطعه النبي عليه السلام في أن يُعاقب زوجته نتيجة غضبه، جاءت هذه الآية: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾، والضغث هو حزمة من الحشيش، أمره الله سبحانه وتعالى أن يجمعه ويضرب به زوجته مائة ضربة، برًا بقسمه، ولئلا يحنث به، وتخفيفًا للعقوبة، فبدلًا من أن يضربها بالسوط ضربها بهذه الحزمة من الحشيش، كل ذلك وفاء بقسمه لما للقسم من حرمة عظيمة تجب مراعاتها حتى في مثل هذه الظروف القاسية.

المورد الثامن: قسم المزارعين

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المورد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[1].

يُشير القرآن إلى قسم عدد من المزارعين من أهل اليمن، وقصة هذا القسم تتلخص في أنه كان هناك رجل مؤمن صالح يملك بساتين كثيرة، تجني له أموالًا طائلة، وكان يأخذ منها بمقدار حاجته ويوزع الفائض بين الفقراء والمساكين، وكان فقراء تلك المدينة يعتاشون جميعهم على سُفرة هذا الرجل الصالح، فمات هذا الرجل، وورث أولاده من بعده هذه البساتين الكبيرة، فعرضهم الله سبحانه وتعالى للابتلاء، فهو يختبر الفقير بفقره، والغني بغناه، ولكن هؤلاء الأولاد لم يكونوا كأبيهم، إذ قرروا أن يقطفوا ثمار بساتينهم في كل صباح، لكي لا يحضر الفقراء والمساكين ويعطوهم منها، وأقسموا على ذلك. وهذا المقطع القرآني يتحدث عن أنّ هؤلاء لم ينجحوا في هذا الاختبار، وعن الآثار التي ترتبت على هذا الأمر.

المورد التاسع: القسم على ترك الإنفاق

وهو القسم الذي أقسم به بعض المسلمين في قضية «**الإفْك**»، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَلَا يَأْتَلِ

(١) سورة القلم، الآية: ١٧.

أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وملخص حادثة الإفك على ما رواه كثير من المفسرين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في إحدى غزواته، ومعه بعض أزواجه، وهي عائشة كما يُقال، فقد كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصطحب معه إحدى زوجاته في كل غزوة من الغزوات، وفي العودة من إحدى تلك الغزوات كان الطريق طويلاً، فكان المسلمون يتوقفون للاستراحة، فكانت تبتعد عن ركب الجيش لقضاء حاجتها، وبعد رجوعها وجدت أنها قد فقدت مصوغاتها الذهبية، فرجعت إلى الصحراء للبحث عنها، وفي ذلك الوقت كانوا يركبون النساء في الهوادج، ولم يشعر المسؤول عن الناقة التي عليها هودج زوج النبي بنزولها، وكان يظن أنها قد عادت إلى مكانها، وعندما رجعت لم تجد أحدًا، فبحثت عنهم كثيرًا حتى تعبت وغلبها النعاس، فأتى أحد المسلمين من تلك المنطقة، وكان هذا الرجل من نفس المنطقة التي كان فيها بيت أبي بكر، فكان يعرفها عندما كانت طفلة، فتبيّنها من بعيد وعرفها نتيجة الصورة السابقة التي كان يعرفها بها منذ الطفولة، فتنحنح حتى استيقظت، وسألها إن كان قد حدث خطب ما، فقصّت له قصتها، فقرّب الناقة منها وجلست عليها وأتى بها إلى المدينة، ولم يكلمها في الطريق حفاظًا على خصوصية المحرم، حتى وصل بها إلى دار رسول الله صلى الله عليه وآله.

وسوّلت لبعض أصحاب النفوس المريضة أنفسهم أن يتهموا رسول الله صلى الله عليه وآله في عِرضه، ودبت الشائعة في المدينة كالنار في الهشيم، وأحرجت هذه القضية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كثيرًا، حتى نزلت هذه الآيات الكريمة، وفيها تقريع كبير لتلك العصابة التي أشاعت الخبر.

وبعد نزول هذه الآيات التي فيها تقريع شديد وغليظ بحق من تداول هذه الشائعات وتحدث بها على نطاقٍ واسع، أقسم بعض المسلمين الميسوري الحال من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنْ لا ينفقوا بعد اليوم على من ساهم في ترويج هذه الشائعة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، إذ منعهم من الحلف على ترك مساعدة

(١) سورة النور، الآيات: ١١ ـ ٢٢.

الفقراء، وقد رهن الله ﷻ غفران ذنوب الأغنياء بمساعدة الفقراء، مخاطبًا إياهم: أتظنون أيها الأغنياء بعد أن عزمتم على ترك مساعدة هؤلاء الفقراء، أن ليس لديكم ذنوب تحتاجون الى أن يغفرها الله تعالى لكم؟.

ونتعلّم من هذه الآية الشريفة درسًا عظيمًا آخر؛ وهو العفو والصفح حتى لو كان الخطأ بهذا المستوى، مع بقاء التأديب والتقريع الإلهي في محلّه، ولكن يجب أن تسير الحياة، ومَنْ منّا ليس لديه ذنوب؟ فلا بُـدَّ من التعامل بيسر في مثل هذه الأمور، وألاّ يكون الإنسان شديدًا في مثل هذه المسائل، فالصفح مسألة في غاية الأهمية.

وتُشير الآية أيضًا إلى عملية التمييز بين ناقل الشائعة وصانعها، وبين المنحرفين المغرضين أصحاب الأجندة، والناس المغرر بهم، فالمغرض هو المتآمر، والمغرر به هو المنخدع بالشائعة. فالتمييز بين المغرر بهم، وأصحاب المشاريع والمتآمرين أمر مهم، فلا بُـدَّ من التمييز والتفكيك بينهما.

المورد العاشر: قسم أهل الجنة

يحدّثنا القرآن الكريم عن القسم الذي يقسم به بعض أهل الجنة، فقد جاء في هذه الآيات الشريفة: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾[١].

تتناول هذه الآيات الكريمة حوارًا بين بعض أصحاب الجنة، مع بعض أهل النار ممن كانوا لهم رفقاء في الدنيا. وبعد أن تتحدّث الآيات عن النعيم الذي يعيش فيه المخلصون، في جنات النعيم، تصل إلى جلوسهم مع بعضهم يتساءلون بينهم عن مصير من كان معهم في الدنيا، فيقول بعضهم: أين فلان الذي كان رفيقًا مقربًا لي في الدنيا؟.

وفي الآخرة يعطي الله ﷻ لأهل الجنة قدرة وصلاحية ـ متى ما أرادوا ـ أن يكشفوا الستار وينظروا إلى ما يدور في النار، فأطلّ أحدهم إطلالة على النار فرأى صاحبه في قعر الجحيم، والنار تغلي حوله ويعاني صنوف العذاب، فقال له: تالله إن كدت لتغويني وتضلني. فصديق السوء من أخطر المهلكات على الإنسان، وهو يؤثر وينخر في

(١) سورة الصافات، الآيات: ٤٠ ـ ٥٦.

الإنسان، وهو ليس عدوًا، بل هو صديق، ويؤثر في صديقه رويدًا رويدًا إلى أن يجره إلى الانحراف والضلال من حيث لا يعلم؛ لذلك ينبغي الاهتمام بالقرين، والتركيز على الصديق، والسؤال عن أحوال الجيران قبل شراء الدار، فالجار قبل الدار، والتعرف عليهم من أي دين هم؟ وما هو سلوكهم وأخلاقهم؟ وبعدها توكل على الله وجاورهم. وكذلك ينبغي أن يكون الأمر في علاقاتنا الشخصية أيضًا، فلاحظ من هو الصديق الذي تريد أن تصادق؟ وما هي خصوصياته وسلوكه، وتعامله وتدينه والتزامه؟ ولا تستهن بهذه الأمور، لأن علينا أن نفرزها ونفصلها، وعلينا التدقيق بالقرين، لكي لا نقع في مثل هذه التحديات والمشاكل.

المورد الحادي عشر: قسم قوم ثمود

أشار القرآن الكريم إلى قسم قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ..... وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١).

تتحدث الآيات الكريمة في هذا المقطع عن قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وأول ما يلفت الانتباه هو التعبير بـ«**أخاهم**»، وهو تعبير دقيق، وقد تكرر هذا التعبير مع أربعة أنبياء آخرين هم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام، فإذا كان المقصود أنّ الله عز وجل قد أرسل هؤلاء الأنبياء الخمسة من نفس أقوامهم، فهو مردود بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾(٢) الذي يعني أنّ الله يختار أنبياءه من قومهم، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وآله أرسله الله إلى مكة وهو من قريش، أهم عشيرة في مكة، ومن هناك انطلقت الرسالة. ولعل التعبير بـ«**أخاهم**» إشارة إلى أنّ الأخ يحمل صفة المودة والقرب، وهو ليس من قبيلتهم فقط، بل هو عضدهم وسند ظهرهم، وقريب منهم، وكذلك كان الأنبياء يتوددون دائمًا إلى الناس، وقريبين من قلوبهم، فإنّ من يريد أن يؤثر في الناس لا يستطيع أن يؤثر بهم بواسطة الأوامر والنواهي، وإن أطاعوه في لحظة، ولكن عندما يغمض

(١) سورة النمل، الآيات: ٤٥ ـ ٥٣.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

عينيه يخالفونه ويعصونه، ولكن من يستطيع أن يبني علاقة محبة ومودة ورحمة وشفقة وحرص ولطف وأخلاق، يستطيع أن يديرهم بأفضل ما يكون بالأخلاق، وكانت هذه هي طريقة الأنبياء.

ثم تشير الآيات الكريمة إلى تسعة رهط في المدينة، أي تسع عصابات، أو تسع مجموعات منحرفة أو تسعة أحزاب ضالة، لأنّ الرهط هم مجموعة لها قائد، عددهم من عشرة إلى أربعين، كما يذكره المفسرون، وهي مجموعات إرهابية منحرفة؛ لأنهم كما عبّرت عنهم الآية الكريمة: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(١)، ويفسدون فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعني أنهم يفسدون دائمًا، وهم أهل شر وبلاء وإيذاء، وعصابات تسليب ونهب، وكانت لديهم مشاكل دائمًا، ويسيئون إلى الآخرين، وبالطبع لقد كان نبي الله صالح عليه السلام كغيره من الأنبياء، مثار فتنة؛ لأنّ النبي يدعو إلى الصلاح، فينقسم المجتمع إلى مؤيد ومعارض، فيصطف الصلحاء معه، ويصطف المفسدون ضده، فتحدث حالة الانقسام.

إن المفسدين ـ كما يحدثنا القرآن الكريم ـ في قوم ثمود وفي غيرهم يتحدون بينهم، وكانوا يأتون النبي ويقولون له: إذا كنت نبيًا كما تزعم فأنزل علينا العذاب، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢)، وهذا أمر غريب، أن يأتي شخص ويقول: أنا صيدلاني حاذق، وأخذت الاختصاص من الجامعة الفلانية في تصنيع الأدوية، وعندما يُسأل ما هي الأدوية التي تصنعها؟ يقول: هذا العلاج جيد جدًا ومفعوله قوي، يزيل الصداع ويزيل الألم، وهذا الآخر سم قاتل، فهل يصح أن يقال له: أعطني السم لأشربه وأرى هل أموت فيثبت أنك صيدلاني حاذق؟ أو ينبغي أن يستعمل العلاج وينظر إن كان يشفيه أم لا لكي يرى أهو حاذق أم لا؟. وكذلك هنا؛ فمن يدّعي أنه نبي فهل يصح أن يقال له: أنزل علينا العذاب إن كنت نبيًا حقًا، أو ينبغي أن يقال له: لنجرب المنهج الذي أتيت به، لنرى إن كان يستطيع تحقيق السعادة لنا أم لا؟، أو يقال له: اطلب من الله تعالى أن يلين قلوبنا، أو ائتنا بمعجزة لنرى ونتأكد. وقد اختار هؤلاء المنهج غير المعقول في إثبات نبوة النبي عليه السلام، فإنّ العذاب إذا نزل عليهم وتيقنوا من صحة نبوته،

(١) سورة الشعراء، الآية : ١٥٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

فإنهم سيكونون حصيدًا خامدين وقد خسروا الدنيا والآخرة، فانظروا لهذه القسوة، وهذا الانحراف، لماذا تطلبون العذاب ولا تطلبون الرحمة والهداية والمعجزة التي تدل على صحة وصدق النبوة؟، ولكن هكذا يتعامل القوم الظالمون مع أنبيائهم؛ إذ يقابلونهم بالسخرية والاستهزاء.

وعندما أعلن صالح عليه السلام نبوته وأنه مرسل من الله سبحانه وتعالى إليهم ليعبدوه، انقسم الناس إلى قسمين، فاصطف الصالحون معه، واصطف الآخرون ـ وهم الأكثر ـ ضده، وطلبوا من صالح عليه السلام أن ينزل عليهم العذاب، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعطيهم إشارة قوية، فابتلاهم بالقحط والجوع والجفاف.

إن هؤلاء ـ قوم ثمود ـ بدل أن يعتبروا ويروا أنّ هذه رسالة مهمة من السماء، وأنّ هذا نبي لا تجوز مخالفته، فسّروا هذه الإشارات بأنها شؤم، وقالوا: عندما جاء صالح بدعوته هذه، جاء معه الجوع والعطش والقحط والجفاف، وهذا هو البلاء، وفي هذا درس عظيم؛ فنحن نبحث دائمًا عن شماعة نعلّق عليها أخطاءنا، فمثلًا عندما يفشل الطالب في الامتحان، يقول: لا توجد كهرباء، أو إن المعلم لم يكن جيدًا، ولا يقول: أنا السبب أو أنا المخطئ ولم أدرس كما ينبغي، وهكذا القائد عندما يُهزم في المعركة، إذ يأتيك بعشرة أسباب للهزيمة، فيقول: إنّ الخطة كانت فاشلة، أو إن العتاد لم يصل، أو إنّ المعنويات كانت مهزوزة، وعشرات الأعذار الأخرى يذكرها لنا، ولا يقول: إنّ الخطأ كان مني، فطبيعة الإنسان هكذا، حين نراجع أنفسنا في أي قضية أو عمل أخفقنا فيه ولم تأتِ النتائج المرجوة، لا يخطر في بالنا أبدًا أن نلوم أنفسنا، بل نرمي اللوم دائمًا على الآخرين. وهؤلاء ـ قوم صالح ـ أيضًا أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم العذاب بسوء اختيارهم، وبفعلهم الخاطئ، وإساءاتهم، ولم ينزل الله سبحانه وتعالى عليهم العذاب الشديد، بل بدأ بإشارة قوية، وهي الجوع والقحط والجفاف، ولم يلوموا أنفسهم، بل قالوا: إن مصدر الشؤم هو صالح عليه السلام ويجب أن نغتاله هو وأهله، ولكنهم لم يستطيعوا، فذهبوا وقتلوا الناقة التي كانت معجزته عليه السلام.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أي قالوا: ليقسم بعضنا لبعض بالله أن نقتله وعائلته، وفي الصباح نقول لذويه وعشيرته: لم نحضر قتلهم وإنا لصادقون. وما أشبه اليوم بالبارحة؛ إذ يذبحوننا نحن وأهلنا، نساءنا، وأطفالنا، فقد حاصرت (داعش) مدينة آمرلي (٢٥) يومًا حصارًا

شديدًا، وسدّوا على أهلها جميع المنافذ والسبل للحيلولة دون هروبهم، وكان فيها (٢٠) ألفًا من أتباع أهل البيت عليهم السلام، يريدون أن يذبحوهم جميعًا عن بكرة أبيهم، نساء وأطفالاً وشيوخًا ورجالاً، هكذا كانوا يتعاملون معنا، وهذا هو ديدن العصابات الإرهابية المنحرفة.

لقد تحالفت تسع مجموعات إرهابية مسلحة، وأقسم بعضهم لبعض بالله أن يغتالوا نبي الله صالحا وعائلته، ثم يعلنوا براءتهم من هذه الجريمة ويستنكروها. لقد أقسم هؤلاء بالله تعالى على قتل نبي الله، فهم يتظاهرون بأنهم مؤمنون بالله، ولو كانوا مؤمنين بالله حقًا لآمنوا بنبيه وتمسكوا به.

إنّ تفسير ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا﴾ يعني أنهم يرون أنفسهم على حق، ونبي الله على باطل، وهذا هو الذي تكلمنا عنه في تزيين الشيطان: «**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ**»، وهم مصداق لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، فقد كان بناؤهم على أنّ هذا عمل جيد، وأقسموا بالله، وذهبوا لقتل هذا النبي وأهله، أو كانوا يعلمون أنّ هذا نبي وهو على الحق وأنهم على باطل، ولكنهم يريدون قتله، وحتى هؤلاء الكفرة الفجرة يلزم بعضهم بعضًا بالقسم بالله، فلا يوجد عندهم غير الله يثقون بالقسم به ليصدق بعضهم بعضا؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو ملاذ الجميع، حتى المنحرفين.

نعم لقد تآمروا على اغتيال نبي الله وعائلته ليلًا، وفي الصباح يعلنون براءتهم من قتله، ويؤكدون ذلك بأنهم لصادقون، أي سيحلفون لأولياء دم صالح عليه السلام أنهم أبرياء ولا علاقة لهم بالقتل. إذن فهم مع أنهم الأكثر عددًا ولكنهم لا يستطيعون تنفيذ جريمتهم علنًا والاعتراف بها، مما يعني أنّ هناك أجواء ومعادلات تتحكم بالوضع العام، وهي لمصلحة النبي صالح عليه السلام، منها وجود عشيرة له وعدد لا بأس به من المؤيدين الذين سيستفزهم مقتله عليه السلام.

كانت فكرة تبييت القتل ناشئة من مراقبة تحركات صالح عليه السلام، الذي كان يخرج في آناء الليل إلى الجبل للعبادة، وكانت هناك ثغرة بين جبلين يذهب ويتعبد فيها، فكان المخطط الإجرامي لاستهداف صالح عليه السلام هو أن يذهبوا ويختبئوا في تلك الثغرة، وعندما يأتي عليه السلام وحيدًا كعادته للعبادة، يهاجمونه ويذبحونه، وأما المرأة والأطفال

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

فيذهبون إليهم في منتصف الليل ويذبحونهم، وفي اليوم الثاني ينكرون ويتنصلون من ارتكاب الجريمة، ولكن عند التنفيذ وحينما ذهبوا إلى تلك الثغرة بين الجبلين، زلزل الله سبحانه وتعالى الأرض تحت أقدامهم فتهاوت الصخور على رؤوسهم وقُتلوا جميعًا. لقد كادوا كيدًا، وصالح عليه السلام غافل عن كيدهم، فكادهم الله سبحانه وتعالى وهم غافلون عن كيده؛ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

والمكر: هو صرف الآخر عما يقصده، أي يريد أن يفعل شيئًا فيثنيه شخص آخر عنه، يعني أنه يلتف على قراره، ويغير رأيه، وقد يكون تغيير الرأي هذا إيجابيًا، وقد يكون سلبيًا، فأي تغيير وأي إفشال لخطة هو مكر، ولكننا في استعمالاتنا المعاصرة لهذه اللفظة، نقتصر على المكر الذي فيه بُعدٌ سلبي، ونقصد به الخديعة، ولكن المكر في اللغة العربية يشمل بُعدًا إيجابيًا أيضًا، فالمكر يعني أن تجهض وتفشل الخطة، فإذا كانت هذه الخطة شيطانية، فإجهاضها وإفشالها عمل رحماني، فهو مكر ولكنه مكر صالح، فالمكر مكران: مكر شيطاني، ومكر رحماني، والمكر ليس عنوانًا سلبيًا، فلا يخطر بالبال أنه كيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ فهل الله ماكر؟ نعم، ولكن ليس ماكرًا بالمعنى السلبي، الذي نحن نفهمه في زماننا، بل هو مكر إيجابي، فيمكر بالكفار والمشركين والضالين المنحرفين، أي يجهض خططهم، لأنّ الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا، فيجهض مشاريع الفاسدين والمنحرفين والضالين. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يعلمون، فقد ظنوا أنّ الخطة تسير كما يريدون، وكذلك ظنّ الإرهابيون أنّ سقوط الموصل وتكريت سيحدث انهيارًا، ويهرب الجيش، ويدب الخوف والهلع في قلوب الناس، ويدخلون بغداد في يومين، هكذا كان ظنهم، ولكنهم تفاجؤوا بما لم يحسبوا له حسابًا عندما صدرت فتوى الإمام السيد السيستاني (دام ظله) بإعلان الجهاد الكفائي، وهبّ مئات الآلاف من الشجعان، يؤيدهم الملايين وهم يجوبون الشوارع والأزقة بأسلحتهم ،وحناجرهم تهتف بالموت دون الدين والوطن، في منظر لم يشهد له العراق في تأريخه مثيلًا، وانطلقوا وهم يتزاحمون على التطوع للقتال في ساحات الجهاد، حاملين أرواحهم على أكفهم، فأحدثوا ردّة فعل معاكسة، ودبت روح الهزيمة والتخاذل في صفوف الأعداء وتراجعوا القهقرى أمام ضرباتهم الموجعة، وطهروا الأرض والعرض من دنس هذه العصابات التكفيرية الوهابية البائسة.

(١) سورة النمل : الآية: ٥٠.

ثم تتحدث الآيات الكريمة عن مصير هؤلاء المستهزئين بالأنبياء، وعاقبة مكرهم وغدرهم وتحديهم للمنهج الحق، ودعانا الله للنظر والاعتبار، فقد دمرهم الله المنتقم الجبار المهيمن المتكبر وقومهم أجمعين، وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون، ولم يعاقبهم بعقاب المسيئين، لأنهم كانوا مع صالح عليه السلام.

المورد الثاني عشر: قسم أهل النار

هناك العديد من الآيات الشريفة في القرآن الكريم تشير إلى قسم أهل النار.

منها: قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

يختزل هذا المقطع القرآني الكريم أهل النار من الضالين والكافرين والمنافقين بعنوان واحد هو عنوان الغاوين؛ لأنهم جميعًا قد أغواهم الشيطان فأضلهم عن السبيل إلى الجنة، فكان مصيرهم إلى النار. وهناك آية أُخرى تُشير إلى نفس الحقيقة أيضًا، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٢)؛ لأنّ الغاوين يتأثرون بالشيطان لذلك بُرّزت لهم الجحيم، وللشيطان سلطان على هؤلاء الغاوين فقط.

وفي ذلك المشهد الرهيب في يوم القيامة، وبعد انتهاء الحساب تُبرز الجنة للمتقين وجهنم للغاوين، ويُسأل الغاوون سؤالين: الأول: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ أي أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ أين الأصنام والأحجار والكواكب والنار والشمس والقمر والزعماء والبقر؟ أين ما كنتم تتخذونه ربًّا من دون الله؟ أين الذين كانوا يُنكرون وجود الله سبحانه وتعالى ويندفعون إلى عبادة غيره؟.

وهنا لا يُسألون أين ما كنتم تتخذونه إلهًا من دون الله؟ لأنّ من ضمن هؤلاء الغاوين الكثير من المسلمين واليهود والنصارى الذين يزعمون أنّ الله عزّ وجلّ هو إلههم، ولكن يُسألون أين ما كنتم تعبدونهم من دون الله، أي تطيعونهم في ما يأمرونكم وينهونكم

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٩١ ـ ١٠٤.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

وتعصون الله ﷻ. والسؤال الثاني: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟، هل ينقذونكم اليوم مما أنتم فيه؟ وهل تتوقعون ممن لا يستطيع إنقاذ نفسه من عذاب الله أن ينقذكم؟ ويخيم الصمت على تلك المليارات من البشر وهم لا يقدرون على جواب، فماذا يجيبون؟ هل يقولون جوابًا عن السؤال الأول: نعم، إنّ بعضهم موجودون معنا كفرعون وأمثاله ممن اتخذه البعض معبودًا من دون الله، ولكنهم يصابون بالخرس عندما يقال: هل يستطيعون نصركم أو الانتصار لأنفسهم؟ فلا يستطيعون جوابًا ويرجحون السكوت على إجابة لا يمكن أن تنجيهم مما هم فيه.

وعندما لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بعد أن أُعطوا فرصة الدفاع، يؤمر بهم إلى النار، فتسوقهم ملائكة العذاب إلى جهنم سوقًا عنيفًا بذلة ومهانة، ويكبكبون فيها، أي يرمونهم ويدفعونهم فيسقطون على وجوههم فيها. ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ : أي هم وما عبدوا من دون الله من الأصنام وغيرها ممن ذكرنا، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من الجن والإنس الذين كانوا يطيعون إبليس في ما يأمرهم به من إضلال البشر وإغوائهم، فالغاوي ومن تم إغواؤه ومعهم الشيطان يُدفعون إلى النار دفعًا.

ثم ينتقل هذا المقطع القرآني الكريم إلى بيان حال أهل الجحيم فيها، ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يتشاجرون، فالطابع العام الذي عليه أهل النار في علاقاتهم هو الخصومة الشديدة والتشاجر وتبادل التهم، وكلٌّ يقول للآخر أنت الذي أغويتني وأضللتني وورطتني، ولولاك لكنت من أهل الجنة، ثم يعترفون بأنهم كانوا في ضلال مبين، أي ضلال واضح جليّ وشديد، وأنهم كانوا بعيدين جدًا عن الهدى، ويقسمون على ذلك للتأكيد، وهو موضع الشاهد: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ثم يبينون الضلال المبين الذي كانوا عليه بقولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي نجعلكم على قدم المساواة مع الله جلّ جلاله في العبودية، فتركنا الله سبحانه وتعالى وتمسكنا بكم، وعصيناه وأطعناكم، وجعلناكم أندادًا لله سبحانه وتعالى. ثم يبينون من أضلوهم وأبعدوهم عن طاعة الله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾، وهو أقسى ما يمكن أن يُوصف به من كان سببًا للغواية والضلال، وعلى نقيض ما كانوا يعتقدونه بهم بأنهم الهداة والمرشدون والقادة إلى سبل الخير والحق والصلاح والإصلاح من القادة السياسيين والدينيين، وهو قوله

تعالى في آية أُخرى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[1]، وهم في الواقع كانوا مجرمين، وهم الكبار الذين أداروا الأمور واقتدى بهم عامة الناس، فأضلوهم وأخذوهم إلى حيث الانحراف والضلال.

ثم يبدون حسرتهم على تفريطهم بأقل ما يمكن أن يخلصهم من عذاب الجحيم، وهي الشفاعة، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾، فاليوم لا يوجد من يشفع لهم؛ لأنّ من أعطاهم الله ﷻ الشفاعة لا يشفعون لمن هبّ ودبّ، بل يشفعون لمن لم يتخذ غير الله ﷻ معبودًا، وليس لمن عصاه وأطاع سواه، ووقف في صف أعدائهم في الدنيا، وكذلك يتحسرون ويندمون على عدم اتخاذهم صديقا حميمًا من المؤمنين يستطيع أن يشفع لهم هنا، فيقولون: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، أي ليس لدينا صديق من أهل الصلاح، من أهل الجنة يشفع لنا، وقالوا ﴿حَمِيمٍ﴾ لأنّ مجرد الصداقة العادية مع المؤمنين لن تنفع في الشفاعة، بل لا بُـدَّ من أن تكون الصداقة قوية جدًا وحميمة، بحيث يمكن أن يقف المؤمن هناك ويقول إنّ هذا الصديق قد وفّى بجميع حقوق الصداقة معي، وإنه وقف معي في كذا وكذا وساعدني وخلصني من مواقف محرجة وكان عونًا وعضدًا. وقد ورد عن رسول الله ﷺ وسلم أنه قال: «**إنّ الرجل يقول في الجنة ما فعل صديقي فُلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله: أخرجوا له صديقه إلى الجنة**»[2]، يخرجونه من النار إلى الجنة كرامة لصديقه المؤمن.

وأخيرًا يتمنون لو أنهم يرجعون إلى الدنيا مرة أُخرى ، لكي يكونوا من المؤمنين بالله ﷻ ويطيعوه في ما يأمر وينهى، وينبذوا عبادة وطاعة من سواه، فقالوا:﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولكن هيهات هيهات وأنى لهم ذلك، فما هي إلا أمانيّ لا تتجاوز آذانهم، فليس للإنسان فرصة أُخرى للنجاة غير هذه الدنيا الفانية وهذا العمر القصير.

ثم يعقّب الله ﷻ على حكاية هذا المشهد الأخروي بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي أنّ في ما قصصناه عبرة كافية لمن يريد الاعتبار، ولا ينفعه أن يتمنى الرجوع مرة ثانية إلى الدنيا عندما تقوم الساعة وتدق أجراس الحساب، فالإنسان

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٢) بحار الأنوار ٧: ١٥٣.

في فسحة من أمره هنا وليس هناك، فمن أراد الإنابة فعليه أن يبادر إليها الآن وليس بعد ساعة، فهو لا يدري متى تطوى صفحة حياته من غير رجعة، ولكن البعض يشاهدون بأم أعينهم هذه الحقائق والعبر، والله يُقيم الحجة عليهم، ولكنهم لا يكترثون ولا يهتمون ولا يلتفتون وكأن الأمر لا يعنيهم.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى طاويًا صفحة الحديث عن هذا الموضوع: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1]، أي أنّ الله سبحانه وتعالى عزيز، وفي نفس الوقت هو رحيم أيضًا، ولا منافاة بين العزة والرحمة في صفاته عز وجل، فهو عزيز لا تفوته معاقبة من عصى وتمرد، ورحيم يصفح عمن يستفيد من هذه العبر ويعبده ولا يعبد سواه.

المورد الثالث عشر: قَسَم الله سبحانه وتعالى

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يقسم الله فيها، وقسم الله هو تشديد وتأكيد.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[2]، فالله سبحانه وتعالى يُقسم أنه قد أرسل الرُسل، والخطاب موجّه لبني إسرائيل: نحن أرسلنا موسى نبيًا وأرسلنا معه الكتاب، فهناك أنبياء حملوا معهم رسالات نسمّيهم الرسل، وهناك أنبياء لم يحملوا رسالة وإنما جاؤوا ليعضدوا رسالة الرسول الذي كان قبلهم، ومن حملوا رسالات وكانت رسالاتهم للعالمين جميعًا نسمّيهم الأنبياء أولي العزم، وهم خمسة أو ستة على اختلاف الروايات، وموسى عليه السلام كان أحد هؤلاء الخمسة، ويوجد أنبياء ليس لديهم كتب، ولكنهم كانوا يُبشرون بكتب الأنبياء الآخرين.

﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، أي أتبعنا موسى عليه السلام بعدد من الأنبياء والرسل، فكان مجموع من بعثهم الله سبحانه وتعالى مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، والأنبياء الذين جاؤوا بعد نبي الله موسى عليه السلام لبني إسرائيل وذكرت أسماؤهم في القرآن هم: داود، وسليمان، ويوشع، وزكريا، ويحيى.

وورد هذا المعنى في الآية الشريفة: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، ومعنى

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٢ - ١٠٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.

﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ ، أي أرسلنا رسولاً بعد رسول، فهناك تتابع واستمرار. وكانت الأمم تكذب أي نبي مرسل إليها، وأحياناً يقتلونه، فنرسل إليهم نبيًا آخر لنقيم عليهم الحجة، فأهلكنا من كذب الرُسل بعضهم بعد بعض، حتى أصبحوا أحاديث وعبرة للآخرين، ﴿فبُعدًا لقومٍ لا يؤمنون﴾.

وقد ورد في نهج البلاغة في الخطبة الأولى، في سياق إرسال الرسل والمهمة المطلوبة من الأنبياء، يقول عليٌ عليه السلام: **«وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِه أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللَّه إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الآبَاءُ وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ»**[1].

«وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِه»: أي اختار الله سبحانه وتعالى أنبياء من أولاد آدم عليه السلام.

«أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ»: أي أخذ منهم العهد على تلقي الوحي من جبرائيل عليه السلام.

«وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ»: أي أخذ منهم المواثيق أن يكونوا أمناء في تبليغ الرسالة للناس.

«لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللَّه إِلَيْهِمْ»: أي حينما لم يلتزم أكثر الخلق بعهد الله عزّ وجلّ إليهم وبدّلوه بآخر من عند أنفسهم، وزعموا أنه من الله سبحانه وتعالى.

«فَجَهِلُوا حَقَّهُ»: لم يعطوا الله سبحانه وتعالى حقه في احترام عهده.

«وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ»: أي البدائل، فعبدوا مع الله سبحانه وتعالى آلهة أُخرى اخترعوها من عند أنفسهم وجعلوها أضدادًا وبدائل له سبحانه وتعالى.

«وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ»: أي صرفتهم الشياطين عن معرفة الله سبحانه وتعالى.

(١) نهج البلاغة ١: ٣٣ خطبة ١.

«**وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه**»: أي منعتهم الشياطين من أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى.
«**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ**»: أي أنّ الله تعالى شأنه أرسل الرسل ليلقي حجته على الناس.
«**وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ**»: أي أرسل الأنبياء الواحد بعد الآخر بشكل متلاحق.
«**لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ**»: أي ليطلبوا من الناس أن يؤدّوا ما تتطلبه الفطرة من عبادة الله سبحانه وتعالى.
«**وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه**»: أي يُذكّر الأنبياءُ الناسَ ما نسوه من نعم الله سبحانه وتعالى.
«**وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ**»: يبلغون رسالات الله لكي تكون حجة عليهم بين يدي الله.
«**وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»: يستفزون عقولهم ليُفكروا ويروا الحق ويسعوا إليه.
«**وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ**»: يبينون لهم أنّ الله تعالى قادر على كل شيء.
«**مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ**»: ومن مصاديق آيات مقدرة الله تعالى: السماء المرفوعة فوق رؤوسهم من غير عمد يرونها، والأرض التي يعيشون عليها، والتي مهدها وأنبت لهم فيها الزرع ليأكلوا من ثماره المتنوعة، وخلق المياه الجارية فوق الأرض، والمياه المستقرة في جوفها، وجعل فيها معايشهم ليمارسوا فيها أنواع الحرف، ويبيّنون لهم أيضًا أنّ أعمارهم محدودة وأنّ الموت من ورائهم، وأنّ في هذه الحياة متاعب تهرمهم، أي تصيبهم بالشيخوخة والعجز.
«**وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ**»: يشرحون لهم سُنة الابتلاء والأحداث التي تتعاقب على الناس.
«**وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ**»: لا توجد أمة إلا وأُرسل لهم نبي يبيّن لهم آيات الله تعالى ويهديهم إليه ويكون حجة عليهم.
«**أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ**»: إذا لم يكن هناك نبي بين ظهرانيهم، فهناك كتاب سماوي منزل من الله تعالى إليهم، فيه الحجة البالغة عليهم، وبيان لأحكامه سبحانه وتعالى من الحلال والحرام، وفيه قصص ما قبلهم، وآيات الإنذار والتحذير، ومشاهد القيامة والجنة والنار.
«**أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ**»: إن لم يكن عندهم نبي ولا كتاب، فهناك حجة ملزمة لهم من العقل الذي جعله الله سبحانه وتعالى حجة باطنة على جميع خلقه، فالعقل يبيّن كل ما هو حسن فيتبعه، وكل ما هو قبيح فيجتنبه.
«**أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ**»: إن لم يكن عندهم أحد الأمور الثلاثة السابقة، فهناك طريق رابع

هو المحجة القائمة، أي السنة الواضحة والقويمة، وهي سيرة العقلاء ليسلكها الناس ويتبعوا آثارها.

« **فَلِلَّه الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** »: كل ذلك من أجل أن تكون لله تعالى على الناس الحجة الدامغة يوم القيامة، ومعها لا يمكن لإنسان أن يقول: ليس لك علينا حجة فنتّبعها.

« **سُلٌ لاَ تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ** »: أي أنّ قلة عدد الأنبياء والرسل لم تجعلهم يقصرون في تبليغ رسالات ربهم، فهم على قلّتهم كانوا يكفون في إيصال كلمة الحق إلى من بُعثوا إليهم.

« **وَ لاَ كَثْرَةُ اَلْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ** »: وكذلك لم تثنهم وتثبط من عزائمهم كثرة المكذبين والمعارضين لهم، عن تبليغ الرسالة الإلهية، فالإنسان يجب أن يبقى متمسكًا بالحق ولا يستوحش طريق الحق لقلة سالكيه.

«**مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَه**»: يسألون النبي السابق عن النبي الذي يأتي من بعده.

«**أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ**»: النبي يُعرف ويكشف للناس الأنبياء الذين كانوا في الأمم السابقة.

«**عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ**»: أي مضت القرون وتتابعت، فكان في كل عصرٍ نبي.

«**وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْآبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاء**»: وكذا كانت الناس عبر القرون والأجيال، كلما مضى جيل وجاء آخر، أرسل الله تعالى لهم نبيًا يكون حجة عليهم، فقد رحل الآباء وجاء الأبناء، والأنبياء موجودون يوضحون ويبينون والأمم تُكذّب بهم.

ثم تنتقل الآية الكريمة للحديث عن نبي الله عيسى عليه السلام، فتقول: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أرسلنا عيسى عليه السلام وآتيناه المعجزات لكي يُصدق الناس ويؤمنوا بأنه رسول من الله تعالى إليهم.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ لعل المقصود بروح القدس هو جبرائيل عليه السلام، وقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وروح القدس هو المؤيد والمسدد لكافة الأنبياء؛ لأنه حامل الوحي وسفير الله إليهم.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: والخطاب موجه إلى اليهود، أي إذا جاءكم نبي بتعليمات تنسجم مع ميولكم

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

تمسكتم وآمنتم به، وإذا جاءكم بتعليماتٍ تخالف ميولكم تنصلتم من طاعته ولم تتبعوه، فأنتم في الحقيقة لا تتبعون النبي، وإنما تتبعون أهواءكم، ولذلك يعتبر القرآن الكريم أن الإيمان الحقيقي هو الذي يقترن بالاتّباع، كما ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1]، فالإيمان لا يتحقق إلا بالطاعة والالتزام في ما يهواه الإنسان وما لا يهواه أيضًا.

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾: حينما جاءكم الرسول بما لا تهوى أنفسكم كذبتموه، ولم تتبعوه، ولم تُطيعوه، ولم تلتزموا بنهجه.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: كما قتلتم النبي زكريا والنبي يحيى صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ.

ولذلك نجد أنّ الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ لم يكترثوا لمن يعارض الحق، فهذا رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ استهدفوه في كل شيء؛ فاتهموه بالفساد المالي، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[2]، واتهموه بالسحر والجنون كما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[3]، واتهموه في عِرضه، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[4]. ومع ذلك كله فقد كان رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يتعامل معهم بلطف ولين، كما شهد به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[5]

وعلى كل حال، فالأنبياء لم يكترثوا لمن عارضوهم واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وبقوا صامدين صابرين متحملين لمسؤولياتهم الجسيمة، كما نطق بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، فالنبي الأكرم صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ أراد أن يعطي اليهود برنامج عمل، فقالوا له: قلوبنا عليها غشاء وغطاء فلا نفقه ما تقول. لقد كانت قلوبهم مظلمة وقاسية، ونتيجة لكفرهم لعنهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأبعدهم وطردهم، ولكنّ قليلًا من هؤلاء آمنوا واستقاموا.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.
(٤) سورة النور، الآية: ١١.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

وأشار القرآن الكريم إلى خصلة أُخرى من خصال اليهود، في اعتقادهم بأنّ الجنة خالصة لهم من دون الناس، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[١]، فقد كان اليهود يزعمون أنّ الجنة لا يدخلها غيرهم، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[٢]، ويعتقدون بأنّ الجميع في ضلال وانحراف، فكانوا يتسمون بالنَّفَس العنصري، وما زال الكثير منهم كذلك، بل ادّعوا أكبر من ذلك؛ حينما زعموا أنهم أبناء الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٣]، وما زالوا يزعمون أنهم شعب الله المختار وأنهم أفضل البشر.

وهنا يتحداهم الله سبحانه وتعالى ويقول لهم: إذا كنتم تعتقدون حقًا بأنّ الآخرة حكرٌ لكم من دون الناس، فأسرعوا إليها واطلبوا الموت وتمنوه، لماذا تمكثون في الدنيا متحملين عذابها وآلامها؟ ولكنهم لا يتمنونه ولن يتمنوه أبدًا، بسبب ما قدمت أيديهم، فهم يُدركون جيدًا أنّ ذلك مجرد كلام فارغ لا أكثر، وهم لا يتمنون الموت ؛لأنهم يعرفون أعمالهم وذنوبهم ومعاصيهم التيٍ تؤدي بهم إلى جهنم لا محالة، ولذلك يهربون من الموت.

ولا يقتصر الأمر على عدم تمني الموت، بل تراهم أحرص الناس على حياةٍ، وجاءت كلمة الحياة نكرة، فقال القرآن ﴿حياةٍ﴾، ويعني أنهم حريصون على أي حياة يجدون البقاء فيها حتى لو كانت مذلة، فهم متمسكون بالحياة كيفما كانت، وهم أحرص عليها من سائر المشركين، ويودّ كل واحد منهم لو عاش ألف سنة، فهم يرغبون بالبقاء في الدنيا عمرًا طويلًا، ولكن حتى هذا لا ينفعهم؛ لأنّ العذاب ينتظرهم ولو عاشوا ألف سنة، فإنهم لن يتخلصوا من العذاب، والله تعالى الرقيب على كل شيء، بصيرٌ بما يعملون وما يرتكبون من آثام جسام.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٩٤ ـ ٩٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

وامتاز اليهود بخصلة ثالثة؛ وهي دعواهم أنهم حتى لو دخلوا النار، فإنهم لا يلبثون فيها إلا أيامًا معدودة، ثم يخرجون ويدخلون الجنة إلى الأبد، كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1]، فالنار لا تقترب من يهودي حتى لو كان مجرمًا فاسقًا، وإن اقتربت فإن ذلك لا يكون إلاّ أيامًا معدودة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٠.

الحق السادس والعشرون
(موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه)

من حق المؤمن على أخيه المؤمن موالاة وليّه ومعاداة عدوه، وهو الحق السادس والعشرون من حقوق الأخوّة الإيمانية التي ذكرتها الرواية المروية عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بقوله: «**يوالي وليّه ولا يعاديه**»، فليس من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يواليه ويصادقه فقط، وإنما عليه أن يوالي وليه، فصديق الصديق صديق، وصديق الأخ المؤمن صديق لباقي المؤمنين أيضًا حتى لو لم يكونوا يعرفونه بشكل مباشر، فيجب عليهم موالاته، وأن يحملوا له الولاء والودّ والمحبة، وينتقل حق الأخوّة من الأخ المؤمن إلى أصدقاء المؤمن أيضًا، وكما على المؤمن أن يصادق أخاه المؤمن، فعليه أيضًا أن يصادق أصدقاءه، وأن يعادي عدوه، وكما عليه ألاّ يعادي المؤمن فكذلك عليه ألاّ يعادي وليّ المؤمن، فهذه الحقوق الثابتة للأخ المؤمن تمتد لأصدقائه المؤمنين.

وقد ورد في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يؤكد هذا المعنى، قال: «**أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك، وأعداؤك عدوك وصديق عدوك وعدو صديقك**»[1]

لا تجتمع محبة الله ومحبة الشيطان في قلب واحد؛ فما دام القلب متوجهًا إلى الشيطان والظلمات فلا مجال فيه للنور، وكما أن النور يطرد الظلمة فكذلك لا يمكن لقلب يحب شخصًا أن يجعل مكانًا فيه لعدو من يحبه، ولهذا فالإنسان عندما يحب شخصًا لا يدع عدو من يحبه ينفذ إلى قلبه، بل يعادي صديق عدوه، ولا يوالي عدو صديقه.

وورد في وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لولده الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اجعل نفسك من أخيك عند صرمه ـ أي قطيعته لك ـ على صلة، وعند صدوده ـ جفائه ـ على اللطف والمقاربة، وعند جموده ـ بخله ـ على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه ـ الإساءة ـ على العذر، حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك**

(١) نهج البلاغة ٤: ٧١، الحكمة ٢٩٥.

في غير موضعه وأن تفعله بغير أهله. لا تتخذ عدو صديقك صديقًا فتعادي صديقك»[١].

فيجب علينا أن نمحض أصدقاءنا النصيحة، حلوة كانت أو مرة، أي وإن كانت غير مريحة له، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**من رأى أخاه على أمر.... فلم يردّه عنه وهو يقدر عليه فقد خانه**»[٢].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، من الكفار والمشركين، ﴿أَوْلِيَاء﴾، أعوانًا توادونهم وتنصرونهم، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، ترسلون إليهم أخبار المسلمين لطلب مودتهم، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾، القرآن والإسلام، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾، أخطأ طريق الحق، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، إن يظفروا بكم أو يصادفوكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾، يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل وألسنتهم بالشتم، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[٣] أي تمنوا أن تكفروا.

وقال الحق جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤]. وليس المقصود بالغلبة والنصر المرحليين، بل النهائيان، وكذلك النصر المحتوم لأتباعهم والسائرين على خطى الأنبياء كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٥].

من هم أعداء المؤمنين؟

لقد استعرض القرآن الكريم في عدد من آياته الشريفة مصاديق لأعداء المؤمنين، حدّد مجموعة من العناوين وقال عنهم: هؤلاء هم أعداء المؤمنين، فإذا أردنا أن نعادي أعداء المؤمنين فعلينا أولًا أن نستحضر هذه العناوين.

(١) نهج البلاغة ٣: ٥٣، رقم ٣١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ١٩٠، ح ٢.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٧٠ ـ ١٧١.
(٥) سورة غافر، الآية: ٥١.

أولًا: أصحاب العقيدة المنحرفة: من العناوين التي ذكرها القرآن الكريم لأعداء المؤمنين أصحاب العقيدة المنحرفة من خارج الجماعة المسلمة، فهناك أفراد جماعة غير مسلمة يحملون عقيدة منحرفة يعتبرهم القرآن الكريم خصمًا للمسلمين، ويجب اتخاذ موقف منهم وعدم موالاتهم والانسياق باتجاههم؛ لاحظوا هذه الآيات الشريفة من آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ :الخطاب للمؤمنين.

﴿لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾: أي لا تتخذوا أصدقاء توالونهم وتحبونهم من غير المؤمنين تطلعونهم على أسراركم.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من غير المسلمين، من خارج جماعتكم، تضعون أسراركم عندهم وتطلعونهم على خفاياكم وعلى أموركم المهمة والحساسة.

﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: هؤلاء ممن هم خارجكم، لا يتورعون عن أي مفسدة وعن أي إساءة يلحقونها بكم، ويمكن أن يبيعوكم إلى أعدائكم بأزهد الأثمان، وأن يفشوا أسراركم ويشهروها على الملأ، وفجأة ترون الأسرار كلها في كل مكان، فهؤلاء لا يألونكم خبالًا، وليس لديهم أي حرص على دفع الفساد عنكم وحفظ سمعتكم وحفظ أسراركم، بل يبيعونكم في أي وقت وفي أي فرصة، وقد لاحظتم مؤخرًا كيف بدأت الوثائق تخرج عمّن يبيع ومن يشتري ومن يتسلم أموالًا، وجميعها في كتب رسمية نشرها موقع «**ويكي ليكس**» تبين حقيقة الأطراف وتوجهاتها.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾: هؤلاء يتمنون إلحاق الضرر الشديد بكم، ويتمنون لكم الشر، فهم كما قال الشاعر:

يُعطيكَ من طَرَفِ اللِّسانِ حلاوةً ... ويَـروغُ منـكَ كما يـروغُ الثّعلبُ

فلا تجعلوا ثقتكم وأسراركم عند من يحمل العقيدة المنحرفة.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: هؤلاء لا يستطيعون أن يسيطروا على مشاعرهم؛ فحين يتكلمون تظهر العداوة في أفواههم، وتظهرعلى ألسنتهم عبارات العداوة والبغضاء لكم بين طيات كلامهم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾: هذا الذي يبدو على ألسنتهم يظهر وهم يحاولون أن يسيطروا على أنفسهم ولا يبرزوا حقيقتهم، ومع ذلك تخرج على ألسنتهم العجائب، أما إذا اطّلعت على قلوبهم فهي مملوءة بالغيظ والعداوة والخصومة والحقد عليكم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾: أي يا معاشر المؤمنين، إنكم تعطون هؤلاء الولاء والمحبة والثقة وتعرّفونهم بأسراركم، ولكنهم لا يبادلونكم هذه المشاعر ولا يحبونكم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: أي تؤمنون بجميع الكتب السماوية وهم لا يؤمنون بها، والقرآن الكريم يذكر هذه الحقائق، فنحن نؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وجميع الكتب السماوية؛ لأنها من السماء، نحن نؤمن بالكتب السماوية الأصلية غير المحرفة.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا﴾: هؤلاء حين يرونكم يسايرونكم ويقولون لكم: نحن معكم، ونحن مؤمنون أيضًا.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾: ولكن حين يجلسون وحدهم بعيدًا عن أنظاركم.

﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾: ترون أحيانًا شخصًا يعض على أصابعه من شدة الغيظ، أي أنّ هؤلاء حاقدون عليكم، فهم أمامكم يتكلمون بكلام لطيف ويقولون نحن مؤمنون أيضًا، ولكنّهم خلفكم يعضون على أصابعهم من شدة الغيظ ويريدون أن يلحقوا بكم أشد النكاية ويهزموكم شر هزيمة.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾: يقول الله ﷻ لهم: موتوا من شدة غيظكم على المؤمنين، أي أنّ الله ﷻ سينصر المؤمنين ويمكّنهم من أعدائهم من المنافقين إذا مشوا في الطريق الصحيح، ولم يعتمدوا على أصحاب العقيدة المنحرفة ولم يضعوا أسرارهم كلها عند هؤلاء ليجدوها بعد حين أمام الرأي العام.

﴿إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: إذن من يحمل العقيدة المنحرفة عدو لكم، وعليكم أن تحذروا منهم، لأنّهم خصوم لكم.

ثانيًا: المجادلون في آيات الله: هناك عنوان آخر وهم المجادلون في آيات الله، فهناك أُناس لا يريدون أن يفهموا ولو شرحت لهم عشرين ساعة عن حقيقة واضحة، فعندما تقولون: انظروا إلى الشمس، يقولون: من قال إن هذه شمس؟ فتقولون لهم: هذه شمس كبيرة أمامكم لا ينكر وجودها أحد، فيقولون: كلا قد تكونون أنتم من عمل لنا تنويمًا مغناطيسيًا. إنّهم يشككون في أوضح الواضحات ويجادلون في آيات الله ﷻ، وأي شيء تقولونه في الحياة الخاصة والشخصية فإنّهم يقولون: إنّ كل قضية لا بُـدَّ من أن يُناقش فيها، فحالتهم دائمًا هي الجدل والخصومة والنقاش والتشكيك وإثارة الشبهات، وهي ظاهرة مرضية في وجود بعض الناس، وفي المقابل هناك بعض الناس البسطاء والسذج الذين يصدّقون كل ما يسمعون، ولكن المجموعة الأولى مصابون بمرض الوسواس، هذا إذا لم يكونوا مغرضين ويفتعلون هذه الحالة ويتظاهرون بعدم قبول أي حقيقة مهما كانت واضحة، ومثال هذه الحالة المرضية أننا نرى شخصا سليمًا تتنجس يده فيضعها تحت الماء ويطهرها ويكتفي بذلك، ونرى شخصًا آخر مريضًا تتنجس يده فيضعها نصف ساعة تحت الماء ليطهّرها، فهذا مرض الوسواس في الطهارة. وهناك وسواس في الصلاة، وهناك وسواس في الفكرة، فنرى شخصًا مهووسًا لا يستطيع أن يقبل حقيقة ما، بل يناقش في كل شيء، ويتحول إلى إنسان سلبي ومزعج ولا يقبل الحقائق ويشكك في البديهيات والواضحات. ونرى أحيانًا أخرى أكثر من الوسواس؛ وهو الإنسان المغرض، فهو يعلم الحقيقة ولكنه لا يريد أن يقبلها، فيثير شبهة حولها ليتنصل من قبولها.

وهؤلاء الذين يجادلون في آيات الله يشككون الناس في الدين، فتسمعهم يقولون: من قال إن هذا رسول الله؟ فيقال لهم: لقد رأينا منه معجزة، فيقولون: من قال إن هذه معجزة؟ فقد تكون سحرًا، فيشككون الناس في فطرتها وهي قد عرفت النبي ﷺ والتفت حوله وأخذت منه وتعرفت على الدين وتمسكت به، ولكن يأتي هذا باسم الحداثة وباسم العصرنة وباسم التجديد وباسم الفكر المتجدد فيطرح عناوين من هذا النوع، ويعبّر بكلام مرتب ولطيف ينبهر به البعض، فيتسرب الشك إلى قلبه، وعندما يقرأ كتابًا يقرؤه وهو مهزوز، وبعد أن كان دينه واضحًا صار عنده شك في الدين، وصار عنده شك في شعائره، وصار عنده شك في قرآنه، فهذا الشخص الذي يجادل في آيات الله هو العدو.

لاحظوا قوله تعالى في سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٥.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾: أي أنّ هؤلاء ليس لديهم سلطان وحجة حقيقية، فإذا كان عندهم برهان حقيقي فليأتوا به، ولكن لا يوجد لديهم دليل. والكلمات التي يتفوه بها هؤلاء من قبيل: من يقول؟ وما الدليل؟ ولماذا كذا؟ يريدون بها فقط أن يهدموا، وليس لديهم رؤية واضحة، وليس لديهم دليل واضح. هذا مرض، وهؤلاء أعداء كما يعبّر عنهم القرآن الكريم.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾: أي عظم بغظًا وعداوة من الله سبحانه وتعالى تجاه هذا الإنسان الذي يجادل في الحق من دون دليل، والذي يشكك الناس بعقائدهم من دون دليل، فهذا يكبر مقته عند الله سبحانه وتعالى ويبغظه بشدة.

﴿وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هنا الشاهد، ويكبر بغضه وعداوه عند المؤمنين أيضًا، فالمجادلون في آيات الله تعالى هم عدو لله سبحانه وتعالى وللمؤمنين.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: يطبع أي يختم، وجبار يعني متسلط بغير حق، أي أنّ هذا المشكك يشكك الإنسان ويبعده عن الحقيقة، ويهيمن ويتسلط على عقول الناس بغير وجه حق، وكل من يجادل في آيات الله بغير حق يعبّر عنه القرآن بأنّه جبار، ولذا يجب اتخاذه عدوًا ونحذر منه، فعندما نكون في طريق الصواب وطريق الحق ثم يأتي شخص ويشككنا بهذا الطريق يجب أن نبتعد عنه؛ لأنّه عدو لا ينبغي التفكير في كلامه، فهو يدخل فايروسات في عقولنا فنبقى في حيرة من أمرنا.

ثالثًا: أعداء الله: إن أعداء الله هم أعداء المؤمنين أيضًا، لاحظوا الآية الشريفة من سورة الأنفال: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]، أي من هو عدو لله فهو عدو للمؤمنين أيضًا.

وورد هذا المعنى في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، خطاب للمؤمنين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[2]، فعدو الله هو عدو المؤمنين أيضًا، فاحذروا أن توالوهم وتحبوهم، جاملوهم فقط؛ لأنّ المجاملة أخذ وعطاء، ولا يجوز حمل مشاعر الحب والولاء لم فهم أعداء.

وقال تعالى أيضًا: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٣.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾: لا يفيدونكم حتى لو كانوا من أقربائكم وعشيرتكم.

﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾: حتى لو كانوا أولادكم، وهم أقرب الناس إليكم لأنّهم خرجوا من أصلابكم، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1]، فهذا ابن نبي ومع ذلك فهو عدو لله، فلا توجد قرابة أقرب من الله ورسوله، وإن كان أبًا أو أخًا أو من الأقرباء أو العشيرة، إذا كانوا أعداء لله فهم أعداء للمؤمنين أيضًا.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾: يفصل الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بين المؤمنين وأعدائهم.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: الله ينظر كيف تتعاملون بينكم؛ أتوالون أعداء الله وتحبونهم وتثقون بهم وتركنون إليهم، أم تبغضونهم وتقاطعونهم وتتخذونهم أعداء؟.

فاحذروا هؤلاء الأعداء الأربعة الذين ذكرتهم الآية الكريمة ـ الآباء والأبناء والاخوان والعشيرة ـ فهم الأعداء المخفيون، والعدو المقنّع أخطر من العدو الواضح، فالعدو الواضح كـ (داعش) شاهر سيفه وقادم إليك ليذبحك، فتعرفه عدوًا وتتخذ الإجراءات المناسبة تجاهه لتفادي خطره، ولكن من هو معكم وبينكم يغدر بكم ويطعنكم من الخلف، ولهذا يجب الحذر الشديد من العدو المقنّع والخفي.

لاحظوا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[2].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾: أي أنتم لا تعرفون جميع أعدائكم، فبعضهم تتصورونه صديقًا فتقربونه لكم وتدخلونه بيوتكم، وتدعونه يتعرف على عورات بيوتكم وأعراضكم على أنّه صديق لكم، ولكن لا تعلمون ماذا تعني نظراته ودواخله القلبية وأفكاره، فهو كذئب يترصد لحظة معينة لينقض عليكم وينهشكم وعوائلكم، فلا يغرنكم تودده لكم، فالحذر الحذر في اختيار الصديق، فالصديق ليس لعبة يا إخوتي، جاملوا الناس وتقربوا منهم وثقوا بهم بالتدريج وبهدوء، ولكن ضعوا لكم خط رجعة واجعلوا الناس تحت المجهر.

أحيانًا نرى صديق العمر حينما تحصل حادثة ما وتنقطع العلاقة لسبب أو لآخر يبدأ شريط الأحداث التي جمعتنا معه بالرجوع، ويحصل أمر عجيب إذ يفطن الإنسان لأمور كان غافلًا عنها حين حصولها؛ فتلك المرة قال كذا ولم ألتفت، وفي المكان الفلاني فعل كذا ولم ألتفت، فحينما يقع الفأس في الرأس كما يقولون يبدأ الإنسان يتذكر ما حدث

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٥.

هنا وهناك، فإذا مائة ثغرة ومائة ضوء أخضر قد فتحها الله تعالى لنا ولكن لم نرَ ولم تكن عيوننا ترى هذه السلبيات؛ لأننا وضعنا كل ثقتنا بهذا الصديق، وهذا خطأ، فمهما كان الصديق قريبًا يجب أن ندقق في كل كلمة وفي كل موقف وفي كل قضية ونربط بين الأحداث ونتأكد هل هذا أمر حقيقي أو لا؟ نعم إذا جزمنا أنه من المؤمنين فهنيئًا وينبغي علينا التمسك به، ولكن إذا ثبت لنا عكس ذلك وتبين لنا شيء آخر فيجب أن نكون على حذر منه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى ينصركم ويواليكم، لأنّه محور الولاء للمؤمنين، وهو يدفع البلاء عنهم من مثل هؤلاء المقنّعين فاحذروهم.

رابعًا: الشيطان الرجيم: إنه من ألد أعداء المؤمنين، فقد ورد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾: السلم يعني الإسلام، أي كونوا مسلمين وتمسكوا بعقيدتكم.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: الشيطان عدو مبين أي عدو واضح، فلا تقعوا فريسة مكائده، واحذروا أن تصطادكم فخاخه.

وفي آية أُخرى قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2] أي هو عدو لكم فلماذا لا تعادونه؟ فلا يعقل أن ترفع غصن الزيتون في وجه من يرفع السلاح بوجهك ويريد قتلك، هذا لا يجوز، فمن يعاديك عاده، وكل شيء يغيظ الشيطان ويفرح الرحمن افعله، وكل شيء يفرح الشيطان يعني ابتعادًا عن الرحمن فلا تفعله، هذه هي المعادلة.

خامسًا وسادسًا: الأزواج والأبناء غير المتدينين وغير الملتزمين وغير المنضبطين الذين ليس لديهم قيم، هؤلاء أعداء كما يقول القرآن الكريم، فالزوجة والأولاد إذا خرجوا عن الإيمان فهؤلاء ليسوا بأصدقاء، إذ يمكن أن نجاملهم ونعايشهم، وأمرنا معهم إلى الله تعالى، فالله قد ابتلى بعض الأنبياء وبعض أئمتنا الأطهار عليهم السلام بزوجات غير صالحات فتحمّلوا، وقد قُتل بعض أئمتنا بالسم بواسطة زوجاتهم، التحمل شيء والولاء شيء آخر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٦.

وتقوم الزوجة والأولاد غير المؤمنين بتخريب وتضعيف كل توجه ديني لدى الزوج أو الأب، فعندما يقول مثلاً: لنذهب للزيارة، يقولون: تعبنا من الزيارات فخذنا لمنتجع ما أو لمطعم ما أو لمنتزه ما، وحين يقول لهم: هذه ليلة الجمعة وزيارة الحسين عليه السلام فيها من أفضل الأعمال، يجيبونه بكلام كثير يجعله يترك الزيارة ويذهب للمتعة. ثم يأتي الحج فيقول لهم: إنّ اسمي ظهر في قرعة الحج، فيقولون له: أين هو المال الزائد عن حاجتنا لتذهب به إلى الحج؟، ألا ترى الثلاجة لا تعمل والبيت يحتاج إلى الصبغ ؟ يلحون عليه في الكلام مما يضطره إلى إنفاق ماله في تحسين المعيشة، وهكذا يذهب عليه الحج، وأي خطوة فيها طاعة وعبادة يواجهونه فيها بأساليب ماكرة إلى أن يثنوه عنها ويشغلوه بأمر الدنيا، يقترحون عليه في كل يوم أمرًا يجعله غارقًا في طلبه ولا يدعون له وقتًا للتفكير والعمل للآخرة، وهكذا يجعلون همه الدنيا دائمًا فينسى الآخرة. هذه العوائل التي لا قيم لها ولا دين ولا ضوابط محددة وتكثر من طلباتها الدنيوية ولا تقف عند حد تمنع الأب من السير في طريق الآخرة.

لاحظوا هذه الآية الشريفة من سورة التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الخطاب للمؤمنين أيضًا.

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: يستعمل لفظ الزوج في اللغة العربية للرجل والمرأة، والمراد في هذا الاستعمال القرآني أنّ الرجل قد يكون صالحًا وامرأته غير صالحة، وأنّ المرأة قد تكون صالحة وزوجها غير صالح، فهذا الخطاب للمؤمنات أيضًا كما هو للمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾: فكم من الأزواج والأولاد أعداء لكم يصدونكم عن سبيل الله ويبعدونكم عن الطاعة؟، فاحذروا أن تطيعوهم. وكم هي خطيرة هذه العداوة ممن تحبه وتسعى في صلاحه، وهو يسعى في إفسادك وهلاكك؟، فالعلاقة الزوجية والبنوة تمنع في كثير من الأحيان من الحذر الذي ينبغي أن يتحلى به المؤمن خوفًا من الانزلاق إلى ما يريده عدوه.

﴿وَإِن تَعْفُوا﴾: أي عما سلف وبدر منهم.

﴿وَتَصْفَحُوا﴾: ولا تعاقبوهم.

﴿وَتَغْفِرُوا﴾: وتستروا عليهم.

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي إن غفرتم لهم فإنّ الله تعالى سيغفر لهم أيضًا، فهم وإن كانوا أعداء ولكن لا تنتقموا منهم، وحاولوا أن تربوهم وتفتحوا عيونهم، وحاولوا أن تروضوهم وتدفعوهم في الاتجاه الصحيح، فالرجل له تأثير في زوجته وأولاده، وحين يتركهم فسوف تنمو فيهم هذه الحالة، ولكن حين يقف بوجه هذه القضايا ويعترض ويعاتب ويبين لهم أن هذا ليس صحيحًا وهذا لا يجوز مرة أو مرتين أو ثلاثًا ستُصلح الأمور قليلاً قليلاً، ولا يحتاج إلى أن يتشفى فيهم.

وقد نزلت هذه الآية في المهاجرين الذين أرادوا أن يهاجروا فمنعتهم زوجاتهم، وكن يقلن لهم: إلى أين تذهبون وتتركون بيوتكم وعوائلكم؟ هل فكرتم ماذا سيحل بنا ؟ وكان طريق الهجرة مفتوحًا أمامهن لو أنهن آمنّ كما آمن أزواجهن، ولكنهن لم يكن يرغبن في الإيمان والهجرة، وإلا فكم من مؤمنة آمنت وهاجرت مع زوجها ؟ وهكذا كانوا يمنعون ويصدون المسلمين عن أن يهاجروا عن طريق الضغط عليهم من خلال أزواجهم وأولادهم ومنعهم من الهجرة معهم، ليبقوا في مكة فلا يمكنهم الجهر بإسلامهم ويبقى إسلامهم ضعيفًا، لأنّ بعض الأزواج يكونون أحيانًا أسرى لزوجاتهم وأولادهم، فيأتمرون بما يقولون وإن كان في ذلك وهن لدينهم.

وهناك بعض الأزواج أُمراء في بيوتهم، فالجميع يرتجف منه إذا دخل البيت، ويخافون أن تصدر منهم كلمة أو حركة تزعجه، فإذا ما نام أو خرج تنفسوا الصعداء وارتاحوا منه بضع ساعات لحين استيقاظه أو عودته، وهي ظاهرة سلبية أيضًا، إذ يتحول الأب إلى جلاد وإمبراطور لا يفكر أحد في مخالفته أو التصرف من غير إذنه، فهو ليس ربًّا لهذه الأُسرة يرعى شؤونها ويتعامل معها باللطف والرحمة والمحبة، بل هو ديكتاتور ظالم تسلط على ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، قد ملّكه الله ﷻ أمرهم وأجرى أرزاقهم على يديه، فأفسد أمرهم بسلوكه هذا وجعلهم يعيشون في عناء يتمنون موته والخلاص منه.

وكلتا الحالتين ليست صحيحة؛ فلا ينبغي أن يكون أسيرًا ولا أميرًا، بل ينبغي أن يكون رب الأُسرة ظهيرًا لعائلته، يساندهم في الحق ويمنعهم من الخطأ، وأن يكون مربيًا ومرشدًا وصديقًا وقريبًا يتعامل معهم برفق، هذا هو الأساس في التعاطي مع العائلة كما تشير هذه الآية الشريفة.

سابعًا: الكفار، إن الكفار أعداء للمؤمنين؛ فقد قال تعالى:﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1]، فالكافر عدو واضح وظاهر العداوة للمؤمنين، وهو لا يخفي عداوته لهم بل يتجاهر بها، فاحذروا الكفار.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[2]، أي لا يظن الكافرون أنهم غلبوا المؤمنين وسبقوهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، وهو قادر على إهلاكهم واستئصالهم في أي لحظة والانتصار للمؤمنين.

موجبات العداء والخصومة

ما السبب في أن يعادي إنسان الآخرين؟ وما الأمور والعوامل التي تزرع العداء والخصومة بين الناس؟ هذه من المواضيع القرآنية الشيقة، حينما نراجع آيات القرآن الكريم نجد أن كتاب الله يشير إلى العديد من العناصر والأمور التي تزرع العداء والخصومة بين الناس، نستعرض بعضًا منها كما يلي:

الأمر الأول: الاختلاف في الكتب السماوية

فحينما يختلف الناس في الرسالات الإلهية ينشب العداء والخصومة بينهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[3]، أي أن الله سبحانه وتعالى ينزل الكتب السماوية وينقل فيها برنامجًا متكاملًا للحياة، ولكن حينما يختلف الناس في التعاطي مع ما ينزله الله سبحانه وتعالى من الكتب السماوية نجدهم يقعون في خصومة شديدة. إذن فالعداء والخصومة الشديدة يظهران من خلال الخلاف في كتاب الله وما أنزله الله سبحانه وتعالى كما تشير هذه الآية.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٩
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

الأمر الثاني: الاستكبار والاستعلاء

وهو أيضًا سبب من أسباب الخصومة والعداء كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1].

أي أن الله تعالى أعطى الكتاب والشريعة لموسى عليه السلام، وأتبعه بأنبياء ورسل آخرين، إلى أن وصل إلى عيسى عليه السلام فآتاه الرسالة والبينات، وكان عيسى عليه السلام قد جاء بالعديد من المعجزات التي تميز بها، وأيده بجبرائيل، ولكنكم يا معاشر اليهود لم يعجبكم أي نبي يأتيكم، تمنعكم حالة الاستكبار والترفع والاستعلاء عن الخضوع لرسالة السماء ولحكم الله سبحانه وتعالى، فكذبتم جماعة من الأنبياء كعيسى بن مريم عليهما السلام ولم تصدقوا رسالته، وقتلتم جماعة منهم كزكريا ويحيى عليهما السلام. فردّة الفعل تجاه هؤلاء الرسل كانت استكبارًا ينتهي إلى التكذيب أو القتل. إذن فالاستكبار يجر الإنسان إلى الخصومة والعداء.

وهناك شاهد آخر في القرآن الكريم على الموضوع نفسه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾: السجود لآدم تعظيمًا وليس عبادة، لأنّ السجود عبادةً لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى. وقد طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم، أي أن يعظّموه، ونرى اليوم أن البعض حينما يريد أن يسلّم على آخر يضع يده على صدره ويطأطئ رأسه، وهذا نوع من أنواع الخضوع، فحالة السجود هذه تعظيمًا واحترامًا وتكريمًا لآدم.

﴿فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾: أي امتنع عن إطاعة أمر الله سبحانه وتعالى في السجود لآدم، وكان امتناعه هذا استكبارًا، وعلة استكباره بيّنتها آية أخرى حينما سأله الله سبحانه وتعالى

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦.

عن سبب امتناعه عن السجود لآدم: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1].

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: هذا الاستكبار جعله يتمرد ويكون كافرًا خارجًا عن طاعة الله تعالى.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: بعد أن أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم قال لآدم وحواء: ادخلا الجنة واسكنا فيها.

﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: أي كُلا منها هنيئًا مريئًا ما يعجبكما من ألوان الفاكهة والثمار، كل ما تأكلانه وتشربانه منها هو حلال لكما وسائغ.

﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: الشيء الوحيد الممنوع فيها هو الاقتراب من هذه الشجرة، والمقصود هو الامتناع عن الأكل منها، ولكن عبّر الله ﷻ بعدم الاقتراب من باب التشديد في النهي، وقد جاءت نظائر ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[2]، أي الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الزنا كمقدمات الزنا.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾: أي أن نتيجة الأكل من الشجرة هو أنكما ستكونان من الظالمين؛ لأنّ من أوضح مصاديق الظلم هو عصيان الأوامر الإلهية وعدم الالتزام بها.

إن مساحة الحلال واسعة، بينما مساحة الحرام ضيقة، وهذه قاعدة وقانون سماوي، فمساحات المباح واسعة جدًا ويمكن أن يحصل الإنسان فيها على الطيب واللذيذ من آلاف أنواع الفاكهة والثمار، ونُهي فقط عن تناول عدد محدود جدًا، إما لغرض صحي أو غرض تربوي، ونهي آدم وحواء عن تناول ثمرة تلك الشجرة كان لغرض الاختبار والامتحان والتعريف بشخصية عدوهما الأبدي إبليس عليه اللعنة.

وهنا نقاط مهمة أشارت إليها الآيات الكريمة:

منها: لفظ ﴿هَذِهِ﴾، وهو اسم إشارة للقريب، وقد خاطب الله ﷻ آدم وحواء بقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، مما يدل على أنهما كانا قريبين منها في أثناء الخطاب، ولعل

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

الحكمة في ذلك أن تتضح لهما بشكل قاطع الشجرة المنهي عنها، لئلا يقولا بعد ذلك إنهما اشتبه عليهما الأمر في تشخيصهما لها من بين الأشجار، وقد استعمل إبليس اللعين لفظ «**هَذه**» أيضًا في خطابه لهما حينما قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[1]، مما يدل على أنه كان قريبًا منها أيضًا في أثناء الوسوسة لهما بالأكل منها. ولكن حينما أكلا منها خاطبهما الله تعالى بقوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[2]، فاستعمل لفظ «**تِلْك**»، مما يدل على أنهما ابتعدا اختيارًا عنها بعد الأكل منها لإحساسهما بالخطأ الذي وقعا فيه، أو أن الله سبحانه وتعالى قد أبعدهما قهرًا عنها بعد فشلهما في الاختبار.

وفي ذلك دلالة على أنه كان على آدم وحواء منذ البدء الابتعاد عن الشجرة بعد نهي الله تعالى لهما عنها، ولم يعيا بشكل دقيق قوله تعالى لهما ﴿وَلاَ تَقْرَبَا﴾ الذي يشمل بإطلاقه القرب المكاني، فلعلهما لو كانا بعيدين عنها في أثناء خطاب إبليس اللعين لهما، لكانت لهما فسحة من الوقت حتى يصلا إليها، وبذلك ينتبهان إلى خدعة إبليس اللعين ويتراجعان عن الأكل منها. وفي هذا درس بليغ لنا في الابتعاد عن أماكن المعصية وإن لم يكن في نيتنا ارتكابها وقاية من المحذور.

ومنها: يقول علماء التفسير: إن النهي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا﴾ هو نهي إرشادي وليس نهيًا مولويًا، فتارة ينهى المولى فيقول: لا تفعل كذا وإن فعلت عصيت، ولو كان النهي هنا مولويًا لكان حكمًا شرعيًا، يعني حرمة شرعية، فالذي يأكل يكون قد ارتكب معصية وأمرًا محرمًا، وآدم عليه السلام نبي من الأنبياء معصوم لا تصدر منه المعصية، فالنبي المعصوم لا يرتكب المحرم، أما إذا كان النهي إرشاديًا فهو ليس حكمًا شرعيًا، هو مجرد نصيحة لخدمة الإنسان ولصالحه، كوصفة الدواء التي يكتبها الطبيب للمريض لعلاجه من مرض معين، ولكن لا يترتب على امتناع المريض من تناول الدواء دخول السجن مثلاً؛ لأنه لم يرتكب جريمة، وعصيانه لأوامر الطبيب لا يعد معصية أو مخالفة قانونية يستحق عليها العقاب، فالطبيب لا يصدر تشريعات، بل البرلمان هو الذي يفعل ذلك ويقول: هذا واجب على المواطنين الالتزام به ومن يخالف يُسجن، أما الطبيب فيقول:

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

عليك أن تستعمل هذا الدواء كي تشفى من مرضك وإن لم تفعل فسوف يشتد عليك المرض وتموت، فالأمر الإرشادي فيه نصيحة للناس ولا تُعد مخالفته عصيانًا. وهنا يقول الله ﷻ لآدم: يا آدم إذا لم تأكل من هذه الشجرة فستبقى في هذه الجنة، تأكل وتشرب وتفرح وتستمتع ولا أُخرجك منها، بشرط ألّا تأكل من هذه الشجرة، فإذا أكلت منها فستخرج من الجنة وتنزل إلى الأرض.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: أي أوقعهما في الخطأ، من زلت الأقدام إذا مالت عن الطريق، فأكلا من الشجرة الممنوعة، وبمجرد أن أكلا من هذه الشجرة خسرا الجنة، وإن لم يرتكبا معصية، ولكنهما فقدا مكانًا مهمًا، كمن يخسر مكانًا في فندق خمس نجوم عندما يُشترط عليه عدم التدخين ولكنه لا يلتزم فيخرجونه منه، فالشيطان لم يدعهما يستمتعان بالجنة حين تركا آلاف الأشجار المثمرة وأكلا من ثمرة هذه الشجرة، فقد خدعهما قائلًا لهما: أنتما بشر وعمركما قصير، ومن يأكل من هذه الشجرة يصير ملكًا من الملائكة أو يكون خالدًا لا يموت، وكان آدم وحواء يريدان أن يخلدا في الجنة ولا يموتا، وهذه قضية ليست هينة ، ففيها خلود.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾: لم يقل لهما أنا شيطان وأنا عدو لكما، بل أقسم لهما أنه لهما ناصح، وأغلظ لهما في القسم بدليل دخول لام التأكيد على ﴿مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، ولم يكن آدم وحواء قد سمعا من يقسم كاذبًا، فصدّقا قوله من غير أن يتريثا ويحققا في صدق دعواه، ولو فعلا ذلك لتبين لهما كذبه ولنجحا في هذا الاختبار، ولكن إبليس اللعين دخل إليهما من الباب الذي يرغبان فيه وهو الخلود، فاندفعا مسرعين لتحقيق حلمهما المنشود مما جعلهما يأكلان من هذه الشجرة.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أي أخرج الله ﷻ آدم وحواء مما كانا فيه من نعيم الجنة، ومفهوم هذا الكلام أن إبليس اللعين لم يكن يحظى من نعيم الجنة بشيء، لأنه من جنس آخر لم يكن يتغذى على الطعام والشراب كما هو حال الإنسان.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾: والهبوط لا يعني بالضرورة النزول من مكان عال إلى مكان أسفل منه، بل يُطلق أيضًا على الانتقال من مكان إلى مكان كما في قوله تعالى لبني إسرائيل حينما سألوا موسى عليه السلام الخروج من سيناء إلى مكان آخر فيه ألوان الطعام: ﴿اهْبِطُوا

مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1]، ولهذا استفاد البعض احتمال أن الجنة التي كانوا فيها هي من جنان الأرض.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: وهنا يعلن الله سبحانه وتعالى حقيقة العداوة بين الإنسان والشيطان، التي كان الشيطان يضمرها للإنسان حينما امتنع من السجود له، ولكن الظاهر أنّ الهبوط كان من الجنة السماوية إلى الأرض بدليل ما يأتي في تتمة الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

إذن فإن هذا الاستكبار في الامتناع عن الانصياع والذعون للأمر الإلهي بالسجود لآدم بعد خلقه هو الذي جرّ إبليس اللعين إلى الكفر.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾: أي أنّ الأرض ستكون المستقر ومكان الإقامة المؤقت للإنسان والشيطان إلى حين قيام الساعة. وكذلك لهم فيها متاع إلى ذلك الحين. وقد جاءت كلمة ﴿متاع﴾ نكرة لبيان أنّ نعيم الأرض قليل زائل بالنسبة إلى نعيم الجنة الدائم، كما وردت الإشارة إلى هذا المعنى في آيات عدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

الأمر الثالث: إنكار الله تعالى

إنكار الله سبحانه وتعالى يؤدي أيضًا إلى العداء والخصومة، كما في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[3].

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾: أي هذا مؤمن وذاك كافر اختلفوا في دينهم، هذا يؤمن بالله سبحانه وتعالى ويقول إنه الرب، وذاك يؤمن بالأوثان ويقول إنها أرباب.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾: أي أن رفض عبدة الأوثان القبول بعبادة الإله الواحد الأحد جرّهم إلى عداوة المؤمنين، وبالتالي أوصلهم إلى النار. إذن فالاختلاف في الدين والمعتقد يؤدي إلى الخصومة والعداوة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٩.

الأمر الرابع: بذاءة اللسان

بذاءة اللسان تورث الخصومة، وهذه ثقافة سيئة مع الأسف، فنرى البعض يستعمل كلمات بذيئة جارحة، بل اعتاد البعض عليها حتى صار يستعملها في المزاح، وصار أحدهم يخاطب الآخر بها وهم يضحكون فرحين، يجب أن يكون لسان الإنسان المؤمن نظيفًا وطاهرًا من كل بذاءة حتى مع الأعداء فضلاً عن الأصدقاء؛ لأن البذاءة تؤدي إلى مضاعفات لا تُحمد عقباها.

انظروا إلى ما أشار إليه الله سبحانه وتعالى من نتائج بذاءة اللسان وماذا تفعل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي على المؤمنين أن يقولوا الكلمة الطيبة حتى مع الكفار ليستميلوهم إليهم، وليس بين المؤمنين فقط، فالكلام بالتي هي أحسن والكلام المهذب مع الآخرين حتى مع العدو يجعلهم يخجلون من أنفسهم، فيجذبونهم إليهم بالكلام الطيب، ولكن نرى البعض منا ـ مع الأسف - يكسر جماعة ويسب جماعة ،لا يبقي ولا يذر، يسيء إلى الجميع، وحينما نسيء إلى الآخر فكيف يمكن أن نتفاهم معه؟ وكيف حينئذ نستطيع أن نهديه ونقرّبه؟ إنه لن يقترب بعد أن هدمنا الجسور بيننا وبينه، فمن أجل أن نؤثر فيه لا بُـدَّ من أن نمد الجسور معه. ولكن لماذا قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؟.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: أي أنّ الشيطان يريد أن يفسد العلاقة بينكم فيدفعكم إلى بذاءة اللسان، فلا تقولوا التي هي أحسن بل تقولوا التي هي أسوأ وتتفوهون بالكلمات البذيئة.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: أي أنّ علة وسوسة الشيطان للإنسان ليكون ذا لسان بذيء هي لأنه عدو مبين له، فيسعى لجلب العداوة والبغضاء والخصومة بين الناس، وهذا منهج الشيطان، وبذاءة اللسان أُسلوب من أساليبه القذرة، ومن هنا ينطلق لزرع بذور العداوة بين أفراد عدوه اللدود التي كرس حياته من أجلها، بل وطلب الإمهال من الباري عزّ وجلّ ليضلهم عن الصراط ويدخلهم معه إلى جهنم، وهذا هو منهجه، بينما المنهج القرآني والمنهج الإسلامي ومنهج السماء هو توصية الإنسان بأن يقول التي هي أحسن.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

الأمر الخامس: زوال التقوى

إذا غابت التقوى بدأت النزاعات والخصومات بين الناس، فالتقوى ومراعاة الموازين الشرعية هما اللتان تربطان الناس بعضهم ببعض، وقد أشار إلى هذا السبب قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿الْأَخِلَّاءُ﴾: أي الأصدقاء الذين يتوادون في الدنيا.

﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: أي أنّ المتقين هم فقط من لا يعادي بعضهم البعض الآخر، فإذا غابت التقوى كان الأخلاء بعضهم لبعض عدوًا، وتنتهي إلى غير رجعة تلك الصداقات الدنيوية الوثيقة التي كانت قائمة على أساس المصالح واللذائد، فحين ينعدم الدين والقيم والموازين الشرعية من تلك العلاقات، تنعدم الحدود ويرتكب الإنسان جميع الموبقات والعياذ بالله ويقع في كل ذنب ومعصية.

الأمر السادس: الخلاف العقدي

إن الاختلاف في العقائد يُوجد الخصومة والعداء بين الناس، حتى لو كانوا أبناءهم أو آباءهم كما ذكرنا في آيات سابقة، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: يطلب الله سبحانه وتعالى من المسلمين أن يتأسوا بإبراهيم والذين آمنوا معه في مسألة عقدية مهمة وهي مسألة البراءة من المشركين.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أي تبرأنا منكم أيها المشركون يا من تتخذون إلهة تعبدونها من دون الله، وإعلان البراءة وإحداث التميّز بين صفي الموحدين والمشركين أمر في غاية الخطورة لما يترتب عليه من آثار مهمة في حركة هداية المجتمع نحو الإيمان، ومعنى البراءة أننا لا نسير معكم أيها المشركون في درب واحد؛ لأنكم تكفرون بالله ونحن نؤمن بالله.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا﴾: أي بسبب هذا ظهرت العداوة والبغضاء بيننا وبينكم إلى الأبد، إذن فالاختلاف في العقيدة بين المؤمن والكافر يؤدي إلى الخصومة الأبدية بينهما، فأهل الإيمان وأهل الكفر لا يجتمعون ولا يلتقون لا في الدنيا ولا في الآخرة. نعم قد يتجاملون أحيانًا ولكن لا يتحابون ولا توجد بينهم مودة حقيقية، بل خصومة وانزجار نفسي.

﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾: الإيمان نور والكفر ظلمة، والنور والظلمة لا يجتمعان أبدًا، لأنهما أمران متناقضان، فإذا وجد أحدهما انعدم الآخر، فالضوء في هذه القاعة يعني أنه لا توجد ظلمة، فإذا أُطفئ الضوء حلت الظلمة بدله.

الأمر السابع: انتهاك المقدسات

إن عدم احترام المقدسات من الأمور التي توجب الخصومة، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمة عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾: ينهى الله سبحانه وتعالى المسلمين من أن يسبّوا أصنام المشركين وأوثانهم، وهي اللات والعزى وهبل، وأصنامهم الأخرى، ثم يبيّن الله سبحانه وتعالى علّة هذا النهي في الفقرة التالية.

﴿فَيَسُبُّواْ اللّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي أنّ المشركين سيتخذون سبّ إلهتهم من قبل المسلمين ذريعة لسبّ الله سبحانه وتعالى، ومن أجل تنزيه الله تعالى عن سبّ المشركين نهى عن سبّ آلهتهم.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أمر مهم كثيرًا ما وقع فيه الخلط؛ وهو عدم التمييز بين البراءة والسب، فقد أمرت الآية الكريمة السابقة بوجوب إظهار البراءة من المشركين، ونهت هذه الآية الكريمة عن سبّ آلهتهم، وهذا يعني بشكل جلي أنّ إعلان البراءة أمر غير السبّ، وأنّ اتهام من يظهر البراءة من المشركين وعقائدهم الباطلة بالسبّ لهم ولآلهتهم هو خلط للأوراق ومحاولة لمنع المسلمين من إظهار البراءة بمثل هذه الحجة الباطلة، كيف وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بإعلان البراءة من المشركين في سورة كاملة هي سورة «**الكافرون**»،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

وهي قوله عزَّ من قائل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا﴾ أي عداءً وتجاوزًا بغير علم وبدون تفقه، ولهذا فإنّ منهج سبّ مقدسات الآخرين منهج غير صحيح، لأنه يدعو الطرف الآخر أيضًا إلى سبّ مقدساتنا، فالذي يقدّس البقرة ويتخذها إلهًا لا ينبغي سبّها أمامه، لئلا يتجرأ على سبّ مقدساتنا، لأنك حينما تكسر الآخر بالإساءة إلى مقدساته، فإنه سيكسرك أيضا ويسيء إلى مقدساتك، ولذلك فمنهج السب ومنهج الإساءة لمقدسات الآخرين منهج غير إسلامي وغير قرآني.

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمة عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى قد حسّن في عين كل أُمة أعمالها وعقيدتها، بما في ذلك أصحاب العقيدة الباطلة، فهي بنظر أصحابها شيء مقدس جدًا، والله سبحانه وتعالى هو الحكم وهو الذي يجازي أو يعاقب الناس في يوم القيامة، أما الآن فواجبنا احترام المقدسات وعدم الإساءة وعدم انتهاكها، ولكن ينبغي أن يكون ذلك مع إظهار البراءة منها.

الأمر الثامن: الحسد

إن الحسد يورث العداوة والبغضاء أيضًا كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم حين قال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ...... إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[2].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: جاء يوسف إلى أبيه يعقوب عليه السلام وقال: يا أبت إني رأيت رؤيا في المنام، ورؤيا الأنبياء حجة عليهم، رأيت أحد عشر كوكبًا يسجدون لي، وكذلك رأيت الشمس القمر يسجدان لي، وكان له أحد عشر أخًا، والشمس والقمر هما أُمه وأبوه، والسجود

(١) سورة الكافرون : الآيات : ١ – ٦ .
(٢) سورة يوسف، الآيات : ٤ ـ ٩.

هو كناية عن الخضوع، والرؤيا تبشره بأنه سيكون له مكان رفيع أعلى من درجة أبيه وأُمه وأعلى من درجة أخوانه الأحد عشر؛ لأنه سيجمع بين النبوة والملك، وحينما حكى يوسف عليه السلام رؤياه لوالده عرف أنه سيكون لولده منصب عظيم دون بقية الأخوّة، فقال له:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾: ولم يعبّر يعقوب عليه السلام الرؤيا لولده يوسف عليه السلام، وهذا يعني أنّ يوسف عليه السلام كان يعلم تعبيرها، وإنما طلب منه فقط عدم حكايتها لإخوانه.

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾: أي أنهم إذا عرفوا أنك ستكون أرفع منهم درجة وستكون لك المنزلة العظيمة فسوف يحسدونك، وإذا حسدوك احتالوا عليك احتيالاً شديدًا، وسيحاولون إلحاق الأذى بك وقتلك.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: والسبب في هذا الحسد هو الشيطان اللعين الذي يزرع بذور الخصومة ويدفع نحو العداوة، وحين يحسد شخص شخصًا آخر فمعنى هذا أنه لا يريد له الخير، بل يريد له الشر، فمثلاً حينما يأتيه خبر أنّ فلانًا مرض بالمرض الفلاني يفرح بذلك؛ لأنّ الحسد يوجب الخصومة والعداوة. ثم تشير الآيات الكريمة إلى تحقق هذا القلق والخشية عند النبي يعقوب على ولده يوسف عليهما السلام.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾:أخو يوسف هو بنيامين، وكان شقيقه، أي هو أخوه من أُمه وأبيه، فيعقوب عليه السلام كان متزوجًا من نساء عدة.

﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾: لقد كان أُخوة يوسف يشعرون بأنّ يوسف وبنيامين يحظيان بحب أبيهم أكثر مما يحظون به من هذا الحب، وقد كان هذا أمرًا واقعيًا، فدفعهم ذلك إلى الحسد، الذي يجر بدوره إلى الخصومة والعداوة. ولكن سبب ذلك الحب هو صغر سنّهما، فقد كانا هما الأصغر سنًّا من الآخرين، بل كان الفارق في السن بينهم كبيرًا إلى حد ما، وهذا أمر طبيعي جدًا؛ إذ يحظى الولد الأصغر سنًّا دائمًا بدرجة من الحب تزيد على إخوانه الذين يكبرونه سنًّا. ولكن الشيطان الرجيم أعمى قلوبهم عن هذا الأمر الطبيعي في الفطرة الإنسانية وصور لأخوة يوسف أن دافع الحب هو أمر آخر، ولذا عليهم التخلص من يوسف وأخيه ليخلص لهم حب أبيهم.

وفي هذا درس لنا، فقد يكون لنا أربعة أو خمسة أولاد، وقد يكون أحدهم محبوبًا أكثر من الآخرين، بسبب طاعته أو لكونه مهذبًا وملتزمًا أو لأي سبب آخر، فلا ينبغي أن

نعامله بطريقة مميزة أمام إخوته، لأنّ ذلك ربما يزرع الضغينة والحسد في قلوبهم،لذا يجب المساواة الظاهرية بين الأبناء في المعاملة، لئلا ينفذ الشيطان اللعين من هذه الثغرة فيوسوس لهم ويزرع الضغينة في قلوبهم.

ولذلك طلب يعقوب عليه السلام من ولده يوسف ألاّ يقصص رؤياه على إخوته فيطلعوا على منزلته، ولكنهم أحسّوا بذلك فاجتمعوا وتسالموا بينهم على أنّ يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، وأكدوا ذلك بدليل دخول لام التأكيد على قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا﴾، من غير أن يعترض أحد منهم أو يحاول تبرير هذا الحب، مع اعترافهم بأنّ أباهم كان يحبهم أيضًا ولم يقصّر في إظهار هذا الحب لهم. يعقوب ويوسف كانا نبيين معصومين، وكانا ملتزمين وعلى مستوى عالٍ من التعبد والطاعة لله سبحانه وتعالى تعالى، ولا يمكن أن يقاسا بأولئك الذين لم يكونوا ملتزمين.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: أي نحن جماعة متكاتفة ومترابطة، فهم ما عدا بنيامين كانواعشرة، وهذا الكلام كان بمثابة المقدمة لما سيطرحونه من حل لاحقًا للتخلص من هذه المشكلة، ومعناه أننا سنتخذ قرارًا جماعيًا ونقوم بإنجازه معًا ونتجنب أي عمل فردي، لكي نتحمل جميعًا نتائج العمل الذي سنقوم به، كما أنّ كوننا عصابة سوف يسهل علينا أي عمل نريد الإقدام عليه مهما كان ذلك العمل.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي أنهم كانوا يعتقدون بأن أباهم يعقوب عليه السلام كان مخطئًا جدًا حينما فضّل يوسف وبنيامين عليهم، ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يعتقدون بعصمة أبيهم يعقوب عليه السلام في الأقل.

﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: فالخيار الأول الذي طرحته هذه العصابة الضالة للتخلص من مشكلة عائلية هو قتل أخيهم يوسف عليه السلام، والخيار الثاني هو إلقاء يوسف عليه السلام في الأرض بعيدًا ،فلا يعرف كيف يرجع، أي إبعاده إلى منطقة نائية يتيه فيها ويأخذه الناس.

وطرح خيار القتل أولاً يعني إما أنه كان يمثل أغلبية آراء عصابة الإخوة العشرة، أو لأنه يمثل أفضل الحلول وأسهلها وأكثرها حسمًا وسرعة. وهذا يعني أنّ ذهنية العصابات الإجرامية تلجأ دائمًا إلى خيار القتل أولاً، فإن عجزت عن ذلك تلجأ إلى الوسائل الأخرى.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي ستكون محبته خالصة لكم وحدكم. وهنا سؤال يطرح

نفسه، وهو كيف سيخلو لهم وجه أبيهم بعد قتل يوسف عليه السلام مع بقاء بنيامين على قيد الحياة؟ فقد زعموا أنّ المشكلة تكمن في حب أبيهم الزائد ليوسف وبنيامين معًا،يُفهم من كلامهم هذا أنّ المشكلة الواقعية كانت في وجود يوسف عليه السلام دون بنيامين، وأنّ المشكلة لم تكن في حب أبيهم لهما، بل كانت تتعلق بمسألة أُخرى وهي وراثة النبوة، فقد علموا أنّ يوسف عليه السلام هو من سيرث النبوة بعد أبيه، ولعل ذلك يتضح من قولهم بعد مضي عقود من الزمن حينما التقوا به: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1]، كما يُفهم ذلك أيضًا من نهي يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام عن حكاية الرؤيا لإخوته، وكما جاء ذلك صريحًا في الآية، ولعله تتمة كلام يعقوب عليه السلام لولده يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وهنا نقطة جديرة بالالتفات وهي أنّ إخوة يوسف كانوا يكتمون السبب الحقيقي وراء تآمرهم على قتل يوسف عليه السلام، وكانوا متواطئين حتى في حواراتهم الخاصة بينهم على بيان سبب آخر إمعانًا في تضليل بعض إخوانهم الذين لم يكونوا يعرفون الدافع الحقيقي للقتل، ومحاولة إقناعهم بسبب مشترك وهو حظوة يوسف وأخيه بمحبة أكبر، فلعل بعض الإخوة لم يكونوا يطمحون إلى منصب النبوة ولا يجدون في ذلك سببًا كافيًا لارتكاب جريمة قتل أخيهم.

﴿وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: وهذا يعني أنّهم كانوا يدركون تمامًا أنهم قادمون على ارتكاب جريمة تخرجهم من دائرة الإيمان، ولكنهم وفي سعيهم لتضليل بعضهم للبعض الآخر أو لتضليل بعض إخوانهم السذج الذين لم يبينوا لهم السبب الواقعي للقتل، قالوا إن طريق التوبة والعودة إلى دائرة الصلاح سيكون متاحًا لهم، بل هم عازمون على أن يكونوا قومًا صالحين بعد قتل يوسف عليه السلام.

ومما تقدم تبيّن دور الحسد وأثره في إيجاد النزاعات والخصومات بين الإخوة النسبيين فضلاً عن الآخرين.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩١.
(٢) سورة يوسف: ، الآية ٦.

الأمران التاسع والعاشر: الخمر والقمار

الخمر والقمار يوجبان البغضاء، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: الخمر هو كل شراب مسكر، والميسر هو القمار، والقمار هو كل لعبة فيها رهان ببذل مقدار من المال.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾: أي يمنعكم ويصرفكم عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾: أي هل أنتم تاركون الخمر والميسر؟ فإذا كنتم لا تريدون العداوة والبغضاء ولا تريدون أن تتخلوا عن العبادة والصلاة فاتركوا الخمر والميسر.

الأمر الحادي عشر: الشيطان

الشيطان يوجد الخصومة والعداء بين الناس، كما أُشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(٢)، فالإنسان إذا لم ينطق بالقول الأحسن فإنّ الشيطان اللعين سيجد ثغرة في كلامه فيوسوس للآخرين حولها ويثير الخصومة والاختلاف بينهم بسببها.

وأُشير إليه أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣)، فالشيطان يوسوس ويزرع العداوة والخصومة بين الناس، ولا نجاة من وسوسة هذا اللعين إلا باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والاستعاذة به من وسوسة الشيطان الرجيم.

وكذا كانت الإشارة إلى هذا السبب بشكل جلي في تتمة قصة يوسف عليه السلام عند لقائه أبويه وإخوته بعد عقود من الفراق حينما قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: العرش يعني المكان المرتفع الذي كان يجلس عليه يوسف عليه السلام داخل القصر.

﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا﴾: أي عبّر الأب والأم والإخوة الأحد عشر عن إكبارهم وتعظيمهم واحترامهم ليوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾: حين عظموه وأكبروه وسجدوا له تعظيما تذكر الرؤيا التي رآها في الطفولة، فذكرها لأبيه يعقوب عليه السلام وقال له إنّ الحالة التي هم عليها الآن هي تعبير لتلك الرؤيا. ثم ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه حينما أنقذه من السجن.

﴿وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾: ثم ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى على والديه وإخوته حينما جاء بهم إلى مصر.

﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾: هنا الشاهد؛ فالشيطان هو الذي ينزغ بين الناس، حتى بين الأخ وأخيه، ويسبب بينهم الخصومة والعداوة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى يمضي مشيئته بشكل دقيق جدًا وبأسوب هادىء ومن غير ضجيج ولفت انتباه، فهو العليم بكل شيء والحكيم الذي يضع الشيء في موضعه المناسب وفي وقته المناسب.

الأمر الثاني عشر: الغرور

يعد الغرور من الأسباب التي تكرس الخصومة والعداء بين الناس، كما أُشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(٢). أي شديد الخصومة مع الآخرين في الدنيا، فيصرخ بالناس الذين هم أضعف منه ويسيء ويعتدي ويتجاوز.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٧.

لماذا تتكبر أيها الإنسان؟ لماذا لا تتذكر أنّ أصلك من نطفة وجيفة؟ أنسيت أنّ النطفة حولتك إلى إنسان؟، فلماذا ترفع أنفك حتى على خالقك وتتحول إلى خصم؟ هل تتصور نفسك شيئًا كبيرًا؟ لماذا هذا الغرور والتكبر؟ ولماذا تحولت إلى عدو كاسر؟.

ورد في حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام: «**ما لابن آدم والعجب وأوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو بين ذلك يحمل العذرة**»[1]، فأصله نطفة ويصبح بعد ساعات من موته جيفة كريهة الرائحة، فنسرع في تكفينه ودفنه، وهو بين أول حياته ونهايتها يحمل جيفة، فالأكل يتحول إلى قاذورات تدفع في بيت الخلاء. فيا من أوله جيفة وآخره جيفة وهو بينهما يحمل جيفة، لماذا كل هذا التكبر؟ انظروا إلى الغرور ماذا يفعل بالإنسان، يجب عليه أن يتذكر ذلك باستمرار لئلا يقع في الغرور والتكبر.

على الإنسان أن يعرف قيمته؛ «**ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه**»[2]، ولا يعرف ذلك إلا حينما يعرف أصله وأين كان وأين سيكون، فلماذا التكبر؟ هذه مسألة مهمة جدًا في المنهج القرآني القائم على تذكير الإنسان بواقعه كي لا يصاب بحالة من الغرور والنرجسية العالية.

---

(١) غرر الحكم والمواعظ: ٤٧٩.
(٢) مشكاة الأنوار: ٤٣٠.

الحق السابع والعشرون
(نصرة المؤمن ظالمًا ومظلومًا)

وهو قول رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «**ينصره ظالمًا ومظلومًا**»، أي يجب على المؤمن أن ينصر أخاه المؤمن سواء كان ظالمًا أو مظلومًا، يعني إذا كان الأخ المؤمن ظالمًا فعليه أن ينصره، وإذا كان الأخ المؤمن مظلومًا فعليه أن ينصره أيضًا، ولكن السؤال هو كيف ننصر الأخ المؤمن حينما يكون ظالمًا؟ وكيف ننصره حينما يكون مظلومًا؟. يوضح الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الأمر فيقول:

«**فأما نصرته ظالمًا فيردّه عن ظلمه**»، أي يرجعه عن الظلم الذي صدر منه، ويمنعه من الظلم، وهذا سيجعله يعود إلى رشده وإلى جادة الصواب، لأنه ما دام ظالمًا فسيسقط في نظر المجتمع، وسيكون عرضة للعذاب الأخروي في يوم القيامة، وحينما نمنعه من الظلم فحينئذ نكون قد انتصرنا له في تحسين سمعته في المجتمع، وضمنا له أيضًا النجاة من العذاب الأخروي ومن النار.

«**وأما نصرته مظلومًا فيعينه على أخذ حقه**»: أي يساعده على أخذ حقه من الظالم، بأن يقف إلى جانبه ويدافع عنه بجميع الوسائل المشروعة إلى أن يسترد حقه المغتصب.

إذن في الأحوال كلها يجب علينا نصرة الأخ المؤمن، وهذه النصرة تختلف في تطبيقاتها؛ فنصرته حين يكون ظالمًا تختلف عن نصرته حين يكون مظلومًا، ففي بعض الحالات التي يمر بها الإنسان تجاه أخيه المؤمن حينما يكون ظالمًا ربما يكون فيها راضيًا نفسيًا عن الظلم الذي يمارسه ضد الآخرين بذرائع مختلفة، ويرتاح لذلك ويرى أنّ المقابل يستحق ما وقع عليه من الظلم، فيرضى بالظلم الصادر من أخيه المؤمن، وربما يدعمه ويساعده ويقول له: أنا معك عليهم، افعل بهم كذا، واحرق بيوتهم، فهناك رضا نفسي ودعم وإسناد عقلي وسلوكي، هذه حالة، والحالة الثانية أن يكون راضيًا نفسيًا بما يصدر من أخيه المؤمن من ظلم تجاه الآخرين ولا يمنعه، ولكنه فى نفس الوقت لا يدعمه ولا يساعده، وهذه حالة أخف قليلاً من الحالة الأولى، ولكنها مشمولة أيضًا.

والحالة الثالثة ألّا يكون راضيًا عن الظلم الصادر من أخيه المؤمن ولا يقبل به، ولكنه في الوقت نفسه لا يمنعه منه خشية على علاقة الصداقة التي بينهما، ويقول لا علاقة لي بما يفعله وهو أعرف بتكليفه.

والحالة الرابعة ألاّ يكون راضيًا عن فعل الظلم من أخيه المؤمن، ولكنه في الوقت نفسه لا يكتفي بعدم منعه، وإنما يدعمه بدافع التعصب العشائري أو الحزبي أو السياسي أو الطائفي أو القومي، مع أنه يعلم أن ما يفعله حرام شرعًا وأن إعانته عليه حرام أيضًا.

والحالة الخامسة، وهي محل الشاهد، ألاّ يكون راضيًا عن الظلم الذي يصدر من أخيه المؤمن ولا يدعمه بل يمنعه منه، فهو نفسيًا لا يرضى بالظلم، ولا يدعم الظلم، ويقف في وجه الظالم ويقول له: ماذا تفعل؟ ألا تخشى من عاقبة الظلم؟ لماذا تعتدي وتظلم؟ فهو يفعل ذلك وإن كان أخوه المؤمن لا يرضى بذلك منه، ولكنه يرى أن يمشي أخوه في الطريق الصحيح وإن لم يرض عنه وتكون عاقبة أمره إلى الجنة والسعادة في الآخرة ويكون محبوبًا بين الناس في الدنيا، أفضل من أن يمشي في الطريق الخطأ وهو راض عنه وتكون عاقبة أمره إلى النار في الآخرة والسمعة السيئة في الدنيا، إذ ما قيمة هذه الصداقة وهذه العلاقة إذا كانت آخرة الأخ المؤمن في خطر؟ فحق المؤمن على أخيه المؤمن أن يمنعه من الظلم ولا يرضى له به ولا يدعمه، بل يمنعه أيضًا كي لا يقع في الحرام.

إعانة الظالم في الروايات

تطرقت الروايات الشريفة عن أهل البيت عليهم السلام لموضوع إعانة الظالم، نذكر بعضًا منها:

الرواية الأولى: في كتاب الكافي الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم**»[1].

«**العامل بالظلم**»: **الذي يظلم الناس.**

«**والمعين له**»: الذي يساعد الظالم على ظلمه، بذريعة أنه من عشيرته أو من حزبه أو من طائفته أو من قوميته أو من مدينته وما إلى ذلك.

(١) الكافي ٢: ٣٣٣، ح١٦.

«**والراضي به**»: الراضي بالظلم بقلبه وإن لم يظهر ذلك على لسانه، فضلاً عن عدم إعانة الظالم بيده أو ماله، ولكنه حين سمع فرح، وهذا الرضا يجعل الراضي شريكًا مع ذلك الظالم في ظلمه.

«**شركاء ثلاثتهم**»: هؤلاء الثلاثة شركاء في جريمة الظلم ويتحملون جميعًا وزره في الآخرة، وهم الذي يظلم والذي يساعده على الظلم والذي يرضى به.

وفي المصدر نفسه عن عبد الله بن سنان قال: «**قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: من عذر ظالمًا بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته**»[1].

«**من عذر ظالما بظلمه**»: أي برر لظالم ظلمه واعتداءه، فيقول مثلًا: لم يكن قصده كذا، ولم يشأ أن يضربه ولكن، ولم يكن يريد أن يحرق البيت بل كان يريد أن يهدد فاشتعل البيت، وهكذا يبرر العدوان والظلم، ويحاول أن يخفف من وطأة الظلم، وعندما يسمع مثلًا أن فلانًا من أعوان الطاغية محكوم عليه بالإعدام يقول: كان وزيرًا في الدولة والمأمور معذور فلا يُلام، وذاك القائد العسكري معذور أيضًا في قتل الناس لأنه مأمور وقد جاءته أوامر عسكرية لا يستطيع أن يعصيها. عجيب أمر هؤلاء وهم يتكلمون بمثل هذا الهراء، ويطالبون بإطلاق سراح شخص محكوم بالإعدام لأنه حينما قتل الناس كانت عنده أوامر عسكرية فأطاع الأمر العسكري، فيبررون للظالم ظلمه**!**.

«**سلط الله عليه من يظلمه**»: أي أن الله تعالى يسلط على من يبرر للظلمة ظلمهم شخصًا يظلمه كي يعرف وطأة الظلم وشدته.

«**فإن دعا لم يستجب له**»: يتوجه الإنسان حين يقع في ورطة وحين يُظلم إلى الدعاء، فيدعو الله عزّ وجلّ قائلًا: يا رب نجني مما أنا فيه، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب له دعاءه عقوبة له على تبريره لأفعال الظلمة وتخفيفه من حدة الظلم.

«**ولم يأجره على ظلامته**»: المظلوم مأجور لأنه مظلوم، أي يعطيه الله ثوابًا وأجرًا، ولكن من يبرر للظالم ظلمه يسلط عليه ظالمًا فيصبح مظلوما، ولكنه مظلوم لا يستحق أجرًا وثوابًا، ولا يستجاب دعاؤه لأنه يغطي للظالم، وتبرير الظلم ظلم، وتبرير الخطأ خطأ، وتبرير الاعتداء اعتداء، فيجب علينا ألاّ نبرر الظلم ولا نغيره ولا تخففه.

(١) الكافي ٢: ٣٣٤، ح١٨.

الرواية الثانية: في وسائل الشيعة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في وصيته لأصحابه أنه قال: «**وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة، وليعن بعضكم بعضًا، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن معونة المسلم خير وأعظم أجرًا من صيام شهر واعتكاف في المسجد الحرام**»(١).

«**وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم**»: يحذر الإمام الصادق عليه السلام من الإعانة والمساعدة على ظلم المسلم، وإن كان من يعينه قريبه أو صديقه أو أخاه المؤمن.

«**فيدعو عليكم**»: أي خوفًا من أن يرفع المظلوم يده ويدعو على ظالمه، فيقول مثلًا: إلهي كل من ظلمني فاكسر رقبته، أو يقول: كل من ظلمني فخذ بحقي منه، لكن الله عز وجل لا يخصص الدعاء على الظالم بمن يظلم مباشرة، وإنما يعممه حتى على من ساهم وساعد ورضي بالظلم.

«**فيستجاب له فيكم**»: أي أن الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاء هذا المظلوم فينزل غضبه على الظالم وعلى من ساعد الظالم وعلى من رضي بفعل الظالم، وعلى الساكت عن فعل الظالم، كما قال الله (تبارك وتعالى): ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾(٢)، فلا ينحصر نزول العقاب بالظلمة فقط، بل تشمل العقوبة حتى غير الظالم، فإنه سوف يُسأل يوم القيامة ويحاسب أيضًا بسبب سكوته عن الظلم، أو بسبب رضاه وعدم اكتراثه واهتمامه بالظلم؛ لأن الله تعالى أمرهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمة يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣)، فمن لم يكن بهذه الصفة في المجتمع ولم يكن صاحب موقف في إيقاف النزيف والظلم والاعتداء والتجاوز، ومن قال: ما لي والدخول بين السلاطين، ومن قال: هذا الأمر لا يعنيني، ومن قال: عمل غيري لا علاقة لي به فأنا مواطن بسيط، سيشمله دعاء المظلوم.

«**فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة**»: أي أن الله عز وجل يستجيب دعاء المظلوم بحق ظالمه ، وكم هو لطيف هذا التعبير، فهو لا يقول إن رسولنا، بل يقول: إن أبانا رسول الله، فهو صلى الله عليه وآله أب حقيقة لأهل البيت عليهم السلام ، كما أنه

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ : ٥٦، ح٣ .
(٢) سورة الأنفال، الآية : ٢٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤ .

أب للمسلمين جميعا كما ورد في الحديث الشريف: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[١]، على غرار ما ورد في القرآن الكريم في تسمية إبراهيم عليه السلام أبًا للمسلمين: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾[٢].

«**وليعن بعضكم بعضًا**»: أي فلتكن بينكم المساعدة والعون بعضكم لبعض.

«**فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن معونة المسلم خير وأعظم أجرًا من صيام شهر**»: أي أن ثواب نصرة المسلم وإعانته ومساعدته وحل مشكلته والوقوف معه أفضل من ثواب صيام شهر كامل، والمقصود هنا هو الصوم المستحب لا الصوم الواجب في شهر رمضان.

«**واعتكاف في المسجد الحرام**»: أي أن مساعدة المظلوم أفضل أيضًا من ثواب الاعتكاف في المسجد الحرام، مع ما للمسجد الحرام من أفضلية على سائر المساجد.

الرواية الثالثة: عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام ـ وهذه الرواية من روايات السلسلة الذهبية التي يرويها الإمام الصادق عن أبيه الإمام الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين، عن أبيه الإمام الحسين، عن أبيه أمير المؤمنين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ أنه قال: «**يا علي شر الناس من باع آخرته بدنياه، وشر منه من باع آخرته بدنيا غيره**»[٣].

يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك صنفين من أصناف شرار الخلق، وهما:

الأول: من باع آخرته بدنياه، لأنه عمل عكس ما هو مطلوب منه؛ وهو أن يبيع دنياه من أجل آخرته، كما جاء ذلك في قوله تعالى عن اليهود: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٤]. وفلسفة هؤلاء في الحياة هي أنهم يقولون: عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، فلعله ليس هناك آخرة وجنة ونار، وهذا مجرد كلام، وما دامت الدنيا بأيدينا فلنستمتع بها، وليحصل بنا بعد الموت ما يحصل. رأيت عجوزًا قبل عدة أيام هزني قولها هزًا،

(١) بحار الأنوار ٢٣: ١٢٨، ح٥٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٣٤، ح١١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

تقول: لا نريد الجنة ونريد أن ندخل النار فما علاقتكم بنا! نريد أن نستمتع بالدنيا فلماذا سعر قنينة الخمر بكذا؟ لماذا لا نستطيع أن نحصل على الموبقة الفلانية بسهولة؟ ما هذه الحكومة؟ عليكم أن تقدموا التسهيلات للبر والفاجر ولا علاقة لكم بمن يريد أن يدخل الجنة أو النار، ألا تريد النار وقودًا فنحن وقودها. يا اللهّ! ما هذه الجرأة على الله! فهذا بحد ذاته معصية، نستجير بالله من ذلك.

ومصداق آخر هو من يؤمن بالآخرة ولكنه لا يبالي بالنتائج ويقيم على المعاصي وهو يعلم أن عاقبتها النار ويقول: فلنستمتع والله كريم. هؤلاء عدهم رسول الله صلى الله عليه وآله من الأشرار.

الثاني: وهو شر من الأول، وهو من باع آخرته بدنيا غيره. وهنا الطامة الكبرى، فالأول يبيع آخرته بدنياه لكي يستمتع هو، وأما الصنف الثاني فهو يبيع آخرته كي يستمتع غيره، فهو لا دنيا له ولا آخرة، فتراه من أجل أن يستمتع الظالم بدنياه يعينه على ظلمه، وما أكثر هؤلاء الذين يدفعهم الجهل والعصبية إلى خسارة دنياهم وآخرتهم بلا مقابل.

الرواية الرابعة: عن عبد الله بن سنان، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**من أعان ظالمًا على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطًا حتى ينزع عن معونته**»(١)، أي أن الله عز وجل يستمر في غضبه على من يعين ظالمًا ما دام معينًا له على ظلمه بأي أنواع الإعانة ولو بالسكوت عنه، ولا يزول هذا الغضب إلى أن يرفع يده عن عون الظلمة، حتى لو كان هذا الظالم أخًا فإنه تحرم مساعدته في ظلمه، بل يجب منعه وتنبيهه على حقيقة العمل الذي يقوم به من الظلم والتجاوز على الآخرين.

الرواية الخامسة: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا به**»(٢)، فمن رضي بفعل جماعة كان شريكًا معهم، سواء كان ذلك العمل صالحًا أو طالحًا، فإن كان حقًا حصل على الثواب، وإن كان باطلًا حصل على إثمين: إثم العامل بالظلم، وإثم الراضي به، فنفس الرضا بالظلم معصية يستحق عليها العقوبة الإلهية.

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٥٧، ح٥.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٤٠، الحكمة ١٥٤.

الرواية السادسة: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا**»[1]، يأمر أمير المؤمنين عليه السلام الإنسان في هذه الحكمة المباركة بأن يساعد المظلوم في رفع الظلم عنه، وأن يخاصم الظالم ليمنعه من الظلم؛ لأن الناس إن لم يفعلوا هذين الأمرين معًا وقع الضعفاء فريسة للأقوياء، وعندها تتسع دائرة الظلم لتشمل الناس جميعًا.

الرواية السابعة: عنه عليه السلام أيضًا قال: «**أحسن العدل نصرة المظلوم**»[2]، أي أن أفضل حالات العدل هي نصرة المظلوم والوقوف معه وإعانته ومساعدته لتخليصه من الظلم، بغض النظر عن هوية هذا المظلوم، سواء كان من أهله أو عشيرته أو حزبه أو أبناء وطنه أو قوميته أو مذهبه أو دينه أو لم يكن.

إذن منع الأخ المؤمن من ظلم الآخرين هو بحد ذاته نصرة له؛ لأننا حينما نمنعه من الوقوع في ذلك نكون قد أنقذناه من العقوبة الإلهية في الدنيا والآخرة جزاء له على ظلمه.

وقد ورد في القرآن الكريم الحث على التعاون لإقامة العدل والنهي عن التعاون على الظلم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3].

تطلب الآية الكريمة من المؤمنين التعاون على أمرين إيجابيين، وهما التعاون على فعل الخير والتعاون على التقوى، وتطلب منهم التعاون أيضًا على ترك أمرين سلبيين وهما التعاون على ترك المعاصي وترك الشر.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾: البِرّ أمر وجودي وهو فعل الخير، والتقوى هي ترك واجتناب الإثم والمعاصي وما هو منهي عنه.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: الإثم هو المعصية، أي النهي عن مساعدة الآخر حتى لو كان أخًا مؤمنًا على ارتكاب معصية، فلو استغاب أمامك مؤمنًا فلا تبتسم له ولا تسكت عنه، بل يجب رده فورًا بأن تقول له: ما هذا الكلام؟ كيف تستغيب الناس؟ وإذا فعل ذلك أمام الآخرين فاكتب له ورقة أو اهمس في أُذنه أو اخرج من مجلس فيه معصية، فلعلهم حين يرونك رافضًا لذلك لا يفعلونه مرة أُخرى ، فأي موقف فيه إثم وعدوان واساءة وتجاوز يجب الابتعاد عنه وإظهار عدم الرضا به، ولذلك نجد أن بعض

(1) عيون الحكم والمواعظ: ٣٩٣.
(2) عيون الحكم والمواعظ: ١١٣.
(3) سورة المائدة، الآية : ٢.

العقود في الفقه الإسلامي عقود تجارية محرمة، كبيع العنب ليصنع خمرًا، فالعين فاكهة محللة يجوز أن تباع وتشترى للأغراض المحللة كالأكل، ولكن لا يجوز أن يباع لمصانع الخمور، وربما يقول بائع العنب: ما علاقتي بصناعة الخمر فأنا بعته عنبًا وأخذت ثمنه؟ والجواب: أن في بيع العنب ليصنع خمرًا إعانة على الإثم ولو بهذا المقدار. وكذلك يحرم بيع السلاح لأعداء الدين ولمن يستخدمه في الفتك بالناس والإساءة إليهم، ولا يجوز أيضًا إجارة مكان لتمارس فيه المعصية والفاحشة والرذيلة مع علمه بأنه سيتحول إلى مكان لذلك، ولا يقُل أحد: أنا أجّرت داري لشخص فما علاقتي بما يفعل فيها؟ لأن هذا المقدار في الإعانة على الإثم كاف في الحرمة. وهذه الحرمة ليست مطلقة بل فيها شروط، ولكن المبنى العام هو حرمة الإعانة على الإثم، فإذا تحققت الشروط فلا يجوز البيع أو الإيجار في هذه الأمثلة المتقدمة؛ لأن هذا أيضًا داخل في التعاون على الإثم والعدوان.

لقد ذكر صاحب كتاب الوسائل في الجزء السابع عشر في الباب الثاني والأربعين مجموعة من الروايات الواردة في إعانة الظلمة، وبالطبع يكون الأخ المؤمن مصداقًا للظالم أيضًا إذا ارتكب الظلم ومشمولًا بهذه الروايات.

الرواية الأولى: عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع، وقوّوه بالتقية، والاستغناء بالله عزّ وجلّ، إنه من خضع لصاحب سلطان ولمن يخالفه على دينه طلبًا لما في يديه من دنيا أخمله الله عزّ وجلّ ومقته عليه ووكله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه فصار له منه شيء نزع الله جلّ جلاله البركة منه، ولم يأجره على شيء منه ينفقه في حج ولا عتق ولا بر ولا عمل صالح**»(١).

«**اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع**»: ما أروع أن يصون المؤمن دينه بالورع، وهو ليس فقط ألاّ يفعل الحرام، بل يتجنب أيضًا ما فيه شبهة، ولا يلتزم بالواجبات فقط، بل يمتثل أيضًا لما يحتمل أن الله تبارك وتعالى يريده.

«**وقوّوه بالتقية**»: أي لا تكشف أسرارك ولا تفضح نفسك ولا تطلع الآخرين على واقعك بالكامل، بل اطلعهم على ما يجب الاطلاع عليه، فإذا كنت عرضة للضرر فلماذا تخاطر بنفسك في قضية ليس فيها ضرورة؟.

(١) الكافي ٥: ١٠٥، ح٣.

«**والاستغناء بالله** عَزَّ وَجَلَّ»: اطلب الغنى والثروة والقوة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تذل نفسك لهذا وذاك، ولا تُرق ماء وجهك لمخلوق مثلك ومحتاج إلى الله تعالى.

«**إنه من خضع لصاحب سلطان**»: من ذلّ واستكان لمن بيده سلطة وتزلف لمدير عام ظالم مثلًا أو كان من أعوان الظلمة.

«**ولمن يخالفه على دينه**»: أو ذل واستكان لمن يختلف معه في الدين أو في العقيدة أو في السلوك أو في المنهج ومن كان له معه خلاف عميق.

«**طلبًا لما في يديه من دنيا**»: لكي يحصل منه على مال، أو لأجل أن يُعيَّن بدرجة وظيفية خاصة، كي يوفر له فرصة للحصول على لقمة عيش عن طريق حرام.

«**أخمله الله** عَزَّ وَجَلَّ»: أي أن من يفعل ذلك يصيبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالخمول ويضيّع أخباره ويضعفه.

«**ومقته عليه**»: أي أبغضه وكان مشمولًا بالمقت الإلهي.

«**ووكله إليه**»: أي يتركه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقول له: ألم تذهب إلى فلان الظالم وتُرق ماء وجهك عنده؟ فاذهب وخذ حاجتك منه، لماذا لم تأتِ إلى الله الرزاق ذي القوة المتين الذي هو على كل شيء قدير، والذي بيده مقاليد كل شيء، وتطلب منه حاجتك؟.

«**فإن هو غلب على شيء من دنياه فصار له منه شيء**»: أي إذا ذهب مع الظالم وحصل منه على المال وصار يملك المليارات.

«**نزع الله** جَلَّ جَلَالُهُ **البركة منه**»: أي عنده المليارات ومع ذلك ترى آثار البؤس والحرمان عليه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيبتليه بأنواع البلايا التى سينفق ما حصل عليه من أموال في سبيل دفعها، كما لو خرج ابنه إلى الشارع فصدمته سيارة فأنفق الملايين لعلاجه، ثم مرضت زوجته فأنفق أموالًا طائلة لعلاجها، وقبل أن تشفى زوجته أُصيب بالسرطان، وحينئذ لن تنفعه المليارات التى استحوذ عليها من ذلك الظالم وتسلب منها البركة ولا يهنأ بها، كما قالها الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لعمر بن سعد في كربلاء في ليلة عاشوراء: «**أي عمر أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعي بلاد الري وجرجان؟ والله لا تهنأ بذلك، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأني برأسك يتراماه الصبيان في أزقة الكوفة**»[1] يجعلونه كرة يلعبون به ويتقاذفونه بأقدامهم، اليوم هو يوم القرار الصحيح وعليك أن تقف مع الحق، ففي ذلك عزة الدنيا والآخرة، وإن لم ترد الوقوف مع الحق

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٠.

فاجلس في بيتك واستقل لكى لا تظلم ولا تتورط بدمي ودماء أهل بيتي وأصحابي؛ لأن الظلم لا يهنأ به أحد.

هل رأى أحد منكم ضمن دائرة معلوماته ظالمًا تهنأ بالأموال التي استحوذ عليها من الشعب؟ نعم قد توهم الصورة من بعيد بذلك، فهو صاحب قصر كبير ولطيف ولكن هذا القصر ليس فيه راحة ولا سعادة ولا ألفة ولا ذكر الله، بل كله همّ وغمّ ومؤامرات ودسائس ومكر وظلم، فلا تتصوروا أن أحدًا إذا حصل على شيء من المال الحرام سيرتاح ويسعد.

«**ولم يأجره على شيء منه ينفقه في حج ولا عتق ولا بر ولا عمل صالح**»: أي لو أنفق هذه الأموال في سبل الخير لم يقبل منه؛ لأن الله تعالى لا يطاع من حيث يعصى، إذ كيف يتقرب إلى الله تعالى بالمال الحرام وهي لا يطهرها خمس ولا زكاة ولا صدقة، بل لو أنفقها كلها فلن تقبل منه؛ لأن الله تعالى لا يتقبل إلا من المحسنين، ولأنه ﷻ هو الغني ونحن الفقراء فلا يحتاج إلى أموالنا، وفلسفة فرض إعطاء المال هي لكي نتكامل، كما جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١]، وإذا أنت لم تعط الفقير فإن الله تعالى يعوضه بغيرك فيعطيه، فالأمر غير متوقف عليك بل الله يرزقه، كل ما في الأمر أن الله تعالى يجعلنا أداة ووسيلة وواسطة لرزقهم، فمن أعطى الفقير فهنيئًا له لأن الله تعالى وفقه لجزيل الثواب، ومن لم يفعل فإن الله تعالى يهيئ له من يعطيه. ولذلك لا يمكن أن يحصل الإنسان على الأجر من خلال الفعل الحرام والمال الحرام.

الرواية الثانية: عن أبي بصير قال: «**سألت الإمام أبا جعفر الباقر** عليه السلام **عن أعمال الظلمة هل يجوز أن أعمل معهم؟ فقال لي: يا أبا محمد لا ولا مدة قلم، إن أحدكم لا يصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينه مثله، ألا ومن علق سوطًا بين يدي السلطان جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعبانًا من النار طوله سبعون ذراعًا يسلطه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير**»[٢].

تتحدث هذه الرواية المباركة عن حرمة العمل مع الظلمة وإعانتهم بأي عمل ولو كان بسيطًا كالكتابة لهم التي لا علاقة مباشرة لها بقراراتهم الظالمة؛ لأن هؤلاء الظلمة لا

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٢) الكافي ٥: ١٠٧، ح١٠.

يعطون أحدًا من دنياهم شيئًا بلا مقابل، بل يعطونه بقدر ما يؤثر في سلب آخرته، وبقدر ما تتقرب منهم، وبقدر ما تخلص لهم، والإخلاص للظالم هو إخلاص لظلمه، وهو يعطيك بنفس المقدار بدله، فإن كنت ما زلت مشكوكًا في ولائك فستبقى تصفق وتهتف إلى أن تكسب ثقته وعندها يقربك ويعيّنك.

الرواية الثالثة: عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ألا ومن علق سوطًا بين يدي السلطان جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعبانًا من النار طوله سبعون ذراعًا يسلطه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير**»[1].

يبين هذا الحديث النبوي المبارك أن إعانة الظالم على ظلمه ولو بمقدار تعليق السوط بين يديه يدخله النار، ويجعل الله تعالى ذلك السوط يوم القيامة ثعبانًا من النار، وليس ثعبانًا من اللحم، وطول هذا الثعبان سبعون ذراعًا، والسبعون في اللغة العربية كناية عن الكثرة، وإلا فقد يبلغ طول هذا الثعبان أضعاف السبعين، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[2]، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن جبرئيل جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو قاطب...إلى أن قال: ولو أن حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعًا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها**»[3].

الرواية الرابعة: عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه (عليهم السلام) قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين أعوان الظلمة، ومن لاق لهم دواة، أو ربط كيسًا، أو مد لهم مدة قلم؟ فاحشروهم معهم**»[4].

يتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك عن مشهد من مشاهد يوم القيامة يختص بأعوان الظلمة وشدة العذاب الذي سيلاقونه، وهو يبين بعض مصاديق هؤلاء الأعوان من الذين يزاولون أعمالًا للظلمة يتصورون أنها لا تدخلهم في زمرة الأعوان.

«**إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين أعوان الظلمة ؟**»: والمراد من أعوان الظلمة هم من يعين الظالم على ظلمه، وهم أدوات الظالم الذين لولاهم لما استطاع الظالم أن يظلم أحدًا.

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ١٨٠، ح١٠.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٣٢.
(٣) بحار الأنوار ٨: ٢٨٠، ح١.
(٤) وسائل الشيعة ١٧: ١٨١، ح١١.

«**ومن لاق لهم دواة**»: لاق الدواة أي وضع فيها الصوفة أو القطنة التي يلتصق الحبر بها، فالدواة التي فيها الحبر في العصور السالفة إذا لم تكن فيها هذه الصوفة سوف تنتقع القصبة التي يكتبون بها، وحين يحملها الكاتب تقطر حبرًا، فيضعون الصوفة لتبتل القصبة بحبر قليل ويبقى الحبر في الدواة، أي أن من مصاديق أعوان الظلمة من ساعد الظالم ولو بأن وضع القصبة في الدواة وناولها للظالم.

«**أو ربط كيسًا**»: المقصود به الشخص الذي يربط كيس أموالهم، لأن الأموال كانت تحفظ في ذلك الوقت بأكياس ثم تربط لئلا تتناثر.

«**أو مد لهم مدة قلم**»: أي من كتب لهم حرفًا أو كلمة واحدة.

«**فاحشروهم معهم**»: أي أن مصيرهم سيكون نفس مصير الظلمة، وأنهم يتحملون من العذاب ما يتحمله الظلمة، نستجير بالله.

الرواية الخامسة: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما اقترب عبد من سلطان جائر إلا تباعد من الله، ولا كثر ماله إلاّ اشتد حسابه، وما كثر تبعه إلا كثرت شياطينه**»[(١)].

يبين رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف ثلاثة أمور يحسبها الإنسان أمورًا جيدة وهي في الواقع أمور سيئة،هي:

الأمر الأول: الاقتراب من السلطان الجائر، فكثير من الناس بل أغلبهم يعتبر الاقتراب من سلاطين الجور أمرًا مستحسنًا، فبواسطتهم يستطيع تمرير الكثير من شؤون حياته، غافلًا عن أن هذا الاقتراب يبعده عن الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ابتعد عن الله فأمره في تسافل حتى يرد الجحيم.

الأمر الثاني: كثرة المال، فالإنسان يسعى وراء تكثير أمواله وتنمية ثرواته ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، بل إن بعضهم يحرص على جمع المال ولو بالطرق غير المشروعة، متناسيًا أن جمع المال يستتبع حسابًا عسيرًا يوم القيامة لا ينجو منه إلا القليل.

الأمر الثالث: كثرة الأتباع، فالإنسان يسعى وراء الجاه والزعامة ويبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة، بل يرتكب الحرام في تصديه للآخرين من أمثاله المنافسين له في طلب الرئاسة، مع أن الرئاسة وكثرة الأتباع تستتبعان كثرة الشياطين من الإنس والجن الذين يحيطون به ويزينون له كل قبيح ومحرم.

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ١٨١، ح١٢.

الرواية السادسة: عن صفوان الجمال قال: «**دخلت على أبي الحسن الأول ـ أي الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ـ فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئًا واحدًا. قلت: جعلت فداك أي شيء؟ قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل، قلت: والله ما أكريته أشرًا ولا بطرًا ولا للصيد ولا للهو ولكني أكريته لهذا الطريق، ولا أتولاه بنفسي، فقال لي يا صفوان: أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم، فقال لي: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم. قال عليه السلام: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم ورد النار، فبعت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك، قلت: نعم. قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير، وإن الغلمان لا يفون بالأعمال، - ما حك جلدك مثل ظفرك - فقال: هيهات هيهات، إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: ما لي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فو الله لولا حسن صحبتك لقتلتك**»[1].

ينبه الإمام الكاظم عليه السلام في هذه الرواية الشريفة أحد أصحابه المخلصين وهو صفوان الجمال إلى أمر كان في غفلة عنه، وهو مسألة إعانة الظالمين، فقد كان صفوان يملك جمالاً كثيرة وكان يؤجرها لهارون العباسي في كل عام ليذهب بها إلى الحج، جاهلاً أن هذا العمل فيه إعانة للظالمين، وعندما بين له الإمام الكاظم عليه السلام هذا الأمر بأدب رفيع يعجز عن مضاهاته غير المعصوم عندما قال له: «**يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئًا واحدًا**»، وهنا يتفاجأ صفوان من هذا الكلام وهو الذي ضبط إيقاعاته جميعًا على ضوء الشريعة، فيسأل الإمام الكاظم عليه السلام عن هذا الأمر القبيح الذي صدر منه بغير علم منه، فيخبره عليه السلام أن إكراء الجمال لهارون فيه إثم عظيم ؛لأن فيه إعانة للظالم، وهذا لم يخطر ببال صفوان؛ لأنه لم يؤجر جماله للشر ولا للبطر ولا للهو ولا للصيد، بل أكراها له لحج بيت الله الحرام، وهو من الواجبات المفروضة على كل مسلم مستطيع، كما أنه لا يتولى هذا بنفسه، بل يقوم به غلمانه، فأين هو المحرم في عمله؟ وهذا أمر لا يتنافى مع وجوب التسليم للمعصوم، لأن صفوان من أولئك المؤمنين الذين يلتزمون بما يقوله المعصوم وإن لم يدركوا وجه العلّة أو الحكمة فيه، فقد تساءلت الملائكة عن علّة خلق الإنسان عندما قال الله تبارك وتعالى لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٧٦، ح٣٤.

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، فلم يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم قولهم هذا، بل أجابهم عن هذه الشبهة التي علقت في أذهانهم عندما تصوروا أن الخلافة ستكون لمطلق الإنسان، وبعد خلق آدم عليه السلام وتعليمه أسماء الأنوار التي كانت تحيط بالعرش والتي كانت تعلم الملائكة التسبيح والتهليل والتكبير، وكانت الملائكة تجهل أسماء هذه الأنوار، طلب تعالى منهم ذكر هذه الأسماء، وهي ليست أسماء الأشياء كما ظنها الكثيرون خطأ؛ لأنهم كانوا يعرفون أسماء الأشياء، فقد ذكروا الأرض والدم، بل ويعرفون المعاني الكلية كالخلافة والإفساد وسفك الدماء، كما أن قوله تعالى ﴿أَسْمَاء هَؤُلاء﴾ دليل على أن المراد ليس أسماء الأشياء، لأن ﴿هَؤُلاء﴾ في اللغة العربية تستعمل للجمع العاقل، ثم طلب من آدم أن يذكرها لهم فذكرها كما علمه، وحينها أدرك الملائكة أن الخلافة ليست لمطلق الإنسان، بل هي للإنسان الذي يحمل العلم الإلهي. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2].

وهنا يبين الإمام الكاظم عليه السلام وجه الحرمة في إعانة الظالمين ولو على الأعمال الواجبة كمناسك الحج، ويتدرج معه في الوصول إلى المقصود عن طريق السؤال والجواب، إلى أن يصل إلى النتيجة وهي أن من أحب بقاء الظالمين حُشر معهم كائنًا من كان، فكم هذه القضية صعبة ودقيقة، نسأل الله أن يجيرنا من ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٣١ ـ ٣٣.

الحق الثامن والعشرون
(عدم تسليم الأخ المؤمن لعدوه)

يتجسد هذا الحق في قول رسول الله ﷺ: «**لا يسلمه**»، أي أنّ من حق المؤمن على أخيه المؤمن ألاّ يسلمه إلى أعدائه أو إلى خصمائه، لأنّ في ذلك خذلانًا له، فالمتداول في عالمنا اليوم إذا كان هناك شخص مطلوب من أحد ويقول: من يدلني عليه أعطيه كذا وكذا من المال، فإنّ هناك من يستجيب ويدله عليه، ومثال آخر لهذا الحق هو ما ينتزعه الحاكم الظالم بالتعذيب من اعترافات على أشخاص أعانوهم أو شاركوهم في عمل ضد الحكومة الظالمة، وهذا التسليم إن كان خوفًا من التهديد أو طمعًا في هدية أو جائزة أو مكرمة من السلطان أو من ذلك الغريم فهو من المحرمات، ومن حق المؤمن على أخيه المؤمن ألاّ يسلمه ولا يبيعه ولا يخونه ولا يعرض حياته إلى الخطر، ولا سيَّما إذا كان قد لاذ به وطلب منه الأمان، كما لو جاءه ودق بابه وقال له إنني مطارد الآن وجئت لائذًا بك، فإذا أعطاه الأمان يجب عليه أن يحميه بنفسه ولا يجوز له أن يذهب ويشي به إلى الحاكم.

وفي هذا الحق معنى ظاهري ومعنى باطني، فالمعنى الظاهري هو منع وصول العدو إليه، والمعنى الباطني أو المعنوي هو عدم جواز تسليم الأخ المؤمن إلى العدو الحقيقي وهو الشيطان الرجيم؛ لأنه العدو الحقيقي للإنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، فإذا رأيت أخاك قد أخذه الهوى وأخذته الدنيا وذهب باتجاه الانحراف فلا تسلمه للشيطان اللعين، وامنع وصوله وتعرضه إلى وساوس هذا الخبيث، وأعده إلى طريق الصواب وطريق الهداية.

عنوان الخيانة في القرآن الكريم

علينا بمراجعة القرآن الكريم لنعلم كيف ينظر إلى مفهوم الخيانة، وفي الحقيقة هناك الكثير من الآيات القرآنية الشريفة التي وردت في هذا الأمر نذكر بعضًا منها:

منها: ما ورد في حرمة الخيانة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، يقال إنّ شأن نزول هذه الآية الشريفة هو أنّ رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حينما حاصر بني قريظة في المدينة، بعد أن آذوه كثيرًا، وآذوا المسلمين، وقد تعامل معهم رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ برفق وإحسان، فأعطاهم الفرص، واستعمل معهم المداراة، ولكن كان أثر هذه المداراة عكسيا دائمًا، فكلما تعامل معهم رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والمسلمون برفق ولين، كانت ردود الأفعال أشد وأعظم، وكان ردهم المزيد من المكائد والخديعة والمؤامرات.

وكان رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قد حاصر بني النضير، فصالحوه على الرحيل من المدينة إلى الشام دون قتال، وانتهت مشكلتهم بهذه الطريقة، وكرر رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ نفس الأسلوب مع بني قريظة، وأمر بحصارهم، فحاصرهم المسلمون ثلاثة أسابيع، فتضعضعوا وانهاروا وأتوا رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وقالوا: صالحنا على ما صالحت عليه بني النضير، فنترك أطراف المدينة ونرحل إلى الشام، فلم يقبل منهم رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذلك، كما يبدو من أجواء الروايات والنصوص التاريخية، ولم يجد عندهم الجدية في هذا الأمر، وقال لهم: إنّ لبني النضير حكمًا، ولكم حكم آخر. وهنا نستفيد درسًا مهمًا، وهو أنّ لكل حالة ظروفها الخاصة بها، وينبغي التعامل معها بطريقة مختلفة.

فاختاروا أن يكون سعد بن معاذ ـ وهو صحابي جليل ـ هو الحكم فيهم وأن يقبلوا بكل ما يقرره فيهم، وكان سيد قومه في الجاهلية والإسلام، فقبل منهم رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذلك، وهنا درس آخر نستفيده من هذه الواقعة، فمع أنه سيد الأنبياء والمرسلين، والحاكم، والنبي، والولي، ويتبعه المسلمون كلهم، لم يترك كل الأمور بيده، وترك الأمر لسعد بن معاذ، ليحكم فيهم بما شاء. وكان لبني قريظة علاقة صداقة مع أحد المسلمين يدعى أبا لبابة، فقالوا لرسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: ابعث لنا أبا لبابة نريد أن نتشاور معه، فوافق رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وذهب أبو لبابة لبني قريظة، فاجتمع به كبارهم، وقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى حكم سعد بن معاذ فينا؟ فقال لهم: إنّ حكم سعد بن معاذ فيكم سيكون الذبح، وفي هذه الأثناء نزل جبرائيل عَلَيْهِالسَّلَامُ على قلب رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأخبره بخيانة أبي لبابة، فخرج أبو لبابة من عندهم، وفي طريقه راجع شريط الأحداث، فقال في نفسه: يا أبا لبابة ماذا فعلت؟ كيف تشي بأسرار المسلمين؟ هذه خيانة، فتأذى كثيرًا، وهذا درس آخر؛ فليس كل من يرتكب خطأ هو خائن، فأحيانًا يضعف الإنسان.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

وقرر أبو لبابة في الطريق، وهو لا يعلم أنّ جبرائيل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله، أن لا يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ولا لبيته، وأخذ حبلاً وذهب إلى مسجد النبي، وهو بيت من بيوت الله، وربط الحبل برقبته، وربط الطرف الآخر بإسطوانة المسجد، وقال: لا أخرج إلا أن أموت أو يغفر الله لي، وفي الليل لا يأكل إلا ما يسد رمقه، ومرّت سبعة أيام وهو يبكي ويناجي ربه، وفي اليوم السابع نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل البشارة بأنّ الله تعالى قد غفر لأبي لبابة وتاب عليه، وبعث له رسول الله صلى الله عليه وآله من يوصل إليه الخبر، وقال له: يا أبا لبابة هنيئًا لك المغفرة من الله سبحانه وتعالى، فقال: لن يحلّ هذا الحبل إلا رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء رسول الله بنفسه وحلّ الحبل، وقام أبو لبابة فقال: يا رسول الله لم يرتح قلبي بعد هذه الخيانة التي خنتها، أريد أن أتصدق ببيتي وممتلكاتي وأموالي في سبيل الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كثير، فقال: نصف، قال: كثير، فقال: ثلث، قال: تصدق بثلث أموالك في سبيل الله، فكتمان السر أمر مهم جدًا، وإفشاء السر مصداق من مصاديق الخيانة لله ورسوله.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[1]، فالله سبحانه وتعالى لا يهدي من يخون ومن يلصق التهم بالآخرين، لأنه يمهل ولا يهمل، ولكن الإنسان تضعف نفسه أحيانًا، ففي لحظة نظرة إلى حرام، وفي لحظة كلام محرم، أو حضور مجلس محرم، يندفع في اتجاهات معينة لا قدّر الله، وقد أشرنا في لقاءاتنا السابقة إلى المنهج الإسلامي في الابتعاد عن مواضع التهم، ولكن حينما يقع ذاك، فعليه أن يستعصم من الحرام ما أمكن. إذن فالآيات تشير بوضوح إلى حرمة الخيانة وتأثيرها الهدام.

آثار الخيانة في القرآن

الأثر الأول: غضب الله سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآيات: ٥٠ ـ ٥٢.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦١ ـ ١٦٢.

تنفي الآية الكريمة اتهام المنافقين لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بالخيانة في توزيع الغنائم، باعتباره نبيًا مرسلًا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن يصطفيه للنبوة لا يمكن مطلقًا أن تصدر منه الخيانة؛ لأنّ أصل النبوة قائم على أساس الأمانة في تبليغ الأحكام وفي تطبيقها، ويستحيل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يختار خائنًا للنبوة.

ثم تبيّن الآية الكريمة أن من يخون - وهم المنافقون - سيقف للحساب يوم القيامة، والذي يخون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحشره يوم القيامة حاملاً الشيء الذي خان به، إن كان سيفًا أو ثوبًا أو أي شيء آخر، ويوفيه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يستحق من العذاب. ثم تتطرق الآية الثانية إلى حلول الغضب الإلهي على الخائن، وأنّ عاقبته ستكون إلى جهنم وبئس المصير الأسود الذي ينتظره.

الأثر الثاني: خيانة النفس، فالذي يخون الآخرين قد خان نفسه، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، فهذه من آثار الخيانة أيضًا، فقد يكون الإنسان في موقع يخون فيه نفسه، كما ورد ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[2].

عنوان الخيانة في الروايات

لقد ورد التصريح بهذا الحق في كثير من الروايات، نذكر بعضًا منها:

الرواية الأولى: عن أبي الميمون الحارثي قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**ما حق المؤمن على المؤمن؟ قال: إنّ من حق المؤمن على المؤمن المودّة له في صدره... إلى أن قال: وأن لا يخذله**»[3]، أي لا يسلمه إلى عدوه.

الرواية الثانية: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «**إذا أؤتمِنتَ فلا تخن**»[4]، أي حينما تؤتمن فلا تغدر ولا تُسرّب معلومات عن الأمانة.

---

(١) سورة الإسراء، الاية : ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية : ١٨٧.
(٣) الكافي ٢: ١٧١ ح٧.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ١٣٤.

الرواية الثالثة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**لا تجتمع الخيانة والأخوّة**»[١]، أي أنّ الأخوّة والخيانة متضادتان لا يمكن أن تجتمعا، فإذا كانت هناك أُخوة، فمعنى ذلك أنه لا توجد خيانة، وإذا كانت هناك خيانة، فمعنى ذلك أنه لا توجد أُخوة.

الرواية الرابعة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه**»[٢]، أي يجب على المؤمن أن يحافظ على أخيه المؤمن كما يحافظ على عينه.

الرواية الخامسة: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**كونوا عباد الله إخوانًا، فإنّ المؤمن أخو المؤمن لا يخونه**»[٣]، مصداق الأخوّة وتجسيدها أن لا يخون المؤمن أخاه المؤمن.

الرواية السادسة: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**غاية الخيانة خيانة الخل الودود، ونقض العهود**»[٤]، أي أنّ أشد حالات الخيانة وأقصاها هي خيانة الصديق الودود، وغاية الخيانة أيضًا نقض العهود، أي حينما يعطي الإنسان العهود والمواثيق ثم ينقضها، إذ إنّ من أهم مقومات إيمان المؤمن الصدق والأمانة.

الرواية السابعة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنما سُمّوا إخوانًا لنزاهتهم عن الخيانة**»[٥]، حينما يتنزهون عن الخيانة، حينئذٍ تستطيع أن تُسميهم إخوة.

واستعرض العلامة المجلسي في موسوعته بحار الأنوار مجموعة من هذه الروايات نذكر بعضًا منها:

الرواية الثامنة: عن عبد العظيم الحسني - المدفون في ضواحي طهران- عن أبي الحسن الثالث - الإمام الهادي عليه السلام - قال: «**كان في ما ناجى موسى ربه: إلهي ما جزاء من ترك الخيانة حياءً منك؟ قال: يا موسى له الأمان يوم القيامة**»[٦]، أي من تأتيه الفرصة ولا يخون، فهو في مأمنٍ من عذاب الله يوم القيامة.

الرواية التاسعة: عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربعٌ لا تدخل بيتًا واحدةً منهنّ إلا خرب ولم يُعمر بالبركة: الخيانة والسرقة وشرب**

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٣٣.
(٢) الكافي ٢: ١٦٦ ح٣.
(٣) مستدرك الوسائل ٩: ٤٩ ح٢٤.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٣٤٩.
(٥) مستدرك الوسائل ٨: ٣٣١ ح٥.
(٦) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٠ ح١.

الخمر والزنا»[١]، يبيّن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أثرين من الآثار الدنيوية لأربعة من الذنوب الكبيرة المذكورة أعلاه، وهما: الخراب، والمقصود بالخراب هنا هو الخراب المعنوي وليس انهيار السقف أو الجدار، والثاني هو زوال البركة من ذلك البيت، والمقصود بها أن لا تكون في البيت محبة ولا مشاعر ولا أُلفة.

الرواية العاشرة: عن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: **«من خان جاره في شبر من الأرض جعلها الله طوقًا في عنقه من تخوم الأرضين السابعة حتى يلقى الله يوم القيامة مطوقًا، إلا أن يتوب ويرجع»**[٢]، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحوّل هذا الشبر إلى طوق ملتف حول عنقه، ويمتد إلى الأرضين السابعة، إلى أن يتوب عن غصبه لأموال الناس وأراضيهم.

الرواية الحادية عشرة: عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: **«من خان أمانةً في الدنيا ولم يردّها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملتي، ويلقى الله وهو عليه غضبان»**[٣].

الرواية الثانية عشرة: عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: **«من اشترى خيانةً وهو يعلم فهو كالذي خانه»**[٤].

الرواية الثالثة عشرة: عن جعفر عن أبيه عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ قال: **«قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: الأمانة تجلب الغناء، والخيانة تجلب الفقر»**[٥].

الرواية الرابعة عشرة: في روايةٍ أُخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ عن آبائه عَلَيْهِمُالسَّلَامُ قال: **«قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: لا تزال أُمتي بخير ما لم يتخاونوا، وأدّوا الأمانة، وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين»**[٦]، يبيّن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّ أُمته باقية على الخير ما دامت فيها ثلاث خصال: الأولى: ترك الخيانة، فلا يخون أحدهم الآخر، والثانية: أداء الأمانة، فمن لم يمد يده إلى المال الحرام، فإنّ الله تعالى يعوضه بأموال أُخرى، والثالثة: إيتاء الزكاة، فدفع الحقوق الشرعية، مثل الخمس والزكاة، يجعل البركة في المال، ومن يختلط ماله بمال حرام وبحق الله تعالى وبحق رسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وبحق الناس، فإنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يجعل في ماله بركة. وإذا ما فقدوا هذه الخصال الثلاث، عاقبهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالقحط والسنين، أي يبتليهم بالفقر والفاقة والقحط.

(١) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١ جزء من ح٣.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١ جزء من ح٣.
(٣) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١ جزء من ح٣.
(٤) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١ ح٤.
(٥) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٢ ح١٠.
(٦) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٢ ح١٣.

الرواية الخامسة عشرة: عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال: «**ليس منا من يُحقّر الأمانة حتى يستهلكها إذا استُودِعها، وليس منا من خان مسلمًا في أهله وماله**»[1].

الرواية السادسة عشرة: في كتاب الكافي الشريف عن الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ أنه قال: «**إنّ من حق المؤمن على المؤمن المودّة له في صدره... وأن لا يخونه**»[2].

يستعرض الإمام عَلَيْهِالسَّلَامُ في هذه الرواية المباركة مجموعة من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن، ومنها: «**أن لا يخونه**»، أي أن يحفظه ولا يسلمه.

الرواية السابعة عشرة: ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ في غرر الحكم كلام يؤيد هذا المعنى، هو قوله: «**إذا أؤتمنت فلا تخن**»[3]، أي حينما يأتمنك أحد فلا تخنه ولا تغدر به ولا تشِ به ولا تسرّب معلومات عنه.

الرواية الثامنة عشرة: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ أيضًا: «**لا تجتمع الخيانة والأخوّة**»[4]، أي أنّ الأخوّة والخيانة متضادتان، لأنّ الوفاء قرين الأخوّة، فمن كان أخًا لك يجب ألّا تخونه، ومن خان صاحبه فإنّ ذلك يعني أن لا أُخوّة بينهما، إذ كيف يمكن للأخ أن يخون أخاه؟.

الرواية التاسعة عشرة: في كتاب الكافي عن أبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه**»[5]، فالمؤمن عين المؤمن، ويجب أن يحافظ عليه كما يحافظ على عينه، وهو دليله ؛لأنّه العين التي يرى بها الطريق التي يسلكها، ولذا يجب عليه ألّا يخونه.

الرواية العشرون: في مستدرك الوسائل عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «**كونوا عباد الله إخوانًا، فإنّ المؤمن أخو المؤمن لا يخونه**»[6]، يطلب نبيّنا الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من المسلمين أن يكونوا إخوة؛ لإنّ المؤمن أخو المؤمن، ومصداق هذه الأخوّة يتجسد في عدم خيانة أخيه المؤمن.

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٢ ح١٣.
(٢) الكافي ٢: ١٧١، ح٧.
(٣) غرر الحكم: الحكمة ٥٢٤١.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٥٣٣.
(٥) الكافي ٢: ١٦٦، ح٣.
(٦) مستدرك الوسائل ٩: ٤٩، ح٢٤.

الرواية الحادية والعشرون: عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**غاية الخيانة: خيانة الخل الودود، ونقض العهود**»[1]، يبيّن الإمام عليه السلام في هذه الحكمة العلويه أقصى درجات الخيانة، ويقول إنّها أمران، الأول: خيانة الصديق الودود، أي الصديق المقرب، فإنّ خيانته لا توجد سفالة أسفل منها، والثاني: نقض العهود، أي أنّ يعطي الإنسان عهدًا والتزامًا ثم ينقضه، في حين أنّ الصدق والأمانة سمتان أساسيتان من مقومات إيمان المؤمن، فإذا خان العهد فهذا يعني أنّه فقد إيمانه.

الرواية الثانية والعشرون: في أمالي الشيخ الطوسي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنما سمّوا إخوانًا لنزاهتهم عن الخيانة**»[2]، يحصر الإمام عليه السلام علّة تسمية الإنسان بالأخ حينما يتنزه عن الخيانة، ومن دون ذلك لا يحق أن نسمّيه أخًا، فمثل هؤلاء ليسوا إخوة بل هم في الحقيقة أعداء.

الرواية الثالثة والعشرون: في وسائل الشيعة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ من حق المؤمن على المؤمن أن لا يخونه**»[3].

ثواب من ترك الخيانة

روى السيد عبد العظيم الحسني عن أبي الحسن الثالث الإمام الهادي علي بن محمد عليه السلام، قال: «**كان في ما ناجى موسى ربه: إلهي ما جزاء من ترك الخيانة حياء منك؟ قال: يا موسى له الأمان يوم القيامة**»[4].

ينقل الإمام عليه السلام في هذه الرواية الكريمة مقطعًا من مقاطع الكلام الذي دار بين الجليل جل جلاله ونبيّه موسى عليه السلام الذي كان يطلق عليه لقب كليم الله، إذ يسأل عن الثواب الذي ادّخره عزّ وجلّ لمن ترك الخيانة ليس حياء من الناس، بل حياء منه عزّ وجلّ. فجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى أنّ له الأمان يوم القيامة، حيث الفزع الأكبر.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٤٩.
(٢) أمالي الطوسي: ٦٠٩، ح ١٢٥٨/ ٧.
(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٢٠٧، ح١٠.
(٤) بحار الأنوار ١٣: ٣٢٨، ح٤.

عقوبة الخيانة وثواب تركها في الروايات

وردت روايات كثيرة في عقوبة الخيانة، استعرض العلامة المجلسي في كتاب بحار الأنوار مجموعة منها:

منها: ما رواه الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أربع لا تدخل بيتًا واحدة منهنّ إلاّ خرب ولم يعمر بالبركة: الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنا**»[1].

يتحدّث رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث الشريف عن آثار أربعة من الذنوب الكبيرة، وأنّ ارتكاب أي واحد من هذه الأربعة له أثر ليس على صاحبها فقط، بل يشمل جميع أفراد عائلته، وهذا الأثر هو خراب البيت وزوال البركة منه. ومعنى ذلك أنّ جميع أعضاء الأُسرة يجب أن يتحملوا المسؤولية كاملة ويحُولوا دون ارتكاب أي فرد منها لأي واحد من هذه الذنوب الأربعة، لأنّ آثارها الماحقة ستحل بالجميع، وليس معنى الخراب هنا الخراب المادي للبيت كسقوط جداره، بل المقصود الخراب المعنوي وهو زوال البركة منه، وحينئذ تتحول الحياة فيه إلى حياة ليس فيها طعم ولا روح ولا بركة ولا مشاعر ولا محبة ولا ألفة، فقد يكون هذا البيت قصرًا ويمتلك صاحبه المليارات، ولكنه ليس مستمتعًا بها ولا بركة فيها وليس ملتذًا بحياته، بل حياته عذاب وشقاء.

وأول هذه الذنوب الأربعة الخيانة، فالبيت الذي فيه خائن لا بركة فيه، وثانيها السرقة، فالبيت الذي يعيش فيه من يمد يده إلى المال الحرام ويعتدي على مال الناس، تزول البركة منه أيضًا، وثالث هذه الذنوب هو شرب الخمر، فالبيت الذي يشرب فيه الخمر أو يسكن فيه شارب خمر تزول منه البركة، ورابعها هو الزنا، فهو يذر الدار قاعًا صفصفًا من البركة، وإذا زالت البركة من بيت كان أهله في شقاء مستمر لا يعرفون للسعادة طعمًا.

ومنها: ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من خان جاره شبرًا من الأرض جعلها الله طوقًا في عنقه من تخوم الأرضين السابعة حتى يلقى الله يوم القيامة مطوقًا، إلاّ أن يتوب ويرجع**»[2]، فكثيرًا ما يتهاون الإنسان في الأشياء الصغيرة ويرى أنّ ذلك أمر متسامح فيه، كما لو أخذ شبرًا من أرض جاره فضمها إلى أرضه وحرم صاحبها منها، وقد يتصور أنّ مثل هذا لا يُحاسب عليه في الآخرة لعدم مطالبة جاره به لتفاهته، ولكن الحديث

(١) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٠، ح٢.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ١٥٠، ح٢.

الشريف يبيّن عظم عقوبة هذه الخيانة ولو كانت في شبر من الأرض لا يعلم به صاحبه حينما غصب منه، فبمجرد أن يموت سيطوق بطوق من النار يلف بدنه إلى أن يلقى الله ﷻ يوم القيامة فيحاسبه على هذه الخيانة في الآخرة، إلاّ أن يتوب إلى الله تعالى من جريمته هذه ويُرجع الحق المغتصب إلى أصحابه.

ومنها: عن رسول الله ﷺ أيضًا أنّه قال: «**من خان أمانة في الدنيا ولم يردّها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملّتي**»[١]، فلا يقولن إنني مسلم من مات وقد مد يده إلى أموال الناس، وسوف يلقى الله وهو عليه غضبان.

ومنها: قول رسول الله ﷺ: «**من اشترى خيانة وهو يعلم فهو كالذي خانه**»[٢].

ومنها: عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأمانة تجلب الغناء، والخيانة تجلب الفقر**»[٣]، أي أنّ الإنسان الأمين تحل عنده البركة، وأما الإنسان الخائن فيحل عنده الفقر. وتكمن المشكلة في أنّ الخائن يحسب ما يحصل عليه من أموال حسابات مادية بحتة، فهو يتصور أنّه إذا مدّ يده إلى أموال الناس وأخذ مائة ألف فقد كسب مائة ألف، ولا يعلم أنها فايروس دخل في أمواله فتسبب في ضياع أمواله التي كسبها من حلال، وأما الأمين فإنّ الله تعالى يجعل البركة في ماله وإن كان قليلاً.

ومنها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله ﷺ: لا تزال أُمتي بخير ما لم يتخاونوا وأدوا الأمانة وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين**»[٤]. يبيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف ثلاثة شروط لبقاء أمته بخير، وهي:

الأول: «**ما لم يتخاونوا**»: أي ما لم تدخل الخيانة فيهم، فهي أُمة صالحة وصادقة وأمينة، فالأُمة التي لا يمدّ بعضها يده إلى أموال البعض الآخر ستكون بخير.

الثاني: «**وأدوا الأمانة**»: قد لا تتخاون الأمة إذا لم تقبل الأمانة، فلا يكون هناك موضوع للخيانة أصلاً، وهو أمر سلبي، ولكن المطلوب هو أمر إيجابي؛ وهو أن تقبل الأمانة ثم تؤدي هذه الأمانة لأصحابها.

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١، ح٣.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ١٧١، ح٣.
(٣) بحار الأنوار ٧٢: ١١٤، ح٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٢: ١٧٢، ح١٠.

حدّثني أحد المسؤولين يقول: كنا نذهب إلى كُردستان قبل (٢٠٠٣) عام سقوط الطاغية لنشتري بضاعة، فكنا نأتي لبائع التمر ونقول له: بع لنا تمرًا، فيقول: ما عندي من التمر ليس تمرًا جيدًا، ولكني أدلك على من عنده تمر أفضل، فأقول له: أنا أريد أن أشتري منك، وأنت لم تغش ولم تخن وقد أتيتك برجلي ويمكنك أن تسكت، وأنت تراني غريبا، فيقول: لا نريد أن نخجل مع الغرباء. وهذه قمة الأمانة، فالشعب الذي تتسم علاقاته بالصدق والأمانة والوضوح يجعل الله تعالى فيه خيرًا وبركة، ولو كُشف لنا الغطاء عن حال هذا الإنسان فمن المؤكد أننا لن نجده فقيرًا، ولن نجده متحيرًا، فإنّ الله ﷻ يقف معه ما دام يملك مثل هذه الأمانة؛ لأنّ الأمور هنا تعطي مداليل عكسية، فإعطاء الصدقة يعتبر ظاهريًا نقصًا للمال، ولكن الصدقة في الواقع نماء للمال وزيادة وبركة، فمن لا يمد يده إلى أموال الناس يعوضه الله تعالى بأموال أُخرى.

الثالث: «وآتوا الزكاة»: أي أنّ دفع الحقوق الشرعية من خُمس وزكاة يجعل في المال بركة، وقد يظن من لا يدفع ما أوجبه الله عليه من حقوق مالية أنه قد حافظ على أمواله، وهو لا يعلم أنّ البركة كلها تذهب من أمواله؛ لأنها قد اختلطت بالمال الحرام من حق الفقراء الذي امتنع من دفعه.

«فإذا لم يفعلوا ذلك»، أي إذا لم يكونوا أمناء ولم يحافظوا على أموال الناس ولم يؤدوا الأمانات إلى أهلها ولم يدفعوا الحقوق الشرعية إلى مستحقيها، ماذا سيحدث؟.

«ابتلوا بالقحط والسنين» أي ألبسهم الله ﷻ ثوب الفقر والفاقة والقحط، فينزل سعر النفط من (١٢٠) دولارًا للبرميل الواحد إلى (٤٠) دولارًا أو أقل. لقد ذهبت من أيدينا فجأة تلك الوفرة المالية بما كسبت أيدينا؛ لأنّ معاملاتنا لم تكن معاملات سليمة، فالفساد يضرب أطنابه في جميع مؤسسات الدولة وينخرها، والكثير ممن يصرخ بمكافحة الفساد حين صار مسؤولاً فيها أصبح من الفاسدين، وترى من يسرق الآلاف والملايين ينتقد من يسرق المليارات، مع أنّ لعابه سال على الآلاف فكيف يؤتمن على المليارات؟. يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[(١)]، علينا أن نجرب الناس في الأموال القليلة، فإن خانوا الأمانة فإنهم قطعًا سيخونون في الأموال الكثيرة، وإن نجحوا في أدائها فلا يعني ذلك أنهم سينجحون في أداء أماناتهم في الأموال الكثيرة.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

مصاديق الخائنين في القرآن الكريم

أولًا: أسرى بدر.

لقد عبّر القرآن عن أسرى المشركين في بدر بالخونة.

ثانيًا: الخائنون من أهل الكتاب.

وتحدثنا عن اليهود في هذا العنوان.

ثالثا: من يقضي بغير حق فهو خائن أيضًا

يدل على ذلك قصة بني أُبيرق الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[1]، وقد نقل العلامة المجلسي قصتهم عن الشيخ الطبرسي، قال: «**نزلت في بني أُبيرق كانوا ثلاثة إخوة: بشر وبشير ومبشر، وكان بشير يكنى أبا طعمة يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يقول فلان، وكانوا حاجة في الجاهلية والإسلام، فنقب أبو طعمة على علية رفاعة بن زيد وأخذ له طعامًا وسيفًا ودرعًا، فشكا ذلك إلى ابن أخيه قتادة بن النعمان، وكان قتادة بدريًا، فتحسسا في الدار وسألا أهل الدار في ذلك، فقال بنو أبيرق: والله ما صاحبكم إلا لبيد بن سهيل رجل ذو حسب ونسب، فأصلت عليهم لبيد سيفه وخرج إليهم، وقال: يا بني أبيرق أترمونني بالسرقة وأنتم أولى به مني وأنتم المنافقون، تهجون رسول الله ﷺ وتنسبون ذلك إلى قريش، لتبينن ذلك أو لأضعن سيفي فيكم، فداروه. وأتى قتادة رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل بيت سوء عدوا على عمي فخرقوا علية له من ظهرها وأصابوا له طعامًا وسلاحًا. فقال ﷺ: انظروا في شأنكم، فلما سمع بذلك رجل من بطنهم الذي هم منه يقال له أُسيد بن عروة جمع رجالًا من أهل الدار، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا لهم حسب ونسب وصلاح وأنبوهم بالقبيح وقالوا لهم ما لا ينبغي وانصرف، فلما أتى قتادة رسول الله ﷺ بعد ذلك ليكلمه جبهه رسول الله ﷺ جبهًا شديدًا وقال: عمدت إلى أهل بيت لهم حسب ونسب تؤنبهم بالقبيح وتقول ما لا ينبغي؟ قال: فقام قتادة من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى عمه فقال:ليتني مت ولم أكن كلمت رسول الله ﷺ فقد قال لي ما كرهت. فنزلت الآيات: «﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾» إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾. فبلغ بشيرًا ما نزل فيه من القرآن فهرب إلى مكة وارتد كافرًا... إلا أن قتادة وعكرمة قالا:**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥

إن بني أُبيرق طرحوا ذلك على يهودي يقال له زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ وجاء بنو أبيرق إليه وكلموه أن يجادل عنهم، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ويعاقب اليهودي، فنزلت الآية، وبه قال ابن عباس»(١).

رابعًا: بنو إسرائيل بعنوانهم، وقد تحدث القرآن الكريم عن خيانتهم، كما في هذه الآيات الشريفة من سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: الميثاق هو العهد، أي أخذ الله عهدًا على بني إسرائيل. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا الميثاق في آية أُخرى من كتابه الكريم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾(٣).

﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: النقيب أي القائد والزعيم، كما نقول اليوم: نقيب المهندسين ونقيب الصحفيين. هل اختيار الله جلّ جلاله العدد اثني عشر زعيمًا لبني إسرائيل كان أمرًا اعتباطيًا؟ طبعًا ليس كذلك؛ لأنّ الله تعالى حكيم ومن المستحيل أن يصدر عنه أمر اعتباطي. وقد ورد في رواية أنّ هؤلاء كانوا وزراء لموسى عليه السلام، ثم بعد ذلك صاروا أنبياء(٤). وورد في بعض الروايات عن رسولنا الكريم ﷺ أنه شبّه أئمتنا الاثني عشر بنقباء بني إسرائيل(٥). إذن فالرقم اثنا عشر له مداليل في علم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٢ ص ٢٢-٢٣

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤) الدر المنثور ٢: ٢٦٧.

(٥) بحار الأنوار ٣٦: ٢٢٩ ح٨، ٣٦: ٢٣٠ ح٩، ح١٠.

﴿وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ﴾: يا بني إسرائيل أنا أنصركم وأدعمكم وأحسم لكم المعركة، ولكنْ عندي شروط ومواثيق وعهود، وهي:

الشرط الأول: إقامة الصلاة

وهو قوله تعالى:﴿أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ﴾، فالصلاة لها قيمة عظيمة في تطهير الإنسان وتهيئته للأدوار الكبيرة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١).

وقد ورد التعبير عن هذا الشرط هنا بإقامة الصلاة؛ لوجود فرق بين صليتم وأقمتم الصلاة، فأحدنا يؤدي الصلاة فيصدق عليه أنه صلى ويقول صليت، ولكن إقامة الصلاة تعني أن يساعد على إشاعتها وتثبيتها في المجتمع، فالمطلوب ليس فقط أن يصلي، بل ينبغي أن يكون المجتمع مجتمعًا ملتزمًا ومصليًا.

الشرط الثاني: إيتاء الزكاة

وهو قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾، أن تدفعوا حقوقكم الشرعية ولا تتنصلوا أو تتهربوا أو تبحثوا عن مخارج معينة ظاهرها شرعي وواقعها ليس كذلك، ودفع الحق الشرعي يطهر الأموال ويزيد البركة فيها، فنحن حينما نعطي إنما نزيد في أموالنا ولا ننقصها ماديًا، فمن الناحية الواقعية يزيد هذا المال.

الشرط الثالث: الإيمان بالرسل

وهو قوله تعالى: ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾، أي يجب عليكم الإيمان والتصديق بالأنبياء الذين أبعثهم إليكم، وقيل: إنّ المقصود بهم هم الأنبياء من بعد موسى عليه السلام، لأنّه لو كان عليه السلام مشمولاً بهذا الشرط لكان يفترض أن يقدّم شرط الإيمان بالرسل على شرط إقامة الصلاة وشرط إيتاء الزكاة؛ لأنّ الصلاة والزكاة قد فرضتهما رسالة موسى عليه السلام على بني إسرائيل.

الشرط الرابع: نصرة الرسل

وهو قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، أي أخذتم بكلام الأنبياء وأطعتموهم ونصرتموهم.

الشرط الخامس: العمل الصالح

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، أي فعلتم فعل الخير، وقد عبّر الله ﷻ عن فعل الخير والعمل الصالح بالقرض الحسن له ﷻ، أي من يعمل صالحًا فإنّ أجره يقع على الله وهو يجزي به، وجعله بمثابة القرض له، أي أنّ الله تعالى يعتبره دينًا عليه، وحاشا لله ألاّ يفي بوعده أو لا يؤدي دينه.

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾: أي التزموا بهذه الشروط الخمسة وأنا معكم وناصركم ومعينكم، ولكن من لم يلتزم بها وكفر بها بعد الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على بني إسرائيل وخان الأمانة.

﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أي انحرف عن جادة الصواب، وسلك طريقًا منحرفًا، يُعد سالكه إنسانًا منحرفًا لا يلتزم بعهد ولا ميثاق، فكيف إذا كان هذا الميثاق مع الله ﷻ ؟.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ تخبرنا الآية الكريمة أنّ بني إسرائيل خانوا الأمانة والعهد والميثاق.

﴿لَعَنَّاهُمْ ﴾: أي كانت نتيجة نقض المواثيق أنّ الله ﷻ طردهم من رحمته، وحُرموا من الوعد الإلهي بأن يكون معهم في الحياة الدنيا، وخذلهم وأوكلهم إلى أنفسهم وطردهم من رحمته.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: أي لا تميل إلى ذكر الله ﷻ ولا تتأثر بذكره، وقوله تعالى: ﴿وقُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يعني هم جعلوا قلوبهم قاسية عندما أقدموا على ارتكاب جميع المقدمات ونقضوا جميع المواثيق، فلا بُـدَّ من أن تُرتب النتيجة المحتومة عليها؛ لأنّ الله ﷻ وضع قواعد عامة في هذا الكون، وسننًا جارية في هذه الحياة، لا تتخلف فيها النتائج إذا وجدت المقدمات، فالظالم يظلم نفسه بظلمه للآخرين، ومن ينقض العهود والمواثيق فهو الخاسر؛ لأنّ نتيجة فعله هذا أن أصبح قلبه قاسيًا، وإن كانت النتيجة ببعدها الإيجابي أو السلبي تنسب إلى الله ﷻ ؛ لأنّه هو من رتّب هذه النتيجة على تلك المقدمات، ولكنها في الحقيقة نتيجة فعل الإنسان نفسه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[1]، فالله تعالى لا يضل أحدًا، بل هو فتح الرحمة والهداية وجعلهما للجميع، فمن ظلم الآخرين فقد ظلم نفسه في الحقيقة وضل، ولكن هذه النتيجة تنسب إلى الله ﷻ .

ومثل هذا ورد في قوله تعالى أيضًا: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا

(١) سورة إبراهيم، الآية : ٢٧.

أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1]، أي جعلنا النفاق في قلوبهم، وحاشا لله أن يجعل المؤمن منافقًا إلّا بفعله، وبقوا منافقين إلى يوم لقاء الله، وقد فعل الله ذلك بهم بسبب مخالفتهم لما وعدوا الله به بنقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها على أنفسهم.

وهنا أيضًا بنفس الخلفية: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، أي أنّ قلوبهم أصبحت قاسية لا تتوجه نحو الله سبحانه وتعالى، إذ الإنسان المؤمن حتى لو انحرف فإنه عندما يسمع آية من الذكر الحكيم أو يسمع موعظة أو يسمع فقرة من دعاء يُقرأ، يخشع قلبه لذكر الله، أما مثل هؤلاء فقلوبهم ميتة أبدًا، وهي لا يخشع لذكر الله، أي لا تتفاعل مع الدعاء والذكر وطاعة الله (سبحانه وتعالى تعالى).

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ ثم يصف الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأنهم يحرفون كلامه، فهؤلاء لا يريدون تدينًا، بل عندهم مصالح يريدون غطاء دينيًا لها، فهناك فرق شاسع جدًا بين شخص متدين حقًا، وشخص يبحث عن غطاء وظاهر ديني لمآرب شخصية، كأيِّ ملحد الآن يطيل لحيته ويتختم ويحمل مسبحة بيده ليكون متدينًا تمامًا في نظر الناس، وربما يخدع البعض بمظهره ويحسبونه مؤمنًا، ولكن باطنه كله انحراف وضلال وفساد، وبنو إسرائيل من هذا النوع؛ إذ كانوا يبحثون عن غطاء ديني وهم في الحقيقة ليسوا متدينين وليس لديهم دين واقعي، ولذلك كانوا يحرفون الآيات الصريحة في التوراة ويفسرون معناها بما يوافق مصالحهم، وهذا أمر عجيب؛ فمن أنت لتقول إنّ الله يريد كذا على خلاف ظاهر الآية؟! لماذا تغيّر؟ لماذا تفسرها تفسيرًا خاطئًا؟.

وهذه الظاهرة ليست لدى بني إسرائيل فقط، بل هي عندنا أيضًا، فهناك من يفسر القرآن برأيه، وهناك من يفرض قناعاته على آيات الذكر الحكيم، وهذا لا يجوز، فالآيات القرآنية فيها المحكم وفيها المتشابه الذي تلتبس فيه الأمور، ويجب أن نفسر المتشابهات بالمحكمات الواضحات، وفيها العام وفيها الخاص، وفيها المطلق وفيها المقيد، فيجب أن نرجع الخاص إلى العام والمطلق إلى المقيد. وهناك استثناءات وتخصيصات، فلا يمكن أن نأخذ نصًا قرآنيًا ما ونقول هكذا قال الله، بل يجب العودة إلى الفقهاء وإلى المفسرين الذين يفسرون القرآن بشكل صحيح، كي نعرف هل معنى هذه الآية كما نفهمه؟، فالقرآن ليس كتاب قصة نقرأها ونفهمها، بل قد نفهم آية معينة بمعنى معين، ويكون لها مدلول آخر أو تكون منسوخة بآية أُخرى.

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

يقول البعض: لا حاجة بنا إلى الرسالة العملية، ولا حاجة بنا إلى الفقهاء والعلماء، ويكفينا الرجوع إلى القرآن لنرى ماذا يقول ونعمل به، وهذه مغالطة؛ فهل يفهم صاحب هذا القول القرآن كاملاً؟ وهل يعرف ناسخه ومنسوخه؟ وهل يعرف عامه وخاصه؟ وهل يعرف سبب نزول كل آية؟ وهل يعرف الحكم الشرعي الموجود فيها؟ فإذا كان الجواب بالنفي فلا يمكن لهؤلاء الاعتماد على هذه الطريقة؛ لأنهم سيحرفون الكلم عن مواضعه، أي يغيرون تفسير الآيات فيستنتجون استنتاجات بعيدة عن الواقع.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي نسوا آيات من التوراة مما كانوا قد ذُكّروا بها، إذ كانوا يحذفون ما لا يعجبهم، وإلّا فإن البشارة برسولنا الكريم ﷺ كانت موجودة في توراتهم، فحذفوها من التوراة كي لا يبقى أثر يلزمهم الإيمان برسول الإسلام.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ هذا هو الشاهد؛ ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ فعل مضارع مستمر، أي أنهم دائمًا يخونون، فديدنهم الخيانة، وتشكل ظاهرة في المجتمع اليهودي، وظاهرة الخيانة من حيث المساحة واسعة جدًا وتتكرر منهم، وكثير من بني إسرائيل خونة، هكذا يقول القرآن الكريم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قليل منهم لا يخونون، ولكن الطابع العام لهم هو الخيانة.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي يا رسول الله اعفُ عنهم في إساءاتهم لك، وكن أكبر منهم، ولكن لا تعفُ عنهم في انحرافاتهم العقائدية؛ لأنّ رسول الله ﷺ لا يمكنه أن يعفو عن هؤلاء في ضلالهم وانحرافهم.

﴿وَاصْفَحْ﴾عن إساءاتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أنّ العفو والصفح من خصال المحسنين، وإذا كان الإنسان محسنًا كان محبوبًا عند الله سبحانه وتعالى.

إذن بنو إسرائيل مصداق آخر من مصاديق الخيانة.

سادسًا: امرأة العزيز «زليخا»:

وهي من مصاديق الخيانة أيضًا، وقد مر الحديث في العديد من الآيات الشريفة من سورة يوسف التي تشير إلى خيانة زليخا، منها قوله تعالى: ﴿ورَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[1]، أي دعته إلى المعصية.

(١) سورة يوسف، الآية : ٢٣.

الأمور التي تمنع من الخيانة

هناك أُمور تمنع الإنسان من الخيانة ، وهي:

أولاً: العلم بالثواب الإلهي لمن ترك الخيانة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، أي إذا لم تخونوا فإنّ الله تعالى عنده أجر عظيم لكم يجزيكم به، فهذا الأمر، وهو العلم بوجود الأجر الإلهي، يمنع الإنسان من الإقدام على الخيانة.

ثانيًا: الحياء من الله

فالإنسان الذي يستحي من الله عزّ وجلّ لا يخون، والذي يستحي من البشر لا يخون أيضًا، أي أنّ الإنسان الذي عنده حياء لا يخون، فضميره لا يسمح له بذلك حتى لو لم يكن صاحب دين.

(١) سورة الأنفال، الآية : ٢٧.

الحق التاسع والعشرون
(عدم خذلان المؤمن)

لقد ورد هذا الحق في الرواية موضوع البحث، في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يخذله**»، أي المؤمن لا ينبغي أن يخذل أخاه المؤمن، ولا يتركه، ولا يتخلى عنه، ولا يدعه بمفرده أمام التحديات والأخطار.

والفرق هنا عمّا ورد في الحق السابق «**لا يسلمه**»، أي لا يسلم المؤمن أخاه المؤمن إلى الطاغية أو العدو، قبال مال أو تهديدٍ أو تعذيب أو ما إلى ذلك، فيشي به ويسلمه إلى غريمه، أن المؤمن هنا عليه ألاّ يقول لأخيه المؤمن ليس لي شأن بك، ويغلق الباب في وجهه، ولا يساعده وهو قادر على مساعدته، فهو هنا - إن فعل ذلك - لا يسلمه، بل يتركه يواجه القدر بمفرده، وهذا مخالف للحقوق الإيمانية للمؤمن على أخيه المؤمن، فكما لا يجوز أن يسلمه، فكذلك لا يجوز أن يخذله، أو يتركه، أو يتخلى عنه.

إن هذا التخلي تارة يكون أمام عدو أو ظالم، وتارة أُخرى يكون التخلي بمعنى آخر، وهو أن يتركه هو والشيطان ليعبث به ويوسوس له ويحرفه باتجاهات معينة، فهذا أيضًا خذلان، فمن رأى أخاه المؤمن واقعا في انحراف معين بتأثير خلطاء السوء من حوله، يجب عليه ألاّ يتركه وحده، ولا يتخلى عنه، وأن يقف معه، ويحاول أن يرجعه إلى طريق الصواب وينصحه ويوضح له آفات ومخاوف الطريق الذي دخل فيه، فإن لم يفعل فهذا هو الخذلان المعنوي، وهو أن ترى أخاك المؤمن سائرًا في طريق الانحراف، فتتخلى عنه، بدلًا من أن تقف معه وتعينه وتصلحه وتعيده إلى الصواب.

وهناك خذلان في البعد الاجتماعي أيضًا، وهو إذا لم يكن لهذا الأخ المؤمن عدو، ولكن عنده مرض، أو فقر، أو حاجة، أو مشاكل حياتية، أو أي قضية من هذه القضايا التي تحصل للإنسان، فهنا أيضًا إذا تخليت عنه وأنت قادر على مساعدته فقد خذلته، فكما لا يجوز أن تخذله إذا كانت المسألة ترتبط بظالم أو خطر يهدد حياته، أو ترتبط بالجانب

المعنوي وبآخرته وسلامة واستقامة مسيرته، لا يجوز أيضًا أن تخذله إذا كانت المسألة ترتبط بالجانب الاجتماعي والتحديات التي يواجهها والمشاكل والمعوقات في حياته، فعبارة «**لا يخذله**» تشمل جميع تلك المساحات، فالأخ المؤمن يجب أن يناصر أخاه المؤمن، ولا يتركه، ولا يتخلى عنه.

وقد ورد هذا المعنى في الروايات الشريفة، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته، إلا خذله الله في الدنيا والآخرة**»[1]، فهذه ليست من الذّنوب ولا المخالفات التي يمهل الله سبحانه وتعالى بها ويؤخر عقوباتها للآخرة، وقد ذكرنا في أبحاثنا السابقة هذا الموضوع، وقلنا إنه توجد مخالفات إذا ارتكبها الإنسان يعاقبه الله تعالى عليها يوم القيامة، ولكن هناك مخالفات لها عقوبات في الدنيا والآخرة، كموضوع العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين، والأعراض، ومسائل عديدة أُخرى ناقشناها في أبحاث سابقة، وهذا ما نلاحظه في حديث الإمام الصادق عليه السلام، ففي الآخرة يوجد عذاب إلهي للخذلان، وكذلك في الدنيا يوجد له عقاب دنيوي، وهو خذلان الله سبحانه وتعالى لمن خان أخاه المؤمن، فبسبب عدم وقوفك معه عندما تعرض للظلم، فإنّ الله سبحانه وتعالى يعرضك للظلم ولا يقف معك أحد، أو تتعرض إلى مشاكل وتحديات مثله، من جوع أو فقر أو وباء أو أي أمر آخر..

وعليك أن تواسي أخاك المؤمن إن لم تستطع أن تقدم له شيئًا، فمثلًا عندما تخرج في جنازة المؤمن يستحب أن تُري نفسك لصاحب العزاء، فهذا له أبعاد اجتماعية، يدخل في عنوان «**لا يخذله**»، ومن النصرة وعدم الخذلان أن تواسي أخاك المؤمن حتى لو لم تستطع أن تقدم له شيئًا.

ومثال آخر لمصاديق عدم الخذلان هو عيادة المرضى، وهي من المستحبات. كنا مرة في زيارة للإمام الرضا عليه السلام قبل سنين، وصادف أن التقينا رئيس الأوقاف في مدينة مشهد، فتحدث عن بعض الموقوفات الغريبة والنادرة عندهم في مشهد، وقال: هناك شخص متوفى منذ سنين أوقف مزرعة تصرف أموالها لأُناس يزورون المرضى في المستشفيات، فيدخلون عليهم واحدًا واحدًا ويسلّمون عليهم ويجلسون معهم ويواسونهم ويبثون الأمل في نفوسهم ويقدمون لهم هدية، فشعرت بالإكبار أمام هذا

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢٦٧ ح٩.

المجهول الذي أوقف هذا الوقف، فهو لم يوقفها لأقاربه، بل أوقفها لاستئجار من يزور مرضى المسلمين في المستشفيات، وقد مرّت مائتا سنة وهذه الأرض تنتج، وتعطي أموالها لأُناس يزورون المرضى.

إذا لم يكن بيدك شيء، ففي الأقل انصر أخاك المؤمن بالمواساة، فهذا حق للمؤمن على أخيه المؤمن، حتى لا يشعر بالوحدة؛ لأنّ الإنسان ينكسر وينهار في الوحدة أو الغربة، ولكن وجود الناس حوله يبث فيه قوة القلب، والقدرة على الصمود والتحمل والثبات، إلى أن يفرجها الله تعالى، فمراعاة هذا الجانب أمر مهم جدًا.

وورد في وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: «**يا كميل ومن أخوك؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة، ولا يغفل عنك عند الجريرة**»[١].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «**ساعد أخاك على كل حال، وزل معه حيثما زال**»[٢].

موضوع الخذلان في القرآن

أشار القرآن الكريم إلى موضوع الخذلان في عدة آيات:

منها: قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾[٣]. تتحدث الآية الكريمة عن أمرين؛ الأول: النصر الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لو تحقق في أرض الواقع فلا يمكن لأحد مهما أُوتي من قوة أن يقف في وجهه ويتغلب عليه. والثاني: الخذلان الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو لو نزل بساحة فرد أو جماعة أو قوم، فلا يمكن لأي قوة أن تقف أمام الانهيار والهزيمة.

ونسبة الخذلان إلى الله سبحانه وتعالى، هي بمعنى أنه حينما يرفع يده ودعمه ونصرته ورعايته عن المخطئين والعصاة من عباده، فلا يمكن أن يُتدارك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[٤]، والخذول يعني كثير الخذلان، أي

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٣٣٠، ح٤.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

أنّ الشيطان الرجيم ليس له صاحب ولا وفاء له، وحين يقول للإنسان اكفر فيطيعه، يقول له: أنا بريء منك، هذا هو طبع الشيطان الرجيم، لا يفي مع أحد، ويبقى يوسوس إلى أن يأخذ مبتغاه، فهو يمثل قمة الانتهازية، ومراده أن يأخذ دينك، ويسلب إيمانك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[1]، أي لا ناصر لك ولا معين.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.

الحق الثلاثون
(حبُّ الخير للمؤمن وكُره الشرّ له)

ويتمثل هذا الحق من حقوق الإخوان في قول رسول الله ﷺ في الرواية المذكورة في صدر البحث: «**ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه**».

لاشك أن الأخوّة في الله بين المؤمنين أمر جليل ونعمة كبيرة وذات ثمرات عظيمة في حياة الفرد والمجتمع، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه النعمة بقوله﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(١)،قال أيضا:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٢)

وقد ورد في الروايات بيان تفصيل هذا المعنى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم، إذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون**» (٣)

وليس المقصود بأنهم أبناء أب وأُم أنهم أبناء آدم وحواء، فإن ذلك ليس خاصًا بالمؤمنين، بل هو عام لكل البشر، بل المقصود الأبوة والأمومة الروحية التي توضحها الرواية التالية:

عن جابر الجعفي قال: «**تقبضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام فقلت: جعلت فداك ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهه، وصديقي. فقال: نعم يا جابر، إن الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمه، فإذا أصاب روحًا من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزنٌ حزنت هذه لأنها منها**»(٤)

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمه؛ لأن الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠
(٣) الكافي ج٢ ص ١٦٥، ح١
(٤) الكافي ، ج٢ ، ص ١٦٦، ح٢

من طينة الجنان وأجرى في صورهم من ريح الجنة، فلذلك هم إخوة لأب وأُم»[1]

وبالإضافة إلى ذلك فإن أرواح المؤمنين متصلة بروح الله ﷻ، وهو أكثر أهمية مما سبق، يدل على ذلك ما رواه أبو بصير قال: «**سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئًا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة ، وإن روح المؤمن لأشد اتصالًا بروح الله من اتصال شعاع الشمس منها»**[2]

ومن أبرز مظاهر الأخوّة الإيمانية هي أن يحب المؤمن لأخيه المؤمن من الخير ما يحب لنفسه، وأن يكره له ما يكره لنفسه، وقد ورد في ذلك روايات كثيرة:

منها: «**عن معلى بن خنيس قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن حق المؤمن، فقال: سبعون حقًا لا أخبرك إلا بسبعة، فإني عليك شفق ألا تحتمل، فقلت: بلى إن شاء الله تعالى. فقال: لا تشبع ويجوع...إلى أن قال: وتحب له ما تحب لنفسك»**[3].

منها: «**عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال: يا أبان دعه لا ترده. قلت: بلى جعلت فداك. فلم أزل أردد عليه، فقال: يا أبان تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني فقال: يا أبان أما تعلم أن الله ﷻ قد ذكر المؤثرين على أنفسهم. قلت: بلى جعلت فداك. قال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»**[4].

وقد جاء في بعض الروايات عنوان (حق المسلم على المسلم) بدل (حق المؤمن على المؤمن)، ولا فرق في التعبيرين؛ لأن المسلم هو من أسلم وجهه لله تعالى لا مجرد من نطق الشهادتين، فهذا المعنى هو التعريف الفقهي للمسلم الذي يترتب عليه الحقوق القانونية، فالمسلم الحقيقي هو المؤمن، يدل على ذلك ما رواه عبدالله بن مسكان عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: ما الإسلام؟ قال: دين الله اسمه الإسلام، وهو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم، وبعد أن تكونوا، فمن أقر بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله ﷻ فهو به مؤمن»**[5]

---

(١) الكافي ، ج٢، ص ١٦٦، ح٧
(٢) الكافي، ج٢، ص ١٦٦، ح٤
(٣) الكافي ، ج٢، ص ١٦٤، ح١٤
(٤) الكافي ، ج٢، ص١٧١، ح٨
(٥) الكافي ، ج٢، ص٣٨، ح٤

وأما الروايات التي جاءت بلفظ المسلم فهي كثيرة أيضًا، نذكر أنموذجًا منها.

ما رواه الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أن يحب المرء المسلم لأخيه المسلم ما يحب لأعز أهله، ويكره المرء المسلم لأخيه ما يكره لنفسه**» (١)

وما رواه معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبع حقوق واجبات ما منهن من حق إلا وهو عليه واجب، ...إلى أن قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك**»(٢).

ونظرًا لأهمية حب المؤمن لأخيه المؤمن فقد جعل ميزان التفاضل بين المؤمنين هو درجة حب المؤمن لأخيه المؤمن في الله، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**ما التقى مؤمنان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه**»(٣)، والسبب الذي جعل فيه حب الخير للأخ المؤمن ميزانًا للتفاضل هو الدرجة العالية التي يصل إليها المؤمن في تزكية نفسه وتخليتها من الرذائل والصفات المذمومة كالإنانية والحسد والبخل، وتحليتها بالفضائل والصفات الحميدة كالكرم والشجاعة والإيثار، فإن الله عز وجل خلق الإنسان وهو ينضوي على طريقي الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، وحث الإنسان على تزكية نفسه وتهذيب أخلاقه، قال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٤)، فالمؤمن الذي يحب الخير لأخيه المؤمن يكون قد قطع أشواطًا مهمة في تزكية نفسه وتهذيب أخلاقه.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا أن حب الخير للمؤمن هو وليد الحب في الله بين المؤمنين، وقد أشارت إلى هذا المعنى روايات عديدة، منها ما رواه الفضيل بن يسار قال: «**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ ثم تلا هذه الآية:** ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾»(٥).

وما رواه عمرو بن مدرك الطائي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أي عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة، وقال**

(١) الكافي، ج٢، ص ١٧٢، ح٩

(٢) الكافي، ج٢، ص١٦٨، ح٢

(٣) الكافي ج ٢، ص ١٢٧، ح ١٥.

(٤) سورة الشمس، الآيات: ٧ - ١٠.

(٥) الكافي ج٢ ، ص ١٥٢، ح ٥. سورة الحجرات، الآية : ٧.

بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله ﷺ: **لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتولي أولياء الله والتبري من أعداء الله»**[1].

وقد تطرقت الروايات إلى مسألة مهمة تتعلق بهذا العنوان وهي ثواب حب الخير للمؤمن من أخيه المؤمن إذا كان هذا الحب لله سبحانه وتعالى، وأما حبه على مصلحة دنيوية أو قرابة نسبية أو حمية عصبية فلا أجر فيه، روى بشير الكناسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«قد يكون حب في الله ورسوله وحب في الدنيا، فما كان في الله ورسوله فثوابه على الله، وما كان في الدنيا فليس بشيء»**[2].

وما رواه الحسين بن أبان عمن ذكره، عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«لو أن رجلًا أحب رجلًا لله لأثابه الله على حبه إياه وإن كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو أن رجلًا أبغض رجلًا لله لأثابه الله على بغضه إياه وإن كان المبغض في علم الله من أهل الجنة»**[3].

وقد صرحت إحدى الروايات أن من كان حبه لأخيه ليس على أساس الدين ولم يكن حبًا في الله فهو لا دين له، وبالتالي سيؤدي به حبه هذا إلى جهنم وساءت مصيرًا. فقد روى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له»**[4].

الإنسان بطبعه يطمح للخير لنفسه؛ يريد المال والصحة والحياة الطيبة، ولديه طموحات كثيرة، من عمل جيد وزوجة صالحة وأولاد طيبين صالحين بررة، إلى غير ذلك مما يتمناه لنفسه، ولا مشكلة في ذلك كله، ولكن المشكلة في أن يتمنى الإنسان هذه الأمور لنفسه ولا يتمناها لإخوانه المؤمنين، ولا يسعى لحصولهم عليها، فالمهم عنده أن يرتفع راتبه مثلًا وإن كان صاحبه ليس لديه راتب أصلًا، والمهم عنده أن يحصل على زوجة صالحة وإن لم يحصل صاحبه على مثلها، والمهم عنده أن يحصل على العمل الجيد والإمكانات، وأن يكون بصحة وسلامة، وأن يرزق بأطفال سالمين، وإنْ لم يكن لغيره من هذه النعم شيء.

---

(١) الكافي ج ٢، ص ١٢٥، ح ٦.
(٢) الكافي ج ٢، ص ١٢٧، ح١٣.
(٣) الكافي ج٢ ، ١٢٧، ح ١٢.
(٤) الكافي ج ٢، ص ١٢٧ ، ح١٦ .

وفي الاتجاه الآخر يكره لنفسه كل سوء، فلا يريد المرض ولا البلاء ولا الشدائد ولا السلبيات أن تلم به، ولا مشكلة في أن يتمنى ذلك كله ويسعى من أجله، ولكن المشكلة هي ألاّ يتمنى لأخيه المؤمن مثل ذلك ويسعى من أجل دفعها عنه إذا حلت بساحته.

وهناك حالة أشد من ذلك؛ وهي عندما يريد الخير لنفسه وينزعج عندما يراه عند غيره، فمثلًا ينزعج إذا رأى صاحبه اشترى من نفس نوع القميص الذي يرتديه، لأنه يريد أن يلبس شيئًا يتميز به عن الآخرين، وينزعج إذا جاءت فرصة لغيره كما جاءته، لأنه يريد جميع الفرص له فقط، وكذلك في الأمور السلبية؛ إذ نراه يريد أن يدفع البلاء عن نفسه فقط، وقد يرتاح ويستأنس إذا ما نزل البلاء بغيره، فهو مصاب بحساسية تجاه أخيه المؤمن، فإذا مَرِض أخوه المؤمن فقد يشمت به في قلبه، وكل هذا مخالف لهذا الحق، ولا يجوز للإنسان ـ فضلًا عن المؤمن ـ أن يتعاطى مع الآخرين بهذه الطريقة.

موضوع الإنصاف في القرآن

نتنقل الآن إلى ذكر بعض الآيات الشريفة في هذا الباب:

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وكما تعرفون فإنّ الإنصاف والعدل يشار إليهما بإشارة واحدة في القرآن الكريم، ولذلك فالآيات التي تخص العدل تعني الإنصاف أيضًا، وينبغي ملاحظة أنّ الإنصاف ليس إنصافًا فرديًا فقط، فالإنسان كفرد ينصف الأفراد الآخرين، و هناك إنصاف له أبعاد سياسية، وأحيانًا تكون له أبعاد اجتماعية، وهذه الآية الشريفة تشير إلى البعد السياسي والاجتماعي للإنصاف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الخطاب للمؤمنين دون سائر الناس؛ لأنهم الذين يسمعون كلام الله ويسعون لتطبيقه.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾: كونوا دائمي القيام بحقوق الله، أي أدّوا حقوق الله سبحانه وتعالى.

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: اشهدوا بالعدل، أي كونوا حقانيين ومنصفين، وضعوا الأمور في نصابها الصحيح.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي لا يحملنّكم.

﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾: بغض قوم والاستياء منهم.

﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: على ترك العدل في التعامل مع من تكرهون؛ لأنّ الإنسان عندما يختلف مع الآخر حزبيًا أو مذهبيًا أو قوميًا أو سياسيًا أو دينيًا لا يكون عادلًا معه، فهذه الحساسيات التي يحملها في نفسه تجاه من يختلف معه تمنعه من التعامل معه على أساس العدل والإنصاف، فلا ينبغي للمؤمن أن تخرجه هذه الحساسيات عن جادة الإنصاف. وكذلك الأمر على صعيد العلاقات الشخصية مع الآخرين؛ فقد يجره البغض إلى ترك الإنصاف مع من يبغض، فنرى البعض يقول: لقد أساء فلان إليّ في التلفاز أو في الفيس بوك، وسأنال منه بالكلام كما نال مني، وسأكتب عنه بالسوء كما كتب عني، إذا كنا لا نقبل أن يتكلم أو يكتب عنا أحد بكلام سيئ أو كتابة سيئة، فلماذا إذن نتكلم أو نكتب عن الآخرين بنحو سيئ؟. إنّ الاختلاف السياسي مقبول في حدود وجهات النظر، ولكن يجب ألاّ يؤدي هذا الاختلاف إلى أن نفقد الإنصاف؛ لأنّ العدل والإنصاف هما الأساس في التعامل مع الآخرين.

﴿اعْدِلُوا﴾: هذا التكرار دليل على الأهمية، يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**بالعدل قامت السماوات والأرض**»[1]، أي ليس بالعدل تُحل مشاكل البشر فقط، بل السماوات والأرض قائمة بالعدل، فهو النظام الذي يحكم السماوات والأرض، وبدونه ينهار كل شيء.

﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: حينما نعدل، وحينما ننصف الآخرين حتى لو كانوا مختلفين معنا في الانتماء المذهبي أو الحزبي أو القومي أو الديني، نكون حينئذ أقرب للتقوى، أي أقرب للاستقامة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يجب علينا أن نخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ترك العدل بالتعامل مع الآخرين، فإنّ الله تعالى مطلع وعليم بجميع أفعالنا، ولا يعزب عنه علم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبنا على جميع أعمالنا، ومنها ترك العمل بالعدل والإنصاف الذي أمرنا به.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا

---

(١) تفسير الصافي ٥: ١٠٧.

الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

هذه الآية الكريمة على غرار الآية السابقة وقريبة منها بالمضمون، ومتشابهة معها في المعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾: أي كونوا مواظبين على إقامة العدل والقسط، وأن تشهدوا بالحق لوجه الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: وكم هو أمر صعب أن يكون الإنسان منصفًا وعادلًا ويشهد الشهادة الحقة حتى لو كانت على نفسه أو والديه أو أقربائه، فالإنسان ميال بطبعه إلى جر النفع إلى نفسه ودفع التهمة عنها وعمن يحب، فكيف يتسنى له أن يخالف هواه ويشهد على نفسه بالضد وينصف الناس منها؟.

لقد كان الناس في الجاهلية لا يشهدون على أفراد قبائلهم بالحق، وكانوا إما يحرفون الشهادة أو يخففونها ويغيرون مضمونها أو لا يشهدون أصلًا، وحين أسلموا بقوا على نفس السياق السابق حينما يكون في القضية ضرر على أنفسهم أو على عوائلهم أو على عشيرتهم، فنزلت هذه الآية الكريمة لتقول لهم: لقد صرتم الآن مسلمين، ويجب عليكم أن تشهدوا بالحق ولو على أنفسكم أو أحد أفراد أُسرتكم أو عشيرتكم، وإنْ كانت هذه الشهادة تجلب ضررًا عليكم أو على والديكم أو على الأقربين منكم.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾: بعض الناس يشهد لصالح الغني حتى لو لم يكن على حق، طمعًا بما في يده من المال، فينتصر للغني وصاحب الوجاهة، بل نرى هذه الظاهرة في الانحياز إلى أمثال هؤلاء حتى في دوائر الدولة المختلفة؛ فلو تخاصم ابن مسؤول مع مواطن بسيط وذهبا إلى مركز الشرطة، فإنّ الدعوى ستنقلب لصالح ابن المسؤول، بل تمتد القضية لأبعد من ذلك في شتى نواحي الحياة الأخرى؛ فلو تنافس مثلًا مواطن بسيط مع أحد أبناء المسؤولين على مقعد أو إيفاد أو وظيفة، فلا شكَّ في أنّ القضية ستحسم لصالح ابن المسؤول. فالانحياز إلى الأثرياء وإلى ذوي الوجاهات على حساب الحق أمر محرّم، والله تعالى يأمرنا أن نكون مع الحق بغض النظر عن كون صاحب الحق فقيرًا أو غنيًا، وأن نشهد شهادة الحق حتى لو كانت هذه الشهادة ضد الغني والوجيه، فلا مجاملة في الحق.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

وقد تُعكس القضية أحيانًا فنرى البعض يشهد لصالح الفقير وإن لم يكن الحق معه، ويقول إن هذا فقير وإذا حبسوه فمن لعائلته بعده؟، سيبقون بلا معيل ولا مأوى، فيشهد له كاذبًا قربة إلى الله تعالى وانتصارًا للفقير كما يتصور وإنقاذًا له، وهذا أمر محرّم أيضًا، لأنّ الله ﷻ يقول إنه أولى بهما، فالفقير إذا كان مذنبا والحق ليس معه فيجب أن نشهد الشهادة الصحيحة ولا ننظر إلى غناه أو فقره. فمن يشهد زورًا لصالح الغني لغناه شط عن الحق، ومن يشهد زورًا لصالح الفقير شفقة عليه لفقره شط عن الحق أيضًا، فليس للشاهد علاقة بمآل المشهود عليه ومن يتكفل؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾، فهو ﷻ من يتكفل بأمره، ولا علاقة للشاهد بذلك، لأنّه ليس وصيًا على الخلائق، وهذه ليست مهمته، وما عليه سوى قول الحقيقة، سواء كانت لصالح الغني أو الفقير، وليس للشاهد الدخول في تفاصيل من هذا النوع، فلا يقول مثلاً: كيف أقول الحقيقة وهو من مذهب آخر وصاحبي من مذهبي وسوف يتضرر من هذه الشهادة؟، الواجب قول الحق سواء كان المشهود له أو عليه مختلفًا معنا مذهبيًا أو قوميًا أو دينيًا كما في الآية السابقة، أو كان قريبًا كما في هذه الآية.

لقد تحدثت الآية السابقة عن الإفراط في البغض: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، أي إذا كان هناك أُناس نكرههم ولا نحبهم فلا ينبغي أن يدفعنا ذلك إلى أن نكون غير عادلين، بينما تتحدث هذه الآية عن الإفراط في الحب، أي إذا كان هناك أُناس نحبهم جدًا فلا ينبغي أن يدفعنا ذلك إلى أن نكون غير عادلين ونشهد لصالحهم على خلاف الحقيقة شهادة زور، بل يجب قول الحق لنا أو علينا، فنقول الحق وإن كان المستفيد منافسنا السياسي، ونقول الحق وإن كان المستفيد من مذهب آخر أو ديانة أُخرى أو قومية أُخرى، نقول الحق ولا تأخذنا في الله لومة لائم.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾: أي لا تشهدوا بالذي يناسب هواكم ورغباتكم، فتميلوا بشهادتكم إلى إخوانكم أو إلى أبناء عشيرتكم أو مذهبكم أو حزبكم أو قوميتكم، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**أما اتّباع الهوى فيصد عن الحق**»[1]، فالهوى يغلق باب الحق، والهوى يتجه بالإنسان اتجاهات بعيدة عن الحق، لذلك لا تتبعوا الهوى.

﴿أَن تَعْدِلُوا﴾: أي لا يمنعكم الهوى من أن تكونوا عادلين.

---

(١) نهج البلاغة ١: ٩٢، الرقم ٤٢.

﴿وَإِن تَلْوُوا﴾: ﴿تَلْوُوا﴾: من الليّ، والمراد منه اللف والدوران، يعني لا تغيروا الوقائع في شهاداتكم، ولا تخففوها ولا تحوروها ولا تحرفوها في سبيل نجاة من تحبون.

﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾: أي لا يجوز كتمان الشهادة فيقول: إني لم أرَ شيئًا، أو لم أكن حاضرًا، أو يتهرب من أداء الشهادة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: لم يقل الله سبحانه وتعالى هنا: إنّ الله كان بما تعملون عليمًا، بل قال: ﴿خَبِيرًا﴾، يعني أنه ملمٌ بالتفاصيل، فهو يعلم بما في قلوبنا، بل هو أعلم منا بأنفسنا، فالله تعالى يقول: أنا أعرف جميع التفاصيل؛ وما هو قصدك من هذا الكلام، فأحيانًا تلعب الصياغات دورًا مهمًا في تشويش الحقائق، وتعطي مطاطية للكلام بأن يحتمل معاني متعددة ومداليل أُخرى تخفف الحقائق، وقد نهانا الله تعالى عن حكاية الوقائع بصياغات مبهمة؛ لأنّه سبحانه وتعالى خبير بنا ويعرف بالضبط نياتنا.

الشاهد الثالث: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ...﴾[(١)].

ترتبط هذه الآية الكريمة بموضوع الحرص على العمل بالإنصاف والعدل بين الناس، إن كان في طوعهم فبذلك، وإلاّ فباستعمال القوة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه ليمارسوا دورهم الرسالي الإلهي بأدوات ثلاث هي:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: وهي الأداة الأولى، والبينات هي الحجج والبراهين الواضحة التي تدفع كل إنسان منطقي للإيمان بها.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: وهذه الأداة الثانية، والكتاب يشمل الشرائع، وهي تحتوي على جملة من القوانين والتعاليم التي تنظّم الحياة الإنسانية على أساس الحق والعدل. وهذا يعني أنّ هذه الآية تتحدث عن الأنبياء من أولي العزم وليس عن سائر الأنبياء؛ لأنّ هؤلاء من نزلت عليهم كتب سماوية.

---

(١) سورة الحديد، الآية : ٢٥.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وهو ما به تقاس الأمور، وما به تُوزن المسائل، أي الأحكام والقوانين الإلهية التي تتحكم في مسار الإنسان وحركته.

فالبينات والكتاب والميزان هي الأدوات الثلاث التي جعلها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى تحت تصرف الرسل الذين أرسلهم إلى الناس، ثم يبيّن الله عَزَّوَجَلَّ الغاية من إرسال الرسل ومعهم البينات والكتاب والميزان والغرض المطلوب من ذلك بقوله:

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: كل ذلك من أجل إشاعة العدل وترسيخ الإنصاف بين الناس، واللافت في هذه الآية الكريمة أنها لا تقول: لنفرض على الناس القسط والعدل، بل تقول: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وهذا يعني أنّ المدرسة الإسلامية ـ وهي مدرسة السماء ـ لا تعتمد على الأسلوب العسكري والفرض بقدر ما توفر القناعة، فكل نبي لا يأتي ومعه سيف، بل يأتي ومعه البينات والكتاب والميزان، ومن خلال المنطق والعقل، ومن خلال المنهج التربوي والثقافي الذي يحمله الرسل إلى الأُمم والشعوب تؤمن وتدرك أهمية أن تسير في خط الرسالات الإلهية، وهذا الأمر يجعلها تتقبل هذه الأمور وتعمل عليها، وهي التي تقوم بها بالقسط، وليس ليقوم بها النبي، ومعنى أن يقوم الناس بالقسط هو أن يستوعبوا هذه الرسالة ويؤمنوا بها ويتفاعلوا معها ويصبحوا جزءًا منها، ثم هم يقومون بالقسط بطوعهم واختيارهم، فيمارسون هذا الدور الرسالي المطلوب.

ولكن من لا يريد أن يخضع للعقل والمنطق، ومن لا يريد أن يسير في طريق الطاعة لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن لا يريد أن ينصف ويعدل بين الناس، فهل يُترك ليعبث ويوجد الفوضى كما يشاء؟. الأساس أنّ الناس هي التي تتقبل؛ لأنّ هذه الرسالة بنيت على أساس العقل والمنطق وجاءت بالبينات والكتاب والميزان، ولكن الذي لا يريد أن يحتكم إلى المنطق فليس له دواء إلا القوة؛ كما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، فالذي يسير مستقيمًا في طريق الهداية ويحكّم عقله ويفتح قلبه لحقائق الكتاب والميزان فأهلًا وسهلًا به، وهو من سيقوم بالعدل، ولكن من لا يريد ذلك فليس له إلاّ القوة.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي فيه قوة، وفيه تلويح باستخدام القوة لفرض العدل على من لا يريد أن يعدل وينصف، ويريد أن تشيع الفوضى بين الناس، والحديد كما يبدو في رواية عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يعني السلاح وغير ذلك، فالسيف مادته الحديد، والدرع حديد، والسهم حديد، فالأدوات القتالية هي من الحديد، سواء كانت البسيطة منها في ذلك الزمان أو المتطورة منها كما في زماننا هذا؛ مثل الدبابات والمدافع

والطائرات والصواريخ، فالسلاح غالبًا ما يصنع من الحديد، وغير السلاح أيضًا، وكل مكامن القوة التي ترغم من لا يريد الانصياع للحق على أن ينصاع في هذا الاتجاه.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: فيه تلويح بالقوة من أجل فرض هذا الأمر على من لا يريد الخضوع.

لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**الخير كله في السيف وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلا السيف، والسيوف مقاليد الجنة والنار**»[١]، فالذي لا يريد أن ينصاع ويلتزم فلا خيار إلاّ استخدام القوة لإقناعه بأن يسير في الطريق الصحيح، ولا يمكن لأُمة أن تبعثر جهودها بسبب حاكم أو مجموعة من الناس يريدون الخروج عن القانون، لأنّ «**الخير كله في السيف وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلا السيف**»، فالسيف يقوّم أداء الناس المنحرفين الذين لا يريدون الخضوع للحقيقة والحق والهداية. «**والسيوف مقاليد الجنة والنار**» أي في السيوف يتضح الموقف.

إذن هذا منهج قرآني مهم؛ وهو أنّ الأساس أن تقتنع الناس وتؤمن وتتفاعل وتندفع مع القانون الإلهي، وهذه هو الخيار الأول، وهذا هو الحل الصحيح، ولكن إذا لم يشأ بعض الناس ذلك كالمنحرفين منهم، فيجب ألاّ نجعلهم يتمددون ويعتدون ويتجاوزون على الآخرين، وهنا يأتي دور السيف واستخدام الحديد والقوة، فهو الحل والعلاج.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: فالحديد ليس فقط لتصنيع السلاح واستخدام القوة، بل فيه منافع كبيرة للناس أيضًا، ولو لاحظنا حياتنا فسنرى الكثير من الأمور في حياتنا اليومية تعتمد على الحديد، وبدونه لا يمكن أن نرتب حياة منظمة؛ فقد دخل الحديد في البناء بنحو لا يمكن الاستغناء عنه في البنايات الضخمة والعمارات، وكذلك نحتاج إلى الحديد في الصناعة ،بحيث لا نستطيع أن نتصور مصانع بلا حديد، ودخل الحديد في الزراعة أيضًا عبر استعمال المكننة في تطوير الزراعة، ففي جميع الأدوات الزراعية نحتاج إلى الحديد، وكذلك وسائط النقل البرية والبحرية والجوية كلها تحتاج إلى الحديد، إذن فالحديد فيه منافع كبيرة للناس، وهو يمثل عنصرًا أساسيًا لتوفير مصالح الناس.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾: فقد ألقى الله تعالى الحجة على عباده: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٢]، وأضاء لهم الطريق بالكتب والبينات والميزان ودفعهم باتجاه

(١) الكافي ٥: ٢، ح١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

الحق والعدل والإنصاف، ووضع لهم مقومات وروادع وكوابح إذا ما أرادوا أن يتخلفوا، فوضع الحديد لمن يريد أن يعبث بحياة الناس، كل ذلك ليختبر الناس ويعرف من ينصاع ويسير في طريق الطاعة ويناصر الله سبحانه وتعالى وأنبياءه ورسله، فالدنيا دار الافتتان والاختبار، حيث يعرّض الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى شدائد ومطبات ومعوقات، حتى يتبين أيّهم يسير في طريق الهداية وأيّهم يشذ وينحرف عن هذا الطريق.

الشاهد الرابع: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن ضرورة تحقيق الإنصاف والعدل من دون ظلم وتعسف، فكما أنّ الظالم لا يحق له أن يظلم، يجب على المظلوم أن يرد الظلم عن نفسه من دون أن يبالغ و يندفع اندفاعات يتحول معها من مظلوم إلى ظالم، فمثلًا لو أحرق الظالم دارك فلك أن تأخذ عوض الأضرار التي لحقت به، فإذا لم ينصع للحق فلك أن تلجأ إلى قوة القانون لأخذ حقك بالقوة، ولكن لا يحق لك أن تذهب وتذبح وتقتل لأنّه أحرق دارك، فهذا فيه نوع من الإسفاف، ولكن لك رد الظلم والدفاع عن النفس أو العرض أو المال أو الجماعة أو الوطن، بعيدًا عن التشفي والحقد والكراهية والبغضاء، فحل المشكلة وردع الظالم شيء، وأن تأخذنا حالة من التشفي والظلم للآخر شيء آخر، فهذا لا يجوز.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾: أي وقع عليهم الظلم والاعتداء فصاروا مظلومين.

﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾: أي لا يستسلمون ولا يرضخون ولا يخنعون ولا ينكسرون، فلا يجوز لمن يُظلم أن يُطأطئ رأسه ويقبل بالظلم، وعليه أن يرفض المنطق القائل إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأعطه خدك الأيسر ليصفعك، فهذا ليس مقبولًا في الرسالة الإسلامية وفي الفهم الإسلامي بحكم هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي يقفون بوجه الظالم ويضعون حدًا للعدوان ويطلبون النصرة من إخوانهم، فإذا كان المطلوب من المظلوم أن ينتصر لنفسه بإخوانه المؤمنين، فهذا يعني أيضًا أنّ المؤمنين عليهم أن ينصروا إخوانهم إذا استنصروهم، كما تشير إلى ذلك

(١) سورة الشورى، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.

الآية الشريفة: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[1]، أي يجب نصر المؤمن والوقوف معه إذا طلب النصرة.

إذن فالمبدأ العام هو عدم القبول بالظلم، وعدم الخنوع أمام الظالمين، ولا تردد في الدفاع عن النفس، فكيف نتعامل مع الظالمين إذا أردنا أن ندافع عن أنفسنا ونرد كيدهم إلى نحورهم ؟. هنا يبيّن الله سبحانه وتعالى في الآية الأخرى ملامح الإطار العام للسلوك الإنساني في هذا الأمر، فيقول: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[2].

﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾: يتضح معنى هذا المقطع القرآني من قوله تعالى في آية أُخرى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[3]، أي يردّ الاعتداء ويصفع الظالم، فجزاء من أساء إليك وظلمك واعتدى عليك هو سيئة مثلها، وقد يقول قائل: إنّ الظالم حين يعتدي يكون ظلمه سيئة، فلماذا حين يردّ المظلوم على ظالمه نعتبره سيئة أيضًا ؟ والمفروض أن يكون جزاء السيئة حسنة، وردّ الظلم حسنة وليس سيئة، والجواب: أنّه قد يكون في هذا التعبير إشارة إلى أنّ استخدام القوة والعنف أمر غير محبذ، ولعل التعبير بـ ﴿سَيِّئَة﴾ يمهد للآية الآتية التي تتحدث عن العفو، فإنّ عليك أن ترد وتدافع عن نفسك إذا لم يكن هناك طريق لإيقاف الظلم إلاّ بالرد، أما إذا استطعت أن تستخدم الوسائل السلمية وتعفو وتنهي القضية من موقع القوة وليس من موقع الضعف، فذلك يكون أفضل، إذ المهم ألاّ يتجرأ الظالم ولا يشعر بأنّ الجميع في حالة من الخوف والانكسار ولا أحد يقف بوجهه فيطغى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[4]، فحينما يشعر الإنسان بالاستغناء وبالقدرة وأنّه لا توجد أي قوة في قباله، تأخذه حالة من العزة بالإثم ويندفع أكثر، وهنا يجب أن نوقفه عند حدوده، ولكن إذا كنا في موقع القوة والاقتدار ولم نرد أن نعيد الصاع بصاع، وأردنا العفو والتسامح واحتواء وتطويق الأزمات فأهلًا وسهلًا، وهذا خيار جيد.

إذن معنى ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، أنّه حتى لو كنا في موقع الدفاع عن النفس

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الشورى، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٤) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

ورددنا على من ضربنا بضربِ مثله، فإنّ الضرب أمر سيئ وإن كنا معذورين في ذلك، فكوننا معذورين لا يجعل الضَّرب أمرًا حسنًا.

والنقطة الأخرى في معنى ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أنّ الضرب يجب أن يكون بنفس المقدار لا أكثر، فمن ضربنا مرة نضربه مرة، فحينما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين عليه السلام في مثل هذه الأيام، أوصى لولده الإمام الحسن عليه السلام قائلًا: «**ضربة بضربة**»[1]، لا أن يُقطّع إربًا إربًا لأنّه ضرب خليفة المسلمين، فالمراد من ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أي بقدرها من دون إسفاف أو تشفٍّ وحقد وكراهية؛ لأنّ الرد للتأديب وإنزال العقوبة وليس للتشفي.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: إذا كان بالإمكان تطويق الأزمة وإيقاف الظلم والتعدي من خلال الاحتواء، فهو أفضل من الذهاب إلى خيارات رد الفعل؛ لأنّ رد الفعل سيستتبع ردًا وهكذا تستمر القضية، والمجتمع فيه ما فيه من إشكاليات وأخطاء ومنغصات، ولكن يبقى علينا كيف نتعامل مع أهواء وتوجهات ومشارب سياسية متعددة للمنافسين والخصوم، فمن حقنا أن نردّ على من ظلمنا بمثل ما ظلمنا، ولكن ردّ الظلم ليس كل القضية، فإذا أراد شخص أن يرد، وذاك يعود ليرد على الرد وهكذا، سوف تستمر القضية والنزاعات والخصومات، ولا نصل إلى نهاية وحسم للنزاع، ففي مثل هذه الحالات ينبغي الاعتماد على مبدأ الحوار والتفاهم والاحتواء وتطويق الأزمات واحتضان الآخر المختلف معنا، ولكن من موقع القوة والاقتدار والعفو عند المقدرة، إذ العفو عند الضعف قد يُفسّر على أنه جبن، وأننا فعلنا ذلك لأننا لا نستطيع الرد، ولكن العفو مع القدرة على الرد فيه درس بليغ ورسالة تربوية نافعة ومعالجة مهمة لحالة الاعتداء لا نحتاج معها إلى إراقة دماء وإلى مضاعفات؛ ولذلك فالمنهج القرآني يتلخص بالاعتماد على الوسائل السلمية في رد الظلم مهما أمكن، وحينما لا يمكن ذلك يلجأ إلى الاعتماد على وسائل القوة والشدة لإيقاف الاعتداء والطغيان.

والآية الكريمة محل البحث تقول: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي من أراد أن يرد فعليه أن يرد بنفس المقدار والكيفية وليس أكثر، ولكن إذا أراد ما هو أفضل من استخدام القوة، فليلجأ إلى العفو والإصلاح، ومن يعتمد على منهج العفو والصلح فقد وقع أجره على الله.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٢٩١.

وقد ذكر القرآن الكريم أمورًا محددة لها أجر محدد؛ كالسبعين والسبعمائة إلى غير ذلك من أرقام في الأجر والثواب، وذكر أُمورًا ليس لها أجر محدد؛ كما في قوله تعالى هنا: ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ومعناها أنّ الجزاء الذي سيحصل عليه صاحب العفو ليس له رقم محدد لكثرته، وهو دائمًا في تكاثر وازدياد، لأنّ الله تعالى هو الجواد الكريم الذي لا تنقص خزائنه لكثرة العطاء، ولا يزداد على كثرة العطاء إلا كرمًا، وعطاؤه سبحانه وتعالى عظيم ليس له حدود، فمعنى هذه الآية انّ أجر من وقع أجره على الله لا يعلم مقداره إلّا الله عزّ وجلّ فقط.

لاحظوا هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في بيان معنى «**فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**»، قال: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنة بغير حساب**»[1]. أي كل من عمل عملًا استحق به أن يكون أجره على الله تعالى فهو يدخل الجنة مباشرة بلا حساب، وعندما يقف الناس للحساب في يوم القيامة يناديهم ملك من الملائكة: من منكم أجره على الله؟ فيسألهم الناس: ومن هم هؤلاء؟ فتجيبهم الملائكة: هؤلاء هم العافون عن الناس، فيقوم جماعة من الناس فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة بغير حساب.

إذن منهج الصفح والتسامح والعفو عن الآخرين هو المنهج الأقوم الذي دعا إليه الإسلام، كما صرحت به الكثير من النصوص القرآنية والروائية؛ منها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، فالإسلام لا يريد منا أن نكون أُناسًا حقودين، ولا يريد منا أن نكون أُناسًا معتدين، ولا يريد منا أن نكون أُناسًا متشفين، بل يريد منا أن نتسامح ونعفو ونصفح عن الآخرين.

ولكن مع الأسف الشديد نرى اليوم في ساحتنا السياسية من يفسر هذا التسامح والاحتواء وتطويق الأزمات بأنّه انبطاح وضعف وجبن ومنقصة، والحقيقة أننا لسنا انبطاحيين، بل نحن متسامحون ونبحث عن حلول وتطويق للأزمات ولملمة لمكونات الشعب، ويعتقد البعض أنّ المنهج الصحيح هو أن تكسر الآخرين لتكون قويًا، ولتكون بالفعل منتميًا لشعبك ولمدرستك وتنتصر لمكونك، ولكن هذا المنهج ليس منهجًا قرآنيًا، بل المنهج القرآني يقول إنّ من اعتدى عليك فمن حقك أن ترد الاعتداء عليه بنفس المقدار، ولكن الأفضل أن تعفو وتصفح، هذا هو الذي يصفي القلوب ويطهر

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٤٢٥، ح٦٨.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

النفوس ويخفف الحساسيات ويردم الفجوة بين أبناء الوطن الواحد ويشد الناس بعضهم تجاه بعض، ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى هذا المنهج القرآني في الاحتواء وتطويق الأزمات ومد يد المحبة والإخاء وجسور المودة تجاه الآخرين.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن المظلوم حينما يبالغ ويتطرف في الرد يصبح ظالمًا أيضًا، والله تعالى لا يحب الظالمين، فلا تتحول من مظلوم إلى ظالم، ولا تضيع قضيتك من خلال الاعتداء على الآخرين.

ونحن اليوم بحاجة إلى تطبيق هذا المنهج في معركتنا المقدسة ضد الإرهاب الطائفي الذي تمارسه داعش والتنظيمات الإرهابية الأخرى، وعند تحريرنا للمدن من قبضة هذه الزمر التكفيرية ينبغي توخي الحذر الشديد من استعمال العنف أو الإساءة إلى الناس الذين كانوا يرزحون تحت الاحتلال الداعشي، حتى لو كانوا من عوائل الدواعش، ويجب الاقتصاص من المتورطين بالدماء فقط، أما الناس الذين يعيشون في تلك المدن فهم مغلوبون على أمرهم، وعلى أسوأ التقادير فإنّ بعضهم متعاطف مع الدواعش، ولكن هذا التعاطف لا يكفي ليكون مبررًا لقتلهم أو الإساءة إليهم أو هدم بيوتهم أو إحراق مزارعهم، فكل هذا محرم ولا يجوز، وهنا يجب أن نكون دقيقين جدًا ولا نقول: هؤلاء قتلوا أولادنا وأهلنا، والآن دخلنا المدينة الفلانية فلنقتص منهم، فهذا خطأ فادح يحولنا من مظلومين إلى ظالمين، يجب علينا ألّا نرضى بذلك، وهذا ما تؤكد عليه المرجعيّة العليا بشكل مستمر، ونؤكد عليه دائمًا أيضًا.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أما هذا الذي يكون مظلومًا فينتصر لنفسه ويدافع عنها فهذا من حقه، وليس عليه من سبيل لمؤاخذته، وإن كان العفو والصفح أفضل بشرط ألّا يُجرّئ الظالم أكثر على التمادي في ظلمه وطغيانه، ولا يوقفه عند حده ولا يعيد للمظلوم حقه منه.

موضوع الإنصاف في الروايات

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى آدم أني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات، قال: يا ربي وما هنَّ؟ قال عزّ وجلّ: واحدةٌ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ في ما بيني وبينك، وواحدةٌ في ما بينك وبين الناس، قال: يا ربي بينهنَّ لي حتى أعلمهنّ، قال عزّ وجلّ: أما التي لي فتعبدني، لا تشرك بي شيئًا، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما**

تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء، وعليَّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك»[1].

تبيّن هذه الرواية الكريمة أنّ الإنصاف هو جوهر العملية في العلاقات مع الآخرين، وأنّ المعيار هو: ما أحبه لنفسي أحبهُ للآخرين، وما أكرههُ لنفسي أكرههُ للآخرين.

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث خصال من كُنَّ فيه أو واحدةٌ منهنّ كان في ظل عرش الله، يوم لا ظلَّ إلا ظله: رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم، ورجلٌ لم يقدّم رِجْلاً ولم يؤخر رِجْلاً حتى يعلم أنّ ذلك لله رضا، ورجلٌ لم يعب أخاه المسلم بعيبٍ حتى ينفي ذلك العيب عن نفسه، فإنه لا ينفي منها عيبًا إلّا بدا له عيب»**[2].

وورد في رواية أُخرى عن عيسى بن منصور قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنا وابن أبي يعفور وعبد الله بن طلحة، فقال ابتداءً منه: «**يا ابن أبي يعفور، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ست خصال من كنَّ فيه كان بين يدي الله عز وجل، وعن يمين الله، فقال ابن أبي يعفور: وما هنَّ جُعلتُ فداك؟ قال: يحب المرء المسلم لأخيه ما يحب لأعز أهله، ويكره المرء المسلم لأخيه ما يكره لأعز أهله، ويناصحه الولاية، فبكى ابن أبي يعفور وقال: كيف يناصحه الولاية؟ قال عليه السلام: يا ابن أبي يعفور، إذا كان منه بتلك المنزلة بثهُ همّه، ففرحَ لفرحهِ إن هو فرح، وحَزنَ لحزنهِ إن هو حزن، وإن كان عنده ما يُفرّج عنه فَرّج عنهُ، وإلّا دعا الله له. ثم قال الإمام عليه السلام: ثلاث لكم، وثلاث لنا، أن تعرفوا فضلنا، وأن تطؤوا عقبنا، وأن تنتظروا عاقبتنا، فمن كان هكذا كان بين يدي الله عز وجل، فيستضيء بنورهم من هو أسفل منهم، وأما الذين عن يمين الله، فلو أنهم يراهم من دونهم لم يهنئهم العيش مما يرون من فضلهم، فقال ابن أبي يعفور: وما لهم لا يُرون وهم عن يمين الله؟ فقال: يا ابن أبي يعفور، إنهم محجوبون بنور الله، أما بلغك الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن لله خلقا عن يمين العرش بين يدي الله وعن يمين الله وجوههم أبيض من الثلج وأضوأ من الشمس الضاحية، يسأل السائل ما هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء الذين تحابّوا في جلال الله»**[3].

---

(١) الكافي ٢: ١٤٦ ح١٣.
(٢) الكافي ٢: ١٤٧ ح١٦.
(٣) الكافي ٢: ١٧٢ ح٩.

ومنها: ما ورد في الحكمة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:«**الإنصاف أفضل الفضائل**»(١).

ومنها: ما ورد في رواية أُخرى عنه عليه السلام قال: «**الإنصاف أفضل الشيم**»(٢)، أي من أفضل المروءة ألاّ تحتكر كل الخير لك، بل تتمناه للآخرين، وما لا تتمناه لنفسك، عليك ألاّ تتمناه لغيرك.

ومنها: عن رومي بن زرارة عن أبيه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: ألا إنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلا عزًا**»(٣)، أي إذا أردت عز الدنيا والآخرة، فعليك أن تتمنى الخير لغيرك كما تتمناه لنفسك.

ومنها: عن أبي البلاد رفعه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز ـ أي بركاب ـ راحلته، فقال: يا رسول الله علّمني عملًا أدخل به الجنة. فقال صلى الله عليه وآله : «**ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فأته إليهم، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأتهِ إليهم**»(٤)، وهذا هو عمق الإسلام، فالدين المعاملة، ينبغي أن نتعاطى مع الآخرين كما نتمنى أن يتعاطوا معنا.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥١.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٩٩٨٣.
(٣) الكافي ٢: ١٤٤ ح٤.
(٤) الكافي ٢: ١٤٦ ح١٠.

المحور الرابع

جذور الأخوّة الإيمانية

ما الذي يدفع المؤمن إلى أن يبني علاقة إيمانية مع أخيه المؤمن؟ وما هي جذور هذه الأخوّة؟. من الممكن أن نذكر العديد من هذه الدوافع، وهي دوافع في نفس الإنسان تدفعه إلى أن يتخذ من أخيه المؤمن أخًا وصديقًا ووليًا، وهذه الدوافع هي:

الدافع الأول: الحصول على النتائج الدنيوية والأخروية

إن هذا الدافع هو الحصول على النتائج والمعطيات المترتبة على هذه الأخوّة، سواء كانت هذه المعطيات دنيوية أو أخروية، وقد اتضح لنا بعد استعراض حقوق الإخوان وما ورد في فضل الأخوّة وما استعرضناه من الآيات والروايات الشريفة، حجم المعطيات العظيمة والنتائج الكبيرة التي تترتب على هذه العلاقة الإيمانية وعلى هذه الأخوّة الإيمانية، فهناك معطيات كبيرة في الجانب الدنيوي، وهناك معطيات في الجانب الأخروي أيضًا، وهذا يدفع الإنسان إلى أن يبني علاقة أخوية مع أخيه المؤمن ويفي بهذه الحقوق والالتزامات، ليحصل على تلك الفوائد الدنيوية والأخروية العظيمة.

الدافع الثاني: رضا الله ﷻ

وقد تبيّن لنا أنّ الله ﷻ يحفز ويشجع ويدفع المؤمنين ليكونوا إخوة بعضهم مع بعض، فالحصول على رضا الله ﷻ، مع قطع النظر عن المعطيات المادية أو المعنوية، الدنيوية أو الأخروية، في هذه العلاقة، يكون دافعًا للبعض في بناء هذه الأخوّة.

الدافع الثالث: الفطرة

المؤمن فطرته سليمة، والأخ المؤمن أيضًا يتمتع بفطرة سليمة، وهذه السنخية الروحية والمواءمة النفسية والروحية وتلاقي وتلاقح الأرواح مع بعضها تولد الانسجام والتفاعل الوجداني الذي يجده المؤمن تجاه أخيه المؤمن، وهذا يدفع المؤمنين أيضًا إلى أن يقتربوا من بعضهم، فالطيور على أشكالها تقع كما ورد في المثل المعروف، فالسنخية والانشداد الروحي والانسجام العاطفي والمشاعري هي التي تدفع المؤمنين بعضهم باتجاه بعض بحكم الفطرة التي أودعها الله ﷻ فيهم.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام كما تتشام الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، ولو أنّ مؤمنًا جاء إلى مسجد فيه أُناس كثير ليس فيهم إلّا مؤمن واحد لمالت روحه إلى ذلك المؤمن حتى يجلس إليه**»(١)، أي أنّ الأرواح جنود الله تعالى، جنّدها وعبّأها، وهي تلتقي مع بعضها فيشم بعضها بعضًا كما تشم الخيل بعضها بعضًا، تعبيرًا عن المحبة بينها. وفي هذه الرواية الشريفة استعار الإمام الصادق عليه السلام هذه الصورة ليشبّه بها تلاقي أرواح المؤمنين، فالروح تبحث عما ينسجم مع سنخها وسياقاتها ومبادئها وتوجهاتها، وهذه السنخية الروحية تولد حالة التشام، ولعلنا تحدثنا في لقاءات سابقة عن هذا الموضوع، وقلنا إن هناك أرواحًا تتلاقى مع بعضها دون سابق إنذار، فبمجرد رؤية رجل في شارع أو في مسجد أو في برنامج أو في مكان ما نقبل عليه نفسيًا، مع أننا لم نره سابقًا ولم نعرف حتى اسمه ولا من أين هو، ولا نملك أي معلومة وأي خلفيات عنه، ولكن ما إن يقع نظرنا عليه حتى نجد روحنا منجذبة نحوه، والعكس صحيح؛ فقد نرى رجلاً فننكمش منه مع أنّه لم يؤذنا ولم يتكلم معنا ولا نعرف من هو، فلم نره من قبل، بل قد لا نراه بشكل مباشر؛ كما لو رأينا صورته على مجلة أو على شاشة تلفاز، فلماذا نرتاح للأول ولا نرتاح للثاني؟ ليس هناك تفسير مادي لهذه الحالة، لأنّنا لم نحتك بهما، مع أنّ هذا الشخص الذي لم نرتح له قد يكون وسيمًا والشخص الآخر ليس كذلك، ومع ذلك تقبل روحنا عليه. هذا التوافق والانسجام والارتياح النفسي يعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بالتشام، فما تعارف من هذه الأرواح ائتلف وانسجم وكانت هناك حالة توأمة بين هذه الأرواح المتعارفة مع بعضها، التي تدفعها الفطرة نحو بعضها، والتي توجد سنخية في ما بينها، وما تناكر من هذه الأرواح اختلف وتناكر وتنافر، وحينما يكون هناك اختلاف فلا يوجد تقارب ولا تلاؤم، ولا تستطيع الاقتراب من بعضها مهما حاولت ذلك، إذ تجد تنافرًا وتناكرًا نفسيًا ولا تجد تفاعلاً مع بعضها، لعدم وجود سنخية بينها. وهذا التنافر أو التعارف بين الأرواح هو أمر من الله سبحانه وتعالى، ونحن نسبناه إلى عالم الذر، كما ورد ذلك في رواية سابقة.

ثم يبيّن الإمام الصادق عليه السلام قوّة تعارف الأرواح بينها فيقول: لو أنّ مؤمنًا جاء إلى مسجد مملوء بالناس وهو لا يعرف أهل ذلك المسجد، وليس فيهم إلا مؤمن واحد، كما لو نزل مدينة في الطريق في أثناء السفر، لمالت روحه إلى ذلك المؤمن وتعرف عليه ولم

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٧٣، ح١٦.

يرتح حتى يجلس إليه، فالمؤمن ينجذب إلى المؤمن بمجرد أن يراه وإن لم يعرفه سابقًا.

وروى الشيخ الكليني في كتاب الكافي الشريف عن أبي بصير قال: «**سمعت الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إذا اشتكى شيئًا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة، وإنّ روح المؤمن لأشد اتصالًا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها**»[1].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة حجم العلاقة بين المؤمنين، ويشبهها بالعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد، وهي علاقة مترابطة وقوية، بحيث لو أُصيب أحد أعضاء البدن بأذى فإنّ سائر الأعضاء تشاركه في تحمل ذلك الألم، وتتأذى لأذاه، فلو آلم الإنسان إظفره مثلًا فإنه سيرى كل جسمه في استنفار ولا راحة عنده، بينما كان في أيام عافيته لا يحس بمثل هذا الترابط، فهو حينما ينام يغمض عينيه ولا علاقة له بإظفره ولا بأي جزء آخر من جسمه، وكذا لو أصابه ألم في أحد أضراسه فإنّ جسمه كله يكون مستنفرًا ولا يستطيع أي عضو من أعضائه أن يرتاح، فلا يمكن له التفكيك بين عضو وآخر ويقول هذه اليد سليمة والأخرى مكسورة فلتنم الأولى لترتاح؛ لأنّ الجسم كله لن يرتاح وليس فقط العضو المصاب، وهكذا المؤمنون فهم كالجسد الواحد، لشدة العلاقة الوثيقة بينهم، فإذا تعرض أي واحد منهم إلى مكروه تألم الآخرون لألمه، ووجدوا ألم ذلك المؤمن في صدورهم؛ لأنّ أرواحهم من روح واحدة وطينتهم واحدة يتأثر بعضها ببعض، وكثيرًا ما يحس المؤمن بضيق في صدره في وقت من الأوقات من غير أن يعرف لذلك سببًا، ثم يطّلع أنّ أحد إخوانه المؤمنين قد تعرض في تلك الساعة لمكروه أحزنه، وهكذا سرى ذلك الهمُّ إلى صدور إخوانه المؤمنين بسبب العلاقة الوثيقة التي تربط أرواحهم.

وكثيرًا ما نرى هذا الأمر بين الأُم وولدها بسبب العلاقة الوثيقة التي تربطها به، فإذا تعرض لمكروه كما لو سقط شهيدًا في ساحة المعركة، ففي نفس اللحظة تشعر الأُم بشعور غريب وتدرك أنّ هناك شيئًا ما حصل لولدها فتقلق عليه، ويكون بالفعل في تلك اللحظة قد أُصيب بمكروه أو حدثت له مشكلة. وهذه العلاقة بين المؤمنين تصل إلى مثل هذه العلاقة بين الأم وولدها في الإحساس بما يتعرض له بعضهم من مشاكل، فيتنبهون لها ويتفاعلون معها ويسارعون في الاستفسار عنها والسعي لدفعها.

---

(١) الكافي ٢: ١٦٦، ح٤.

ثم يوضح الإمام الصادق عليه السلام شدة اتصال روح المؤمن بالله سبحانه وتعالى ويصفها بأنها أشد اتصالاً من شعاع الشمس بالشمس، فهو لا ينفك عنها أبدًا، فكذلك روح المؤمن لا يمكن أن تنفك عن الله سبحانه وتعالى، وهي مرتبطة به ارتباطًا وثيقًا جدًا، وإذا ما كانت أرواح المؤمنين متصلة بروح الله تعالى هذا الاتصال الوثيق، فمعنى ذلك أن كل ما يتعرض له المؤمن هو بعين الله سبحانه وتعالى، وهو القادر على رفع كل مكروه عنه حين حدوثه، بل يدفعه عنه قبل أن يتعرض له إذا شاء ذلك، كما قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2].

وفي الدعاء المروي عن الإمام المهدي عليه السلام: «**اللهم إن شيعتنا منا، خُلقوا من فاضل طينتنا**»[3]، فطينة أهل البيت كانت منشأ لخلقة أتباعهم ومواليهم لكي تتآلف أرواحهم مع أرواح أهل البيت عليهم السلام.

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٨.
(٣) بحار الأنوار ٥٣: ٣٠٣.

المحور الخامس

آثار الأخوّة الإيمانية ومعطياتها

إنّ الأخوّة الإيمانية، كما تبين من خلال مئات الآيات والروايات التي مرت علينا، لها آثار عظيمة في الدنيا وفي الآخرة، وهذه الآثار تشمل من يبادر لبناء هذه العلاقة ومن يستجيب لها وللمجتمع الذي تكون فيه علاقات إيمانية واسعة، ففي كل علاقة هناك مبادر؛ وهو من يبني هذه العلاقة وينفتح على الآخر ويخطو خطوة باتجاهه، وهناك من يتقبل ويستجيب لهذه الخطوة، وهناك المجتمع الذي يستفيد ويستثمر مثل هذه العلاقة.

ولا شكَّ في أنّ مجتمعًا فيه علاقات على مستوى الأخوّة الإيمانية، وفيه صداقات على أساس الإيمان والتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، هو مجتمع يسير نحو الكمال ويقترب من الله ﷻ؛ لأنّ منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه واسع وواضح ومتجذر، ولأنّ مكارم الأخلاق تطبق فيه، وهناك رقابة اجتماعية عامة ما دام المؤمنون متواصلين مع بعضهم ولا يسمحون بوجود خروقات وإساءات واعتداءات على الحرمات وعلى الأحكام الشرعية وما شابه ذلك، ولذلك فإنّ وجود منظومة من العلاقات الإيمانية يساعد على دفع المجتمع باتجاه التكامل، والمجتمع السائر نحو الكمال والعبودية لله ﷻ مجتمع يحظى برضا الله ﷻ ومحبته ولطفه، فينزل رحمته على الأفراد والمجتمع. وفي الاتجاه الآخر تجدون علاقات منفتحة ومنفلتة بلا ضوابط ولا حرمات، وتصل إلى حد علاقة الجنس مع نظيره، ونرى دولًا تفتخر بذلك ويعتبرونه مظهرًا من مظاهر التقدم والتطور والمساواة، ويشرعون قوانين لحماية العلاقات غير المشروعة بين أفراد الجنس الواحد، بل يمتد الأمر إلى ما هو أسوأ من ذلك؛ عندما يقننون لعلاقات البشر مع الحيوانات، ونراهم يحتفلون ويباركون لمن وصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط الخلقي.

أين هذه العلاقات المنفلتة التي لا تراعي أي قيمة إنسانية أو رسالية أو سماوية، من علاقات المؤمنين المبنية على أساس التقوى والورع ومخافة الله والعهود والموازين الشرعية؟ ولذلك فإنّ مجتمعًا من هذا النوع يسير نحو الكمال، يحظى برحمة الله ﷻ ومحبته ورضاه، وكذلك فإنّ الله ﷻ بفضله ولطفه حينما يجد الناس يحب بعضهم بعضًا على أساس الحق والعدل والإيمان يعفو عنهم ويتجاوز عن تقصيرهم، فيندفع هذا المجتمع باتجاهات صالحة.

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في قول الله عز وجل في سورة الحمد: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾، أنه قال: «**أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك.... وما من عبد ولا أمة دارى عباد الله بأحسن المداراة فلم يدخل بها في باطل ولم يخرج بها من حق إلاّ جعل الله عز وجل نفسه تسبيحًا وزكّى عمله**»(١) .

نحن نقرأ يوميًا سورة الفاتحة المباركة عشر مرات في الصلوات المفروضة فقط، ولا بُـدَّ من أن نتساءل من هم هؤلاء الذين أنعم الله عليهم ونطلب من الله سبحانه وتعالى الاقتداء بصراطهم؟ ومع أنّ جزءًا من هذه الرواية لا علاقة له بالموضوع، ولكن بما أنّنا نقرأ هذه السورة دائمًا في الصلوات، فمن المهم أن نعرف من هم الذين أنعم الله عليهم، والذين نطلب من الله أن نسير على هديهم وصراطهم.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ : إنّ نِعَم الله تعالى متنوعة، فقد ينعم الله على الإنسان بمال، وقد ينعم عليه بوجاهة، وقد ينعم عليه بصحة في البدن، فهل معنى ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾، أنعمت عليهم بمال، ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن نسير خلف أصحاب الأموال؟ أهكذا نطلب من الله في صلواتنا؟ أم نقصد الذين أنعم الله تعالى عليهم بالصحة ونطلب منه سبحانه وتعالى أن نسير خلف أناس غير مرضى؟. إمامنا العسكري عليه السلام يقول: إنّ معنى ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾، أي أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، فهؤلاء الذين وفقتهم لنعمة الإيمان والطاعة والعبادة هم الذين نطلب أن نسير خلفهم، وإلاّ فالمال مال الله يعطيه للبر والفاجر، وينعم بالصحة على الكافر والمؤمن.

«**وما من عبد ولا أمة دارى عباد الله بأحسن المداراة فلم يدخل بها في باطل ولم يخرج بها من حق إلاّ جعل الله عز وجل نَفَسَه تسبيحًا وزكّى عمله**»: فالمداراة أمر مطلوب، ولكنها المداراة المشروطة بأن لا تدخل الإنسان في باطل ولا تخرجه من حق، فينبغي ألاّ تكون المداراة على حساب الحق، فلا يقولنّ أحد: أخشى أن يغضب صديقي، لذلك سأذهب معه للمكان المحرم، أو يقول: أخشى أن يغضب إن قلت له إن هذه غيبة أو نميمة، ولأستمع إلى جميع ما يقوله بدون اعتراض، فهذه المداراة للباطل تبعدنا عن الحق، وهذه في الحقيقة ليست مداراة، بل هي انبطاح وخنوع وأزمة ثقة بالنفس، يصبح

(١) بحار الأنوار ٢٤: ١٠ ح٢.

معها الإنسان كالحرباء؛ يتعامل مع كل إنسان بما يهوى، فيقول مثلًا: ما دمت أخرج مع أصدقائي وهم شباب غير ملتزمين فلأحلق لحيتي وألبس كما يلبسون وأغيّر تسريحة شعري والله كريم، وعند الظهر أختبئ عنهم وأصلي صلاتي. إنّ من يفعل ذلك سيضيع؛ لأنّه لا معنى لأن تحترم من لا يحترمك ولا يحترم هويتك ولا يحترم تدينك، فلماذا تحترم عدم التزامه ؟.

الآثار الدنيوية والأخروية لحقوق المؤمن

هناك آثار دنيوية لبعض هذه الحقوق، وهناك آثار أخروية لبعضها الآخر، وهناك آثار دنيوية وأخروية معا لصنف منها. وهو ما سنسعى بإذن الله تعالى إلى أن نستعرضه في الآيات والروايات لنجد الآثار الخاصة التي سجلت لبعض هذه الحقوق الإيمانية.

آثار التزاور بين المؤمنين

هناك جملة من الآثار الدنيوية والأخروية تترتب على التزاور بين المؤمنين، نحاول أن نستعرضها في ما يلي:

الآثار الدنيوية للتزاور

هناك آثار دنيوية للتزاور نذكر بعضًا منها:

أولًا: إحياء القلوب

بما أنّ العلاقة الإيمانية، أي العلاقة بين المؤمنين، قائمة على أساس الإيمان، فهي تقوّي الحالة الإيمانية بين الأخوين المتآخيين، وحينما يقوى الإيمان فمن الطبيعي أن يحيي القلب؛ لأنّ حياة القلوب بالإيمان وبذكر الله سبحانه وتعالى. لاحظوا ما ورد في كتاب الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**تزاوروا، فإنّ في زيارتكم إحياءً لقلوبكم**»[1].

ثانيًا: زيادة المعارف الإيمانية

إنّ أحاديث المؤمنين كلها موعظة وعلم، وعندما يجلس الأخ المؤمن مع أخيه

(١) الكافي ٢: ١٨٦ ح٢.

المؤمن، فإما أن يضيف له معلومة، أو يستفيد منه معلومة، ففي تزاورهم هناك دائمًا معرفة وعلم، وهذه من الآثار المعنوية الدنيوية للعلاقة الإيمانية.

وقد ورد في تتمة الرواية السابقة: «**وذكرًا لأحاديثنا، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم**»، أي أنّ الالتزام بما جاءت به روايات أهل البيت عليهم السلام هو طريق النجاة والخلاص.

في رواية أخرى عن خيثمة قال: قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**تزاوروا في بيوتكم، فإنّ في ذلك حياة لأمرنا، رحم الله عبدًا أحيا أمرنا**»[1].

وفي رواية أخرى عن السيد عبد العظيم الحسني عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، أنه قال له: «**يا عبد العظيم أبلغ عني أوليائي السلام، وقل لهم ألاّ يجعلوا للشيطان على أنفسهم سبيلًا... إلى أن يقول: والمزاورة فإنّ ذلك قربة إليّ**»[2].

ثالثًا: تنمية العقل والفكر

عندما تزخر مجالس المؤمنين بالموعظة والفكر، سينتج عنها رشد فكري ونضج عقلي عند الإنسان، نتيجة المخالطة والتعايش والتزاور مع المؤمنين، فقد ورد عن السيد عبد العظيم الحسني أيضًا عن أبي جعفر الثاني الإمام الجواد عليه السلام قال: «**ملاقاة الإخوان نشرة وتلقيح العقل وإن كان نزرًا قليلًا**»[3].

رابعًا: المحبة والمودّة بين المؤمنين

من الطبيعي أنّ تعمّق الزيارة أواصر المحبة الإيمانية بين المؤمنين، كما ورد ذلك في رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الزيارة تثبت المودّة**»[4]. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**زُر غبًا تزدد حبًا**»[5]، يعني متناوبًا. وورد أيضًا في هذا المعنى ما روي في هذه الأبيات المنسوبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٢ ح٢١.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٠ ح٢٧.
(٣) بحار الأنوار ٧١ : ٣٥٣ ح٢٦.
(٤) مستدرك الوسائل ١٠: ٣٧٤ ح٩.
(٥) مستدرك الوسائل ١٠: ٣٧٤ ح٩.

إِذَا شِـئْتَ أَنْ تُقْلَـى فَـزُرْ مُتَوَاتِـرًا وَإِنْ شِـئْتَ أَنْ تَـزْدَادَ حُبًّـا فَـزُرْ غِبًّـا
مُنَادَمَــةُ الْإِنْسَــانِ تَحْسُــنُ مَــرَّةً وَإِنْ أَكْثَـرُوا إِدْمَانَهَا أَفْسَـدُوا الْحُبَّا(١)

خامسًا: السعادة والراحة

لا شكَّ أنّ في لقاء المؤمن لأخيه المؤمن سعادة؛ لأنّ اللقاء الإيماني يبعد حالة التشويش والاضطراب والقلق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٢)، والمؤمن تفوح منه رائحة الإيمان والتدين وذكر الله ﷻ دائمًا، فيزيل الهم والغم، فالمؤمن يورث السعادة، وأُخوّة المؤمن وزيارته فيهما للقلب سعادة وفرحة، وقد ورد هذا المعنى في ما رواه عمر بن يزيد قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لكل شيء شيء يستريح إليه، وإن المؤمن يستريح إلى أُخيه المؤمن كما يستريح الطير إلى شكله** »(٣)، ولذا يجب أن تكون الأخوّة مع المؤمن أُخوة إيمانية؛ لأنهما من سنخية واحدة، فإذا أنت أنست بغير المؤمن فعليك أن تشك في إيمانك.

الآثار الأخروية للتزاور

هناك مجموعة من الآثار الأخروية للتزاور نذكرها في ما يلي:

أولًا: التزاور يثبت الحسنات ويمحو السيئات

ورد في كتاب الكافي الشريف عن الإمام أبي جعفر الباقر والإمام أبي عبد الله الصادق صلى الله عليهما قالا: «**أيما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفًا بحقه، كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، وإذا طرق الباب فتحت له أبواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبديّ تزاورا وتحابّا فيّ، حق عليّ ألّا أعذبهما في النار**»(٤).

رويت هذه الرواية المباركة عن الإمامين الباقر والصادق صلى الله عليهما لما فيها من بشارة عظيمة للمؤمنين المتحابين في الله ﷻ، وتأكيدًا على أهمية التزاور بينهم.

(١) الديوان المنسوب للإمام علي: ٨٦ الرقم ٤٣.
(٢) سورة الرعد، الآية : ٢٨.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٥ ح ٣٠.
(٤) الكافي ٢: ١٨٣، ح١.

«**أيما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره**»: تشير هذه الفقرة إلى أنّ المضمون الذي سيرد فيها هو لمن خرج من بيته قاصدًا زيارة أخيه المؤمن، ولا يشمل من التقى به وهو سائر في الطريق أو في مكان ما من غير أن يتضمن خروجه من منزله بقصد زيارته. هذا هو القيد الأول للتزاور بين المؤمنين.

«**عارفًا بحقه**»: وتتضمن هذه الفقرة القيد الثاني للتزاور؛ وهو أن يكون المؤمن عارفًا بحق أخيه المؤمن، ومن جملة ذلك تفقّد أحواله، لا مجرد زيارته كما يزور أي شخص آخر، لقضاء الوقت مثلاً أو لتداول الحديث حول الأوضاع السياسية في البلد، أي المطلوب هو العلاقة الواعية المبنية على فهم أنّه مؤمن، وأنّ له حقوقًا، وأن الذهاب لزيارته لإكرامه وللاطلاع على أحواله جزء من هذه الحقوق.

«**كتب الله له**»: فإذا وُجِد هذان الشرطان في زيارة المؤمن لأخيه المؤمن ترتب على هذه الزيارة ثلاثة آثار:

«**بكل خطوة حسنة**»: هذا هو الأثر الأول، ففي كل خطوة يخطوها حسنة، وكلما طالت المسافة ازدادت الحسنات، فيكون بُعد الطريق غنيمة لمن يطلب الثواب.

«**ومحيت عنه سيئة**»: هذا هو الأثر الثاني، ففي كل خطوة تمحى عن السائر لزيارة أخيه المؤمن سيئة، وكلما بعدت الشقة تضاعف عدد ما يمحى من الذنوب.

«**ورفعت له درجة**»: هذا هو الأثر الثالث، ففي كل خطوة يرفعه الله تعالى درجة في الإيمان ويقربه إليه.

«**وإذا طرق الباب**»: فإذا وصل إلى باب دار أخيه المؤمن فقد حصل على الثواب المتقدّم بأجمعه، وإن عدل عن نيته ورجع عن قصده لأمر ما، فإذا طرق الباب فهنا يحصل على مكرمة جديدة وهي:

«**فتحت له أبواب السماء**»: قبل أن يفتح الأخ المؤمن باب داره يفتح الله سبحانه وتعالى أبواب السماء باستجابة الدعوات ونزول الرحمات والفيوضات لهذا المؤمن الزائر.

«**فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبل الله عليهما بوجهه**»: فإن وجده في الدار وخرج لاستقباله وتصافحا وتعانقا، أقبل الله تعالى عليهما بوجهه الكريم في لحظة المعانقة والمصافحة وتبادل التحية، ومن أقبل الله تعالى عليه بوجهه فقد ألبسه ثوب العزة والكرامة وكان عنده وجيهًا.

«**ثم باهى بهما الملائكة**»: ولا يكتفي الله سبحانه وتعالى بهذا التكريم لهما، بل يفتخر بهما أمام الملائكة، تعريضًا لهم بما قالوه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1].

ثانيًا: العتق من النار

من الآثار الأخروية للتزاور هو العتق من النار، أي أنّ التزاور بين المؤمنين يؤدي إلى العتق من النار كما يعتق العبد من العبودية ويذوق حلاوة الحرية، فقد ورد في تتمة الرواية السابقة قوله عليه السلام: «**فيقول: انظروا إلى عبديّ تزاورا وتحابّا فيّ، حق عليّ ألاّ أعذبهما في النار**». وهذه كرامة ما بعدها كرامة لهؤلاء الذين يتحابون في الله ومن أجل الله وقربة إلى الله، فكيف يمكن أن يعذبهم الله؟ بل يكتب لهم العفو والصفح والعتق من النار.

ثالثًا: الفوز بالجنة

ومن الآثار الأخروية أيضًا للتزاور هو الفوز بالجنة، فقد ورد في كتاب الكافي في باب زيارة الإخوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من زار أخاه لله لا لغيره، التماس موعد الله، وتنجّز ما عند الله، وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة**»[2]، أي من كان هدفه ودافعه لزيارة أخيه المؤمن هو الله سبحانه وتعالى، رغبة بما وعد من الثواب الجزيل وطمعًا بالعطاء الإلهي، وكّل الله تعالى به سبعين ألف ملك ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة، فكل هذا العدد من الملائكة هم من أمرهم الله سبحانه وتعالى بأن يحملوا البشارة لمن زار أخاه قربة إلى الله تعالى، وهذه ليست من المبالغات، بل هو كلام الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت المعصومين عليهم السلام، وهو كلام محسوب. فاعرفوا هذا التزاور وما يُبنى عليه من بناء اجتماعي أصيل بين المؤمنين، وأي أثر عظيم يترتب عليه.

وورد في بحار الأنوار عن أبي عبد الله عليه السلام أيضًا: «**ما زار مسلم أخاه المسلم في الله ولله إلاّ ناداه الله سبحانه وتعالى: أيها الزائر طبت وطابت لك الجنة**»[3]. إذا كان الملائكة هم الذين ينادون المؤمن في الحديث السابق ويبشرونه بالجنة، ففي هذه الرواية أنّ الله سبحانه وتعالى بنفسه هو الذي ينادي المؤمن ويبشره بالجنة.

ويبدو من بعض الروايات أنّ الجنة التي يجري الحديث عنها في الأخوّة الإيمانية لها مقام يختلف عن مقام الجنة التي يدخلها الآخرون، لاحظوا هذه الرواية في بحار الأنوار

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) الكافي ٢: ١٧٥، ح١.
(٣) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٠، ح١٧.

أيضًا عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**لله عزّ وجلّ جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله عزّ وجلّ**»[1].

يتحدث الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية المباركة عن وجود جنة خاصة لا يدخلها إلا ثلاثة أصناف من المؤمنين، يتميزون بعمل يفوق أعمال غيرهم من أهل الجنة، وهم:

الصنف الأول: رجل حكم نفسه بالحق، وهو مقام رفيع لا يحظى به إلاّ الأوحدي من الناس، فمن الصعب جدًا أن ينظم الإنسان إيقاعات سلوكه على أساس الحق، فيحكم بالحق على نفسه ولو كان في ذلك ضرر له، وينصف الآخرين من نفسه، ويعطي الحق لأصحابه وإن ألحق الضرر بنفسه، والرجل الذي يعمل ويحكم على أساس الحق نسميه رجلًا حقانيًا، فنقول: هذا حقاني ليس له صاحب صديق، فهو يشهد بالحق ويقول الحق ولو على نفسه أو أقرب الناس اليه، وهذا يدخل المقام الخاص من مقامات الجنة.

الصنف الثاني: رجل زار أخاه المؤمن في الله، فهذا أيضًا له مقام خاص في الجنة، وهو موضع الشاهد.

الصنف الثالث: رجل آثر أخاه المؤمن في الله عزّ وجلّ، فقدّم أخاه على نفسه، كما لو سنحت فرصة للحج فيقول: أنا ذهبت مرة للحج وأخي لم يذهب، فيمنح هذه الفرصة له، وهكذا هو في جميع شؤون الحياة يؤثر الآخرين على نفسه، وهذه صفة أخلاقية عظيمة، ومثل هذا ممن يؤثرون على أنفسهم، يعطيهم الله تعالى هذه المنزلة الخاصة في الجنة.

وفي مجمع الزوائد للهيثمي: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: النبي في الجنة، والصدّيق في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله**»[2].

يُفهم من هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث النبوية أنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما كان يجلس في مجلس، كان يبادر إلى الكلام في تعليمهم ثقافة الإسلام إن أحجموا عن السؤال ولاذوا بالصمت هيبة له، وهنا يبادر رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه بالحديث، وذلك بأن يستأذنهم أولًا في بيان أي منهم يدخل الجنة، وهو يفصح عن قمة الأدب في

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٢، ح٢٤.

(٢) مجمع الزوائد ٨: ١٧٤.

الخطاب، فهو لا يفرض عليهم موضوع الحديث، وإنما يقترح عليهم ذلك اقتراحًا، فإن وافقوه تكلّم، وهذا كان ديدنه صلى الله عليه وآله إن سألوه أجابهم وإن سكتوا ابتدأهم.

ثم بيّن صلى الله عليه وآله من يدخل الجنة من المسلمين وهم ثلاثة، أولهم النبي، ويعني به نفسه المقدسة، وذلك مما لا يشك فيه أحد، والثاني هو الصدّيق، والمقصود به كثير الصدق، ومن هنا تتضح أهمية قضية الصدق، والثالث: الرجل يزور أخاه في ناحية المصر، وهو موضع الشاهد، والمراد به من يسكن في أطراف المدينة بنحو يتحمل زائره بعض المشقة في الوصول إليه؛ لأنه أحيانًا تكون دار الأخ المؤمن قريبة من دار أخيه المؤمن فلا يتحمل أي مشقة وعناء في زيارته، وهذا له ثوابه ولكن لا يدخل بسبب هذا العمل فقط، واشترط رسول الله صلى الله عليه وآله أن تكون هذه الزيارة خالصة لوجه الله تعالى وليست فيها أي شائبة من شوائب الدنيا، وليس عنده أي غرض آخر سوى القرب من الله سبحانه وتعالى، فلا يكون طامعًا بماله أو جاهه أو زاره ليحل له مشكلة من المشاكل، فمثل هذا المؤمن يستحق أن يدخل الجنة بسبب زيارته لأخيه المؤمن.

وهنا نلاحظ تأكيدًا كبيرًا على الدوافع الإلهية لزيارة المؤمن أخاه المؤمن في الله، وأن يكون عارفًا بحقه، فهذا الدافع الإلهي مهم جدًا في الحصول على هذه المقامات الرفيعة، وهناك عباد لله مخلصون صالحون بعيدون عن هذه الأضواء، لا مال عندهم فيطمع فيه طامع، ولا جاه عندهم فيقصدهم القاصدون لقضاء حوائجهم، ولا يستطيعون أن يعملوا لأحد أمرًا دنيويًا، ولكنهم رجال آية في الصلاح والتقى والورع، فزيارة هذا النمط من الناس والتواصل معهم وزيارتهم لله سبحانه وتعالى له أجر عظيم.

وورد في كتاب الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من زار أخاه في الله قال الله عز وجل: إياي زرت، وثوابك عليّ، ولست أرضى لك ثوابًا دون الجنة**»[1].

يؤكد الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية المباركة ما تضمنته الأحاديث السابقة، وهي تشمل ثلاث نقاط هي:

الأولى: أن تكون نية الزيارة خالصة لوجه الله تعالى من دون أي شائبة دنيوية.

الثانية: إنّ زيارة المؤمن لأخيه المؤمن هي بمثابة زيارة الله سبحانه وتعالى في عرشه.

الثالثة: إن من زار أخاه المؤمن كان ثوابه على الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى لا يرضى غير الجنة ثوابًا لهذا العمل.

كانت هذه بعض الآثار الدنيوية والأخروية للتزاور.

---

(١) الكافي ٢: ١٧٦، ح٤.

الآثار الدنيوية والأخروية لعيادة المريض

لقد تحدثنا في هذا الحق طويلًا، أما الآثار الدنيوية والأخروية لعيادة المريض فهي:

الأثر الأول: استجابة دعاء المريض بحق الزائر

حينما يذهب المؤمن لزيارة أخيه المؤمن المريض فيدعو له، فإنّ الله عزّ وجلّ يستجيب له دعاءه في حق أخيه الزائر، لذا لا ينبغي للمؤمن المريض عندما يزوره أخوه المؤمن أن يغفل أو ينشغل عن الدعاء له، بل يكثر من الدعاء له لأنها فرصة لقضاء حوائجهم الدنيوية والدينية.

فقد ورد في كتاب وسائل الشيعة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**من عاد مريضًا في الله لم يسأل المريض للعائد شيئًا إلا استجاب الله له**»[١].

وورد في كتاب الكافي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا دخل أحدكم على أخيه عائدًا له فليسأله يدعو له، فإن دعاءه مثل دعاء الملائكة**»[٢] كما أن دعاء الملائكة لا يرد، فكذلك دعاء المريض بحق زائره وعائده لا يرد .

الأثر الثاني: قضاء الحوائج

إنّ الله سبحانه وتعالى يقضي حاجة المؤمن عند عيادة أخيه المؤمن المريض، فقد ورد في كتاب بحار الأنوار عن الإمام الكاظم عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ـ وهذه الرواية من روايات السلسلة الذهبية التي يرويها إمام عن إمام عن رسول الله ـ قال: «**يعيّر الله عزّ وجلّ عبدًا من عباده يوم القيامة فيقول: عبدي ما منعك إذ مرضت أن تعودني؟ فيقول هذا العبد: سبحانك سبحانك أنت رب العباد لا تألم ولا تمرض، فيقول الله سبحانه وتعالى: مرض أخوك المؤمن فلم تعده، وعزتي وجلالي لو عدته لوجدتني عنده، ثم لتكفلت بحوائجك فقضيتها لك، وذلك من كرامة عبدي المؤمن، وأنا الرحمن الرحيم** »[٣].

تضمن هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله نقاطًا مهمة:

الأولى: التعبير بـ «**يعيّر الله عزّ وجلّ عبدًا من عباده يوم القيامة**»، وهو تعبير عجيب من

---

(١) وسائل الشيعة ٢: ٤٢٠، ح٣.
(٢) الكافي ٣: ١١٧، ح٣.
(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٦٩، ح٢٨.

رسول الله، فهي كلمة مأخوذة من العار، أي من العار على المؤمن ألاّ يزور أخاه المؤمن عند مرضه، وهو موقف يُعاتب عليه يوم القيامة عتابًا شديدًا.

الثانية: إنّ الله تعالى يجعل مرض عبده المؤمن بمثابة مرضه، وعيادته في أثناء مرضه بمثابة عيادة له.

الثالثة: إنّ الله سبحانه وتعالى يقسم بعزته وجلاله أنّه موجود عند عبده المؤمن في أثناء مرضه إلى أن يشفى منه أو يدركه أجله المحتوم.

الرابعة: إن المؤمن لو عاد أخاه المؤمن في أثناء مرضه لوجد الله تعالى عنده ولقضى له جميع حوائجه الدنيوية والأخروية من غير أن يسأله إياها. كل ذلك كرامة للمؤمن عند الله سبحانه وتعالى. فكم نحن غافلون عن اغتنام هذه الفرص الذهبية؟.

الخامسة: إنّ الأسماء الحسنى لله تعالى لها حضور فاعل في بعض الأزمنة والأمكنة، فاسم «**الرحمن الرحيم**» يتواجد بقوة في أثناء عيادة المؤمن لأخيه المؤمن عند مرضه.

الأثر الثالث: مشايعة الملائكة واستغفارهم لمن يزور أخاه المؤمن ودعاؤهم له

فقد ورد في كتاب الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من عاد مريضًا شيّعه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى يرجع إلى منزله**»[1]. يعني أنه بمجرد أن يخرج المؤمن من داره إلى أن يعود إليها قاصدًا زيارة أخيه المؤمن، يشيّعه ويكتنفه سبعون ألفًا من الملائكة يحفظونه من كل مكروه إلى أن يعود سالمًا كما خرج، وفي أثناء هذه المدة ذهابًا وإيابًا يستغفرون له، وهذا يعني أنّه كلما طالت المسافة واستغرق قطعها وقتًا أكبر كان الوقت الذي تقضيه الملائكة بالاستغفار له أكثر، وهذا يعني أنّ عددًا أكبر من الذنوب تُغفر له. وهذا باب واسع جدًا فتحه الله تعالى لعباده المؤمنين لغفران ذنوبهم، فما أيسر العمل وأعظم النتيجة.

وورد في كتاب الكافي أيضًا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**من عاد امرأ مسلمًا في مرضه صلّى عليه يومئذ سبعون ألف ملك يطلبون الرحمة له إن كان صباحًا حتى يمسوا، وإن كان مساءً حتى يصبحوا مع أنّ له خريفًا في الجنة**»[2]. وتضمنت هذه الرواية المباركة

(١) الكافي ٣: ١٢٠، ح٢.
(٢) الكافي ٣: ١١٩، ح١.

معلومة جديدة؛ وهي أنّ من عاد أخاه المسلم في مرضه، فإنّ سبعين ألف ملك يستغفرون له مدة اثنتي عشرة ساعة، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الله ﷻ يعطيه خريفًا أي مساحة واسعة من أرض الجنة ثوابًا لهذه الزيارة.

وورد في كتاب الكافي أيضًا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**أيّما مؤمن عاد مؤمنًا خاض في الرحمة خوضًا، فإذا جلس عند المريض غمرته الرحمة، فإذا انصرف وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ويسترحمون عليه ويقولون طبت وطابت لك الجنة إلى تلك الساعة من غد، وكان له يا أبا حمزة خريف في الجنة، قلت: وما الخريف يا ابن رسول الله جعلت فداك؟ قال: زاوية في الجنة يسير الراكب فيها أربعين عامًا**»(١). وفي هذه الرواية المباركة يبيّن الإمام الباقر عليه السلام عظم ثواب عيادة المؤمن لأخيه المؤمن في مرضه، وكانت الرواية السابقة في عيادة المسلم لأخيه المسلم؛ إذ المؤمن أعظم درجة من المسلم، والفرق بينهما أنّ السبعين ألف ملك يستغفرون للمؤمن أربعًا وعشرين ساعة، بينما يستغفرون للمسلم اثنتي عشرة ساعة. وفي هذه الرواية تحديد لمعنى الخريف الذي يعطيه الله تعالى ثوابًا للمؤمن الذي يعود أخاه المؤمن في مرضه، وهي أرض في الجنة يسير فيها الراكب أربعين عامًا، فإذا كانت هذه الأعوام من أعوام الدنيا، وكانت مسيرة الراكب عشرة كيلو مترات في الساعة على أقل تقدير، يكون طول هذه المساحة ثلاثة ملايين ونصف المليون من الكيلو مترات، هذا أجر عيادة مريض واحد لمرة واحدة، هذا بالإضافة إلى غفران الذنوب.

الأثر الرابع: الأُنس في القبر

إنّ أخطر وأصعب شيء يواجهه الإنسان حينما يذهب إلى القبر هو وحشة القبر وغربته فيه، ولكن المؤمن عندما يعود أخاه في مرضه، فإنّ الله يرسل له ملكًا يؤنسه في قبره ويُذهب الوحشة عنه، وقد وردت في هذا المعنى روايات كثيرة.

منها: ما ورد في كتاب الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أيّما مؤمن عاد مؤمنًا في الله ﷯ في مرضه، وكّل الله له ملكًا من العوّاد يعوده في قبره ويستغفر له إلى يوم القيامة**»(٢). وفي هذه الرواية المباركة تأكيد وجوب خلوص النية والدوافع الإلهية في عيادة المؤمن

(١) الكافي ٣: ١٢٠، ح٣.
(٢) الكافي ٣: ١٢٠، ح٤.

لأخيه المؤمن في مرضه لكي يحصل على هذه الكرامة والمنزلة في قبره. ويُفهم من هذه الرواية وغيرها من الروايات أنّ الملائكة أصناف كثيرة، ولكل صنف مهمة خاصة به، ومنهم صنف وظيفتهم عيادة المؤمنين في قبورهم والاستغفار لهم إلى حين قيام الساعة والنشر للحساب.

ومنها: ما ورد في كتاب الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من عاد مريضًا وكّل الله عزّ وجلّ به ملكًا يعوده في قبره**»[1].

ومنها: ما ورد في المصدر نفسه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**كان في ما ناجى به موسى ربه أن قال: يا ربي ما بلغ من عيادة المريض من الأجر؟ فقال الله عزّ وجلّ: أوكل به ملكًا يعوده في قبره إلى محشره**»[2].

الأثر الخامس: دعاء الملائكة للزائر بالجنة

إنّ عيادة المؤمن لأخيه المؤمن المريض تستتبع دعاء الملائكة له بدخول الجنة والتنعم بنعيمها وأفراحها وطيباتها، فقد ورد في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من عاد مريضًا ناداه منادٍ من السماء باسمه: يا فلان طبت وطاب لك ممشاك بثواب من الجنة**»[3].

وورد في بحار الأنوار عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من زار أخًا في الله أو عاد مريضًا نادى منادٍ من السماء: طبت وطاب ممشاك، تبوأت من الجنة منزلك**»[4].

وجاء في وسائل الشيعة عن الإمام محمد الباقر قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: ضمنت لستة الجنة: رجل خرج يعود مريضًا فمات فله الجنة**»[5].

---

(١) الكافي ٣: ١٢٠، ح٧.
(٢) الكافي ٣: ١٢٠، ح٩.
(٣) الكافي ٣: ١٢١، ح١٠.
(٤) بحار الأنوار ٨١: ٢١٩، ح١٧.
(٥) مستدرك الوسائل ١٠: ٣٧٤، ح٧.

الآثار الدنيوية والأخروية لإفشاء السلام

لقد مرَّ الحديث في هذا الأمر بالتفصيل في الحقوق الإيمانية، وقلنا إنّ من حق المؤمن على المؤمن أن يسلم عليه وأن يردّ سلامه، وهناك آثار دنيوية وأخروية لإفشاء السلام:

الأثر الأول: الشمول بالمغفرة الإلهية

فقد ورد في بحار الأنوار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام**»[1]. لقد حث الإسلام كثيرًا على إفشاء السلام بين الناس، وهي إحدى المميزات الفارقة التي تمتاز بها حضارة المسلمين. وإفشاء السلام يعني السلام على من تعرف وعلى من لا تعرف، وإن صار السلام اليوم على المعرفة، وإلقاء التحية أمر سهل وفائدته عظيمة؛ أهمها غفران ذنوبه، بالإضافة إلى فوائدها الدنيوية الكثيرة؛ من دفع الشر واستجلاب المحبة وإشاعة الأمان وفتح باب التعارف بين الناس وغيرها. ومن الممكن أن يصير السلام ملكة عند الإنسان بأن يعوّد نفسه بشكل مستمر على المبادرة إلى إلقاء التحية على الآخرين من غير تأمل وإعمال روية.

لقد نُقل في حال بعض فقهائنا أنّه كان إذا دخل إلى مجلس لا يكتفي بأن يقول السلام عليكم، بل كان يسلّم على الحاضرين فردًا فردًا ويخص كل واحد منهم بسلام خاص، وهذا فيه توقير واحترام اكبر للآخرين، بالإضافة إلى ما فيه من الأجر العظيم.

وذكرت الرواية أمرًا آخر وهو حسن الكلام، فالإنسان الذي يريد أن يتكلم ينبغي أن يتكلم بكلام حسن وبعبارات مهذبة وبكلمات غير جارحة، وألاّ يستخدم الكلام البذيء أو الفحش والعياذ بالله، فالمؤمن لا يصدر منه مثل هذه الكلمات، فحسن الكلام أيضًا كما تشير هذه الرواية مدعاة وموجب للمغفرة الإلهية.

الأثر الثاني: الحسنات والبركات من خلال إشاعة السلام

وقد طرح القرآن الكريم أنّ الحسنة حقيقة من الحقائق، وهي تستحق أن يطلبها الإنسان في الدنيا والآخرة؛ إذ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً

---

(١) وسائل الشيعة ٢: ٤١٦، ح٨.

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]. ومن خصائص الحسنة أنها تدفع السيئة كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2]، لذلك عندما يقال: إنّ إفشاء السلام وإلقاء التحية على الآخرين يؤدي إلى الحسنات، يعني ذلك أنها تزيح السيئات أيضًا، وقد نصت الروايات على أنّ الفضل لمن يبدأ بالسلام وهو الذي يحظى بالثواب الأعظم، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**للسلام سبعون حسنة، تسع وستون للمبتدئ وواحدة للراد**»[3]؛ ولهذا ينبغي علينا أن نكون مبادرين في إلقاء التحية على الآخرين لئلا يفوتنا الثواب الجزيل.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يبادر بالسلام على الآخرين ولم يستطع أن يسبقه في ذلك سابق، وقد جاء في إحدى الروايات أنّ أحد المسلمين أراد أن يسبقه بالسلام، فأخفى نفسه خلف جدار وانتظر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمر من هناك فيبادره بالسلام، ولكنه مع ذلك لم يستطع، فقد بادره رسول الله صلى الله عليه وآله بالسلام قبل أن يصل إليه.

وورد في بحار الأنوار عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لأنس بن مالك: «**يا أنس سلّم على من لقيت يزيد الله في حسناتك، وسلّم في بيتك يزيد الله في بركتك**»[4].

وورد في وسائل الشيعة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أسبغ الوضوء تمر على الصراط مرّ السحاب، أفش السلام يكثر خير بيتك، أكثر من صدقة السر فإنها تطفئ غضب الرب**»[5].

تضمن هذا الحديث النبوي الشريف الإشارة إلى ثلاثة أُمور خفيفة المؤونة عظيمة الأثر في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة:

الأول: إسباغ الوضوء، فإنّ أثره هو المرور على الصراط مرورًا سريعًا. والوضوء لا يأخذ من وقت الإنسان إلا دقيقة أو دقيقتين، فلنتعلم أن نكون على وضوء دائمًا وأن نحسن الوضوء على أحسن وجه لنكون من أهل هذا الحديث.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١١، ح٤٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٣: ٣، ح٥.
(٥) وسائل الشيعة ١: ٤٨٩، ح٦.

الثاني: إفشاء السلام، فإنّه يكثر خير البيت، وهو أمر يسير ولكن أثره خطير، فكم من صاحب مال نزعت من ماله البركة فأنفقه في ما لا فائدة فيه ثم افتقر.

الثالث: الإكثار من صدقة السر، وأثرها إطفاء غضب الرب، وكذلك لصدقة العلانية أثر، ولكن أثر صدقة السر أعظم.

وورد في وسائل الشيعة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وإذا دخل أحدكم بيته فليسلم فإنه تنزل البركة**»[1].

الأثر الثالث: ثواب عتق رقبة

ورد في الروايات أنّ ثواب إفشاء السلام هو ثواب عتق رقبة، فقد ورد في بحار الأنوار عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من لقي عشرة من المسلمين فسلم عليهم كتب الله له عتق رقبة**»[2].

الآثار الأخروية لإكرام المؤمن

لا شكَّ في أنّ لإكرام المؤمن آثارًا أخروية نذكرها في ما يلي:

الأثر الأول: إكرام المؤمن يجعل الإنسان في أمان الله يوم القيامة، فقد ورد في كتاب الكافي عن هشام بن سالم قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قال الله عزّ وجلّ: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن، وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن**»[3].

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث القدسي عظيم منزلة المؤمن وكرامته على الله جلّ جلاله، وأنّه في كنفه وحمايته، فمن آذى مؤمنًا فليعلم أنّ الله تعالى هو خصمه وهو من يتولى حربه، وهذا مصداق لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]، فمن آذى مؤمنًا فقد أعلن الحرب مع الله عزّ وجلّ، ولا شكَّ في أنّ الحرب مع الله

(١) وسائل الشيعة ٥: ٣١٨، ح ٣.
(٢) بحار الأنوار ٦٦: ٣٨٢، ح ٤٤.
(٣) الكافي ٢: ٣٥٠، ح ١.
(٤) سورة الحج، الآية: ٣٨.

تعالى حرب خاسرة مهما كانت الإمكانات التي يمتلكها الطرف المقابل للمؤمن؛ لأنّها لا قيمة لها أبدًا أمام قدرة الله سبحانه وتعالى اللامتناهية.

وأما من يكرم المؤمن ـ وهنا محل الشاهد ـ فليأمن غضب الرب الجليل، وسيلبسه ثوب الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، وينزع عن قلبه كل خوف.

الأثر الثاني: دخول الجنة، فقد وعد الله سبحانه وتعالى من يكرم أخاه المؤمن بدخول الجنة، فقد ورد في كتاب وسائل الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه في حديث المناهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل أنّه قال: «**ومن أكرم أخاه المسلم فكأنما يكرم الله** عزّ وجلّ»[1]. فإكرام المسلم هو في الحقيقة إكرام لله عزّ وجلّ.

وورد في مستدرك الوسائل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ومن أكرمه فقد أكرمني، ومن أكرمني فقد أكرم الله، ومن أكرم الله فله الجنة**»[2]، إذن فإكرام المؤمن إكرام لله سبحانه وتعالى، وإكرام الله يؤدي إلى ضمان الجنة، والله سبحانه وتعالى يمنح الجنة لمثل هؤلاء المخلصين من العباد.

الآثار الدنيوية والأخروية للصفح عن زلة المؤمن

الزلة هي الخلل، أي الخطأ غير المتعمد، ويطلق «**الخطأ**» على من ارتكب عملًا مخالفًا متعمدًا، بينما تطلق «**الزلة**» على من ارتكب عملًا مخالفًا غير متعمد، فيقال: «**زلّ لسانه**» لمن أخطأ في كلامه عن غير قصد، وسمي خطأ المؤمن زلة لأنّه لا يتعمد الخطأ، وإنّما يصدر منه سهوًا، ولهذا ينبغي للمؤمن أن يصفح عن خطأ أخيه المؤمن؛ لأنّه خطأ غير متعمد ومن حيث لا يقصد، كما لو صدرت منه كلمة مزعجة، فيعذر لأنّه لم يكن يقصدها ولم يختر الكلمة الصحيحة ولم يتعاط بالطريقة الصحيحة.

وللصفح عن زلة المؤمن آثار دنيوية وأخروية هي:

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٣٨٩، ح٥.
(٢) مستدرك الوسائل ١٧: ٣٠٠، ح٥١.

الأثر الأول: العفو والمغفرة الإلهية

يعطي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمن يصفح عن زلة أخيه المؤمن في الدنيا العفو والمغفرة، فيعفو عنه ويغفر له، وهذه في الحقيقة سنّة إلهية، فمن زرع حنطة يحصد حنطة، ومن زرع شعيرًا يحصد شعيرًا، وكذلك من يزرع خيرًا يحصد خيرًا، ومن يزرع شرًا يحصد شرًا، هذه هي القاعدة العامة لجزاء الأعمال عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن يصفح عن أخيه المؤمن فإنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصفح عنه أيضًا. وأما الذي يقاطع الأخ المؤمن بسبب كلمة تفوه بها، ثم يقف في الصلاة ويدعو في قنوته: (ربنا اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)، ولكنه غير مستعد لأن يعفو عن أخيه ويصفح عنه، فلا يتوقع من الله تعالى أن يستجيب له دعاءه ويغفر له ذنوبه.

ورد في كتاب غرر الحكم عن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قال: «**أقل تُقل**»(١)، يعني اصفح يُصفح عنك، وسامح يُتسامح معك.

الأثر الثاني: نيل المكانة المرموقة والدرجات العالية

ورد في غرر الحكم أيضًا عن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قال: «**تجاوز عن الزلل وأقل العثرات ترفع لك الدرجات**»(٢).

يحث أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذه الحكمة على تجاوز الزلل، وألاّ يبقى الإنسان أسيرًا لكلمة أو موقف خاطئ من أخيه المؤمن، وأن يقيل عثراته إذا طلب منه الصفح عنها، والعثرات هي الأخطاء المقصودة، كما لو كان غاضبًا وأراد أن يؤذيك فقال كلمة أو فعل شيئًا ما أو أغلق الباب بقوة أو أغلق الهاتف بوجهك، ولهذا التجاوز والصفح أثر كبير في حياة صاحبه في الدنيا والآخرة، فمن آثاره في الدنيا ارتفاع مكانته في المجتمع، وسيحظى بمكانة مرموقة عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الآثار الأخروية للصفح عن زلة المؤمن فهي الشفاعة، فإنّ رسول الله «**صلى الله عليه وآله**» يشفع للمؤمن الذي يصفح عن إخوانه ويتسامح معهم ويتجاوز عن أخطائهم، فقد ورد في كتاب وسائل الشيعة عن جعفر بن محمد عَلَيهِ السَّلَامُ عن آبائه عَلَيهِمُ السَّلَامُ في وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ لعلي عَلَيهِ السَّلَامُ ـ إذن هذه الوصية منقولة بطريق السلسلة الذهبية التي يرويها إمام عن

(١) غرر الحكم: الحكمة ٥٠٥١.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٥٠٥٥.

إمام عن رسول الله ـ قال: «**يا علي؛ من لم يقبل من متنصل عذرًا، صادقًا كان أو كاذبًا، لم ينل شفاعتي**»[1].

يبيّن رسول الله ﷺ في هذه الوصية المباركة أنّ شفاعته للمؤمن في يوم القيامة متوقفة على قبول عذر إخوانه المؤمنين، سواء كانوا صادقين في أعذارهم هذه أو كاذبين. والمتنصل هو الذي يحاول أن ينكر ما قاله ويتبرأ من جنايته أو ذنبه، كأن يقول لم أقل ذلك، أو لم أقصد ذلك، أو ليس هذا هو الذي قلته بل قلت كذا وكذا، أو يعتذر فيقول: أرجو المعذرة، أنت فهمتني خطأ، فلم يكن في نيتي أن أسيء لك هكذا، فيجب قبول عذره وإن كنت تعلم يقينًا أنه كاذب؛ لأنه أراق ماء وجهه واعتذر وقال إني لم أقصد. ومن لم يقبل من مؤمن عذرًا فكيف يرجو من الله عزّ وجلّ أن يتجاوز عن أخطائه؟.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية قال: «**لا تصرم أخاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب، لعل له عذرًا وأنت تلوم، صادقًا كان أو كاذبًا، فتنالك الشفاعة**»[2].

ينهى أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية ومن ورائه كل مسلم أن لا يقطع علاقته مع أخيه ويهجره لمجرد الظن والتهمة؛ لأنّ ﴿بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3] كما أخبرنا الباري جلّ جلاله في كتابه الكريم، ولقد شاع في هذه الأيام وخاصة في الفضائيات كيل التهم والافتراءات على الآخرين، وينسبونها إلى مصدر مطّلع من غير ذكر اسمه، ثم تتداولها الناس وكأنها أمر يقيني، مع أنّ مثل هذه الفضائيات تريد إثارة الفتن.

ثم يوصي أمير المؤمنين عليه السلام ولده محمدًا ألاّ يقطع أخاه المؤمن دون استعتاب، أي من غير أن يعاتبه ويصارحه ويكاشفه بما سمع ونقل له، فلعله لم يقله أو لم يفعله أو كان له عذر مقبول في ذلك.

إنّ الحفاظ على العلاقة الإيمانية مسألة مهمة جدًا ينبغي عدم التفريط بها، فهل تعلمون أنّ خمسين بالمائة في الأقل مما ينسبه بعضنا لبعض هو غير صحيح وكذب محض، وأن الخمسين بالمائة الاخرى ليست بالشكل الذي يقولونه، بل ينقلونه بطريقة تنتزع الكلمة من سياقها وتجردها من أجوائها التي قيلت فيها.

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢١٧، ح١.
(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢١٧، ح٢.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وقد ورد هنا أيضًا تأكيد قبول عذر المؤمن سواء كان صادقًا أو كاذبًا، فإن فعل ذلك فقد استحق الشفاعة.

الآثار الدنيوية لرحمة الأخ المؤمن

الرحمة هي الشفقة، فالذي يشفق على أخيه المؤمن ويرحمه يكون مشمولًا بالرحمة الإلهية، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إرحم تُرحم**»[١]، وهذه قاعدة ثابتة؛ فقد ورد في غرر الحكم لأمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ببذل الرحمة تستنزل الرحمة**»[٢]، أي من أراد أن يحصل على الرحمة الإلهية فليبذل رحمته للآخرين.

وورد عنه عليه السلام في غرر الحكم: «**من لم تسكن الرحمة قلبه قلّ لقاؤها له عند حاجته**»[٣]، أي من كان قلبه خاليًا من الرحمة، كما لو كان له أخ مؤمن في ضيق ولم يهمه أمره، سيحرم من هذه الرحمة في وقت حاجته لها، ويبقى حائرًا بنفسه ولا أحد يرحمه.

الآثار الدنيوية لستر العورات والعيوب

ستر عورة المؤمن هو كتمان عيب ونقص الأخ المؤمن لكي لا يظهر، فالإنسان عادة ما يستر عيوبه ونواقصه التي يعلم بها ويحرص على عدم إظهارها للآخرين، وهنا كذلك يجب على المؤمن ستر عيوب إخوانه المؤمنين، فمثلًا إذا ظهرت زلة في كلامهم أو سلوكهم فعليه كتمانها وعدم التشهير بهم، ولستر عيوب المؤمن آثار دنيوية كبيرة.

من ستر عيب أخيه ستر الله عليه

من يستر عيوب المؤمنين فإنّ الله سبحانه وتعالى يستر عيوبه، فقد ورد في كتاب وسائل الشيعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**كان بالمدينة أقوام لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فأسكت الله عن عيوبهم الناس، فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس. وكان بالمدينة أقوام لا**

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٠٠، ح٤٨.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٥٠٥٤.
(٣) غرر الحكم: الحكمة ١٠٣٣٩.

عيوب لهم، فتكلموا في عيوب الناس، فأظهر الله لهم عيوبا لم يزالوا يُعرفون بها إلى أن ماتوا»[١].

يبيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف أنّ ستر الله سبحانه وتعالى على عبده مرهون بسكوته عن الخوض في عيوب الآخرين، وأنّه لو تحدث في عيوب الناس من لا عيب فيهم، فإنّ الله تعالى يُظهر لهم على ألسنة الناس عيوبًا يُشهرون بها إلى أن يموتوا عقابًا لهم في الدنيا، وأنّ من كان ممتلئا بالعيوب من رأسه إلى أخمص قدميه وسكت عن الكلام في عيوب الآخرين، فإنّ الله عزّ وجلّ يستر عليه جميع عيوبه في الدنيا ولا يمكّن أحدًا من الحديث بها.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**»[٢].

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**طلبت الجنة فوجدتها في السخاء، وطلبت العافية فوجدتها في العزلة، وطلبت ثقل الميزان فوجدته في شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وطلبت السرعة في الدخول إلى الجنة فوجدتها في العمل لله تعالى، وطلبت حب الموت فوجدته في تقديم المال لوجه الله تعالى، وطلبت حلاوة العبادة فوجدتها في الجوع والعطش، وطلبت نور القلب فوجدته في التفكر والبكاء، وطلبت الجواز على الصراط فوجدته في الصدقة، وطلبت نور الوجه فوجدته في صلاة الليل، وطلبت فضل الجهاد فوجدته في الكسب للعيال، وطلبت حب الله فوجدته في بغض أهل المعاصي، وطلبت الرئاسة فوجدتها في النصيحة لعباد الله، وطلبت فراغ القلب فوجدته في قلة المال، وطلبت عزائم الأمور فوجدتها في الصبر، وطلبت الشرف فوجدته في العلم، وطلبت العبادة فوجدتها في الورع، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد، وطلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت العز فوجدته في الصدق، وطلبت الذلة ـ الذلة لله بأن يكون الإنسان ذليلًا بين يدي الله سبحانه وتعالى ـ فوجدتها في الصوم، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة، وطلبت الأنس فوجدته في قراءة القرآن، وطلبت صحبة الناس فوجدتها في حسن الخلق، وطلبت رضا الله فوجدته في برّ الوالدين**»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ٢٩٢، ح١٠.
(٢) نهج البلاغة ٢: ٩٦، من كلام له عليه السلام تحت رقم ١٧٦.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢: ١٧٤، ح١٩.

الآثار الدنيوية لتقديم النصيحة

الأثر الأول: الرئاسة والوجاهة

حينما يكون حريصًا على الآخرين يذكر لهم بأدب وبخفية بعض مثالبهم ونواقصهم وإشكالاتهم، وهذا يطلق رسالة أنّ هذا الشخص يحب الخير للجميع، وليس احتكاريًا وليس أنانيًا يريد الخير لنفسه فقط، بل يريد الخير للجميع، ويريد الجميع أن يكونوا مستقيمين في سلوكهم وفي كلامهم وفي تعاملاتهم إلى غير ذلك.

فالنصيحة إذن هي تشخيص سلبية معينة ومحاولة إلفات نظر الأخ المؤمن إليها كي يعدّل المسار، وهذا من شأنه أن يجعل المؤمنين يتمحورون حول هذا الشخص الناصح ويحبونه ويقدرونه؛ لأنهم سيدركون بالتدريج أنه لا يريد أن يكسرهم أو يحرجهم أو يظهر ضعفهم أمام الآخرين، بل يريد أن يقويهم ويدافع عنهم، ويهمس في آذانهم سرًا وبشكل هادئ لتصحيح بعض أقوالهم أو أفعالهم.

الأثر الثاني: المودّة

كما نعرف فإنّ المحبة أمر قلبي، والمودة أمر ظاهري، وهي إظهار المحبة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم قال: «**النصح يثمر المحبة**»[1]، فالإنسان حين ينصح أخاه يولد المحبة بينهما، لأنه سيقول إن هذا حريص عليّ ومهتم بشؤوني ولا يريدني أن أخطئ أو أسقط، فلذلك يتولد نوع من المحبة له.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا قال: «**النصيحة تثمر الودّ**»[2]، أي تولّد المودة بين المؤمنين، وهو أمر خارجي وظاهري كما أشرنا.

آثار قبول النصيحة

كما أنّ تقديم النصيحة له آثار دنيوية وأخروية للناصح، فكذلك قبول النصيحة له آثار دنيوية وأخروية لقابل النصيحة.

---

(١) غرر الحكم: الحكمة ٤٥٤٧.

(٢) غرر الحكم: الحكمة ٤٥٤٨ .

الابتعاد والإعراض عن القبائح

من آثار قبول النصيحة أنّ الذي يقبلها ويصحح مساره يبتعد عن الذنوب والمعاصي والقبائح، فالنصيحة فيها إلفات نظر إلى أنّ الكلمة الفلانية مثلًا غيبة، فيلتفت صاحبها ولا يغتاب مرة أخرى، أو أنّ القول الفلاني كذب وخلاف الواقع، فيقول كنا نمزح، مع أنّ المزاح المخالف للواقع حرام، فلا يجوز لأحد أن يتكلم بكلام خلاف الواقع، سواء كان عن جدّ أو هزل، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب غرر الحكم: «**من أقبل على النصيح أعرض عن القبيح**»[1]، أي من استمع إلى النصيحة وقبل بها ولم تأخذه العزة بالإثم ترك القبيح.

وورد عنه عليه السلام أيضًا في الكتاب المذكور: «**من قبل النصيحة أمن من الفضيحة**»[2]، أي أن قبول النصيحة يؤدى بالإنسان إلى الإقلاع عن الذنب الذي اطّلع عليه من ينصحه، وأنه إن لم يتركه فسيطّلع عليه آخرون وسيشتهر أمره ويفضحه ذنبه.

الآثار الدنيوية لحب المؤمن

قلنا إن من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يحبه، ولهذه المحبة آثار:

الأثر الأول: محبة الله له: فمن أحب أخاه المؤمن أحبه الله سبحانه وتعالى، فقد ورد في كتاب وسائل الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من فضّل الرجل عند الله محبته لإخوانه، ومن عرّفه الله محبة إخوانه أحبه الله، ومن أحبه الله وفّاه أجره يوم القيامة**»[3]. فالذي لا يحب الخير للآخرين وقلبه مملوء حقدًا وكراهية ونقمة تجاه إخوانه المؤمنين، فليعلم أنه ليس بذي حظوة عند الله عزّ وجلّ، وأما من كان قلبه ينبض محبة لإخوانه المؤمنين، فليعلم أنّه صاحب فضل عند الله سبحانه وتعالى، والذي يتفضل عليه الله سبحانه وتعالى ويجعل في نفسه محبة لإخوانه المؤمنين تشمله المحبة الإلهية، ومن أحبه الله وفّاه أجر هذه المحبة يوم القيامة.

---

(١) غرر الحكم: الحكمة ٤٥٨٠.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٤٥٧٩.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ١٨٠، ح١٤.

الأثر الثاني: زيادة الفضل من الله سبحانه وتعالى: ورد في كتاب الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما التقى مؤمنان قط إلاّ كان أفضلهما أشدهما حبًا لأخيه**»(١)، يبيّن الإمام الصادق عليه السلام أنّ ميزان التفاضل بين المؤمنين عند الله عزّ وجلّ هو الحب، فمن كان أكثر محبة لأخيه فهو الأفضل عند الله سبحانه وتعالى، فمستوى الفضل يرتبط بنسبة محبة الإنسان لإخوانه المؤمنين.

الآثار الدنيوية والأخروية للإنصاف

تحدثنا كثيرًا عن أنّ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، ولهذا الإنصاف آثار:

الأثر الأول: إيجاد المحبة للإنسان المنصف

فالموقف المنصف يغرز محبة صاحبه في قلوب الآخرين ويديمها ويرسخها.

لاحظوا ما ورد من حكم عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الباب:

قال: «**الإنصاف يؤلف القلوب**»(٢)، فدواء القلوب المتنافرة هو الإنصاف والعدل، فإذا علم كل طرف أنه غير مغبون استشعر الرضا وزال الاختلاف.

وقال: «**لا تدوم على عدم الإنصاف المودة**»(٣)، أي بدون الإنصاف والعدل لا تدوم المحبة، فإذا وُجِد الإنصاف وُجدت المودة.

وقال: «**الإنصاف يستديم المحبة**»(٤)، أي أنّ العدل يديم المودة مع الآخرين.

وقال: «**بالنصف تدوم الوصلة**»(٥)، أي بإنصاف الناس وإقامة العدل تستمر العلاقة معهم، وبظلمهم تنقطع هذه العلاقة.

وقال: «**مع الإنصاف تدوم الأخوّة**»(٦)، وكذلك تدوم العلاقة بين الإخوان على أساس

---

(١) الكافي ٢: ١٢٧، ح١٥.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٩١١٥.
(٣) غرر الحكم: الحكمة ٩٦١٨.
(٤) غرر الحكم: الحكمة ٩١١٤.
(٥) غرر الحكم: الحكمة ٩١١٨.
(٦) غرر الحكم: الحكمة ٩١٢٤.

العدل، أي أنّ علاقة الأخوّة مهددة بالانقطاع مع عدم الإنصاف، فلا يتكل أحد في ديمومة هذه العلاقة على الأخوّة النسبية أو الإيمانية.

وقال: «**على الإنصاف ترسخ المودة**»(١)، أي تتقوى آصرة الأخوّة وتترسخ باستعمال العدل والإنصاف.

الأثر الثاني: القرب من الله سبحانه وتعالى

فالإنسان المنصف قريب من الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه يحب العدل ويبغض الظلم، والله هو العادل المطلق فيحب من تلبس بثوب العدل، ومن أحبه الله تعالى قرّبه إليه. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**إنك إن أنصفت من نفسك أزلفك الله**»(٢)، أي قرّبك الله لأنه يحب المنصفين.

الأثر الثالث: الشرف

فالإنسان المنصف يعطيه الله سبحانه وتعالى منزلة وشرفًا، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك، فإنّ ذلك أجل لقدرك وأجدر برضا الله سبحانه وتعالى**»(٣)، أي أنصف قبل أن يوقظك الآخرون ويجبروك على الإنصاف، فتعمل بالعدل مرغمًا، وفي ذلك إهانة لك، فمن الأفضل أن تبادر إلى استعمال الإنصاف؛ فإنه أجلّ وأفضل لقدرك ومكانتك، ويعطيك منزلة مرموقة، وكذلك فإن العدل أجدر برضا الله سبحانه وتعالى.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «**من تحلى بالإنصاف بلغ مراتب الأشراف**»(٤)، فالشرف والكرامة يحظى بهما المنصفون.

وجاء في الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام هذا البيت:

إنْ كنْـتَ تطلُـبُ رتبةَ الأشـرافِ   فعليـكَ بالإحسـانِ والإنصافِ(٥)

أي إذا كنت تطلب العزة والشرف في قومك فكن منصفًا وعادلًا.

---

(١) غرر الحكم: الحكمة ٩١١٩.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٩١٠٧.
(٣) غرر الحكم: الحكمة ٩١١٧.
(٤) غرر الحكم: الحكمة ٩١١١.
(٥) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٢٨٤

آثار الدعاء للمؤمن

من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يدعو له، ولهذا الدعاء آثار مترتبة عليه.

الأثر الأول: أنّ الله سبحانه وتعالى يعطي من يدعو لأخيه المؤمن نفس ما طلبه له، وهذه نعمة عظيمة، فالذي تريده لنفسك اطلبه لأخيك المؤمن، وسوف يعطيكه الله تعالى، فقد ورد في كتاب الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من مؤمن دعا للمؤمنين والمؤمنات إلا ردّ الله عزّ وجلّ عليه مثل الذي دعا لهم به من كل مؤمن ومؤمنة، مضى من أول الدهر أو هو آت إلى يوم القيامة، إنّ العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيقول المؤمنون والمؤمنات: يا رب هذا الذي كان يدعو لنا فشفعنا به، فيشفعهم الله عزّ وجلّ به فينجو**»[1].

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك أمرين:

الأول: أنّ الله تعالى يرزق المؤمن من جنس ما يدعو به لأخيه المؤمن، فإن دعا له بسعة الرزق وسّع الله تعالى عليه في رزقه، وإن دعا له بالشفاء شفاه الله تعالى مما به من داء، وإن دعا لأخيه المؤمن بالذرية الصالحة رزقه الله تعالى ذرية صالحة... وهكذا. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الله تعالى يعطيه ما دعا لكل مؤمن ومؤمنة منذ أن خلق الخلق إلى يوم القيامة، فإن قال في دعائه: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فإنه يشمل الماضين منهم واللاحقين، ويعطيه الله تعالى كما يعطي هؤلاء جميعًا.

الثاني: أن الله تعالى يقبل شفاعة من كان يدعو لهم الإنسان عندما يؤمر به إلى النار يوم القيامة بسبب أعماله، فينجو ويدخل الجنة معهم، فالدعاء الدائم للمؤمنين والمؤمنات ضمان لقبول شفاعتهم يوم الحساب، فلنواظب كما علمنا الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[2].

وورد في كتاب الكافي عن علي بن إبراهيم القمي عن أبيه قال: «**رأيت عبد الله بن جندب في الموقف فلم أرَ موقفًا كان أحزن من موقفه؛ ما زال مادًا يديه إلى السماء ودموعه تسيل على خديه حتى تبلغ الأرض، فلما صدر الناس قلت له: يا أبا محمد ما**

---

(١) الكافي ٢: ٥٠٧، ح٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

رأيت موقفًا قط أحسن من موقفك. قال: والله ما دعوت إلا لإخواني، وذلك أنّ أبا الحسن موسى عليه السلام أخبرني أنّ من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش: ولك مائة ألف ضعف، فكرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدري تستجاب أم لا»[1]. وعبد الله بن جندب هو أحد الأجلاء من أصحاب الأئمة (عليهم السلام)، والموقف هو موقف عرفات أيام الحج، فما أعظم الحالة التي كان عليها من الحزن، وما أعظم الزمان والمكان اللذين اختارهما هذا المؤمن ليدعو لإخوانه المؤمنين، تاركًا الدعاء لنفسه، تسليمًا لما سمعه من الإمام الكاظم عليه السلام، وبمعادلة حسابية بسيطة يعرفها كل عاقل، فإنّ مائة ألف دعوة مضمونة الاستجابة أفضل من دعوة واحدة لا يدري أيستجاب له فيها أم لا، ولهذا فقد آثر إخوانه بالدعاء لتقضى حوائجهم وحوائجه في آن معًا.

لقد كان يكفيه أن يدعو لإخوانه وهو في حالته العادية، ولكنه اختار أن يدعو بتضرع وبكاء وتوسل رافعًا يديه من وقت الظهيرة إلى الغروب في لهيب الشمس المحرقة، حيث يختار الآخرون اللجوء إلى الظل والقيلولة في ساعات من العمر، وربما لا يكتب لهم التوفيق للوقوف في هذا المكان مرة أخرى، ولكن من كان من أمثال عبد الله بن جندب لا تفوته مثل هذه الفرص الذهبية. وانظروا إلى البعض منا كم هو أناني؛ فهو مع علمه بهذا الحديث، عندما يذهب للزيارة ويمسك الضريح يذكر حاجات نفسه ولا يذكر حاجات إخوانه المؤمنين، فعلينا أن نتعلم ثقافة الدعاء، وكيف ندعو لإخواننا وأرحامنا وأصدقائنا.

الآثار الدنيوية والأخروية لنصرة المؤمن وقضاء حاجته

من حقوق المؤمن على أخيه المؤمن نصرته وقضاء حوائجه، ولهما مجموعة من الآثار العظيمة:

الأثر الأول: إغضاب إبليس

فالمؤمن عندما يقضي حاجة أخيه المؤمن يصاب إبليس لعنه الله بالغضب ويتلقى صفعة موجعة، فقد ورد في كتاب الكافي عن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله

---

(١) الكافي ٢: ٥٠٨، ح٦.

عليه السلام: «**أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلا خمش وجه إبليس وقرّح قلبه**»[1]، يطلب الإمام الصادق عليه السلام من أحد أصحابه الأجلاء ـ وهو إسحاق بن عمار ـ أن يحسن إلى شيعته، بكل طرق الإحسان ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنه إن فعل ذلك فقد أدمى بأظفاره وجه إبليس اللعين وأحرق قلبه وأدخل عليه الحزن.

الأثر الثاني: قضاء حاجته

أي أنّ الله عزّ وجلّ يتكفل بقضاء حاجة المؤمن الذي يقضي حوائج إخوانه، وهو أثر مباشر، فقد ورد في بحار الأنوار عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من قضى لمؤمن حاجته قضى الله له حوائج كثيرة أدناهنّ الجنة**»[2]، وإذا كان أدنى حوائج المؤمن هي الجنة فلعل أبعدها أو أكبرها هي الفوز برضوان الله تبارك وتعالى، كما جاء ذلك في آيات من الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

وفي المصدر نفسه رواية مهمة عن حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام: قال: «**من قضى لأخيه حاجته فبحاجة الله بدأ، وقضى الله له بها مائة حاجة إحداهن الجنة، ومن نفّس عن أخيه كربة نفّس الله عنه كرب القيامة بالغًا ما بلغت، ومن أعانه على ظالم له أعانه الله على إجازة الصراط عند دحض الأقدام، ومن سعى له في حاجة حتى قضاها له فسرّ بقضائها فكان كإدخال السرور على رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن سقاه من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن أطعمه من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن كساه من عري كساه الله من استبرق وحرير، ومن كساه من غير عري لم يزل في ضمان الله ما دام على المكسي من الثوب سلك، ومن كفاه بما هو يمتهنه ويكف وجهه ويصل به يده أخدمه الله الولدان المخلدين، ومن حمله على رحله بعثه الله يوم القيامة إلى الموقف على ناقة من نوق الجنة يباهي به الملائكة، ومن كفنه عند موته فكأنما كساه من يوم ولدته أمه إلى يوم يموت، ومن زوجه زوجة يأنس بها ويسكن إليها آنسه الله في قبره بصورة أحب أهله**

(١) الكافي ٢: ٢٠٧، ح٩.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٥، ح٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

إليه، ومن عاده عند مرضه حفته الملائكة تدعو له حتى ينصرف وتقول: طبت وطابت لك الجنة. والله لقضاء حاجته أحب إلى الله من صيام شهرين متتابعين باعتكافهما في الشهر الحرام»[1].

ذكر الإمام السجاد عليه السلام في هذه الرواية المباركة جزاء مساعدة المؤمن في ثلاثة عشر موردًا هي:

١. إنّ قضاء حاجة الأخ المؤمن هي بمنزلة قضاء حاجة الله سبحانه وتعالى، وجزاؤها أنّ الله تعالى يقضي له مائة حاجة إحداهن الجنة.

٢. جزاء من نفّس عن الأخ المؤمن كربته هو أن يُنفّس الله عنه كربه يوم القيامة مهما بلغت كثرة.

٣. جزاء من أعان الأخ المؤمن على ظالم له هو أعانة الله له على عبور الصراط في يوم تزل فيه الأقدام.

٤. جزاء من سعى في حاجة الأخ المؤمن حتى قضاها له ففرح بقضائها هو كجزاء إدخال السرور على رسول الله صلى الله عليه وآله.

٥. جزاء من سقى الأخ المؤمن من العطش أنّ الله تعالى يسقيه من الرحيق المختوم.

٦. جزاء من أطعم الأخ المؤمن من الجوع هو أنّ الله تعالى يطعمه من ثمار الجنة.

٧. جزاء من كسا الأخ المؤمن من عري ـ أي لم تكن عنده ملابس ـ أن يكسوه الله تعالى من حرير الجنة.

٨. من كسا الأخ المؤمن من غير عري ـ أي كانت عنده ملابس ولكن أعطاه أفضل منها ـ لم يزل في ضمان الله تعالى حتى آخر خيط منها.

٩. من كفى الأخ المؤمن بما هو يمتهنه ـ كما لو كان نجارًا فعمل لبيته أبوابًا ـ فكف بها وجهه عن سؤال الآخرين ووصل بها يده، أخدمه الله تعالى الولدان المخلدين.

١٠. جزاء من حمل الأخ المؤمن –في سيارته– هو أن يبعثه الله يوم القيامة على ناقة من نوق الجنة يباهي به الملائكة.

١١. جزاء من كفن الأخ المؤمن عند موته كجزاء كسوته من يوم ولدته أمه إلى يوم يموت.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٠٣، ح٤٧.

١٢. جزاء من زوج الأخ المؤمن زوجة يأنس بها ويسكن إليها هو أن يؤنسه الله تعالى بصورة أحب أهله إليه.
١٣. جزاء من عاد الأخ المؤمن عند مرضه هو أن تحفه الملائكة وتدعو له حتى ينصرف وتقول له: طبت وطابت لك الجنة.

ثم يختم الإمام السجاد عليه السلام كلامه بذكر أهمية قضاء حاجة المؤمن ومنزلتها عند الله (تبارك وتعالى) فيقول: «**والله لقضاء حاجته أحب إلى الله من صيام شهرين متتابعين باعتكافهما في الشهر الحرام**»، أي أنّ ثوابه لا يحصيه إلاّ الله تعالى.

الأثر الثالث: نصر الله سبحانه وتعالى وتسديده وعونه لمن يقضي حوائج المؤمنين

فمن ينصر المؤمن كمن ينصر الله سبحانه وتعالى، ومن ينصر الله فالله سبحانه وتعالى ناصره، كما صرّح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

وورد تأكيد ذلك أيضًا في الروايات الشريفة، منها ما جاء في بحار الأنوار عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما من مؤمن يدخل بيته مؤمنين فيطعمهما شَبَعَهما إلاّ كان ذلك أفضل من عتق نسمة، وما من مؤمن يقرض مؤمنًا يلتمس به وجه الله إلاّ حسب الله له أجره بحساب الصدقة، وما من مؤمن يمشي لأخيه في حاجة إلاّ كتب الله له في كل خطوة حسنة، وحط عنه سيئة، ورفع له بها درجة، وزيد بعد ذلك عشر حسنات، وشُفّع في عشر حاجات، وما من مؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب إلاّ وكّل الله له ملكًا يقول: ولك مثل ذلك، وما من مؤمن يفرج عن أخيه كربة إلا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة، وما من مؤمن يعين مؤمنًا مظلومًا إلاّ كان له أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلاّ نصره الله في الدنيا والآخرة**»[2].

يذكر الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة ثواب سبعة أعمال صالحة، ترغيبًا للمؤمنين في القيام بها، وهي:

الأول: ثواب إطعام اثنين من المؤمنين أفضل من ثواب عتق رقبة، أي أكثر ثوابًا من تحرير إنسان من العبودية.

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣١١، ح٦٧.

الثاني: ثواب إقراض مقدار من المال لمؤمن محتاج طلبًا لوجه الله تعالى يساوي ثواب الصدقة بذلك المقدار.

الثالث: ثواب من يمشي لأخيه في حاجة هو أن له في كل خطوة حسنة، وأن يمحو عنه في كل خطوة سيئة، ويرفع له بكل خطوة درجة، ويزيد بعد ذلك في كل خطوة عشر حسنات، ويُشفّع في كل خطوة في عشر حاجات يقضيها الله تعالى له.

الرابع: ثواب من يدعو لأخيه بظهر الغيب أن يأمر الله تعالى ملكًا بأن يدعو له بمثل ما يدعو لأخيه، ودعاؤه مستجاب.

الخامس: جزاء من فرّج عن أخيه كربة أن يفرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة، أي من حل مشكلة لأخيه في الدنيا حل الله تعالى له مشكلة من مشاكل يوم القيامة، ولا قياس بين كرب الدنيا وكرب الآخرة، فإنّ كرب الدنيا زائلة لا محالة، وكرب الآخرة دائمة لا زوال لها.

السادس: ثواب من أعان مؤمنًا مظلومًا أفضل من ثواب صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وهو الشاهد. وإذا علمنا أنّ ثواب الصوم يتولاه الله تعالى بنفسه، نعلم عظمة الثواب الذي سيحصل عليه من فرّج كربة مؤمن.

السابع: جزاء نصرة المؤمن هو نصرة الله تعالى له في الدنيا والآخرة.

وفي بحار الأنوار أيضًا رواية أُخرى عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**إنّ الله في عون المؤمن ما دام المؤمن في عون أخيه المؤمن، ومن نفّس عن أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه سبعين كربة من كرب الآخرة**»[1].

يذكر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا الحديث المبارك أمرين في علاقة المؤمن بأخيه المؤمن ويحث عليهما رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل.

الأمر الأول: أنّ الله تعالى مستمر في إعانة المؤمن ما دام المؤمن مستمرًا أيضًا في إعانة أخيه المؤمن، فإن ترك تقديم هذا العون ترك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إعانته وأوكله إلى نفسه.

الأمر الثاني: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفرّج عمن حل لأخيه مشكلة من مشاكل الدنيا سبعين كربة من كرب الآخرة.

وورد في كتاب الكافي الشريف عن زيد الشحام قال: «**سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفّس كربته وأعانه على نجاح**

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١١، ح٦٩.

حاجته، كتب الله ﷻ له بذلك ثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله»(١). اللهفان : المكروب، واللهثان : العطشان.

يحدثنا الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة أنّ المؤمن إذا أدرك أخاه المؤمن المكروب في ساعة حاجته فساعده وأغاثه وقضى حاجته، أعطاه الله ﷻ بذلك اثنتين وسبعين رحمة، وليس حسنة ـ فرحمة الله واسعة لا حدود لها، وكل ما في الوجود هو مظهر من مظاهر رحمة الله ﷻ ـ يُعجّل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته في الدنيا، ويدخر له إحدى وسبعين ليتحفه بها في الآخرة. هذا كله لمن نفّس عن مؤمن كربة واحدة، فكيف إذا تكرر منه هذا الفعل مرات ومرات، فمعنى ذلك أنه سيعيش في بحبوحة يغبطه عليها الآخرون، فما أيسر العمل وأعظم النتيجة لمن أراد خير الدنيا والآخرة.

وفي رواية أُخرى في كتاب الكافي أيضًا عن ذريح المحاربي قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أيّما مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو معسر، يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة. قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة. قال: والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير**»(٢).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية نتيجة عمل الخير في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: جزاء مساعدة مؤمن فقير يعاني من تعسّر أُموره المعيشية، هو أن ييسر الله تعالى له حوائجه في الدنيا والآخرة، فلا يدع له حاجة إلاّ قضاها له من غير أن يسأله.

الحالة الثانية: جزاء ستر وكتمان عورة مؤمن يخاف ظهورها وفضيحتها، هو أن يستر الله تعالى عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، فلا يفتضح أمره لا في الدنيا ولا في الآخرة وتكون نسيًا منسيًا.

الحالة الثالثة: جزاء عون الأخ المؤمن، هو أن يكون الله تعالى بنفسه عونًا له، ومن كان الله ﷻ معينًا له كان موفقًا في جميع شؤون حياته، واستغنى عن طلب العون من الآخرين.

---

(١) الكافي ٢: ١٩٩، ح١.

(٢) الكافي ٢: ٢٠٠، ح٥.

ثم يطلب الإمام الصادق عليه السلام من المؤمنين الانتفاع بهذه المواعظ وأن يعملوا بها، وأن يرغبوا في عمل الخير إلى الناس، ولا يزهدوا في مساعدة قليلة، فإنّ نتائجها جليلة خطيرة.

الأثر الرابع: إزالة القلق والكربات يوم القيامة

وقد مرّ آنفًا أنّ من ينفّس كربة مؤمن في الدنيا فإنّ الله تعالى ينفّس عنه كربات الآخرة، كما مرّ في العديد من الروايات التي تلوناها.

ووردت في هذا السياق أيضًا في كتاب الكافي هذه الرواية المؤثرة، فقد روى محمد بن جمهور قال: «**كان النجاشي ـ وهو رجل من الدهاقين ـ عاملاً على الأهواز وفارس، فقال بعض أهل عمله لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ في ديوان النجاشي عليّ خراجًا، وهو مؤمن يدين بطاعتك، فإن رأيت أن تكتب لي إليه كتابًا، فكتب إليه أبو عبد الله عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم سُرّ أخاك يسرّك الله. قال: فلما ورد الكتاب عليه دخل عليه وهو في مجلسه، فلما خرج الناس وبقي وحده ناوله الكتاب وقال: هذا كتاب أبي عبد الله عليه السلام. قال: الإمام الصادق كتب لي؟ قال: نعم، فقبّله ووضعه على عينيه، وقال له: ما حاجتك؟ قال: خراج عليّ في ديوانك. فقال له: وكم هو؟ قال: عشرة آلاف درهم. فدعا كاتبه وأمره بأدائها عنه، ثم أخرجه منها، وأمر أن يثبتها له لقابل، ثم قال له: سررتك؟ فقال: نعم جعلت فداك. ثم أمر له بمركب وجارية وغلام وأمر له بتخت ثياب، في كل ذلك يقول له: هل سررتك؟ فيقول: نعم جعلت فداك، فكلما قال نعم زاده حتى فرغ، ثم قال له: احمل فرش هذا البيت الذي كنت جالسًا فيه حين دفعت إليّ كتاب مولاي الذي ناولتني فيه وارفع إليّ حوائجك. قال: ففعل، وخرج الرجل فصار إلى أبي عبد الله عليه السلام بعد ذلك، فحدثه الرجل بالحديث على جهته، فجعل يسرّ بما فعل، فقال الرجل: يا ابن رسول الله كأنه قد سرّك ما فعل بي؟ فقال: إي والله لقد سرّ الله ورسوله**»(١).

الدهقان: معرّب يُطلق على رئيس القرية، وعلى التاجر، وعلى من له مال وعقار.

يقص محمد بن جمهور الراوي لهذه الحادثة ما دار بين النجاشي ـ الوالي من قبل الدولة العباسية على مقاطعتي الأهواز وفارس، وكان من الموالين لأهل البيت عليهم السلام وبين أحد الشيعة الذي كان يعيش في ظل سلطته في إحدى هاتين المدينتين، وكان صاحب أرض

(١) الكافي ٢: ١٩٠، ح٩.

زراعية وعليه أن يدفع للوالي ضرائب قد أثقلت كاهله ولا يستطيع دفعها، وإن لم يفعل فإنّ الأرض ستؤخذ منه فيقع في فقر أشد، فلجأ إلى الإمام الصادق عليه السلام يشفّعه عند النجاشي ـ وكان على علم بأنه من الموالين له ـ بأن يمحو عنه هذه الديون التي في ذمته للدولة العباسية، فكتب إليه الإمام الصادق عليه السلام بعد البسملة جملة مختصرة وهي: «**سرّ أخاك يسرّك الله**»، أي أفرح أخاك يفرحك الله.

وفي هذا الكتاب دروس وعبر، منها أنّ الإمام الصادق عليه السلام لم يفصح فيه عن اسم المرسِل والمرسَل إليه ولا عن حاجة صاحب الكتاب في إسقاط ما بذمته من ديون للدولة، لئلا يقع الكتاب بأيديهم فيسبب مشكلة كبيرة للوالي ولحامل الكتاب، وكان عليه السلام يعلم ما للنجاشي من فطنة يفهم بها ما يرمي إليه الإمام، وكأنه كان يعرف خط الإمام فلم يشكك به بل قبّله ووضعه على عينيه وعمل بما فيه، وسرّ أخاه سرورًا عظيمًا بحيث أعطاه أكثر مما يتوقع أضعافًا مضاعفة وأكرمه إكرامًا كبيرًا، ويحدثنا الراوي أنّ عمله هذا في قضاء حاجة أخيه المؤمن قد سرّ الإمام الصادق عليه السلام، بل سرّ الله سبحانه وتعالى في عرشه، ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله، وكذا ينبغي أن يكون المؤمن لأخيه المؤمن.

المحور السادس

الوسائل والطرق لتحقيق الأخوّة الإيمانية

تبيّن من خلال الأبحاث السابقة أنّ بناء العلاقة الإيمانية ورعاية حقوق الإخوان من أصعب الأمور، ولكن الله سبحانه وتعالى يُعين الإنسان على هذا الأمر، كما مرّ علينا في حديث طويل عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «**وكما لا يقدر أحد أن يصف فضلنا وما أوجب الله من حقوقنا، فكذلك لا يقدر أحد أن يصف حق المؤمن ويقوم به مما أوجب الله على أخيه المؤمن**»(١). إذن الوفاء بهذه العلاقة وأداء حقوق المؤمنين أمر في غاية الصعوبة، ولكن هذا لا يمنع من أن يبذل الإنسان جهده ويسعى إلى أن يبني هذه العلاقة الإيمانية بشكل أوسع، وأن يفي بالحقوق بين الإخوان التي أشرنا إليها بالتفصيل.

وهناك العديد من الوسائل والطرق لبناء هذه العلاقة وتعميقها وترسيخها، والوفاء بالحقوق بين الإخوان التي استعرضناها بالتفصيل في لقاءاتنا السابقة، وهذه الوسائل على صنفين؛ فهناك وسائل علمية، وهناك وسائل عملية.

أولًا: الوسائل العلمية

أما الوسائل العلمية التي من خلالها نعزز الأخوّة الإيمانية ونلتزم ونفي بالحقوق بين الإخوان فهي:

الوسيلة الأولى: العلم والمعرفة

إن العلم والمعرفة هما المقدمة الأساسية لأي عمل إرادي، فأي عمل إرادي مهما كان بسيطًا، كما لو أراد أحد أن يشرب ماء، فقبل أن يمد يده ويشرب الماء يجب أن تكون عنده معرفة وعلم ووضوح بأنّ شرب الماء مفيد له نتيجة العطش الذي عنده، فيشعر بالرغبة والحاجة، فالحاجة هي معرفة يعرف بها ويستشعرها ويدركها، فإذا أدرك هذه الحاجة تولدت عنده رغبة وشوق نحو شرب الماء، وهذه الرغبة تولد إرادة، فتنبثق عنده إرادة لشرب الماء فيشرب.

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٢٦، ح١٨.

مثال آخر: شخص نائم مرتاح ولكنه يستيقظ على أذان الصبح فيستذكر أهمية الصلاة، هذه معرفة، فتتولد عنده رغبة، وهذه الرغبة تعطيه اندفاعًا وتولد عنده إرادة، فينهض من الفراش ويذهب لأداء الصلاة. ومثال ثالث: إنسان عطشان وجوعان في شهر رمضان، ولكنه يستذكر أهمية الصيام والطاعة لله ﷻ، وهو ما يتطلب الامتناع عن الشراب والطعام، وهذه معرفة أنّ الطعام والشراب وهو صائم أمر لا يجوز، وأنّ الوفاء بحق الله تعالى وطاعته يوجب ألا يأكل ولا يشرب بالرغم من عطشه وجوعه، وهذه المعرفة تولد عنده انزجارًا عن الطعام والشراب في الصيام، وهذا الانزجار يولد إرادة بترك الطعام والشراب.

إذن فكل فعل سواء كان فعل شيء أو ترك شيء، إنما أساسه يبدأ من المعرفة والعلم بوجود مصلحة ومنفعة أو بوجود مضرة للإنسان في أن يفعل كذا أو أن يترك كذا، وهذه المعرفة وهذا العلم شرط أساسي لكل فعل إرادي، ويمكن أن يكون أساسًا في ما نحن فيه، فحينما يعلم الإنسان بحقوق الإخوان وأهمية العلاقة الإيمانية والدور الكبير الذي تفي به هذه العلاقة، والذي شرحناه بالتفصيل، مما نحصل عليه من خلال هذه الأخوّة في الدنيا والآخرة، حينما نعرف ذلك ونستحضره ونلتفت إليه يتولد عندنا شوق واندفاع إلى بناء هذه العلاقة، وهذا الشوق يوجد لدينا إرادة، وهذه الإرادة تساعدنا في بناء العلاقة الإيمانية والتغلب على الصعاب.

إذن فالعلم والمعرفة أمر مهم، وهو الذي يساعد الإنسان على اكتشاف أهمية هذا الحق، ثم الشوق إليه والرغبة فيه وانبثاق الإرادة لتحقيقه فيحصل العمل، ويبني هذه العلاقة ويتحمل صعوباتها.

هذه المعرفة بشأن الحقوق الإيمانية وأصل العلاقة بين المؤمنين يمكن أن تتنوع في اتجاهات عديدة؛ منها المعرفة بحقوق المؤمنين وآداب هذه العلاقة، واستحضار هذه الحقوق الثلاثين ــ ونِعمَ ما صنع الإخوة حينما وضعوها على جدار لكي نقرأها دائمًا ونستذكرها ــ واستذكارها ومراجعتها بشكل مستمر، كي نعرف ما هو حق المؤمن على أخيه المؤمن.

وهذه الحقوق الثلاثون وآداب العلاقة بين المؤمنين بحد ذاتها تساعد إلى حد كبير على إنجاز ما هو مطلوب في بناء هذه العلاقة، ولذلك نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام كثيرًا من الأسئلة التي توجه من أتباع أهل البيت إلى الأئمة عليهم السلام، يسألون فيها عن هذه

الحقوق، ففي مئات الروايات نجد أن السائل من أصحاب الأئمة عليهم السلام يسألهم عن حق الإخوان، وما هو حق الأخ في هذه القضية، وكان رسولنا الكريم والأئمة الأطهار عليهم السلام يجيبونهم بحسب ظروف الزمان والمكان والسائل ومستواه الثقافي والمعرفي، ولذلك وجدنا أجوبة فيها إيجاز وأجوبة فيها تفصيل، وأسئلة تركز على جوانب وأسئلة تركز على جوانب أخرى، وأجوبة تنظر إلى القضية بشمولية أوسع، كرواية أمير المؤمنين عليه السلام التي يستعرض فيها الحقوق الثلاثين بأكملها.

هذا إذن مدخل؛ فكلما عرفنا الحقوق استعرضناها، وكلما تعرفنا على آداب هذه العلاقة اندفعنا لبناء العلاقة بشكل صحيح وسليم.

الوسيلة الثانية: المعرفة بآثار هذه العلاقة

ما فائدة مصافحة المؤمن؟ وما فائدة نصرة المؤمن؟ وما فائدة السلام على المؤمن؟ هذا الذي بحثناه في الأيام الأخيرة الماضية؛ أي آثار الحقوق في الدنيا وآثارها في الآخرة، فقد استعرضنا الآثار الدنيوية والأخروية لكل حق من الحقوق، ونحن حين نستعرضها نعرف أنّ القيام بهذه العلاقة فيه هذه الفوائد، وسنحصل على كذا في الدنيا، ونحصل على كذا في الآخرة، وهذا من شأنه أن يدفع الإنسان لبناء هذه العلاقة، وسنعرف أيضًا الآثار الناجمة من عدم مراعاة هذه الحقوق، كمن أذل مؤمنًا أو أهانه أو خذله، أنه سيحدث له كذا في الدنيا وسيحصل له كذا في الآخرة، فهذه الآثار حين نستحضرها تمنعنا من التنصل ومن عدم الالتزام، فالمعرفة بآثار الحقوق وثوابتها وتوابعها في الدنيا والآخرة تدفع الإنسان أيضًا إلى الالتزام بها.

الوسيلة الثالثة: الالتفات إلى عظمة مكانة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى

هنا لا يتعلق الأمر بجلب منفعة ودفع ضرر كما هو في الأمر الأول؛ حين نلتفت إلى حقوق الإخوان ونستحضرها فيتولد عندنا اندفاع ونرى أنّ لدينا مصلحة في هذا الأمر، وليس كما في الأمر الثاني؛ حين نرى وندرس الآثار المترتبة على مراعاة حقوق الإخوان أو عدم مراعاتها من جنة أو نار، خوفًا أو طمعًا، فنندفع لبناء هذه العلاقة، بل الاندفاع في الأمر الثالث يكون تقديرًا لأهمية المؤمن ومكانته.

ومثال العلاقة المبنية على أساس المصلحة: أن تكون عندنا قضية ما أو حاجة ما عند

إنسان معيّن، فنسلم عليه كي يرانا ويذكرنا عندما نذهب إليه، أو إذا كان عنده مجلس فاتحة نذهب إليها لأنه مدير عام ونحن بحاجة إليه، مع أننا لا نذهب إلى كثير من مجالس الفواتح، ونريه أنفسنا ونصافحه جيدًا لكي يتذكرنا حينما نذهب إليه في الدائرة في اليوم الثاني فيسهل لنا قضيتنا، إذن يبني أحدنا أحيانًا علاقة مع أُناس معينين لأجل مصلحة، وأحيانًا لدفع ضرر؛ فنسلم بحرارة على الشخص الشرير كي لا يأخذ عنا انطباعًا سلبيًا ويرسل لنا في اليوم التالي من يؤذينا، ومرة نبني هذه العلاقة مع شخص لا على أساس مصلحة ولا على أساس خوف أو ضرر منه، كما لو كنت في حرم أحد المعصومين فرأيت العالم الفلاني فذهبت لتسلم عليه، مع أنك ليست لديك مصلحة معه ولا تخشى منه ضررًا، بل لأنه عالم وفاضل وشخصية دينية، وكما لو رأيت لاعب كرة معروفًا فذهبت لتلتقط معه صورة لأنه نجم رياضي، لا خوفًا منه ولا طمعًا فيه، بل لشهرته وذياع صيته.

إننا نبني أحيانًا علاقة إيمانية لجلب المنفعة والحصول على آثارها في الدنيا والآخرة، وتارة نبني هذه العلاقة لدفع الضرر كالخوف من النار والإصابة بسوء في الدنيا، كما لو خذلنا مؤمنا وتقاعسنا عن نصرته، وتارة نبني هذه العلاقة لا لمصلحة ولا لطمع ولا لخوف، وإنما لمكانة المؤمن وتقديره وعظم منزلته عند الله عزّ وجلّ.

وقد وردت أحاديث مهمة حول الموضوع، نقتصر على ما روي عن الإمام الباقر (سلام الله عليه) أنه استقبل الكعبة وقال: «**الحمد لله الذي كرمك وشرفك وعظمك وجعلك مثابة للناس وأمنًا، والله لحرمة المؤمن أعظم منك**»[1]. يبيّن الإمام الباقر عليه السلام مفهومًا غائبًا عن أذهان كثير من المسلمين الذين يتصورون أن حرمة الكعبة أشد من حرمة المؤمن، ويعيد رسم الصورة الصحيحة من داخل المسجد الحرام وقد استقبل الكعبة أمام جمع من المسلمين، ثم نطق بهذه الكلمات التي تبيّن أنّ حرمة المؤمن أشد وأعظم من حرمة الكعبة عند الله عزّ وجلّ، ويقسم على ذلك، ولهذا تجب مراعاة حرمة المؤمن أكثر من مراعاة حرمة الكعبة.

وورد ت في كتاب الكافي الشريف مجموعة من الروايات التي تشير إلى مكانة المؤمن وعظمة هذه المكانة عند الله سبحانه وتعالى، نتبرك بقراءة بعض منها:

عن هشام بن سالم قال: «**سمعت أبا عبد الله الصادق** عليه السلام **يقول: قال الله** عزّ وجلّ: **فليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن، وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن، ولو**

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٣.

لم يكن في خلقي في الأرض في ما بين المشرق والمغرب إلّا مؤمن واحد مع إمام عادل لاستغنيت بعبادتهما عن جميع ما خلقت في أرضي، ولقامت سبع سماوات وأرضين بهما، ولجعلت لهما من إيمانهما أنسًا لا يحتاجان إلى أنس سواهما»[1].

يروي الإمام الصادق عليه السلام هذا الحديث القدسي المبارك الذي يوضح ثلاثة أُمور تتعلق بمنزلة العبد المؤمن عند الله سبحانه وتعالى:

الأول: الدفاع عن المؤمن

فقد تكفل الله عز وجل بالدفاع عن المؤمن والانتقام ممن يؤذيه فقال: «**فليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن**»، أي فليستعد من آذى مؤمنًا لإعلان الحرب عليه من الله سبحانه وتعالى، والذي يحارب الله مغلوب لا محالة، فالإنسان الذي تؤذيه بعوضة ولا يستطيع لها دفعًا، وتقتله الشرقة وتخنقه العبرة، كيف يستطيع مواجهة جبار السماوات والأرض؟ لا شكَّ في أنّ الله عز وجل سيدمره تدميرًا.

الثاني: الأمان من غضب الله سبحانه وتعالى

فقال عز من قائل: «**وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن**»، فإكرام المؤمن وتقديره والإحسان إليه تؤدي إلى الأمان من غضب الله سبحانه وتعالى، فعند نزول الغضب الإلهي الذي لا ينفك نازلاً على أهل القرى والمدن الظالمة، سينجو منه المؤمن ومن يكرمه، وسيلقى الباقون مصيرهم المحتوم ليخسروا الدنيا والآخرة.

الثالث: استغناء الله سبحانه وتعالى بمؤمن واحد مع الإمام العادل الحجة على أهل الأرض عن سائر الخلق

إنّ فلسفة خلق الله تعالى للإنسان هي من أجل عبادته سبحانه وتعالى، أي طاعته في ما أمر ونهى، كما بيّن ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، ويخبرنا هذا الحديث القدسي المبارك أنّ هذه الغاية تتحقق بوجود مؤمن واحد فقط مع الإمام المعصوم الحجة على أهل الأرض، ينقاد له ويسمع ويطيع، فإذا فُقد مثل هذا الإنسان المؤمن انتفت الحكمة من وجود الخلق، وهذا الأمر يوضح عظيم منزلة المؤمن وكرامته على الله سبحانه وتعالى.

وهذا يعني أيضًا أنّ المؤمن لا يمكن أن يستغني عن الإمام الحجة العادل، وأن الأرض والسماوات لا تقوم بوجود المؤمنين من غير هذا الإمام العادل، وقد جاء هذا المعنى في

(١) الكافي ٢: ٣٥٠، ح١.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

روايات عديدة، منها قول الإمام الرضا عليه السلام: «**لو خلت الأرض طرفة عين من الحجة لساخت بأهلها**»[1]. وبيّن هذا الحديث القدسي المبارك أيضًا أنّ الله تعالى يجعل لهذا المؤمن والإمام العادل من إيمانهما أنسًا لا يحتاجان معه إلى أنس سواهما، ويستغنيان عن جميع الناس، فلا يشعران بالغربة والوحشة، ولا شكَّ في أنّ هذا الأُنس الذي يتحف به الله سبحانه وتعالى عبده المؤمن يفصح عن عظمة منزلة المؤمن عنده سبحانه وتعالى.

وورد في رواية أخرى عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الصدود لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم، ثم يؤمر بهم إلى جهنم**»[2].

يستعرض الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الشريفة مشهدًا من مشاهد يوم القيامة؛ حينما ينادي ربّ العزة والجلالة بنفسه: أين الصادّون لأوليائي؟ أي من صدّ وعادى المؤمنين وأعرض عنهم؟ وكان الله سبحانه وتعالى قد وسمهم بعلامة يعرفهم من خلالها كل أحد، فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، ونحن نرى قريبًا لهذه الوجوه الصورة في الأشعة كيف يكون شكلها مخيفًا، فاللحم هو الذي يستر وجوه الآدميين ويجعلها حسنة المنظر، ولولا هذا اللحم لكانت أشكالنا مخيفة، فإذا قام هؤلاء من صفوف الخلق، ينادي منادٍ من الملائكة: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنّفوهم في دينهم، فيأمر الله سبحانه وتعالى بهم إلى النار وبئس المصير.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: «من أهان لي وليًا فقد أرصد لمحاربتي**»[3].

هذا حديث قدسي يرويه الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله سبحانه وتعالى. ويبيّن هذا الحديث القدسي أنّ إهانة المؤمن وإذلاله بمنزلة الإرصاد لمحاربة الله عز وجل، فليحذر أولئك الذين يستضعفون المؤمنين، وليعلموا أنهم إنما يحاربون الله العزيز الجبار القهار المنتقم، وأنهم لا محيص يعرضون أنفسهم لأقصى درجات الخطر والعقوبة في الدنيا والآخرة، وأنهم لا سبيل لهم للنيل من المؤمن إلا قتله وفي ذلك عزة له في الدنيا والآخرة، ولكنهم في مقابل ذلك سيكونون هم الأذلاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٠٩، ح٨.
(٢) الكافي ٢: ٣٥١، ح٢.
(٣) الكافي ٢: ٥١، ح٣.

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضًا قال: «**من حقّر مؤمنًا مسكينًا أو غير مسكين لم يزل الله عزّ وجلّ حاقرًا له ماقتًا حتى يرجع عن محقرته إياه**»(١).

يبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الشريفة عقوبة إذلال المؤمن، سواء كان مسكينًا أو لم يكن مسكينًا، وهي أولاً: الاحتقار الدائم له من الله سبحانه وتعالى ما لم يرجع ويتُب إلى ربه، وثانيًا: البغض الدائم له من الله سبحانه وتعالى ما لم يرجع ويتُب.

وفي رواية أُخرى عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لمّا أُسري بالنبي قال: يا ربّ ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددي عن وفاة المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاّ الغنى وإن صرفته إلى غير ذلك لهلك، وما يتقرب إليّ عبد من عبادي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت إذًا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته**»(٢).

ينقل لنا الإمام الباقر عليه السلام مقطعًا من الكلام الذي دار بين الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله ليلة أُسري به، فقد سأله عن حال المؤمن عنده؟ فأجاب عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وآله بالحقائق التالية:

أولاً: أنّ من أهان وأذل وليًا من أولياء الله عزّ وجلّ فقد أعلن الحرب على الله، وحينها سيتدخل بسرعة لنصرته، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾(٣) كما في الآية الشريفة.

ثانيًا: أنّ الله تعالى لا يتردد في شيء يفعله إلاّ في قبض روح المؤمن الذي يكره الموت، ويكره الله تعالى الإساءة إليه، فيبتليه الله سبحانه وتعالى عندها ببعض الابتلاءات كشدة المرض فيتمنى عندها الموت فتقبض روحه.

ثالثًا: أنّ من عباد الله المؤمنين من لا يُصلح دينه إلاّ الغنى، ولو ابتلاه بالفقر لكفر وهلك، وأنّ منهم من لا يصلح دينه إلاّ الفقر، فإن أغناه لكفر وهلك، فالبعض يحافظ على إيمانه بالغنى، والبعض الآخر يحافظ على إيمانه بالفقر، فالله سبحانه وتعالى

---

(١) الكافي ٢: ٣٥١، ح٤.
(٢) الكافي ٢: ٣٥٢، ح٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

بفضله يتعامل مع كل بحسب ما يصلح أمر آخرته، فيعطي هذا الغنى ويبتلي هذا بالفقر، حرصًا وشفقةً عليهما ليحافظا على إيمانهما.

رابعًا: أنّ أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما من يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل والمستحبات، كمن يصلي النوافل اليومية، ويصوم الأيام البيض من كل شهر، ويصوم أيضًا شهري رجب وشعبان، ويستمر على ذلك، فإنه يحظى بمحبة الله عز وجل، فإن أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعا الله استجاب له، وإن سأله أعطاه، أي أنه سيسمع ويبصر وينطق بنور الله ويبطش بقوة الله، كما حظي أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الدرجة بشهادة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1]. هكذا يكون حال المؤمن عند الله تعالى.

وفي رواية أخيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من استذل مؤمنًا واستحقره لقلة ذات يده ولفقره شهره الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق**»[2].

إنّ ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية ما زال موجودًا عند بعضنا مع الأسف، وهو مشهد يتكرر أمامنا في مناسبات كثيرة؛ إذ يقدر الناس أصحاب الأموال لأموالهم، ولا يُقدر المؤمن لإيمانه بسبب فقره، بل يتعدى الأمر هذه الحدود في بعض الأحيان حينما يهان المؤمن ويذل لفقره.

ويبيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية الكريمة عقوبة من يسيء إلى المؤمن ويذله ولا يوقره بسبب فقره، بأنّ الله سبحانه وتعالى يشهره يوم القيامة ويخزيه ويفضحه أمام الخلائق كلها وينتصر لهذا العبد المؤمن، فاحذروا أحبتي من أن تتعرضوا لشخص ما بالإهانة، لعله وليٌّ من أولياء الله، فقد أخفى الله سبحانه وتعالى أولياءه بين عباده، فكيف تتسنى لنا معرفتهم؟ ولهذا ينبغي لنا أن نكون حذرين في التعامل مع عباد الله.

إذن فالالتفات إلى مكانة المؤمن يجعل الإنسان يندفع لبناء العلاقة مع المؤمنين، وهذه المعرفة هي الوسيلة الأهم من الوسائل العلمية لبناء العلاقة والحفاظ على الحقوق الإيمانية.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٢، ح٩.

الوسيلة الرابعة: التذكير

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فقد يغفل الإنسان بسبب الشهوات والميول والنزوات والانشغالات، ولكن حينما يرجع ويتذكر ماذا يعني المؤمن وما هي حقوق الإيمان، وهو في خضم هذه الحياة المادية، حيث التجاذبات المختلفة، فهذا التذكير يجعل الإنسان يندفع لبناء العلاقة الإيمانية وأداء الحقوق بشكل صحيح، فتذكير الإنسان لنفسه إذا كان مقصرًا ليرجع ويعاتب نفسه ويصوّب مسيرته وموقفه في تأدية الحقوق، هو أمر مهم ويجب أن يحصل هذا الاستذكار، وبالطبع فإنّ هذا الاستذكار تساعد عليه السنخية بين المؤمنين، فالطيور على أشكالها تقع، وقرأنا عددًا من الروايات في هذا الأمر، وقد مر في بعض الروايات أنّ المؤمن يدخل إلى مسجد فيه مئات الناس فلا يرتاح بين كل هؤلاء إلاّ إلى المؤمن، إذ ينظر إلى الوجوه فيرتاح إلى واحد منهم فيذهب ويجلس معه، فهناك سنخية بين المؤمن والمؤمن وانجذاب روحي، ولذلك فهذه السنخية تساعد على الاستذكار بشكل مستمر، ولذلك نجد أن أهل البيت (سلام الله عليهم) قبل استعراض الحقوق بين الإخوان يذكّرون غالبًا في الروايات ـ كما مر ـ بأصل الأخوّة وأهميتها، لكي يوجدوا عنصر التذكير الذي يدفع الإنسان إلى بناء العلاقة الإيمانية، كما ورد في بحار الأنوار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**المؤمن أخو المؤمن هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه**»[2]، ثم يبدأ ببيان الحقوق، فإن الكلمات: (عينه، دليله، مرآته)، تذكرنا من هو المؤمن؛ لأنّ هذا التذكير يساعد على بناء العلاقة الرصينة.

الوسيلة الخامسة: المقارنة

لقد تكلمنا عنها في بحث الإنصاف، وقلنا لو وضعنا أنفسنا في مكان الطرف الآخر، فهل نقبل أن يهيننا أحد؟ طبعًا لا نقبل، إذن يجب علينا ألاّ نهين أحدًا من الناس. ونسأل أنفسنا أيضًا: هل نقبل أن يخذلنا أحد؟ طبعًا لا نقبل، إذن يجب علينا ألاّ نخذل الناس. وكذا لو سألنا أنفسنا: هل نقبل أن يتكبر علينا أحد ولا يسلّم علينا؟ طبعًا لا نقبل، إذن علينا أن نسلّم على الناس. وهل نقبل أن نسلّم على شخص فلا يردّ علينا السلام؟ طبعًا لا نقبل، إذن يجب علينا ردّ السلام. هل يقبل شخص وهو في محنة وأزمة ألاّ يقف معه

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.
(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢٣٧، ح٣٨.

أحد؟ فعلينا إذن مساعدة الناس.. وهكذا تكون المقارنة بين ما نريده لأنفسنا وما نريده للآخرين، فنضع أنفسنا في مكانهم ونقول: لو كنت أنا في هذا الظرف، فماذا أريد من الناس؟ وما الذي أطلبه وأتوقعه منهم؟ إذن لأفعله أنا لهم.

هذه المقارنة تجعل الإنسان وفيًا لحقوق الإخوان؛ لأنّ كل إنسان يريد أن يعامله الآخرون على أساس هذه الحقوق.

كانت هذه أهم الوسائل العلمية.

ثانيًا: الوسائل العملية

أما الوسائل العملية في بناء الأخوّة الإيمانية فهي:

الوسيلة الأولى: المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاتبة

وهي الخطوات الأربع التي يذكرها علماء الأخلاق لتهذيب الأخلاق وتزكية النفس، ونبينها في ما يلي:

أولاً: المشارطة

من أراد أن يستقيم فعليه أولاً استعمال أسلوب المشارطة، أي أن نشخص أين هي نقطة الضعف عندنا؛ فهل أنا عصبي أُستفز بسرعة؟ هل أنا حينما أتكلم مع الآخر أكسره؟ إذن هناك خلل في صفة «**إكرام المؤمن**» عندي. هل أنا لا ألتفت للتفاصيل ولست معتادًا على السلام؟ إذن عندي مشكلة في إلقاء التحية على المؤمن. وبعد تشخيص نقاط الضعف يجب علينا الاهتمام بها والتركيز عليها، فنقول: إذا رأينا مؤمنًا فعلينا أن نسلّم عليه، فنركز أولاً على المؤمنين، وأيّ واحد نراه منهم نسلّم عليه، أما إذا كانت طريقتنا سابقًا هي إلقاء التحية فقط، فعلينا اليوم أن نمسك بأيديهم ونصافحهم، وهكذا نفعل مع الحقوق الأخرى، فأي حق لدينا مشكلة فيه نركز عليه ونضع مشارطة؛ فإذا رأينا مؤمنًا ولم نصافحه وغفلنا عن ذلك، نشرط على أنفسنا أن نصلي على محمد وآل محمد مائة مرة، وبذلك نلزم أنفسنا بالمصافحة. وكذا إذا سيطر علينا الغضب (العصبية)، أو كسرنا مؤمنًا، فعلينا أن نصوم يومًا مستحبًا قربة إلى الله تعالى، وهذه تسمى مشارطة. وهكذا

نتصرف في سبيل القضاء على نقاط الضعف؛ إذ نشخص أولاً النقاط أو الحدود التي لسنا ملتزمين بها، ثم نلزم أنفسنا بشيء من المال نتصدق به إن نحن لم نفعل ما ينبغي علينا فعله.

فالخطوة الأولى إذن هي المشارطة، فنضع هذه الحقوق أمامنا ونشخص نقطة الضعف التي لا يخلو منها أي واحد منا، وأيّ حق من حقوق الأخوّة لا نستطيع أن ننفذه، ثم نلزم أنفسنا بأننا إذا لم نلتزم بها فعلينا كذا وكذا.

ثانيًا: المراقبة

وهي أن نبقى منتبهين لأنفسنا؛ هل انفعلنا؟ هل كسرنا مؤمنًا؟ هل خذلناه أو لم نلتفت إليه؟ وهكذا نراقب أنفسنا في كل حق من الحقوق.

ثالثًا: المحاسبة

وهي أن نجلس آخر الليل كالكاسب حين يراجع حساباته آخر الليل ليرى كم الربح والخسارة، فنقول لأنفسنا: يا فلان ماذا فعلت حين ذهبت للمكان الفلاني؟ وكيف تصرفت حين زارك أخوك؟ وهكذا نحاسب أنفسنا على كل قول أو فعل أتينا به.

رابعًا: المعاتبة

إذا كنا مقصرين في شيء فعلينا أن نعاتب أنفسنا ونفي بالالتزامات التي اشترطناها على أنفسنا، فنصوم إذا اشترطنا على أنفسنا الصيام، ونتصدق إذا اشترطنا الصدقة.. إلى آخره، وهكذا نلزم أنفسنا.

إذا التزمنا بهذه الوسائل العملية ـ المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاتبة ـ بخصوص حقوق الإخوان، فسوف تصبح لدينا ملكة فيها خلال فترة وجيزة، أي أنّ أداء هذه الحقوق سيكون بشكل طبيعي تلقائي بلا تكلف، فلا نرفع أصواتنا على مؤمن، ونبتسم بوجوه المؤمنين، ونصافحهم، ونناصرهم، وندعمهم بحل مشاكلهم جهد الإمكان، ونعود مريضهم، ونشيع ميتهم، إلى غير ذلك من الحقوق الثلاثين التي ذكرناها، هذا هو الأسلوب العملي لتقوية العلاقات الإيمانية.

الوسيلة الثانية: إلزام النفس برعاية هذه الحقوق

وهي تدخل ضمن المراقبة التي تكلمنا عنها، ولكن نفصّل القول فيها لأهميتها.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة في بحار الأنوار: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال**

أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: ألزم نفسك التودد، وصبّر على مؤونات الناس نفسك، وابذل لصديقك نفسك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك ومحبتك، ولعدوك عدلك وإنصافك واضنن بدينك وعرضك»(١).

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمدًا بقواعد السلوك العام وهي:

أولاً: التودد إلى الناس وإلزام النفس بذلك، لأنّ «المؤمن هشّ بشّ»(٢) كما ورد في الحديث الشريف. فمهما كان الأمر يجب أن تبقى الابتسامة على وجوهنا، ونرى اليوم أنّ الابتسامة تسمى دبلوماسية الابتسامة، ولا تتصوروها قضية عادية بسيطة، بل هي مهمة جدًا، فمن يقبل عليك ابتسم بوجهه، فتكون قد كسرت حواجز كبيرة بهذه الابتسامة والبشاشة والكلمات الرقيقة والأدب والاحترام للآخر فتخجله وتكسر أنفه، فإذا جاءك شخص غاضبًا فاعلم أنّ الابتسامة والكلام اللين كفيلان بتنفيس كل غضبه.

ثانيًا: الصبر على مؤونات الناس، وإلزام النفس بها، فطبائع الناس مختلفة، فبعضهم فيه ثقل، وبعضهم عصبي، وبعضهم لديه طموح زائد..إلى آخره، فينبغي أن يكون التعامل مع كل واحد منهم بحسب وضعه، فإرضاء الناس غاية لا تدرك، والذي يريد أن يتعامل مع الناس فإنّ في ذلك عبئًا نفسيًا كبيرًا وعليه أن يتحمل.

ثالثًا: بذل النفس والمال للصديق، أي بذل الجهد والمال لمساعدته والاهتمام بشأنه، وذلك بالسعي لقضاء حوائجه وحل مشاكله ومواساته.

رابعًا: بذل الهدية للمعارف والقرب منهم، وربما لا تعلمون كم للهدية من أثر بليغ في تطييب النفوس مهما كانت بسيطة، فمثلاً حين تُهدي صحنًا من الرطب لهؤلاء المعارف، فإن له أثرًا لطيفًا ووقعًا في النفوس، ولا تقولوا إنه قليل ونستحي منه، فليست القيمة هي الملحوظة هنا بل ذكرك لهم، وكذا إهداء قلم أو مسبحة له مداليل مهمة؛ فمعنى ذلك أني ذكرتك، فالهدية مهمة جدًا لما فيها من تكريم وتقريب للقلوب. وكذا ينبغي أن نكون قريبين من معارفنا لأنهم يريدون هذا الحضور المستمر.

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٩٧، ح٦.
(٢) الكافي ٢: ٢٢٩، ح١.

خامسًا: بذل البشر والمحبة لعموم الناس، فلا ينبغي أن يكون مقطبًا بوجوه الناس وكارهًا لهم وخشنًا في تعامله معهم، بل ينبغي أن يلاقيهم بالابتسامة والمحبة، حتى يقولوا إن هذا بشوش وودود وتعامله رقيق ولطيف.

سادسًا: بذل العدل والإنصاف للعدو، فحتى العدو لا ينبغي أن يكون هناك إسفاف وتشفٍّ في التعامل معه، بل يجب أن نتعامل معه بالعدل والإنصاف. ١٢٣٤١

سابعًا: الحرص على الدين والعرض والتمسك بهما كي لا يضيعا في زحمة هذه العلاقات الاجتماعية.

علينا أيها المؤمنون أن نحافظ على زوجاتنا وبناتنا وأخواتنا وأمهاتنا؛ لأنّ مجتمعنا صار منفتحًا بشكل زائد، فيجب أن نلاحظ حجابهن ووضعهن، فإنّ العيون الدنيئة موجودة، وليست النوايا كلها صحيحة، وهذه مسائل تحتاج إلى العفة والدقة في العلاقات البينية، يجب ألاّ نقول: إن هذا ابن عمي أو هذا من أقاربنا، فيدخل ويخرج، والرجال والنساء معًا والاختلاط قائم على قدم وساق، هذا شيء خاطئ، فابن العم والأقارب قدرهم محفوظ، ولكن مكانهم عند دخول الدار في غرفة الضيوف.

الفهرست

مقدمة.. ٥

تمهيد.. ٩

المحور الأول

تعريف الأخوّة الإيمانية ١٥

المحور الثاني

أقسام الأخوّة الإيمانية وأهميتها ٤١

المعرفة والمحبة ٤٤

فضل المصافحة.. ٥٣

فضل المعانقة.. ٥٨

العلاقة الروحية بين المؤمنين............................ ٦٠

المحور الثالث

حقوق الأخوّة الإيمانية.................................. ٧٧

أهمية حق المؤمن....................................... ٧٩

الحق الأول (غفران زلة المؤمن)......................... ٩٠

الحق الثاني (رحمة عبرة المؤمن) ٩٨

الحق الثالث (ستر العيوب) ١٠٥

الحق الرابع (إقالة عثرة المؤمن) ١٢٤

الحق الخامس (قبول عذر المؤمن) ١٣٧

الحق السادس (ردّ الغيبة عن المؤمن).................. ١٤٧

الأدلة على أن الغيبة من الكبائر ١٥١

موارد جواز الغيبة ١٧٢
الغيبة السياسية ١٧٥
الحق السابع (إدامة نصيحة المؤمن) ١٨١
الحق الثامن (حفظ خلة المؤمن) ١٩٩
الحق التاسع (رعاية ذمة المؤمن) ٢٢٥
الحق العاشر (عيادة المؤمن في مرضه) ٢٣١
الحق الحادي عشر (حضور جنازة الأخ المؤمن) ٢٤٠
الصلاة على المنافقين ٢٤٨
الحق الثاني عشر (إجابة دعوة المؤمن) ٢٥٣
الحق الثالث عشر (قبول هدية المؤمن) ٢٥٩
الحق الرابع عشر (مكافأة صلة المؤمن) ٢٧١
الحق الخامس عشر (شكر نعمة الأخ المؤمن) ٢٧٧
الحق السادس عشر (نصرة المؤمن) ٢٩٠
شروط النصر ٢٩٥
الحق السابع عشر (حفظ حليلة المؤمن) ٢٩٨
الحق الثامن عشر (قضاء حاجة المؤمن) ٣٠٠
آداب قضاء حاجة المؤمن ٣٢٨
الحق التاسع عشر (شفاعة المؤمن في حاجة المؤمن وقبول شفاعته) ٣٣٠
الحق العشرون (تسميت عطسة المؤمن) ٣٣١
الحق الحادي والعشرون (إرشاد ضالة المؤمن) ٣٣٤
الحق الثاني والعشرون (ردّ سلام المؤمن) ٣٣٦
آداب السلام في الإسلام ٣٣٧
الحق الثالث والعشرون (تطييب الكلام مع الأخ المؤمن) ٣٤٧
الحق الرابع والعشرون (برّ إنعام المؤمن) ٣٥٣
آثار المعروف ٣٧٩
جزاء المعروف ٣٨٨
عناوين الأجر في القرآن ٣٩٠

مصاديق الإحسان في القرآن الكريم ٣٩٥
الحق الخامس والعشرون (تصديق قَسَم المؤمن) ٤٠٨
موارد القَسَم في القرآن الكريم ٤٢٦
الحق السادس والعشرون (موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه) ٤٥٤
موجبات العداء والخصومة ٤٦٤
الحق السابع والعشرون (نصرة المؤمن ظالمًا ومظلومًا) ٤٨٠
الحق الثامن والعشرون (عدم تسليم الأخ المؤمن لعدوه) ٤٩٤
الحق التاسع والعشرون (عدم خذلان المؤمن) ٥١٢
الحق الثلاثون (حبُّ الخير للمؤمن وكُره الشرّ له) ٥١٦

المحور الرابع

جذور الأخوّة الإيمانية ٥٣٥

المحور الخامس

آثار الأخوّة الإيمانية ومعطياتها ٥٤١
الآثار الدنيوية والأخروية لعيادة المريض ٥٥٢
الآثار الدنيوية والأخروية لإفشاء السلام ٥٥٦
الآثار الأخروية لإكرام المؤمن ٥٥٨
الآثار الدنيوية والأخروية للصفح عن زلة المؤمن ٥٥٩
الآثار الدنيوية لرحمة الأخ المؤمن ٥٦٢
الآثار الدنيوية لتقديم النصيحة ٥٦٤
الآثار الدنيوية لحب المؤمن ٥٦٥
الآثار الدنيوية والأخروية للإنصاف ٥٦٦
آثار الدعاء للمؤمن ٥٦٨
الآثار الدنيوية والأخروية لنصرة المؤمن وقضاء حاجته ٥٦٩

المحور السادس

الوسائل والطرق لتحقيق الأخوّة الإيمانية ٥٧٧
أولًا: الوسائل العلمية ٥٧٩
ثانيًا: الوسائل العملية ٥٨٨